حميد العقابي



منشورات الجمل

رواية

حميد العقابي

القِلادة

رواية

منشورات الجمل

ولد حميد العقابي عام ١٩٥٦ في مدينة الكوت ـ العراق. أصدر سبع مجاميع شعرية منها: أقول احترس أيها الليلك، ١٩٨٦؛ واقف بين يدي؛ ١٩٨٧؛ تضاريس الداخل، ١٩٩٢ والفادن، ٢٠٠٥. صدرت له أربع روايات، ثلاث منها عن منشورات الجمل: أصغي إلى رمادي، ٢٠٠٢؛ الضلع، ٢٠٠٧ والفئران، ٢٠١٣. ومجموعة قصصية بعنوان :ثمة أشياء أخرى، ٢٠٠٤. يقيم بالدنمارك منذ عام ١٩٨٥.

حميد العقابي، القِلادة، رواية، الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٢٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127. 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

تنويه: شخصياتُ الرواية لم يسبق لها أن عاشت خارج هذا النص، والكاتب غير مسؤول عمّا سيدور في ذهن القارئ من تأويل، لكن في الوقت نفسه أن التشابه في الأسماء لم يكن مصادفةً وإنما لغرض فني محض.

* * *

القسم الأول

(١)

حينما دقَّ بندولُ الساعة الكبيرة دقّته التاسعة، هبّ علي واقفاً كمَنْ حسم أمراً بعد تردد. تناول معطفه المرميّ على الكرسي. انحنى على الصبيين النائمين وطبع قبلتين حذرتين على وجنتيهما. تطلع إلى زوجته وقبل أن يقول شيئاً بادرته:

«نعم.. أعرف».

قالت بلهجةٍ لا تخلو من الغضب، وأشاحتْ بوجهها نحو الجدار منشغلةً بارضاعِ طفلتها الصغيرة. كانت تشير إلى مرض حسين وارتفاع حرارته، ولأنها تعرفُ جيداً عنادَ زوجها وإصراره على الخروج عند الساعة التاسعة ليلاً بالضبط، ولن يمنعه من الخروج أي طارئ مهما كان، فقد كتمتْ غضبها كعادتها. تردد قليلاً. حاول أن يقول شيئا، خذله صوته فاكتفى بهمهمةٍ غامضة ثم تسلل ببطء نازلاً الدرج على أطراف أصابعه إلى الطابق الأسفل حيث يقيم عمه وزوجته.

لم يكن فظاً أو غليظ القلب بل على العكس، كان يذوب رقةً في أحضانها ولم يفتر عشقه إليها بالرغم من السنوات العشر التي مرت على زواجهما وانشغاله بأعمال كثيرة تأخذ كل وقته اليومي. وعلى الرغم من فارق السن بينهما ومسافة الوعي والاختلاف الشاسع بين مشاغلهما إلا أنه كان يعاملها بندّيّة، بل كان يشكو إليها أحيانا ضعفه وقلّة حيلته وكثرة أعدائه، ولا يتورع حتى عن الانفجار باكياً على صدرها حينما تضيق به الحال أو تحاصره نفسُه بأفكارها التي تبدو أحياناً غريبة أو كهلوسةِ مجنون. وبما يخص حياتهما المشتركة لا ينفرد بالقرار وحده بل

يصارحها بكل شيء، يصغي إلى مشورتها في كل ما يفعله، إلا هذا السر.. السرّ الذي ظل يؤرقها وإصراره على اخفائه، والتهرب من أسئلتها على الرغم مما كانت تبديه من شكوك ومخاوف، بل يصل الأمر بها إلى التوسل به والتذلل أمامه، أو إلى الغضب الذي يصل حد هجرانها له في السرير ليلة أو ليلتين، فقد واظبَ ومنذ اليوم الأول لزواجهما على مغادرة البيت عند الساعة التاسعة ليلا بالضبط ليعود بعد منتصف الليل، يندسّ في حضنها بهدوء مثل طفل مذنب، دافناً رأسه بين نهديها. تحاول أن تبعده عنها مُبديةً امتعاضاً من تركه إياها وحيدة وعدم اهتمامه بها، ثم سرعان ما يتحول هذا الامتعاض إلى غنج وتمنع أنثوي لم يصمد أمام لهفته وحرارة أنفاسه التي تسري في جسدها فتستسلم لحنانه وشوقه بشوق أكبر ليغيبا معاً في عالم ينسيها وحدتها ويطفئ غضبها. ولأنه لم يأتِ يوماً ثملاً، أو يحمل جسدُه رائحةَ أنثى، فقد استبعدت زهرة هذين الاحتمالين من تآويلها للسر، ومما زاد من طمأنينتها أنها علمتْ بأنّ أباها يعرف بسرّ خروج ابن أخيه في هذه الساعة، بل إنه على علم بالمهمة الليلية التي يقوم بها زوجها، وربما هما متواطئان على اخفاء السر، وقد لمّح لها بذلك أكثر من مرة، وحينما أبدت مخاوفها من أن تكون له صاحبة يزورها ليلاً، طمأنها أبوها بيقينٍ، حاولتْ كسره بعنادها فتجرأت بالقول:

«أنا أعرفه أكثر منك».

انتفض أبوها ولاحت على وجهه علامات غضب من جرأة ابنته، فاستدركت بحياء:

«أعرفه... إنه رجل شهواني... لا تشبعه عشرُ نساء».

انفجر محمد بضحكةٍ مجلجلة حتى انقلب على ظهره، ضارباً فخذه براحة كفّه، وجسده يهتز بحركةٍ لا تخلو من رعونة أو استهبال، حتى داهمه السعال فجلس وهو يمسح دموعه بكوفيته، وبصوت يتناوب فيه الفخر والحذر من معاودة السعال، قال:

«ابن أخي.. أعرفه.. أعرفه جيداً.. وكيف لا يكون كذلك.. وهو من سلالة هاشم.. ذلك الفحل الذي لم يدانِه ثورٌ في فحولته...»

ارتفع ضحكه ثانيةً، غير أنه بترَ ضحكته فجأةً بعد أن رأى الحزن والقلق في عيني ابنته. ضمّها إلى صدره بقوة وراح يمسد شعرها ويربت على ظهرها.

«اسمعي زهرة.. أنا على علم بكلّ ما يقوم به ابن عمك..»

توقف قليلاً ثم أباح لها بطرف من خيط السرّ ليزيد في طمأنتها:

«هو يعمل بتكليف مني».

مسحت زهرة دموعها بكمّها، وبتحايلٍ أنثوي حاولت أن تسحب قليلاً من الخيط:

«ولكنّ علياً لا يعرف شيئاً في التجارة».

تطلع إليها بحزم كأنه ندمَ على ما قاله، فاستدرك منهياً الحديث الذي ما كان له أن يفتحه أمام امرأة غير مؤهلة لكتمان سره، حتى لو كانت ابنته:

«ليس في التجارة..»

حاولت أن تستفيض بأسئلتها إلا أنه نهضَ من الكنبة وهو يفتعل التثاؤب. قبلَ أن يدخل غرفة نومه التفت إليها لينهي حديثاً لا يريد له أن يتكرر، فقال مشيراً إليها بسبابته:

«اطمئني.. لن يجرؤ زوجك على التفكير في الزواج من امرأة غيرك... طالما أنا على قيد الحياة».

وبزهوِ أبٍ أو عجرفة تاجرٍ، أضافَ:

«سأكسرُ رأسَه إنْ فكّر في ذلك».

سمعتْ زهرة اصطفاق الباب الخارجي فنهضت. أزاحت ستارة الشباك فرأت زوجها يزرر معطفه الشتوي القديم ويغطي رأسه ووجهه بكوفيته المرقطة فبدا كعسسٍ سري أو شخص تحاصره الشبهات فيختبئ عن أنظار الناس. راقبته وهو يمر تحت عمود الكهرباء. كان يحمل في يديه

رزمة صحف أو أوراق، لا تعرف من أين أتى بها وأين كانت مخبأةَ، فحينما غادرها كان خالي اليدين، ربما كانت مخبأة في السرداب أو أنه استلمها من أبيها عند مروره بالطابق السفلي، أليس هو مكلفاً من قبل أبيها كما أخبرها. هزت رأسها متأففة لاعنةً في سرها الرجال وما يدور في أذهانهم من أفكار تسرقهم من بيوتهم وعوائلهم، لكنها سرعان ما تداركت لائمةً نفسها على وقاحةِ الشك بأعز رجلين في حياتها. ألقتْ نظرة على رضيعتها التي غرقت في نومها ثم انتقلت إلى ولديها. وضعت كفها على جبهة حسين. كانت جبهته تلتهب بالحمى. أزاحت الغطاء عنه قليلا فتحرك فاتحاً عينيه فتأكدت من أن الأمر لا يستوجب القلق، فما هي إلا حمى عابرة بسبب انقلاب الطقس المفاجئ. هبطت إلى الطابق الأسفل حيث المطبخ لتغلي شيئاً من زهور البابونج. كان المطبخ يقع في الجانب الأيسر من البيت وتفصله عن غرفة أبيها صالة واسعة لاجتماع العائلة في وقت تناول الأكل أو المسامرة. وعلى الرغم من بعد المسافة إلاّ أن صوت أبيها وقهقهات زوجته كانت تصل إلى المطبخ بوضوح. حاولت أن تغلق أذنيها لكيلا تسمع شيئاً من حديثهما، فهي تعرف جيداً غزل أبيها المخجل، خاصة حينما يستبد به بُحرانُ الشهوة، فيتجرد من كبريائه واحتشامه، حتى لا يتورع عن التلفظ بأفحش الكلام السوقي. لم يكن كذلك مع أمها، فهي تذكر كيف كان يقف أمامها متهيباً مثل مريد في حضرة شيخه، يتحدث بصوت منخفض، حتى في أسعد أوقاته لم تسمعه مقهقهاً، أو يرتفع صوته بالغناء، بل لم تره مرة يغير ملابسه في وجودها، غير أن الأمر تغير كثيراً، بل انقلب رأساً على عقب منذ زواجه من حميرا، الصبية التي تصغره بخمسين عاما.

أشد ما يؤلمها في الانقلاب الذي طرأ على سلوك أبيها، هو أنه لم يعد يعير اهتماماً إلى الهيبة التي كانت تحيطه بهالةٍ منيرة من الكبرياء والزهو، هالة تلقي بضوئها على المكان تجعل حتى الجماد خاشعاً وتشلّ حركة الزمان رهبةً، تعشي أبصار أعدائه فلم يجرؤ أحد على رفع

صوته في حضرته ناهيك عن الاعتراض على رأي يبديه أو كلام ينطقه، إنْ كان في أمور تخص التجارة أو السلطة أو حتى الأمور التي لا يفقه فيها شيئاً، فكلامه في صوابهِ وخطئه حكمةٌ ورأيه سطوة يحتمي الكل في ظلها ولا أمان خارج دائرتها. ماذا فعلت به ابنة أبي سُلافة منذ مجيئها إلى هذا البيت؟.

في البدء كان الأمر يُسعد زهرة، إذ رأت أباها وقد برئ من الحزن الذي غشيه بسبب موت أمها، وقد عذرت انزواءه مع زوجته الجديدة التي يتقافز مع خطواتها العنفوان والفتنة، وانشغاله عن كل شيء خارج دائرة هيمانه بحميراه، سهراته حتى الفجر واستيقاظه المتأخر، مما دفعه إلى الاعتماد على رجال غرباء لإدارة شؤون تجارته ودفعه إهماله إلى عدم مراجعة حسابات وارداته، وبانَ الجشعُ في نفوس أقرب أصدقائه، فها هو والد زوجته وقد استلمَ دفتر الحسابات وشؤون إدارة المخازن بينما استلم ابن أخته كلّ ما يخص البستان والأراضي الزراعية، ولم يترك لابن أخيه وزوج ابنته سوى هذه المهمة الغامضة التي لا يأتي منها غير وجع الرأس وثقل الهموم، حتى حفيداه تضاءل اهتمامه بهما، فلم يعد يلاطفهما أو يصطحبهما معه إلى مجالسه ومسامراته، بل أصبح يضيق ذرعاً بألعابهما وأصواتهما بعد أن كان يرى فيهما سرّ وجوده في دنياه وحلم خلوده حينما يرحل. عذرت كذلك تصابيه وانشغاله بأمور لا تليق بمن هو بعمره ومكانته الاجتماعية بين الناس، وعزت ذلك إلى حرمانه من التمتع بجسد امرأة شابة لم يمسسها أحد قبله، خاصة وهو كما قال (من سلالة هاشم، ذلك الفحل الذي لم يدانه ثور في فحولته)، فقد كانت أمها عجوزاً، أكبرَ منه بأكثر من عشرين عاماً، وقد قضت أشهرها الأخيرة لا تنهض من الفراش بعد أن أصيبت بالشلل حتى وفاتها. الحق يقال، كان وفياً لها رؤوفاً بها، لم يبدِ يوماً ضجراً أو مللاً وهو يخدمها بتفانٍ لم يقدمه زوج لزوجته. ترك أعماله الكثيرة ولازمَ البيت، لم يخرج منه إلا نادراً، لكي يبقى معها، يحملها إلى سريرها،

يغيّر ملابسها دون أن تظهر على وجهه علامة نفور أو امتعاض، حتى في أشد لحظات تعبه لم يتخلَ عن تماسكه وهدوئه. كان الحزن يمطر من عينيه فيض دموع تنجاب غيومه لحظة إطلالته على أمها الراقدة فتشرق ابتسامته الطفولية لكي يخفف عنها الألم أو قلق الانتظار من القادم، وإنْ تنسَ فلن تنسى مشهد عودته من دفنها، وكيف انهار جسد أبيها الصخري الضخم عند باب غرفة نومهما ليتحول قطعة شمع ذائبة أمام لهيب الغياب. كيف تنسى...؟، وحتى وهو في غمرة متعته مع النساء الأخريات كان يردد دون أن يضع في حسبانه مشاعرهن أو غيرتهن، بأنه لم يهنأ في حياته مع امرأة بعد بهيجة، بل حينما كان يردد اسمها يغمض عينيه ساهماً، كأنه يستعيد طيفها ويطبق عليه بين أجفانه، وهذا ما جعل زهرة تكنّ له احتراماً وتقديساً، يتعدى الاعجاب الطبيعي الذي تكنّه البنت لأبيها، غير أنها في الوقت نفسه لا تستطيع أن تكتم ألمها وحزنها وهي ترى أباها المهيب وهو ينحدر إلى صبيانية لا تليق بهيبة شيبته ومهابة مكانته، فكانت تضع سبّابتيها في أذنيها حينما يقتحم صوته أسماعها، وهو يغازل حميرا بكلماتٍ لم تسمعها من قبل، أو أنها تراه أحياناً وهو يمدّ يده إلى فخذيها وصدرها أو يضربها على عجيزتها كلما مرت من أمامه، فتنتفض هي منتشيةً، مطلقةً صوتاً داعراً، هازة ردفيها وهو تخطو في الصالة على مرأىً من الآخرين.

لم تنتبه زهرة إلى الماء المغلي وقد أوشك الأبريق أن ينفجر، فسارعت إلى إزاحته عن النار لاعنةً الهواجس التي سرقتها وأنستها طفلها المتقلب على نار حمّاه. وضعت حفنةً من أعشاب وشيئاً من زهور البابونج. أطفأت النار وانتظرت قليلاً حتى يتهدر الشاي. ارتفع صراخ زوجة أبيها، وضحكه المجلجل مختلطاً بصوت رشاش الماء، فأدركت أنهما الآن في الحمّام يقفان تحت الدش. أغلقت عينيها خجلاً، كأنها تحاول إبعاد المشهد عن عينيها. مشهدٌ اقتحمَ مخيلتها، على الرغم من مكابدتها لإبعاده، مستعيذة بالله لطرد صورة الشبحين اللذين يستحمان

الآن عاريين أمام عينيها. شعرت بجرحٍ في عفتها، امتدت حرقته إلى جسدها وروحها. شعرتْ بالغثيان إلا أنها أطبقت على فمها بكفها كيلا تصدر صوتاً إنْ انفجر تقززها قيئاً. حملت إبريق الشاي وهرعت خارجة من المطبخ، ودون أن تنظر إلى جهة الحمّام ارتقت درجات السلم بنطّات مرتبكة.

فوجئت زهرة بطفلها مستيقظاً وعيناه تحدقان إلى السقف دون أن ترتعش أجفانهما. وضعت يدها على جبهته، كانت باردة كالثلج. كادت تنهار من الرعب، لولا أنها لمحت يده تتحرك تحت دشداشته. مدّت يدها إلى صدره، كان جسده الصغير غارقاً في العرق. استبشرت خيراً، فتعرقُ الجسد دلالة على بداية مغادرة الحمى. أسرعت بإحضار منشفة نظيفة لتمسح له عرقه. أوقفته بحذرٍ لتعريه. لفتَ نظرها تشبثه بقضيبه، فخطر في ذهنها أنه تبول أثناء نومه، وحينما سألته بصوت واطئ راسمة ابتسامة حنوّ على شفتيها، هزّ رأسه نافياً. خلعت عنه دشداشته فظل متمسكاً بقضيبه الصغير. حاولت أن تبعد يده فرفض بإصرار. سألته إن كان يريد الذهاب للتبول فأجابها بالنفي، مبتسماً بتحايلٍ بريء كأنه يخفي سراً يحتاج إغراءً كي يبوح به. تطلعت إليه فرحةً بصحوته ومغادرة الحمى، محاولة كتمان ضحكتها. سألته عن سرّ تمسكه بـ (بلبلهِ)، فأجابها بسرعةِ مَنْ كان يتوقع السؤال:

«أريد التأكد من وجوده».

قال وهو يتطلع في عينيها بنظراتٍ صارمة كنظرات فرخ نسرٍ أو بوم. حملته من سريره وأجلسته في حضنها وراحت تسقيه بالملعقة الصغيرة من شاي البابونج، منتبهة بين لحظة وأخرى إلى يده التي ظلت متمسكة بقضيبه. قرصته من خده وقالت مازحة:

«ولِمَ تريد التأكد من وجوده؟ هل تظن بأنه سيختفي أو يطير؟»

توقف عن شرب الشاي وتطلع إليها وقال، مقلداً صوت جده أو أبيه:

«رأيت حلماً».

توقفت يد زهرة التي تحمل الملعقة في منتصف الطريق إلى فمه، كأنها تصلبت. صمتتْ وهي تتطلع إلى وجه طفلها بذهول، سرعان ما تداركت الموقف فافتعلت ابتسامة لتشجعه على الكلام:

«خير إن شاء الله. ماذا رأيت؟»

حكّ حسين جبهته بأطراف أصابعه النحيلة، محاولا تقليد جده حينما يفكر أو يتهيأ لإصدار أمر، وأجاب بكبرياء لا تلائم عمره الغض:

«رأيت أني أرتدي قلادة في عنقي».

شعرت الأم بوخزة في قلبها، ليس خوفاً من حلم لا تعرف تأويله إن كان خيراً أم شراً، إلاّ أن الطريقة التي تحدث بها الطفل كانت توحي بشيء مهيب الدلالة، مما جعلها تنسى طفولته وتعامله بنديّة، متواضعة أمامه:

«ولماذا أنت خائف؟»

ثم أضافت لتطمئنه:

«القلادة زينة..»

قاطعها ليجعل لخوفه مبرراً:

«ولكن الصبيان لا يرتدون القلائد... البنات فقط يرتدينها».

ارتفعت ضحكة الأم وقد زال القلق عنها، فقالت له وهي تحركُ سبّابتها على أرنبة أنفه:

«ألهذا تمسك بلبلكَ لتتأكد من وجوده؟»

هز رأسه مؤكداً صحة كلامها، فراحت تداعب جسده محركةً قضيبه بأصابعها بحركات سريعة. ارتفعت كركراته، فانتشت فرحاً من شفاء ولدها. وضعته في حجرها وشطّ خيالها إلى البعيد، وقد جعلها حلم ولدها وحلم يقظتها أن تتخيل ولدها كمثل الذي رأى أحدَ عشر كوكباً والشمس والقمر يسجدون إليه.

بدأ النعاس يدنو من عيني الطفل، وتشابكت رموشه فبدا كملاك. حملته إلى سريره. جلست عند رأسه وهي تغني بزهو أمّ فخورة بذكاء طفلها:

«يـــا حـــبـــذا ريـــحُ الـــولَـــدْ ريـحُ الـخُـزامـى فـي الـبـلَـدْ
أهـــكـــذا كـــلّ ولـــدْ الـــولـــدْ؟ أم لـــم يـــلـــدْ مـــثـــلـــي أحَـــدْ؟»

حتى غطّ في نومٍ عميق. انسحبت على أطراف أصابعها واندست في فراشها. كانت تشعر بنشوة أمومة عميقة، النشوة التي جعلتها تتسامح مع نفسها فتعيد على ذهنها مشهد أبيها وزوجته وهما يقفان عاريين تحت الدش، وربما سمحتْ لها عفّتُها أن تتخيل المزيد، مقارنة وضع أبيها العجوز بوضع طفلها الذي يشغله قضيبه ولم يتجاوز السادسة من عمره بعد. ضحكت في سرها وهي تردد:

«أليسوا كلهم من سلالة هاشم... هاشم الذي لم يدانه ثور في فحولته؟»

استيقظت زهرة على صوت مشادّة بين أبيها وزوجته. تلمست فراش زوجها، كان فارغاً، فأدركت أنّ علياً لم يعد بعد. أضاءت المصباح القريب منها. كانت الساعة تشير إلى الثالثة صباحاً. نهضت مرعوبة، متوجسة من أمرٍ قد حدث، فزوجها لم يتأخر عادة إلى مثل هذا الوقت. تطلعت إلى وجهيْ ولديها، كانا يغطان في نومهما وقد فارقت الحمى حسيناً تماماً. اقتربت بحذر من الدرج مُكرهة لتصغي إلى ما يدور بين أبيها وزوجته، فهي لا تحب التدخل بينهما، بل إنها لا تحب أن تعرف ما يدور بينهما، غير أنها الآن مضطرة لذلك. كان صوت زوجة أبيها ملعلعاً وهي تندب حظها واليوم الأسود الذي أقتيدت فيه إلى هذا البيت، بينا كان أبوها يلعن النساء ومكرهن ونقص عقولهن. تشابك الصراخ فلم تعد تستطيع التقاط جملة واضحة، غير أنها أدركت بأن لزوجها سبباً في المشكلة التي تسببت في هذا العراك الدائر بين أبيها وزوجته. لم تعر لهذا الأمر اهتماماً كثيراً، فهي تعرف جيداً مدى العداء والحقد الذي تضمره حميرا إلى زوجها لسبب لا تعرفه يقيناً، على الرغم من أنها حاولت عدة مرات استدراج زوجها للكشف عن هذا السر أو تأكيد تخمينها، إلا أنه كان كتوماً، وصارماً في منعها من التمادي في

الألحاح، مهدداً إياها بعواقب وخيمةٍ إن علم أبوها بفضولها ومحاولتها لفتح تابوت السر الذي كلفهم دفنه الكثير من التنازل حفظاً لماء الوجه والسمعة التي تناهشتها أفواه الناس، حتى كادت تطيح بما بناه أبوها من أحلام وتسقط عرشَ سطوةٍ دفع الكثير من أجل الارتقاء إليه، غير أن زهرة عرفتُ في ما بعد أن هذه الضغينة التي تستعر في نفس زوجة أبيها بدأت منذ تلك الليلة التي أصبح ما دار فيها لغزاً ينطوي على سر خطير. في الحقيقة لم يكن السر سراً سوى بالنسبة لزهرة، فالمدينة كلها برجالها ونسائها عرفت بالشائعةِ التي انتشرت حول علاقة حميرا بجارهم رضوان العاطل، لكن زهرة الآن تتذكر جيداً تلك الليلة التي فرّت فيها زوجة أبيها من البيت قافزةً من نافذة المطبخ إلى الشارع، بعد أن رأت زوجها حينما صعد من السرداب وهو يحشو مسدسه بالطلقات ويزأر كهزبرٍ غاضب، وتتذكر الأيام التي تلت ذلك والوفود التي كانت تأتي إلى أبيها لمحاولة تهدئته، وصوت أبيها المتحشرج وهو يلعن النساء وغدرهن ويلعن أبا سُلافة واليوم الذي عرفه فيه وتزوج من ابنته، وكيف تنسى تلك اللحظة التي اظلمت الدنيا في عينيها، حينما رأت أباها يقف وسط حلقة الرجال وهو يحاول الانتحار لولا تدخل بعض الرجال من أصحابه ومنعه من اطلاق النار على رأسه، ثم الإتيان بجابر الزبّال، والذي أدلى بشهادة غريبة، فقد أقسم بأغلظ الإيمان بأنه يعرف رضوان العاطل منذ طفولته، ويعرف بأنه مخصيّ وقد شاهد ذلك بعينه، عندها انفجر الرجال جميعاً بالضحك ساخرين من أنفسهم، لاعنين من أوجد الشائعة ومن نشرها. كل هذا تتذكره زهرة، ولكن كحلمٍ نسيتْ بعض أجزائه فلم يكتمل المشهد، وإنْ استطاعت فطنتها أن ترمم ما مُحيَ من آثارٍ، وترسم دائرة الأمر بمحيط ومركز واضحين لكن الدائرة بقيت ناقصة التفاصيل، ولأنها لم تغادر بيتها منذ زواجها من علي ولم تختلط بالناس بعد وفاة أمها فقد ظلت الشائعة، أو ما سميت سراً بالفضيحة بعيدة عن أسماعها أو لنقل بعيداً عن يقينها، فهي تعرف أباها وغيرته الشديدة على نسائه وعلى

سمعته بين الناس ولا يمكن أن يرضى بوجود امرأة في بيته، وهو يعلم بأنها على علاقة مشبوهةٍ بأحد غيره. في المقابل أنها تعرف زوجها كذلك، وتعرف عفة لسانه ومقته الشديد لكل أشكال النميمة، فكيف تخلى عن ذلك حينما قال بما يشبه اليقين، طالباً بشكل غير مباشر من أبيها أن يهجر زوجته ويتزوج بأخرى، اذ قال بطريقة مواربة لكنها تضمر يقينا خجولاً «النساء كثيرات يا... عمي»، وهي التي لم تره يوماً يجرؤ على رفع عينيه عن الأرض حين يخاطب عمه.

صمت مخيف عمَ الطابق الأسفل بعد مشادة وصراخ أيقظ زهرة من نوم عميق، لا تعلم كيف استبد بها فأنساها مرض ابنها. صمت زاد من قلقها لتأخر زوجها. استيقظت الهواجس في نفسها فكسرت حذرها ودفعتها لنقض عهدها الذي قطعته على نفسها بعدم التلصص أو التنصت لما يدور في الطابق الأسفل، خاصة بعد عودة حميرا إلى البيت بوجه أكثر صرامة ولسان أشد وقاحة مما كانت عليه قبل الفضيحة، بل إن أباها نفسه لم يعد كما كان في السابق، فقد انحاز إلى جانب زوجته وأصبح أكثر ضعفاً أمامها وأكثر طواعية لرغباتها ونزواتها الحادة التي تصل أحياناً حداً من الغرابة غير معقول، وهذا ما دفع علياً أن يطلب من زوجته أن تتحاشى الاصطدام بزوجة عمّه، «كيلا نزيد على الشيخ هماً آخر»، فقررت وضع مسافة بينها وبين زوجة أبيها، مسافة تقيها مما قد تدبره حميرا من مؤامرات ضدها وضد زوجها، لكن الأمر الآن مختلف، فقد سمعت بوضوح اسم زوجها يتردد على لسان حميرا بأوصاف لم يجرؤ أحد أن يلصقها بعلي غير حميرا، فلابد إذن أن يكون لعلي سبب في ما جرى بين أبيها وزوجته.

هبطت السلالم بحذرٍ، مقنعة نفسها بحجّة الذهاب إلى المطبخ لغلي شاي البابونج لطفلها المريض، أو أن قلقها بسبب تأخر زوجها أطار النوم من عينيها، فلم تعِ ما تفعل، فدفعتها خطواتها إلى النزول إلى الطابق الأسفل، لعلها تجد أباها مستيقظاً، فيخبرها عن الجهة التي

ذهب إليها زوجها وعن سبب تأخره على غير عادته، فيطفئ قلقها، هذا أن ضبطها أبوها أو زوجته متلبسة بالتلصص في الظلام واستدعى الأمر تبريرا أو توضيحاً.

كان الضوء شحيحاً في باحة البيت بين المطبخ وغرفة أبيها، وهذا ما شجعها قليلاً على تهوين الأمر، ولو أنها تعرف جيداً أن وراء هذا الصمت نذيراً لا تستطيع تخمينه، فليس من المعقول أن يعم الصمت بهذه السرعة بعد الصراخ الذي ارتفع قبل دقائق، وليس من عادة حميرا، كما خبرتها، أن تستكين بسهولةٍ إلى الصمت بعد العراك، فلابد لها أن تقضي وقتاً مولولة حتى تجبر زوجها على الرضوخ والاعتذار حتى وإن كانت هي المذنبة. ارتدّتْ زهرة قليلاً بعد أن لمحت باب غرفة نوم أبيها مفتوحاً والضوء يتسرب منه إلى الباحة، ولكيلا تعطي انطباعاً لأحد بأنها تبغي التلصص، أسرعتْ نحو المطبخ. قبل أن تضيءَ المصباح، لمحت شبحاً يتحرك عند باب صالة استقبال الضيوف التي تقع إلى جانب الباب الخارجي تماماً. ركزت أنظارها في الظلام فشاهدت حميرا واقفة عند الباب وتسترق السمع. لم تعر للأمر اهتماماً، أو هكذا أرادت أن تعطي انطباعاً لنفسها فهي الآن في شغل عن أبيها ومشاكله، فولدها المريض أحوج إلى اهتمامها. جفلت حميرا حينما رأت زهرة تدخل إلى المطبخ وابتعدت عن الباب، ولكي تغطي على فعلها أسرعت نحو المطبخ وهي ترتعد من غضب مبالغ فيه. وكالعادة بدأت عراكها بالشكوى من سوء حظها وظلم أبيها الذي باعها إلى شيخ «قدماه تتدليان في قبره» واليوم الأسود الذي جاءت فيه إلى هذا البيت «المقبرة»، وحينما قابلتها زهرة بلامبالاة، زاد غيظها فانفلت لسانها بشتائمَ على زهرة وعلي «السكّير الذي يأتي في أنصاف الليالي ليسرق منها لحظات متعة لا تكتمل إلا بالشافعات وبألف قل هو الله أحد». زهرة التي تجمدت في وقفتها سمعت كلاماً لم يطرق سمعها من قبل حتى من أكثر نسوة الحي وقاحة، بل هي لم تتوقع أن يوجد في اللغة مثل هذا الكلام.

«ماذا تريدون مني؟... ماذا يريد زوجك السكّير؟»

صرخت حميرا وهي تتطلع في وجه زهرة بغضب، ناشرة ذراعيه في فضاء المطبخ، وحينما قابلتها زهرة بنظرات حيادية باردة، ارتفعت حدة صراخها موجهة كلامها هذه المرة إلى زهرة:

«وأنتِ؟... ماذا يهمك... طالما أن صراخ متعتك كل ليلة يشق الجدران؟... يا خيبتي بعجوز لا تنتصب حتى أصابع كفيه».

كانت حميرا تصرخ بهستيريا وهي تهز كتف زهرة بعنف. تملصت من قبضتها، وبهمس سألتها محاولة تهدئتها كيلا يصل كلامها إلى أسماع أبيها، فجاء صوتها خافتاً متكسراً تحت معول المفاجأة والذهول:

«ماذا حدث؟»

تطلعت حميرا إليها وهي تضع كفيها على خصرها، وبحركة امرأة لعوب قالت:

«ما كدت أصل إلى لذتي حتى ارتفع صوت زوجك معربداً وهو ينادي على محمد في هذي الساعة».

أطرقت زهرة عاضة شفتها السفلى محاولة أن تكظم غيظها، متجاهلة كلام حميرا وشتائمها، وهذا ما زاد من حنق حميرا فرمت كأس الماء البلاستيكي على الأرض، وغادرت المطبخ وهي تتمتم بكلام غير واضح. تذكرت زهرة أنها لم تضع إبريق الشاي على النار، ولأنها لم تأتِ أصلا من أجل ذلك، فقد ألغت الفكرة وغادرت المطبخ. قبل أن تصعد السلم إلى الطابق العلوي سمعت صوت زوجة أبيها وهي تناديها بصوت ساخر:

«اسألي فحلك السكّير عما حدث».

لا تدري زهرة إنْ كانت تبحث عن حجة لنفسها كي تفتح خرجَ السرَ، وتطلق هواجسها بحريّةٍ، دونما شعور بالحرج من نفسها، أو بإثم من الظن أو النميمة، فوجدتها في سلوك حميرا وما تلفظته من كلام وقح قبل قليل في المطبخ، أم ضغينة طبيعية كامنة في نفس البنت على زوجة الأب، أم أنها نزعة ثأرية وجدت لها العذر في مسؤوليتها الأخلاقية

للدفاع عن زوجها التي أساءت إليه حميرا كثيراً، وربما هذه الأسباب كلّها قد تجمعت في لحظة واحدة، فكسرت قيود الحيطة وأزاحت حدود الخوف من الذنب. مبررات كثيرة ارتسمت على صفحة ذهنها تجعلها تتجاوز المحظور، وفي كل الأحوال لا أحد سيسمع صوت هواجسها إلا الله الغفور الرحيم، وإذا كان الأمر يمس هيبة أبيها وكرامته، فإنّ لها في موقف زوجها عذراً تتذرع به، وأن أرادت الحق فأنها لو خُيّرت بين الوقوف إلى جانب أبيها أو زوجها، فأنها ستختار دون تردد الوقوف إلى جانب زوجها، فلقد رأت من أبيها ما يحق لها أن تسحب ثقتها المطلقة فيه، خاصة في أمر ما أشيع عن علاقة حميرا برضوان العاطل، فهي تعلم جيداً أن أباها واثق من بطلان حجة جابر الزبال، فكيف ارتضى لنفسه أن تتواطأ معه لتمثيل هذا الدور البائخ؟، وكيف طاوعته نفسه بهذه الكذبة المفضوحة مجازفاً بسمعته بين الناس، الناس الذين عرفوه بالصادق الأمين؟، وكيف انطلت عليه كذبة أصحابه المتملقين فصدّق شهادة رجل بائس مثل جابر الزبال؟، فهل نسي أنه نفسه مَن قام بتزويج رضوان العاطل من ابنة حارس الخان، وحينما هربت منه بعد شهر من زواجهما ذهب بنفسه لإرجاعها لكنها رفضت الرجوع إليه. تتذكر زهرة جيداً الكلام الذي دار ليلتها بين أبيها وحميرا حينما سألته في غمرة سكرتهما الليلية عن سبب رفض ابنة حارس الخان العودة إلى بيت رضوان، حينذاك أجاب أبوها وهو يضحك منتشياً:

«إنها ترفض العودة... لأنها لا تستطيع مجاراة شهوته وشدة شبقه و...».

توقفت زهرة عن اكمال الجملة. مسحت عينيها من العرق الذي فاض في جبينها، فشعرت بحرقة في عينيها وملوحة توغلت حتى حنجرتها. التمّتْ على جسدها كطفلٍ خائف وغطتْ رأسها باللحاف كأنها تهرب من هواجسها وذكرياتها وصورة أبيها التي احترقت حوافها واصفّر الوجه من أثر دخان الزيف، ذلك الوجه النوراني الذي كانت تشع منه هالات الهيبة والكبرياء.

* * *

(٢)

كان عليّ منذ صباه الساعد الأيمن لعمه، موضعَ أسراره ورفيق رحلاته، سفيره إلى الأصدقاء وقوته الدفاعية أو الضاربة أحياناً. في البدء كان اهتمامه به رداً للجميل الذي قدّمه إليه أبوه الذي كان لمحمد بمثابة الأب، خاصة بعد وفاة أبيهما المبكرة ولم يبلغ محمد حينذاك السادسة من عمره. أرسله إلى الكتاتيب فحفظ القرآن والحديث والشعر وحكايات الأولين، ولأسباب ظلّت لغزاً لكل من عرف محمداً، اتخذه شيخه من بين الصبيان الآخرين مريداً له، فعلى الرغم من أنه أبدى ذكاءً وسرعة حفظ وبديهة، إلا أنه لم يكن متفرداً بذكائه بل كان من بين الصبيان من يفوقه ذكاءً ومكانة اجتماعية وغنى، خاصة وأن الشيخ نوفل كان بخيلاً، مهووساً بجمع المال وذا حاسة شم قوية جداً لرائحة الولائم فلا يفوته عرس أو مأتم، لا حبا بالعريس أو الميت وإنما كانت رائحة الشواء والثريد تقود خطاه إلى المكان، فماذا وجد عند هذا اليتيم الذي لا يملك أخوه ما يدفعه للشيخ، ففضّله على أبناء السادة وأصحاب الجاه؟. محمد نفسه وعلى الرغم من حديثه الطويل عن تلك الفترة ومفاخرته بنبوغه المبكر، إلا أنه كان يمر سريعاً على علاقته بالشيخ نوفل، بل كان يتحاشى ذكر اسمه ويتغاضى عن الإجابة حينما كان يُسأل.

بعد أن أتقن محمد القراءة والكتابة وتفوق بإتقانه أصول الخطّ العربي، راح الشيخ ينفرد به كل يوم بعد انتهاء فترة الدرس ويُطلعه على المخطوطات النادرة التي كانت في حوزته، ولكيلا يثير شكوك الغلام وأخيه لو علم بما تحويه تلك المخطوطات، فقد أعتمد الشيخ حيلة لنقل

ما ورد فيها إلى عقل محمد دون أن يثير الشك في غايته، حيث طلب من مناف أن يسمح لمحمد في البقاء عنده ساعة ليقوم باستنساخ بعض المخطوطات، وبهذا يستطيع أن يكسب بعض المال ويتعلم حرفة تلائم شخصيته الانطوائية والكسل الذي جعله ينفر من كل مهنة فيها مجهود عضلي. وجدت الفكرة استجابة من مناف بل وجد فيها مبرراً للزهو والمباهاة بنبوغ أخيه الصغير الذي جعل الشيخ نوفل يولي له اهتماماً لم يُعرف عنه ويدفع من جيبه أموالاً وهو المعروف ببخله وعزلته. انكبّ محمد على استنساخ المخطوطات مرات عدة حتى حفظها عن ظهر قلب، وهذا ما دفع الشيخ بأن ينفرد به محذراً إياه من أن يتفوهٔ بأية كلمةٍ وردت في المخطوطات، ولم يكتف بأن أخذ عليه عهداً، بل حذّره بأن ما ورد في هذه المخطوطات قد يودي بحياتهما لو وصل الأمر إلى السلطة.

انشغل الناس بأمر المخطوطات، لا حباً بما حوته أو فضولاً للمعرفة، بل هوس في السرّ الذي لا يعرفه أحد لتعليق ما لا يجدون له تفسيراً عليه. تناقلت الألسن أخباراً لا يمكن للمرء أن يفصل فيها بين الحقيقة والخيال أو بين حكمة وسفاهة، خاصة وأن الشائعات قد تناقلتها أفواه الناس بمختلف أصنافهم ومشاربهم، وعلى الرغم من أن القلة منهم من كان يشغله ما حوته المخطوطات، غير أن أغلبهم كان يعزو النجاح الذي حققه محمد في حياته العملية يعود إلى السرّ الذي يكمن مفتاحه في المخطوطات، فقيل إنها كانت لصائغ ذهب صابئي كانت تجمعه بالشيخ نوفل علاقة غامضة، وشاهدهم على ذلك أنّ كلّ المصوغات التي كان يبيعها تحمل رموزاً وإشارات مبهمة، لكن جمالها ساحر، وبرغم غلاء مصوغاته كان الناس لا يشترون حليّهم إلا منه، وبسبب هذه الرموز كان الاعتقاد السائد، أنّ من تحوز على خاتم زواج مصاغ بيد الصابئي تضع رجليها بالماء البارد، فهذه الرموز المنقوشة على الخاتم تجلب الحب وتمنع الزوج من الهجر أو الخيانة أو الزواج من امرأة ثانية، وحينما كان

يُسأل الصابئيّ عن دلالة هذه الرموز، كان يحاول التملص من الإجابة أو يكتفي عند الألحاح بإجابة مقتضبة بأنها رموز بابلية أو مانوية، فيزيد غموضها غموضاً، لكن أكثر الناس ما كان يعنيه التفسير مادام أنها تجلب الحظ والمباهاة. يذكر كبارُ السنّ في المدينة بأن الصائغ مات بطريقة غامضة، حيث وجدوه مشنوقاً في دكانه، وكان آخر من دخل عليه هو الشيخ نوفل. حينما استدعته الشرطة للتحقيق معه قال بأن الصائغ قد استدعاه ليعلن إسلامه وينطق بالشهادتين أمامه، فسُجل سبب الموت انتحاراً، وطوي الملف وركن على الرف لحين ما التهمته النيران حينما احترقَ المخفر في حادثة لا تزال غامضة، ونال الشيخ نوفل إعجاب وثناء الناس بسبب كسبه رجل صابئي إلى الإسلام، وكذلك قيل إنها لحكيم مغمور باعها إلى الشيخ نوفل حينما لم يجد ما يسد به رمق أطفاله، أو غجري مر من هنا يوماً، وقد تركها عند الشيخ أمانة لحين عودته في السنوات القادمة لكنه لم يعد. يبقى الأمر مجرد تكهنات، حيث لا أحد يستطيع أن يؤكد أو ينفي أية شائعة، فعمر الشيخ نوفل وقد تجاوز العقد الثامن كما كان يقدّر البعض، يجعل ماضيه في مأمنٍ عن فضول الناس، فلا أحد يعرف شيئاً عن طفولته وشبابه، ولا حتى عن أصله ومتى جاء إلى هذه المدينة. أما ما تحويه هذه المخطوطات فهذا أمر تناقلته ألسنة الخاصة من الناس بحذر شديد وبهمس ينطوي على الكثير من السرية لئلا يشاع الأمر بين العامة، ليس لأن لا شأن لهم بالمعرفة فحسب، بل لأنهم كانوا يتوجسون خيفة من كل ما هو مكتوب على الورق، ظناً منهم بأنها مناشير سريّة تودي بحاملها وناقلها وقارئها إلى حبل المشنقة، ولكن بعض الناس وخاصة من المتعلمين أو الفضوليين راح ينبش في السرّ، فتسربت شائعات، وصلت أسماعهم بطريقة العنعنة التي تُنجي صاحبها من ثبات التهمة ويستطيع الإفلات من الأثم، إذ ناقل الكفر ليس بكافر كما يقال، فقد قال فلان عن فلان عن علّان والله أعلم، إنها كانت دروساً في الفلسفة والمنطق قام بترجمتها

عن السريانية قسّ مسيحي عاش بينهم متنكراً بزيّ رجل فقير يعمل نزّاحاً للمجاري الصحية والبالوعات، اختفى فجأة ولم يترك أثراً يدل على الوجهة التي رحل إليها، وحينما اقتحموا الخرابة التي كان يسكن فيها لم يعثروا على شيء سوى إنجيل مهترئ الأوراق ومبخرة صغيرة وصلبان خشبية، وهنا قد يعترض آخر متشككاً بصدقية أحد الناقلين وينسج له سلالة أخرى من سلالات العنعنة التي تصل به إلى معلومة ليس من سبيل إلى إثباتها أو نفيها، وهكذا ظلّ أمر المصدر الذي حصل منه الشيخ نوفل على المخطوطات وما تحويه غامضاً، لكن أغلبية الناس كانوا يعتقدون بأنها تحوي طرقاً لتعليم السحر الأسود وجلب الحظ، وقد أكد ذلك الشباب الذين كانوا يتحرقون غيرة وحسداً من حظ محمد مع النساء وعبقريته بإغواء الصبايا والمحصنات، وعزوا حظوة محمد عندهن ليس لخبرته في عالمهن أو لقوته الجسدية بل لما ورد في مخطوطات الشيخ نوفل.

قيل وقيل.. ولكن هذا الأمر لا يعنينا الآن كثيراً. ما يعنينا هو الكلمة السحرية التي كانت التعزيم الذي فتح الأبواب المغلقة أمام محمد والسرّ الذي بنى به أول آجرة في قلعة سطوته التي انخذل أمامها أعتى الشقاة وتراجع في تفسير أمرها أكثر الناس حكمة وعقلانية، مرتداً بتفكيره إلى خرافة أو أسطورة، فوجد في أمر المخطوطات تفسيراً يلوذ به على الرغم من عدم قناعته بذلك التفسير، فحينما نطق الشيخ نوفل جملته التحذيرية لمحمد بأن البوح بسر المخطوطات قد يودي بحياتهما لو وصل الأمر إلى السلطة، لم يرتعب محمد من التحذير بقدر ما شغلته الكلمة الأخيرة من الجملة.

(السلطة).. هذه المفردة الغامضة سمعها محمد لأول مرة عن لسان شيخه، مفردة كان لها وقع غريب وساحر عليه، سرقته من نفسه، من طفولته، من أهله، من أقرانه وحتى من طموحه في التعليم الذي كان مندفعاً إليه أول الأمر. (السلطة) كان يردد هذه المفردة كمحموم يهذي،

بل فعلاً أصابته بالحمى والرغبة في الانزواء عن العالم، وهذا ما لفت نظر أخيه الكبير فاستبدت به الهواجس والشكوك نادماً على سماحه لأخيه بأن يعمل عند الشيخ نوفل ناسخاً للمخطوطات التي لا يعرف عن أمرها شيئاً. منع أخاه من الذهاب إلى الشيخ متحججاً بأن ما كسبه من معرفة في الكتابة والقراءة وختمه للقرآن كافٍ لفتى مثله، وقد آن الأوان أن يتعلم حرفةً حقيقية يستطيع من خلالها أن يكسب قوت يومه، حتى محمد نفسه لم يعد راغباً في الاستمرار عند الشيخ نوفل، فقد كان يشعر بأنه وصل نهاية الطريق، الطريق الذي انتهى به إلى مفردة سترسم له حياته بل قدره... ، لكن أيّ وتر في نفس محمد ضربت عليه هذه المفردة؟ لم يك محمد صبياً عدوانياً كي تتمثل السلطة أمامه سطوة وجبروتاً يستطيع من خلالها فرض إرادته أو كسر أنوف منافسيه، فقد كان صبياً هادئاً لا يزاحم أحداً من أقرانه على لعبة أو تفوق يستميت غيره من الصبيان للحصول عليه كي يتباهى به أمام الكبار، حتى وهو الفتى ذو العضلات المفتولة التي كان يمكنه بها إيقاف ثور هائج من قرنيه ويطرحه أرضاً، كان يتحاشى الاصطدام مع الفتية الآخرين واضعاً السماح أمامه قبل أن يفكر في الثأر أو الانتقام، مردداً ما قالته له العرافة الغجرية يوماً، بأنه ما خلق لكي يمشي على الأرض بل في السماء، لذا فقد كان يقضي جلّ نهاره منزوياً يعزف على شبّابته أو متسللاً خلسة إلى ذلك البيت القصي ليجلس عند جداره منصتاً للغناء، وكذلك لم يكن طامعاً بمال، أو نفّاجاً يصطنع لنفسه انتصارات على الرغم من قوته البدنية التي يحسب لها الصبيان ألف حساب إذا فكروا بمنازلته، لذا فقد حاز على لقب الصادق الوديع، حازه بجدارة لا يشك بها أحد فقد كانت له عفة نفس تثير الإعجاب على الرغم من أنها كانت مثار سخرية من الصبيان الذين يتهمونه بالجبن حينما يرفض مشاركتهم في شن الغارات على بستان الليمون الذي يقع في الجهة الشرقية من المدينة أو تسلق نخلة أو سدرة لسرقة ثمار لها صاحب، ليس خوفاً بل عفة وزهد. نعم، كان

محمد زاهداً بالفطرة، يكتفي بالقليل وتعاف نفسه ما ليس له حق به، حتى أنه لم يطلب من أخيه الكبير شيئاً، فعلى الرغم من حبه لآلة العود وتحرقه لتعلم العزف عليها، إلا أنه أمتنع عن البوح بهذه الرغبة أمام أخيه لعلمه بأن شراءها يكلف أخاه ما لا يستطيع، واكتفى بأن صنعَ بنفسهِ شبّابةً من قصبتين لصقهما بالقير، وراح يعزف عليها حتى أتقن العزف بمهارة شهد له الجميع بها، فكان يقضي ساعات طويلة جالساً في ظل جدار بيتهم يعزف، ناسياً ما يدور حوله ومتجاهلاً تهكم الصبية وسخريتهم منه حتى أطلقوا عليه تسمية (محمد الراعي)، فلم يثر هذا اللقب حنقه بل ازدادَ تمسكاً به، لذلك فرح حينما اقترح عليه أحد تجار الأغنام في المدينة بأن يقوم برعي أغنامه فوافق على العمل قبل أن يسأل عن الأجرة التي سيدفعها إليه. مهنة تليق بعازف شبّابة ولكن ليس كل عازف شبابة راعياً، فبعد يومين من العمل غضب عليه تاجر الأغنام وطرده بسبب إهماله وانشغاله بالعزف عن الانتباه إلى الأغنام فسُرقت نعجتان. اكتفى التاجر بطرد محمد من العمل وعدم دفع له أجرة اليومين، فعاد إلى ظلّ جدار بيتهم يعزف بشبّابته لأغنام وهمية تسرح في فضاء من موسيقى تخرج من أعماق روح لائبة لا يحتويها الفضاء ويضيق بها العالم، ولم يكن حظه في المهن الأخرى التي زاولها بأفضل من حظّه في الرعي، فقد عمل عامل بناء وعامل نجار وصبياً في مقهى.... ، وفي كل مرة لا يتجاوز الأسبوع ويعود مطروداً من العمل، حتى يئس أخوه من صلاحيته للعمل فأرسله عند الشيخ نوفل عسى أن يصلح بقسوته وفلقته شيئاً من أمر محمد وعبثه وسرحانه الذي أصبح موضع تندرٍ وسخرية من قبل الصبيان فتوالت عليه الألقاب، محمد الراعي، محمد العاشق، محمد الساهي، محمد الغجري.... فصار سبباً لقلق أخيه الذي لا يريد أن يضيف إلى قهر اليتم قهراً آخر، على الرغم من شعوره بالمرارة من لامبالاة أخيه الصغير وانطوائه وعلامات الجنون التي بدأت تظهر بوضوح عليه.

انقطع محمد عن الذهاب إلى دار الشيخ نوفل بعد إصرار أخيه الذي وجدَ أن العلم قد أفسدَ عقلَ أخيه وزاده عزلة وانطواءً على نفسه، خاصة بعد أن بدأ يذوي ويشحب وجهه، والكوابيس التي راحت تلازمه، فكان يستيقظ كل ليلة صارخاً منادياً على أشباح ومتمتماً بكلام غريب، والأكثر مدعاة للخوف هو الوجوم الذي ارتسم على وجهه وحديثه مع نفسه بصوت عالٍ وترديده لكلام لا يفهمه مناف ولكنه يتوجس منه خيفة، فهو يشبه كلام السحرةَ أو كلام الغرباء الذين يتوافدون على المدينة ويلتقيهم أحياناً في المقهى حيث يتخذون ركناً يتهامسون وعلى وجوههم لثام الغموض والحذر، ثم سرعان ما يختفون فجأة دون أن يتركوا أثرا كفصّ ملحٍ وذاب... وقيل إن الشيخ نوفل هو الذي طرد محمداً من عمله ومن داره، بعد أن بدأ الشك يتسرب إلى نفسه، والخوف من قوة ساعديه اللتين تعلمتا الرمي واشتدتا، وقد يكون هو الهدف لأول رمية يجربها تلميذ الأمس، أو أن يدفعه فضوله للمعرفة إلى التنقيب عن مزيد من الأسرار، خاصة بعد أن رآه داخلَ الغرفة التي حذّره من دخولها وهو يبحث في الخزائن عن مزيد من المخطوطات.

عاد محمد إلى عزلته ولكنه لم يعد كما كان، فالسنوات الأربع التي قضاها مريداً للشيخ نوفل علّمته الكثير، والمخطوطات التي استنسخها وما احتوته حفرت في رأسه عيوناً لا تُرى ولكنها ترى الخبء تحت أديم المجهول، وترى القادمَ قبل وصوله والمكانَ في اللامكان. في دار الشيخ نوفل تلمس نضوجه العقلي والجسدي، لذا فأن الباب الذي دخل منه، شعرَ بضيقه وهو يخرج منه مطروداً.

عادَ إلى جدار دار أخيه يستظل بفيئه، ساهماً يراه العابرون ولكنه لم يكن كذلك بل كان مراقباً لما يدور حوله بعيني صقر أو غائراً في نفسه المضطربة بهواجسها وأحلامها، حتى عزفه على الشبابة لم يعد عزف هاوٍ أو راعٍ، بل كان يعزف بروحٍ منخورة تصفر فيها رياح تدخلُ ثقوب شبّابته هوجاء لتخرج نسائمَ مروّضةً وألحاناً تفطر قلبَ الحجر، لذلك

كان حينما يعزف يتوقف العابر القاصد فيشغله العزفُ عن وجهته ويسهو البائع عن بضاعته، وتنسى النوافذ عفتها فتفتح على مصراعيها لتدخل الموسيقى إلى مخادع العذارى والمحصنات، وهذا ما جعل الرجال يهرعون إلى مناف كي يمنع أخاه من التمادي في الفتنة، خاصة وأنه لم يعد ذلك الصبي الذي تسبق براءتُه شيطانَه، فقد أصبح غلاماً لا تؤتمن نظراته، ولا يمرّ بوحُه على مسامع الحريم مروراً عابراً. لم يجد مناف بُدا من إبعاد أخيه بعد أن امتنع عن الرضوخ لمشيئتهم، فتوسل بالحاج رضا مالكَ بستان الليمون والرمّان، الواقع في أقصى الجهة الشرقية للمدينة بأن يشغلّه عنده كحارس ليلي. رفضَ محمد أول الأمر إلا أنه عاد ووافق برغبة شديدة للعمل في البستان. هناك ستكون له عريشة أو كوخ يستطيع فيه أن يمارس طقوس عزلته، يستحضر أرواح شياطينه ويخطط لتنفيذ ما كان يدور في رأسه.

* * *

(٣)

«بهيجة»

بهيجة... المخطوطة الأهم والأكثر سريّةً من بين كل المخطوطات التي أعاد محمد استنساخها في بيت الشيخ نوفل، المخطوطة التي حفظها عن ظهر قلب من القراءة الأولى كأغنية أو قصيدة، فبينا كان هو مُكبّاً، مشغولاً باستنساخ المخطوطات في بيت الشيخ نوفل، كان خلف الستار ظلّ يتحركُ أو يتحرق. ظلّ امرأةٍ، رأى محمد اضطرابها وسمعَ حفيف جسدها وشمّ رائحة أنوثتها بشهوةٍ خجولة، تفتحتْ في أول عنفوانها. امرأة، تتهادى خلف الستار الفاصل ما بين غرفة المكتبة والإيوان، محدثةً رجعاً يلفت الأسماع إليه، ويزداد اضطراب حركتها كلما غاب الشيخ نوفل عن البيت، حتى يتحول حفيف جسدها إلى أصوات غابة تهز أشجارَها عاصفةٌ انطلقت بعد صمتٍ سجين.

سمع محمد صوت اصطفاق الباب فهبّ واقفاً. أزاحَ ستارة النافذة فرأى الشيخ نوفل خارجاً يدبّ على عصاه. تابعَ خطوه حتى غاب في الزقاق المؤدي إلى سوق المدينة. عادَ إلى جلسته لإكمال عمله، زافراً بعمق، فقد تخلص لبعض الوقت من عينيّ الرقيب اللتين تحاصرانه بالتأنيب والتهديد. حاول أن يستغل غياب الشيخ فيشنّ غارة على الخزائن المغلقة ليكشف ما بداخلها، إلا أنه ترددَ خائفاً من أن ينكشف أمره، فليس الشيخ نوفل بالغافل كي يترك هذه الخزائن في حوزته دون أن يجعل عليها رقيباً أو إشارة تدل على بصمات من يحاول فتحها. أخيراً قرر أن يطرد الفكرة من رأسه، ويحصر تفكيره بما تحت يديه من

مخطوطات. وضع قصبته في الدواة واستأنف الكتابة، لكنّ عينيه كانتا تزوغان كلما سمعَ حركةً خلف الستار. كان الظلّ هو الآخر قد تابع خروج الشيخ نوفل، فبدأ اضطرابه واضحاً من الحركات البندولية الخاطفة، وارتفاع صوت ارتطام الأشياء بعضها بالبعض الآخر، حتى نفد الصبر، فأزيح الستار بحركةٍ بطيئةٍ لتطلّ امرأة بقامةٍ ممشوقة ورداء فضفاض لا يكشف عن شيء سوى مهابة وكبرياء، وقد غطّت وجهها ببرقع شفاف، لم يظهر من خلاله سوى عينين تومضان وأهدابٍ تتحرك فتحدث اهتزازات خفيفة في الحرير.

«السلام عليكم».

انطلق صوتها بعد تلعثم أو حذرٍ مُسبق القرار، لكنه فاضحٌ لارتباكٍ، أو سيل شوقٍ مكظومٍ بلغ زُباه.

«وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

ردّ محمد بجرأة مفتعلةٍ، تفضحها حشرجة الصوت السجين في حنجرةٍ يابسة. انتبه إلى حالة الذهولِ التي تلبسته وتشنج عضلات فكيه، فأغضى بصره، مفتعلاً انكبابه على الورقة التي أمامه. وضعت صينية الأكل أمامه فانحسر كمّها عن مساحةٍ بضّة من رسغٍ تحيطه أساور من ذهبٍ، مساحةٍ تكفي لخيال الفتى أن ينفلت من عقال عفّته ويجمح في رسم الصورة الكاملة للجسد المتسيد في فضاء الرؤية.

«تفضلْ.. بالهنا والشفا».

قالت، وانسحبت بترددٍ على أطراف أصابعها. تجمدت كلمة الشكر على شفتي محمد، ثم انطلقت متلعثمة بعد فوات أوانها. عاد الظلّ إلى حركته خلف الستار ثم اختفى. وضع محمد قصبة الكتابة جانباً وأزاح الورق. كانت الصينية تحوي رغيفين من خبز الشعير ونصف دجاجة مسلوقة وصحنَ مرقٍ يضوع برائحة التوابل وأوراقِ الغار والصنوبر. رفع محمد كمّيه فظهر شعر ساعديه الغزيز، ماسكاً نصف الدجاجة بكلتا يديه، وبحركةٍ سريعة فصلَ الفخذ عن بقية الجسد، ثم انقضّ ناهشاً

بأسنانه الفخذَ كضبعٍ جائع. لم يدر في ذهنه أن الظلّ الذي اختفى كان يراقبه من خرق في الستار.

لم تنظر بهيجة بشفقةٍ أو تعالٍ إلى الفتى الجائع وطريقته المتوحشة في التهامه للأكل والتي تدلّ على جوعٍ مزمن، بل أحست بشيء آخر.. شيء جعل يديها تتحركان دونما وعيّ على بطنها، وترتفعان ببطء، تتلمسان نهديها اللذين انتصبت حلمتاهما، وشعرتْ ببلل يسيل على فخذيها.

كانت هذه المرة الأولى التي يرى فيها محمد زوجة شيخه. لقد سمع صوتها من قبل ورآها ظلاً يتحرك خلف الستار، وسمع عنها الشيء القليل من زوجة أخيه، غير أن بهيجة رأت محمداً من قبل، فقد كانت تتلصص عليه كلما غاب الشيخ نوفل أو تغافل، وتعرف كل شيء عنه وعن عائلته، وتتذكر يوم ولادته، ويوم وفاة أبيه، لكنه الآن لم يعد ذلك الصبي اليتيم الذي كان يثير شفقتها، بل هو غلام خط شارباه، وما رأته من شعر غزير على ساعديه يدل على غلمةٍ وفحولة مبكرة.

تلك الليلة لم ينم محمد وقد شغلت بهيجة تفكيره. لم يكن عاشقاً، بل لم يخطر له هذا الهاجس، لكنه وبحدس غريب أدرك أن بهيجة واحدة من المخطوطات التي يحرص الشيخ نوفل على إخفائها، أو ربما هي مخطوطة تحاول التمرد على سجنه لتثأر من سجّانها بإعلان فضيحة ما يخبئ بين السطور، أو ربما أنها مفتاح لكشف المستور، لذا فقد راح يربط خيوطاً متفرقة أو يحلّ عقدتها، لكي يجمع من خيوط الأسرار ما يمكن برمه حبلاً يستطيع أن يُنزل به دلوه إلى قرارة البئر.

المعلومات التي بحوزته عن بهيجة شحيحة جداً ومصادر معرفته قليلة، فقد كانت بهيجة سراً من أسرار الشيخ نوفل، لا تقل سرّية عن المخطوطات، فلا أحد يعرف عنها شيئاً سوى أنها شابة جميلة، قد يُسهب بعض النسوة في وصف عينيها أو لون شعرها، ولكن لا أحد يعرف عنها أكثر مما تقوله النسوة اللائي التقين بها في مناسبات قليلة كالأعراس أو المآتم. جاء بها الشيخ نوفل بعد عودته إلى المدينة من غيبة

طويلة، قيل إنه قضاها في صحبة الملائكة وأولياء الله الصالحين معتكفاً في بيت الله الحرام، لم يفارقه حتى تم رفع الحجاب عنه وظهرت كراماته، وقيل إنها كانت سياحة في الأرض امتدت سنوات ثلاثا، قضاها بين معابد خراسان وكهوف جبال كردستان، فقد شوهد في معبد مجوسي في أصفهان يتعبد للنار، وقيل إنه انتقل بعد ذلك إلى جبال وكهوف كردستان، وعقد آصرة أخوّة مع الجن، تعلم لغاتهم وأسرارهم، وتزوج جنيّة. لم تمر هذه المناسبة على المتربصين بالشيخ وكارهيه فاستغلوا مسألة غيابه في الغمز من سيرته، إذ لم يكتفوا بإشاعة ما تناقلته العامة من الناس، بل أشاعوا أخباراً غامضة، منها أن الشيخ كان في رحلة إلى بابل حيث التقى هناك ببشر ليسوا بشراً بل هم جنس غريب هبط من كوكب آخر، أو أنه جنس أسماك انتقل من البحر إلى اليابسة بهيئة بشرية، وقيل إنه انضمَ إلى المحافل السرية والجماعات التي كانت تسيطر بقواها الخارقة على مجريات الكون، وقد اتخذت هذه الجماعات من مدينة بابل مركزاً لتسيير أمور أهل الأرض والتحكم بقوى الطبيعة والأحداث، فأنشأت مراكز تحت الأرض ومراصد فلكية تتابع حركة النجوم، وتشرف عليها زواحفُ يراها الرائي بشراً، وأمور كثيرة لا يمكن الفصل فيها بين الخيال والواقع. أمور لا يصدقها العاقل، بل حتى من كان يطلق هذه الشائعات لا يعرف تفسيراً لما يقوله، وكان يكتفي بإطلاق تهمة لا يعرف الناس طبيعتها ودرجة إثمها، ولكنهم يدركون بفطرتهم المرتابة وخوفهم المزمن أنها خطرة فيتحاشون الخوض في مصدرها، فتزيد وضع الشيخ نوفل غموضاً، وهذا ما فعله الشيخ بالفعل، فقد اكتفى بالصمت أو الابتسامات التي لا تعطي انطباعاً معيناً، دون أن ينفي أو يؤكد الشائعات التي كان يسمعها، بل كان يستغلها لاضفاء هيبة على شخصيته ولزرع الخوف في نفس من يفكر أن يتعرض إليه بسوء، وبهذا جعل بينه وبين الناس مسافةً ليس من السهل طيها، فلا أحد يدفعه الفضول أو يفكر أن يحلّ ضيفاً عليه في داره التي حوت أسراره وألغازه،

وربما زكائب الذهب كما كان يشاع.

حاول محمد أن يتجنب التفكير في أمر الشيخ نوفل، أو على الأقل يؤجل البحث في هذا الأمر في الوقت الحاضر، ولكن كيف له أن يدخل عالم بهيجة دون أن يعرف ولو إشارات صغيرة عن أصلها ومن أين جاء بها الشيخ نوفل؟، وبدون ذلك لا يمكن أن يعرف طريقة للتعامل معها، لذلك قرر الإنصات لكل ما قيل عن رحلة الشيخ وعن سيرته وماضيه، متوقفاً عند كل خبر مهما بلغت تفاهته، متأملاً كل إشارةٍ أو رمز سواء كان منطوقاً أم مكتوباً، خاصة ومن خلال صحبته للشيخ نوفل التي استمرت لأكثر من ثلاث سنوات أدرك أن هذا الرجل الضالع في الغموض طلّسم يمشي على الأرض، لكل شيء في حسابه مقدار لا يزيده أو ينقصه، وليس للعفوية حيز في سلوكه وأقواله، فهو مرتاب بكل ما يسمع، شكّاك بكل شخص، ولكل حدث عنده دلالة ورمز، وما اسمه إلا دلالة على شخصيته الموغلة في الغموض والرمزية، بل المخاتلة والاحتيال.

(نوفل) يعني في اللغة العربية (ابن آوى). اكتشاف مذهل، اهتزّ له جسد محمد الذي بدأ يتلمس أولى خطواته الماضية في متاهة الدهليز.

«ابن آوى!!»

ردد الاسم مرتعشاً من خوفٍ أو من هول الاكتشاف.

«هل هذه محض مصادفةٍ؟»

سأل نفسه المتحرقة للمعرفة، وقد بدأ يدرك حقيقة أكبر من أن يتحملها وعيه الطري، فكثرة المصادفات تجعل أي غافلٍ أو ذي نية حسنة أن ينظر إلى الأمر بعين الشك والريبة.

شعر محمد بضيق في التنفس وبدوار شديد كأن رأسه الصغير ما عاد يحتمل المزيد من الأفكار الموغلة في التعمية والغموض، فقرر أن يبدأ من طرف خيط واحد ويترك الانشغال بالعقدة.

«بهيجة هي مفتاح الأبواب المغلقة».

ردد مع نفسه، وقد شعر بأن أنفاسه بدأت تهدأ شيئاً فشيئاً، واسترخت روحه المشدودة مثل قوس.

«رأيتُها ثلاث مرات.. مرةَ حينما جاءت بصحبة الشيخ نوفل.. وتم استقبالهما من قبل الناس بترحيب كبير».

تقول فاطمة زوجة مناف، وتصمت طويلاً كأنها تحاول أن تتذكر لحظات ذلك اليوم قبل عشرين عاماً. يتوسل بها محمد للاستفاضة فتحاول أن تستجمع ذاكرتها فلا تجد سوى كلام لا يروي غليل الملهوف، ولا ينفع محمداً بشيء، فيحاول أن يحثها على الانتقال للحديث عن المرة الثانية.

«في المرة الثانية.. حضرت وفاة والدتك».

هنا تقفز في ذاكرتها ذكرى يتوقف قلب محمد عند سماعها.

«بعد ولادتك بدقائق.. سلّمت أمكَ الروح لبارئها فانشغلنا بها.. وتركناك بيد القابلة.. وحينما انتهت مراسيم الدفن والعزاء.. أرسلني أبوك لاسترجاعك من القابلة ولكن...».

تصمت فاطمة فيصرخ بها محمد للاستمرار في الحديث، فتقول:

«استغربت القابلة حينما جئت إليها لاسترجاعك.. حيث أنها لم تكن قد أخذتك معها.. كما كنا نظن».

تنهمر دموع فاطمة على خديها كأنها تستعيد دقائق ما جرى قبل خمسة عشر عاماً. يتأفف محمد لطريقة زوجة أخيه في الحديث، فيسألها لكي يسمع ما يبحث عنه:

«وأين كنتُ إن لم أكن عند القابلة؟»

فتجيب فاطمة وعلى شفتيها ابتسامة خجل:

«كنتَ عند السيدة بهيجة».

«كيف حدث هذا؟»

«لا أدري».

ثم تستدرك بشك:

«أخبرتني القابلة أنها.. بعد أن تأكدت لنا وفاة الأم تُرك الوليد الشؤم.. وانشغل الأهل بأمر الجثة.. بقيت وحدي في الغرفة.. قطعت حبل سرة الوليد ونظفته من الدم.. أرقدته في سرير معد له.. وخرجت أبحث عن أحد.. لأستشيره بما ينبغي علي فعله.. لم أجد أحداً.. وحينما عدتُ إلى الغرفة.. لم أجد الوليد.. فظننتُ بأن إحدى بنات ناصر.. قد تولّت أمر أخيها».

«وكيف تم استرجاعي؟»

سأل محمد بشوق لمعرفة الجواب إلاّ أن فاطمة أجابت ببرود:

«هي أعادتك إلينا في اليوم السابع».

حاولت فاطمة أن تخفي ضحكة خجولة، إلاّ أن محمداً الذي كان متحفزاً لاصطياد أية دلالة أو مؤشر قد لا تعرف زوجة أخيه ما يشكل من قيمة عظيمة في تفكيره أو بما يريد الوصول إليه، ألحّ عليها لتفصح عن سبب ضحكها. صمتت مغمضة عينيها كيلا تتطلع في وجه محمد الذي ظهرت عليه علامات حزن أو غضب. حاولت أن تتهرب من الإجابة غير أن نظرات محمد المتشوقة للاستماع جعلتها تبوح:

«بعد أن رأيتها وهي تضمك إلى صدرها.. ورأيتك وأنت تبدو هادئاً في حضنها.. وتنام نوماً عميقاً يدل على شبعك ونظافة قماطك.. اقترحتُ عليها بدون أن أستشير أخاك أو أباك.. بأن تتبناك.. أو على الأقل تحتفظ بك عندها لفترة أطول.. ولها بذلك ثواب إطعام اليتيم».

أغضت بصرها خجلة مما كانت تتوقعه من ردة فعل محمد بعد هذا الاعتراف الذي حسبته مخجلاً، إلاّ أن محمداً لم يتوقف عند ذلك، بل لم يخطر في ذهنه الذي تتلاطم فيه الأفكار أن يلومها أو يؤنبها على محاولتها التخلص منه رضيعاً، فسأل:

«وماذا قالت؟»

رفعت فاطمة رأسها وتطلعت في عيني محمد بنظرات تحاول الهروب من خجلها. أجابت:

«رفضت».

«لماذا؟»

سأل محمد بشوق لمعرفة الجواب، فأجابت فاطمة بحياد وهي ترفع كتفيها:

«لم أسألها.. ولكنها قالت إنها لا تفكر في أن تكون أمّاً».

وقبل أن ينطق محمد بكلمة، قالت فاطمة كأنها تذكرت أمراً هاماً:

«لا.. لا.. لم تقل هكذا.. بل قالت إنها لا تريد أن تكون أما لهذا الطفل.. وكانت تشير إليك».

«وماذا بعد؟»

سأل محمد، فقالت فاطمة:

«لا شيء.. رمتك في حجري وهربت مسرعة».

ساد صمت طويل بين محمد وزوجة أخيه حتى نسيَ أن يسألها عن المرة الثالثة التي رأت فيها بهيجة.

تكرر اقتحام بهيجة لغرفة المكتبة حيث يعمل محمد بحجة أو بدونها، خاصة وأن الشيخ نوفل بدأ يطيل فترة غيابه عن البيت ساعات، يقضيها بين المسجد والمقهى، مما جعلهما يتحرران من الرقيب، فبعد الحادثة التي جرت في المقهى والتي جعلت سيرة محمد على كل لسان في المدينة، اطمئن الشيخ لصدقه وأمانته، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نبهته إلى ضرورة إزالة الشبهة عن نفسه وإغلاق كل ثغرة قد يتسرب الشك منها إلى نفوس الناس فتتناوله ألسنة العامة، حتى يتحول يقيناً بحكم اجترار الشائعة.

استدعى الشيخ نوفل ليلاً محمداً إلى بيته بعد أن وصلته أخبار المعركة التي خاضها ضد الغرباء في المقهى. انتحى به في صالة استقبال الضيوف وقام بحسن ضيافته بشكل غير مألوف. أثنى على شجاعته وأمانته بكلمات ليست وليدة لحظتها. بعد ذلك طلب منه أن يحدثه عما حدث. محمد الذي لفت انتباهه الاحتفاء المبالغ فيه، قال بكلمات مختصرة كأنه يريد التقليل من أهمية الحادثة.

«الغرباء الذين يأتون إلى المقهى».

«ما بهم؟»

سأل الشيخ باستغراب كأنه لا يعرف شيئاً عنهم، فأجاب محمد بعفوية صبي لم تلوثه الأسرار بعد.

«سمعتهم يتحدثون عنك بسوء».

تغيرت ملامح الشيخ نوفل وارتجفت شفتاه، إلا أنه حاول أن لا يبدي أمام محمد ما يثير شكّه، فأصطنع ضحكة، حاول أن يطيلها. توقف عن الضحك وأحاط كتف محمد بذراعه بحنو مفتعل وفي اليد الأخرى راح يمسد شعر رأسه، ثم سأله بطريقة توهم محمداً بأن ما سمعه ليس ذا أهمية:

«ماذا قالوا؟»

«قالوا أشياء لا أتذكرها. إنهم كانوا يشتمونك».

ارتفعت ضحكة الشيخ نوفل مرةَ أخرى ولكن بافتعال واضح، وهو يربّت على كتف محمد.

«كيف كانوا يشتمونني؟ ماذا قالوا؟»

حكّ محمد رأسه ثم راح يفرك جبهته بحركة تدعي رزانة الرجولة، محاولاً أن يتذكر. كانت عينا الشيخ نوفل تراقبانه باهتمام، ولكن دونما إلحاح راح يحثه على الكلام. كان محمد يردد حروفاً متفرقة لكلمة يحاول تجميعها تحت لسانه كأخرس يحاول النطق. كانت شفتا الشيخ نوفل ترتعشان وكفاه مشدودتين كأنهما تقبضان على الهواء. حاول محمد أن يقطع الصمت الثقيل الذي كهرب فضاء الصالة فقال بتردد:

«قالوا... قالوا عنك...»

قال بتردد، ثم أضاف:

«ما... سو..»

قال بصوت واطئ حروفاً متقطعة، وحينما استعاد ثقته بذاكرته نطّت من فمه الكلمة كخروج حبة ذرة من فم مختنق.

«ماسوني».

أصغى الشيخ نوفل باهتمام كأنه يسمع الكلمة لأول مرة، وفجأةً ارتفعت ضحكته حتى استلقى على ظهره، وقد غطى وجهه بعمامته. ارتبك محمد، إذ شعر بخجل لجهله، فقد كان يظن أن الكلمة شتيمة كبيرة، وقد توقع أن تثير غضب الشيخ نوفل، ولم يخطر في ذهنه قط أن تكون ردة فعله بهذا الشكل. اعتدل الشيخ بجلسته وهو يمسح عينيه من دموع الضحك. صبّ ماء في كأس وقدمها إلى محمد الذي رفض أن يشرب قبل شيخه. عبّ الشيخ الماء دفعة واحدة، ثم ملأها مرة ثانية وقدمها إلى محمد بطريقة توحي بالتعامل بندية رجل لرجل، وهذا ما جعل محمد يشعر بفخر واعتداد بالنفس. لم يكتفِ الشيخ بهذا الكرم والتعامل الاستعراضي المفتعل، بل سار معه إلى الباب مودعا.

لم يندم محمد على ما فعله برغم غموض الأسباب، فالمعركة التي خاضها في المقهى وحده ضد الغرباء أبرزته كفتى شجاع يُحسب له ألف حساب، حتى من قبل فتوّة وأشقياء المدينة، فصار مهاباً من الصبيان والكبار، لا أحد يمنعه من دخول المقهى بحجة أنه مازال صبيا لا ينبغي له أن يختلط بالرجال ويشاركهم الحديث أو لعب الدومينو والنرد بل صار نادل المقهى يهب راكضاً لتلبية طلبه، فالغرباء الذين كانوا يفدون إلى المدينة وعلى الرغم من أنهم ما كانوا يشكلون خطراً على أحد إلاّ أن تجمعاتهم وغموض أحاديثهم وفضولهم وإنصاتهم الغريب لكل حديث يدور في المقهى، واتخاذهم لخرائب الفقراء من العتالين وعمال البناء مساكنَ لهم، وأمور كثيرة تثير التوجس. كل هذا جعلهم موضع شبهة، فإنْ لم يُظهروا للناس شرورهم في الوقت الحاضر، فقد تظهر خطورتهم في المستقبل إذا لم يتصد أحد إليهم، وها هو فتى في الخامسة عشرة من عمره يلقنهم درساً لن ينسوه، وسيجعلهم يترددون ألف مرة في ما لو فكروا يوماً أن يلحقوا الضرر بأهل المدينة أو يدسوا أنوفهم في ما لا يعنيهم، بنشرهم للشائعات وأخبار لا يعلم أحد من أين يأتون بها.

ليس هذا فحسب بل إن أهم ما كسبه محمد من هذا المعركة هو ثقة الشيخ نوفل، فقد أصبح يعامله كندٍ أو كإبن، ففتح له بيته واستأمنه على أهله وأسراره، أو هكذا بدا الأمر لمحمد.

أزيح الستار بين غرفة المكتبة والإيوان وراح الشيخ يطيل تواجده في المسجد أو المقهى، بل صار يسمح لزوجته بالدخول عليهما أثناء انشغالهما في الاستنساخ وتصغي إلى أحاديثهما، وهذا ما أسعد محمداً كثيراً، حيث أصبح أكثر جرأة وهو يتطلع إلى بهيجة بغفلةٍ منها أو بحضورها، ولكن وعلى الرغم من هذه الثقة إلاّ أن لغياب الشيخ عن البيت معنى آخر، ففي غيابه تنطلق بهيجة من أسرها فتسفر عن وجهها أمام محمد وتخفف من حشمة ملابسها، بل بدأت تظهر إليه بكامل زينتها. شعر أشقر طويل مفروق عند منتصف الرأس، ينساب على الكتفين ناعماً، ويصل إلى أسفل خاصرتها، وقد رمت خصلاتٍ منه على صدرها الكاعب، الذي ظهرت منه مساحة واسعة تبدأ من أسفل عنق الزرافة وحتى أعلى نهديها بقليل، حيث يظهر شمال ما بين النهدين كمضيق بين جبلين شاهقين، يتسع بالانحناء العفوي أو المفتعل فيكشف عن نهدين بضين يتدليان كوكبين يضيئان عتمة الدهشة. عينان صفراوان تحيطهما أهدابٌ شُهُلٌ طوالٌ، تتحركِ فترتعش الروح لحركتها. شفتان مضمومتان ككرزة ناضجة بللها طلّ خفيف، حينما تنفرجان ترتسم على الوجنتين بوضوح غمازتان تشعان ببراءة وحنان يملأ المشهد بطهرانية ترجح كفتها في ميزان العفة والهوس.

أزيح الستار وسقط معه جدار الاحتراز، فقد صار محمد يسمع صوت بهيجة لا همساً بل زغردة أو سقسقة، وفي بعض الأحيان كان يأتيه غناؤها قادماً من غرفة نومها بصوت رقيق، كأنها تغني لتنيم طفلاً تتوهم وجوده. كان غناؤها يخترق جدار روحه فتحلق في حلم يستحيل تحقيقه. سقط جدار الاحتراز فصار محمد ثالث أفراد الأسرة. سمع ما يجري من حوار بين الشيخ وبهيجة حول أمور كانت ثير فضوله في البدء فينصت

إليها، غير أنه مع تكرارها لم تعد تشد أسماعه ولا تشغله عن عمله. لم تحمل بهيجة صينية الغداء إلى غرفة المكتبة كما كانت تفعل من قبل بل كانت تدعوه لكي يتناولا الغداء معا. تسأله عن أخباره وعن أهله، عن أسراره وعن مشاريعه في ما بعد الانتهاء من العمل عند الشيخ نوفل. كان محمد يجلس باستسلام ودون أن يأخذ المبادرة بكلام من أي نوع، بل لم يجرؤ على أن يطرح سؤالاً أو رأياً، وإنما كان يكتفي بالإجابة عن الأسئلة المتلاحقة التي تمطره بها بهيجة، وإن استطرد في إجابة أو حديث فلتحريض منها أو نسيان، وبينا كان يجيب على الأسئلة كانت بهيجة تنظر إليه بنظرات على الرغم من وضوح دلالتها إلاّ أن محمداً كان يتحاشى تأويلها، أو يصطنع الغفلة مع نفسه كي يقنعها بتأويل بعيد كل البعد عن سوء الظن، ويتهرب من الهواجس التي كانت تغزو ذهنه في الليل حينما يستعيد دقائق ما جرى خلال اللقاء، حتى حينما كان يرتسم مشهد فخذيها العاريتين اللتين رآهما مصادفةً وهي تحتضن الطست وتغسل الملابس والتصاق ثوبها المبلول على ردفيها المكتنزين، كان يغمض عينيه بخجلٍ، مستعيذاً بالله من شر نفسه ودناءة تفكيره فيطوي جسده كطفل في رحم أمه وينام.

طلبت بهيجة من محمد مرة بعد أن انتهيا من تناول غدائهما أن يأتي بشبّابته معه، وبتغنج أنوثة ظامئة، وبتوسل من يسعى لإلصاق شبهةٍ بنفسه، طلبتْ منه أن يخفي شبّابته تحت ردائه كيلا يراها الشيخ نوفل، وهذا ما فعله في اليوم التالي.

صمتٌ عميق حلّ بعد أن ترك الشيخ نوفل داره عند منتصف النهار متوجهاً إلى المسجد حيث يقضي أكثر من أربع ساعات هناك، فقد اعتاد منذ قراره كسر العزلة والاختلاط بالناس لغرض في نفسه، أن يبقى في المسجد منذ صلاة الظهر إلى ما بعد صلاة العصر، حينئذ يعود إلى الدار قبيل مغادرة محمد بقليل.

صمت في الدار وضجيج عال لا يُسمع، لكنه يتجلى نظراتٍ خارقةً

من أحداق تكاد تقفز من محاجرها، وحركات جسد يضيق بقلق نفسه اللائبة، فيظهر القلق واضحاً في عيون زائغة تبحث عن جهة سابعة لتركز أنظارها، وفي يدين تتطوحان في فضاء ضيق. والتواطؤ سيد الموقف، فكل منهما يعرف ما يدور في نفسه وفي نفس الآخر، لكنه لا يجازف في المبادرة، المبادرة التي ربما ستكون نتيجتها الصد أو خسران شيء يسعد روحيهما بحلم أو وهم يغني روحاً زاهدة، ولكنّ للصبر حدوداً كما يقال، ولابد من أن تأتيٍ لحظة يضيق فيها الصدر عما يحمله من شوق، ولم يعد المجال يتسع لنظرة تشتاق إلى فضاء أرحب، أو أن العين تتسع فتصبح أوسع من وجه المجال، وهكذا تنفجر بالونة الشوق قبل ملامسة دبوس الاستفزاز، أو تنفلق رمّانة ضاقت بحلاوتها... وهذا ما حدث.

دخلت بهيجة إلى غرفة المكتبة بينا كان محمد مكبّاً على عمله. دعته إلى تناول الغداء، وغادرت دون أن تنتظره، واثقة من متانة حبل قيادها، فنهض مفتعلاً التثاقل أو التريث. كانت الصالة مفروشة بالسجاد الفارسي على الرغم من فصل القيظ والحرارة الشديدة، وعلى ثلاث جهات من الصالة فرشت عند الجدران أفرشة تعلو قليلا عن أرضية الصالة، وقد وضعت طنافس ووسائد حريرية صُفّت بشكل يوحي بذوق عال. دخل محمد الصالة فوجد المائدة قد عُدت. استبد به القلق من أن بهيجة قد غيّرت رأيها في تناول الغداء معه، لكنه بفطنة ليست غريبة عليه أدرك بطلان سبب قلقه بعد أن شاهد صحنين وكأسين وملعقتين. جلس بتثاقل محاولاً إشغال نفسه بلاشيء كي يكسب ثواني من الوقت حتى يتأكد من رغبة بهيجة في مشاركته الغداء أم لا. راح يتطلع إلى اللوحات المعلقة على الجدران وكان أغلبها رسوماً فارسية لسلطان يتكئ على وسائد حريرية يحمل بيده كأساً، وتحيط به جوار يتمايلن شبه عاريات، يحملن عيداناً وصنوجاً. تذكر شبّابته. عاد مسرعاً إلى غرفة المكتبة. أخرج الشبّابة من حقيبة القماش وعاد إلى الصالة. بدأ وكأنه يحاول تجريبها ليكسب مزيداً من الوقت. أغمض عينيه وراح يعزف بصوت واطئ لكنه مسموع لمن هو داخل الدار. سمع وقع أقدام

قادمة نحوه كحفيف أجنحةٍ فافتعلَ هيماناً وتحليقاً خارج المكان. كان الحفيف يقترب حتى تحول خفق أجنحةٍ أثار هواء الغرفة. فتحَ محمد عينيه ببطء كأنه يستيقظ من نوم ثقيل، فكانت المفاجأة.

بهيجة، بهيئة ملاك يقف أمامه. لا، لا، ليس ملاكاً بالتأكيد، بل قل شيطان تجلّى بهيئة امرأةٍ، حورية خرجت من نهر في الجنة، أو لؤلؤة كسرت صدفتها، وغادرت إلى فضاء انعتاقها.

كانت بهيجة ترتدي ثوباً حريرياً، بنفسجي اللون، شفافاً، يكشف ما تحته بوضوح أشد من الوضوح ذاته، ويضيق عند خاصرة قدت بمهارة نحّات بارع، بخيطين رفيعين ارتسما على كتفين بضين فانكشف ساعدان متناسقان ينزلق عليهما الضوء أو ينعكس أشعة تخترق عين الرائي. الصدر الذي كان حتى الأمس بخيلاً لا يكرم ضيفاً غير فتات ومضة لا تغني عين الناظر، ها هو الآن يكشف عن مائدته الغنية بقِرىً لضيفٍ هبط من كوكب المحبة، نهدان شاهقان لا يحد سموهما غير وجهٍ ساطع بعينين كعيني بوم، وشفتين زهريتين، تهدلت سفلاهما قليلاً، بللهما عسل تقطّر من لسان عذبٍ وأنفاس رطبة، فكشفت عن بَرَدٍ منضود......

كانت بهيجة تتقدم نحو محمد، وتتلوى على إيقاع شبّابته بحركة أفعى تخرج من جراب حاويها. توقف عن العزف وتطلع إليها بذهول فاتحاً فاهه بما يسع فضاء الدهشة. جلست لصقه فتضوع عطر جسدها وشعرها الذي تطاير في فضاء الغرفة ولامس وجهه بنسمة عطر. طأطأ محمد رأسه خجلاً أو هروباً مما تدعوه إليه. خطرت في ذهنه تلك اللحظة حكاية يوسف وزليخا. لم تخطر عفواً أو سهواً، بل إن محمداً ما انفك يفكر في الحكاية منذ أول لقاء له ببهيجة، وقد كان يتلبسه الوهم في بعض الأحيان فيرى نفسه يوسفَ، فيعاند مصيره، مصرّاً على اجتياز الاختبار بنجاح يفوق نجاح يوسف، فمنذ الانبهار الكبير أو الانفجار الكبير الذي أحدثته كلمة (سلطة) في نفس محمد، استبدّ به وهم التفوق والمعجزات. صار هاجساً لا يفارق تفكيره، فاتخذ من قصص الأنبياء حكايات يرويها

لنفسه كل ليلة قبل أن ينام، ومع كل حكاية لنبي، كان يتخيل نفسه، فيضيف لحكايته من عنده ما يجعله متفوقاً على الأنبياء أنفسهم، بدءاً بآدم الذي استطاع بإرادته أن يلجم حواءه كابحاً دناءة نفسه على تفاحة لا تشبع فضوله لمعرفة أعمق مما هو متاح، مروراً بنوح الذي يقنع ربّه أن يكفّ عن الانتقام فيلجم رياحه وطوفانه، وختاماً بطه الذي تراجع عن قراره ناسخاً آية (خاتم الأنبياء) بآية أفضل منها، تبشر الخلق بمجيء نبيّ في آخر الزمان يحمل اسمه، وله من داود مزاميره ومن يوسف عفته.

أعاد محمد شبابته إلى فمه. أغمض عينيه هروباً من مشهد قد يحطم كل ما بناه في أحلامه وشرع يعزف، بينا كانت بهيجة تصغي إليه بإعجاب وولهٍ ويداها تمسد شعر رأسه وكتفيه.

فجأة اختنقت أنفاسه فلم يعد باستطاعته النفخ فتوقف عن العزف. سعل بشدة كأن حسرة أحكمت الخناق عليه فاختنق الهواء في صدره وتحشرجت روحه، التي كانت بهيجة تسمعها لائبة في جسد ضيق، لا يسعها الفضاء كله ولا تحتمل سجن الجسد. أخذت الشبّابة من كفيه المتشبثتين بها. استلتها ببطء. وضعتها أمامها على الأرض، ثم مسكت برأسه ساحبة إياه نحوها حتى استقر على صدرها.

وقت لا يمكن تحديده مرّ وهما غارقان بصمت لا يعرف أحدهما بمَ يفكر الآخر، حتى شعرت بهيجة بجدولي دمع ينسابان على صدرها وينحدران بين نهديها. رفعتْ بكلتا كفيها رأس محمد وتطلعت إليه فرأت عيني طفلٍ ساهمتين وقد احمرتا من بكاء صامت. مسحتهما بإبهاميها بحنان ورقّة. قربت شفتيها من وجه محمد طابعة قبلة بين حاجبيه. أعادت رأسه إلى صدرها وضمته بقوة حتى شعرت بأرنبة أنفه المرتعشة وقد لامست حلمة نهدها الأيسر فارتعش جسدها بلذة لم تعرفها من قبل، كأن سهماً من شعاع قد اخترق أضلاعها لينغرز في قلبها. حاولت هي الأخرى أن تستعيد كبرياءها وتمنع أنوثتها من الانزلاق إلى نفاد الصبر، فسألته برقة:

«ما الذي يبكيك؟»

حاول محمد أن يرفع رأسه عن صدرها إلا أنها تشبثت به غارزة أصابعها في شعره، وأعادته إلى حيث مستقره الأثير. طال صمت محمد ولم يجب على السؤال، فكررته بطريقة أخرى:

«هل تذكرتَ شيئاً مؤلماً؟»

هزّ محمد رأسه بالنفي فلامست صفحة وجهه بشعرها النابت حديثاً نهدي بهيجة، فشعرت بأن روحها تكاد تقفز من نشوة، فراحت تكرر السؤال منتشية بجوابه الإيحائي.

«أنا أعرفك جيداً، فلا تخفِ علي».

ارتفع صوت شهيق محمد، كأنه يلتقط الهواء بصعوبة، أو أنه يستعد للجواب، فكررت سؤالها بنفاد صبر، ولكن بصوت رقيق لا يخلو من غنج أو صرامة.

«قل لي يا حبيبي، ما الذي يبكيك؟»

أزاح محمد رأسه قليلاً بحذر، متملصاً، شيئاً فشيئاً من قبضتها المتشبثة به حتى تحرر تماماً. اعتدل بجلسته مبتعداً قليلا عنها. مسح عينيه بقبضته. عبّ كأساً من الماء. تطلع إليها بعينين تحاولان الجرأة فأغضت نظرها إلى الأرض. شعر بشيء من انتصار وزهو. تنحنح كي يزيل ما توقف في بلعومه بسبب البكاء. مد يده إلى تحت وجهها، رافعاً إياه. تطلع إليها بنظرات صارمة أشعرتها بنشوة كبيرة فاقت نشوة ملامسة وجهه لنهديها. سألها بصوت حاول أن يجعله أجش.

«لماذا رفضتِ أن تحتفظي بي عندك؟»

جفلت بهيجة، وارتدت إلى الخلف قليلاً فقد فاجأها سؤال محمد، ليس لأنها نسيت الحادثة، وإنما لم يخطر في ذهنها أن محمداً يعرف بالأمر، ولم تتوقع تأثيره بهذا الأسى على نفسه. صمتت قليلاً لكي تستعيد ثقتها بنفسها، وبكبرياء أجابت.

«لم أرغب في أن أكون لك أمّاً».

«لماذا؟»

سأل محمد بحزنٍ، وقد فوجئ بصراحتها، فكررت جوابها بإصرار وأشاحت بوجهها إلى الجدار:

«لم ولن أكون أمّا لك. هل تفهم؟»

«لا».

أجاب محمد دون تردد، وأعاد سؤاله بتأنيب، وبكبرياء جريحة تسعى لاسترداد كرامتها:

«لماذا؟»

صمتت بهيجة مطرقة، فتشجع محمد على النظر إليها بحياد بارد. تنهدتْ، زافرة بصوت مسوع، وقالت:

«إن كنت مصرّاً على سماع جوابي... فليس لدي سوى جواب لا يروي ظمأ لهفتك لمعرفة السبب».

حرك محمد رأسه بإشارة تدل على استعداده ورغبته في سماع الجواب. تطلعت إليه، ماسكة كتفه بقبضتها، حتى شعر بأنها تغرس أظافرها في لحمه.

«اسمعْ يا محمد... أنا أعرف ما لا تعرف».

«أخبريني».

قال محمد بتوسل، فتأففت بهيجة بما يوحي بأن الحديث بينهما لم يعد متكافئاً. قالت:

«أشفق عليك من معرفة ما أعرف».

«لماذا؟»

«لأنك لن تطيق صبراً».

قالت ثم ابتعدت عنه قليلاً هامّة بالنهوض، فتطلع إليها بنظرات خوف تتوسل بها ألّا تبتعد عنه، فعادت إلى جلستها تاركة مسافة بينهما.

ساد صمت بينهما وقد ارتفع آذان العصر ولم يبق من وقت حريتهما إلا القليل فقد أوشك وقت عودة الشيخ نوفل أن يحين. تطلعت بهيجة

إلى محمد، ولكيَ تخرجه من حالة الصمت والحزن، سألته:

«ألا ترغب في الأكل؟»

فرد محمد بصوت واطئ:

«لم تعد لي شهية للأكل».

«ولا أنا».

قالت ونهضت لتحمل صينية الأكل، وقبل مغادرتها الصالة قالت:

«سنشرب كأسين من عصير الرمان».

هز محمد رأسه موافقاً فأضافت بزهو وجسدها يتمايل:

«عملته بنفسي».

خرجت من الغرفة فعاد محمد إلى صمته. كان يشعر بزهو انتصارٍ على نفسه، مقارناً بينه وبين يوسف، فقد كان يعلم بيقين ما كانت تستدرجه إليه بهيجة، إلا أنه استطاع بإرادته وحدها أن يجتاز الاختبار بنجاح، متفوقاً على ما يشغل أقرانه من الفتيان، ليس احتراماً للعزيزِ الذي استأمنه على السرّ، بل لكي يثبت لنفسه بأنه ليس أقل شأناً من الأنبياء، وأنه قادر على الإمساك بحبل غليظ يستطيع به تسلق الجبل للوصول إلى القمة، حيث يستطيع هناك أن يقف متطلعاً إلى جموع الناس التي ستراه وهي رافعة رؤوسها إلى الأعلى، إلى السماء، إلى حيث يربض عرش السلطة التي ليس بمقدور أحد الوصول إليه إلا من له القدرة على تجاوز صغائر الأمور والسمو على ما يشغل الناس، عندها سيكسب اعتراف الجميع بأنه القادر الوحيد على الإمساك بزمام السلطة، فيتوجونه سلطاناً عليهم بإرادتهم وبلا منازع.

عادت بهيجة تحمل صينية عليها كوز وكأسين من الفخّار. كانت ترتدي ملابسها التي اعتادت أن ترتديها في الأيام الأولى التي رآها محمد فيها، غير أنها أسفرت عن وجهها، وقد بدت عليه ملامح الكبرياء والجد، ولا يخلو من مسحة حزن، فسّره محمد على أنه كبرياء أنثى جريحة، افتتنت به ولم تستطع أن تصل معه إلى غايتها التي كانت تظن

أنها ستصل إليها بإغرائه بجمال جسدها، أو بـ (هيت لك)، تعزيماً لفتح خزينة عذريته التي لم تحاول أنثى الوصول إليها بعدُ.

وضعت بهيجة الصينية أمام محمد وجلست قبالته. ابتسمت إليه فارتبك خجلاً، كأنها تعريه طفلاً وتضعه في الطست لكي تغسل جسده كما تفعل أم لطفلها. لامَ نفسه على ما خطر في ذهنه قبل قليل، فقد بعثت ابتسامتها شعاعاً نورانياً ملأ روحه بطهرانية تليق به. رفعت الكوز وصبت في الكاسين سائلاً أحمر قانياً. رفعت كأسها وأشارت إليه أن يرفع هو الآخر كأسه، مكررة على سمعه بأنه عصير رمان قامت هي نفسها بعمله خصيصاً لهذا اللقاء «الذي سيتكرر بالتأكيد»، قالت جملتها بثقة مطلقة بعثت الأمل في نفس محمد بأن بهيجته لا تقارن بزليخا التي تحول حبها وهيامها بيوسف إلى انتقام أودى به إلى غيابة السجن. رفع كأسه وتطلع في عينيها بجرأة رجل واثق من نفسه، بل بجرأة نبيّ يدرك بأن الله قد نزّهه عن الرجس والخطيئة. رشفَ قليلاً من عصير الرمان، لكنه توقف، فقد شعرَ بأن للعصير طعماً غريباً لا يشبه عصير الرمان، ليس بالطعم فحسب بل إن له لزوجةً كلزوجةِ الدم. تطلع في داخل كأسه فكان اللون أحمر غامقاً، لا يمكن من خلاله أن يؤكد أو ينفي شكّه. تطلع إلى بهيجة التي أدركت ما يدور في ذهنه فأكدت له:

«نعم، إنه عصير رمان».

وحينما وجدته غير مقتنع تماماً بما تقول، أضافت:

«أضفتُ إليه شيئاً من الزنجبيل».

هز رأسه وأظهر لها ابتسامة اعتذار على ما تبادر إلى ذهنه من شك، وأدلق ما تحتويه الكأس في جوفه دفعة واحدة.

بعد خروج محمد من بيت الشيخ نوفل لم يذهب كعادته إلى بيت أخيه مباشرة، فقد قادته خطاه إلى سوق المدينة دونما إرادة منه. توقف عند دكان بائع العصائر، وطلب منه كأساً من عصير الرمان. قبل أن يضع البائع فرْط الرمان في ماكنة العصر، أوقفه محمد بإشارة من يده، قائلاً:

«أريده مع الزنجبيل».

تطلع إليه البائع باستغراب، وقال باستنكار:

«ومن أين آتيك بالزنجبيل؟»

فسأل محمد بلهجة الغافل:

«ألا يوجد زنجبيل في المدينة؟»

حدق إليه البائع مستفّزاً من بطرهِ، وصرخ به غاضباً، ظناً منه بأن محمداً لا ينوي الشراء وإنما محض مشاكسة من مراهق أغرته فتوته:

«أغربْ... أغربْ عن وجهي».

وحينما لم يتزحزح محمد عن واجهة الدكان، حمل البائع صرة وحاول أن يرميها عليه، إلا أنه توقف بعد أن رأى محمداً وقد مدّ إليه ورقة نقدية، قائلاً:

«حسناً.. حسناً.. أعطني كأساً من عصير الرمان بدون زنجبيل».

أخذ البائع الورقة النقدية بغضب وصبّ لمحمد كأسَ عصير الرمان، وقدمه إليه. تناول العصير على رشفات صغيرة، وبين رشفة ورشفة يتمطق ويتلمظ بتحفز لمعرفة الفارق بين عصير البائع وعصير بهيجة، ومع إكماله ارتشاف الكأس تأكد بيقين أنّ ما شربه عند بهيجة لم يكن عصير رمان.

أعاد الكأس إلى البائع وغادر المكان بخطوات مرتبكة. قبل أن يبتعد سمع صوت البائع يناديه ساخراً:

«يا غلام.. يا غلام..»

التفت محمد، فخاطبه البائع ساخراً:

«أتعلم أين تجد عصير رمان مع الزنجبيل؟»

«أين؟»

سأل محمد ببراءة وشوق، فأجابه البائع:

«هنااااااااااااااااااك... في الجنة».

وارتفعت ضحكته، وقد شاركه بعض الواقفين أمام الدكان، غير أن محمداً لم تشغله سخرية البائع، إذ كان ذهنه مشغولا بأمر آخر.

تلك الليلة، لم يكن محمد محموماً ولكنه كان يهذي. يردد اسم بهيجة دون مشاعر محددة، فلا يدري إن كان يحبها أم يكرهها. جسده يضيق حتى كأنه يوشك يتشقق. غطّى رأسه باللحاف خوفاً من شبح يخرج إليه من عمق الظلمة. سمعَ صوت بهيجة يدعوه إليها، وكفها تتحرك على جسده ببطء من قدميه صاعدة إلى أطراف جسده لتستقر على عنقه. تغرز أظافرها. يصرخ لكن ما من جدوى، صوته يغيض. يبحث عن مدية يغرزها في صدرها، صدرها الكاعب الجميل، صدرها الأمومي الحنون، غير أنه لا يجد غير شبابته. يرفعها. يطعن الهواء طعنات متتالية، فتنبثق من صدرها نافورة حمراء من عصير الرمان. يشم رائحة زنجبيل أو دم. يغطي العصير وجهه ويسيل ببطء محسوس على فمه. يتذوقه. لم يكن عصير رمان، ليس عصير رمان، ليس عصير رمان، إنه دم.. دم.. بطعمه ورائحته، لا يوجد زنجبيل إلا في الجنة يقول بائع العصير. تقول العرافة الغجرية «لا تخف.. لا تخف يا ولدي، الدم يفسد تفسير الرؤيا»، لكنه الآن لا يحلم، بل هو الواقع.. نعم الواقع بكل دقائقه. بهيجة تضع الشبابة في فمه وتصرخ به «اعزف.. اعزف» يبتلع شبابته. يدها تمتد إلى الأسفل. تمسك قضيبه. تحركه بقبضتها وتصرخ بأصوات غريبة. بهيجة تتجسد بثوبها البنفسجي الشفاف. تقترب منه. تقتنصه. تتشبث برأسه. تضغطه بقوة على صدرها. تصرخ به:

«ارضعْ... ارضعْ ثدياً لم يرضعك من قبل».

يحاول أن يتملص منها إلا أنها تمسك فمه بقبضتها. تضغط بإصبعيها على جانبي فكيه. يسترخي وجهه. تفرك شفتيه وتحشر ثديها في فمه. يتذوق طعم حلمتها. يتدفق في فمه حليب له لزوجة الدم ورائحة الزنجبيل. تصرخ به وهي تهزه:

«هل عرفت لِمَ لم أكن أمّاً لك؟»

«.......................».

«لأني أريدك زوجاً لا ابناً».

«........................».

«محمد، أشتهيك.. أشتهيك...»

بهيجة تحتضن الطست. تغسل الملابس، وقد انحسر ثوبها عن فخذين ممتلئتين بالشهوة. يقترب منها محمد بحذر. يمرر يده على جسده بتردد. يده تتمرد على إرادته. تنزل إلى أسفل بطنه. يرتفع صراخ بهيجة. تتأوه. تنزلق يده إلى الأسفل. يمسك قضيبه المنتعظ. يتشبث به. يخضه بسرعة. يهتز جسده حركات سريعة. يردد اسم بهيجة. يحاول أن يكتم صوت لهاثه، عاضّاً شفتيه بحقد..... ثم تهدأ أنفاسه. يشعر بسائلٍ قد غطّى بطنه وفخذيه. يرتعب.

«دم.. دم..»

يردد مع نفسه وهو ينهض من الفراش. يتطلع إلى فخذيه فيرى سائلاً أبيضَ اللون، لم يره من قبل. يبتسم، ويغطي وجهه بكلتا كفيه.

* * *

(٤)

في البدء كان محمد متردداً في قبول العمل في البستان، بعد أن توسط له أخوه عند الحاج رضا للعمل حارساً، وقد ظن أن أخاه قد ضاق به وبوجوده في البيت، ويحاول أن يبعده، بينا كان مناف يسعى إلى إبعاد محمد عن المدينة وعن نفسه لعلّه يتخلص من الهوس الذي استبد به، ويستعيد شيئاً من عافيته وصفائه بالابتعاد والنسيان، فقد أدرك مناف أن أخاه عاشق، وقد نقلت إليه زوجته بأنها سمعت محمداً وهو يردد اسم بهيجة في نومه ويقظته، فرأى أن إبعاده قد ينسيه عشقه المستحيل، وخوفاً من أن تتناقل ألسنة الناس ما يهذي به فيصلُ الكلام إلى مسمع الشيخ نوفل الذي لا يمكن لأحد أن يخمّن ما سيفعله بغلامٍ انتهك حرمة أسراره بعد أن وثق به واستأمنه على مكتبته وبيته.

رضي محمد بالعمل على مضض استجابة لإصرار أخيه، غير أنه عاد وتحمس إليه، بعد أن تفحص في خياله المكان جيداً وفكّر بما سيتيح له من عزلة هادئة بين أشجار الليمون والرمّان، وفرصةٍ للتأمل والعزف على شبّابته دون أن يسمع أحداً ينهره أو يصمه بالكسل والضياع، وربما يستطيع أن يشتري بما يكسبه من عمله عوداً ليحقق حلمه الأول بالعزف على العود وتلحين الأغاني.

كوخ من الطين وجذوع الأشجار، يقع في زاوية قصية من البستان، على الجانب المحاذي للنهر. تقع البستان في الجهة الشرقية من المدينة ولا تبعد كثيراً عن الحي الصناعي، ولكن بينها وبينه مساحة أرض جرداء، تحول الجانب المحاذي منها للحي الصناعي إلى مكان لجمع

النفايات وأنقاض الحديد المهمل ومخلفات المكائن الزراعية من زيوت ووقود، وقد اتخذها تجار المخدرات لبيع بضاعتهم من الحشيش والترياق، واتخذها اللوطيون مكانا آمناً لممارسة الجنس مع الغلمان، وكذلك النساء المخطئات كن يرمين أطفالهن اللاشرعيين هناك. مساحة أو مفازة لا يستطيع أشجع الرجال اجتيازها، حتى لو كان يحمل سلاحاً، فقد أشيع بين سكان المدينة بأنها أرض تعود ملكيتها إلى الجن، لذا فلا يُسمح لأحد باجتيازها، ومن تسول له نفسه ويتهور فسيلقى مصيراً لا يتحمل مسؤوليته سواه. ساعد على ترسيخ هذه الفكرة الجثث التي كانوا يجدونها بين حين وآخر ملقاة على تلال النفايات تنهشها الكلاب السائبة، ولم يجر يوماً تحقيق حول هوية القاتل أو هوية القتيل، فأغلب القتلى كانوا من الغرباء، والأمر أصبح مُسلّماً به، ليس للناس فحسب، بل حتى لرجال العسس، لذلك أصبح اجتياز مفازة الغموض هذه ضرباً من الخيال، ومن يريد الوصول إلى البستان ليس أمامه من طريق إلاّ أن يجتاز النهر من الجهة الغربية للمدينة بواسطة الزوارق الصغيرة المخصصة لهذا الأمر، ثم يلتفّ، مشياً على الأقدام أو بواسطة عربات تجرها البغال أو الحمير، مع التفاف النهر جنوباً ليعبره مرة أخرى بشكل معاكس. رحلة، لا يستحق الوصول إلى البستان مشقتها، لذلك كانت البستان في مأمنٍ من اللصوص والعابثين.

كان محمد يعرف ذلك وقد حاول مرةً أن يجرّب العبور في مفازة الجن، لكن، وعلى الرغم من أنه لا يؤمن بما يشاع ويعتبره شائعة مغرضة، أو أنه خوف متكلس في النفوس وجد له تبريراً، فقد منعه الخوف في اللحظات الأخيرة ودفع ثمن خسارته للرهان غالياً أمام أقرانه الذين راحوا يسخرون منه.

شجّعه كلام الحاج رضا وإطراؤه لشجاعته وأمانته على القبول في العمل حارساً في البستان، وقد وعده بأن سيجزل له العطاء ويمنحه حرية أن يجني ويأكل ما يشاء من الفواكه.

حمل على ظهره عدّته التي تتكون من حصير، مخدة، لحاف قطني قديم، معطف صوفيّ مهترئ، جزمة من المطاط، وقدح فخاري عليه نقوش جميلة، أهدته إياه بهيجة في آخر يوم لعمله عند الشيخ نوفل، وقد أخبرته بأنها هي التي قامت بصنعه وتلوينه. أعدت إليه زوجة أخيه وجبةً من البيض المسلوق والخبز وباقة من النعناع وقليل من الشاي والسكر، بينا وعده الحاج رضا بأن يزوده بفانوس صغير وكوز وصحن وإبريق للشاي. لم ينس طبعا شبّابته فقد دسها في طيات فراشه، وكذلك مقبضاً حديدياً بخمسة فراغات مدورة لأدخال أصابع الكف، يستخدم في العراك العنيف.

لم يجرؤ مناف على النظر في عيني أخيه الصغير وهو يراه تاركاً البيت وفي عينيه دمعة انكسار، فغادر البيت قبل ساعة من وقت رحيل أخيه. ودّعت فاطمة محمداً عند الباب بحزنِ مَن يفارق مسافراً في رحيل طويل وبنظرات اعتذار ودمعة تشهد ببراءتها مما قد يتبادر إلى ذهن محمد من سوء ظن، بأنها كانت وراء إبعاده عن البيت، داعيةً له بالتوفيق. قبّل رأسها ويدها، ثم طبع قبلة على جبين ابن أخيه الرضيع الذي كانت تحمله أمه بيد وباليد الأخرى تحمل إناء فيه ماء.

«غار حرّاء»

ردد مع نفسه وهو يزيح ما تراكم على باب الكوخ من أغصان الأشجار وخيوط العنكبوت. دفعه بركلة خفيفة من قدمه فانخلع. وضع خطوة أولى داخل الكوخ وتراجع ممتعضاً، فقد كانت رائحة الرطوبة والعفونه لا تطاق. ندم على قبوله العمل، غير أنه تذكر بأن لا مكان له بعد اليوم خارج هذا الكوخ، ولا عمل له غير حراسة الأشجار، ولا رفيق له غير الطيور، ولا حبيبة له غير العزلة. شعر بغربة يتصاعد منسوبها في روحه ووحشة تخيم على المكان فتطغى على جماله. حاول أن يلقي اللومَ على أحد فوجد أنه ضحية الجميع، متهم بلا تهمة سوى يتمهِ الذي جعل منه عالة ليس على أخيه فحسب، بل على الحياة نفسها. خطرتْ

على ذهنه فكرة أن يضع حداً لحياته التي بدأت بشكل خاطئ، ولكنّ سرعان ما سطعتْ فكرة أخرى في أفقه، دعته لأن يتشبث بالحياة بأظافره وأسنانه.

(السلطة)... رنت الكلمة في أذنه مثل ناقوس، أو صرخة مستغيث يدعوه، فهل تخلّى عن طموحة عند أول اختبار له؟ فكيف يمكنه الوصول إلى القمة التي يسعى إليها دونما جهد؟ وكيف يبدأ الطريق إنْ لم يبدأ من التفكير؟ وها قد منحته الحياة فرصة للعزلة والتأمل. رأى نفسه واقفاً على قمة جبل، مشرفاً على الهاوية، وقبل أن يرمي بنفسه في الوادي، سمع صوتاً، رددت الجبالُ صداه:

«توقفْ يا محمد، توقفْ... أنت نبي».

نفض رأسه كأنه يطرد الأفكار السوداوية التي راودته، والأوهام المستحيلة التي جعلته يتخيل نفسه أكبر من حجمها بكثير. دخل الكوخ بخطوة واثقة وبدأ بإزالة الغبار وخيوط العنكبوت التي تدلت من السقف حتى الأرض. كنس أرض الكوخ من الريش وبقايا من عظام الفئران والطيور. فتح النافذة الصغيرة المطلة على النهر كي يدخل قليل من الهواء إلى هذا الكهف المهجور. جمع أغصاناً يابسه وأضرم فيها النار داخل الكوخ لكي يجفف سقفه وجدرانه من الرطوبة ويزيل رائحة العفونة. شعر بزهو وهو يرى نفسه قد بدأ. لا يهم ماذا تعني له البداية وإلى أين توصله، لكنه بدأ.

بعد أن أعد مكان سكنه واطمئن إلى أنه سيقضي ليله على قدر مقبول من الأمان، تفقد الأشياء الضرورية التي يحتاجها في «منفاه»، والتي تركها الحارس القديم. خزان صغير للماء، علبة صفيح صغيرة للنفط، قِدر صغير، مُدية متوسطة الحجم، وسلاح للدفاع عن نفسه، وهو عبارة عن عصا غليظة برأسها كتلة مدورة من القير ظهرت منها مسامير ونتوءات من الحصى. جلس على الأرض وأسند ظهره إلى جدار كهفه. تناول دونما شهية شيئاً من وجبة البيض التي اعدتها له زوجة أخيه، ثم نهض

ليبدأ عمله الفعلي. تجول في البستان محاولاً التعرف على المنافذ ومتانة السياج والسواقي وأسهل الطرق للتنقل في أرجاء البستان، كأنه يتهجأ أبجدية عمله كتلميذ طموح، أو كحارس متمرس بمهنته. كان يتوقف بين خطوة وأخرى متطلعاً أو مصغياً إلى الأشجار، هنا شجرة عجوز نخرها الزمن، وهنا شجرة صغيرة نخرتها العثة. شجرة نارنج لاتزال تحمل بعضاً من ثمارها العالية التي لم تصل إليها يد الجاني وأخرى تهدلت أغصانها من ثقل الثمر. توقف عند شجرة رمان اصفرّت أوراقها. شاهد بعض الرمانات العالية وقد غدت قشوراً صلبة كصدفات فارغة. لفت نظرة مشهد بلبل يمدّ رأسه في جوف رمانة يبحث فيها عن بقايا تركها له غزاة سابقون.

كان الوقت نهاية تشرين الأول، وقد اصفرّت أوراق شجر الرمان وتساقط منها الكثير طامراً السواقي الصغيرة فتحولت إلى حفر مموهة، يبنغي عليه الحذر حينما يضع قدميه عليها. غمامة حزنٍ تغطي عينيه، وقدماه تسيران دونما إرادة منه، تتعثران بالهواء أو الفراغ تتبعه عصاه التي اتخذها دليلاً له في الكشف عن الحفر أو لعبة عبثية يفرغ بها ضجره بضرب جذوع الأشجار أو جلد الهواء بحقد يكشف حنقه الذي لا يعرف إلى أية جهة ينبغي توجيهه. جلس القرفصاء عند جدار كوخه الطيني واضعاً رأسه بين ركبتيه، وقد مالت الشمس إلى الغروب، أشعتها الصفر تتخلل الأشجار المريضة أو المستكينة إلى قدرها الخريفي.

«ما حاجتهم إلى حارس، مادامت البستان محروسة بالموانع والخوف؟».

سؤال قفز إلى ذهن محمد، فوجد فيه فرصة للتفكير بما جرى له قبل ثلاثة أشهر، منذ تركه للعمل عند الشيخ نوفل.

«وهل أنا الذي تركتُ الجنة؟»

ردد مع نفسه بسخرية مرة، وراح يحاول أن يجمع خيوط «المؤامرة» التي أوصلته إلى منفاه بعيداً عن عينيَ حبيبته؟ من كان يقف وراء مؤامرة

نفيه إلى أرض لا يصلها أحد حيث النهر يحيطها من ثلاث جهات، ومفازة الجن تتكفل حراستها من الجهة الرابعة؟.

لم يستطع محمد النهوض كعادته صباحاً. كان جسده يرتعش من الحمى. دخلت عليه زوجة أخيه لتوقظه ففوجئت بارتفاع حرارته وسمعته يهذي بكلام غريب، غير أن محمداً طمأنها وحاول النهوض، فقد كان يعد دقائق الليل كعاشق ينتظر فجر لقائه بحبيبته. لم يستطع المشي إذ انهار جسده على الأرض بعد خطوتين. صرخت فاطمة، ولكن لم يكن أحد في البيت إذ غادر زوجها إلى عمله باكراً. سكبت قليلا من الماء على وجهه. جفل مرتعشاً، فاتحاً عينيه بصعوبة. ساعدته على النهوض والعودة إلى فراشه. جلست عند رأسه واضعة كمّادات باردة على جبينه الملتهب. كان محمد يهذي بعبارات غريبة لم تفقه منها فاطمة سوى كلمات متفرقة لم تستطع أن تجمعها في جملة واحدة:

«بهيجة، عصير، دم، زنجبيل...»

غير أنها عرفت أن محمداً عاشق، وبخبث أنثوي أدركت أن بهيجة قد ألقت حبائلها حول رقبة غلام في أول تفتح فحولته، وجدتْ فيه ما يسد حاجة جسدها، ويروي أرضها العطشى، وهي سجينة عجوز بعمر جدها، ترتعش أعضاؤه كلها.

حينما أخبرت فاطمة زوجها بما سمعته من هذيان محمد، ارتعد خوفاً وغضباً لسبب لا تعرفه، ولامَ نفسه بأنه كان وراء ما جرى لأخيه، فهو الذي أرسله لكي يتعلم القراءة والكتابة عند الشيخ نوفل، وهو الذي وافق على السماح لأخيه أن يعمل باستنساخ المخطوطات التي لا أحد يعرف شيئاً مما تحويه، وعليه الآن أن يصحح الخطأ ويخرج أخاه من هذه الورطة. أوصى زوجته بأن تكتم الأمر محذراً إياها من أن تتفوه بأية كلمة مما سمعته حتى لمحمد، لحين أن يجد طريقة هادئة لانتشال أخيه دون أن يلفت نظر أحدٍ إلى الأمر، خاصة الشيخ نوفل.

في اليوم الثالث نهض محمد باكراً. اغتسل. رش على جسده قليلاً من

عطر الغار. مَسْوَكَ أسنانه. وقف أمام المرآة وهو يعدّل هندامه ويسرّح شعره. دسّ شبّابته في حقيبته. كانت فاطمة تراقبه خلسة وعلى شفتيها ابتسامة حنونة. كادت تقول له «مسكتكَ أيها العاشق بالجرم المشهود»، إلا أنها تذكرت ما أوصاها به زوجها فكتمت سرّ ضحكتها. وقفت أمامه. أزاحت بإصبعها خصلة شعر تدلّت من ناصيته فغطت عينيه. عدّلت وضع ياقة قميصه، ثم سارت خلفه إلى الباب الخارجي وهي تمسح كتفيه كأنها تنفض غباراً عالقاً بهندامه، داعيةً الله في سرّها أن يشفيه من وهمه، ويُبعد عنه شرّ الجنيّة الشقراء، بينا كان محمد يحاول أن يسبق خطوه للوصول إلى دار الشيخ نوفل وقد درّب لسانه على جملٍ شعرية، ظل يكررها طوال الليل، ليقولها لبهيجة حينما ينفرد بها ظهراً عند غياب الشيخ نوفل، باثّاً إليها حرقة شوقه ونار لهفته.

استقبله الشيخ نوفل ببرود لم ينتبه إليه محمد، فهذا ما ألفه من شيخه لكنه انتبه إلى تغيير قد حدث، وهو أن الستار بين المكتبة والإيوان قد عاد مسدلاً كما كان من قبل. حاول أن يبدو طبيعياً كيلا يلفت انتباه الشيخ. اعتذر من الشيخ عن غيابه لليومين السابقين، ذاكراً السبب الذي منعه من المجيء، وقد كان يتحدث بصوت عال، كي يُسمع اعتذاره لبهيجة التي خمّن أنها تقف خلف الستار تنصت إليه باهتمام. هزّ الشيخ نوفل رأسه دونما اهتمام للأمر، ثم أشار إليه بأن يقوم باستنساخ صفحتين من إحدى المخطوطات، وقبل أن يترك غرفة المكتبة، خاطب محمداً دون أن ينظر إليه بصيغة أمر وبلهجة لا تخلو من فظاظة:

«حينما تنتهي من هاتين الصفحتين يكون عملك قد انتهى لهذا اليوم».

هزّ محمد رأسه، وعلى الرغم من أنه فهم القصد وما وراءه، إلاّ أن الشيخ تطلع إليه، مؤكداً:

«بعدها، يمكنك الذهاب إلى بيتكم».

قال وترك غرفة المكتبة. شعر محمد بأن أمراً قد حدث، جعل الشيخ نوفلَ يغيّر طريقة تعامله معه، ليس بالتأكيد غياب اليومين، فقد حدث من

قبل أن غاب أسبوعاً ولم يلق مثل هذه الجفوة أو يُخاطب بهذه الطريقة الفظّة. ارتفع منسوب سوء الظن في نفسه، إذ خطرت في ذهنه فكرة أن تكون بهيجة قد نقلت إليه ما حدث بينهما بشكل معكوس، وربما صدّق ما قالته. شعرَ بمهانةٍ وضعف، إذ لم يكن لديه ما يثبت به براءته وأمانته لـ «عزيزِه»، وإنْ كان قميصه لم يُقد من قُبلٍ ولا من دبر.

«ألم تفعلها زليخا من قبل؟»

شعرَ بجرحٍ في روحه، وإساءة لا يستحقها قد لحقت به. كان حنقه متركزاً على بهيجة أكثر من حنقه على الشيخ نوفل، إذ أنه تصور بأنها غدرت به، وقد دفعتها أنوثتها التي هزمت أمام رفضه لمبادلتها الحب إلى أن تقلب الحقيقة.

«إنّ كيدهنّ عظيم؟»

ردد مع نفسه، وقد تصاعد فيها الحقد ليحلّ محلّ الحب الذي شغله منذ أن واقعها في خياله. فكّر أن يردّ الاعتبار لكرامته التي استهين بها، فانكبّ على عمله متحدياً فضول عينيه في مراقبة الظل الذي يتحرك خلف الستار، أو فضول أذنيه في استراق السمع. انتهى من استنساخ الصفحتين بوقت قياسي. حمل حقيبته وغادر غرفة المكتبة دون أن يلتفت أو يتباطأ كما كان يفعل من قبل ليحظى بنظرة وداع من بهيجة، غير أنه صفق الباب الخارجي عند خروجه بقوة لكي يعطي إشارة لمغادرته.

تكرر الحال ليومين لاحقين، وفي اليوم الثالث، وبينا كان محمد منشغلاً باستساخ الصفحة الأخيرة من مخطوطة (طوقُ الثعبانْ في معرفة ما يدورُ في خُلدِ السلطانْ)، دخل الشيخ نوفل وعلى وجهه ابتسامة غريبة. جلس جنبه. ربّت على كتفه بصمت. شعرَ محمد بأن أمراً ما سيحدث، وقد صدق حدسه، فبعد أن أتمّ استنساخ المخطوطة ووضعها جانباً لكي يجف حبرها قبل أن يركنها على الرف، تشاغل بوضع عدته في الحقيبة ليتهيأ للمغادرة. تطلع إلى شيخه ليعرف منه الخطوة التالية أو يسمح له بالذهاب، إلاّ أن الشيخ نوفل أوقفه بحركة من يده. اقترب منه

حتى تلاصق كتفاهما. أحاط الشيخ كتف محمد بذراعه ساحباً إياه بمودة لا يعرف مدى صدقها. تطلع الشيخ بعيني محمد وبلهجة اعتذار خجولة خاطبه:

«لا أعرف كيف أشكرك على ما قمت به».

هزّ محمد رأسه، وقال بثقة:

«لم أفعل شيئاً أستحق عليه الشكر».

وبعد لحظات صمت، أضاف بلغةٍ توحي بنضجٍ سابق لأوانه:

«ما قمتُ به كان عملي الذي تقاضيتُ عليه أجراً».

تنحنح الشيخ كأنه يتهيأ لقول شيء خطير، ثم قال بما يوحي بالاعتذار:

«كان بودي أن نستمر معاً.. ولكن لم يعد في حوزتي مزيد من المخطوطات».

أدرك محمد ما يعنيه الشيخ. هزّ رأسه دلالة على الفهم، فأضاف الشيخ نوفل بلهجة مجاملة:

«ربما سأطلبك مرة أخرى إذا وصلني المزيد من المخطوطات».

ثم بطريقة غير جازمة قال:

«ولكن لا أعتقد في المستقبل القريب».

هزّ محمد رأسه تفهماً للأمر، وحاول النهوض. طلب منه الشيخ أن ينتظر قليلاً قبل المغادرة، وخرج من غرفة المكتبة. بقي محمد واقفاً، منصتاً لأي صوت قادم من خلف الستار، أو إشارة تزرع في روحه الأمل، أو تفسر له الأمر. عاد الشيخ نوفل وفي قبضته صرّة صغيرة من المال.

«هذه أجرة عملك».

تناولها محمد شاكراً. همّ بالمغادرة إلاّ أن الشيخ أوقفه مرةَ أخرى. وقف قبالته، ماسكاً ذراعيه بقبضتين مرتعشتين. تطلع في عينيه بنظرات نسر عجوز. أغضى محمد نظره إلى الأرض خجلاً، أو أنه بلا وعي منه

حاول التستر على ما يخفيه من ملامح سرّ قد يستطيع الشيخ نوفل بفراسته أو خبثه أن يكشفه، غير أن الشيخ نوفل مد يده إلى وجه محمد، وبراحة كفه رفع وجهه، وخاطبه:

«تذكرْ يا محمد العهد الذي قطعته أمامي».

جفل محمد من سهوه، وقد كان نسي فعلاً ما يشير إليه الشيخ. اطمئن الشيخ نوفل إلى براءة محمد أو بلادته، وندم على ما قاله، إلا أنه أعاد تذكيره.

«ما ورد في المخطوطات سيبقى سراً بيننا... أتعاهدني على كتم السر؟»

رفع محمد رأسه وخاطب الشيخ بثقة رجل يحفظ عهد الكلمة، وندّية:

«اطمئنْ يا شيخي... سيبقى الأمر سراً بيننا كما كان من قبل».

ولمزيدٍ من طمأنةٍ للشيخ، قال بصوتٍ مختنق:

«أقسم بروح أبي».

ارتسمت ابتسامة غامضة على وجه الشيخ نوفل، وقد أدرك من طريقة قسمه بأنه أمام فتى لم يكن يحسب لذكائه وفطنته حساباً دقيقاً، حيث اكتشف أن هذا التلميذ الذي بدا بليداً أول الأمر قد أدرك أهم صفة عند شيخه، الذي لا يثق بأحد حتى لو أقسم (بالله العظيم)، لذا عاد وذكّره بطريقة توحي بالخوف والتهديد:

«تذكر يا محمد ما قلته لك سابقاً، أن أمر المخطوطات لو وصل إلى السلطة فسندفع أنا وأنت الثمن غاليا... ولا تنسَ أن للجدران آذاناً وأن العسس السريين يملأون المدينة».

ثم أشار على رقبته بحركة من يده تدل على الذبح. لاحت على وجه محمد علامات رعب، فانتشى الشيخ نوفل كأنه اطمئن إلى وصول الرسالة، وتيقن من أن الفتى أدرك مغزاها وأدرك خطورة الأمر إذا فكر أن يبوح بالسر. أعتذر الشيخ منه للمغادرة متحججاً بأن وقت الدرس قد

حان، وعليه أن يذهب إلى صالة الاستقبال حيث الصبيان ينتظرون. رفع الشيخ نوفل كفه باتجاه وجه محمد ليقبلها كما اعتاد كل مرة عند التوديع، إلاّ أن محمداً أخذها هذه المرة مصافحاً وهو يقف منتصب القامة بزهوٍ، فارتسمت على وجه الشيخ ابتسامة خبث، قابلها محمد بنظرة واثقة من مرماها.

غادر الشيخ نوفل غرفة المكتبة إلى صالة الاستقبال عبر الإيوان، بينا غادر محمد من الباب المفضي إلى الممر المؤدي إلى الباب الخارجي.

قبل أن تلامس كف محمد أكرة الباب، أوقفتها كفّ ناعمة. جفل محمد كأن ماءً بارداً قد سكب عليه بغفلة منه. كانت بهيجة تقف في عتمة الممر إلى جانب الباب. تطلع محمد بدهشة إليها فرأى عينين صفراوين تومضان في العتمة كعينيْ قط ووجهاً منيراً كالبدر. همَ أن يقول شيئاً، إلاّ أن بهيجة وضعت كفها على فمه، ثم أطبقت على شفتيه بقبلة. كانت شفتاها ترتعشان على الرغم من سخونتهما. شعر محمد بدوارٍ، وكاد ينهار فتمسك بأكرة الباب. أحاطت بهيجة رقبته بذراعها وأصابع كفها بين خصلات شعره. ظلت مطبقةَ بقوة على شفتيه المزمومتين. مررت لسانها على شفتيه محاولة اقحامه داخل فم محمد. انفرجت شفتاه بذهول فتشبثت شفتا بهيجة بشفته العليا وراحت تمصها، محركة لسانها في جوف فمه، وأنفاسها الساخنة تصطدم بصفحة وجهه. تحركت يد محمد بحذر لتحيط خصرها، ومضت الأخرى إلى الأعلى قليلاً حتى استقرت تحت إبطها وقد لامست إبهامها جانباً من نهدها، وشيئاً فشيئاً تحركت شفتاه حتى أطبق على شفتها السفلى كرضيع جائع. ضمته بقوة إلى جسدهافشعرت بثقل صدره وهو يضغط نهديها. مصت لسانه ولعابه، ثم سحبت شفتها ببطء من بين شفتيه وابتعدت قليلاً. حاول أن يتشبث بها إلا أنها ابتعدت عنه. حاول أن يقول شيئاً فأشارت إليه بسبابة على فمها، فصمت. همست بأذنه:

«اسمعْ يا محمد، ليس أمامنا وقت طويل».

أصغى إليها بخوفٍ مما ستبوح به، فأضافت:

«سنلتقي قريباً».

«كيف؟ أقصد أين؟ متى؟»

سأل محمد، فردت بثقة:

«لا عليك.. أنا سأتدبر الأمر».

هز رأسه بحيرة، وغاض صوته في داخله. شعر بأن كفها تتلمس كفه. دست فيها قدحاً فخارياً، لم تفلته من كفها حتى تأكدت من أنه أصبح في كف محمد. قالت:

«هذا قدح صنعته لك بنفسي».

ثم وبلهجة غنج ورجاء، أضافت:

«احتفظ به حتى يحين لقاؤنا».

قرّب محمد شفتيه من شفتيها وأراد أن يضمها، إلا أنها ابتعدت عنه وأدارت أكرة الباب دافعة إياه بصدرها إلى الخارج. خطا خطوتين خارج الدار، فشعرَ بدوارٍ لا يعرف إن كان مصدره شعاع الشمس الذي واجهه بعد العتمة، أم من خمرة القبلة الأولى. فتح عينيه ببطء، ومشى بترنحٍ وصوت بهيجة يسري في دمه ويسمع صداه يتردد في أعماقه:

«أحبك».

مرر محمد أصابعه على شفتيه ليتحسس آثار القبلة. كانتا يابستين، وكانت أنفاسه ساخنة، جسده غطاه عرق غزير كأن رسيس حمى قد بدأ يزحف على جسده. رفع ذبالة الفانوس فانتشر الضوء في كهفه. مدّ يده وتناول كوز الماء. عبّ جرعة كبيرة تاركاً قليلاً من الماء ينساب على عنقه وصدره. شعر بارتجافة كارتجافة نشوة. أخرج من خرجه القدح الفخاري الذي أهدته إياه بهيجة. راح يتأمل على ضوء الفانوس الزخارف والخطوط المرسومة عليه. لم يرَ قلباً أو قلبين اخترقهما سهم الحب كما كان العشاق يرسمون، بل خطوط ودوائر وشمس ونجوم. حاول أن يفكّ أسرارها.

«لا بد أنها كانت تفكر في أمر ما وهي ترسم هذه الخطوط».

ردد مع نفسه ولكنه بدا عاجزاً عن معرفة تأويل هذه الرموز الغريبة والخطوط والتشكيلات الهندسية الدقيقة. كان على يقين بأنها لم تهده هذا القدح إلا لأنه يحمل رسالة سريّة عليه أن يحلّ شفرتها، خاصة وأنه خبر الشيخ نوفل، ذلك الشيخ الضالع في السريّة، وداره وما تخبئ تحت سقفها من أسرار، ولابد أن تكون بهيجة واحداً من هذه الأسرار أو هي صندوق يضم بداخله أسراراً، اقترب منه لكنه لم يصل، أو أنه كاد يصل لولا مؤامرة حيكت ضده لمنعه من الوصول.

«الجنيّة».

تقول فاطمة زوجة أخيه. هو لا يؤمن بهذه الخرافات ولكن لابد من وجود نار لهذا الدخان، ولابد أن ما تتناقله الناس من شائعات عن الشيخ نوفل له مصدر، وقد خبر ذلك بنفسه، فكم مرةٍ دخل عليه فوجده يدقق في ورقة رسمت عليها خطوط ودوائر كالتي يراها الآن على الكوز أو كالتي رآها في التمائم والتعاويذ، وكم مرةٍ سمعه يردد كلاماً غريباً كأنه هذيان محمومٍ أو كلام مجانين. حاول أن يتذكر الكلمة التي قالها أحد الغرباء عن الشيخ نوفل في المقهى، وحسبها شتيمة دفعته الغيرة بسببها إلى الاشتباك مع الغرباء دفاعاً عن شيخه. لم يجهد تفكيره بمحاولة تذكر الكلمة، فقد كان يشعر بمتعة حينما يقصر تفكيره بالحبيبة الراقدة الآن، تنظر إلى السقف وتمرر أصابعها على شفتيها لتتحسس إثار شفتيه.

«بهيجة... من أنتِ؟»

ردد مع نفسه، لكنه شعر بأنه عاجز عن الجواب، وأن رأسه الصغير لم يعد قادراً على استيعاب كل دقائق هذا الغموض، غير أنه حظي بما هو أهم من كل هذه الأسئلة، ألم تعترف له بحبها؟ ألم تعدهُ بأنها ستتدبر أمر لقائهما؟ شعر بشوق لرؤيتها. أطفأ الفانوس وظل يغور في أعماق الظلمة مردداً مع نفسه كلاماً رقيقاً كالشعر، يناجي به طيف حبيبته:

«بهيجة.. مخطوطة سرية.. حفظها العاشق عن ظهر قلب.. ليس مجازاً بل حقيقة.. تجسدتْ فعلاً.. لا كلاماً على ورق أصفر.. أو رموزاً مبهمة...»

«بهيجة.. بيانٌ.. وجدَ سحرُهُ الطريقَ إلى قلب العاشق...»

«بهيجة.. أنغام شبّابةِ عاشقٍ.. يعزفها لقطيع النورِ.. السارحِ في سهول الروحِ.. فتردد صداها الجبال والوهاد.. بل الكون كلّه.. الكون الذي لا يتسع إلا في قلوب العاشقين...»

«بهيجة.. الأقنوم الرابع...»

ردد محمد العبارة الأخيرة دون أن يعرف معناها.

استيقظ محمد فجراً على أصوات المزارعين القادمين من جهة النهر. خرج من كوخه فاستقبل صراخ عبيد الحنظل. كان غاضباً، يشتم المزارعين بكلمات نابية لم يسمعها من قبل. حينما اقترب من الكوخ، تطلع إلى محمد بعين واحدة، وسأله بلهجة متعالية:

«أنت الحارس الجديد؟»

«نعم».

أجاب محمد وهو يفرك عينيه. اقترب عبيد الحنظل منه. مسكه من كتفه بكف عريضة كرفشٍ، وهزه بقوة حتى كاد جسد محمد يتهاوى. خاطبه بطريقة أمرٍ وقحة:

«اسمعْ يا غلام، الحارس لا ينام حتى ارتفاع الشمس».

ثم أضاف بلهجة أقل خشونة:

«أعذرك هذه المرة لأنك جديد، ولكن من الليلة القادمة عليك أن تبقى ساهراً وتفتح عينك جيداً لحراسة البستان، وإن لم تفعل فسأملص لك أذنك».

قال ذلك وقد امتدت يده شادةً أذن محمد. انتفض محمد ضارباً ذراع عبيد فتطوحت في الهواء. اقترب منهما مزارعان وقد فتحا فاهيهما دهشة لما شاهداه. تراجع عبيد خطوتين إلى الوراء متعثراً بأذيال دشداشته. كاد

يسقط لولا استند على كتف أحد المزارعين، بينا كان المزارع الآخر يقف خلف عبيد وهو يشير بيديه إلى محمد أن يهدأ. ارتفعت ضحكة عبيد وهو يتطلع إلى محمد بسخرية. حاول أن يطيل ضحكته المفتعلة، بينا محمد كان ينظر إليه بعينيْ نسر جريح، متحفزاً لما سيبدر منه كردة فعل. افتعل عبيد الحنظل الهدوء والرزانة. اقترب من محمد ثانية، مربتاً على كتفه بحذر.

«اسمع يا غلام، لولا معرفتي واحترامي لأخيك مناف، ولولا وصية الحاج رضا وعطفه على يتيم مثلك، لكان لي معك الآن حساب آخر».

ثم وبلهجة تهديد أضاف:

«معك حق، إنك لا تعرفني».

خطا مبتعدا قليلاً، ثم أشار إلى المزارعين بصوت متعجرف:

«اخبراه من أنا».

هز المزارعان رأسيهما بإذلال، وانشغلا بتنظيف الممر الترابي من الأوراق المتراكمة. اتخذ عبيد الحنظل مكانه في الزورق وعاد مجذفاً إلى الجهة الأخرى حيث يقع بيت الحاج رضا.

اقترب محمد من أحد المزارعين وسأله:

«من هذا؟»

«سلوقي».

أجاب المزارع دون أن يرفع رأسه عن الأرض.

على الرغم من فارق السن الكبير بين محمد والمزارعين إلاّ أن ألفةً سريعة نشأت بينهم، فراحا ينظران إليه بإعجاب لتحديه غطرسة خادم الشيخ رضا وجاسوسه، وزاد إعجابهما به بعد أن عرفا بأنه ابن المرحوم ناصر وحفيد الشيخ هاشم. شعر محمد بنشوة انتصار، فراح ينط في البستان محركاً عصاه باستعراض لمهارته القتالية، أو يرميها إلى الأعلى ويلتقطها قبل وصولها إلى الأرض.

مرّ النهار بطيئاً، حاول خلاله محمد أن يشغل نفسه بأعمال يدوية كي

يبعد الأفكار والهواجس التي تفرض نفسها عليه، أو ليؤجلها إلى الليل حيث يكون التفكير شاغلاً ضرورياً لقضاء وقت الحراسة الطويل. ساعد زميليه في عملهما فقام بالعمل تطوعاً نيابة عنهما بتنظيف السواقي من الأوراق المتساقطة والأغصان المكسورة. ملأ الزكائب بما تساقط من الفواكه، وحملها بهمّة ونشاط إلى ضفة النهر حيث الزورق الذي ينقلها إلى الضفة الأخرى. أشاع جواً من البهجة والمرح الذي لا يخلو من طفولة بعد أن اطمئن إلى زميليه، فعزفَ على شبّابته ودبكَ دبكةَ (الجوبي) فشاركاه على استحياء في البدء، لكن سرعان ما تحولت دبكتهما إلى رقص مجنون. شربوا الشاي الذي أعده محمد، وخلال ذلك دارت أحاديث بينهم، عرف من خلالها الكثير عن طبيعة العمل، وعن العاملين والشيخ رضا وخادمه عبيد الحنظل. عرف أسراراً كثيرة عما يدور داخل هذا القصر الكبير، الرابض على الضفة الثانية من النهر، بل سمع طرائف وحكايات عن أبيه وجده ما كان قد سمعها من قبل، بطولات تُشعر الحفيد بالفخر، فتساءل مع نفسه عن سبب إحجام أخيه منافٍ عن الحديث عنها وكتمانه لها على الرغم من إلحاحه بالسؤال، إلاّ أن منافاً كان يتهرب دائماً من الإجابة.

قبل مغيب الشمس بقليل، استقلوا زورقاً نحو الضفة الأخرى لاستلام التموين اليومي، كما جرت العادة. تجمّع العاملون والخدم في قصر الشيخ رضا للتعرف على العامل الجديد، وكانت نظراتهم إليه تشي باحترامٍ وإعجاب كبيرين، فخمّن محمد أن المزارعين قد نقلا إليهم ما جرى صباحاً خلال حديثه مع عبيد الحنظل. شعر بخجل طفولي بسبب النظرات التي راحت تتفحص كل جزء من جسده، وبشيء من الزهو الذي قد بدا على وجهه وابتساماته التي كان يقابل بها من كان ينظر إليه. كان محمد الأصغر سنا بينهم، وهذا يبدو واضحاً، فأغلب العاملين كانوا رجالاً بشوارب كثة وعضلات مفتولة على الرغم من أن وجوههم السمر قد أحرقتها الشمس وحفر التعب عليها أخاديد واضحة للعيان،

وما لفت نظره من أول وهلة لدخوله قصر الحاج رضا، أن من بين العاملين زنوجاً، ذوي أجساد ضخمة ووجوه منتفخة بأنوف مفلطحة وعيون حمر، تتقادح بغضب، لكن نظراتها تشي بالانكسار. نادى أحد الخدم فهرع الجميع متراكضين إلى المطبخ. وقفوا طابوراً وكلّ منهم يحمل صحنه للحصول على وجبة العشاء، وهي الوجبة الوحيدة التي يحصل عليها العامل مع عدد قليل من التمرات اليابسة أو برتقالة متعفنة. اصطف محمد في الطابور مطأطئاً رأسه إلى الأرض، محاولاً تقليد العاملين، إلا أنه كان يشعر في داخله بخجل لما يبديه الآخرون من جشع ودناءة نفس وهم يتزاحمون بالمناكب للوقوف في الدور الأمامي من الطابور، دون أن يعيروا اهتماماً لما يسمعونه من كلمات جارحة وإهانات كان يطلقها بعض الخدم والزنوج. شعر بخوف من هاجس تبادر إلى ذهنه، من أنه سيعتاد على هذا الأمر يوماً ويكون مثلهم، يتخلى عن كبريائه من أجل حفنة رز أو قطعة صغيرة من اللحم، أو أن يردد ما سمعه اليوم من المزارعين حينما كانا يتحدثان عن الحكمة التي تعلماها في حياتهما بعد كل سنوات الشقاء هذه:

«إذا كانت حاجتك عند كليب سمّه الحاج كلب».

كان محمد ساهماً، شارد الذهن ينظر إلى جهة بعيدة هرباً من المشهد، حينما اقترب منه رجل عجوز محنيّ الظهر وبلحية بيضاء تغطي عنقه وشيئاً من صدره. سأله:

«أنت ولدُ الشيخ هاشم؟»

«نعم.. يا جدّي».

أجاب محمد وهو يحني رأسه احتراماً للعجوز. تطلع العجوز إلى وجه محمد بعينين رامشتين، مركّزاً نظره على ملامح وجهه وعينيه، ثم راح يربتُ على كتفه كأنه تلمس آثار الزمن، أو شمّ رائحة السلالة، فتأكد من صدق الانتماء. أشار إلى محمد أن يُدني رأسه أكثر ويقرب أذنه، كأنه يريد أن يقول سراً خطيراً:

«الله يرحم جدك.. كان رجلاً عظيماً».

هزّ محمد رأسه وابتسامة شكر خجولة لاحت على وجهه. انتظر أن ينطق العجوز بما يريد أن يقوله، وقد لمح في عينيه رغبة في البوح، غير أن العجوز ابتعد قليلا حينما سمع صوت عبيد الحنظل ملعلعاً، قادماً نحو المطبخ. كان العجوز يردد مع نفسه بصوت خافتٍ:

«لعنة الله على ناكري المعروف.. لعنة الله على الظالمين.. تبّاً للزمان وغدره..».

(٥)

استيقظ الناس عند الفجر على أصوات إطلاقات وجَلَبة تدلّ على أن أمراً مهولاً قد حدث. انتشرت قوات الغرباء بملابسهم العسكرية وبنادقهم الطويلةِ وقد لمعت في رؤوسها حراب برّاقة يثير منظرها الرعب. سد جنود الكتيبة مداخل الطرق واختبأ بعض منهم وراء المتاريس وبنادقهم مصوبّة نحو كل الاتجاهات. كان الشيخ هاشم قد عاد تواً من المسجد بعد أدائه صلاة الفجر. دخل البيت بهدوء متوجهاً إلى غرفة نومه، وحينما سأله ابنه الكبير منصور عمّا إذا قد شاهد في طريقه أمراً غريباً، هزّ رأسه نافياً وابتسامة تلوح على شفتيه، فسّرها منصور بحكم خبرته، أن لوالده يداً في ما يجري الآن. صوت الإطلاقات يقترب، وهرولة الجند بدت قريبة جداً من دار الشيخ هاشم. دقائق وطُرق الباب بقوة، وقبل أن يُفتح، ركل فاندلق الجند إلى داخل الدار. ارتفع صراخ النسوة والأطفال، إلاّ أن منصوراً صرخ بهن فصمتن. وقف أمامهم ليحيل بينهم وبين اقتحام المخادع فدفعه قائدهم، عندها خرج الشيخ هاشم من غرفة نومه بهدوء.

كانت مفرزة الغرباء تتكون من ضابطٍ طويل القامة، أحمر الوجه وبعينين زرقاوين بأهداب شقر لا تكاد تُرى، وجنودٍ ببشرات مختلفة الألوان. تحدث الشيخ هاشم مع أحد الجنود من ذوي البشرة السوداء باللغة الأوردية، وقد قام الجندي الهندي بدور المترجم بين الشيخ والضابط. كان الشيخ يتحدث بهدوء ولباقة فاستشاط الضابط غيظاً. حاول أن يصفع الشيخ إلاّ أن منصوراً حال بين الضابط وبين أبيه فتلقى

الضربة على كتفه. أشار الضابط إلى جنوده فهجموا على الشيخ. مسكوه من ذراعيه وسحلوه بوحشية وفظاظة، وحينما حاول منصور وناصر أن يسدا الطريق عليهم انهالوا عليهما بأخامص البنادق. وضع الشيخ في عربة يجرها حصانان، انطلقت به باتجاه المخفر.

مع شروق الشمس انتشر الخبر بين الناس، ليس خبر اعتقال الشيخ هاشم بل ما هو أهم، فقد عادت مجموعة الثوار من مهمتها لتعلن في مسجد المدينة أمام الناس، بأن مجموعة من الثوار كان الشيخ هاشم يقودها قد نصبت بالأمس كمينا لمفرزة من جيش الغرباء وأبادتهم، وقد قام الشيخ هاشم بقتل اللفتننت كولونيل جاكسن. شاع الخبر في المدينة فخرج الناس هازجين، هاتفين بحياة الشيخ هاشم، معاهدين الله بشرف نسائهم بأنهم سيبذلون أرواحهم من أجل فكّ أسره. أصيب جند الغرباء بهيستيريا أثر مقتل اللفتننت كولونيل جاكسن، خاصة بعد أن أعترفت إذاعتهم التي تبث من وراء البحار بخسارتهم الفادحة، فراحوا يعيثون بالمدينة خراباً. أضرموا النار في السوق الكبيرة، وقصفوا بالمدفعية البعيدة المسجد فأسقطوا المئذنة. استشهد عدد من السكان وتهدمت بيوت. كانت بنادقهم تصطاد أيّا كان حسب شهوة حامليها. اغتاظ رجال المدينة، وعلى الرغم من محاولة الشيخ حمدان تهدئة النفوس الثائرة وسعيه بالتملق إلى جنود الغرباء بأن يستثنوا الشيوخ والنساء من القتل، إلا أنه لم يحصد من محاولته غير المهانة والاحتقار من كلا الجانبين، وعلى الرغم من خطورة التجوال إلاّ أن البعض من الثوار كان يتحرك بين الأزقة لنقل آخر ما يراه ويسمعه، ومن بينهم من كانت مهمته رصد حركة العربة التي حملت الشيخ هاشم إلى مخفر المدينة أولاً، ثم تم نقله تحت حراسة مشددة إلى ثكنة الفرقة العسكرية المتجحفلة على الضفة الشرقية من المدينة. كان فضاء المدينة وهواؤها الذي امتلأ برائحة البارود ساحة معركة للأصوات، فكانت أصوات التكبير التي تنطلق من مسجد المدينة ومن أعلى سطوح البيوت مسنودة بزغاريد النسوة والأهازيج التي تمجد

بطولة الشيخ هاشم الذي هزّ بقتله اللفتننت كولونيل جاكسن عاصمة الغرباء وأبكاها، تصطدم بأصوات الإطلاقات ودوي إنفجار القنابل المتساقطة عشوائياً على السوق والأحياء السكنية.

تسلل منصور من دارهم قافزاً على سطوح الجيران وبتغطية من ساكنيها، حتى استطاع الوصول إلى مقر قيادة الثوار السري، هناك كان يعقد اجتماع لوضع خطة لفكّ أسر الشيخ هاشم وانزال أقصى ما يمكنهم انزاله من قتل وأسر لجنود العدو. كانت قيادة الثوار قد أعدت سابقاً عدتها، ووضعت الخطط لمهاجمة مفارز العدو وتجمعاته، إلاّ أن النجاح الذي أحرزته مجموعة الثوار أمس بقيادة الشيخ هاشم وقتله اللفتننت كولونيل جاكسن لم يكن يخطر على بال أكثر الثوار تفاؤلاً، وكذلك لم يكن متوقعاً أن تكون ردة فعل العدو بهذا العنف والكثافة، كأن العدو يخوض معركته الأخيرة، ثم جاءت قضية اعتقال الشيخ هاشم، كلّ هذه الأمور دفعت قيادة الثوار إلى أن تعقد اجتماعاً عاجلاً لوضع خطةٍ دفاعية لحماية أرواح الناس وممتلكاتهم وأعراضهم من ردات أفعال جيش الغرباء التي ستكون أكثر عنفاً كلما ازدادت عمليات الثوار ضدهم، وخطةٍ عاجلة لفكّ أسر الشيخ هاشم قبل أن يتم نقله من الثكنة العسكرية إلى مكان مجهول.

كانت الخطة تتلخص بأن تتحرك بعد صلاة المغرب وبسريّة قصوى، مجموعةٌ من الثوار ممن هم الأكثر إيماناً وكفاءة في القتال والأكثر استعداداً للتضحية بالنفس، مخترقة مفازة الجن لتكمن في بستان الحاج هاشم، تتبعها مجموعة أخرى تنطلق بعد صلاة العشاء، سالكة الطريق نفسه، وحينما تلحق بها في البستان، تأخذ محلها، لتنطلق المجموعة الأولى عابرة النهر باتجاه الثكنة العسكرية، تهاجمها من الناحية الشمالية حيث السجن، بينا تأخذ المجموعة الثانية دورها في الإسناد ولتأمين طريق الإنسحاب ومشاغلة العدو، أما بقية الثوار فعليهم مهمة لا تقل إجهاداً عن مهمة رفاقهم وإن كانت أقل خطورة، فقد شكلوا مجاميع

عليها الإنتشار في أحياء المدينة، واجبها القيام بحفر سراديب وخنادق شقيَة لإتقاء شظايا القنابل، وإرشاد الناس إلى الطرق السليمة التي يجب أن يتبعوها لحماية أنفسهم.

بعد صلاة المغرب بقليل انطلقت مجموعة الثوار الأولى، وكانت تضم عشرة أشخاص من بينهم منصور ابن الشيخ هاشم. أخفوا سيوفهم وخناجرهم تحت ثيابهم. قرأوا الشهادتين والمعوذتين. علقوا على سواعدهم تمائم كتبت فيها آية الكرسي لتبعد عنهم الجن وتكون لهم حجاباً يخفيهم عن أعين الأعداء، وانطلقوا معاهدين الله ونساءهم على الفوز بإحدى الحسنيين. اجتازوا مفازة الجن واثقين من أن غايتهم النبيلة وأرواحهم التائقة إلى ملاقاة بارئها ستجعلهم في عيون الله وتبعد عنهم الجن والشياطين. دخلوا البستان وانتشروا على مساحة ليست واسعة. كمنوا تحت الأشجار مموهين أجسادهم بجذوعها وأغصانها، حتى وصلت المجموعة الثانية.

وصل أفراد المجموعة الأولى إلى الضفة الثانية للنهر سباحة، وقد أنهكهم التعب، إذا استغرق عبورهم للنهر وقتاً طويلاً لأنهم اختاروا العومَ بحركات خفيفة من أذرعهم وأرجلهم كيلا يصدروا أصواتاً قد يسمعها العدو. دخلوا غيضة البردي والقصب. خلعوا ملابسهم واعتصروها. جلسوا كي يستريحوا قليلاً ويستعدوا للهجوم، كاتمين أنفاسهم سوى شفاه تتحرك بالدعاء، فقد أصبحوا على بعد مسافة لا تزيد على الخمسمائة متر من الثكنة. كان القلق أو الشوق لملاقاة العدو يدفعهم لإنهاء المهمة بأسرع وقت مهما كانت النتيجة. نهض أحدهم بهمّة. قرأ الشهادتين وسورة الفاتحة وكان الباقون يرددون خلفه برعشة عابدٍ اقتربت لحظة ملاقاة معبوده، ثم انطلقوا منتشرين فرادى يدبّون على الأرض المنبسطة التي تفصلهم عن الثكنة، ليجتمعوا ثانيةً عند السياج الشمالي ويسيروا بمحاذاته بنسق، يتقدمهم منصور الذي لم يرضَ أن يسبقه أحد في هذه المهمة، فالأمر يخصه بالدرجة الأولى. حينما

أصبحوا قريبين من السجن، حفروا تحت الجدار الصخري نفقاً يتسع لمرور جسد رجل واحد، ثم تسللوا إلى داخل الثكنة. زحفوا على الأرض بحذر شديد. باغت منصور ورجل ثان الجنديين اللذين يقومان بحراسة السجن، وقاما بذبحهما بعد أن كمما فاهيهما فلم يتسع لهما الوقت ليصرخا، بينا اقتحم أربعة من الثوار السجن بعد أن استطاعوا أن يذبحوا جندياً ثالثاً كان يقف عند بابه.

لم تمضِ سوى دقائق خاطفة وانتهت المهمة بنجاح فاق التصور. عادت المجموعة إلى موقعها في البستان وما كانوا يظنون أن الأمر يجري بهذه السهولة. عادوا سالمين جميعاً، وقد حرروا شيخهم من الأسر وغنموا ثلاث بنادق من نوع الـ (موزر). حمدوا الله الذي لولا رحمته لما جرى الأمر بهذا اليسر.

ما كاد الثوار يصلون إلى بيوتهم، حتى ابتدأت مدفعية العدو تنزل جحيمها على المدينة، فكانت حمم القنابل تتساقط بشكل عشوائي مستهدفة المسجد والأحياء السكنية. دبّ الرعب في نفوس الناس الذين كان بعضهم قد استيقظ من نومه والبعض الآخر لم يغمض له جفن، فقد كان متوقعاً أن مقتل اللفتنت كولونيل جاكسن لن يمر دون انتقام من قبل خنازيره التي لا تعرف الرحمة ولا تخاف الله. انتشر الثوار في منعطفات الأزقة وخلف المتاريس التي أقاموها أمس تحسباً لقيام جنود العدو بالهجوم على الناس العزّل، وهذا ما حدث فعلاً، فقد تقدمت كتيبتان من مشاة العدو مسنودتين بجنود الخيّالة والمدفعية، إحداهما جاءت من جهة مفازة الجن والأخرى عبرت النهر من الجهة الغربية للمدينة. انتشر جنود الكتيبتين في المدينة واتخذ البعض منهم مواقع ثابتة مصوبين بنادقهم باتجاه أي شاخص يتحرك. حدثت معارك غير متكافئة فاستشهد عدد كبير من الثوار برصاص العدو، بينا تفوق الثوار في أماكن أخرى، حينما جرت فيها معارك بالسلاح الأبيض فاستطاعوا قتل عدد من جنود العدو، حتى اضطروا للانسحاب محتمين خلف جنود الخيالة التي

راحت تصول خيولهم في الساحة. أشد المعارك عنفاً كانت عند منعطف الزقاق المؤدي إلى دار الشيخ هاشم، وقد استبسل الثوار في صد هجوم الجيش هناك بعد أن استدرجوهم لمسافة قريبة واشتبكوا معهم بالسلاح الأبيض، حتى النساء اشتركْن في المعركة فكنّ يرمين جنود العدو بالحجارة وبالماء المغلي من سطوح البيوت فأعاقن تقدمهم. كانت نية العدو واضحة بإصراره على كسب المعركة في هذا الموضع، حيث بدا مستميتاً لاحتلال الزقاق المؤدي إلى بيت الحاج هاشم وقتل أو أسر الشيخ ثانية، ليستعيد بذلك ما هُدر من كرامته أمس، ولينتقم من الثوار الذين أهانوه في عقر ثكنته وحرروا شيخهم، لذا فقد انسحبت قواته من بقية أحياء المدينة وتمركزت في هذا الموضع، وحينما واجه جنود مشاته بسالة الثوار في معركة لا فاعل فيها غير السلاح الأبيض، تراجعوا إلى الخلف ليتقدم جنود الخيالة المزودين بالسياط والسلاسل الحديدية والرماح الطويلة، فاتحين الطريق أمام جنود مشاة وصلوا كقوة إحتياط. لم يستطع الثوار مقاومة شراسة جنود الخيالة فانسحبوا بعد أن استشهد عدد غير قليل منهم. اقتحم الجنود الزقاق، وسيطروا عليه تماماً بعد أن تلاشت المقاومة وانسحب الثوار. قاموا بقتل ما وقع في أيديهم من جرحى الثوار باحتفاليةٍ أثارت السخط والألم في نفوس الناس. مر قائدهم بين صفّين من جنوده مترنحاً. وقف عند باب دار الشيخ هاشم وصرخ:

«ها.. قد.. عدنا.. يا صلاح الدين».

قال جملته باللغة العربية التي لا يعرف منها غير هذه الجملة، والتي تدل على أنه قد تمرن على قولها لغاية في نفسه. ارتفعت ضحكته ساخراً، هازاً كتفيه وكرشه بحركةٍ تفتعل الغطرسة لكنها واضحة الرعونة. ركل بقدمه الباب وأشار إلى جنوده لاقتحام الدار. لم يكن الشيخ هاشم موجوداً في البيت، فقد أخفاه الثوار أمس في مكان آمن وسري، وحينما لم يجد الغزاة أثراً للشيخ، أشار إليهم قائدهم أن يأخذوا ولده منصوراً

بدلاً عنه حتى يضطر إلى تسليم نفسه.

سقطت المدينة في يد الغزاة، فاحتلوا المخفرَ والمسجد ومضافة الشيخ هاشم. نصبوا نقاط تفتيش ثابتة على مفترق الطرقات وفي سوق المدينة، وبخطوة خبيثة، القصدُ منها توجيه الإهانة إلى السكان، منعوا ذوي الشهداء من نقل جثث أبنائهم ودفنها، فقاموا بجمعها وحرقها على مرأى من عيون ذويهم، وهاجموا الخيام التي نصبت لأقامة العزاء، حتى مقبرة المدينة لم تسلم من إذلالهم فقد اتخذوها مربضاً لخيولهم.

عاشت المدينة أحلك أيامها. كان الرعب يخيّم على الوجوه، وذكريات المعركة كوابيس تجثم على صدور الصغار والكبار، ووجوه الشهداء لا تزال مرسومة على السماء، وأرواحهم تطوف في الفضاء تستصرخ الأحياء طلباً للثأر لتهدأ في جنات الخلد مع الأنبياء والصديقيين. التزم الناس بيوتهم خوفاً من التعرض للقتل أو للإعتقال أو الإهانة التي كان يستمتع الغزاة بتوجيهها إلى الناس للحطّ من كرامتهم وأعراضهم، بينا كان الهواء الذي يستنشقونه محملاً برائحة الموت والتفسخ، والماء الذي يشربونه له لزوجة الدم، والأشد إيلاماً من كل هذا، بدأت ترتفع من بين الناس أصواتٌ تلقي اللوم على الثوار وعلى الشيخ هاشم، ويتهمونهم بأنهم كانوا وراء استفزاز الغرباء، وأن دماء الشهداء في رقبة الشيخ هاشم وأولاده.

«العين لا تقاوم المخرز».

قال بعض الرجال، مشيرين إلى أن الثوار يعلمون جيداً أنهم يقاتلون عدواً شرساً مدججاً بأسلحة فتاكة، وهم لا يملكون سوى العصي والخناجر.

«الصلّ كان نائماً فلماذا أيقظتموه؟»

قال الشيخ حمدان مفتعلاً الحزن على الشهداء، مشيراً إلى مسؤولية الشيخ هاشم في ما حصل دون أن يذكر الاسم صراحةً. أثنى البعض على الشيخ حمدان وحكمته وراحوا يرددون ما قاله، كأنهم وجدوا بذلك

حجة للرضوخ أو جهة يلقون عليها أسباب الهزيمة معللين الأمر بأن الإفراط في الحماسة والغرور هو ما دفع الشباب إلى المضي خلف الشيخ هاشم الذي قادهم إلى التهلكة.

سطع نجم الشيخ حمدان مستغلاً غضب الناس وحزنهم على ما فقدوه من أعزاء، وما أصاب المدينة من خراب وخسارة في الممتلكات، فراح يجاهر بحقده على الشيخ هاشم ويلعب دور الرجل الحكيم الورع، وقد وجد في هذا تبريراً للتقرب من الغزاة الذين هم أيضاً رأوا فيه رجلاً صالحاً لخدمتهم وحصاناً صالحاً للرهان لتنفيذ خطتهم بإركاع السكان وإذلالهم، وكسب صمتهم حينما ينفذون خطتهم بالقضاء على الثوار قتلاً أو اعتقالاً، دون أن تواجههم احتجاجات تعيق إكمال مهمتهم، وبهذا نجح بأخذ الإذن من قيادة الفرقة العسكرية بإعادة فتح المحلات التجارية والأسواق وإدخال المواد الغذائية للمدينة، فازدهرت تجارته. في البدء كان يبيع البضائع والمواد الغذائية بنفس سعرها قبل الحرب، ثم شيئاً فشيئاً بدأ يرفع الأسعار متحججاً بصعوبة الحصول على البضائع أو بدفع الضرائب والرشاوى إلى قوات الغرباء، مقسماً بأغلظ الأيمان بأن الربح آخر شيء يفكر فيه، ولا غاية له سوى مرضاة الله وخدمة أهله وأبناء مدينته، غير أن الأمر أصبح لا يطاق، بعد أن باعت الناس أو رهنت كل ما تملكه، حتى أثاث البيت.

على الجانب الثاني، كانت بقية الثوار تعيد تنظيم نفسها بسريّة مطلقة، وتقيّةٍ تبيح الممالأة في بعض الأحيان، أفتى الشيخ هاشم بجوازها في مثل هذه الظروف التي تمر بها الثورة. كانوا يحاولون تضميد جراحهم وإعادة الثقة إلى نفوسهم وكسب المزيد من الشباب إلى المعارك القادمة. أوعز الشيخ هاشم إلى ولده ناصر أن يبيع قطعة أرض واسعة من أملاكه فاشتراها الشيخ حمدان بثمن أقل من نصف قيمتها الحقيقة. وزّع نصف المبلغ على عوائل الشهداء والمحتاجين، وترك النصف الآخر لدفع مصاريف الثوار وعوائلهم، وبهذا استطاع أن يستعيد ثقة الناس به،

خاصة بعد أن تكشفت نوايا الشيخ حمدان وجشعه. بعث بوفود ورسائل إلى شيوخ قبائل تقيم على الجانب الآخر من النهر يطلب منهم المعونة في إخراج الغرباء من المدينة، فجاءته الأخبار مشجعة، فأعاد بهذا الاتفاق وحدة المدينة بجانبيها الغربي والشرقي بعد أن حاول الغزاة أن يقسّموها ويجعلوا النهر حداً جغرافياً بينهما. لم يستطع كسب قبائل البدو التي تقيم في الصحراء الغربية إلى جانبه ودعم الثورة، إلا أنه استطاع أن يتفق معهم على شراء ما يقع في حوزتهم من سلاح خاصة البنادق، وقد أوصى شباب الثورة بضرورة التدريب على استخدامها. تم تحديد الذكرى السنوية الأولى ليوم الشهداء كيوم لانطلاق الثورة الثانية ومعركة المصير لتحرير المدينة من الغزاة.

ابتدأت الثورة الثانية في يومها الأول بإضراب عام، فأغلقت السوق وأحجم العمال عن الذهاب إلى أعمالهم على الرغم من اعتراض الشيخ حمدان وتهديده للعمال بالعقوبة والتسريح، إلاّ أن اعتراضه جوبه من قبل الأغلبية بالإهمال والاحتقار. انطلقت مسيرة احتجاج من المسجد، وأخرى من ساحة الصيادين. طافتا شوارع المدينة ليتحدا في تجمع كبير في ساحة الشهداء، قرب منعطف الزقاق المؤدي إلى بيت الشيخ هاشم، تخليداً لشهداء المعركة التي وقعت في المكان نفسه قبل عام تماماً. عمل الشباب من أجسادهم جداراً دائرياً حول المتجمهرين لتأمين الحماية لهم من أي هجوم متوقع من جنود الغزاة. ألقيت على المتجمهرين رسالة من الشيخ هاشم يطمئنهم فيها على استمرار الثورة وعلى إصرار الثوار على تحرير المدينة من الغرباء آجلاً أم عاجلاً، ثم تُليت القصائد الحماسية وانطلقت الأهازيج الداعية إلى الجهاد ومنددة بجرائم الغزاة. لم ينسَ المنتفضون أسيرهم فعاهدوا الشيخ هاشم بأنهم سيبذلون الغالي من أجل اطلاق سراحه. لم يتعرض جنود الغزاة إلى المسيرات والتجمعات، وإن كانوا قد انتشروا بكثافة في الساحات وخلف المتاريس مترقبين بحذر ما يحدث، متحفزين للهجوم في حالة تطور الاحتجاجات إلى هجوم على

قواتهم، غير أن الثوار كانوا على حكمة ودراية بما يرمي إليه الغزاة، فاكتفوا بالمسيرات السلمية. استمر الإضراب، واستمرت المسيرات لمدة أسبوع دون أن يحدث أي احتكاك بالغزاة، حتى تراخى تحفزُ قواته، بل أصبحوا يتفرجون على المسيرات وبنادقهم معلقة على الأكتاف وهم يضحكون.

في اليوم الثامن حدث ما لم يتوقعوه، ففي الفجر أغارت مجموعة من الثوار على مخفر المدينة، وقتلوا حراسه السبعة، وتم الاستيلاء على عدد من البنادق، بينا قامت مجاميع أخرى بالهجوم على نقاط تفتيش، قتلت من فيها، ونصبت كمائن للدوريات المتحركة فلم ينجُ منها إلا بضعة جنود، هربوا تاركين أسلحتهم وعتادهم. التحقَ الناجون من الجنود بمركز الكتيبة الواقع قرب الحدود الشمالية للمدينة، فاحتل الثوار مركز المدينة والمتاريس، بينا كان العدد الأكبر منهم يتهيأون لشن هجومٍ على مركز الكتيبة. المفاجأة الكبرى التي أذهلت قيادة العدو هو الكمينُ الذي نصبه الثوار في مكان لم يكن يخطر على أذهان قادة أركانهم، فحينما وصل نداء الاستغاثة من قيادة الكتيبة إلى قيادة الفرقة المتجحفلة على الضفة الثانية من النهر، صدر أمر التحرك لنجدة القوات المحاصرة في المدينة أو على مشارفها، فأرسلوا كتيبة من المشاة لدعم المحاصرين. استقل جنود الكتيبة الزوارق، وحينما أصبحوا في منتصف النهر تماماً، ارتفعت بنادق الثوار المختبئين في غيضة القصب، وأمطرت جنود العدو بوابل من الرصاص. أغرقوا الزوارق ومن فيها، أما من وصل سالماً إلى الضفة فقد تلقفته سيوف وخناجر الثوار الذين كانوا منتظرين بشوق في بستان الحاج هاشم.

اعترفت قيادة العدو بهزيمتها بشكل غير مباشر، بإذاعة بيان الانسحاب من المدينة لغرض إعادة التنظيم كما ادّعت، وأعلنت إذاعتهم التي تبث من وراء البحار نبأ انتحار قائد الفرقة الجنرال مايك دون أن تذكر سبباً لانتحاره. انتشر الثوار في المدينة وقاموا بتطهير الأماكن التي

كان جنود الغزاة يحتلونها. جعلوا المخفر مركزاً لإدارة العمليات. نصبوا نقاط مراقبة واستشعار. قاموا بتوزيع الشباب المتطوعين على نقاط الحراسة والمراقبة وعلى مفارق الطرق والأحياء السكنية. بعد ذلك قاموا بتشييع الشهداء بموكب مهيب يتقدمه الشيخ هاشم وقادة الثورة، وكذلك تم دفن جثث الأعداء باحترامٍ يليق بما تعلموه من سماحة واحترام للموت، في مقبرة خاصة تقعُ في شمال غربي المدينة، صارت في ما بعد تحمل اسم (مقبرة الغرباء)، وقد غرزوا في منتصفها لوحين خشبيين على شكل صليب.

عاد إلى المدينة هدوء نسبي يشوبه الحذر، فقد خبر الثوار طبيعة عدوهم الثعلبية ولا يمكن أن يستأمنوا شره، مادام يحتل بلدهم ويقيم قاعدته على مشارف مدينتهم، لكن البعض منهم قد أضاف توجساً آخر. بدأ همساً بين بعض الثوار ثم تحول إلى ما يشبه اليقين، حتى تم طرحه في اجتماع قيادة الثوار. غضب الشيخ هاشم حينما سمع ما تردد على أفواه الثوار، ربما لم يكن غضباً حقيقياً ولكنه أراد أن يحافظ على وحدة صف السكان، وألا يتطور الأمر من مجرد شك إلى التخوين الذي قد يُحدث شرخاً في الصف فيستغله العدو. كان الشيخ هاشم لا يستأمن جانب حمدان ورجاله، ولكنه كان ينظر إلى الأمر باعتباره غير ملحّ في الوقت الحاضر، وسيحين وقت المحاسبة حينما يتم التفرغ من خطر الأعداء الحقيقيين. لم ينفِ الشيخ حمدان ما كان يتردد على ألسنةِ الثوار، بل أكد أنه حافظ على خيوط اتصال مع قيادة جيش العدو، مبرراً ذلك بأن غايته الحفاظ على أرواح الناس وحقن الدماء، وكذلك لتأمين خط القوافل التجارية ومداخل المدينة. صدّقه البعض وأثنى على حكمته بحسن نية، أو خوفاً من شبح الحرب الذي ما انفك يلوح في أجواء المدينة منذراً بالشر في كل لحظة. الشيخ هاشم نفسه كان يراوده أحياناً شعور بصحة موقف حمدان، وله من الفضائل والفوائد ما يمكن اعتبارها ذريعة لعدم تخوينه، حتى ظهرت الشعرة التي قصمت ظهر الموقف.

دعا الشيخ حمدان إلى مضافته الشيخ هاشماً وولده ناصراً وعدداً من قادة الثوار، وبعد القيام بواجب الضيافة والحديث عن أواصر الأخوة والقربى التي تجمعه بالشيخ هاشم، والدم الذي لن يصير ماءً، وعن هموم وأحزان الناس وكرههم للحرب، وبعد ترديده بشكلٍ واضحِ القصد آياتٍ قرآنية مثل (فإن جنحوا للسلم فاجنح لها) أو (وكفى الله المؤمنين شرّ القتال) أو (إن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها)... ، اعتدل بجلسته وقال موجهاً كلامه إلى الشيخ هاشم.

«انظرْ أخي هاشم، وصلتني رسالة من هناك».

قال وأشار بيده إلى جهة بعيدة دون أن يسمي الجهة التي بعثت إليه الرسالة، لكنّ السامعين أدركوا القصد، فسادَ صمت بينهم، مصغين باهتمامٍ إلى ما سيقوله الشيخ حمدان. هزّ الشيخ هاشم رأسه وهو يتطلع إليه فانتَفش ريش غروره. استأنف حديثه بكلام واضح كذبه، حيث بدا أنه نفسه لا يصدق ما سيقول:

«الجماعة يبلغونك السلام..».

فقاطعه الشيخ هاشم بإشارة ذات مغزى:

«السلام على من اتبع الهدى».

استمرأ حمدان الإشارة مفتعلاً الثقة بالنفس، وأضاف:

«يقولون إنهم على استعداد أن يمدوا يد الصلح والتعاون معك إذا مددت لهم يدك».

وقبل أن يعترض الشيخ هاشم، ارتفع صوت الشيخ حمدان:

«قال الله في كتابه المجيد... بسم الله الرحمن الرحيم... فإن جنحوا للسلم فاجنح لها...»

ارتفع صوت رجال الشيخ حمدان في لحظة واحدة، واضعين أكفهم على رؤوسهم المطأطئة بحركة تدّعي الورع وخشية الله:

«صدق الله العظيم».

بينا اكتفى الشيخ هاشم بأن هزّ رأسه وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة

حزن، وقبل أن يستأنف حمدان حديثه، قاطعه الشيخ هاشم بحزم:
«ونِعم بالله... ولكن، ما المطلوب مني؟»
فرك الشيخ حمدان كفيه وقد تدلت بينهما سبحة سوداء طويلة. قال:
«أن يعود الوضع كما كان في السابق».
جفل الشيخ هاشم مُستفَزاً، وقال بغضب:
«يعني يعودون إلى احتلال المدينة، ولكن هذه المرة بترحيب منا!!!؟»
وقبل أن يتفوه خصمه، أضاف مستغرباً:
«وماذا نقول لأرواح الشهداء؟ ماذا نقول للأيتام والأرامل؟»
قابل الشيخ حمدان غضب محدثه ببرودة مفتعلة توحي بالرزانة. قال:
«الذي حدث..».
وقبل أن يكمل جملته استدرك كأنه تذكر أمراً هاماً، فقال متأسفاً لنسيان ما هو أهم:
«الجماعة يقولون بأنهم سيطلقون سراح منصور الليلة إذا وافق الشيخ هاشم على طلبهم».
«لن يكون هذا مادمت حياً».
قال الشيخ هاشم، ثم أضاف بعد لحظات صمت:
«منصور ليس أغلى من الذين استشهدوا».
نفضَ عباءته، وهبّ خارجاً من المضافة، يتبعه ناصر ومن حضر معه من الثوار.

في فجر اليوم الثالث بعد تلك الليلة، خرج الشيخ هاشم للصلاة في المسجد، وما أن فتح باب الدار حتى اصطدمت قدمه بجثةٍ ملقاة عند الباب. توقفت نبضات قلبه وارتعشت ساقاه، إذ خطر في ذهنه بلمحة بصرٍ ما كان يخشاه. نادى بصوت عال إلى ولده ناصر فجاء مسرعاً. قلبا الجثة وحدقا في الظلام إلى الوجه الذي غطته لحية طويلة مغبرّة، فتأكدا من أنها جثة منصور. كان الدم لايزال ساخناً وقد تجمّد على فتحة كبيرة

في مؤخرة الرأس عند أعلى الرقبة تماماً.

ستة أشهر مرت على الحصار الكامل الذي فرضته قوات العدو على المدينة. منعوا دخول أية بضاعة أو إغاثة، حتى النهر حاصروه. قاموا بإلقاء قنابل فيه، فطفا السمك على سطح الماء ميتاً. قام الناس بجمعه، غير أن تكرار التفجير في النهر أفرغ السمك منه، وعلى مدى الأشهر الستة استنفدوا ما جففوه من السمك. باعَ الناس ما تبقى لهم من أثاث وملابس، حتى أبواب البيوت ونوافذها بيعت في الأسواق. الجوع والأمراض حصدت أرواح الكثير من الشيوخ والرضّع بعد أن جفت أثداء النساء. أكلوا الجراد والديدان ولحوم الحمير والكلاب. خلطوا التراب مع الطحين. شدوا الأحزمة على البطون. نتيجة للجوع والفاقة انتشرت السرقات وأحداث القتل، وظهرت أسواق سرية لبيع الأطفال والنساء، حتى نفد صبر الناس. هاجوا. نهش بعضهم بعضاً، وحينما لم يجدوا مغيثاً أو جهة يلقون اللوم عليها ويرمونها بثقل غيظهم، حاصروا دار الشيخ هاشم ملقين باللائمة عليه وعلى مواقفه التي لم يحصدوا منها غير الخيبة والموت.

«أي شرف تتحدث عنه يا خرِف؟»

صرخ أحد المتجمهرين بغضب أمام دار الشيخ هاشم، فوجد كلامه استجابة عند الكثيرين فرددوا ما قاله همساً، سرعان ما تحول إلى صراخ، وأضافوا:

«بماذا يفيدنا شرفك؟ هل يطعم أطفالنا؟»

«خدعتنا يا منافق وقتلت أولادنا».

«أية حرية تسعى إليها وقد بعنا أطفالنا وأعراضنا بسبب تهورك؟»

«حرية!!!. اخرجْ ترَ بعينك أسواق العبيد».

دعا الشيخ هاشم قيادة الثوار لاجتماعٍ عاجل لوضع حد لهذا الأمر. لم يبدأ حديثه بديباجته وبلاغته التي اعتاد عليها، بل بدأ حديثه بكلام واضح لا يقبل التأويل:

«أمامنا احتمالان لا ثالث لهما».

قال وتطلع إلى وجوه الثوار الذين نكّسوا رؤوسهم مصغين لما يقوله. لم ينتظر أن يعلق أحد، فاستأنف كلامه:

«إما أن نعلن استسلامنا ونرضى بحكم الغرباء... وإما..»

تحشرج صوته وهطلت الدموع من عينيه حتى تبللت لحيته الطويلة وتقطّر الدمع منها على صدره. كان الثوار يحدقون إليه بصمت وعيونهم تمطر، يرون من خلال غيوم الأسى برج الكبرياء يتآكل، وهالة الضوء البهية تخبو شيئاً فشيئاً. مرت فترة صمت كأن كلا منهم يرى نفسه تمشي في سوق المدينة مطأطئة الرأس، وقضيباً ينكمش مخذولاً كفأرٍ خائف لا يقوى على الانتصاب فيرى الاحتقار في عيني زوجته. قطع الصمت أحد الثوار، مخاطباً الشيخ هاشم:

«وإما ماذا؟»

كان الشيخ هاشم منتظراً هذا السؤال، فأجاب مباشرة:

«نقوم باحتلال الثكنة ونأخذ عدداً كبيراً من جنود الغزاة رهائن».

«ولكن...»

قالَ أحد المجتمعين، ولكنه لم يكمل اعتراضه، فردّ الشيخ موجها كلامه إلى الذي اعترض:

«أعرف أن المهمة صعبة وستكلفنا الكثير.. ولكن...»

قبل أن يكمل كلامه قاطعه الرجل الذي اعترض أول مرة:

«ولكن الموت خير لنا من الاستسلام».

لاحت ابتسامة على وجه الشيخ هاشم وانفتح مزرابا عينيه بمطر غزير، سرعان ما هبّ واقفاً كأنه حسم الأمر لئلا يترك للتردد مجالاً. وقف وسط حلقة الرجال وراح يخط على الأرض بعصاه.

كانت الخطّة تتلخص بأن يتم الهجوم على الثكنة من الجهة التي لا يتوقعها العدو، وهي الجهة الشرقية البعيدة والمحاذية للصحراء وبأكبر عدد ممكن من الثوار الشباب، بينا يتم الهجوم من الجهات الثلاث

الأخرى بعدد من الاستشهاديين لمشاغلة العدو، وتشتيت قوته. وجدت الخطة رضا وإعجاب الثوار. اعترض أحدهم مستفسراً:

«لكن.. الوصول إلى الجهة الشرقية للثكنة يقتضي وقتاً طويلاً، وبهذا يكون المهاجمون قد أنهكهم التعب في السير إلى هناك».

هزّ قائد الثوار رأسه مبتسماً بخبث، وراح يشير بإصبعه على الأرض، موضحاً الخطة التي أذهلت بقية الثوار لفطنتها.

«سنرسل مجموعة المهاجمين لينصبوا خيام الشَعر في طرف الصحراء مرتدين الملابس البدوية ومزودين بعدد من الجمال والماعز...»

وقبل أن يكمل فكرته فهم الثوار القصد فارتفع ضحكهم مثنين على القائد وفطنته، حتى أعلن البعض منهم بأنه سيأخذ زوجته معه.

سارت الخطّة دون أية عراقيل، وتمّ نقل مجموعة المهاجمين. أقاموا على طرف الصحراء كقافلة بدو نصبت خيامها قريباً من الجهة الشرقية للثكنة، مستغلين اطمئنان الغزاة إلى البدو الرحالة، ليس لأن إقامتهم لن تطول في المكان فحسب، بل لأن للبدو تأريخاً أصبح معروفاً من التعاون مع الغزاة والعمل معهم كأدلاء أو مرتزقة بسعر زهيد.

انطلقت المجموعات الثلاث الأخرى وكانت تضم عدداً من المتطوعين الذين اختاروا الشهادة وقد اشترط الشيخ هاشم أن يكونوا من العزّاب الذين لن يتركوا أيتاماً وأرامل بعد موتهم. اتخذت المجموعات مواقعها، على أوقات متفاوته ليست بعيدة لتجتمع في بستان الشيخ هاشم، ومن هناك تتوزع على الجهات الثلاث بعد عبورها النهر. في الساعة المحددة بعد منتصف ليلة الجمعة، ابتدأ الهجوم. تقدم ستة من الشباب الاستشهاديين، بعد أن أحاطوا أجسادهم بالقصب الجاف، المرشوش بالزيت، كلّ اثنين منهم على جهة. حينما اقتربوا من سياج الثكنة، أضرموا النار في أجسادهم وركضوا باتجاه العدو، الذي أربكته المباغتة. فتحت قوات العدو نيران بنادقها على كتل النار القادمة نحوها من جهات ثلاث، فردت عليها بنادق الثوار بشكل متقطع، وقبل أن تخبو

نار الكتل الست، انطلق ستة استشهاديين آخرين بالطريقة نفسها. كان الرعب قد سيطر على قوات العدو التي تركزت على جهات الهجوم الثلاث، في الوقت نفسه كانت مجموعة الثوار (البدوية)، كما أطلق عليها، قد توغلت بصمت داخل الثكنة من جهة الصحراء. استمر هجوم الاستشهاديين المدعومين من عدد قليل من الرماة الذين اتخذوا من غيضة القصب المحاذية للنهر أو من خلف كثبان الرمل متاريس لهم. عند الفجر كانت المعركة قد انتهت وسيطر الثوار على الثكنة بشكل تام. أمتلأت ساحة الثكنة بجثث الجنود واستسلم عدد غير قليل منهم، بينا استطاع القائد وعدد من الضباط الهرب.

عاد الثوار إلى المدينة بعد أن أضرموا النار في الثكنة، يجرون الأسرى خلفهم بعد أن قيدوا أياديهم وربطوهم بحبل طويل. حملوا جثث الشهداء والغنائم من بنادق ومؤنة غذائية كانت مكدسة في مخازن الثكنة على ظهور الجمال والخيول التي تركتها خيالة العدو.

كانت نار الثكنة تضيء سماء المدينة التي بقيت ساهرة لثلاث ليالٍ، ليس احتفاء بالنصر فحسب، بل كان الجميع يتوجس من أن العدو سيصبّ نار مدافعه على رؤوس الناس انتقاماً لعار هزيمته، لكن لم يحدث ما توقعوه، بل إن إذاعة العدو التي تبث إرسالها من وراء البحار أعلنت خبراً لم يكن في حسبان أحد، تلقفته أسماع الناس بذهول ممزوج بالريبة، إذ أعلنت عن انسحابها التام من المدينة دون أن تذكر الخسائر، بل عللت الأمر بنيّتها ترك المدينة نهائياً، ومنح أهلها حرية إدارة شؤونها بأنفسهم.

وصل المدينة مندوب أجنبي بصحبة ممثل عن مركز إدارة الولاية. اجتمعا مع الشيخ حمدان والشيخ هاشم، دون إشراك أحدٍ غيرهما. تجمّع الناس في الباحة المحيطة بمضافة الشيخ حمدان وعلى وجوههم تلوح تعابير مختلفة. يتهامسون في ما بينهم وملامح الوجوه تتغير باستمرار. فجأة تجمدت الملامح على إشارات لها دلالتها ما بين العبوس أو الابتسام أو

الحيرة حينما شاهدوا المندوب الأجنبي والشيخ هاشم وهما يتصافحان بحرارة، تبدو واضحة من خلال الإطالة في المصافحة، بعد خروجهما من المضافة. كان المشهد يبعث برسالة واضحة الدلالة يوجهانها إلى سكّان المدينة الذين تجمعوا لسماع آخر أخبار الاجتماع.

في الليلة نفسها دعا الشيخ هاشم قيادة الثوار ليُطلعهم على ما دار من نقاش في الاجتماع، حول وضع بنود اتفاقية للهدنة وانسحاب قوات الغرباء ليس من المدينة وحدها، بل من الولاية كلها. تبدأ بنود الإتفاقية بعملية رفع الحصار وتبادل الأسرى وتنتهي خلال ستة أشهر بانسحاب آخر جندي وتسليم الحكم إلى سكان الولاية الحقيقيين. خرج بعدها الثوار إلى المدينة مرفوعي الهامات ليزفوا البشرى للناس الذين تلقوا الخبر بفرحة غامرة، فقد توقفت الحرب التي حصدت أرواح أولادهم بنصر لم يتوقعوه. رفع أحد الثوار صوته هاتفاً بحياة الشيخ هاشم الذي هزّ عاصمة الغرباء وأبكاها، فوجدَ هتافه صدى عند سكان المدينة الذين أضرموا النار وذبحوا الخراف على شحتها، وأقاموا الولائم ابتهاجاً بالنصر. كاد الابتهاج يوحّد صفوف الناس ويزيل عن النفوس ما قد علق بها من جراء الخلاف، لولا أن أحد الثوار ارتفع صوته منددا بالجبناء الذين تكاسلوا عن دعم الثورة، وهتف آخر بالموت للخونة، وقد فهم الهتاف على أنه إشارة واضحة إلى الشيخ حمدان ورجاله. استطاع العقلاء من الثوار أن يطفئوا نار الفتنة قبل إضرامها.

بعد ثلاثة أشهر وصل إلى المدينة وفدٌ من رؤساء عشائر الولايات وعدد من الضباط والمدنيين الأجانب، لتوقيع اتفاقية تسليم الولاية. أصر الثوار على أن يكون الاجتماع في ساحة الشهداء القريبة من الزقاق المؤدي إلى دار الشيخ هاشم. وضعوا منضدةً وكرسيين لم يجلس عليهما أحد، بينا جلس الوفد على كراسٍ من الخيزران صُفت بخط مستقيم. عزفت فرقة موسيقية بأبواق طويلة وقربٍ وطبول. فتح السكان أفواههم وهم يسمعون الموسيقى الصادرة من القرب المنفوخة، كان يعزف عليها

رجال شقر الشعور، حمر الوجوه ويرتدون ملابس غريبة بألوان براقة. ألقى رئيس الوفد الأجنبي كلمةً بدأها بـ (بسم الله الرهمن الرهيم)، فضج الحاضرون بالتصفيق والتكبير. وقف رئيس الوفد دقائق رافعاً ذراعه محيياً بغرور واضح المتجمهرين حتى توقفوا عن التصفيق، بينا وقف إلى جانبه رجل ببشرة سمراء وملامح تدل على أنه من مواطني الولاية، سيعرف لاحقاً بأن مهمته ترجمة ما يقوله رئيس الوفد. قال كلمة قصيرة، معرباً فيهاعن أسفه لما حدث من قتل وتدمير على مدى سنوات طويلة، ومعاهداً الحاضرين بأن بلاده ستبذل قصارى جهدها لإعادة إعمار المدينة وإيصال الماء والكهرباء إلى بيوت السكان والبدء بانشاء مشاريع كثيرة سيتم فيها تشغيل كل العاطلين عن العمل وبأجور لم يحلموا بها يوماً. بعد أن أنهى كلمته، جلس على أحد الكرسيين خلف المنضدة الخشبية. نهض الشيخ حمدان وبدأ خطبته بآية قرآنية ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، لم يفهم مغزاها إلا القليل، ثم طلب من الحاضرين أن يقرأوا سورة الفاتحة على أرواح الشهداء، فنهض الجميع، حتى أعضاء الوفد الأجنبي نهضوا من كراسيهم ومدوا أكفهم ورؤوسهم محنية بخشوع، ثم مسحوا وجوههم بأكفهم بعد الانتهاء من قراءة سورة الفاتحة. حيّى الشيخ حمدان جهود دولة الغرباء العظمى، وملكها العظيم وقادة الجيش والضباط لتفهمهم مطالب المواطنين ومنح ولايتهم الحرية والاستقلال. بعد أن انتهى من كلمته جلس على الكرسي الثاني لصق رئيس الوفد الأجنبي. جيء بكتاب كبير مفتوح على منتصفه ووضع بين الشيخ حمدان ورئيس الوفد. شاهد المتجمهرون الشيخ حمدان وهو يبصم بإبهامه. صفق رجال الوفد فصفق المتجمهرون، غير أن همهمة سرت بين بعض الشباب، ارتفعت شيئاً فشيئاً حتى تحولت إلى لغط، استمر بضع دقائق ثم تلاشى، بعد أن طغى عليه صوت الموسيقى التي

ارتفعت من الأبواق والقِرب والطبول. سار رئيس الوفد والشيخ حمدان بخطوات بطيئة نحو الصارية التي ارتفع عليها علم دولة الغرباء العظمى. اصطف أعضاء الوفد أمام العلم بوضع استعداد عسكري. مسك رئيس الوفد والشيخ حمدان حبل العلم وبدآ بسحبه إلى الأسفل فنزل العلم ببطء شديد. قام رئيس الوفد بسحبه من الحبل وطيه بعناية وخشوع ثم سلّمه إلى أحد مرافقيه. انتبه الجميع بأن الولاية لم تختر حتى الآن علماً، بل لم يفكر أحد بأهمية ذلك، حتى الثوار كانوا يرفعون في حربهم أو مسيراتهم الاحتجاجية أعلاماً خضراً أو سوداً لما لها من دلالة دينية. سرت ضجة بين الناس مترقبين ماذا سيرفع من علم كبديل لعلم دولة الغرباء. تقدم أحد خدّام الشيخ حمدان وخلع عن شيخه كوفيته وأراد أن يعلقها على الصارية كعلمٍ، فارتفع صراخ امرأة من بين الحشد، الذي انشق إلى نصفين. تقدمت امرأة في الستين من عمرها، طويلة القامة ترتدي السواد وقد شدَت العباءة على خصرها كأنها ذاهبة لمجلس عزاء أو موسم حصاد. كانت قد أسفرت عن وجهها، ورمت غطاء رأسها، فظهرت بضفيرةٍ واحدة والأخرى بدت واضحة أنها قد جزّت كما جرت العادة لإثارة حمية ونخوة الرجال كي يأخذوا بالثأر. كانت تحمل قميصاً رجالياً ملطخاً بالدم. عرفها البعض من سكّان المدينة بأنها أم لشهيد سقط في إحدى المعارك ضد الغزاة. تسمّر رجال الوفد الأجنبي في أماكنهم وراحوا يتطلعون بذهول إلى ما ستفعله المرأة. تقدمت من الصارية التي لا يزال الشيخ حمدان ورئيس الوفد الأجنبي واقفين أمامها. مررت حبل الصارية بجيب وكُمَ القميص الملطخ بالدم. أشار رئيس الوفد الأجنبي برأسه إلى أحد ضبّاطه فهرع مسرعاً. ساعد المرأة على ربط الثوب على الصارية، وأشار إليها بكيفية سحب الحبل. ارتفع الثوب المعفّر بدم الشهيد، علماً للولاية التي نالت استقلالها بفضل تضحية أبنائها ودمائهم. ضجت الساحة بالتكبير والبكاء.

استطاع الشيخ حمدان بفترة قصيرة أن يكسب ود الناس، إذ قام

بتقديم الهبات إلى عوائل الشهداء ووزع الصدقات على فقراء المدينة، حتى نسي الناس أمر شرعية حاكميّته والأفضلية التي كانوا يظنون أنها للشيخ هاشم، وحتى الشيخ هاشم نفسه وأنصاره لم يعد يفكرون بهذا الأمر، فاكتفى الشيخ هاشم بفتح مضافته، يستقبل فيها أنصاره ليلاً للمسامرة وتذكر أيام النضال ضد المستعمر، بينا مضافة الشيخ حمدان قد تحولت إلى مركز لإدارة شؤون المدينة بعد أن أعاد بناءها بالآجر الذي جُلب خصيصا لبنائها من مركز الولاية، واتخذ حراساً نظاميين يسيرون خلفه مدججين بالبنادق الطويلة بحرابها اللامعة. لم يتحقق أي شيء مما وعد به رئيس الوفد الأجنبي فلم يشربوا الماء الصافي من الأنابيب التي كانوا يتخيلونها وهي تأتيهم بالماء إلى البيوت، ولا الكهرباء أضاءت لهم عتمتهم، سوى ما كانوا يرونه من ضياء أصفر يتسرب من نوافذ قصر الشيخ حمدان فيسهرون الليل وهم يتطلعون إلى سحر الكهرباء التي يحلمون بها، وكلما حاول أحد أن يسخر من نفسه التي صدّقت وعود الغرباء الكفار، ترتفع ضده أصوات الآخرين مرددين (إن الله مع الصابرين) أو (انتهى الكثير ولم يبقَ إلا القليل) أو (القناعة كنز لا يفنى). تزوج الشيخ هاشم من أرملة أحد الشهداء، كان زوجها قد استشهد في الهجوم الأخير على الثكنة بعد يومين من دخوله عليها، ولم يمر شهران حتى تزوج من أرملة ثانية، شابة بعمر ابنته أو أصغر، فلم يعد مواظباً على حضور المضافة ليلاً، فسلّمها إلى ولده ناصر، وانشغل الثوار بأمور حياتهم فلم تعد الثورة هاجسهم، بل حتى الذكريات أصبحت مملة لكثرة ما استهلكتها الألسن، والشهداء أصبحوا قبوراً تُزار في الأعياد فقط، وكلما ذُكر اسم شهيد عرضاً، اكتفى الذاكر والسامع بالترحم وقراءة سورة الفاتحة. فتحت الأرامل شهية وشهوة رفاق الأمس فتزوج كل منهم واحدة أو أكثر برضا زوجاتهم اللواتي أقنعهن الشيخ هاشم بأن لهن ثواباً عظيماً عند الله إنْ شجعنَ أزواجهنّ على الزواج من الأرامل للحفاظ على شرفهن وعلى الأيتام من الجوع والضياع.

طرق أحد حراس حماية الشيخ حمدان باب الشيخ هاشم، فخرج إليه ناصر مرحباً، قابله الحارس بعبوس وهو يحرك كتفه التي علق عليها بندقيته.

«أين أبوك؟»

فوجئ ناصر بالطريقة التي يتحدث بها الحارس فردّ عليه ساخراً:

«علوان... ما بك؟ ماذا جرى؟»

«إششششش»

قال الحارس، ثم أضاف بطريقة آمرة:

«لا تزد بالكلام.. نادِ على أبيك!»

تجمّد ناصر، منذهلاً من أسلوب الحارس. دخل إلى البيت لينادي أباه، الذي خرج حاسر الرأس. استقبل الحارس بابتسامة وكلمات ترحيب، قابلها الحارس بالصمت.

«أهلا علوان، ماذا جرى؟.. تفضل».

«السيد يطلبك.. وعليك الحضور معي حالاً إلى مركز المدينة».

قال الحارس وهو يتطلع إلى الأعلى. أدرك الشيخ هاشم بأن شيئاً قد حدث، فسأل بتعجب:

«السيد!؟.. من السيد؟»

«وكم سيد في المدينة؟»

قال الحارس بغلظةٍ وهو يحدق إلى وجه الشيخ هاشم الذي لم يجرؤ أحد من قبل على النظر إلى وجهه بهذه الطريقة. هزّ الشيخ رأسه وابتسامة سخرية على شفتيه. قال:

«اذهبْ علوان... وسأذهب لمقابلة الشيخ حمدان بعد قليل».

«لا.. عليك أن تأتي معي الآن وبدون تأخير».

قال الحارس بطريقة جعلت الشيخ هاشماً يفغر فمه دهشةً.

«طيب.. طيب. سأحضر حالاً».

قال الشيخ وراح يردد بهمس:

«لا حول ولا قوة إلا بالله.. استر يا رب.. سبحان مغير الأحوال..»

كان الشيخ حمدان يجلس خلف مكتبه وهو يدير مقبض التلفون النحاسي، حينما دخل عليه الشيخ هاشم. أشار بيده الأخرى إليه بالجلوس، فجلس الشيخ هاشم وهو يتطلع إلى أبهة الغرفة والمكتب غير مصدق لما يراه. كان الشيخ حمدان يفتعل الانشغال بالتلفون متأففاً. توقف عن تحريك مقبض التلفون وتطلع إلى الشيخ هاشم معتذراً عن انشغاله ونسيان الترحيب به لكثرة مشاغله وعن صعوبة الإتصال بمركز الولاية. أدار رأسه إلى عدة جهات قبل أن يبدأ حديثه عن ثقل المسؤولية، وعن الأوامر التي تأتيه من (فوق) والتي تجعله محرجاً أمام أهله وأحبابه لما تضمر هذه الأوامر من تناقض كبير بين المصلحة الشخصية والمصلحة العامة للولاية. أصغى إليه الشيخ هاشم دون اهتمام كبير لما يعرفه عن الشيخ حمدان ومراوغته وكذبه. مرت فترة صمت بينهما وهما يرتشفان القهوة، قطعها الشيخ حمدان وهو يتنحنح بافتعال:

«أرجو منك يا أخي هاشم أن تقدر الظرف الذي تمر به الولاية... وثقل المسؤولية التي أقسمتُ بالله العظيم على أن أتحملها من أجل المصلحة العامة».

هزّ الشيخ هاشم رأسه وهو يردد:

«الله المعين... بارك الله في جهودك...»

هزّ الشيخ حمدان رأسه بغرور، وعاد إلى صمته، فسأله الشيخ هاشم:

«ما المطلوب مني؟»

اعتدل الشيخ حمدان بجلسته وقال دون أن يتطلع إلى وجه الشيخ هاشم:

«أخي هاشم، وصلتني هذه الوثيقة...»

قال ودفع بورقة صفراء ممزقة. تناولها الشيخ هاشم وراح يحاول أن يقرأها فلم يفهم منها شيئا، فسأل:

«ما بها؟»

أجابَ الشيخ حمدان:

«الوثيقة التي وصلتني أمس من مركز الولاية... تقول إن البستان المحاذية للنهر قد أقيمت على أرض كانت وقفاً لبيت مال المسلمين».

«غير صحيح».

قال الشيخ هاشم وهو يتطلع إلى محدثه بنظرات غاضبة، فرد الشيخ حمدان:

«يا أخي هاشم.. أنت تعرف أني عبد مأمور... وأن الأمر بمصادرتها وإعادتها إلى خزينة الولاية... باعتبارها الوريث الشرعي لبيت مال المسلمين... قد صدر من هناك... من فوق... وأنت تعلم... ليس من حقي... ولا من حق أحد الاعتراض عليه».

لم يجد الشيخ هاشم ما يرد به على الافتراء، فضرب طرف عباءته بكفه، وهب واقفاً. تطلع إلى الشيخ حمدان بغضب وقال:

«لن يكون هذا إلا على جثتي».

خرج وعيناه تتقادحان بشرر الغضب. مشى بضع خطوات ثم توقف، بعد أن تنبه إلى وجود عدد كبير من الرجال والنساء يقفون عند باب مكتب الشيخ حمدان. شاهد من بينهم بضعة رجال من الثوار القدامى، فشعر بأن الأمر لا يخصه وحده. عاد ليستفسر عن الأمر فأسرع إليه أحدهم. سأله الشيخ هاشم مستغرباً وقوفه هنا، فردّ الرجل ووجهه ملبّد بغيم الحزن والغضب:

«الشيخ حمدان يطالبنا بسداد القروض التي استلفناها منه أثناء فترة الحصار... وفوق ذلك يطالبنا بسداد الفوائد التي ترتبت عليها..».

شعر الشيخ هاشم بأن جبلاً قد انهار عليه، فانعقد لسانه ولم يستطع أن يقول سوى:

«لا حول ولا قوة إلا بالله».

خطا بقدمين لا تعرفان موضعهما على الأرض، وساقيين لا تقويان على حمله.

لم تنفع محاولات الناس من ثني الشيخ حمدان عما ينوي فعله وتهديده لهم باللجوء إلى القوة لاسترجاع حقه، ومضاعفة الفوائد في حالة التأخير في تسديد القروض، وحينما سألوه ماذا بوسعهم أن يفعلوا إن كانوا عاجزين عن الحصول على قوت يومهم، فكيف بتسديد ديون سابقة، كانوا يعتقدون أنهم سددوها من دمائهم وأرواح أبنائهم.

«ألم تستحِ وأنت المسلم أن تأخذ فوائد على القرض؟ أليس هذا هو الربا الذي حَرمه الله ورسوله؟ أمسلمٌ أنت أم يهودي؟»

خاطبت عجوز محنية الظهر الشيخ حمدان، فردد الباقون ما قالته المرأة، عندها رفع الشيخ حمدان يده مخاطباً المتجمهرين عند باب المركز، بينا اندس حراسه بين المتجمهرين وراحوا يدفعونهم بعيداً عن المكان الذي وقف فيه الشيخ حمدان.

«اسمعوني.. أنا مسلم ولا اسمح لأحد أن يشكك بإيماني... ولكن هناك فارق كبير بين الربا والفوائد... فمن ضرورات الحياة الجديدة وبناء الدولة الحديثة... هو نظام المصارف التجارية التي تعتمد على منح القروض واستيفائها بفوائد على أقساط..».

قاطعه رجلٌ بغضب:

«وماذا لو قلنا لك إننا لا نستطيع الدفع؟»

تطلعَ الشيخ حمدان بوجه السائل ثم خاطب الجميع:

«الأمر بسيط جدا.. من لا يستطيع دفع ما ترتب عليه من قروض وفوائد... عليه العمل عندي أجيراً إلى أن يسدد ما عليه من ديون».

«أيها الحقير أتريد منا أن نكون عبيداً عندك؟»

صرخ أحد المتجمهرين رامياً نعله باتجاه الشيخ حمدان. هجم عليه الحراس بأعقاب بنادقهم، إلاّ أن الرجال استطاعوا أن يخلصوه من قبضتهم.

اجتمع بعض الذين لا يزالون محتفظين ببقايا ثوريتهم ليجدوا حلاً لهذه المشكلة التي لم تكن في حساب أحد منهم. فسّروا الأمر على أنها مؤامرة دنيئة حاك خيوطها الغرباء وذلك بتنصيب الشيخ حمدان الذي كان متعاوناً معهم في فترة الاحتلال للحصول على ما لم يستطيعوا الحصول عليه بالقوة، فها هم قد خرجوا من الباب ليدخلوا من الشباك بشخصية عميلهم حمدان. كان من بين الثوار من ألقى اللوم على الشيخ هاشم الذي آثر السكوت والاستكانة على تنصيب شخص مشبوه كان يتعامل مع قوات الغرباء في الوقت الذي كان الثوار يدفعون دماءهم من أجل إخراج المحتل من مدينتهم.

باع الشيخ هاشم إحدى قطعتي الأرض اللتين كانتا آخر ما تبقى له من ملكية بعد أن تمت مصادرة البستان بحجة اختلقها الشيخ حمدان. سدد بثمنها ما ترتب من ديون على بعض رفاقه من الثوار القدامى، وفكَّ رقبة أيتام استعبدهم الشيخ حمدان بعد أن عجزوا عن دفع ديون آبائهم.

كان الشيخ هاشم جالساً في مضافته ليلة الخميس مع بعض الثوار ممن لم يعلنوا عن قطيعتهم له، وكان الحديث يدور حول ما آلت إليه الأمور، وعن المصير المظلم الذي تسير إليه حال الناس في المدينة بعد أن كشّر الشيخ حمدان عن أنيابه الشرسة وأطماعه التي لا تنتهي، حينما دخلت امرأة حاسرة الرأس، متجهة إلى حيث يجلس الشيخ هاشم. وقف الرجال مستفزين، محاولين منعها من الدخول، فهذه المرة الأولى التي تتجرأ فيها امرأة على الدخول إلى مضافة هي مكان للرجال فقط. طلب الشيخ منهم أن يفسحوا لها الطريق لعل أمراً أجاءها إلى اقتحام المضافة، أو حاجة دفعتها. تقدمت المرأة حتى صارت قبالة الشيخ تماماً. مدتْ يدها فمسكت وجه الشيخ. سحبته إليها من لحيته، ثم أطلقت ما لم يكن يتوقعه أحد في كابوس:

«تفوووووووووووووووووو»

هجم رجلان على المرأة إلاّ أن الشيخ هاشم أشار إليهما بصمت أن

يعودا إلى مكانيهما فعادا، بينا كان الباقون ينظرون إلى المشهد ووجوههم يغطيها غيم أسود يكاد يمطر قطراناً. انسحبت المرأة بهدوء، ودون أن تنظر إلى بقية الرجال غادرت المضافة بصمت.

أخرج أحد الرجال من جيبه منديلاً ونهض ليمسح عن وجه الشيخ الرذاذ الذي غطى لحيته وحاجبيه. رفع الشيخ يده معترضاً فعاد الرجل إلى مكانه. طأطأ الرجال رؤوسهم وساد صمت لا تسمع فيه نأمة، غير صوت تحشرج الأسى في الأرواح وصوت غليان الدم في العروق. حاول الشيخ هاشم النهوض فخذلته ساقاه. هبّ ناصر نحو أبيه. وقف خلفه. مد ذراعيه تحت إبطيه وساعده على النهوض. مسكه من ذراعه وسار به للخروج من المضافة بينا وقف بقية الرجال مودعين بصمت، وسار البعض منهم خلفه. عند باب المضافة توقف الشيخ هاشم. ارتفع صوت تنفسه كشخير ثور مذبوح. كان يحاول التقاط أنفاسه بصعوبة. انهار على الأرض كشمع ذائب. كانت عيناه مفتوحتين كأنهما تحدقان إلى السماء بغضب، وعلى شفتيه ابتسامة سخرية عريضة. امتدت كف ناصر إلى وجه أبيه. أغلق عينيه بهدوء، ماسحاً وجهه ولحيته من بقايا الرذاذ.

* * *

أدركَ محمد أن عيون العمال والمزارعين التي تحدق إليه كلما ذُكر اسم جده تخفي وراءها حكايةً، لكنه لم يكن يعرف الحكاية بهذا التفصيل، حتى أنه لم يخطر في ذهنه أن البستان التي يحرسها الآن تعود ملكيتها إلى جده هاشم، اغتصبها منه الشيخ حمدان وورثها عنه ابنه رضا.

* * *

(٦)

حينما وصل محمد إلى دار الحاج رضا مساءً للحصول على تموينه اليومي، شاهد العمال والمزارعين وقد اجتمعوا كالعادة منتظرين نداء الطباخ ليصطفوا «كالخراف في طابور الإعتلاف»، غير أنه شاهد ولأول مرة الحاج رضا يقف بينهم ووجهه تتلاطم فيه موجاتُ الغضب، فتوجس أمراً غريباً قد حدث. انضم إلى حشد الواقفين محاولاً، لسبب لا يعرفه، ألّا يكون على خط نظر الحاج رضا. كانت عيون العمال متحفزة للمشهد كأنها بانتظار شي سيحدث. أدرك أنه الوحيد الذي يجهل الأمر فاقترب من أحد العمال وسأله هامساً، غير أن العامل تجاهل سؤاله، وحينما ألح عليه، وضع العامل سبّابته على فمه كإشارة للصمت. غابت الشمس ومرت أكثر من ساعة على الموعد المعتاد لتوزيع التموين حينما جاء عبيد الحنظل بصحبة رجلين يسحلان زنجياً ممزق الثياب. كان يرتعش من البرد وقد غطى الدم وجهه مختلطاً بمخاط وزبد عند أنفه وفمه. قام الرجلان بربط الزنجي على جذع نخلة، ومزقا بقية ملابسه حتى أصبح عارياً إلا من لباسه الداخلي الفضفاض. تطلع عبيد الحنظل إلى الحاج رضا فأشار إليه برأسه. مسك عبيد بسوط طويل وبدأ بجلد الزنجي. كان الزنجي صامتاً وهو يتلقى ضربات السوط حتى ازرقّ جلده وسال الدم خطوطاً على ظهره، فازدادت ضربات عبيد الحنظل عنفاً، حتى ارتفع صوت لهاثه. توقف وقد بدت شفتاه ترتعشان بوضوح. سلّم السوط إلى أحد الرجلين الذي استلم المهمة بتردد. صرخ به عبيد الحنظل ليبدأ بجلد (اللآبق) دونما رحمة. رفع الرجل السوط وأنزله على ظهر الزنجي على

مضض، إلا أنه بعد الجلدة الثالثة تخلى عن تردده وراح يمارس عنفاً ليس أقل من عنف الحنظل، حتى ندت صرخة قوية من الزنجي اهتز على صداها سعف النخلة، ثم خمدت أنفاسه. كان محمد يراقب المشهد ويهرش بجسده ورأسه كأن مارداً في داخله يتلوى ويحاول الخروج، ومع الصرخة الأخيرة للزنجي انطلق المارد بصرخة «لاااااااا» وتحرك من مكانه باتجاه النخلة إلاّ أن رجلاً كان يقف خلفه، مسكه من الخلف متشبثاً بنطاقه حتى أوقفه، بينما امتدت يد رجل آخر على فمه لتوقف صراخه.

بعد ان أجرى محمد جولة روتينية بمحاذاة سور البستان، عاد إلى الكوخ. جلس عند بابه وكان الليل أكثر عتمة من الليل. وضع أغصاناً يابسة في العلبة المعدنية وأضرم النار فيها. جلس القرفصاء أمام النار، مصغياً إلى طقطقات الأغصان وفحيح النار. كان يحدق إلى النار هروباً من مشهد الجلد الذي التصق في حدقته، يحاول أن يجد تفسيراً لهذه القسوة التي مارسها عبيد الحنظل في جلد الزنجي لسبب لا يعرفه. مفردات كثيرة تزاحمت في ذهنه مرتطمة بعضها ببعض، وكأن قاموس الحياة قد ضاق بجمعها. القسوة، الرحمة، الخوف، التردد، الاستكانة، التمرد... الخ. قفزت إلى ذهنه كلمة (الآبق) التي سمعها تتردد على لسان عبيد الحنظل حينما كان يجلد الزنجي. هو لا يعرف ماذا تعني هذه المفردة، لكنه قد سمعها من قبل، بل إنه استنسخ أثناء عمله عند الشيخ نوفل مخطوطة كاملة بعنوان (السوطُ الناطقْ في ترويضِ المارقِ والآبقْ). شعر بأسف شديد أنه لم يعر اهتماماً كبيراً لما ورد في المخطوطات، غير أنه طمأن نفسه بأنه لا يزال يحفظ الكثير مما ورد فيها عن ظهر قلب، وأن الطريق للوصول إليها، بل الحصول عليها لا يزال سالكاً، طالما أن هناك نفقاً سرياً يصله إلى سرداب الشيخ نوفل وأكثر أسراره سرية.

«بهيجة»

ردد محمد مع نفسه، وكأنه تذكرها الآن، أو ربما خوفه من قسوة ما رأى جعله يستغيث بها كرقّةٍ تعيد للحياة في نظره توازنها، وتشعره بأمان من خوف يحاصر روحه. ماذا جرى لها؟ هل لا تزال تتذكر طعم القبلة فتتحسس شفتيها كما يفعل؟ هل تستحضر طيفه إلى سريرها كل ليلة كما يفعل؟ ولمَ لم تتصل به؟ ألم تعده بأنها ستتولى ترتيب أمر لقائهما؟ هل نسيته أو أنها لا تعلم عن مكان وجوده؟. شعر بشوق إليها. حاولت يده أن تمتد إلى جسده، غير أن ما حدث الليلة جعله يشعر بالخجل من التفكير بجسد بهيجة. أخرج القدح الفخاري وراح يتأمل زخارفه وخطوطه المبهمة. هل أصابته عدوى معلمه فراح يتطلع إلى كل أمر وحادث بأنه يحمل رمزية أو رسالة مشفرة موجهة إليه؟، فهذا القدح لابد أن يحمل رسالة أرادته بهيجة أن يقرأها بتمعن، وما رآه اليوم كان رسالة موجهة إليه.

«ممن؟»

سأل نفسه فردّت بغرور:

«من الغيب».

هو يعرف أن الأمر ليس كذلك، لكن شعوره بأن ما حدث للزنجي قد يحدث معه أو مع غيره، مادام هنالك سوط يرفعه ذو سطوة، ومادام هنالك خائف يتستر خلف جدار أنانيته مؤجلاً التفكير في ما سيحدث له طالما أن الأمر قد وقع على غيره.

«السلطة».

ردد مع نفسه المفردة التي سحره وقعها بالأمس، غير أنه شعر بالخجل من التفكير فيها، فلا يمكن أن يتخيل نفسه في موضع عبيد الحنظل أو الحاج رضا.

«السلطة المضادة».

لا يدري كيف قفزت العبارة إلى ذهنه. فرح باختراعه لهذه العبارة التي لم يقرأها أو يسمعها من قبل، حيث وجد فيها ما يبقي له طموحه، دونما خجل من سوط يجلد به ظهور الآخرين.

«السلطة المضادة... لتحطيم صنم استبداد السلطة».

شدَ محمد قبضته بقوة كأنه يمسك الهواء من عنقه، ثم تراخت قبضته شيئاً فشيئاً:

«ولكن ألا يمكن أن تحل السلطة المضادة محل السلطة وتأخذ مكانها فتبقي السوط نفسه ولكن بيد شخص آخر غير عبيد الحنظل..؟»

أسئلة اضطربت في رأس محمد كخفافيش تتخاطف في العتمة، مصغياً بحذر إلى ضجيج ارتطامها، حيث كلما خطرت في ذهنه فكرة لم تستقم على عرش سيادتها سوى لحيظات لتولد فكرة أخرى نقيضة لسابقتها. أشفق على نفسه من هذه الأفكار التي تتناطح في ما بينها، ممنياً نفسه بأن له متسعاً من الوقت، وأنه سيفكر بهدوء حتى يستقر على رأي ثابت، ولكن من أين سيبدأ.

حاول أن يتذكر ما ورد في مخطوطة (السوطُ الناطقْ في ترويض المارقِ والآبقْ)، لعله يجد جواباً لما شعر به دون الآخرين الذين راحوا يلتهمون عشاءهم كضباع جائعة بعد دقائق قليلة من رؤيتهم لحفلة الجلد، كأن الأمر لا يعنيهم أو أنهم اعتادوا عليه.

«أعلم يا صاحبي أن العبودية تبدأ كتطبع في النفس غير أنها تصبح مع الممارسة والترويض طبعاً وسجيّة، وأعلم أن إيثار الرعية الصبرَ خوفاً من التمرد هو الخطوة الأولى على طريق ترويضها لقبول العبودية، وما أن قبلت بها حتى اعتادت عليها وتوارثتها بحكم العادة بل راحت تدافع عنها وعن سيادة أسيادها المتوارثة، متحججة بقدرية عبوديتها...... ألم ترَ الدجاج على الرغم من أجنحته إلا أنه لا يجيد الطيران، فقد أذلّه التدجين فأضعف جناحه، فالتحليق ليس بالريش فحسب بل بشهوة الطيران، وقد يحرس الذئب الغنم لو أحسن ترويضه...... وأعلم يا صاحبي أن أكثر ما يخيف العبد هو الانعتاق، فالعبد كالأعمى لا يعرف حياةً خارج عمى عبوديته، وكل مجهول محاط بالريبة ومدعاة للخشية...».

شعر بأنه قد أدرك شيئاً لم يكن يدركه، لو لم يرَ الذي رآه اليوم، لكنه شعر بالخوف وهو يسترجع ما ورد في المخطوطة ويرى صحة الكلام في ما رآه اليوم من خنوع ورضوخ عند العمال والمزارعين الذين شاهدوا كما شاهد هو كيف يجلد صاحبهم، فلم ينبس أحدهم ببنت شفة وهم على يقين بأن الدور سيأتي إليهم يوماً. كان خوفه من أنه سيألف المشهد ويرضخ لقبوله ثم يعتاد عليه، فما رفضه الآن قد لا يختلف عن التردد الذي أبداه العامل الذي سلّمه عبيد الحنظل مهمةَ جلد الزنجي.

«وما أن قبلت الرعية بعبوديتها حتى اعتادت عليها وتوارثتها بحكم العادة».

كرر ما ورد في المخطوطة عن العبودية، مقارناً بين ما ورد فيها وما رآه. صرخ:

«لا».

«لن أكون».

«سأهرب».

«لا»

«سأتمرد».

«كيف؟»

«الثورة».

أين التقطت أذناه هذه الكلمة؟. حاول أن يتذكر. لم يقرأها في مخطوطة ولا سمعها تتردد يوماً على لسان أحد ممن عرفهم، بل سمعها تتردد على أفواه الغرباء الذين كانوا يحضرون إلى المقهى وهم يتهامسون ويتبادلون قصاصات الورق.

«الثورة ضد الظلم».

ردد مع نفسه بزهو ثائر قررَ أن يحمل على كاهله مسؤولية، كان يتوهم أن رسالة الغيب قد حمّلته إياها. كانت هذه الأفكار تدور في ذهن محمد

بنزق مراهق يحلم في تغيير السنن والنواميس برسالةِ نبوّة يصفطيه الغيب لحملها. شعر بشيء من راحة الضمير كأن قرار ثورته المؤجلة التي يحضّر للبدء بها قد أعفاه من التمرد على الظلم في الوقت الحاضر. فتح صرة طعامه الذي لم يتناوله بعد أن سدّ مشهد الجلد شهيته. جلس كمحارب في استراحته وراح يتناول طعامه ببطء.

هبّت رياح باردة من جهة النهر، محدثة صفيراً موحشاً كعواء ذئب. ألغى جولته الثانية حول البستان مبرراً كسله بشتيمة ثورية وجهها إلى مالك البستان. دخل إلى غاره. تمدد تحت اللحاف، ملتفاً على نفسه بطريقته الأثيرة في النوم كجنين في رحم أمه، متدفئاً بزفيره، ولكي يمنع النوم من أن يباغته، رفع ذبالة الفانوس، متطلعاً إلى ذبذبة الضوء على الجدار، وقفزات النار الصغيرة وهي تلتهم قطن الذبالة. تأسفَ أنه لم يجلب معه قلماً وورقاً كي يكتب فيه ما يرد على ذهنه من تأملات وخواطر، فراح يردد ما بقي عالقاً في ذهنه كيلا ينساها.

* * *

«الليلُ حرابٌ أو قضبانْ

ونبيٌّ أعمى

يتلمسُ درباً في الروحِ

ليوقظَ قبلَ الفجرِ

الربَ النائمَ في الإنسانْ»

* * *

«أنا يوسفٌ

لم أكنْ أعرفُ الحبَّ بعدُ

ولم أعِ سحرَ الغوايه

أوهمتني البدايه

أوهمتني الكواكبُ أن النبوءةَ عبءٌ ثقيلْ

والجسدْ

آفةُ الروحِ

قال أبي.».

* * *

«عصفورٌ يخطفُ من عين النسر سماءَه

يعبرُ في السرّ فضاءَه

يثقبُ غيماً

يملأُ كأسَه بالنورِ

ظلُّ العصفورِ فسيحٌ

لكنْ

ما من أحدٍ يسمعُ في الصمتِ غناءَه»

ما أن وصل محمد إلى الضفة الثانية للنهر، حتى اقترب منه أحد العاملين وأخبره بتردد وخوف بأن عبيد الحنظل قد سأل عنه وطلب منه أن يحضر إليه حالاً. انقبض قلبه وقد خطرت في ذهنه فكرة أن يكون الدور قد وصل إليه وستقام الليلة حفلة جلده، ولكنه لم يبدأ ثورته بعد، فكيف وصل خبر ثورته المؤجلة إلى عبيد الحنظل؟. حاول أن يخفي خوفه أمام العامل فهز رأسه بكبرياء، ودخل القصر. نهض عبيد الحنظل لاستقباله بابتسامة عريضة بددت شكوك محمد. وضع يده على كتف محمد ودون أن ينطق بكلمةٍ، سار به في الرواق إلى مكتب الحاج رضا. فتح الحنظل باب المكتب وأشار إلى محمد أن يسبقه في الدخول فلم

يتردد محمد. انسحب عبيد الحنظل ثم أغلق الباب. أشار الحاج رضا إلى محمد بيده للجلوس على كرسي جنب المكتب. لم تبد على وجه الحاج رضا أية علامة تدل على الغضب، وهذا ما طمأن محمد. جلس واضعاً كفيه بين ركبتيه، مترقباً أن يبدأ الحاج رضا بالحديث، وقد كان مشغولاً بربط رزم الفلوس وتنضيدها في خزانة حديدية صغيرة تقع إلى يمينه. ابتسم الحاج رضا وهو يردد كلمات الترحيب بصيغة توحي بالاحترام «ابن الأخ» و«ابن الأكارم» و«حفيد تاج الرأس هاشم». أثنى على حرص محمد وأمانته بكلمات لا توحي بأنه يضمر شعوراً محدداً بحب أو كراهية وإن كانت لا تخلو من مودةٍ.

«شكراً على حرصك وعلى التزامك بحراسة البستان».

قال الحاج رضا، فهزّ محمد رأسه، مردداً بطريقة توحي بالنضوج والثقة بالنفس:

«لا شكر على واجب».

ثم ساد صمت بينهما، فشعرَ محمد بأن لا شيء يدور في ذهن الحاج رضا مما توهمه، فلامَ نفسه على سوء الظن. انتهى الحاج رضا من صف آخر رزمة مالية وأغلق الخزانة. اعتدل بجلسته على الكرسي متطلعاً بوجه محمد وهو يفرك مسبحته العقيق بين كفيه:

«اليوم صباحاً كنت في المدينة والتقيت أخاك مناف...»

قفز قلب محمد من الشوق إلى أخيه فظهرت علامة شوقه واضحة على وجهه. أدرك الحاج رضا ذلك، فلاحت على وجهه ابتسامة اعتذار ممزوجة بألفة لا تخطئها العين، قابلها محمد بصمت، فسألَ بكبرياء تدّعي الصلابة والرجولة:

«وكيف مناف؟»

«بخير».

ردّ الحاج رضا وأضاف:

«يبلغك السلام... هو مشتاق إليك».

«وأنا مشتاق إليه».

قال محمد، دون أن يرفع رأسه، فرد الحاج:

«أعرف.. أعرف.. ولذلك طلبت حضورك».

لم يفهم محمد ما يرمي إليه الحاج رضا فردّ ببراءة:

«شكراً... شكراً عمي».

هز الحاج رضا رأسه ولاح في عينيه بريق دمعة، تداركها بالتفاتة إلى جهة اليمين مفتعلاً انشغاله بالخزانة. فتحها وأخرج منها ثلاث أوراق نقدية. مدّها باتجاه محمد الذي تناولها متردداً، وقد خطرت في ذهنه أن الحاج رضا يقرر تسريحه من العمل، إلا أنه قطع هاجسه حينما خاطبه برسميةٍ غير متعالية:

«هذه أجرتك للأشهر الثلاثة... وغداً عند الفجر بإمكانك الذهاب إلى بيت أخيك.. في إجازة لأسبوع».

شعر محمد بفرح للسماح له بقضاء إجازة في المدينة. حاول كتمان فرحه لئلا يظن الحاج رضا بأنه فرح بما حصل عليه من مال. هزّ رأسه شاكراً ونهض ليغادر غرفة المكتب، وقبل أن يطبق الباب وراءه، ناداه الحاج رضا. أشار إليه إن يتقدم حتى توقف ملتصقاً بحافة المكتب. أخرج الحاج رضا ورقة نقدية رابعة وسلّمها إلى محمد الذي تردد في أخذها، إلاّ أن الحاج رضا أصرّ عليه:

«هذه مكافأة لحرصك وأمانتك».

وبطريقة مرحة أكد ممازحاً:

«ولكن تذكرْ.. إجازتك أسبوع... أسبوع فقط... بلّغ سلامي إلى مناف... مع السلامة».

كانت فاطمة تقف خلف الباب حينما وصل محمد إلى الدار، وقبل أن يطرقه انفتح بفرجة صغيرة، فقد علمت من زوجها بأن محمداً سيصل اليوم. احتضنته بشوق أمّ وراحت تقبّل وجهه بانفعال أينما وقعت شفتاها، وتمرر كفيها على شعر لحيته الذي استطال فغطّى وجنتيه، وشعرِ

رأسه الأشعثْ. قبّل محمد يديها وقد بللها بدموعه. لم تنتظره طويلاً كي يرتاح من سفرته، فقد وضعته في الطست وراحت تفرك له رأسه وظهره، وعلى الرغم من رفض محمد ومحاولته الإفلات من إصرارها بشتى الحجج، إلا أنها أصرت عليه، فامتثل بحب. كان محمد لا يعرف أمّاً سوى فاطمة التي كانت تغمره بالحنان، خاصة وأن كلا منهما قد افتقد هذا الحب، محمد بوفاة أمه ساعة ولادته، وفاطمة التي كان إنجابها لعلي بعد خمسة عشر عاماً من زواجها من ابن عمها مناف يعد معجزة لم تحدث لولا رحمة الله.

عاد مناف مبكراً من عمله وكانت فاطمة قد أعدتْ عشاءً احتفالياً. جلسا وهما يتطلعان بوجه محمد الذي جعلته الأشهر الثلاثة يقفز على الزمن، إذ بدا في ناظريهما شاباً يافعاً، اكتملت لحيته وتهدّل شاربه حتى غطى شفته العليا، وأكثر ما لفت انتباههما هو نضوجه العقلي، فقد عاد من رحلته رجلاً مكتمل الرجولة، واثقاً من نفسه حينما يتكلم أو يتحرك وإن بدا شروده الذهني واضحاً، فسّره مناف بأنه يخفي أمراً سيسأله عنه لاحقاً، ولكن أكثر ما كان يخيفه أن يكون محمد قد سمع من أحد العاملين عند الشيخ رضا قصة جده هاشم، واكتشف أن البستان التي يعمل فيها حارساً تعود ملكيتها لهم الثلاثة، فقد كان يتوجس في نفس أخيه رغبة خفية في البحث عن المشاكل يدفعه إليها طموح فتوته الجامحة وشعوره بالغبن يدفعه للأخذ بثأر نفسه من الحياة التي ظلمته، طموح عجز عن تحقيقه جده وأبوه، أما فاطمة فكانت تتحين الفرصة للاختلاء بمحمد لتخبره بما عرفت في غيابه. بكى علي فهرعت فاطمة إلى الغرفة لإرضاعه.

«كيف العمل عند الشيخ رضا؟»

سأل مناف وهو يدير الملعقة في كأس الشاي.

«ليس صعباً».

أجاب محمد، منتظراً أن يأخذ الحديث مجراه ليخبره بما رأى.

«الشيخ رضا رجل طيب وكريم».
قال مناف، ثم أضاف دون وعي منه:
«على العكس من أبيه».
قال ذلك مستبقاً ما كان يحذر منه باكتشاف الحقيقة التي يسعى إلى إخفائها عن أخيه. هزّ محمد رأسه، ماطاً شفته السفلى، موحياً بأن رأي أخيه بالحاج رضا مبنيّ على جهل في حقيقته. أدرك مناف ما يدور في ذهن أخيه، فسأله:
«أليس كذلك؟»
فأجاب محمد برزانة وهدوء:
«لم يُبدِ أمراً سيئاً تجاهي ولكن...»
قبل أن يكمل محمد جملته قاطعه مناف:
«وهذا هو المهم... فما شأنك بالآخرين؟»
«كيف لا يكون شأني وأنا أشهد حفلةً جلد إنسانٍ مثلي، وإنْ كان زنجياً؟»
ردّ مناف بصوت مرتفع قليلاً:
«وما شأنك أنت بالزنجي... ما دامت السياط لم ولن تسقط على ظهرك؟»
أدار محمد رأسه إلى كل الجهات كأنه يبحث عن شيء، ثم ركّز نظره في الأرض، وبصوت هادئ قال دون أن ينظر إلى وجه أخيه:
«إن العبودية تبدأ كتطبع في النفس... غير أنها تصبح مع الممارسة والترويض... طبعاً وسجيةً... وإن إيثار الرعية الصبرَ... خوفاً من التمرد... هو الخطوة الأولى على طريق ترويضها... لقبول العبودية... وما أن قبلت بها... حتى اعتادت عليها... وتوارثتها بحكم العادة... بل راحت تدافع عنها... وعن سيادة أسيادها المتوارثة... متحججة بقدرية عبوديتها».
تطلع مناف إلى أخيه، وبذهول سأله:
«من أين جئت بهذا الكلام؟»

وقبل أن يجيب محمد، سأله مناف وهو يهزه من كتفيه بغضب، وشفتاه ترتعشان:

«هل تعلمت هذا الكلام من مخطوطات الشيخ نوفل؟»

لم يجبه محمد واكتفى بأن هزّ رأسه نافياً، فعاد مناف وهو يتطلع إلى عيني محمد وشرر يتطاير من عينيه، مشيراً إليه بسبّابته مهدداً:

«اسمع يا محمد... إنْ لم تكف عن ترديد مثل هذا الكلام... فلن أدعك تعود إلى العمل عند الحاج رضا».

صمت قليلاً ثم أضاف:

«نحن لا ينقصنا وجع الرأس».

هزَ محمد رأسه مطمئناً أخاه حتى هدأت سورة غضبه. ضمّه إلى صدره، معتذراً عن غضبه، مبرراً ذلك بتعبه من العمل. ابتسم محمد دون أن ينطق بكلمة، فنهض مناف ليدخل غرفة نومه.

دخلت فاطمة إلى غرفة محمد فنهضَ كأنه بوغت بدخولها فحاول إخفاء ما كان يفكر فيه. ابتسمت بمكر، هازةً رأسها. جلست على حافة السرير. حاول أن يعتدل بجلسته على السرير فأعادت رأسه على المخدة واضعة كفها على رأسه مداعبةً شعره الذي أعادت النظافة إليه بريقه الأبنوسي. قالت بحنان:

«لا تغضب من كلام أخيك... فأنه يحبكَ... ويخاف عليك».

«ولكنكما مازلتما تنظران إلي كطفلٍ».

ارتفعت ضحكة فاطمة فاستدركت واضعة كفها على فمها. داعبت شعره بحركة سريعة من كفّها، ثم قرصت وجنته برقة، ولكي تغير الموضوع، قالت:

«اشتقت إليك... حتى علي افتقد وجودك».

فردّ محمد:

«وأنا أيضاً... اشتقت إليكم».

وبعد لحظات صمت أضاف:

«كثيراً».

قال وأدار رأسه إلى الجهة الأخرى هرباً من نظرات فاطمة التي كانت تغور في عينيه. وضعت كفها على صفحة وجهه البعيدة وأدارته باتجاهها لتنظر في عينيه كي تروز صدق الشوق في عينيه. لوت عنقها مراتٍ، وبخبث قالت:

«لا أعتقد كان شوقك إلينا أكبر من شوقك للآخرين».

ونطّت ضحكة منها. أدرك محمد ما كانت تعنيه، فصمت، لكن فاطمة التي جاءت لنقل الرسالة إليه، وجدت في تلهفه طرفة تتسلى بها. قالت بعد صمتٍ وعيناها تزوغان بحركة تدل على التحايل:

«الآخرون اشتاقوا اليك أيضاً».

اهتز جسد محمد ـ رفع رأسه عن المخدة وجلس متربعاً على السرير. خاطب زوجة أخيه مستفسراً:

«ماذا تعنين؟»

غيّرت فاطمة من جلستها، فجلستْ قبالته وقالت بهمس، خوفاً من أن يصل كلامها إلى الغرفة المجاورة:

«اسمعْ يا محمد... زارتني بهيجة في غيابك... سألت عنك... وسألت عن مكان عملك».

رد محمد دون وعي منه:

«وماذا قلتِ لها؟»

«أخبرتها بأنك تعمل في بستان الحاج رضا».

شعر محمد بفرح، حاولَ اخفاءه، لكن فاطمة التقطت تحايله. تغيرت ملامح وجهها فجأة، فقالت:

«قلْ لي يا محمد... كيف تنظر إلى هذه المرأة؟»

«أحبها».

قال محمد وهو ينظر في عينيْ زوجة أخيه بجرأة، فردت:

«ولكن، كما تعلم أنها متزوجة؟»
«سأنتظر حتى يموت زوجها».
قال، ثم استدرك:
«أو... لا أدري».
«ولكنها، أكبر منك؟»
قالت ثم ندمت على ما قالته، حينما انتبهت إلى أنها أكبر من مناف، فتداركت قولها:
«هي أكبر منك بأكثر من عشرين عاماً».
«لا يهم».
قال جازماً. فتوقفت فاطمة عن الاستجواب حينما لمحت وميضاً في عينيه، لكنها عادت بعد فترة صمت كمحاولة أخيرة لثنيه عما يسعى إليه:
«و... لا أحد يعرف عنها شيئاً... عن أصلها أو أهلها... وهناك أقاويل وإشاعات كثيرة تتناقلها ألسنة الناس عن قبيلتها وموطنها ومن أين جاء بها الشيخ نوفل».
رد محمد بثقة ورجولة:
«قلت لك.. لا يهمني ما يقال عنها... أنا أحبها».
«يقال إنها جنيّة».
ارتفعت ضحكة محمد وهو يقبّل رأس زوجة أخيه:
«وهل صدقتِ هذا؟»
رفعت فاطمة كتفيها ومدت كفيها مفتوحتين، ثم غادرت الغرفة.
انتظرَ محمد حتى انفضّ المصلون من المسجد بعد صلاة الجمعة. دخل فوجد الشيخ نوفل يجلس في ركن من المسجد، يقرأ بكتاب. اقترب منه وألقى عليه التحية فردّها دون أن يرفع رأسه عن الكتاب. جلس لصقه، منتظراً أن ينتهي من القراءة كي يتحدث معه، غير أن الشيخ نوفل همسَ كأنه يقرأ في الكتاب:
«اذهبْ الآن... انتظركَ الليلة في الدار».

لم يفاجأ محمد بسلوك الشيخ نوفل المحتاط من الهواء، فهو يعرفه جيداً، وقد خبره «سرّاً يدبّ على الأرض، متكئاً على عصا الرمزية»، بل إنه فرح لهذا الطلب الذي قد يتيح له أن يرى بهيجة أو يسمع صوتها، أو على الأقل سيرى ظلّها خلف الستار ويشمّ عبقها.

نهض بحذر وغادر المسجد، وبدلاً من أن يذهب إلى دار أخيه، اتجه إلى سوق المدينة. دخل محل حلاقة لحلق شعر رأسه وتشذيب لحيته وشاربيه، ثم اتجه إلى المقهى لغاية مبيتة في نفسه. ألقى تحيته بصوت عالٍ فنهض صاحب المقهى مرحباً به ورد رواد المقهى التحية باهتمام واضح. اتخذ مجلسه وحيداً وعيناه تبحثان في أركان المقهى عما جاء من أجله، لكنه لم يلمح أحداً من الغرباء. حينما طال انتظاره، نادى على نادل المقهى فأسرع إليه. دسّ في يده قطعة نقدية تناولها النادل سريعاً، وهو يردد كلمات الشكر. سأله وهو يتلفت في أرجاء المقهى عن الغرباء، مستغرباً عدم حضورهم إلى المقهى حتى الآن. أجاب النادل وهو يتلفت خائفاً:

«هم هناااااااااك».

قال النادل دون أن يشير إلى جهة معينة، فسأله محمد وقد خمن من خلال خوف النادل أن أمراً حدث معهم، فسأل بطريقة لا توحي بالاكتراث:

«أين؟»

«تمّ اعتقالهم من قبل عسس السلطة».

«لماذا؟»

«لا أدري».

قال النادل كأنه يحاول أن يبعد التهمة عنه. مد محمد يده وحشر في كف النادل قطعة نقدية ثانية. قرّب النادل فمه من أذن محمد وهمس:

«وجدوا في حوزتهم مناشير سرية تدعو إلى إسقاط السلطة».

ثم وبصوت مرتعش أضاف:

«يقال إنهم يحرّضون الناس على الكفر وعلى إنكار وجود الله».

ذهب النادل وعاد بكأس شاي أخرى، تناولها محمد مستغرباً تصرفه فهو لم يطلب منه ذلك، إلا أنه رأى إشارة غريبة في عينيه، ولمح تحت الصحن الصغير ورقة صغيرة. استلها بسرعة خاطفة ودسها في جيبه. شرب الشاي برشفات سريعة وغادر المقهى.

فتح الشيخ نوفل الباب مرحّباً بمحمد الذي انحنى أمامه مصافحاً كفّه المعروقة، بينا قام الشيخ باحتضانه بمودة خاصة. جلسا على الأرض في صالة استقبال الضيوف التي لم يجر عليها أي تغيير سوى الثريا التي تدلت من السقف فأضاءت الصالة بنور أصفر، ينتشر شعاعها منكسراً على زجاجات بلّورية أحاطت بالمصابيح. تتوسط أرضية الصالة مدفأة نحاسية عليها جمرات كبيرة يتطاير منها لهب ينشر الدفء في الصالة، رائحة البخور لاتزال كما ألفها عابقة في الصالة، فأضافت للمكان هيبة تخشع لها الروح كمزارٍ أو ضريحِ ولي. ذهب الشيخ وعاد بعد دقائق، قضاها محمد في التطلع إلى الجدران المزينة بلوحات وخطوط غريبة، والسجاد الفارسي الذي حيكت عليه لوحات يظهر فيها رجل يحمل بيده كأساً وإلى جانبه دنّ الخمرة، وتحيطه مجموعة من الجواري، عاريات الصدور والأفخاذ ويحملن صنوجاً ومزامير. لفت نظره غياب الشمعدان الفضي ذي الشِعب العديدة، الذي كان مركوناً في الكوّة. كان محمد قد قرر قبل دخوله الدار أن يكون حذراً، يتجنب أية إشارة تفضح شوقه للمرأة التي يتحرق شوقاً لرؤيتها أو سماع صوتها.

«أبلغك السلام من بهيجة».

قال الشيخ، فارتبك محمد، فهذه المرة الأولى التي يسمع فيها اسم بهيجة على لسان الشيخ نوفل. رفع جذعه قليلاً عن الأرض، وهو يردد بخجل:

«وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

جلس الشيخ لصق محمد وهو يردد كلمات الترحيب، معبراً عن شوقه وعن أسفه لانتهاء تلك الفترة الجميلة التي قضياها معاً في الدرس وفي استنساخ المخطوطات. نقرات خفيفة على الباب الذي يفصل بين الصالة والإيوان، خفق لها قلب محمد. نهض الشيخ وعاد بصينية عليها كوز وكأسان من الفخار. صبّ الشيخ نوفل سائلاً أحمر في الكأسين. قدّم واحدة لمحمد وأخذ الأخرى.

«عصير رمان بالزنجبيل... عملته بهيجة».

قال الشيخ وعبّ جرعة كبيرة منه، وكذلك فعل محمد، معرباً عن استحسانه بتلمظٍ مبالغ فيه. فجأة انتبه إلى أمرٍ فسألَ ببراءة مشبوهة:

«ولكن الوقت الآن شتاء، وقد انتهى موسم جني الرمان منذ أكثر من شهرين».

قال بخبرة حارس لأشجار الرمان، غير أن الشيخ نوفل تغاضى عن الإجابة كأنه لم يسمع السؤال، وقبل أن يكرر محمد سؤاله، قطع عليه الشيخ نوفل تفكيره، فسأله عن عمله وعن الحاج رضا وطريقة تعامله معه ومع بقية العمال والمزارعين. شعر محمد بأن الشيخ نوفل يعرف الكثير عن الحاج رضا وعن تأريخه وطريقة تعامله، فوجد بذلك فرصة لإشباع فضوله. قال:

«الحاج رضا يعاملني بشكل حسن... ولكن».

مسك الشيخ نوفل يد محمد كأنه يشير إليه بأنه يعرف ما ينوي أن يقوله، لكن محمد أصرّ على أن يروي له قصة جلده للزنجي. هزّ الشيخ نوفل رأسه مؤكداً معرفته بالأمر، فتشجع محمد وسأل الشيخَ بطريقة المريد التائق للمعرفة:

«ألم تنتهِ العبودية بعد؟ وبأي حق يتم استعباد إنسان ولدته أمه حراً؟»

اعتدل الشيخ بجلسته. تطلع إلى محمد بعينين قادحتين على الرغم من تهدل جفنيهما العلويين، وقال:

«أعلم يا محمد، إن العبودية لم تنتهِ مذ خلق الله آدم.. ولن تنتهي

طالما هنالك من يسعى إلى السيادة، وطالما هناك من يؤثر الاستكانة».
صمت قليلاً، ثم استأنف كلامه:
«ولكن قد تأخذ أشكالاً مختلفة... فليس الزنجي وحده من يُستعبد، قد يكون العبد أبيض أو أصفر.. رجلاً كان أم امرأة..».
هنا قاطعه محمد ليصل إلى ما يريد:
«وما الحل؟ هل يبقى العبد عبداً؟»
نهض الشيخ نوفل وخرج من الصالة فشعر محمد بقلق، تحسباً من أنه تجاوز حدود التلميذ، غير أن الشيخ عاد بعد دقيقتين وهو يحمل تحت إبطه مخطوطة. وضعها أمام محمد فقرأ عنوانها:
«أزهارُ المروجْ في ما روي عن ثورات الزنوجْ».
مدّ محمد يده ليتصفح المخطوطة فأبعدها الشيخ نوفل، وتطلع إلى محمد بنظرة تأنيب، أدرك محمد مغزاها، فهزّ رأسه معتذراً. راح الشيخ نوفل يحدثه عما يعرفه من أخبار الثورات التي قام بها العبيد والزنوج، فقال محمد عارضاً معرفته بزهو، ولكي يخرج ولو قليلاً عن موقف المصغي:
«مثل ثورة زنج البصرة».
وقبل أن يسأله الشيخ عن مصدر معرفته أضاف:
«سمعتُ حديثاً عنها وعن قائدها علي ابن محمد».
«لا تصدق ما يروى».
قال الشيخ نوفل، فانتبه محمد متحفزاً لسماع رأي الشيخ، الذي أضاف بيقين العارف:
«كل حادثة تروى ويتناقلها الناس بطرق كثيرة، كلها بعيدة عن الحقيقة، لاسيما التأريخ المُدون».
«فهل التأريخ كله شهادات مزورة؟»
سألَ محمد فانتبه الشيخ نوفل لفطنة هذا الغلام الذي تفوق على عمره، ولاحت في عينيه نظرات إعجاب واضحة. هزّ رأسه موافقاً على

ما قاله محمد، وأضاف:

«التأريخ كتبه المتسلطون والمغرضون فضاعت الحقيقة».

«وما الطريقة لمعرفة الحقيقة؟»

سأل محمد بشفتين مرتعشتين، غير أن الشيخ غطّ في صمت عميق، حتى حسب محمد أنه لا يريد إخباره أو هو نفسه لا يعرف الإجابة. فتح الشيخ عينيه وتطلع إلى محمد، محتضناً كفيه الفتيتين بكفيه المعروقتين المرتعشتين، ثم نطق بحزم يكسره حزن شيخوخةٍ أدركت إنها لن تصل اليقين:

«الشك».

لاحت على وجه محمد علامات عدم الإدراك فقال الشيخ موضحاً:

«بالشكّ وحده تستطيع أن تفهم التأريخ الحقيقي».

انتبه الشيخ إلى أن الحديث قد أخذ مجرى أكثر جدية وغموضاً، وأشفق على عقل غلام لايزال يحبو في طريق المعرفة، يدفعه فضول قد يودي به إلى الجنون، فكمية الترياق التي تناولها قد تنخر عقله وتعطبه. صب ما تبقى من عصير الرمان في كأسيهما. عبَّ كأسه دفعة واحدة وجاراه محمد بالطريقة نفسها، ولكي يغلق الطريق أمام محمد من العودة إلى الأسئلة، حاول تغيير الموضوع. قال:

«احكِ لي كيف تقضي ساعات الليل؟»

وبطريقة مازحة أضاف:

«يا حارسَ أشجار الليمون والرمّان».

«بالمناجاة».

أجاب محمد، فارتفعت ضحكة الشيخ نوفل، ضارباً فخذَ محمد ضرباتٍ خفيفة متتالية. سأله بمودة فائضة:

«تناجي مَنْ؟»

«أناجي النجوم والأشجار... أناجي نفسي... أناجي الله... أو أكتب شعراً..».

صمت الشيخ نوفل ولاحت على وجهه علامة حزن، وبهدوء خاشع سأل:

«بماذا تناجي الله؟»

افتعل محمد سعالاً، قطعه فجأةً، وقال:

«قلتُ: من أين تبدأ الطريقُ إليكَ؟

قال: في البدء نكراني.

قلتُ: كيف؟

قال: لا تستغثْ بي فلن أغيثكَ، ولا تدعني فلن أجيبكَ، ولا تتوسل بي فأني لا أحب المتوسلين.

قلتُ: وما الحكمة من ذلك؟

قال: ما انفكَ ابن آدم يدعوني ولا أجيب، حتى يدركَ بطلانَ دعوتهِ وجمالَ تمنعي.

قلتُ: أحكمةٌ أم دلال؟

قال: لا حكمةَ في العشقِ، بل دلالٌ وتمنعٌ ووجدٌ وجنون».

رفع الشيخ نوفل رأسه، فرآه محمد وقد غطى الدمع لحيته البيضاء الطويلة. شعر بإحراج. حاول أن يعتذر عما سببه للشيخ دونما قصد، فأختنق بعَبرةٍ تجمعت في بلعومه. اقترب الشيخ منه مربتاً على كتفه. ضمّه إلى صدره بكل ما يملك من قوة، حتى سمع صوت شهيقه يرتفع بشكل متقطع. نهض الشيخ خارجاً ثم عاد بإبريق ماء. صب كأساً وناولها لمحمد، ولكي يخرجا من حالة الحزن التي أشاعتها مناجاة محمد، قال الشيخ:

«اقرأْ لي من الشعر الذي نظمته».

رفع محمد رأسه مبتسماً ببراءة طفل يحصل على ثناء كبير من معلمه. فكّر أن يقرأ له قصيدة (أنا يوسف) إلا أنه تدارك الأمر في اللحظة الأخيرة، فراح يقرأ آخر ما نظمه، متعمداً رفع صوته رغبةً منه بأن يسمعه الظل الواقف خلف الباب ينصتُ بشوق إليه:

«هبطَ الوحيُ صَلصَلةً
محضَ صَلصَلةٍ
غير أنّ الكلامَ تلعثَمَ في الشفتينْ
لم أكنْ خائفاً
لم أكنْ خائفاً حينما قلتُ
لستُ بقارئْ
حيثُ أنّ الذي ينبغي أنْ يُقالْ
ضاعَ في الاحتمالْ
والرنينْ؟
لِمَ لا يتوقفُ هذا الرنينْ؟»

كان الشيخ نوفل يصغي بصمت وملامح وجهه تتغير بشكل سريع، فلم يستطع محمد أن يلتقط الانطباع الذي تركته قصيدته. طال الصمت بينهما، حتى تثاءب الشيخ فأدرك محمد أن عليه المغادرة. شكر شيخه على الاستماع إليه معتذرا عن طمعه في أخذ وقت طويل، فهز الشيخ نوفل رأسه مبتسماً بإعجاب لما أبداه تلميذه من تهذيب. سار مودعاً إياه على الرغم من محاولة محمد ثنيه عن هذا. عند الباب وقبل أن يخرج، مسكه الشيخ نوفل من ذراعه، مخاطبا إياه بهمس:

«اسمعْ يا محمد...... أنتَ نبي».

* * *

(٧)

رمى محمد صنّارته في النهر وربط خيطها بإحكام بغصن يابس غرزه في الأرض. جلس قريباً، تارةً يرقب صفحة الماء المتلألئة تحت ضوء القمر في سماء منتصف نيسان الصافية، وتارة يترقب اهتزاز الخيط، منتظراً تلك الغبية التي سيدفعها الجوع إلى حتفها لتُشبع الآخرين.

«هه، دودة عالقة في شوكة الصنّارة طعماً تسحب الغافلَ إلى موته».

كان يشعر بمتعة كبيرة وهو يمارس صيد السمك، ليس لأنه حيلة بريئة وجميلة لقتل الوقت الثقيل فحسب، بل إن الانتظار يتيح له أن يستغرق في تأملاته التي تبدأ في لعبة الموت والحظ العبثية، وتنتهي في الإصغاء إلى الماء، «الماء الذي بدأ الخليقة» كما كان يردد دون أن يعي معنى لهذه الجملة. أمس اصطاد سمكتين في رميتين، وقبله لم يصطد حتى دويبة على الرغم من عشرات الرميات، واليوم لا يدري، وغداً قد تفيض الأسماك على سطح الماء أو العكس تماماً، وهكذا.

«هذه هي الحياة.... رمية صنّارة أو رمية نرد».

ردد محمد مع نفسه بحزنٍ لا يعرف مصدره. تدثر بمعطفه الصوفي على الرغم من أن الطقس لم يكن بارداً، غير أنه مشبع بالرطوبة. أسند ظهره إلى صخرة قريبة انحسر الماء عنها، وقد بلغ الجزْر الليلةَ أقصى انحساره. أغمض عينيه وراح يصغي إلى صوت النهر.

إيقاع يختلف تماماً عن الإيقاع الصادر عن الشبّابة التي أتقن العزف عليها، فهو إيقاع داخلي هامس لا يدعو سامعه إلى بُحرانٍ جسديّ صاخب، بل إلى ارتخاء يتسلل إلى الروح من كل مساماتها فيوقظها

بصوت يترقرق في غدرانٍ لا تعرف الغضب، إيقاع لا يدعو إلى رقصة جماعية تدك فيها أرجلُ الراقصين الأرضَ بعنف كطبولٍ مُنذرة بالحرب، بل هو إيقاع يخشى ايقاظ النائمين تحت الأديم وإن كانوا يغطّون في نوم لا يوقظهم منه سوى نفير إسرافيل، عزف منفرد على قيثارة، أوتارها من ماء تعزف عليها أنامل الملائكة فترقص عليه الروح منفردة، روحٌ سعيدة بتفردها، روحٌ عالمها العزلة وطموحها الانعتاق.

«النهرُ ذاكرةُ الطبيعة».

«النهرُ معبدُ زاهدٍ..»

«وجعلنا مِن الماء كل شيء حي».

«أهكذا ابتدأت الخليقة؟»

«أمن الماء كان البدء أم من إيقاع الماء؟»

أسئلة وحوارات كانت تفرض نفسها على عقله الغض. يشعر بثقلها. يحاول الهروب منها، ولكنّ شيئاً ما في داخله يبقيه في دائرتها، كأنه يستعذب الحيرة، فبدونها لا معنى لوجوده. أسئلة أدركها محمد بدهشةِ مَنْ يرى وجهه في المرآة أول مرةٍ، ولم تتسلل إلى عقله عبر المخطوطات الغامضة. أخذ حفنةً من ترابٍ رطبٍ، وراح يعتصرها في قبضته بحركةٍ تدل على غضبٍ أو نفاد صبر.

«ولكن ألا يمكن أنْ تكون الإجابة عليها كامنة في غموض المخطوطات؟»

«أصغِ إلى النهر!؟

هكذا أوصاه الشيخ نوفل، ولكن كيف له أن يقنع النهر بأن يبوح له بأسراره. تراكم حزنِ محمد حينما أدرك أن معارفه لاتزال شحيحة ومصادره لا تتعدى ما تلقفته عيناه من سطورٍ استنسخها دون أن يعي ما وراءها من معنى كامن. عاد بذاكرته إلى مخطوطات الشيخ نوفل لعلّه يجد فيها ما يعينه على فك أسرار اللغة التي يتحدث فيها النهر، عن التعزيم الذي يفتح أبواب الـ (كنْ) التي قالها الخالق للنهر فبدأت الحياة

على اليابسة، وعن الـ (كنْ) التي قالها النهر للإنسان فأُحرقت الحجبُ. هو يتذكر بعض عناوين المخطوطات التي تتحدث عن هذا الأمر، والتي كانت من أكثر مخطوطات الشيخ نوفل سريَةً وغموضاً، منها (المخطوطة السومرية) و(نُ والقلمْ في كشفِ ما لم يُفهمْ) و(براعةُ السبْكِ في سيرةِ الإنْكِي)، إلا أنه لم يكن يفهم أيّ شيء منها، وإنْ فهمَ فهو لم يصدقه، فكيف يمكن أن يصدق بأن جنساً بشرياً انحدر يوماً من الأسماك، هو الذي أنشأ الحضارات وعمّر الأرض.

«لِمَ لا؟ مَن أنت كي تحكم على مثل هذه الأمور؟»

سؤالٌ قفز إلى ذهنه، حطّم كبرياءه، ذكّره بحجمه الطبيعي فانكمش على نفسه مثل بالونٍ ثقبَ فجأة. شعرَ بأنه عاجزٌ فعلاً عن مجاراة ما تدفعه إليه نفسه اللائبة.

اهتزّ الخيط اهتزازات سريعة، فهبّ محمد واقفاً. بدأ بسحبه بحذر كيلا يفلت صيده كما حدث في مرات سابقة. خَبْط زعانف قوية على الماء، جعل محمد يرخي شيئاً من الخيط ثم يسحبه بهدوء حتى ظهرت سمكة بطول ذراع، تلصف حراشفها براقة تحت ضوء القمر. أخرجها إلى الجرف ببطء واقفاً خلفها كي يمنع انزلاقها إلى النهر. وبحركة سريعة من يده الثانية رماها على اليابسة، فراحت تتقلب، تصارع الهواء الخانق. بدأ بلفَ الخيط على عصاه، مراقباً السمكة لئلا يدفعها تشبثها بالحياة من الهرب إلى الماء، حتى خمدت حركتها، واستكانت إلى قدرها. أدخل أصبعيه في فتحة خياشيمها وعاد إلى الكوخ، حاملاً صيده بزهوِ منتصرٍ، متناسياً لعبة الحظ التي رمت إليه بسمكة أودت بها الغفلة إلى التعلق بشوكةٍ غادرة. أضرم ناراً في كومة الأغصان المعدة للشواء، وبدأ بتنظيف أحشاء السمكة.

لم يعد الليل طويلاً وإنْ كان الشوق يثقله والهواجس التي تهجم على محمد في العتمة أحياناً تجعله يضيق بجسده. تفتحت أزهار الليمون واخضرّتْ أشجار الرمان وتفتحت فيها أزهار النار، فامتلأ فضاء البستان

بعبقٍ ينعش النفس. كان محمد يقضي الليل يسوق قطيع أفكاره إلى مرعى الروح، عازفاً لها على شبّابة عاشق غريب، تفصله عن حبيبته مفازة وقيود.

أحضر معه من المدينة في زيارته الأخيرة كيساً مليئاً بالنعناع المجفف، اشتراه من سوق البذور والبهارات. رشّه في زوايا كوخه وعند الباب كما أوصته زوجة أخيه، ونقل شتلات منه جمعها من البستان وزرعها قريباً من الباب، فمن المعروف والمؤكد بالخبرة، أن الأفاعي تهرب من رائحة النعناع، وزيادة في الحيطة صنع لنفسه سريراً من ألواح خشبية، وجذوع أشجار ميتة. لفّ على قوائم السرير حبلاً من القنب يمنع تسلق الأفاعي أو العضايا، وغطّى السقف والجدران بقطع من النايلون والزكائب المهترئة ليمنع تسرب الجرذان والعقارب من الثقوب.

كان يقضي الليل متجولاً في البستان أو في محيطه الخارجي، وفي بعض الأحيان يختبر شجاعته ويتوغل قليلاً في مفازة الجن التي كان اختراقها بالنسبة لمحمد حلماً مؤجلاً ليزيل الغصّة التي كانت تخنقه كلما تذكر خسارته للرهان. حينما ينهي مهمته، يجلس متطلعاً إلى النجوم، أو يدوّن ما يرد إلى ذهنه من خواطر وشعر وتأملات في دفتر كبير كدفتر الحسابات الذي يستخدمه التجار لتسجيل وارداتهم أو ديون الزبائن. أحياناً يحالفه الحظ بصيد، فيكون لليلته طعم خاص، حيث يقضي النصف الثاني من ليله بمراقبة الشواء مستمتعاً بالتحديق إلى النار وتحريك الجمرات، وقد تعلم من الصيادين طريقة مثلى في شوائه، وذلك بإضرام النار في كومة من أغصان يابسة حتى تتجمّر، عندها يشك السمكة المفتوحة طولياً بسيخٍ يغرزه في الأرض عند محيط الجمر الملتهب، فيتم شواء السمكة بشكل بطيء على لهيب الجمر، الذي يحشر فيه بعضاً من رؤوس البصل، وتكون الوجبة جاهزة كفطور، حيث يقوم صديقاه المزارعان بإحضار أرغفة من الخبز الساخن وباقات من الفجل أو الريحان. بعد تناول هذه الوجبة وشرب الشاي المجهز على

الجمر، يبدأ المزارعان عملهما، بينا هو يدخل كوخه ويستغرق في النوم حتى آخرة النهار.

صادف في فترة عمله أموراً لم يكن يدركها لولا عمله في هذا المكان. توقف عندها طويلاً مكتشفاً في نفسه القدرة على قراءة الحدث ببعديه الواقعي والرمزي، مقلداً في ذلك الشيخ نوفل، ومزهواً باختلاف طريقته في التفكير عمن حوله، ممن لم يلتفتوا إلى ما يدور حولهم أو أنهم غير مشغولين إلا بما يرونه لحظة وجوده، جاهلين أسبابه وعلله، طاوين صفحة الحدث بعد لحظات من حدوثه. سجّل الكثير من مشاهداته وأفكاره بلغةٍ، اجتهد على أن تكون مختلفة عن لغة التداول اليومي أو الكتب الشائعة، بل لغة تحاول تقليد لغة المخطوطات وما قرأه من كتب الأولين، أو تجترح بلاغة خاصة بها، بديباجة أنيقة وكلمات منتقاة بدقة، يحاول أن تكون مسجوعة وتقترب من الحكمة والشعر لكنها ليست بشعر.

كتبَ تحت عنوان (العقرب):

«اعلمْ هداكَ الله وأرشدك إلى رؤية الحقّ في أتفه المخلوقات، وهو الذي ضرب بالبعوضة مثلاً ليلفت نظركَ إلى ما يضمرُ الصغيرُ من كبائرِ الدروسِ والعبر، لترى خبءَ الشيء مثلما ترى ظاهرَه، وتكفَّ عن التسرعِ في الحكم، مستنداً إلى ما تراه بالعين وتجهلُ ما تراهُ بالنفسِ، فلكلِ شيءٍ غورٌ لا يُدركُ إلا بالتأملِ والدرسِ، أو بالخبرةِ والحدْسِ، فكم من جاهلٍ بدا للناظرين حكيما، وكم من أحمقَ تظنّه حليما، ألا ترى إلى العقربِ كيفَ تثير النفور والفزعَ في نفوسٍ منعها خوفها من إدراكِ خصالها وسجاياها، فلا تصدقْ ما يقالُ فقد اعتادت الدهماء أن تردد ما يشاعُ دونما فحص أو علم، فللعقرب صفات حميدة لم يحظَ بها ابن آدم، ألا ترى إلى الأم كيف تضحي بنفسها إيثاراً فيأكلها صغارُها، ولها من العزّة ما تستحق به الإعجاب والثناء، فهي إنْ حوصرت بدائرةٍ من نار، حاولتْ اختراقها من جهات عدة، رافعة ذيلها، نافثةً غلّها،

حتى إذا ما يئست من فكّ الحصارِ، وضُيّقت عليها دائرة النارِ، انسحبت إلى مركز الدائرة، واقفة بإباء وشموخ، غارزةً حمّتها في جسدها نافثة سمها فيها لتموت ميتةَ الأبطالِ، قبل أن تنالها ضربةٌ من حجرٍ أو نعالٍ...».

وكتب تحت عنوان (القنفذ):

«إن رأيته متكوراً على نفسه حسبته حجراً، وإن رأيته قد أخرج رأسه من بطانته الشوكية رأيت الوداعة في عينيه البارقتين، تحسبه فأراً منكمشاً من خوفهِ، غير أن له من الفتكِ ما لم يخطر في الحسبان فهو ينقضّ كالنسرِ على طريدته بل أشرس، فطريدته ليست حمامةً أو عصفوراً، بل يختار الأفعى التي تثير الرعب في نفس أعتى الرجال ويهاب زحفها الطائر في السماءِ والغائر في الماء، ينقضّ عليها من الخلف ناهشاً ذنبها، متكوراً على نفسه نافشاً شوكه، فتظلّ تضرب الأرضَ بجذعها ناشبةً نابها في الهواء، وهو متشبث بها تشبث الليث بالفريسة، حتى يدميها بشوكه فيرتفعُ فحيحها غير ذي جدوى وينغرز نابها في التراب مستسلمة إلى قدرها بعد أن أنهكتها المكابدةُ وخذلتها المجالدةُ ولن يتركها إلا وهي خامدة لا روح فيها».

* * *

(٨)

ارتفع نباحُ كلابٍ غير طبيعي، قادماً من جهة مفازة الجن. وصل الصوت إلى الضفة الثانية من النهر مما جعل الحاج رضا يخرج في شرفة قصرهِ حاملاً بندقيته، مطلقاً في الهواء إطلاقتين، غير أن نباح الكلاب لم يتوقف، بل ارتفع حدة وبدا كأن قطيعاً من الكلاب يتجه شرقاً. حمل محمد سلاحه وهرع إلى الجهة الغربية من البستان. كانت الساعة قد اقتربت من منتصف الليل والظلمة تعمّ المكان، حتى النجوم لم يعد ضياؤها يصل الأرض فقد تلبّدت السماء بالغبار. رفع سلسلة الباب الغربي وخرج. تقدم قليلاً باتجاه المفازة. حاول أن يركّز نظره، فلم يرَ غير نقاط صفر تتحرك في عمق الظلمة. سار بمحاذاة سور البستان متفحصاً المكان بما تسمح له الرؤية، لم يرَ أمراً خارج دائرة المألوف، ربما كان النباح سببه مطاردة بين الكلاب والذئاب، أو أنه صراع ذكور على غنيمة الأناث. أكمل محمد دورةً حول البستان وعاد إلى الكوخ من جهة النهر. كان نباح الكلاب قد خفتَ تدريجياً حتى تلاشى. رأى أحد الصيادين يقف وسط قاربه، قريباً من ضفة النهر، وهو يجمع الشباك لاعناً الحظ الذي لم يحالفه الليلة، فلم يعلق في شبكته غير الحشائش والأحجار وبضع سمكات من نوع (الجِرّي) المحرمٌ أكله وفق فقه شريعتهم. حينما رأى الصياد محمداً سأله عن أمر الكلاب، فقال محمد بسخرية:

«كلاب تتسافد».

فردّ الصياد ضاحكاً:

«هنيئاً لهم.. ليتسافدوا.. أولاد الكلب، ماذا وراءهم.. لا عائلة فاتحة أفواهها جوعاً.. ولا عبيد الحنظل شاهراً سوطه غضباً».

توقف محمد قليلاً على ضفة النهر، وحينما لم يجد موضوعاً يتحدث به مع الصياد، ودّعه متمنياً له ليلة سعيدة، وحظاً سعيداً في ليلة قادمة.

«لا تنسَ الليلةَ أمّ الأولاد... فلها حقّ عليك».

نادى محمد ضاحكاً وهو يلّوح بيده للصياد.

توقف عند باب كوخه متطلعاً إلى الأشجار التي بدت كأشباح تتحرك في الظلمة. فكّر بالظلم الذي يلحق بهؤلاء الناس من جرّاء جشع رجل واحد، استغل حاجتهم إلى العمل فاستعبدهم بسوطه واستعبد أطفالهم ونساءهم. لم يستحوذ على الأرض وما عليها فحسب، بل امتد استحواذه ليشمل النهر وما يحوي في داخله، فله من حاصل الصيد ثلثاه دون أن يفعل شيئاً وللصياد ثلث. تذكر محمد المنشور السري الذي حصل عليه في المقهى، وكان قد قرأه في عزلته مرات عدةٍ. ردد مع نفسه ما ورد فيه من أفكارٍ وجدتْ استجابة سريعة في عقله وروحه، بل تطابقاً حتى فكّر بأن يتبناها، وقرر أن ينتمي إلى حلقة الغرباء حينما يلتقي بهم في المقهى خلال زيارته للمدينة. كان المنشور يتحدث عن استعباد واضطهاد الفلاحين من قبل الإقطاع الذين لن يتوقف جشعهم إلا بثورة يقوم بها الفلاحون والعمال، ولذلك كان يدعوهم إلى أن يُنضّموا أنفسهم في حزب واحد يقودهم نحو تحقيق أحلامهم بجيشٍ يجتث الإقطاع وسلطته، ويقيم سلطة العمال والفلاحين، شعارها الحرية ورايتها حمراء يتوسطها عناقُ منجلٍ ومطرقة. أكثر ما شدّ محمد إلى أفكار الغرباء أنها تدعو إلى مشاعية الأرض وإلى المساواة بين الناس جميعاً.

«لكنهم.. كفرة.. لا يؤمنون بوجود الله».

هذا ما قاله نادل المقهى الذي سلّمه المنشور، والذي وجد محمد فيه هوى للغرباء، ولا يمنعه من الانتماء إليهم إلا كفرهم بالخالق. لم يتوقف محمد عند هذا الخلاف، بل ما حيّره في أمر أولئك الغرباء، هو كرههم

الشديد للشيخ نوفل وإشهارهم لهذا الكره على الناس بشتائم واتهامات لم يسمع بها من غيرهم.

سمعَ صوتَ حركةٍ في داخل الكوخ فأصغى إليه، غير أنه رأى الباب مغلقاً كما تركه وضوء الفانوس شحيحاً يتسرب من شقوق الباب. ارتفع الصوت أكثر وضوحاً، وبدا كأنه وقع خطوات إنسانٍ، وليس خربشة فأر كما ظن أول مرة. شعر بالخوف. تردد في الاقتحام، لكنه تذكر مهنته التي تتطلب قلباً قوياً، فاستلّ خنجره من حزامه وتقدم بحذر. دفع الباب بطرف قدمه، متحفّزاً، فرأى ما لم يخطر في ذهنه حتى في الحلم. كانت بهيجة تجلس على حافة السرير.

توقف كالمصعوق يحرك جفنيه ليتأكد من يقظته. كانت بهيجة ترتدي ثياباً سوداً لا تكشف إلا دائرة وجهها المضيئة متل هالة تحيط ببدر. ابتسمت بتحايل المباغِت. نهضت من السرير فسقط حجاب رأسها وانتثر شعرها الأشقر الطويل كأن شعاعه أنار ظلام الكوخ. مدت نحو محمد ذراعيها، فانحسر كمّاها وظهرت ذراعاها بيضاوين مكتنزتين قليلاً. تراجع محمد خطوتين دونما وعي، غير أن بهيجة أنهت تردده، إذ نادته:

«ما بك يا محمد؟ لِم أنت خائف؟»

توقف محمد متسمراً في مكانه، وقد أخرسته المفاجأة. مسكته من كفيه وهي تتطلع إلى وجهه. أحاطت رأسه بذراعها وسحبته إليها حتى استقر رأسه على صدرها.

«برّحني الشوق إليك، فلم أعد أطيق صبراً على الفراق».

قالت وهي تضم رأس محمد بقوة إلى صدرها. حاول أن ينطق فخذلته حشرجة في حلقه. أجلسته على حافة سريره وجلست لصقه وقد دفن رأسه في صدرها. راحت كفها تداعب شعره، ولكي تطمئنه، قالت:

«لا تخفْ يا محمد، لن يراني أحد».

لم يفهم ما كانت تعنيه، إلا أنه أدرك أنها تعرف ما يدور في ذهنه، فقال بتلعثم:

«لن أخاف على نفسي، ولكني أخاف...»

قاطعته بهيجة قبل أن يكمل جملته، مؤكدةً:

«لا تخفْ، وكما قلت لك لن يراني أحد».

شعر محمد بأن ثقتها قد أيقظت الشك في داخله، لكنه لم يظهر ذلك فسألها:

«وكيفَ وصلتِ إلى هنا؟»

«عن طريق المفازة».

أجابت بهيجة، وقبل أن يسألها أجابت على ما كان ينوي أن يسألها، ضاحكة:

«لا تنس أنا لا أخاف من الجن.. فأنا جنية».

افتعل محمد ضحكةً، محاولاً أن يطيلها مجاراة لضحكتها. كان جسده يختض ونبضات قلبه تتسارع، تسمعها بهيجة بوضوح، وجبينه تفتقت مساماته عن سيل من العرق. أدركت بهيجة ما يشعر به محمد، فحاولت أن تطمئنه أو تشعره برجولته:

«يا محمد.. ليس هنالك من مهربٍ سوى المواجهة.. فلقد اصطفاك القدر أن تكون صفيّه وحبيبه... واصطفاني لك وحياً وحبيبة».

شعر محمد بزهو على الرغم من الخوف والغموض الذي يلف كلماتها. رفع رأسه ونظر إلى وجهها، وبلهجة المتوسل التائق للخروج من محنة الغموض سأل:

«من أنتِ؟»

صمتت قليلاً ثم أجابت بهدوء دون أن تنظر إليه:

«أنا رسالة الغيب إليك».

«ومن أنا؟»

سأل بانخذال، مرتعشاً، فردت عليه بحزم وثقة:

«أنت المصطفى».

كانت هذه آخر جملة سمعها محمد من بهيجة بوضوح، إذ لم يعد

يتذكر ماذا حدث بعدها، هل نامَ؟ هل أغمي عليه؟ هل رحل إلى عالمٍ آخر؟ هل أن المحسوسات فقدت صفاتها فلم يعد يشعر بوجودها؟.

أفاق محمد على نباح الكلاب الذي ارتفع ثانية. كان جسده يرتعش من الحمى وقد وجد نفسه متدثراً باللحاف على الرغم من سخونة الطقس. لا يتذكر متى نام وكيف تغطّى باللحاف، كل ما يتذكره أنه سمع صوتاً من داخل الكوخ حينما كان يقف خارجه بعد عودته من تفقد البستان ومعرفة ما يحدث في المفازة حينما ارتفع نباح الكلاب. فرك عينيه مصغياً إلى صوت الريح في الخارج وحركة الأشجار. رفع ذبالة الفانوس ونهض بتثاقل خارجاً من الكوخ. كان خيط الفجر قد لاح في السماء. وقف عند باب كوخه لا يجرؤ على المضي ليكتشف سبب ارتفاع النباح. كان يتمنى لو أنه استطاع العودة إلى غفوته لكي يكمل الحلم الذي رآه، على الرغم من الاضطراب الذي تركه في نفسه.

«ولكن هل كان ما رآه حلماً؟»

سألتْ نفسُه التي أطربها الإطراء فانتشت بخمرة الغرور.

«وماذا يكون إن لم يكن حلماً؟»

أجاب محمد.

«وما هذه الرائحة الأنثوية العابقة في الكوخ؟»

انتبه محمد إلى الرائحة التي لا يخطئها أنفه، ولا تتوهمها روحه. إنها رائحة بهيجة ولا يمكن أن تكون قد تسربت من الحلم إلى الواقع ومكثت فيه على الرغم من يقظته، حتى أرنبة أنفه مازالت تتحسس ملمس جسد بهيجة ورائحة العرق النازل من عنقها وبين نهديها. عاد الشك إلى نفس محمد في الذي رآه، إن كان حلماً أم حقيقة. كان أشد ما يخيفه أنه شعر بأن شخصاً آخر يقاسمه كوخه، بل يقاسمه جسده. هكذا وجد نفسه واقفاً في مركز دائرة تقع ما بين الحلم واليقظة أو الشك واليقين، فكلما تقدم خطوة نحو اليقين انتفض شكه، وكلما أوشك على نسيان شكّه وخزه

الواقع بشوكةٍ فرأى الشك في عين اليقين المحدقة إليه، وتلمسه بأنامله، فشكّ في شكّه وأيقن من يقينه في الآن نفسه.

«هل كانت بهيجة هنا؟»

سأل نفسه، فردت:

«لا.. لا يا محمد.. إنك تتوهم».

«ولكن ما هذه الرائحة؟»

«ما من رائحة.. سوى ما تتخيله أو تتمناه».

هزّ رأسه، مصدقاً ما تقوله نفسه أو أناه المستترة فيه. كاد يطوي تردده وشكّه ليريح نفسه التي تمرد جنونها، فأشهرت بوجهه كل أسلحة المشاكسة والتمرد، على الرغم من أن الرائحة التي ملأت فضاء الكوخ عبقاً لا تخطئها حواسه الخمس، لولا ما رآه بعينه وتلمس وجوده المادي وليس الافتراضي، حينما وقع نظره على القدح الفخاري الذي أهدته إياه بهيجة.

«أي وهم أخرج القدح من الخرج ووضعه في الكوة؟»

ردد ساخراً من نفسه، كأنه وجد الدليل القاطع على إفحامها بوجود الدليل على إثبات حقيقة وهمه. اقترب منه بحذرٍ فكانت المفاجأة التي قطعت الشك باليقين، فقد رآى (القدح) وقد امتلأ بالسائل الأحمر الذي لم يره إلا في دار الشيخ نوفل.

«هنااااااااااااااااك... في الجنة... ستجد عصير رمان بالزنجبيل».

تذكر محمد ما قاله بائع العصير يوماً، حينما طلب منه عصيرَ رمان بالزنجبيل.

رفع القدحَ الذي لم يعد قدحاً، إذ امتلأ أخيراً فتغيّر اسمه، شمّ ما في داخله ومد لسانه. تذوق السائل فتأكد بأنه عصير رمان بالزنجبيل عملته بهيجة بيديها له، ودون أن يتردد عبّ ما بداخله دفعة واحدة.

«وليكن سمّاً... فأنا سقراط أو محمد المصطفى».

ردد مع نفسه، لاحساً شفته بلسانه ليرتشف آخر قطرة من العصير

الإلهي. مسك القدح بقبضته معتصراً إياه بقوة، كأنه يجبره على البوح بالسر الذي بدأت تتضح ملامحه أمامه، فلم يعد السرّ سراً كما لم يعد القدح قدحاً بل لم يعد محمد محمداً، فهو الآن (المصطفى) كما قالت بهيجة.

مسألة لغوية بحتة صارت تعزيماً، فتح صندوقَ السرَ وكشف محتواه أمام مبصر ذي بصيرة ترى الخبء تحت الأديم، تقرأ التأريخ بعين الشك، وبالحدس يفك طلاسم رموزه:

«لكل حدث رمز... فابحث عن رمزيته ستجد تفسيراً لا يدركه سواك».

هذا ما كان يردده الشيخ نوفل ولم يكن محمد واعياً له، وهذا ما عنته بهيجة وهي تهديه القدح الفخاري الذي رسمت عليه شمساً وخطوطاً غامضة لم يستطع حل لغزها، وأوصته:

«إقرأْ».

يقول لسان العرب:

«لا يقال قدح إلا إذا كان فارغاً».

«وها قد امتلأ قدحك، فلم يعد قدحاً، كما لم تعد أنت نفسك محمداً».

ردد محمد مع نفسه بشفتين مرتعشتين كأنه يقطع آخر خيط يربطه بالأمس. شعرَ برعشة تجتاح كيانه فلم تقو ساقاه على حمله. عاد إلى سريره واندس فيه، متدثراً باللحاف على الرغم من حرارة القيظ، ومتكوراً على نفسه كجنين في رحم أمه. سمع صوت بهيجة تناديه بوضوح:

«ا.... ق..... ر...... أْ»

مرّ أسبوع على زيارة بهيجة، ولم تحضر ثانية. عاد الشك إلى نفس محمد بأن ما رآه لم يكن إلا أضغاث أحلام، أو أن الغيب الذي اصطفاه قد غيّر رأيه. صار نباح الكلاب يؤنسه، وكلما ارتفع انشدت روحه إلى المفازة متحفزاً، آملاً بأن بهيجة ستفاجئه بحضورها بعد قليل، إلاّ أن

هذا لم يحدث. سارَ باتجاه المفازة دون وعي منه. كانت خطواته تقوده إلى العمق. خطّ في العتمةِ دائرةً على الأرض وجلس في داخلها، مترقباً رسالة تأتيه، وحينما يئس صرخ رافعاً رأسه باتجاه السماء مثل ذئب جريح.

«أعينوا أخاكم...»

ردد الفراغ صدى صرخته. كان على استعداد لأن يبيع نفسه للجن أو للشياطين مقابل أن تأتيه ببهيجة، وكان قد سمع ما يتردد على ألسنة البعض بأن هنالك من باع نفسه للشيطان للحصول على غايته.

«أخاكم... أخاكم...»

صرخ ثانيةً، منادياً الجن. سمعَ صوت الغيب يناديه بوضوح:

«يا محمد... يا محمد... أنتَ نبي».

كان صوت الله غاضباً، لائماً، يشي بإحباطٍ من اختيار غير موفق. شعرَ محمد بخجلٍ من تهوره وسرعة نفاد صبره، بل من اندفاعته القطيعية بحب إمرأة لا تختلف عن سواها من النساء، وهو المنذور للمطلق، القابض على جمرة الأبدية، الماسك مفتاح الأمل، الحائز على كلمة السر.

نهضَ نافضاً التراب عن ملابسه. كسر محيط الدائرة، وعاد مسرعاً باتجاه البستان. كان جسده يرتعد من الخوف أو التأنيب. استغرب من نفسه وهو عائد، كيف استطاع أن يقطع هذه المسافة الطويلة دون أن يشعر. حينما وصل البستان منهكاً، توجه إلى الكوخ مباشرةً، ناسياً مهمته الليلية ومسؤوليته في الحراسة. دخل الكوخ ورمى بجسده على السرير مرتعشاً. تغطى باللحاف. تكور على جسده متدفئاً بأنفاسه، على الرغم من سخونة طقس القيظ اللهّاب.

«ياااااااا.. أيها المدّثرْ... قمْ وانشرْ... انشرْ رذاذكَ على القممِ المحترقة... خذ ليلاً... واصقله بروحكَ... سيكون فجراً... سيكونَ فجراً... سيكون فجراً...»

استيقظ مرعوباً. رأى بهيجة جالسة على حافة السرير تتطلع إليه وعلى شفتيها ابتسامة حنونة. مسح العرق عن وجهه وعينيه فتأكد من رؤيته. مسك كفها كي يتأكد من يقظته، فارتفعت ضحكة بهيجة وهي تشد كفه بقوة. نهضَ من السرير بنشاطٍ. استأذن منها ليلقي نظرة سريعة خارج الكوخ، فشجعته بهيجة على ذلك، وحينما عاد وجدها وقد رمت غطاء رأسها وجلبابها الطويل فبدت بملابس نوم خفيفة تشف عن جسد رشيق متناسق بدقة متناهية، كاشفةً عن ذراعين بضتين وصدر مكتنز يظهر منه أعلى النهدين وقد برزت حلمتاهما بوضوح. كانت تقف وسط الكوخ قامةً من ضياء ويداها مشبكتان على صدرها. اقترب محمد منها بحذر بعد أن أحكم إغلاق الباب. وقف أمامها محاولاً إخفاء ارتعاشة ساقيه. كانت تنظر إليه بعينين تفيضان بالشهوة، وبيدين قلقتين تلجمان الرغبة في المبادرة. امتدت يد محمد نحو خصرها فانهار احترازها، إذ هجمت عليه بلهفةٍ. ضمته إليها بقوة، دافعة صدرها نحو صدره وأحاطت رقبته بذراعها. تطلع في عينيها محاولاً منع أجفانه من الارتعاش. مدت إليه شفتيها فالتهمهما بقبلة عنيفة. تحركت كفاه ببطء على حرير خصرها في حركات حذرة مرتفعة، حتى لامست نهديها، فاطلقت بهيجة شهيقاً عميقاً ألهب فحولة محمد، فضمّها بقوة دافعاً حوضه إلى الأمام حتى التصق بحوضها ولامست ساقاه ساقيها. دفعها بحوضه، فتراجعت حتى اصطدمت بالسرير. جلست على حافته. حاول محمد أن يدفع جسدها لترتمي على السرير إلا أنها صدّته، ساحبة إياه من ذراعيه ليجلس جنبها. أغمضت عينيها كأنها تحاول أن تستعيد سيطرتها على نفسها، وتوقف الدوار في رأسها. كان محمد مهتاجاً، فحاول أن يسحبها نحوه إلا أنه أشارت إليه بيدها أن يتركها قليلاً. شعر بشيء من البرود، ولامَ نفسه على التسرع في محاولته لاقتطاف الثمرة. ابتعد عنها قليلاً ليستعيد كبرياءه. حاولت أن تنطق إلاّ أن لسانها انعقد وتلعثمت الكلمات. ناولها كوز الماء فعبت منه جرعة كبيرة، تاركة بعض القطرات تسقط على عنقها

ومابين نهديها. هزت رأسها كأنها تطرد هاجساً يدور فيه. كان محمد ينظر إليها فاتحاً فمه بذهول وقلق. مسكته من ذراعه وأجلسته على حافة السرير، بينا هي جلست على الأرض بين ساقيه حتى التصق نهداها بركبتيه فارتعشتا. كان يطل على فتحة ثوبها فيرى رمانتين ناضجتين، يندلق لهما اللسان ذهولاً ويفيض اللعاب طمعاً في حلاوتهما. وضعت كفيها على فخذيه ورفعت رأسها نحوه. كانت عيناها جدولين من ماء زلال تسبح فيهما حدقتان صفراوان كخرزتي كهرب. قالت بهدوء:

«اسمع يا محمد.. أحببتك.. لكونك أعلى سماء ارتقت إليها روحي.. أحببتك.. لأن لحنانك أبواباً تفضي بي إلى الملكوت.. أحببتك بلاهوت الحب وناسوته.. وأحبك.. فانتشلني من أرضٍ عقيمة.. وسماء ضنينة لا تعطي أكثر من زرقتها الباهتة.. أحبك لأنك سيدي.. أحبك وحدكَ.. وما عاد يهمني إن امتلأت الأرض رحمةً أم شقاءً.. ما دمتُ أحبكَ.. أحبك».

كان محمد يتطلع إليها فاتحاً فاهه ذهولاً، غير مصدق لما تسمعه أذناه. أحاط رأسها بكفيه، ماراً بهما على عنقها، فمسكت بهيجة إحدى كفيه. قربتها من فمها وطبعت عليها قبلة طويلة. شعر محمد بفحولةٍ شامخة وهياجٍ لا يستطيع إخفاءه. حاول أن يجاري غزلها بغزلٍ، كان قد حفظه وردده كثيراً في خيال لياليه مدّخراً إياه لمثل هذه اللحظة، إلا أنه نسيه حينما حان وقت البوح به فلم يعد يتذكر غير كلمة واحدة:

«أحبك.. أحبك يا...»

وقبل أن ينطق اسمها قاطعته، وقالت:

«أمتك.. جاريتك.. يا سيدي».

تطلع محمد بذهول. حاول أن يعترض إلا أنها راحت تؤكد بإصرار:

«أحبك أن تكون سيدي».

صمتت، ثم أضافت بغنج أنثى تجيد إنطاق الحجر:

«أنت سيدي.. عزيزةً أتذلل إليك.. أقدّم إليك طاعتي.. وعبوديتي... فأنت حريتي.. امتلكني.. أقدم إليك امتناني عشقاً.. ولهاً.. أحبك..

أشتهيك.. أنت سيد هذا الجسد.. خذه.. عمّده بنارك..»

مدّ محمد كفيه تحت إبطيها، ضاغطاً نهديها براحتيه. رفعها فنهضت طيعةً. وقفت أمامه فاحتضن جذعها، لاصقاً وجهه على بطنها عند موضع السرة تماماً. أحاط خصرها بيدٍ وامتدت يده الأخرى تحت ثوبها، تمسد فخذها، متحركة ببطء ما بين ركبتها حتى ردفها، فأتلعت بنشوةٍ جيدها، مُسبلة جفنيها، عاضة شفتها السفلى. تلاشى تردد محمد ورعشة خوفه، لتحل محلّها رعشة شهوة عنيفة وانتعاظ شديد. سحبها مباغتةً فسقطت عليه، وبحركة سريعة من يديه دفعها على السرير فسالت طيعة كعجين غير مختمرٍ على طابقٍ ساخن، حتى استقر رأسها على المخدة، ناشرة ذراعيها على عرض السرير. قوّس نصفه الأعلى عليها مطبقاً بشفتيه على شفتيها، ضاغطاً صدرها بصدره فأطبقت بذراعيها عليه. قبّل عنقها وتحت أذنيها، ويده تعتصر نهدها. كانت بهيجة تتنهد بشهوة، زافرة هواء ساخناً يلامس وجه محمد، وساقاها ترتعشان بحركة واضحة. أخرج نهدها بقبضته، مكوراً إياه بحركة بطيئة، وراح يقبّله، ممرراً لسانه حوله حلمته المنتعظة وحبيبات الهالة التي تحيط بها. مدت بهيجة ذراعها تحت خصر محمد وسحبته عليه، فاستلم الإشارة بوضوح. اعتلى جسدها ببطء، فأفرجت ساقيها. دخل بينهما حتى لامسَ قضيبه المنتصب بقوة موضع فرجها الغارق بماء شهوته. شهقت بصوت عال حينما وخز سنان رمحه أرضها الرطبة. تحرك قليلا لكي يخلع قميصه فتشبثت بخصره ساحبة إياه إلى موضع شهوتها. خلع قميصه دون أن يحوّل عن شقّها السفلي. نطت منها صرخة شبق مجنون وهي تتطلع إلى صدره العريض وشعره الناعم الغزير. وضع ذراعيه تحت ظهرها، فارتفع نهداها العاريان كقمتين شاهقتين بفوهتي بركانين متقدين. ضغط صدرها بصدره بقوة، حاكّاً حلمتيها بشعر صدره الساخن، ملتهماً شفتيها، ماصّاً لسانها بقبلة طويلة، بينا شقّه الثاني يطحن شقها بحركات دائرية. حركت رأسها لكي تخلّص شفتيها من جبروت شفتيه، وراحت تردد لاهثة:

«فضّني... فضّني يا سيدي.. فضّ بكارتي... حررني باستعبادك... أنا أمتك... امتلكني... امتلك جاريتك... أحبك... أشتهيك... أعبدك...»

لم ينتبه محمد لما كانت تقوله بهيجة، لكن لهاثها وكلامها جعله ينسى العالم والله والنبوة والجن والشياطين. مد يده بين فخذيها وأزاح لباسها الداخلي، دافعاً قضيبه بطعنات متتالية، عمياء تبحث عن سويداء القصد. أدركت بهيجة حيرة عذريته، فمدت يدها قابضةً على رمحه الذي لم يدخل معركة بعد، ولم يثقّفه الطعان. حركته على فرجها حركات سريعة، ثم وضعت سنانه عند موضع القلب. شعر محمد ببحيرة الماء المقدس، فدفع قضيبه ببطء. ارتفعت صرخة قوية من فم بهيجة، فسعى محمد لكتمان صراخها بقبلة، أدخل فيها شفتيها بين شفتيه مطبقاً عليهما، فأنشبت أظفارها في ظهره ضاغطة صدرها بصدره بقوة وبأنين مكتوم. فجأة توقف محمد عن الحركة بعد أن شعر بسائل لزج وساخن قد نفر من فرج بهيجة وسال على فخذيه. تطلع إلى فخذي بهيجة فشاهدهما وقد غطاهما الدم. أدركت بهيجة ما يدور في ذهن محمد، فسحبته إليها، متشبثة به بقوة حتى استقر رأسه بين نهديها. مدت يدها. مسكت بقبضتها قضيبه الذي تراخى قليلاً. راحت تحرك قبضتها عليه حتى أفرغ ماءه على بطنها وفخذيها. زفر محمد بنشوة ورمى بثقل جسده عليها، لاهثاً مستسلماً لنشوته. وضعت رأسه بين نهديها وراحت تمسد شعره حتى هدأت أنفاسه، فارتفعت ضحكاتهما بنشوة انتصار. استعاد محمد ثقته بنفسه فتلاشى خجله، إذ شعر بزهو فحولته بعد أن اجتاز الاختبار بنجاح باهر، لكنه لم يستطع أن يوصل بهيجة إلى ذروة نشوتها، فسألها كي يلقي مسؤولية الخطأ عن عاتقه، ويظهر أمامها بمظهر الرجل الخبير، العارف بأمور المرأة والجنس:

«كيف تفعلين هذا وأنت طامثة؟»

نطّت ضحكة من فم بهيجة، وقالت وهي تنظر إلى وجه محمد بتحايل:

«لستُ طامثة... فهذا ليس دم الحيض».

«وماذا يكون؟»

سأل محمد ببراءة، فارتفع ضحك بهيجة ثانية، حتى شعر محمد بالخجل من جهله بأمرٍ لا يعرفه، فكرر سؤاله، غير أنها لوت عنقها بغنجٍ، وقالت:

«احزر أنت».

«لا أدري».

قال وهو يتطلع إليها بفضول لمعرفة ما تخفيه. بعد صمت، شعر محمد خلاله بالحرج والخوف من حقيقة قد تكون مرة، قالت بهيجة:

«هذا دم البكارة».

هزّ محمد رأسه غير مصدق لما سمعه، وسأل ببلادة:

«أية بكارة؟»

«بكارتي... عذريتي».

قالت بهيجة وهي تنظر إلى محمد بفرح وحب، ثم أضافت:

«اسمع يا محمد...»

توقفت قبل أن تشرح له الأمر مستدركةً:

«يا سيدي... إن الأمر الذي لا تعرفه هو أن الشيخ نوفل لم يمسسني قط... بل لم يلامس جسدي... ولم أرَ جسده».

«كيف وأنت زوجته؟»

«زوجته أمام الناس فقط».

«كيف؟»

سأل محمد بفضول ورغبة لمعرفة كل شيء في لحظة واحدة، فقالت بهيجة:

«للأمر حكاية طويلة».

صمتت بهيجة، وحينما ألح محمد لمعرفة الحكاية، نهضت وهي ترتدي ثوبها الذي تمزق صدره. جلست على حافة السرير ومحمد ينظر

إليها مرتقباً أن تبدأ الحديث. التفتت إليه وقالت:

«ألا تذكر حينما سألتني عن سبب عدم قبولي لك ابناً.. وأجبتك بأنك لن تكون ابناً لي.. وحينما ألححت بمعرفة السبب قلت لك يا محمد إنك لن تطيق معرفة السر؟»

هزّ محمد رأسه متذكراً الحديث الذي دار بينهما في دار الشيخ نوفل، فأضافت:

«وها أنا أقول لك ثانية... إنك لن تطيق معرفة السر».

شعر محمد بانقباض، وبدت على وجهه علامة حزن، فاستدركت بهيجة:

«ربما ستعرف كل شيء.. ولكن ليس الآن».

هزّ محمد رأسه، دلالة على الرضوخ للأمر، فابتسم حاضناً كتفيها بذراعه، مقبلاً خدها، فلوت جيدها نحوه، واضعة رأسها على كتفه.

انتبها إلى أن الوقت قد تأخر وأوشكت علامة الفجر على الظهور. كوّرت بقبضتها الخرقة التي مسحت بها دم عذريتها، وقدمتها لمحمد، قائلة:

«أتريد الأحتفاظ بها؟»

ارتفعت ضحكة محمد بزهوٍ، وضحكت بهيجة بانتشاء عروس، وعلى الرغم من استخفاف محمد بالأمر إلا أنه تناول الخرقة ليحتفظ بها في صندوق أسراره. نهضت بهيجة بهمة من حسم أمره. ارتدت جلبابها وزررته ببطء وهي تنظر إلى عيني محمد بإعجاب ونشوة. هزت رأسها فتطاير شعرها الذهبي في فضاء الكوخ ملامساً وجه محمد الذي أغمض عينيه كأنه يختزن المشهد لوقت الغياب. عقصت شعرها من الخلف ثم غطت رأسها بحجابها متهيئة للمغادرة. سألها محمد بتردد:

«ومتى سأراك ثانية؟»

«ستراني كلّ ليلة».

قالت ثم استدركت كأنها تذكرت أمراً:

«باستثناء الليالي التي يكون فيها القمر بدراً».

طفحَ وجه محمد بالفرح وهو يسمع وعد بهيجة له باللقاء كل ليلة ولكن فضوله دفعه لمعرفة علاقة البدر بعدم مقدرتها على المجيء، فهمّ بالسؤال عن السبب إلا أنه توقف، لسبب لا يعرفه أو ربما خوفاً من أن الأمر ينطوي على سرّ آخر من الأسرار الكثيرة التي لم يعد يطيق اكتشاف المزيد منها، وليس بقادر على حلّ ألغازها. هزّ رأسه موافقاً على ما قالته بهيجة مبدياً قناعة ورضا.

سار معها بحذر، وهما يجتازان البستان نحو الجهة الغربية، وعند مشارف مفازة الجن توقفت بهيجة لتودعه، غير أنه أبى إلاّ أن يوصلها، فرفضت بشدة. سارا بضع خطوات ثم توقفا. مدت إليه شفتيها فقبلهما. حاول إطالة القبلة محتضناً جسدها بقوة، متمنياً في سرّه مضاجعة جنونية وسط هذا العراء، إلا أنها أفلتتْ من قبضته كسمكةٍ مراوغة. وقف في المكان، بينا توغلت بهيجة مسرعة في مفازة الجن كعباءة سوداء تخفق في العتمة، حتى تلاشت في الظلام.

* * *

(٩)

«السماءُ لا تحتملُ قمرين».

ردد محمد مع نفسه، وهو يتطلع إلى البدر الذي توسط السماء، عائداً من أول جولة من حراسته الليلة. الشوق للحبيبة التي لن تحضر الليلة ونسمات أول الخريف أنعشته فطابت نفسه. راح يصفّر لحناً ارتجالياً، وقد كان خلال السنة التي قضاها هنا حارساً في البستان قد تعلم العزفَ على آلة الناي التي صنعها بنفسه، ووجد فيها ما يلائم عزلته والليل الذي يقضيه بين العشق والتأمل. أخذ عدة الصيد والناي وذهب إلى النهر. رمى الصنارة في النهر رابطاً طرف الخيط بعصا غرزها في الأرض ثم جلس قريباً منها. أخذ نايه وراح يعزف مقطوعة حزينة كان قد سمّاها (عتمة البدر). اقترب أحد الصيادين من الجرف الذي يجلس عليه محمد. أوقف زورقه قريباً وراح يشد الشباك إليه، وهو يردد أغنية ريفية بصوت مبحوح يخرج من حنجرةٍ نخرها التبغ. ألقى التحية، فردّها محمد دونما اهتمام، فقد كان يعرفه رجلاً ثرثاراً لا يكف عن الحديث الفارغ إذا أعطي مجالاً، ولا يسكت إن لم يعترضه أحد. نهض محمد محركاً خيط الصنارة، ثم عاد إلى مكانه واستأنف عزفه على الناي.

«كيف العاشق الليلة؟»

صرخ الصياد، فلم يعره محمد اهتماماً كأنه لم يسمعه.

«متى سنسمع صراخ طفلٍ في البستان؟»

سأل الصياد، فتوقف محمد عن العزف بعد أن توجس منه خبثاً.

«ماذا تعني؟»

سأل محمد، فارتفعت ضحكة الصياد بطريقة رعناء تدل على المخاتلة.

«لا شيء... قلت متى ستكون أباً».

قال، فردّ محمد:

«وكيف يكون لي ولد وأنا لم أتزوج بعد؟»

ارتفعت ضحكة الصياد مرة أخرى. شعر محمد بأنه يخفي أمراً، فراح يؤكد:

«ومن هي الحرمة التي تزورك كل ليلة؟»

«أية حرمة؟»

سأل محمد محاولاً تمويه الأمر، فردّ الصياد بصوت غاضب:

«اسمعْ يا ابن الملّوح.. نحن نقرأ الممحو.. ونعرف كل شيء».

«من أنتم؟»

رمى الصياد شبكته في قعر الزورق ونط إلى الجرف. جلس لصق محمد الذي ابتعد عنه قليلاً متذمراً من فضوله وإلحاحه في الثرثرة. مسك الصياد وجه محمد بقبضة خشنة وأدار رأسه نحوه بفظاظة، وخاطبه بلهجة يبدو الشرَ واضحاً فيها:

«اسمعْ يا محمد.. أنا رأيت الحرمة تخرج من مغارتك.. فلا تنكرْ».

«وماذا تريد؟»

سأل محمد بلهجة احتقار، وقد استعر الغضب في نفسه، فأضاف بتحدٍ:

«يا كلب».

ثم هبّ محمد واقفاً، راكلاً التراب فتطاير على وجه الصياد. وقف متحفزاً لما قد يبدر منه من ردة فعل. نهض الصياد. تراجع إلى الخلف، ثم توقف، وبصمت نطّ إلى زورقه. وقف ملوحاً بالمجذاف، فوقف محمد قبالته متحدياً، وقد استل عصاه فأنزل الصياد المجذاف.

«اسمع يامحمد.. بإمكاننا أن نتساوم على...».

وقبل أن يكمل جملته رفع محمد أذيال ثوبه متهيئاً للقفز إلى الزورق، مستلاً خنجره من حزامه، مخاطباً الصياد والزبد يتطاير من فمه:

«على ماذا نتساوم أيها الوغد...؟»

وقبل أن يردّ الصياد، أضاف محمد بغضب:

«إن كنت قوّاداً فهل تظن أن الناس مثلك أيها الخنزير؟»

شعر الصياد بأن محمداً فهم قصده بطريقة أخرى، فخفف من لهجته، وقال:

«لم أقصد ما فهمتَ».

توقف محمد، وقد أدرك أن متحديه ليس كفئاً للمبارزة، فقال باستخفاف:

«وماذا كنت تقصد... يا عفن؟»

تردد الصياد قليلاً، ثم وبطريقة مراوغة وجبن قال:

«اشترِ صمتي».

«وإنْ لم أفعل؟»

سأله محمد بسخرية، وقد خفّ غضبه، فردّ الصياد بتحدٍ:

«سأخبر عبيد الحنظل... وسيذيقك طعم السياط».

وبسخريةٍ وقحة، أضاف:

«وحق جدك... هاشم».

ارتفعت ضحكة محمد، وردّ:

«وهل تعتقد أنا مثلك جبان.. أخاف من عبيد الحنظل أو الحاج رضا؟»

صمتَ قليلاً كأن فكرة خطرت له فسأل الصيادَ باحتقار:

«وكم هو ثمن صمتك... يا بخس؟»

استرخى الصياد، فقد ظن بأن محمداً قد أوشك على الموافقة، فقال:

«نصف أجرتكَ».

«حسناً.. حسناً.. انتظرني لأعطيك عربون الإتفاق».

صفق الصياد بكفيه، بينا محمد خاطبه مفتعلاً القناعة بالإتفاق:

«دقائق.. وأعود إليك».

غادر محمد المكان، وفي نيته تحقيق المقلب الذي فكّر فيه. توغل في عمق البستان حيث وكر الأفاعي التي ألفها وألفته، وبعد وقت قصير عاد إلى النهر وهو يحمل أفعى يتجاوز طولها الذراعين، ماسكاً إياها من خلف رأسها، طاوياً جسدها على ذراعه. نادى الصيادَ الذي كان مشغولاً بجمع الشباك. انتبه على نداء محمد فنهض وسط القارب، مبتهجاً بانتصاره في إبرام الصفقة.

«خذْ».

صرخ محمد، ورمى الأفعى عليه، فسقطت في عمق الزورق. صرخ الصياد، رامياً نفسه في الماء، سابحاً باتجاه الجرف، وقبل أن ينهض بادره محمد بركلةٍ على رأسه أرجعته إلى الماء. وقف مترنحاً والماء يخرج من فمه ومنخريه، وقبل أن يسدد إليه محمد ضربة بعصاه، رمى بنفسه وراح سابحاً إلى الضفة الأخرى. ارتفعت ضحكة محمد وهو يرقبه سابحاً بذعر حتى وصل إلى الضفة الأخرى. توقف مشيراً بذراعه متوعداً محمداً، الذي ناداه بصوت عال:

«إذهب يا ابن الزانية إلى قوّادك واخبره بما رأيت».

لم يستطع الصياد نسيان ما لحق به من إهانةٍ، فوشى بمحمد عند عبيد الحنظل، إلا أنه فوجئ بردة فعل الحنظل، فما أن أكمل وشايته وكان الحنظل يصغي إليه باهتمام، حتى تلقى صفعة قوية، صمّت آذانه. لم يكتف عبيد بهذا، بل سحله من ناصيته جانباً، مهدداً إياه بأن ينقل هذا الكلام إلى الحاج رضا لينال عقابه بالجلد. أقسم الصياد بأغلظ الإيمان بأنه شاهد امرأة تخرج من كوخ محمد، إلاّ أن عبيد الحنظل صرخ بوجهه أن يصمت، وحينما ألح على معرفة سبب غضبه، مسكه عبيد من عنقه بقبضته القوية، وقال هامساً والزبد يتطاير من فمه:

«أتعرف ماذا تقول؟»

فأجاب الصياد وهو يكرر أيمانه:

«نعم، رأيتها بعيني التي ستأكلها الدود».

توقف عبيد الحنظل، ثم هجم عليه ثانية مردداً:

«يا ابن الزانية.. أتعرف ماذا يعني كلامك؟.. لا توجد امرأة واحدة في هذه المنطقة.. سوى حريم الحاج رضا.. فهل تعرف ماذا سيفعل الحاج لو وصل إليه كلامك؟»

شعر الصياد بالرعب، لكنه راح يقسم بأنه شاهد امرأة تخرج من كوخ محمد. توقف عبيد الحنظل عن ضرب الصياد واكتفى بتحذيره:

«إياك أن تتفوه بما قلته أمام أحد وإلا سأذبحك بيدي».

هزّ الصياد رأسه معاهداً الحنظل أن يصمت.

على الجانب الآخر، كان محمد حزيناً، قلقاً بسبب انكشاف أمره، محاولاً تدبر الأمر بما يحفظ سمعة بهيجة. فكّر بترك العمل في البستان قبل انتشار الخبر، أو إخبار بهيجة بالأمر كي تمتنع عن المجيء، وفي كل الحلول التي اقترحها كان يرى نفسه خاسراً. ندمَ على ما فعله بالصياد وعلى تهوره وحماقته، وتمنى لو أنه اشترى صمته لحين أن يدبّر له فخاً يوقعه فيه، أو أنه يحاول شراء صمته، ولكن لن يرضخ لشرطهِ، بل سيحاول أن يهدده بالقتل إن تطلب الأمر ذلك.

.. وكما كانت ردة فعل عبيد الحنظل غير المتوقعة، كانت ردة بهيجة، فحينما أخبرها بالأمر ارتفعت ضحكتها ساخرة. توقف محمد بذهول وهو يتطلع إلى بهيجة التي اغرورقت عيناها بالدموع من الضحك وهي ترى محمد خائفاً. شعر بالضيق من لامبالاة بهيجة ومبالغتها في الاستخفاف بالأمر، حتى مسكها من ذراعها بقوة، هازاً إياها بغضب، فتوقفت عن الضحك. جلست على حافة السرير وهي تمسح عينيها، ثم فجأة رفعت رأسها إلى محمد، وقالت:

«يا محمد... ألم أقل لك لن يراني أحد».

فصرخ محمد بوجهها ناسياً حذره:
«ولكن... رآك أحدهم».
ارتفعت ضحكة بهيجة ثانيةً، لكنها توقفت عن الضحك بعد أن رأت علامات الغضب على وجه محمد. انزلقت من حافة السرير وجلست على ركبتيها بين ساقيْ محمد. ركزت كوعيها على فخذيه ورفعت رأسها محيطة وجهها براحتيها، متطلعة إلى عيني محمد، وعيناها تبرقان بالحب:
«اسمعْ يا سيدي... وثق بما سأقوله».
هزّ محمد رأسه مصغياً إليها، فأضافت:
«سأجعل من يراني يكذّب عينيه».
«كيف؟»
سأل محمد، فردت بإصرار:
«لا عليك... ولكن ثق بما أقوله».
وقبل أن يعترض أو يستفسر، نهضت بهيجة واستلقت على السرير فاتحة ذراعيها، مُبرزة نهديها، وقد انحسر ثوبها القصير حتى ظهر أعلى فخذيها.
وصل محمد إلى الضفة الثانية لاستلام تموينه اليومي كالعادة محاولاً أن يموّه قلقه بإظهار ثقته بنفسه وصلابة تحديه، مصمماً على النفي لو واجهه عبيد الحنظل أو غيره بما سمعوه. وقع نظره على الصياد الذي كان يقف في الطابور لاستلام وجبة العشاء من الطبّاخ. حاول الصياد أن يتجاهل نظرات محمد التي تركزت عليه، إلاّ أن محمد حاول أن يتشفى به، وقد خطرت في ذهنه فكرة أن لا يبدو أمامه ضعيفاً، فيشتري صمته بزرع الرعب في داخله. اقترب منه حتى التصق به، دافعاً إياه بكتفه فتزحزح من أمامه محاولاً أن يتحاشى الاصطدام بمحمد الذي كان ينظر إليه من علٍ بنظرات نسرٍ يتأهب للإنقضاض على فريسة، حتى توارى.
قبل أن يعبر محمد النهر عائداً إلى البستان، لحق به عبيد الحنظل.

وضع كفه على كتف محمد ماداً يده الأخرى مصافحاً فأخذها محمد. هزّ محمد يد عبيد الحنظل بقوة وهو يتطلع في عينيه، اللتين قرأ فيهما ما يدور في ذهنه. سأل عبيد محمداً، بطريقة ثعلبية واضحة المخاتلة والخبث، عن أحواله وعن احتياجاته، وكيف يقضي فترة حراسته الطويلة. هزّ محمد رأسه شاكراً له بكلامٍ حاول أن يكون منمقاً متعالياً، ما أبداه من عزمٍ على تقديم له المساعدة في تلبية كل ما يحتاجه، واضعاً في حسبانه حقيقة ما خطر في ذهنه، حتى بادره بالسؤال فأدرك بأن الصياد قد وشى به، حينما سأل عبيد الحنظل:

«عرفناك شاعراً.. وعازفاً.. ولكن لم نعرفك حاوياً».

وقبل أن ينطق محمد بكلمة، أضاف الحنظل:

«ولكن.. ألا تخاف الأفاعي؟»

تطلع إليه محمد، وبهدوء أجاب:

«الذي يخاف الله لا يخاف مخلوقاته... يا... عبيد».

شعر عبيد بلهجة محمد المتعالية، فأخفى حنقه مردداً:

«ونعِمَ بالله».

أغراه تخاذل عبيد الحنظل فانتفخ زهواً، مستغلاً لحظة الضعف، فأجهز على خصمه بإشارة لها دلالة يدرك تأثيرها على الخصم:

«لا تنسَ.. أنا حفيد هاشم».

رفع عبيد الحنظل يده ووضعها على رأسه بطريقة تفتعل الاحترام، موارياً حنقه، وهو يردد:

«ونِعمَ الهاشميين جميعاً».

جمع عبيد الحنظل رجاله المقربين منه، وأوصاهم بتشديد الحراسة على بيت الحاج رضا، دون أن يثيروا أية شبهة وألا يتفوهوا بأي شيء يرونه أو يسمعونه إلا له وحده. حاول بعض منهم أن يستفسر عن السبب

إلاّ أن الحنظل نهره مذكّراً الجميع بأن ليس من حق أحد منهم أن يسأل قبل تنفيذ الأوامر.

«أريد أن أعرف حتى النملة الخارجة والداخلة».

كذلك اختار من الصيادين رجلين، وأوصاهما بأن يراقبا ما يدور في البستان ليلاً مؤكداً عليهما أن لا يثيرا انتباه محمد، وأن يكتفيا بأن يراقباه من بعيد وأن يتحاشيا الاصطدام به، وهذا الأمر لم يغب عن تفكير محمد، فقد كان واثقاً من خلال الحديث الذي جرى مع عبيد الحنظل بأنه سيقوم بمراقبته.

أدركَ محمد ما يدور قريباً منه وأنه يقع تحت مراقبة الصيادين اللذين راحا يطيلان رسوّهما قريباً من ضفة النهر، يفتعلان الانشغال برمي وشد الشباك وعيونهما تترصد ما يدور داخل البستان، ويتحدثان بهمس ونظراتهما تكشف ما يدور في ذهنيهما. كان محمد يقترب منهما ويتصرف بشكل لا يثير الشك، أو يوحي لهما بأنه يعرف جيداً ما يقومان به. كان أحياناً يقف قريباً منهما وهو يحمل على كتفيه ثعباناً كبيراً، يتحدث معه بكلماتٍ غريبة يبتكرها، فيثير الرعب فيهما، يتوسلان بمحمد أن يبتعد عنهما، أو يضطران إلى التجذيف مبتعدين بزورقيهما عن الضفة، فيطلق محمد ضحكاً عالياً، ساخراً من جبنهما الذي بدآ يتأكدان منه لاعنين في ما بينهما عبيد الحنظل وأوامره ومؤامراته التي لا تنتهي، فيستغل محمد ما يشعران به ليلقي عليهما مواعظه عن الرجولة والشرف والحرية، وكانا يصغيان إليه باحترام ورهبة لا تخلو من إعجاب وحب، بل إجلال لما لمساه من شجاعته وعفة نفسه التي لا يملك ذرةً منها خصمه عبيد الحنظل الذي يعملان الآن لصالحه ويتجسسان من أجله على رجل لم يريا منه غير الشهامة. كان تأنيب الضمير يدفعهما أحيانا إلى التوسل بمحمد من أجل قبول سمكة من صيدهما، فيتحول تأنيب الضمير عندهما إلى احتقار للذات يعبران عنه أحيانا بسيل من الشتائم

يصبانها على نفسيهما أو على من جاءا بهما إلى هذه الدنيا القحبة، حينما يرفض محمد هديتهما قائلاً بإباء وتعال:

«لن آكل إلا مما تصيده يدي».

يلعنان في سرهما ضعفهما ورغيف الخبز الذي يدفعهما الحصولُ عليه إلى قبول الذل والمهانة، وعلى الرغم من إدراك محمد ذلك، واعترافه بضعف الكائن البشري وشعوره بالشفقة عليهما ولكن احتقاره لهما كان يتضاعف فيعطي لنفسه الحق في التمادي في استفزازهما وتصغيرهما أمام نفسيهما.

في ليالي البدر، حيث يكون الحب في استراحة، يقضيها محمد جالساً عند الجرف، يصيد السمك فيدعو خصميه إلى حفلة شواء، يقضيانها في الاستماع إلى أحاديث محمد ومواعظه، وما يروي لهما من غرائب القصص عن عوالم بعيدة للأنس والجن، لم تخطر لهما حتى في الأحلام أو الكوابيس، أو يعزف لهما على الشبابة والناي فيصمتان كحجرين أو يدب فيهما الشوق إلى اللاشيء فتفيض عيونهما بالدمع.

كتب محمد في دفتره الكبير خاطرة بعنوان (**في ترويض الثعبان**):

«اعلمْ هداكَ الله ونصركَ، أن لكل شمشون أو آخيل نقطةَ ضعفٍ، إن تكتشفْها يسهلْ عليكَ صرعه أو ترويضه، فالهدوءُ طريقُ التدبرِ، والمباغتةُ في اللحظة المناسبة سلاحُ الأعزل، وما من متنمرٍ لا يقع في فخ الغفلةِ إنْ خذلتْه الحنكةُ في التفكيرِ وأحاطتْه الحلكةُ في التقدير، وما أسهل أن يجهز عدوكَ عليكَ إن رأى الخوفَ ظاهراً في عينيكَ، أو لاحَ له خَوَرُ تفكيركَ وضعفُ فطنتكَ، فاستغلَ اللحظة الباهظة في ضربة خاطفة، واعلمْ أن الهزيمةَ ليست غنيمةً حينما تُفرضُ المواجهةُ حتى مع من تظنه الأقوى والأشد فتكا، فالنصر حليفُ من هو أذكى، فكم من مباهلةٍ انتصر فيها ضعيفُ البنيانِ قويّ الشكيمةِ على قويّ البنيانِ ضعيفِ العزيمة، وأشد ما يخيف عدوكَ أن يراك غير مبالٍ بقوته، واثقاً من حدسكَ معتزّاً بنفسكَ، فيتردد في المبارزة، والتردد أول النكوص، فمن

سار إلى معركةٍ معتمداً على قوة السلاحِ، كشاحذِ القرونِ للنطاحِ، وجَلّ ابنُ آدمَ من أن يُقرنَ بالخرافِ والماعزِ وقد وهبه الخالقُ خيرَ هامزٍ، فابعدْ عن نفسكَ التفكيرَ في الهزيمةِ تلقَ الظفرَ وترَ الثعبانَ قد غدا حمامةً نائمةَ في قبضتكَ الواثقةِ غير المرتعشة».

لم يشكّ عبيد الحنظل بما قاله الصياد عن رؤيته لامرأة تزور محمداً كل ليلة، ولكن كان خوفه أن تكون المرأة إحدى نساء الحاج رضا أو واحدة من بناته، وبعد شهر من الحراسة المشددة والعيون التي نشرها على كل مداخل ونوافذ بيت الحاج رضا، وقد اشترك هو نفسه بعض الليالي بالحراسة، لم يحصل على نتيجة تروي له غليله ليتشفى بهذا «المجنون الطائش»، حينما يجده مربوطاً على نخلةٍ أو صخرة لتنهال على ظهره السياط، حينئذ «لن يشفع له جده ولا كل الهاشميين»، غير أن الشكّ لايزال قائماً فالصيادين اللذين أوكل إليهما مهمة مراقبة محمد لم يؤكدا له شيئاً يقوّي حجته ويخدم مسعاه، بل على العكس كانا لا ينقلان إليه إلا ما يثير حنقه، فيفقد سيطرته على نفسه في إخفاء حقده حينما يتحدثان بإعجاب عن شجاعة محمد وشهامته.

«ولكن ماذا لو كانت المرأة إحدى بنات الحاج رضا؟»

ردد مع نفسه، وهذا أشد ما يغيظه:

«عندئذ سيكون صهراً للحاج رضا ويخرج هو منبوذاً».

استبدل عبيد الحنظل الصيادين اللذين فشلا في مهمتهما بثلاثةٍ من أقرب رجاله وأكثرهم تملقاً وعبودية، وغيّر خطته في المراقبة، فإضافة إلى صيادين يراقبان المشهد من جهة النهر أشار إلى الثالث أن يتسلل إلى البستان من جهته الجنوبية حيث لم يخطر ذلك في ذهن محمد، بينا تستمر الحراسة والترقب الحذر على مداخل ونوافذ دار الحاج رضا.

بعد عدة ليالٍ والحراسة من قبل رجال يضمرون لمحمد حقداً لا يعرفون سببه، حصل عبيد الحنظل على ما كان يطمح إليه، فقد أكد الصياد المختبئ في غيضة القصب بأنه رأى امرأة تتسلل إلى كوخ محمد

من جهة البستان المحاذية لمفازة الجن. أطلق الحنظل ضحكة انتصار، مشدداً العزم على إمساك الطريدة وجلبها إلى الشيخ رضا، كإثبات لا يقبل النفي على فسق محمد «سليل العائلة الهاشمية التي استحوذت على الصيت بإدعائها الشرف والعفة». جمع رجاله الذين يثق بولائهم إليه وقرر اقتحام الكوخ للقبض على محمد وصاحبته وهما متلبسان بالجرم، إلاّ أن الرجال اعترضوا على الخطة خوفاً من أن يبطش بهم محمد، خاصة وأنهم رأوا بأعينهم كيف أنه أحاط نفسه وكوخه بحراس من الثعابين الفتاكة التي قد يستخدمها في حالة المواجهة، ولكيلا يغضبوا عبيد الحنظل اقترح أحدهم أن ينصبوا للمرأة كميناً خارج البستان، وبعد خروجها قبل الفجر يتم القبض عليها قبل أن تتوغل في مفازة الجن. لاقى الاقتراح استحساناً من الرجال الآخرين فرضخ الحنظل على مضض. تطوع أحدهم بأن يقوم بالمهمة.

بعد أن استلموا الإشارة من قبل الرجل المختبئ في غيضة القصب بوجود الغنيمة، تحرك الرجل الآخر بمحاذاة سور البستان ليكمن عند ركن البستان الغربي. عاد الرجل المختبئ ليعلن أخيراً انتهاء مهمته بعد أن أخبر الحنظل بخروج المرأة متجهةً إلى الباب الغربي. كان عبيد الحنظل يتحرك على ضفة النهر جيئة وذهاباً محركاً كفيه بقلق، منتظراً عودة الرجل بالطريدة التي انتظر وقوعها في الفخ أكثر من ستة أشهر، غير أن الرجل لم يعد على الرغم من طلوع الضوء. عبّر الحنظل عن قلقه بأن محمداً قد كشف اللعبة فانقضّ على الرجل قبل تحقيق مسعاه، إلاّ أن الصيادين أكدا له بأن محمداً موجود في كوخه، وقد استمعا إليه وهو يعزف على نايه. ارتفعت الشمس في السماء والرجل لم يعد فأدرك عبيد الحنظل بأن أمراً قد حدث. ازداد قلقه من أن يكتشف الحاج رضا غياب الرجل فيغضب عليه، لأنه لم يخبره بما كان يخطط من ورائه. حينما يئس من عودة الرجل أرسل رجلين آخرين لاستجلاء الموقف، وقد زودهما بساطورين طويلين. لم يمضِ سوى نصف ساعة من الوقت أو

أكثر بقليل حتى عادا وهما يحملان بقية جثة رفيقهما، مؤكدين أنهما رأيا ذئباً ينهش أمعاءه.

أحدث مقتل المزارع ضجة بين الصيادين والمزارعين والخدم في بيت الحاج رضا، فتجمعوا في الساحة المقابلة لدار الحاج رضا، مستفسرين عمّا حدث. علم الحاج بالأمر فانزوى بعبيد الحنظل بعيداً عن الأنظار. أخبر الحنظل وهو يرتعش من الخوف، الحاج رضا بتفاصيل الأمر كلها مضيفاً إليها من مخيلته اتهامات كثيرة للإيقاع بمحمد وتحميله أثم مقتل المزارع، فاستدعي محمد إلى مكتب الحاج رضا. وصل محمد إلى الضفة الثانية وهو لا يعلم بما حدث. كان يترنح من النعاس فلم يمض على استغراقه في النوم سوى وقت قصير. رأى الصيادين والعاملين متجمعين في الساحة المقابلة للدار ولم يذهبوا إلى أعمالهم، فتوجس أمراً سيئاً قد حدث، حاول أن يستفسر عنه إلاّ أن لا أحد كان يجرؤ على النطق بشيء وهم ينظرون إليه بشفقة وخوف. شاهد عبيد الحنظل يخرج من مكتب الحاج رضا، فخطرت في ذهنه أن هذا العبيد قد حاك له دسيسة يسعى من خلالها الإيقاع به. ألقى التحية فلم يرد عليه الحاج رضا، وتشاغل عنه في التحديق إلى زاوية الغرفة، فاركاً راحتيه ببعضهما بحركةٍ تدل على الغضب. توقف محمد أمام المكتب بثبات، متنظراً ما سيقوله الحاج:

«من هذه المرأة التي تزورك كل ليلة؟»

سأل الحاج رضا وهو يتطلع إلى عيني محمد بغضب، فأجاب بهدوء مبالغ فيه:

«أية امرأة؟»

وقبل أن يدع الحاج رضا يطرح عليه سؤالاً ثانياً، أضاف محمد بثقة عالية وبهدوء:

«وأية امرأة تجرؤ على الوصول إلى البستان... إلا اللهم سعلاة أو جنية».

توقف الحاج رضا عن فركِ راحتيه، فشعر محمد بأنه اجتاز اختبار البداية، وامتصّ غضب الحاج الذي راح يتأتئ، محاولاً دحض حجة محمد:

«ولكن شهد الكثير من الصيادين والعمال بأنهم رأوا امرأة تزورك في الليل وتغادر قبل الفجر».

فرد محمد، رافعا كتفيه، زامّاً شفتيه بلا مبالاةٍ:

«لقد شُبه لهم».

ثم أضاف بلغة العارف، المتمرس بالمحاججة، وقد كان محمد يحاول أن ينتقي المفردات بلغة عربية سليمة ليفرض هيبةً لا يستطيع الحاج رضا مجاراتها:

«لقد علّمتني مهنتي أن الخوف حينما يستبد بالنفس، يتجسد وهمها أشباحاً وعفاريتَ... فيجد الجبانُ فيها أسباباً للخوف تجعله مستكيناً لجبنه».

كان الحاج رضا يصغي إلى محمد بإعجاب لم يستطع إخفاءه، فرضه تحكم محمد باللغة وتعاليه في توضيح الأمر بلغة شيخٍ خبرَ أصول الجدل.

«ولكن ما الذي يجعلهم يشهدون ضدك؟»

سأل الحاج رضا وقد بدا أقل غضباً مما كان عليه قبل دقائق، مستفسراً أكثر مما هو محققاً. ابتسم محمد وهو ينظر إلى الأرض، وبعد لحظات صمت رفع رأسه، وخاطب الحاج رضا:

«يا عمي... ما أردت أن أشغلك بمشاكل أنت في غنى عنها..».

تطلع الحاج رضا إليه بانتباه، ثم أشار إليه أن يجلس على كرسي الخيزران المجاور للمكتب، وفاجأ محمداً بكلامٍ، شعر من خلاله محمد بأنه قد حقق مطلبه:

«قلْ يا ابن أخي... اسمعك.. أية مشاكل تقصد؟»

وضع محمد كفيه بين ساقيه وهو يحدق إلى الأرض، ودون أن يرفع رأسه، قال:

«منذ أن بدأت بالعمل هنا وهذا ال... عبيد الحنظل... يحرّض المزارعين والصيادين ضدي... ولسبب لا أعرفه يحاول الإيقاع بي... وقد بث عيون رجاله يتجسسون علي... وحينما لم يجد تهمةً يلصقها بي.. ها هو يفتعل هذه اللعبة الخبيثة».

كان الحاج رضا يصغي إلى محمد، هازاً رأسه دلالة على التصديق واستيعاب ما يرمي إليه. عاد بتفكيره إلى الماضي ووجد أن في أحداثه ما يجعل إحساس هذا الغلام صحيحاً، فهو يعلم أن عبيد الحنظل لن ينسى الحقد الذي يضمره لعائلة هاشم، ويتحين الفرصة للأخذ بثأر أبيه الذي قتله هاشم حينما اكتشف بأنه كان جاسوساً لجيش الغرباء سبّب في مقتل الكثير من الثوار أثناء حرب التحرير، ولأن الحاج رضا لا يريد فتح دفاتر الماضي التي إنْ فتحت فأنه سيكون الخاسرَ الأكبر، فهو لن ينسى أن أباه قد استولى على البستان التي تعود ملكيتها أصلا إلى الشيخ هاشم، وأن هذا الغلام الذي شبّ على الطوق بغفلة من عمره وزمانه، ليس سهل العريكة، وأن كسبه إلى جانبه ولو بكلماتٍ فارغة خير له ألف مرة من أن يجعل منه عدواً، قد لا يأمن جانبه. تطلع إلى محمد وقال بتملق واضح:

«أنا لم أصدق ما قاله عبيد الحنظل وأني أثق بعفّة نفسك وإخلاصك».

ثم أشار إلى محمد بالمغادرة. نهض محمد دون أن ينحني أو يقبّل يد الحاج رضا كما كان يفعل بقية العاملين، مكتفياً بأن هزّ رأسه مع انحناءة قليلة تعبيراً عن الاحترام وليس العبودية. اتجه نحو الباب، وقبل أن يغادر الغرفة ناداه الحاج رضا ونهض من خلف مكتبه. مسك ذراعه وسارا معاً.

حينما شاهد عبيد الحنظل الحاج رضا وهو يمسك ذراع محمد بألفة

لم يرها من قبل، شعر بدوار وخوف. ناداه بعجرفة فهرع إليه مسرعاً. توقف أمامه ورأسه مطأطئة. خاطبه الحاج رضا بصوت يسمعه بقية المزارعين والصيادين المتجمعين في الساحة:

«جهّز جنازة المرحوم وأنا سأدفع الديّة إلى أهله».

تطلع في وجه عبيد بغضب وأكمل جملته بصوت واطئ، ولكنه على مسمع من محمد:

«... نيابة عن الذئب أو نيابة عن غبائك وحماقتك».

هزّ عبيد الحنظل رأسه بانصياع وخطا بالإتجاه الآخر، ولكن قبل أن يبتعد ناداه مرة أخرى، وحينما وقف بين يديه، خاطبه بتعال:

«لا تنسَ أن تعتذر من... ابن أخي».

هزّ عبيد رأسه ثانية بإذلال وغادر المكان، بينا محمد عاد إلى كوخه مزهواً بانتصاره، ليكمل نومه.

كان محمد يدرك تماماً أن الرجل لم يفترسه الذئب، على الرغم من كل الدلائل الواضحة للعيان، وأن لبهيجة علاقة بما جرى، ففي حساب بسيط للوقت ما بين خروج بهيجة من البستان ومصرع الرجل يؤكد شكّه، وليس حبّه لبهيجة يمنعه من أن يشكّ في طبيعتها الآدمية، بل إن أفكاراً، كالمعجزة والرسالة والسلطة هي التي كانت تسيطركلياً على تفكيره، وما هذه العلامات إلا رموز وإشارات غيبية تؤكد ما قالته بهيجة بأنه المصطفى، وأنها الوحي الذي ينقل رسالة الغيب إليه.

«ليس ما تراه هو الحقيقة».

«الحقيقة لا تُرى».

«لكل حدث رمز وإشارة».

«الحقيقة برمزيتها».

«التأريخ ليس ركام أحداث وشخوص».

«التأريخ مجموعة رموز».

«التأريخ الحقيقي يكمن في أساطير الأولين».

«اقرأ».

هذا ما كان يردده الشيخ نوفل.

لم يكن محمد يدرك ما يرمي إليه الشيخ نوفل، وكان يرى في ما يردده أفكاراً مجردة، مثواها المخطوطات، أفكاراً موغلة في الغموض ولا يستوعبها عقله الغضّ كالخطوط والدوائر التي رآها في اللوحات وعلى القدح الفخاري الذي أهدته إليه بهيجة. أما الآن فقد بدأ يرى المجرد متجسداً أمامه، يسمع صوتَ الفكرة، يتلمسها قبل تجسّدها. أفكارٌ طيعةٌ وأخرى تتمرد لكن يسهل ترويضها كما روّض الثعابين، أفكار تعرف الإتجاه وأخرى تحتاج إلى سهم إشارة. يشعر بزهو على الرغم مما تثيره هذه الأفكار في نفسه من حيرة وخوف، ولكن أليس الشك هو المنفذ نحو اليقين؟ أليست الحيرة هي طريق الارتقاء إلى اللا أين أو إلى المطلق، ولهذا لم يكن لحوحاً في الاستفسار من بهيجة عما يدور في ذهنه من شكّ، مستسلماً لما يراه خارج مقدرته على الكشف، قابضاً على جمرة حيرته، مستأنساً بلظاها مادامت هي زهرة الروح التي ستتفتح قريباً.

«ليس الذئب ما قتله، بل خوفه».

قالت بهيجة وهي تذكّر محمداً بما قالت له سابقاً، من أنها ستجعل حتى من يراها يكذّب عينيه، وهذا ما تحقق منه محمد بنفسه، ولمسَ حقيقته في الأيام التي تلت مقتل الرجل. كان العاملون حتى من كان يكره محمداً ويدفن فخاخاً في طريقه، ينظر إليه برهبة تجعله لا يرى ما يراه، وإنْ رآه لا يصدق رؤيته، حتى عبيد الحنظل والحاج رضا كانا يتحاشيان الوقوف في دائرته. استغل محمد هذا الحجاب الفاصل بينه وبين الآخرين، فأصبح أكثر حرية في حركته دونما حذر من العيون التي ترصده، بل كان يقضي وقتا طويلاً بصحبة بهيجة خارج الكوخ، خاصة في ليالي الصيف، حيث يقضيان شطراً من وقت لقائهما وهما يتجولان في البستان، يقطفان الليمون والبرتقال، أو يجلسان على ضفة النهر،

يتحدثان وترتفع ضحكاتهما دونما رقيب، على الرغم من أنهما يدركان بأن عيوناً تتطلع إليهما وترصد حركاتهما.

قال أحد العاملين مفسراً الأمر، بأنّ ما يرونه ما هو إلا جنيّة تتسلل إلى البستان كل ليلة من مفازة الجن، وقد تزوجها محمد. انتشرت الشائعة بين العاملين مضيفين إليها من مخيلاتهم ما يؤكد تفكيرهم. وجد محمد في هذه الشائعة ما يخدمه ويفرض هيبته عليهم، لذلك هزّ رأسه بحركة لا توحي بشيء حينما سأله أحد المزارعين إن كان حقاً يعرف لغات الجن وأنهم يزورونه في البستان كل ليلة.

فوجئ محمد ليلةً بزيارة عبيد الحنظل إليه، حاملاً معه عذقاً كبيراً من التمر، وحينما رأى في وجه محمد استفساراً عن سبب الزيارة، قال:

«اشتقت إلى أحاديثك ومواعظك، فقلتُ أقضي ساعة معك، نتسلى قليلاً.. ولنزيل ما قد علق في النفوس من إثم الظنون».

تطلع محمد إليه وعلى وجهه ابتسامة خبث. قال:

«أهلا وسهلاً... بابن العم».

فتح محمد باب الكوخ عامداً لكي يشبع فضول الحنظل فيتأكد من خلّوه من الإنس والجن، ولكنه فكّر بأنّ عليه أن يأخذ التدابير لكي ينهي هذه الزيارة المفاجئة قبل مجيء بهيجة. فرش له حصيراً عند الباب ودعاه إلى الجلوس، مردداً كلمات الترحيب التي استقبلها الحنظل بشيء من التردد وربما الخجل. غاب محمد قليلاً وعاد يحمل أغصاناً جافة ليشعل النار. اعترض عبيد مبرراً اعتراضه بحرارة الطقس، فردّ محمد:

«أنت ضيفي الآن، وعلى الأقل من الواجب أن أقدم لك شاياً».

ثم أضاف بإشارة ذات مغزى:

«وكذلك لنبعد الذئاب عن مجلسنا».

فهم عبيد ما يرمي إليه محمد إلا أنه تغاضى عنه كأن الكلام جاء عفوياً، فهزّ رأسه موافقاً على الحجة. لم يكن الشاي ولا الذئاب ما دفع محمد إلى إضرام النار، ولكن كانت إشارة إلى بهيجة إن قدِمتْ في هذا

الوقت فستراهما بوضوح على ضوء اللهب فتؤجل وصولها حتى يخلو الجو لهما. دارت بينهما أحاديث مصطنعة كالودّ الذي أبداه كلّ منهما للآخر. تحدث عبيد متذمراً، عن ثقل مسؤولياته وعن وضعه المحرج كوسيط بين الحاج رضا والعاملين وصعوبة الموازنة بين مطالب الطرفين، محاولاً أن يعطي انطباعاً عن أهمية موقعه، وفي الوقت نفسه ليبرئ نفسه من القسوة والخسّة التي يتعامل بها مع الصيادين والمزارعين، وبين فترة وأخرى كان يلعن الشيطان الرجيم الذي يوسوس في صدره أحياناً فيرتكب ذنوباً بحق الآخرين، مشيراً بشكل خفي إلى ما جرى بينهما «من سوء فهم» كما كان يردد. كان محمد ينظر إليه بتعالٍ، ملمّحاً إلى أنه قد نسيَ الأمر وأنه أكبر من أن يحمل حقداً عليه. حاول أن يغيّر الموضوع فسأل بلهجة تلميذٍ متواضعٍ، يثق بسعة علمِ معلمه:

«قلْ لي يا محمد... هلْ تؤمن بوجود الجنّ؟»

توقف محمد عن تحريك الجمرات، كأنه اقتنص لحظة ثمينة لابد أن يستغلها لكي يجهز على خصمه بالإيغال أكثر في إذلاله وبإضعاف إرادته قبل المبارزة إنْ كانت في نيته المراوغة ونصب فخ له. مسكَ عبيدَ الحنظلَ من كتفه، هازّاَ إياه بعنف. خاطبه بلهجة تأنيب متعالية:

«كيف تجرؤ على طرح مثل هذا السؤال؟»

ارتعب عبيد من تغيّر سلوك محمد المفاجئ، فارتد إلى الخلف قليلاً مستفسراً عما ارتكبه من خطأ أو سوء فهم. فوجئ محمد بهوانِ خصمه وضعفه، فشعرَ بالشفقة عليه. تراخت قبضته شيئاً فشيئاً، وخاطبه بلهجة شيخٍ يخاطب مريده الجاهل، مؤنباً إياه على ارتكاب خطأ لا يغتفر:

«يا عبيد... كيف تريدني أن أنكر وجود ما ورد ذكره في الكتاب المجيد؟»

ضربَ عبيد جبهته براحة كفّه، كأنه تذكر أمراً ما كان ينبغي عليه أن ينساه، مستغفراً الله عن زلة لسانه، ومعتذراً لمحمد عن جهله.

لم يصل محمد إلى مبتغاه، إذ كان يتوقع مغادرة عبيد المكان بعد ما

لحق به من مهانة، غير أنه ابتلعها، مستمرئاً بطيب خاطر غرور محمد وتعاليه، وراح يحاول الإطالة في الحديث، مستفسراً عن أمورٍ في الدين والحياة، متلذذاً باستعراضِ جهله أمام غلام بعمر ابنه. أجاب محمد على أسئلة عبيد متعمداً أن يكون جوابه غامضاً لا يفهم منه عبيد شيئاً، منتقياً مفردات من الكتب القديمة والمخطوطات التي اطلع عليها، فكان عبيد يهز رأسه موحياً لمحمد بأنه يفهم ما يقوله، حذراً من مقاطعته بسؤال أو استفسار قد لا يكون في محله فيثير السخرية أو الغضب. صبّ محمد كأسين من الشاي. قدّم إحداهما إلى عبيد، فتناولها شاكراً وأخذ الأخرى. سأل عبيد محمداً بتملقٍ واضح عن أحواله، وأبدى استعداده وفرحه، إن كان بإمكانه أن يقدم أية خدمةٍ كعربون صداقة ومحبة لطي الصفحة السوداء من علاقتهما السابقة، فشكره محمد بترفع وأن لا شيءَ ينقصه سوى الشوق إلى أخيه وعائلته فوجد عبيد بشكوى محمد هذه فرصة لمعادلة الزهو فأبدى استعداده بأن يتحدث مع الحاج رضا ليسمح له بأن يذهب في زيارة أخيه ويمكث هناك بعض الوقت، واضعاً كفّه على رقبته كإشارة على الوفاء بتلبية هذا الطلب.

فجأة تغيّرت ملامح وجه عبيد وتوقفت يده التي تحمل كأس الشاي في منتصف طريقها إلى فمه. ضيّق عينيه وهو يحدق إلى عمق الظلمة. شعر محمد بما كان يخشاه من خلال تجمّد نظرات عبيد وتركزها على جهة البستان الغربية، وأكد شعوره هذا ما سمعه من حفيف ملابس تصطدم بجذوع الأشجار، إلا أنه حاول أن لا يظهر أي شيء يثير شكّ عبيد، فسأل بتعجب:

«ما بك؟»

وراح يهزّ عبيد من ذراعه الثانية.

«انظرْ».

قال عبيد دون أن ترمش عيناه، فالتفت محمد إلى الجهة الثانية. رأى ما رآه عبيد إلا أنه حاول أن يعطي انطباعاً بأنه لم يرَ شيئاً. نهض من

مكانه متقدماً بضع خطوات، واضعاً كفّه على جبهته، مركّزاً أنظاره إلى عمق البستان. خاطبَ عبيدَ:

«ماذا ترى يا عبيد؟.. أنا لا أرى شيئاً».

قال محمد بصوت عالٍ محاولاً أن يصل صوته إلى الشبح الذي رآه عبيد.

«أرى شبحاً أسودَ يتحرك بين الأشجار».

مسكَ محمد عبيدَ من يده، ساحباً إياه، فنهض متردداً. كان محمد واثقاً من أن جبن عبيد سيمنعه من التوغل في البستان، غير أن عبيدَ يبدو كما لو أنه تذكر رجولته فشعر بالخجل من أن يعطي انطباعاً لمحمد بأنه خائف من الشبح، فسار خلف محمد وهو يشير بسبّابته إلى المكان الذي أختبأ الشبح فيه. سارا بضع خطوات، ثم توقف محمد وهو يتلفت حوله محركاً عصاه، بينا كان عبيد يحاول إخفاء ارتعاشة ساقيه ولهاثه. أخرج من تحت ثيابه مسدساً وأطلق إطلاقة في الهواء وانتظر قليلاً. فجأة نطّ أمام عبيد ذئب كبير، فارتدّ إلى الخلف. سدد عبيد مسدسه، وقبل أن يضغط على زناده، صرخ به محمد ألا يفعل، فامتثل عبيد، فأطلق إطلاقتين في الهواء، بينا كان الذئب يجتاز سور البستان، متوغلاً في عمق المفازة.

ارتفع ضحك محمد ساخراً من عبيد ووهم رؤيته. حاول عبيد أن يجاري ضحك محمد بضحك مصطنعٍ يدلّ على محاولة لإخفاء الرعب وعلى عدم الثقة في النفس. وصلا إلى ضفة النهر فشاهدا الحاج رضا ورجالاً آخرين يقفون على الضفة الثانية. صرخ الحاج رضا مستفسراً عن الأمر فأجابه محمد بضحكة عالية، ثم نادى بصوت عال:

«لا شيء.. لا شيء يا عمي... معركة بين عبيد والأشباح».

عاد محمد إلى الكوخ بعد أن تأكد من وصول عبيد الحنظل إلى الضفة الثانية، وانفضاض المتجمعين هناك. وجد بهيجة جالسة على حافة السرير بثوبها البنفسجي الشفاف الذي يكشف عن نهديها وفخذيها. ما أن

رأته حتى أطلقت ضحكة عالية ونهداها يهتزان بغنجٍ لعوب. قبل أن يجلس إلى جانبها ألقت برأسها على المخدة، ناشرة ذراعيها كأن كل نظرة منها تصرخ «هيت لك»، إلاّ أن محمداً ما كان عجولاً بقدر ما كان متلهفاً لسماع تفسير لما رآه الليلة.

«هلّا قلتِ لي كيف حدث هذا؟»

سأل محمد وهو يتطلع في عينيها، متحاشياً النظر إلى نهديها المندلقين خارج الثوب. فأجابت بهيجة وهي تتمطى بنشوة، مطوّحة بذراعيها في الفضاء:

«ماذا حدث؟»

سألت باستغراب، فردّ محمد بحسم:

«كيف تحولتِ إلى ذئب؟»

رفعت بهيجة رأسها عن المخدة واعتدلت بجلستها، ثم سألتْ باستغراب:

«ماذا!؟»

وقبل أن يكرر محمد سؤاله، سألته بهيجة وقد لاحت على وجهها علامات جد:

«وهل رأيتني وقد تحولتُ ذئباً؟»

«لا».

ردّ محمد وأضاف:

«ولكن عبيد الحنظل رآكِ».

تنفست بهيجة الصعداء، كأن حملاً ثقيلاً قد أزيح عن صدرها، ثم سألت:

«وأنت كيف رأيتني؟»

«رأيتك وأنت قادمة... ورأيتك وأنت مختبئة خلف شجرة الرمان الكبيرة... ولكن عبيد هو الذي قال بأنه رأى ذئباً... وقد حاول أن يطلق رصاصة عليه فمنعته..».

رفعت بهيجة رأسها، دافعة شعرها إلى الخلف، وقالت:

«ألم أقل لك يا محمد بأني سأجعلهم يكذّبون أعينهم؟»

هزّ محمد رأسه فأضافت:

«في حقيقة الأمر... هو لم يرَ ذئباً... بل رأى نفسه».

ساد صمت عميق كأن كلّا منهما يبحث في داخله عما يفكر الآخر. تمدد محمد إلى جنب بهيجة وراح يتطلع إلى السقف.

«هل تعلم يا محمد... أن في الخوف يرى الإنسان صورته في مرآة نفسه».

هزّ محمد رأسه، معرباً عن إعجابه بما قالته. غيّر من وضع اضطجاعه فتقابل وجهاهما حتى شعر بأنفاسها تصطدم بوجهه. لاحتْ ابتسامة على وجهها، راحت تتسع شيئاً فشيئاً. مدت ذراعها تحت رأسه فتوسدها عند نقطة التقاء الذراع بالنهد. أحاطته بذراعيها فأحاط خصرها بذراعه. وضعت راحة كفها تحت ذقنه ورفعت وجهه. تطلعت في عينيه، وسألته:

«كيف تراني الآن؟»

«جميلة... بل آية من الجمال».

همّ بتقبيلها، إلا أنها أبعدت وجهها قليلاً، وقالت:

«أتعلم يا محمد أن الحبّ كالخوف تماماً؟»

ضيّق محمد عينيه كأنه يحاول استيعاب ما قالته، وقبل أن يسأل عن القصد، استأنفت كلامها:

«فكما يرى الخائفُ نفسه في مرآةِ نفسه... كذلك العاشقُ... يرى معشوقه في مرآة نفسه».

أغمض محمد عينيه مرتشفاً كلمات بهيجة كظبي ظامئ يرتشف من غدير صاف. قرّبت بهيجة شفتيها وببطء أطبقتهما على شفتيْ محمد. فتح شفتيه فحشرت بهيجة شفتيها بينهما، كطائرين يتزاقان.

* * *

(١٠)

السوق الكبيرة تكاد تخلو من الناس سوى بعض الرجال المتدثرين بعباءاتهم ومعاطفهم الوبرية. وقفوا في طابور طويل عند الفرن لشراء أرغفة الخبز، وبعض محلات بيع الخضروات تأخر أصحابها كمحاولة أخيرة لكسب الرزق قبل أن يحلّ الظلام. كان الطقس بارداً والرياح الشمالية شديدةً، تخدّر برودتُها الجباهَ وتقصّ الآذان، فالعجوز التي نسيتْ تلقيح إناث إبلِها قد استجابت الطبيعة أخيراً لدعائها فأعادت إليها قرّ الشتاء، ومنحتها أسبوعاً بارداً آخر من شهر شباط المشرف على ربيع قصير.

سار محمد مسرعاً باتجاه المقهى، وقد تلثّمَ بكوفيتهِ، فبدا كأنه واحد من رجال العسس السريين. حينما دخل المقهى انشدّتْ إليه الأنظار. توقف لاعبو الداما والدومينو، وقطعَ المنصتون إلى الحكواتي إصغاءهم وتطلعوا إلى جهة الباب. أماطَ محمد لثامه فارتفعت أصوات الجالسين بالترحيب. رفع ذراعه محيياً الجميع بحركة لا تخلو من استعراض ونزق شباب، فردّ الجالسون التحية بصوت عال، منشغلين عن ابن شداد الغارق في الرمل حتى عنقه، في رحلته لجلب النوق العصافير ليقدمها مهراً لابنة عمّه عبلة. كان المقهى مكتظاً بالرواد لبرودة الطقس، وقد انقسموا إلى قسمين، قسم تجمّع تحت منبر الحكواتي يستمع إلى حكاية عنتر بن شداد، والقسم الثاني انشغل بلعبة الداما والدومينو. فسحَ بعض الجالسين المكان لاستقبال محمد، إلا أنه أختار مقعداً عند الجدار في أقصى المقهى وقرب الكانون، معتذراً للجميع بحركة من رأسه، ويده

التي وضعها على صدره بحركة لا تتناسب مع عمره. جاء نادل المقهى بكأس الشاي، وضعه على المنضدة الصغيرة، وتطلع إلى محمد بنظرة، أدرك محمد من خلالها أنّ النادل يخفي كلاماً يريد البوح به، غير أن اكتظاظ المقهى بالرواد جعله يمتنع. ارتشف شايه بسرعة وأشار إلى النادل أن يأتيه بكأس أخرى مستغلاً خلوّ الكرسي الذي بجانبه. جاء النادل مسرعاً. انحنى ببطء، واضعاً كأس الشاي على المنضدة، هامساً كأنه يحدّث نفسه:

«الفهد يريد أن يراك.. الليلة».

«كيفَ الوصول إليه؟»

سأل محمد وهو يقرّب كأسه من فمه. ردّ النادل:

«سيظهر رجل بعد قليل... يشير إليكَ برأسه.. فاتبعه».

هزّ محمد رأسه مؤكداً استلام الرسالة. تفحص الوجوه واحداً واحداً محاولاً اختبار فراسته، فلم يلتقط إشارة من أحدها، فانشغل منصتاً إلى حكاية عنتر ابن شداد التي كلما أوشكت على النهاية، أعاد الحكواتي أحداثها، ضارباً بعصاه خشب المنبر، مقلّداً عنترة وهو في الهيجاء يطببُ بسيفهِ الرؤوسَ التي تشكو الصداع.

فُتح بابُ المقهى ودخل سلمان العجمي. وقف عند الباب ينظر في وجوه الرواد كأنه يبحث عن شخص ما. أشاح محمد بنظره متشاغلاً عنه، متجنباً الاحتكاك به، فقد كان يجمعهما ثأر لا يمكن لسلمان أن ينساه، فهنا قبل ثلاث سنوات نشبت معركة بالأيدي بين محمد والغرباء وقد كان سلمان من بينهم، بعد أن سمعهم محمد وهم يتحدثون بالسوء عن شيخه. مر سلمان من أمام محمد مخترقاً كراسي المقهى متجهاً إلى الداخل. التفت محمد فرآه يتحدث مع النادل وكانت عينا النادل تشيران إليه. خطا سلمان راجعاً باتجاه باب المقهى بخطوات متثاقلة، ولكنه قبل أن يخرج، توقف كأنه تذكر أمراً. رفع محمد عينيه مراقباً سلمان بحذر، ولكيلا يعطيه انطباعاً بأنه خائف منه أو يتجنب المواجهة جبناً، راح

يتطلع إليه مركّزاً نظره. تطلع سلمان إلى محمد وأشار إليه برأسه للخروج من المقهى.

آخر ما كان يتوقعه محمد أن يكون سلمان العجمي هو الرسول الذي سيصله بالفهد. التفت إلى النادل فوجوده يتطلع إليه، وحينما التقت نظراتهما، حرّك النادل رأسه، فأدرك محمد أن حامل الرسالة هو سلمان العجمي نفسه. شعر بإحراجٍ، بل بخجل إذ ظنّ بسلمان سوءاً بسبب مشادّة حدثت قبل ثلاث سنوات حينما كان مراهقاً لا يعي من الحياة شيئاً، بينا كان الأولى به أن يراجعَ نفسه التي ظلت تحمل ضغينة على رجلٍ أكبر منه سنّاً، وقد يكون على غير ما يظن. نهض من كرسيه وغادر المقهى بهدوء. لمح سلمان العجمي واقفاً على بعد أمتار من باب المقهى. تحرك سلمان حينما تأكد من أن محمداً يتبعه. اجتاز السوق الكبيرة التي خلت من الناس، ولكنه بقي محافظاً على حذره متجنباً الوقوع في خطأ تلتقطه عيون العسس المستترة. اتجه شمالاً، محافظاً على المسافة بينهما، مطلقاً بين وهلة وأخرى سعالاً مفتعلاً ليستدل تابعه إليه في الظلمة الحالكة. انعطفَ نحو حيّ الفقراء أو ما يسمى بحيّ (التنك) الذي يقع جنوب المدينة ويسكنه الفقراء والمتسولون والغرباء. شعر محمد بالخوف وعاد إليه سوء الظن، بأن فخاً قد نصبه سلمان ليغدرَ به، فحيّ التنك معروف بسوء السمعة وأنه ملجأ للصوص والقتلة وبائعي الترياق، حتى رجال العسس لا يجرؤون على دخوله. فكّر بالتراجع إلاّ أن أناه التي تستيقظ بل تنتعظ في المخاطر، منعته من التراجع، فهو حارس الليل ومارد الملمّات، الذي روّض الثعابين والذئاب وعاشرَ الجن. تلمس المسدس الذي أعاره إياه الحاج رضا للدفاع عن نفسه من الذئاب، متأكداً من وجوده، فقد يستخدمه الليلة إنْ تطلب الأمر. عادت إليه الثقة بنفسه فسار بهمّة. بعد أن اجتاز سلمان عدة منعطفات وأزقة متشابكة، توقف عند خرابة من الصفيح الصديء تقع عند أحد المنعطفات. تلفت يميناً وشمالاً ثم ولج إلى الداخل تاركاً الباب

مفتوحاً. دخل محمد الخرابة واضعاً يده تحت معطفه وسبابته على زناد المسدس. مدّ سلمان العجمي يده مصافحاً فشدّها محمد بقوة، وعيناه تنظران إلى وجه سلمان بتحد. ابتسم سلمان واضعاً يده على كتف محمد برقّة لينتهي لقاؤهما بعناق وديّ ألغى ثلاث سنوات من الضغينة والحذر. أزاح سلمان ستارة من القماش المتهرئ ودخل يتبعه محمد إلى غرفة صغيرة باردة، مضاءة بفانوس نفطي صغير ومفروشة بسجاد قديم. دعا سلمان محمداً للجلوس على الأرض وقدّم إليه مخدة، لا يظهر لونها إنْ كان أصفر أم أبيض متسخاً. أسندها على الجدار الصفيحي المغطى بطبقة من الطين والكلس المتآكل واتكأ عليها. خرج سلمان ثم عاد سريعاً وهو يحمل منقلةً، فيها بعض من جمرات تكاد تخبو. وضعها في منتصف الغرفة ثم وضع فيها قطعاً أخرى من الفحم وراح ينفخها حتى سرت النار فيها وتصاعدت ألسنة اللهب. انشغل سلمان بإعداد الشاي بإبريق معدني كبير غطاه السخام، وضعه على منقلة النار، بينا كان محمد يتقرى الجدران التي غطتها خرق من القماش والزكائب، لعلّه يعثر على رمز أو إشارة تدلّه على معرفة هوية الساكنين. كانت هناك إشارة شاهدها سابقاً في المناشير السرية التي حصل عليها من جماعة الفهد أو من كان يطلق عليهم سابقاً الغرباء. إشارة ليست كإشارات الشيخ نوفل، فهي واضحة جداً ولا تحتاج إلى فطنة كبيرة لتأويلها، فاللون الأحمر دلالة على الدم والثورة، وعناق المنجل والمطرقة لا يدل على شيء أبعد من تضامن الفلاحين والعمال الذين سيرفعون لواء الثورة لتحرير العبيد من أسر مستعبديهم، وهذا ما تأكد له من خلال قراءته المناشير التي تدعو إلى الثورة على الإقطاع والأغنياء الذين يستعبدون الفلاحين والعمال ويسرقون جهودهم. صورة متوسطة الحجم تضم ثلاثة وجوه لرجال بدوا بلحاهم وهالة وجوههم كأنهم من الأولياء الصالحين. إثنان منهم بلحى غطت وجهيهما وشوارب كثة لم يظهر من تحتها أثر لفم، أما الثالث فكان أصغرهم سنّاً، وكانت لحيته تغطي مقدمة ذقنه فقط. كانت عيونهم

تدل على صرامةٍ في الرؤية، وحقد يختبئ خلف النظرات الوديعة. لم يشأ محمد أن يسأل سلمانَ عنهم، فقد يكون سؤاله فاضحاً لجهلٍ لا يريد أن يكتشفه أحد.

حمل سلمان إبريق الشاي المعدني من منقلة النار وصبّ شاياً أسودَ في كأسين صغيرين. قدّم إحداهما إلى محمد وأخذ الأخرى لنفسه، وحينما رأى سؤالاً في عينيَ محمد، أجاب:

«سيحضر الرفيق الفهد قريباً».

هزّ محمد رأسه دون أن يتفوه بشيء، ولكي يبعد عنه ملل الانتظار راح يسأله عن أحواله وعن طبيعة عمله وإنْ كان سعيداً به أم أنه مجبر كغيره من أجل لقمة العيش، لاعناً الحياةَ وغدرها والدهر ودورانه، بإشارة واضحة إلى تأريخ ورفعة عائلة محمد. كان محمد يجيب عن الأسئلة باقتضاب شديد، محاولاً أن يأخذ من مُحدثه أكثر مما يعطيه، غير أنه أبدى قناعة وحباً لعمله، محاولاً التملص من الإجابة عن الأسئلة التي كان يطرحها سلمان بإلحاح واضح ومقصود عن الحاج رضا وإقطاعياته، وعن سوء معاملته للعمال والمزارعين.

سمعا سعالاً يقترب من الحجرة. نهض سلمان مستقبلاً القادم فنهض محمد مجاراة له. دخل رجل، يبدو في الأربعين من العمر لكن شعره مكتمل البياض تقريباً، كائن أبعد ما يكون عن اسمه فهو نحيف الجسم، محني الظهر، بطيء الحركة حد الكسل الفاضح. تقدم من محمد مصافحاً وهو يحني قامته الطويلة، مردداً:

«أهلاً.. رفيق محمد.. شرفتنا..»

امتعض محمد من كلمة (رفيق)، إلا أنه حاول أن لا يبدي امتعاضه احتراماً لشخص يلتقيه للمرة الأولى. جلسا متقابلين، بينا استأذن سلمان وغادر الحجرة بهدوء. انعكس ضوء الفانوس على وجه الفهد فبدا واضحاً بوجهه الشاحب الطويل وبلحيته الطويلة غير المشذبة والتي تمركزت على ذقنه الطويل، فبدا الشبه واضحاً بينه وبين الرجل الثالث

في الصورة. حاول الفهد أن يستعرض معرفته في تأريخ المدينة، على الرغم من أنه ليس من سكانها الأصليين، بل جاء إليها في مهمّةٍ استدعاها النضال الحزبي، فراح يتحدث عن البسالة التي أبداها سكّان المدينة في تصديهم للغرباء، مشيراً إلى الدور البطولي الذي لعبه الشيخ هاشم في تعبئة الجماهير، والمعارك الخالدة التي خاضها، وقتلهِ اللفتنت كولنيل جاكسن الذي هزّ عاصمة المستعمر وأبكاها، ولم ينس الشهداء فقد راح يعدد أسماء كثيرة لم يسمع محمد بسوى عدد قليل منها ومن بينها اسم عمه منصور. بعد هذا الاستعراض لتأريخ المدينة، تحدث الفهد عن دسائس المستعمر الذي لم يترك الولاية إلا بعد أن ترك ذيوله وعملاءه من الإقطاع والمنتفعين ليسيطروا على خيرات الولاية وسرقة جهود الأكثرية من العمال والفلاحين، ليضمنوا من خلال هؤلاء الخونة وجودهم وحماية مصالحهم، وظنّاً منه بأن محمداً يعرف تأريخ عائلته، فقد لمّح إلى مؤامرة الشيخ حمدان أبي الحاج رضا بإشارة من المستعمر ودعمه، للسيطرة على أراضٍ وأملاكٍ كانت تعود إلى الثوار بعد أن عجزوا عن دفع ديونهم أو الإيفاء بفكّ الرهان في الوقت المحدد، فكدّس ثروة كبيرة توارثها عنه ابنه. لم يتوقف محمد عند هذه الملاحظة، واعتبرها هذراً من رجل يحاول أن يستعرض معلوماته عن مدينة لا ينتمي إليها أصلاً، وشعر بأنه يحاول الانتقاصَ من رجلٍ لم يرَ منه شراً. وجد محمد بهذا الموضوع ما يجعله يخرج عن صمته، مشاركاً في الحديث كطرفٍ، ما جاء هنا ليستمع فقط، فقال معترضاً بشكلٍ مهذب:

«ولكن يا أخي فهد.. الأمر ليس كما تظن.. فالحاج رضا وأنْ كان إقطاعياً لا أعرف من أين جاءت ثروته.. إلا أنه ليس بهذا السوء الذي تتصوره.. وليس شريراً كما تظن..»

هزّ الفهد رأسه، ثم قال:

«رفيق محمد.. الخير والشر ليسا صفتين غريزيتين في النفس البشرية...»

حاول محمد أن يعترض، إلاّ أن الفهد لم يترك له مجالاً، واستأنف حديثه:

«المسألة ليست صراعاً بين الخير والشر.. بل هي مسألة صراعُ مصالح.. فالرجل الخيّر قد يتحول شريراً حينما تتطلب مصلحته الشخصية ذلك.. والعكس صحيح.. فالكثير من الرجال الأشرار تحولوا إلى أناس أسوياء طيبين.. بعد أن انتفت أسباب الشر.. وكذلك هناك من الفقراء الطيبين مَنْ حالفه الحظ بمصادفةٍ أو لضرورة ما.. فأثرى.. وتنكرَ إلى طبقته فأصبح شريراً.. المسألة هي أن كلّ إنسان يدافع عن مصالحه الطبقية...»

«كيف؟»

سأل محمد ليس بلغةِ من يبحث عن جواب، وإنما محاولة للانتقاص من رأي الفهد. لم يتوقف الفهد عند هذا الأمر، بل وجد فيه مفتاحاً للدخول إلى ما يريد إيصاله إلى محمد. قال:

«يا رفيقي.. خذ مثلاً.. الإقطاعي.. وليكن الحاج رضا.. فهو ليس شريراً كما تراه.. ولكن بحكم كونه مالكاً فهو لن يستطيع أن يكون إلا شريراً.. لأنه لن يتنازل عن ملكيته.. لذلك هو يدافعُ عمّا يملك.. وهو على استعداد أن يقتل كل من يهدده بسلب الثروة والجاه.. أما الفلاحون فهم لا يملكون غير قوة سواعدهم التي يستغلها المالك أبشع استغلال...»

«ولماذا تريد أن تسلبه ثروته؟»

سأل محمد، فصمت الفهد كأنه فوجئ بالسؤال، إلا أنه تدارك صمته خوفاً من أن يحسبه محمد لا يستطيع أن يدافع عن فكرته، فقال:

«ومن أين جاء بثروته؟.. وكيف استطاع أن يراكمها؟.. أبجهده أم بجهود الفلاحين؟.. ومن منحه الحقّ أن يستعبد أناساً خلقتهم أمهاتهم أحراراً؟.. وبأيّ حق يتلاعب بأسعار القمح والبرتقال؟.. وبأيّ حقّ استولى على النهر ليكون تاجرَ الأسماك الوحيد في المدينة...»

أسئلة كثيرة هطلت متلاحقة فأربكت تفكير محمد الذي حاول أن يرد بأي ردّ يخطر على ذهنه، فقال:

«ولكنهم رضوا بعبوديتهم!!»

صبّ الفهد كأسين من الشاي، واستأنف حديثه بهدوء:

«يا رفيق محمد.. حينما يعمل الإنسان أجيراً في خدمةِ غيره.. لا يشعر بإنسانيته من خلال العمل المُجبر عليه.. لذلك يتحول إلى عبد قانعٍ بعبوديته التي يستسيغها من خلال إدمانه عليها.. وجهله بالحلّ الذي يضمن له انعتاقه من قيود العبودية».

تطلع إلى محمد فوجده مصغياً باهتمام، فأكمل:

«... ومن هنا يبدأ دورنا نحن.. بتوعيةً هذا العامل أو الفلاح بحقوقه الإنسانية الطبيعية.. وبالظلم الذي لحقه.. وبأنه يجب أن يكون هو نفسه مالكاً أرضه أو أداة الإنتاج.. لا تابعَ يعمل في خدمة غيره.. وبهذا يستعيد الشعور بإنسانيته.. عندئذٍ يدرك معنى الحرية.. ولن يعود قانعاً بأغلاله».

«وكيف يتمّ هذا؟»

سأل محمد، فأجاب الفهد مباشرة، فقد كان ينتظر مثل هذا السؤال:

«بالثورة».

قال الفهد ضارباً الأرض بقبضته، وأضاف بصوت أقل حماسةً:

«بالثورة على الإقطاع ليكون الفلاح سيد أرضه وسيد نفسه.. والعاملُ مالكاً لأدوات الإنتاج.. ولتنشأ بعدها دولة العمال والفلاحين تحت هذه الراية».

وأشار إلى صورة الراية الحمراء ذات المطرقة والمنجل.

ساد صمت بينهما، قطعه محمد بالسؤال:

«وكيف يمكنهم الإنتصار على الأغنياء الذين يملكون كل شيء؟»

هزّ الفهد رأسه، وأجاب بهدوء:

«النظام الرأسمالي.. يا رفيق محمد.. يهدم نفسه بنفسه.. ويحفر قبره بيده..»

«كيف؟»

سأل محمد ببراءة وعفوية، فأجاب الفهد:

«مع تطور الإنتاج يستطيع المالك أن يشتري ماكنات متطورة.. وبهذا يستغني عن عدد كبير من العمال أو الفلاحين.. وهنا ستزداد البطالة وتشتدّ المشكلات.. يزداد الفقراء فقراً.. ولأن المالك يحتاج إلى من يشتري محصوله.. والناس لا تملك ثمن الشراء.. فسيستفحل الصراع بين المالكين أنفسهم للحصول على مشترٍ.. ليس له القدرة على الشراء...»

تطلع الفهد إلى وجه محمد الذي كانت تلوح عليه علامات اندهاش لاكتشاف أمورٍ لم تكن تخطر على باله، فقال بحزمٍ كأنه يضع الكرةَ في الهدف ويحرز الفوز:

«... وهنا تكون الساعة قد حانت.. ونضج الظرف الذاتي والموضوعي.. للثورة».

نهض الفهد مستأذناً. خرجَ ثم عاد بعد بضع دقائق فوجدَ محمداً صامتاً يتطلع إلى صورة الرجال الثلاثة. لم ينتظر أن يسأله عنهم فقال وهو يشير إلى الصورة مثل معلم:

«هؤلاء قادة ثورة العمال العالمية».

وقبل أن يذكر أسماءهم، قاطعه محمد محاولاً تبرير جهله بهم:

«وما شأننا نحن بحركة العمال العالمية؟»

صمت الفهد موحياً لمحمد بأهمية سؤاله، ثم قال بلهجة تنم عن المحبة:

«يا رفيقي العزيز.. إنّ ثورة العمال العالمية تنطبق عليها نظرية الأواني المستطرقة».

«وما هي نظرية الأواني المستطرقة؟»

جلس الفهد القرفصاء قبالة محمد وراح يشرح له محركاً يديه كوسيلة إيضاح:

«لو جئنا بمجموعة أنابيب زجاجية مفتوحة الطرفين وربطناها من

الأسفل مع بعضها بحوض زجاجي...»

هزّ محمد رأسه علامة على تخيل الصورة، فواصل الفهد كلامه:

«ثم سكبنا ماءً في أحد هذه الأنابيب.. ماذا يحدث؟»

«سيرتفع الماء في الأنابيب الأخرى».

أجاب محمد، فقفز الفهد معبراً عن إعجابه بفطنة محمد وسرعة إدراكه، فأضاف مؤكداً:

«وبمنسوبٍ واحد».

ودونما إطناب في الشرح، قال الفهد:

«وهكذا هي الثورة العمالية.. فما أن تنجح في بلد ما.. حتى ينتقل تأثيرها إلى بلدان العالم كلها.. لذلك نحن نؤمن بأممية ثورتنا.. لأننا نؤمن بالإنسان بغض النظر عن شكله أو لغته.. أو عشيرته».

لاحتْ على وجه محمد علامات فرح وإعجاب بفكرة الفهد وبأسلوبه في التوضيح، وقد عبّر عن ذلك بكلام صريح لا يخلو من حماسةٍ آنية:

«ليتني كنت قد عرفتكم من قبل».

شدّ الفهد على ذراع محمد، معبراً عن شكره وفرحه بكسبه، باحتضانه مربّتاً على كتفه بروحِ رفاقية مبذولة للتضحية من أجل عالم جميل للأجيال القادمة. شجعه إعجاب محمد على عدم التحرج من كثرة الكلام أو احتكاره بصيغة تعليمية، فأضاف:

«يا رفيق محمد.. طريق نضالنا طويل ولا يعُرف فيه شيء اسمه فوات الأوان».

ثم قال كأنه تذكر أمراً يبقى الحديث بدونه ناقصاً:

«لكن الثورة قادمة.. والنصر حليفنا.. لا محالة...»

تطلع بوجه محمد، وقال بلغة واثقة من نفسها:

«بحكم الحتمية التأريخية... هكذا تقول فلسفتنا المعتمدة على قراءة التأريخ».

«التأريخ!؟»

سأل محمد بتعجب. كاد يقول ما كان يردده الشيخ نوفل عن التأريخ وكيفية قراءته، إلا أنه أحجم عن ذلك لشعوره بالتناقض الشديد بين الفكرتين، فاكتفى بالصمت.

شعر محمد بأن الوقت مرّ سريعاً دون أن يشعر، ومازال في ذهنه سؤال لم يترك الفهد له مجالاً لطرحه فقال وهو يعدّل جلسته، استعداداً للمغادرة:

«رفيق فهد... هل صحيح ما يشاع عنكم بأنكم لا تؤمنون بالله ولا تؤمنون بالأخلاق؟»

ارتفعت ضحكة الفهد، شاداً على كفّ محمد بقوة، وقال:

«لا تصدق ما يقال.. فهذه شائعات يطلقها أعداؤنا.. لكي يحاولوا إبعاد جماهير العمال والفلاحين عن الانخراط في صفوف حزبنا.. ولكي يحرّضوا رجال الدين على إصدار فتاوى تكفّرنا وإهدار دمنا».

غير أن الفهد استدرك، موضحاً قصده بطريقته التي تجمع بين الغموض والوضوح:

«المسألة يا رفيق محمد.. ليستْ في تفسير العالم.. بل في تغييره.. نحو الأفضل طبعاً».

لم يعِ محمد المعنى وما علاقة ذلك بما سأل عنه، وقد أدرك الفهد ذلك، فقال موضحاً:

«تغيير العالم أمرٌ يخص البشر وحدهم.. ولا دخل للرب في ذلك».

وبتحايل سياسي واضح، ولكي يؤكد لمحمد صدق رأيه، قال:

«ألم يرد في القرآن، إنّ الله لا يغير ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم».

هزّ محمد رأسه بإعجاب، فأضاف الفهد:

«نحن نؤمن بأن الشروط المادية هي المحرك الحقيقي للتأريخ.. وليس الله.. وهذا ما نطلق عليه بالمادية التأريخية.. لذلك نحن نعتبر الإيمان بالله والأديان مسألة شخصية».

شعر الفهد بزهو انتصار وهو يرى عينيّ محمد تومضان باقتناع بما قاله، وبأنه استطاع أن يوصل هذه المسألة الفلسفية الصعبة بطريقة ومفردات مبسطة تلائم مقدرة الشاب على الإدراك.

نهض محمد مستأذنا للإنصراف، فاقترح الفهد عليه المبيت عنده، إلاّ أن محمداً تعذر بارتباطه بعائلة أخيه، وأن أخاه وزوجته سيقلقان عليه، فهزّ الفهد رأسه مقتنعاً بالعذر، ولكن قبل أن يغادر محمد الغرفة تذكر الفهد أمراً فمسكَ محمد من ذراعه، قائلاً:

«أما الأخلاق فهي بالنسبة لفكرنا مسألة نسبية.. ومفاهيم ناتجة عن تطور المجتمع.. فما نراه اليوم سيئاً قد كان في عهد آخر شيئاً حميداً...»

تطلع محمد إليه بنظرة استغراب، فراح يوضح قوله:

«خذ مثلا ما نطلق عليه الآن بالرجولة.. لم يفهمها أجدادنا كما نفهمها نحن الآن.. الرجولة عند العرب القدامى كانت تعني القتل والسلب والغزو.. أما الآن فهذه الأمور تعتبر أعمالاً إجرامية لا يقوم بها إلا اللصوص والمجرمون.. خذ مثلاً آخر.. المرأة.. ألم يكن بعض العرب القدامى يدفنونها وهي طفلة.. أو يسبونها ويحتقرونها.. أما الآن فنحن في فلسفتنا نؤمن بمساواة المرأة والرجل تماماً.. وهكذا فالأخلاق نسبية.. وتتغير تبعاً للزمان وللظرف الطبقي...»

مدّ محمد يده مصافحاً، فشدّها الفهد وبقي متشبثاً بها وهما يسيران في الظلام نحو باب الخرابة المخلوع. قال الفهد بودّ:

«ليذهب معك الرفيق سلمان.. ليوصلك إلى نهاية الحيّ».

ضحك محمد بصوتٍ منخفض، وقال:

«لا تنسَ أني أعمل حارساً ليلياً في أكثر المناطق خطورة».

ردَ الفهد واثقاً من معرفته بالأماكن:

«ولكني أعرف هذا الحي جيداً.. ففيه اللصوص والقتلة.. وأن أغلب سكانه من البروليتاريا الرثّة.. على الرغم من طيبة قلوبهم.. إلاّ أن الجوع قد حوّلهم إلى مجرمين».

هزّ محمد رأسه، مطمئناً الفهد:

«أستطيع أن أدافع عن نفسي».

وأخرج بحركةٍ استعراضية مسدسه. ارتد الفهد قليلاً، فارتفعت ضحكة محمد وهو يعيد المسدس إلى جيب معطفه الداخلي، ثم نشر ذراعيه محتضناً الفهد، الذي راح يربت على كتفيه مردداً:

«من حقك أن تدافع عن نفسك.. ولكن تذكّرْ أننا لا نؤمن بالعنف الثوري».

سار محمد بضع خطوات ثم التفت، فرأى الفهد لايزال واقفاً عند الباب. لوّح إليه بذراعه وانطلق مسرعاً في الظلام.

* * *

(١١)

دون إعلانٍ أو سابقِ تحضير، انتقلتْ عائلة الحاج رضا من البيت الكبير إلى المدينة، وفي يوم انتقالها استدعى الحاج رضا محمداً وعبيد الحنظل إلى مكتبه، ودونماإطناب في الحديث كما اعتاد، قام بتوزيع مسؤولية العمل في حال غيابه الذي قد يطول. لم يتطرق إلى سبب الانتقال أو ما يفكر فيه مستقبلاً، مكتفياً بالتأكيد على الثقة التي يتوسمها فيهما، وعلى مشاغله الكثيرة في تسويق المحاصيل والتي تتطلب منه فتح مكتب له في المدينة. ألقى على عاتق محمد مسؤولية البستان والصيادين، وما يخص الأراضي والمزارعين سيكون من مسؤولية الحنظل. أوصاهما بالتعاون في ما بينهما ونسيان الماضي، مشدداً على غير عادته على التعامل مع العاملين باللين. قال ذلك وهو ينظر إلى عبيد الحنظل. لم يفرح محمد بالمسؤولية بقدر ما فرح بأنه تخلّص من الحذر الذي كان يفرضه عليه احترامه للحاج رضا، أما عبيد الحنظل فله معه حساب آخر إذا حاول أن يجتاز الخط الأحمر لمسؤولياته.

قال الحنظل مخاطباً محمداً بعبارة ظاهرها الود وباطنها خبيث:

«الحاج يريد أن يبيع البستان».

«لماذا؟»

سأل محمد بعفوية، فأجاب عبيد:

«يقول إنه لم يعد راغباً في الاحتفاظ بمكانٍ مسكونٍ بالجن».

أسرّ محمد ما سمعه في نفسه، محاولاً ألا يعطي أيّ انطباع عمّا دار في ذهنه، فعلّق على كلام عبيد بحيادية:

«وربما لهذا السبب انتقل من داره».

هزّ عبيد رأسه مؤيداً ما قاله محمد.

عاد محمد إلى كوخه وهو يشعر بزهوِ صيّاد، عرف بجهده وحده، كيف يستدرج طريدته إلى الفخ، وكيف يحوز على الإعجاب من أقرانه وأعدائه.

«من القوة يبدأ الاعتراف.. ومن الاعتراف تبدأ المهابة.. والمهابة صفة القائد...»

عادت كلمة (السلطة) تتردد في داخله، وقد شطّ خياله فرأى نفسه واقفاً على شرفة قصر العدل محيياً الجمهور الغفير الذي جاء معلناً له البيعة والولاء.

أخرج بعض المناشير التي حصل عليها من الفهد، وكرّاساً صغيراً خُطّ بخطّ رديء، وراح يقرأ محاولاً أن يجد قاسماً مشتركاً بين ما ورد في الكرّاس وما تعلّمه من خلال المخطوطات. كانت لغة الكرّاس تختلف كثيراً، فهي لغة ركيكة، مليئة بالأخطاء النحوية وواضحة حدّ الاستهانة بعقل قارئها، لا تروي ظمأ محمد للمعرفة، ولا تلامس روحه اللائبة، التائقة إلى سمّو يجاور المطلق، فهي لا تضمر رمزيةً أو إشارات غامضة تستفزّ عقله للبحث عن أجوبة لأسئلةٍ تحفر في عقله ولها رنين لا يتوقف، فالمادية التأريخية التي تحدث عنها الفهد والتي يظنّ أنها ستحرر العامل والفلاح، هي نفسها عبودية أقسى من عبودية الإقطاع والمالكين، حينما اعتبرت الإنسان بندولاً غبياً ينوس بين الجوع والشبع.

«لا.. لست أنا من ينتظر الحتمية التأريخية.. الثورة لا تأتي بل يُراح إليها».

«ليذهب الفهد وقادة ثورته العالمية إلى الجحيم».

ردد محمد مع نفسه، فرحاً باكتشاف قدرته على التمييز.

«ولكن هل هؤلاء العمال والمزارعون يشغلهم ما يشغلك؟»

«هل يطمحون إلى أبعد مما يشبع بطونهم وبطون أطفالهم؟»

«كيف للإنسان أن يفكر بالمطلق إن كان جائعاً؟»

عادت الأسئلة المتناقضة ترتطم في ذهن محمد، باحثة عن أجوبة آنية أو على الأقل هدنةً تتيح له ترتيب مساحة يقف عليها في القوس المشترك بين دائرتي الضوء والظل، بين الحتمية التأريخية والمعجزة، بين المفرد والجمع. لا ينكر أن العدالة الاجتماعية ومشاعية الأرض وأدوات الإنتاج وتراكمات رأس المال والثورة... وغيرها من الأفكار التي وردت في الكرّاس وجدت استجابة قوية في عقله، بل شكّلت له صوى تدلّه في رسم طريق طموحه، ولكنها تلغي الفرد والمبادرة.

«السلطة للغالب.. والغلبة للقوي المتسامي.. هذا هو القانون الطبيعي».

ردد محمد مع نفسه كأنه وجد استنتاجاً يوائم ما بين الغاية والوسيلة.

«وماذا عن الاستبداد الذي تمارسه السلطة؟»

«حاجة المغلوب للحماية تدفعه للرضوخ للغالب.. وحاجة الغالب للمغلوب تدفعه إلى المساومة.. السلطة معادلة لا تستغني عن أحد طرفيها...»

فكرتان متوازيتان وجدتا مساحة في تفكير محمد لتنطلقا حرّتين. حاول أن يجد نقطة إلتقاء بينهما، غير أنهما كلما اقتربتا من بعضهما تنافرتا قبل أن تتماسّا في نقطة.

«ولِمَ لا أكون محمّدين؟»

لم يكن مازحاً أو متمنياً، بل كان شعوراً حقيقياً، ليس آنياً أو زائراً عابراً، فقد كان محمد يشعر قبل هذه اللحظة أن في داخله شخصاً آخر، شخصاً وأنْ كان عديم الملامح إلا أنه محسوس بشكل لا يقبل الشك، يقاسمه سكنه ومأكله، يسمع صوته بوضوح حيناً، وحيناً يسمعه كالرنين أو كصلصلة الجرس، لكنه مختلف عنه تماماً في التفكير، قد يتعدى اختلافهما هذا حدود المشاكسة أو المناكدة إلى ما هو أبعد، فقد وصل إلى حد العراك، بل... الغيرة.

دعا محمد الصيادين إلى سهرة في البستان، مستغلاً استراحة الحب في ليلة البدر. حضر الجميع بما فيهم من كان يتجسس على محمد لصالح عبيد الحنظل. أضرموا النار وجهزوا بضع سمكات، شكّوها بأسياخ، ثبّتوها عند محيط دائرة النار وجلسوا حولها. كان محمد يتحرك بينهم بفائض من الأريحية والفتوّة، وكانوا ينظرون إليه بإعجابٍ ويصغون إلى نصائحه في طريقة الشواء، ويطبّقون ما يقوله على الرغم من أنه الأقل خبرة من بينهم. أدرك سهولة انقيادهم إليه فشعر بزهو، ليس بالقيادة بل بصحة ما توصل إليه تفكيره، ولكي يكونَ قائداً يستحق مكانته، طلب منهم الهدوء والإصغاء إليه. جلسوا على شكل هلال كان محمد نجمته. أخبرهم بالمسؤولية التي كلّفه بها الحاج رضا، فلاحت على وجوههم تعابير مختلفة ما بين الترحيب بالأمر والخيبة، وإنْ اتفق الجميع على إظهار الفرح أو التملق. لم يعر هذا الأمر اهتماماً، فبدأ حديثه عن العلاقة بين العامل وربّ العمل، مستعيراً مما قد علق في ذاكرته من حديث الفهد عن مشاعية الأرض والماء، بأسلوب قريب من مداركهم، محاولاً الجمع بين المحمدين، قال:

«الملك لله وحده.. وليس من حق أحد أن يستولي على مال الله».

بدا الاستغراب على الوجوه التي أضاءها لهيب النار فبدت ملامحها واضحة. شعر محمد بقوة تأثير ما قاله من خلال القلق الذي دبّ إليهم فجعلهم يغيّرون من جلستهم مراتٍ عدة، دون وعي منهم، فلأول مرة يقال لهم مثل هذا الكلام. توقف قليلاً، ثم استأنف حديثه بوضوح أكبر:

«من الذي أعطى الحق للحاج رضا أن يحتكر السمك لنفسه؟.. هل ورثَ النهر عن أبيه وجدّه؟»

قال ذلك مقلداً الفهد وهو يضرب الأرض بقبضته.

«الشهادة لله.. إن هذا الكلام هو الحق بعينه».

قال أحد الصيادين، كان جالساً القرفصاء مقدِماً رأسه إلى الأمام قليلاً كأنه في استعدادٍ للنط. سرت الجرأة إلى الباقين فأيدوه، كلّا على

طريقته. أدار محمد نظراته على الوجوه بالتسلسل، ثم قال بزهو:

«لذا أنا أرى من الواجب أن تتم القسمة بشكل يُرضي الطرفين».

تذكّر مفردةً، وجد من الضروري دسّها في خطابه، على الرغم من أنه يدرك تماماً أنْ لا أحد من الصيادين قد سمعها، ومن سمعها لم يدرك معناها، فقال:

«إني أرى أن حصولكم على نسبة الثلث من الصيد الذي يتم بجهودكم وحدكم.. ما هي إلا قسمة ضيزى».

هزّ البعض رأسه إعجاباً أو حيرةً، والبعض الآخر كان يمسّد لحيته أو شاربه. مطّ محمد عنقه إلى أقصى ما يمكنه، وقال بكبرياء:

«لذا قررتُ أن أصلح الوضع.. بما يُرضي الله ويُريح ضميري».

صمتَ قليلاً ثم استأنف:

«اعتباراً من الغد.. سيكون نصيبكم ثلثي المحصول».

قفز أحد الصيادين، مقبّلاً رأس محمد. حاول الآخرون أن يقلدوه، إلاّ أن محمداً أشار إليهم بيده ليصغوا إلى ما سيقوله، فانصاعوا. قال:

«قد يسأل البعض لماذا لا تكون الحصة كاملة مادام النهر ملك لله وحده.. فتذكروا أن الحاج رضا هو مالك أدوات الإنتاج.. أقصد الزوارق والشِباك..».

رفع أحد الصيادين ذراعه مستأذناً، فأشار إليه محمد بيده:

«وماذا لو علم الحاج رضا بالأمر؟»

تطلع إليه محمد بنظرة تفتعل الغضب، وقال بصرامة:

«أنا.. أنا هنا المسؤول وليس الحاج رضا».

نهض محمد فنهض الآخرون، وكان السمك قد احمرّ.

بطلبٍ من الفهد قام محمد في التوسطِ عند الحاج رضا لتشغيل سلمان العجمي حارساً، ضمن مسؤولية عبيد الحنظل. استطاع العجمي بخبرةِ من أتقن العمل السرّي أن يشكّل خليةً حزبية من المزارعين والعمال، وكان محمد يراقب ما يجري دون أن يتدخل في العلن، وبعد

شهرين قام العاملون والمزارعون بإضراب عن العمل، مما دفع الحاج رضا أن يقطع عمله في المدينة ويحضر سريعاً، بعد أن عجز الحنظل عن كسر إضرابهم بالتهديد، ولم تفلح جهود محمد غير الجادة بطلب التربث لحين طرح الأمر على الحاج رضا. اجتمع بمحمد وعبيد الحنظل في مكتبه القديم. جرى نقاش طويل وصل حد الصراخ بين محمد والحنظل، وقد كان الحنظل يتهم محمد بالتهاون وعدم الصرامة، بينا كان محمد يتهم الحنظل بأنه يمارس عنفاً غير مبرر على الفلاحين. رضخ الحاج رضا إلى مطالب العمال، منحازاً إلى رأي محمد الذي وجد فيه الحكمة والطريق الأسهل، فرفع أجور العاملين، بأقل مما كانوا يطلبون. رفض المحتجون، وحاولوا أن يرفعوا سقف مطلبهم، وهنا تدخل محمد بدورٍ كان متفقاً عليه مع سلمان العجمي، فاستطاع أن يقنعهم بما حصلوا عليه من زيادة في الوقت الحاضر.

وصل المزارعان المكلّفان في رعاية البستان بعد أن انتهى محمد من الإشراف على تقسيم حصص الصيادين من الأسماك. كان قوس الشمس قد ارتفع قليلاً عند الأفق. انتهت مهمته الليلية، فدخل كوخه منهكاً من السهر، غير أنه لم يستطع النوم على الرغم من التعب والنعاس، فقد كان يقلقه عدم مجيء بهيجة لليلتين متتاليتين بعد ليالي البدر. حاول أن يطرد هواجسه فالغائب حجته معه، مردداً بعض ما كتبه من مناجاة وشعر.

ما كاد يغرق في النوم، حتى سمع صراخاً وأصواتاً قادمةً من جهة النهر. كانت أصواتاً لم يألفها سمعه، بل لم يسمعها من قبل. حاول أن ينهض إلا أنه توانى قليلاً عسى أن يتعرف على الأصوات دون أن ينهض فيطير النوم من عينيه. سمع وقع أقدام ثقيلة تقترب من الكوخ، ثم ركل الباب بقوة. مدّ محمد يده تحت المخدة لإشهار المسدس إلاّ أن الوقت قد فات. سحب يده وهو يتطلع إلى إثنين من رجال الجندرمة، قد سدا عليه فضاء الكوخ. نهض مستفسراً عن الأمر، فلم يحصل على جواب. لوى أحدهما ذراعيه إلى الخلف وربطهما بحبل بينا كان الثاني يوجه إلى

صدره بندقيته الطويلة بحربتها اللامعة. دفعه الرجل الذي يقف خلفه فسار محمد دون مقاومة، ولكنه سأل بإلحاح:

«لابد أن أعرف ماذا حدث».

«امشِ... في المخفر ستعرف كل شيء».

حينما خرج، شاهد بضعة من رجال الجندرمة يقفون على ضفة النهر وأصابعهم توشك أن تضغط على الزناد، وعلى الضفة الثانية كانت تقف عربتان تجرهما الخيول. تجمع المزارعون وعيونهم تراقب المشهد بذهول وخوف. لمح محمد من بين الواقفين سلمان العجمي الذي حرك رأسه بإشارة غامضة، بينا حاول إثنان من المزارعين أن يعترضا الطريق فدفعهما قائد المفرزة ببندقيته. دُفع محمد إلى العربة مقيداً، وجلس إلى جانبيه شرطيان ضخما الجثة. انطلقت العربتان وسط ذهول واستنكار المزارعين. حاول أن يستفسر من مرافقيه عن سبب اعتقاله فرفضا الإجابة، بل إن أحدهما أقسم له بأنه لا يعرف شيئاً عن الأمر وإنما هو «عبد المأمور». كانت الهواجس تتلاطم في رأس محمد، محاولاً إيجاد تفسير لما يجري. رجحت في ذهنه فكرة أن يكون قد تم ضبط مناشير تدعو للثورة، وألقي القبض على أفراد التنظيم، وربما أعترف عليه أحدهم.

مع أول خطوة خطاها محمد داخل المخفر فوجئ بصفعة مباغتة على رقبته كادت تسقطه على وجهه. التفت إلى الخلف فجاءته صفعة أخرى على جانب وجهه. أدخل إلى غرفة صغيرة تتوسطها منضدة خشبية صغيرة يجلس خلفها رجلٌ بشاربين كثيين يغطيان فتحة فمه ووجه يقطر العبوس منه. وقف متخشباً، محاولاً أن يوقف ارتجاف ساقيه. حُلّ ربّاط يديه فرأى خيطين من الدم يحيطان معصميه. أُخذت بصمات أصابعه، دون أن يسمع كلمةً من أحد سوى شتيمة عابرة أطلقها الرجل العابس بعد أن انتهى من أخذ بصمات محمد. قاده شرطيان من كتفيه إلى غرفة مجاورة. كانت واسعة وتتوسطها منضدة كبيرة وكرسيان خشبيان، بينا جلس خلف

المنضدة رجلٌ في منتصف الأربعينات من عمره، حليق الوجه بشاربين مشذبين بعناية واضحة. أشار إلى محمد بالجلوس على أحد الكرسيين بينا تراجع الشرطيان خطوتين ليقفا متسمرين عند الباب.

«أنت محمد بن ناصر بن هاشم».

«نعم».

أجاب محمد بتلعثم، فهزّ الرجل رأسه، زامّا شفتيه الغليظتين، متطلعاً إلى محمد بعينين يتطاير منهما شرر الحقد وافتعال الصرامة. سأل بعجرفة بعد فترة صمت طويلة، كان فيها الخوف يقرقر في حنجرة محمد:

«أين كنت ليلة أمس الأول؟»

«في العمل..»

أجاب محمد، ثم أضاف مؤكداً:

«في بستان الحاج رضا..»

قال بثقة المتأكد من الأمر بعد أن زال شيء من الخوف.

«هل عندك شاهد على ما تقول؟»

«نعم.. لقد قضيت الليلة كلها بصحبة الصيادين حتى شروق الشمس، عندئذ نمت».

«هل أنت متأكد؟»

«نعم.. عمي».

صرخ الضابط فتطاير الزبد على وجه محمد:

«ماذا؟.. أين أنت؟.. قلْ يا سيدي».

صمت محمد قليلاً وهو ينظر إلى الأرض، ثم رفع رأسه ببطءٍ محدقاً إلى ركن الغرفة، وقال بصوت واطئ:

«كلنا عبيد السيد الأحد».

تطلع الضابط إليه وهمّ أن يقول شيئاً إلا أنه لم يجد ما يقوله، فتوقف ضارباً سطح المنضدة بقبضتة. سادت فترة صمت حسبها محمد دهراً، بينا كان الضابط رافعاً عنقه محدقاً إلى نقطة بعيدة في السقف، حاشراً

نصف سبّابته في أنفه، يدوّرها ثم يخرج من أنفه شيئاً، يكوّره بسبابته وإبهامه ويرميه في الفضاء أمامه، منتشياً. أخرج كيس تبغه وراح يلف سيجارةً ببطء، ويمد لساناً أسود يلحس به أطراف الورقة، مغمضاً عينيه. نفخ دخان سيجارته فامتلأ فضاء الغرفة برائحة عفونةٍ، ارتفعت معها أحشاء محمد وكاد يتقيأ. انتبه الضابط إلى الجالس أمامه، وبطريقة متعجرفة سأل:

«قلْ يا محمد.. اعترفْ.. لماذا قتلتَ الشيخ نوفل؟»

شعر محمد بدوار فتمسكَ بالكرسي، وبصوت مخنوق قال:

«ماذا!؟ هل قُتل الشيخ نوفل؟»

«أنا الذي يسأل.. يا أرعن.. ولست أنت؟»

صرخ الضابط ثم أضاف بصوت عال:

«لا تمثل دور الغافل.. البريء.. لن ينفعك النكران».

كان محمد ساهياً لم ينتبه إلى ما كان يقوله الضابط إلى أن خاطبه وهو يشير بسبابته مهدداً:

«إنْ لم تعترف باللين فستعترف لاحقاً بالقوة».

«أقسم بالله العظيم لم أسمع بمقتل الشيخ...»

«لا تقسم بالله.. وهل من مثلك يعرف الله».

قال الضابط وهو يضيّق عينيه، وأضاف بسخرية:

«اقسمْ بروح جدك».

شعر محمد بالغضب يتصاعد في روحه حتى كأن حدقتي عينيه أوشكتا على الخروج من موقيهما، فقال دون تحسب لما هو فيه:

«أنا الذي يعرف الله.. ومع هذا أقسم بروح جدي.. أني لا أعرف شيئاً عن هذا الأمر».

ارتفعت ضحكة الضابط هازاً كرشه برعونة وهو يردد:

«هه.. قاتل يقسم بروح قاتل.. فرخ البط عوّام...»

كابد محمد لكظمِ غيظه، عاضاً شفته السفلى، دون أن يتفوه بكلمة.

أشار الضابط إلى الشرطيين فأحاطا بمحمد، ساحبين إياه خارجاً.

قبو رطب يتوسط أرضيته كرسيّ صغير، جدرانه ملوثة ببرازٍ أو دمٍ نصِلَ لونه، كأنه مفرّغ من الهواء سوى رائحة عفونة خانقة، تتدلى من السقف مشنقة. طُرح محمد أرضاً. وضع أحد الشرطيين خشبة كالنير تحت ركبتيه فارتفعت ساقاه في الفضاء. انهال الآخر بعصا غليظة على باطن قدميه، بينا وقف الضابط عند رأسه واضعاً قدمه على صدره، ضاغطاً بقوة، حتى كاد محمد يختنق.

«اعترفْ بأنك أنت الذي قتل الشيخ نوفل».

كان الضابط يصرخ، وكان محمد يرد وهو يحاول أن يعب هواءً شحيحاً:

«لستُ أنا».

فيزداد الشرطي عنفاً وقسوة. كان محمد حريصاً ألا يُفرح جلّاديه بالتوسل أو إبداء ضعفاً، فيكتم صرخته، جاذّا على نواجذه، حتى أغمي عليه.

لم يعرف محمد كم من نهارٍ أو ليلٍ قد مرّا عليه في زنزانة مغلقة تماماً لا يرى فيها سوى الظلام. انفتح باب الزنزانة ودخل شرطيان. صرخ أحدهما بمحمد أن ينهض. أسند ظهره إلى الجدار محاولاً النهوض، غير أن قدميه المتورمتين لم تستطيعا حمله فسقط مرتطماً رأسه بالجدار. وضع الشرطيان أذرعهما تحت ساقيه وعجيزته وحملاه إلى غرفةٍ أخرى، هناك وجد أخاه والحاج رضا وقد جاءا لزيارته. وضع الحاج رضا قطعة نقدية في كفّ كل من الشرطيين فغادرا الغرفة وهما يضعان يديهما على رأسيهما عرفاناً للحاج رضا. احتضن مناف أخاه محاولاً أن يمنع دموعه من الانهمار، لكن محاولته فشلت فالتجأ إلى ركن الغرفة، بينا حاول الحاج رضا أن يلهي محمداً عن متابعة مشهد انهيار أخيه. قبل أن يطرح الحاج رضا سؤالاً كان يتوقعه محمد، بادر هو نفسه بالسؤال:

«من قتل الشيخ نوفل؟»

«لا تخف.. لا تخف يا محمد.. لا أحد يشتبه بك.. فكلّ المصلين الذين شهدوا مقتل الشيخ نوفل في المسجد أدلوا بشهاداتهم.. بأنهم شاهدوا القاتلَين وهما يغادران المسجد بعد أن نفّذا الجريمة.. وكلّ الصيادين والمزارعين أعترفوا بوجودك في البستان فجر ذلك اليوم.. فلا تخفْ.. لا تخفْ...»

لاحت ابتسامة على وجه محمد، فأضاف الحاج رضا بشيء من المفاخرة:

«تحدثتُ قبل قليل مع مدير المخفر.. وأكد لي بأنّ بصمات الأصابع تدل على براءتك.. وسيطلق سراحك خلال اليومين القادمين».

انتهت المقابلة دون أن يتحدث محمد مع أخيه الذي كان يختنق كلما حاول أن يتكلم فاكتفى بالاطلاع على وجه أخيه المتورم، منطوياً على قلق شديد على الرغم من كل التطمينات التي ذكرها الحاج رضا.

مرّ أكثر من أسبوع على وجود محمد في سجن المخفر ولم يطلق سراحه كما وعده الحاج رضا، على الرغم من أن معاملة السجانين قد تغيرت كثيراً، وسمحوا لمناف أن يزوره ويجلب له الأكل والملابس. حدثه عما يتناقله الناس حول مقتل الشيخ نوفل أثناء صلاة الفجر في مسجد المدينة، حيث دخل رجلان ملثمان قاما بطعنه من الخلف بخنجر تركاه مغروزاً بظهره وغادرا المسجد، ثم اختفيا دون أن يتركا أثراً ولم يتعرف عليهما أحد.

«ولِمَ حامت الشكوك حولي؟»

سأل محمد، لكي يعرف الإجابة التي عجز تفكيره عن الوصول إليها. صمت مناف، ثم قال ما أشيع بين الناس، وأكده بعض الذين شهدوا الحادثة:

«قيل إن الشيخ نوفل قد تلفّظ اسمك عدة مرات قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة».

إجابة زادت من غموض السؤال، لكنّ محمداً لم يسأل أخاه عن

السبب، لأنه واثق من أنه لا يعرف الإجابة، وخوفاً من أن يثير الشك في نفس أخيه بأمر قد أخبرته فاطمة به.

في اليوم العاشر، فتح باب الزنزانة فنهض محمد مستقبلاً اللحظة التي انتظرها بأكبر شوق عرفه. لم يقده السجان من ذراعه كما في المرات السابقة بل سار جنبه في الممر، ولكن ليس إلى الباب الخارجي كما كان يتوقع، بل إلى غرفة مدير المخفر. شعرَ بخيبة أملٍ قتلت فرحته.

كانت غرفة مدير المخفر واسعة ونظيفة، جدرانها مطلية بطلاء أبيض براق وأرضيتها مفروشة بالسجاد، على أحد جوانبها كانون متقد، أشاع الدفء في الغرفة. مكتب من خشب الصاج وكرسيّ دوّار يجلس عليه رئيس المخفر وهو يرتدي زيّه العسكري بنجومه البراقة، وعلى الجدار المقابل كنبة مغطاة بالفرو وكرسيان كبيران. نهض رئيس المخفر ومدّ يده لمحمد مصافحاً فأخذها محمد مع انحناءة قليلة، ثم أشار بيده إلى محمد أن يصافح (المستر)، فانتبه محمد إلى وجود رجل في منتصف الخمسينات من عمره، يرتدي ملابس إفرنجية بربطة عنق طويلة، بشعر أشيب تلوح شقرةً في منابته، حليق الوجه والشاربين. هزّ (المستر) رأسه لمحمد بانحناءة تكاد تكون ركوعاً، قابله محمد بالمثل. أشار رئيس المخفر لمحمد بالجلوس فجلس وعيناه تزوغان باحثتين في الغرفة عن سرَ هذا الاحتفاء. تطلع رئيس المخفر إلى (المستر) فهزّ رأسه بإشارة لم يدرك محمد مغزاها، ثم توجه بالحديث نحو محمد:

«اسمعْ يا محمد.. المستر جاء للحديث معك بشكل خاص...»

قطع رئيس المخفر جملته، متذكّراً:

«بعد التحقيق.. ونتيجة فحص البصمات.. ثبت لنا بأنك بريء من قتل الشيخ نوفل.. وأنت الآن شاهد وليس متهماً.. حرّ وتستطيع مغادرة المخفر ولكن.. هنالك بعض الأسئلة المهمة يريد المستر معرفة جوابها منك».

«مني أنا؟»

قال محمد باستغراب، فردّ المستر بلغة عربية سليمة ولكن بلكنة غريبة:

«نعم منك.. فأنا أعرفك وأعرف تأريخ عائلتك جيداً.. فلقد قرأت كثيراً وأنا هناك.. عن جدك هاشم وما قام به خلال حرب الاستقلال.. وعن عمك الشهيد منصور...»

شعر محمد كأن ما يدور أمامه ليس سوى حلم من أحلامه الكثيرة. تطلع بذهول نحو المستر.

«أريدك أن تتعاون معنا».

قال رئيس المخفر، وقبل أن ينطق محمد بشيء، استدرك:

«أعني أريدك أن تجيب بما تعرفه عن الأسئلة التي سنطرحها عليك».

هزّ محمد رأسه موافقاً. أخرج المستر دفتراً صغيراً، بينا تولى رئيس المخفر مهمة طرح الأسئلة:

«منذ متى تعرف الشيخ نوفل؟»

فرد محمد بعفوية:

«منذ ما يقارب الثماني سنوات».

«ماذا كنت تعمل عنده؟»

«في البدء كنت أتعلم القراءة والكتابة والتجويد...»

توقف قليلاً فأشار إليه رئيس المخفر أن يسترسل، فأضاف محمد:

«ثم اختارني الشيخ أن أعمل عنده بعد الحصة باستنساخ المخطوطات».

أشار المستر إليه بالقلم الذي بين إصبعيه، وسأل:

«لماذا اختاركَ أنت بالذات دون بقية الصبيان؟»

«لا أدري...»

قال، ثم تذكر شيئاً فأضاف:

«ربما.. لأني أجيد قواعد الخط العَربي».

هزّ المستر رأسه مقتنعاً بالجواب. فتح حقيبته السوداء وأخرج كيساً

من النايلون. مدّ يده داخله وأخرج خنجراً لاتزال آثار الدم عليه. نهض من كرسيه واقترب من محمد. وضع الخنجر على المنضدة الصغيرة وهو يتطلع إلى عينيْ محمد بنظرات محايدة من عينيه الزرقاوين:

«قلْ لي يا محمد.. هل رأيت هذا الخنجر من قبل؟»

تفحّص محمد الخنجر حذراً من ملامسته. تذكّره جيداً من النظرة الأولى، فقد كان رآه سابقاً في صندوق المخطوطات السرية في بيت الحاج نوفل، والذي زاد من يقينه مقبض الخنجر الفضي والعلامتان المحفورتان على جانبي المقبض، العلامتان اللتان ألفهما في بيت الشيخ نوفل، وهما الشمعدان ذو الشعبِ العديدة، وصورة الشمس. شعر محمد بأن الاعتراف بهذا قد يدخله في دهليز مظلم لا يخرج منه، لذا فقد آثر النكران الذي خمن فيه السلامة والابتعاد عن الدخول في أمر لا يعرف أبعاده. هزّ رأسه ثم قال بحسم وثقة:

«لا.. لم أرَ مثل هذا الحنجر سابقاً».

حمل المستر الخنجر بحذر وأعاده إلى كيس النايلون، ثم عاد جالساً في محلّه الأول. أشعل غليونه بصمت دون أن ينظر إلى محمد، فامتلأت الغرفة برائحة تبغ غريبة. بعد فترة صمت ثقيلة سأل رئيس المخفر:

«هل تذكر عمّ كانت تدور المخطوطات التي كنت تستنسخها؟»

فأجاب محمد:

«نعم.. أتذكرها جيداً.. بل أحفظها عن ظهر قلب».

جفل المستر، كأنه التقط طرف خيط يوصله إلى ما يسعى إليه، فسأل محاولاً تخفيف حماسته:

«هل يمكنك أن تخبرنا عما تحفظه؟»

أدرك محمد أو خمّن ما يسعيان إلي معرفته، لذا فقد قرر أن يتجنب ذكر أية مخطوطة من تلك التي تثير الشك، والتي كان الشيخ نوفل يحذّره من أن التفوّهَ بأية كلمة عنها قد تودي بهما إلى حبل المشنقة. قال كتلميذ صغير يستعرض أمام الكبار شطارته وموهبته في الحفظ:

«البداية والنهاية لابن كثير... طوق الحمامة لابن حزم... شرح ألفية ابن مالك... سيرة ابن هشام... رسالة الغفران... حي ابن يقظان... منطق الطير... الفهرست... الروض العاطر... لبّ الألباب...»

أشار المستر إلى محمد بحركة من يده فتوقف. اقترب واضعاً فمه لصق أذن رئيس المخفر. سمع محمد همسهما إلا أنه لم يستطع التقاط أية كلمة بوضوح. تمطّى رئيس المخفر، ناشراً ذراعيه في فضاء الغرفة، متثائباً، ضارباً صدره بقبضته. تطلع إلى محمدٍ، وخاطبه:

«الآن بإمكانك الذهاب إلى بيتكم».

لاحت ابتسامة عريضة على وجه محمد. هبّ واقفاً منتظراً الإشارة من رئيس المخفر للإنصراف. أشار إليه بيده نحو الباب، فأطلق تحية مخنوقة لم يردّها أيّ منهما. حينما خرج من الغرفة انطلق راكضاً نحو باب المخفر الخارجي، ناسياً الألم في قدميه المتورمتين.

فتحت فاطمة الباب، فارتمى محمد عليهامستنداً إلى الجدار بإحدى يديه، حاضناً رأسها باليد الأخرى فتملصت منه بهدوء. تشبث بيديها محاولاً تقبيلهما فسحبت يدها بإصرار. تركته وسارت إلى الداخل. أدرك محمد ما يدور في ذهنها فذهب وراءها إلى المطبخ. مسكها من كتفيها بقبضتين قويتين. حاولت أن تتملص منه فتشبث بها أكثر. أدارها إليه وتطلع إلى وجهها. قال بغضب:

«أتظنين أنا الذي قتلت الشيخ نوفل؟»

«ومن غيرك له مصلحة بقتل الشيخ؟»

وقبل أن ينطق، خاطبته بغضب:

«يا وغد.. يا سافل».

ارتعشت ساقا محمد وشعر بدوار. حاول أن ينطق فخذله صوته. قال بصوت مخنوق:

«أتشكين بي يا ابنة عمي.. ويا أمي..»

ثم انفجر بالبكاء. ابتعدت عنه قليلاً، وقالت بصوت واطئ:

«لأني أعرفكم يا آل هاشم.. مهما بلغتم من رفعةٍ تتصاغرون أمام شهوتكم للنساء.. فتدفعكم أهواؤكم إلى ارتكاب ما لم يرتكبه وضيعٌ».

تطلع إليها وعيناه غارقتان في الدموع، وقال:

«أقسم بروح جدي.. وروح عمي.. لم أفعل ما تظنين.. بل لم يخطر في ذهني هذا الأمر قطّ».

تطلعت فاطمة إليه بصمت، ثم هجمت عليه، ماسكةً رأسه، متشبثة بشعره وراحت تمطر وجهه بالقبلات، وهي تصرخ بهيستريا.

كان يمكن لموت الشيخ نوفل أن يُسقط تمثالَ الغموض الذي ظلّ واقفاً في ساحة الانتباه، مذكّراً الناس بعجزهم عن تفسير ما يدور أمامهم، متجسداً بفكرةٍ هلامية حد التجريد، أو إلهاً حجرياً ناطقاً يشير إلى دواخلهم التي يخشون الاقتراب منها، مستفزّا تواطؤهم مع النسيان، باحثين عن الخرافة في الحقيقة كي يوهموا أنفسهم، مكتفين بالشائعات عن قولة حق يخشون دفع ثمنها، لكن لم يكن موت الشيخ نوفل موتاً طبيعياً بل موت أثارَ عاصفة من الأسئلة الغامضة، ففُتحت ملفّات كان الغبار قد غطّاها، وعاد السؤال يتردد «من هو الشيخ نوفل؟ ما أصله؟ كم عمره؟ متى جاء إلى المدينة؟...»، ولا أحد من سكّان المدينة يعرف الإجابة، فقد نشأت أجيال وهرمت أجيال والشيخ نوفل كما هو لم يكبر ولم يتغير، كأنه رجل خارج الزمن. يسأل الإبن أباه فيجيب الأب نقلاً عن أبيه الذي هو الآخر لم يكن يعرف شيئاً عن الشيخ نوفل سوى ما تناقلته الألسن من شائعات تتراوح ما بين الممكن والمستحيل، بل أحياناً تتعدى المستحيلَ إلى سابعهِ.

ما يثير الحيرة في النفوس ليس وجود الشيخ نوفل وحده، بل إن موقف الناس منه غموض آخر يضاف إلى غموض الشيخ نفسه، فالرجل لم يترك في نفس من عرفه انطباعاً محدداً. يتهمه البعض بالكفر والإلحاد، غير أن هذا البعضَ نفسه سرعان ما يتراجع ويلغي انطباعه حينما يجد نفسه في حضرة ولي من أولياء الله الصالحين، تحيط رأسه هالة نورانية وهو غارق في تأمّله أو مطيل سجدته، وإذا ما ذكر أحدهم

الحديث (من علّمني حرفاً ملكني عبداً)، فأن كلّ متنعم بنعمة القراءة والكتابة هو عبد من عبيد الشيخ نوفل، فله وحده الفضل في تعليم رجال المدينة وشبابها القراءة والكتابة، وإن اتهمه أحد بالبخل ردّ عليه الآخر مستنكراً، مبالغاً بجعله أكرم الكرماء، بل هو باب الحوائج وملاذ الحائر، فعلى الرغم من أنه كان معروفاً بعزوفه عن الحياة وانشغاله عنها بأمور لا صلة لها بما يدور على أرض الواقع، إلا أنه كان حلّال المشاكل، فإن حدثت مشكلة لأحدهم صغيرة كانت أم كبيرة، التجأ إلى الشيخ نوفل ليجد له حلاً، يخرج بعدها من داره مبتهجاً، حتى المريض يجد السعادة في مرضه إن لم يشفَ منه، بعد سماعه لحديث الشيخ عن الطاقة الخفية للإنسان التي تجعله يتجاوز كل المحن إن أدرك مكامن قوّته. لذلك أصبحت الشائعات التي تتناقلها ألسن الناس تحمل خبراً وخبراً آخر يكذّبه، أمراً يصرّ صاحبه على وقوعه وآخر ينفي بإصرار.

سؤال افتراضيّ وجد له حيزاً على أرض الواقع:

«ماذا لو لم يقتل الشيخ نوفل؟»

ليس تواطؤاً إنْ أجاب الكثيرون:

«سيبقى خالداً إلى يوم القيامة».

فيطرح السؤال نفسه:

«من كان وراء مقتل الشيخ نوفل؟»

هنا، لم يعد السؤال الأول افتراضياً، بل هو اصطدام مدوّ بين فكرتين في سديم الواقع، غياب الإجابة جعل السعي لمعرفةِ ما وراء الأكمة أمراً متعِباً لا يغري إلا من اختار الوجد والمكابدة طريقاً للكشف. وهذا ما حدث فعلاً، فبعد خروج محمد من سجن المخفر طويَ الملفُ، وسُجل الجاني في سجلات القضاء مجهولاً. الأمر بالنسبة إلى محمد ليس كما هو لغيره، فهو طرف ثالث في المعادلة حتى وإن أثبت القضاء براءته، ولكن كلّ من شهد واقعة القتل أكد بأن الشيخ نوفل كان يردد اسم محمد في آخر لحظات احتضاره.

جفلَ محمد مستيقظاً من سرحانه، حينما ناداه مناف. اقترب منه وضمّه إليه محاولاً تهدئته وإستنفار رجولته وشجاعته لتجاوز ما حدث له في أيام سجنه الصعبة.

«قلْ لي يا محمد... لماذا كان المرحوم نوفل يردد اسمك قبل أن يسلم الروح؟»

سأل مناف، فردّ محمد بصوت واطئ:

«لا أدري».

ثم أضاف:

«ربما أراد أن يوصل لي رسالة».

«أية رسالة؟»

قال مناف وأرنبة أنفه ترتجف من غضب مكظوم. ارتفعت ضحكة فاطمة، فالتفتا إليها مستغربين ضحكها في لحظة غير مناسبة، فقالت وهي تضع يدها على فمها:

«ربما أراد أن يوصيه بأن يتزوج أرملته».

تطلع مناف إلى زوجته بغضب، بينا افترت شفتا محمد عن ابتسامة، أذابت غضب مناف وراح ينقل نظره بين زوجته وأخيه، محاولاً معرفة ما يخفيانه عنه، ثم انفجر بضحكة، وهو يربت على كتف محمد. ولكي يعيد الحديث إلى جدّيته ويتستر على ما قالته زوجته، خوفاً من أن يأخذ محمد الفكرة على محمل الجد ويفكر بأرملة الشيخ نوفل، قال مناف:

«لم أعد أصدق ما تتناقله ألسنة الناس... خاصة بعد أن أصبحت الشائعات لا يصدّقها حتى المجنون».

ولكي ينهي الحديث بأمر الشيخ نوفل، قال:

«الرجل الآن بين يدي بارئه... ولا تصح عليه سوى الرحمة».

كلام مناف أثار انتباه محمد المتحفزّ لالتقاط أية إشارة حتى وإن كانت شائعة لا يصدقها المجنون، فقال دون أن يُشعر أخاه بأهمية ما يريد سماعه:

«وماذا تناولوا من شائعات جديدة؟»

قال مناف ساخراً:

«قال أحدهم... بأنه حينما مزقوا جلباب الشيخ نوفل لسحب الخنجر المغروز في ظهره... وجدوا..».

ارتفع ضحك مناف، غير أن محمداً راح يلح عليه لإكمال الجملة، فقال:

«إنهم وجدوا جسد الشيخ نوفل تكسوه الصَدَف والحراشف... كأنه جسم سمكة».

ارتعش جسد محمد لسماع ما قاله أخوه، فارتفعت ضحكته، محاولاً إيهام أخيه بأنه لم يأبه للأمر كيلا يأخذ إلحاحه على سماع المزيد مأخذ الشك فيمتنع عن الاستفاضة بحديث لا يعرف أهميته سواه، فقال:

«وماذا قالوا بعد؟»

هزّ مناف يده ساخراً من ثرثرة أناسٍ لا شغل لهم سوى اجترار الشائعات كما العجائز، ثم قال وهو يضحك:

«لم يكتفوا بهذا... بل قال آخر إنه رأى زعنفتين نابتتين في خاصرة المرحوم».

كان محمد جالساً على أرضية الحوش، يساعد زوجة أخيه في تقطيع البصل وهما يتحدثان عن أمر لا أحد يعرفه سواهما. سألها عن بهيجة فراحت تقص عليه زياراتها لها لتقديم العزاء وحديثها الذي لم ينقطع عنه، غامزة طرفها بنميمةٍ أنثوية، إذ قالت:

«وكأنها لم تكن قد فقدت زوجاً لا يزال تراب قبره ندياً».

كاد محمد يقول لها ما لم تعرفه عن بهيجة، إلا أنه أجّل إخبارها لسبب لا يعرفه إلى وقت آخر، فسألها:

«وهل علمت بوجودي في السجن؟»

«نعم».

قالت فاطمة ثم أضافت:

«إنها كانت واثقة من براءتك».

توقفا عن الحديث حينما دخل مناف بشكل مفاجئ وعلى غير عادته، مكفهر الوجه، فانتبه إلى أنهما قد قطعا حديثهما، فقال بغضب:

«ألم تكفّا عن الحديث حول الشيخ نوفل؟»

فردت فاطمة بدهاء امرأة ذكية:

«كنت اسأل محمداً من سيتولى تعليم عليّ بعد أن مات الشيخ نوفل؟»

فرد مناف ساخراً من كلامها:

«لا يزال الوقت مبكراً على التفكير بهذا الأمر... وحينما يحين الوقت سنرسله إلى المدرسة».

قالت فاطمة ساخرة كأنها ترد الاعتبار لنفسها وتنتقم من سخريته بها:

«ومن أين لنا لندفع أقساط المدرسة؟»

تدخل محمد لكي ينهي حديثهما المتوتر بلا سبب، فقال:

«لا تشغلا بالكما... أنا سأتولى تعليمه».

رمى مناف جسده على الكنبة متأففاً، مستعيذا بالله من الشيطان، فالتفتت إليه زوجته وسألته:

«ما بك؟»

زفرَ مناف، لاعناً الشيطان والأشرار، ثم قال:

«يبدو أن مقتل الشيخ نوفل سيكون لعنة على المدينة..».

«ماذا حدث... يا ساتر؟»

سألت فاطمة، فردّ مناف وهو يتنهدّ:

«اليوم... وجدوا فيروز العبد مذبوحاً».

جفل محمد، وتطلع إلى أخيه:

«من هو فيروز العبد؟»

«غاسل الجثث».

قال ونهض من الكنبة. دخل غرفة نومه وأغلق الباب.

نهضَ محمد صباحاً. ارتدى جلبابه النظيف ووضع كوفيته البيضاء على

رأسه. قبل خروجه تذكر أمراً لابد منه، فعاد إلى غرفته. أخرج المسدس من بين طيّات الثياب وأخفاه تحت جلبابه، محتاطاً لأمر بدا يلوح في أفق تفكيره بوضوح، فقاتل غاسل الجثث قد يستهدف كلّ من يحمل سرّاً من أسرار الشيخ نوفل، وليس بعيداً أن يكون القاتل الآن يقف في منعطف شارع أو زقاق ينتظر مرور محمد. أوقفته زوجة أخيه قبل خروجه، سائلة عن وجهته فأجابها بأنه يريد الذهاب إلى المقبرة لقراءة سورة الفاتحة على روح الشيخ نوفل. هزّت فاطمة رأسها داعية له بالسلامة وأن يبعد أولاد الحرام عن طريقه.

بوابة حجرية كبيرة، يقف عندها حارس أو دفّان ضخم الجثة بعينين صغيرتين تحيطهما بثور أو آثار جدري وبلحية كثّة طويلة يغطيها الغبار. يرتدي دشداشة وسخة أو بلون التراب، وقد وضع طرفها في حزامه فظهرت إحدى ساقيه بعضلات مفتولة وأعصاب زرق بارزة كأنها دوالٍ. تحدث معه محمد عن سبب زيارته. صرخ الحارس فهرع إليه صبي أسمر الوجه، شاحب، وبعينين يسيل منهما رمص أصفر، يرتدي دشداشة قصيرة مهترئة عند الكوعين. أشار الحارس إلى جهة في عمق العالم المجهول، فانطلق الصبي في الاتجاه مسرعاً، ومحمد يتبعه. كان الطفل ينط بين القبور بخبرة دليل يعرف قراءة خريطة المقبرة جيداً، حتى توقف عند قبر حديث، حيث لا يزال التراب يحمل قليلاً من الرطوبة، وبلا شاهدة حجرية. أشار الصبي إلى القبر. وقف محمد بحزنٍ وراح يقرأ سورة الفاتحة بصوت عال. انتبه إلى الصبي واقفاً، فأخرج من جيبه قطعة نقدية. وضعها في كفّ الصبي وطلب منه أن يتركه وحده. فرح الصبي وانطلق راكضاً. جلس محمد عند موضع الرأس، ممرراً كفّه على التراب ببطء كأنه يحاول أن يقرأ لوحاً أثرياً. لم يشعر برغبة في البكاء على الرغم من ثقل الحزن على صدره، لكنه حزن باردٌ لا يستفزّ الروح فيثير مشاعرها، بل يستفزّ العقل ليثير فيه عاصفة من تراب الأسئلة الغامضة:

«قد يقال.. إن من قتلك هو من أراد لأبليس أن يكون إبليساً ولآدمَ أن

يكون آدمَ... وقد يقال إن من قتلك أراد أن يمنع الخلود من الإمعان في خلوده... وقد يقال الكثير ولكنك تبقى الغامضَ المتجسد خارج دائرة العقل، واللغزَ الذي لم يعرفه إلا قاتلك».

كان محمد يردد مع نفسه كأنه يخاطب الشيخ نوفل، وكأن الراقد في سبّاته العميق يسمعه، لكنه يمتنع عن الردّ لعلمه بأنْ لا أحد يستطيع أن يطيق حمل السر. نهض بتثاقلٍ، نافضاً ما علق في جلبابه من ترابٍ وشوك. غرز غصناً يابساً حيث كان جالساً، وغصناً آخر في نهاية الممر الذي يؤدي إلى قبر الشيخ نوفل، لكي يستدل على القبر في الظلام. قرأ سورة الفاتحة مرة أخرى وخطا مبتعداً. تلفت باتجاه بوابة المقبرة لكي يتأكد من أن لا أحد يراقبه، وراح يطوف في المقبرة بخبرة حارس ليلي ليكتشف مداخلها ومتانة سياجها.

حينما تأكد من نوم أخيه وزوجته، حمل محمد حقيبته التي وضع فيها عدّة تنفعه في ما يسعى إليه. تسلل على أطراف أصابعه، خارجاً دون أن يحدث صوتاً. كانت المقبرة تقع إلى الشمال الغربي من المدينة، وتفصلها عنها مفازة ليست عريضة لو اتجه إلى البوابة مباشرة، ولكنّ الآن عليه التسلل إلى المقبرة من جهتها الشمالية كيلا يراه الحارس، ولكي يدخلها متسللاً من السور الشمالي، لذا فقد تضاعفت عليه المسافة.

وصل القبر متعباً. وضع يده على فمه كي يكتم لهاثه الذي ارتفع صوته، حتى هدأ. خلع ملابسه وصفّها جانباً. وضع مسدسه قريباً منها. أخرج مغرفة الحساء الكبيرة وراح يزيل التراب بها وبيده الأخرى. حاول أن يتخلى عن الأمر ويعود بعد أن أدرك أن رفع كل هذا التراب ليس بالسهولة التي كان يظنها، إلاّ أن هاتفاً داخلياً كان يصرخ به، حاثاً إياه على إكمال ما بدأه وبأقصى سرعة لئلا يظهر الضوء فيكتشف أمره. كان العرق يتصبب من جسده ورأسه على الرغم من الرياح الباردة التي كان لها صفير لا يشبه الصفير خارج المقبرة، فكأنه يحمل أنين النائمين تحت التراب، وكأن كلّ صوت يسمعه يتجسد أمامه شبحاً عدوانياً يسعى

للانقضاض عليه، أو ميتاً نفض عنه تراب القبر وخرج بكفنه. اتسعت الحفرة حتى أخفت نصف قامته فيها. اصطدمت مغرفته بالجثة، ولاح بياض الكفن فتوقف قليلاً كي يسترد أنفاسه، أو ليهيء نفسه لمواجهة الغموض وجهاً لوجه، ويجتاز الاختبار الأخير. كان أمامه متسع من الوقت ليأخذ القرار بكشف السرّ، ومازالت أمامه فرصة للتراجع. لم يشعر بالخوف كما يشعر به الآن، فقد كان يسمع دقّات قلبه كأنها مطارق تضرب في جدار صدره. وأخيراً قرر أن يكشف السر مهما يكن. هبط إلى الحفرة ثانية وبدأ بإزالة التراب حتى ظهرت الجثة كاملة. مد يده من جهة الرأس فأدخل أصابعه في نسيج القماش، ثم وبكلتا يديه مزق الكفن طولياً. أشعل لفافة القطن وقربها من الجثة، فرأى الذي رآه مراتٍ عدة في كوابيسه. لم يجد جثة الشيخ نوفل، بل سمكة كبيرة تمتد على طول اللحد، وقد أتلف رأسها إلا بقايا من فم مزموم. تلمس صَدفها بيده صعوداً ونزولاً. قرّب أصابعه بحذر من الخياشيم، أدخلها كما يحمل الصياد سمكة. مرر راحة يده إلى الأسفل فاصطدمت بزعنفتين كبيرتين في منتصفها. توقف عن لمس السمكة فقد أصبحت الصورة مكتملة، إلا أنه عاد لكيلا يبقي مجالاً للشك، فأزال التراب عن أسفل الجثة حتى ظهر الذيل كاملاً.

شعور غريب سيطر عليه، شعور من لم يفاجأ بالأمر. تلاشى الخوف من نفسه تماماً، وكأن ما يراه الآن هو اهتزاز خيط الصنارة فراح يسحبه من الماء بثقة الصياد الذي يمارس عمله اليومي دون أن يتوقع حدوث أمرٍ خارج المألوف. هال الترابَ على السرّ دون حساب للوقت أو الفجر الذي لم يعد يعني له شيئاً. ارتدى ملابسه. تأكد من وجود عدّته كاملة. اجتاز سياج المقبرة الجانبي، وحينما صار في المفازة التي تفصل المقبرة عن المدينة، ركض دونما إرادة منه كأن رياحاً قوية تدفعه من الخلف.

* * *

(١٢)

فتحت لؤلؤة الباب فوجدتْ امرأة ترتدي السواد ولا يظهر منها شيء، ولأنها اعتادت هذه الأيام على زيارة النسوة لتقديم العزاء بوفاة الشيخ نوفل، فقد رحبّت بها وقادتها إلى غرفة استقبال الضيوف، وانطلقت لتخبر سيدتها. بعد بضع دقائق دخلت بهيجة وهي ترتدي ما يشبه الطيلسان، طويلاً إلا أنه أسود اللون، عريضاً، تخطّ أذياله على الأرض، وغطّت رأسها بغطاء حريري أسود، لاحت منه خصلات شقر تدلت على الصدر. رحبّت بالزائرة بكلمات لا تكاد تسمع، فرفع محمد البرقع عن وجهه. سارعت بهيجة إلى باب الصالة فأغلقته بعد أن نادت على لؤلؤة وطلبت منها ألا تدخل عليهما ولا تسمح لأحد مهما كان أن يدخل.

كانت هذه الوسيلة الوحيدة أمام محمد للوصول إلى بهيجة، فبعد أن تأكد من أن الذي قتل الشيخ نوفل لن يهدأ له بالٌ، حتى يقطع كلّ إصبع يظن أنها ستشير يوماً إلى آثار الجريمة، ومثلما تخلص من فيروز العبد، لأنه الشاهد المتيقن من السرّ الذي لا يصدقه أحد، فلابد أنه قد وضع في حسابه بهيجة التي تعرف السرّ أيضاً، وليس بعيداً أن يكون هو نفسه ضمن الدائرة المستهدفة، لذلك كان محمد قلقاً، خائفاً على مصير بهيجة، ومما يأتي به القادم من الأيام. أخبر فاطمة بضرورة الوصول إلى بهيجة بأية وسيلة، فأبدتْ على مضض استعدادها لإيصال الرسالة، إلا أنها صرخت بوجهه بعد أن أخبرها بأنه يريد الوصول إليها بأية طريقة كانت، فهو الوحيد الذي يستطيع إرسال الرسالة.

«هل جننت؟ كيف تفكر أن تلتقي بأرملة في شهور عدّتها؟»

«لا عدّة عليها».

قال محمد، دون أن ينظر إلى وجه بهيجة التي راحت تلح عليه لمعرفة ما يقصد بكلامه. وجد من غير المناسب أن يخبرها بما يعرفه عن علاقة بهيجة والشيخ نوفل، فاكتفى بأن قال:

«ليس هذا هو المهم الآن... المهم أن نحمي بهيجة مما يحيق بها من خطر».

رضخت لمساعدته بعد أن رأت إصراره، إلا أنها فوجئت بطلبه منها أن تعيره ملابسها لكي يرتديها. تطلعت إليه غير مصدّقة لما سمعته، فأشار إليها برأسه مؤكداً. صدّقت ما يقوله بعد أن رأت الحزن على وجهه وارتعاشة ساقيه، متعاطفة مع خوفه وشوقه لحبيبته. أخرجت له الملابس السود التي اعتادت على ارتدائها في المآتم، ووقفت تتطلع إليه وهو يرتديها مبدية ملاحظاتها التحوطية، ثم ظلت ترقبه من فرجة صغيرة في الباب حتى اختفى في منعطف الزقاق.

لم تستطع ساقا بهيجة على حملها حينما رأت محمداً أمامها فانهارت. تلقفها محمد بين ذراعيه، وضمّها إلى صدره، طابعاً شفتيه على جبهتها، حتى هدأت أنفاسها فأجلسها جنبه على الأرض، محيطاً كتفها بذراعه، ضاغطاً جانب حناياها المرتجفة على صدره. تطلعت إليه وارتسمت على شفتيها ابتسامة امتنان للمجازفة التي قام بها من أجل زيارتها. لم يستطع محمد كتمان سرّ ما رآه بالأمس فأخبرها بكل ما فعله. تطلعت بهيجة إليه ولم تبدِ أي استغراب، فأدرك محمد بأن ما أخبرها به ليس غريباً عليها، وربما ما عرفه ورآه بالأمس لم يكن سوى قطرة في بحر معرفتها، فسألها متوسلاً أن توضح له الأمر. حاولت أن تتهرب من الإجابة، إلاّ أن محمداً سألها بإصرار:

«من هو الشيخ نوفل؟»

«لا أدري».

أجابتْ وهي تنظر في عمق عينيه. لم يقتنع بالجواب فأعاد السؤال بصيغة أخرى:

«وما تفسيرك لما رأيته أمس من أمر لا يصدّقه حتى المجانين؟»
ابتعدت عنه قليلاً، وقالت:
«وهل أدركتَ ما فوق الأرض لتدرك ما تحتها؟»
ثم أضافت بطريقة تعرف أنها تغري محمداً للدخول إلى عالم الصمت الذي اختاره في تفسير الأمور، مبتعداً عن الجاهز من الأفكار الأرضية التي يجترها غيره:
«وما العقل؟... سوى الدائرة المغلقة على الممكن.».
حاول أن يكتم غضبه من مراوغة بهيجة وإصرارها على إخفاء الحقيقة. أدركت بهيجة ما يدور في ذهن محمد، فقالت مبررة محاولتها للتهرب من الأجابة:
«صدقني يا محمد.. أنا مثلك لا أعرف شيئاً.. غير أني أقول لك ما كان يردده الشيخ نوفل..».
«ماذا كان يقول؟»
قال بنفاد صبر، وقد شعر بأنها ستبوح له بما تعرف، فردّت بهيجة:
«كان يقول عن نفسه.. بأنه فكرة.. تجسدت بهيئة إنسان».
هزّ رأسه، مقتنعاً بصدق نقلها، ولكنه أجّل أمر التفكير في معنى ما قالته إلى حين الاختلاء بنفسه، وتحسباً لمضيّ الوقت، سألها:
«ومن أنتِ؟»
كانت بهيجة تتوقع هذا السؤال الذي طرحه محمد عليها مراتٍ عدّة من قبل، وأجّلت الإجابة عليه، وقد حان الوقت بإخباره بكل ما تعرف عن نفسها.
«أنا.. أنا وديعة.. أمانة.. نقلها الغيبُ من يدٍ إلى أخرى لتصل إليك أخيراً».
«لم أفهم».
قال محمد بنظرات توسل، طلباً للإستفاضة والوضوح، فقالت بهيجة:

«صدّقني يا حبيبي.. لا أعرف عن نفسي شيئاً.. سوى أني كنت طفلة ضائعة.. تركها أهلها حينما رحلوا.. وجدها الشيخ شامخ في إحدى الكهوف.. وعندما شعر بدنوّ أجله.. استدعى أخاه نوفل.. وسلّمها إليه.. لتصل أخيراً إليكَ..».

«ألم تسألي الشيخ شامخ عن أهلك؟»

سأل محمد، محاولاً التخفيف من أسلوب المحقق بإظهار التعاطف والحب. أجابت:

«بلى.. لقد سألتُه.. فقال إن قافلة هبطت من جهة غير معروفة.. هنااااااك.. على جبال الكُرد.. لم يختلطوا بأهل السهل.. ولم يرهم أحد عن قرب.. وفي ليلةٍ مظلمة غادروا المكان.. دون أن يتركوا أثراً يدلّ على الجهة التي رحلوا إليها».

صمتت بهيجة وقد لاح حزن شديد على ملامحها واغرورقت عيناها بالدموع، ثم قالت بإختصارٍ يوحي بعدم رغبتها في مواصلة الحديث:

«لم يتركوا سوى طفلة نائمة في كهف.. ارتفع صراخها حينما أفاقت.. فاستدلّ عليها الشيخ شامخ مصادفةً.. أو بهاتفٍ من الغيب».

حاول محمد أن ينطق فخذله صوته. بادرت بهيجة لتعفيه من السؤال إذ قالت، منهية الحديث:

«وها أنا أمامك.. ربما جنيّة كما قيل.. وربما فكرة وردت في المخطوطات وتجسدت بشراً.. وربما رسالة تعمّد الراحلون تركها إلى من يقيم على هذه الأرض.. وربما كائن من سلالة هبطت من كوكب بعيد.. وربما.. لا أدري..».

ساد صمتٌ طويل بينهما، كان خلاله رأس بهيجة يتوسد صدر محمد الذي يرتفع وينخفض بإيقاع بطيء، ويده تمسد الشعر الهاطل مثل أغصان مثقلة بثمار النور. شعر محمد بمرور الوقت فاستعدل بجلسته، متهيئاً للنهوض. رفعت بهيجة رأسها عن صدره، وتطلعت إليه بابتسامة ساحرة، وعينين ينعكس ضوؤهما في بلّور الدمع شعاعاً يخترق الروح

فيضيء عتمتها بألوان قوس قزح. مدّ محمد شفتيه لارتشاف الابتسامة. أبعدت وجهها قليلاً، ثم سألته بجد:

«والآن.. قلْ لي يا محمد.. ماذا أنت فاعل بالأمانة؟»

أجاب محمد وهو يحتضن وجهها بكفيه:

«سأصونها».

توقف قليلاً وارتسمت على شفتيه ابتسامة يختلط فيها الخبث بالبراءة، وأضاف:

«وسأنجب منها سلالة.. هي خير من مشى على هذه الأرض».

أغمضت عينيها وقرّبت شفتيها منه فضمّها بقبلة. حاول إطالتها إلا أنها سحبت شفتيها من معشقِ القبلة بهدوء، ثم قالت:

«إذنْ... إبدأْ».

شعر محمد بأن الوقت قد حان للمغادرة، ولكن لم يكن يعرف ماذا كانت تقصد بهيجة، وكيف يبدأ وهي الآن في حكم التقاليد أرملة لابد من الانتظار أشهراً أربعة ليحق لها الزواج. نهض متثاقلاً، وقبل أن يغادر الغرفة، أوقفته بهيجة وطلبت منه أن ينتظر قليلاً. خرجت، ثم عادت وهي تحمل كيساً ممهورَ الفتحة. وضعته في كف محمد فسألها بإباء وقد خمّن ما يحوي الكيس:

«ما هذا؟»

«اشترِ البستان!»

مدّ محمد كفه التي تحمل الكيس لإعادته إليها، فأدركت بهيجة ما يدور في ذهنه. قالت:

«كنْ وكيلي».

هزّ محمد رأسه معجباً بفظنتها وغورها في نفسه، وقبل أن ينطق مدت بهيجة يدها الثانية وسلّمته مفتاحاً كبيراً. تطلع إليه مستفسراً، فقالت:

«هذا ما أوصاني به الشيخ نوفل».

عرف محمد أنه مفتاح الصندوق الكبير الذي يضم المخطوطات

والذي كان يطلق عليه تابوت السرَ. أسدل البرقع على وجهه فانفجرت بهيجة بضحكة عالية، بترتها واضعة كفّها على فمها كيلا تسمعها لؤلؤة التي لا تعرف عنها شيئاً. خرج من الغرفة وبهيجة خلفه، وعند الباب الخارجي وقبل أن يدير أكرة الباب، رفع برقعه والتهم شفتيها بقبلة أعادت لهما حرارتُها ذكرى القبلة الأولى. استيقظا من غيابهما بعد أن سمعا خطوات لؤلؤة. فتح الباب وغادر بعجالةٍ، يتبعه صوت بهيجة:

«أحبك».

حينما وصل البيت، وجد فاطمة تقف خلف الباب بانتظاره. تنفست الصعداء حامدةً الله على وصوله قبل أن يصل زوجها. رفع محمد البرقع عن وجهه، وتطلع إلى فاطمة بابتسامة تدلّ على اتمام مهمته بتفوق، مُبدياً بكتفيه ورقبته حركاتِ غنجٍ أنثوية، جعلت فاطمة تغمض عينيها خجلاً. أسرع إلى غرفته ليخفي ما يحمله، وعاد يحمل الملابس. انفجرا في ضحك متواصل، بينا عليّ كان يتطلع إليهما بدهشة. انتبهت بهيجة إلى وجود علي، فخاطبت محمداً بزهو أمّ تفخر بذكاء طفلها:

«أتعلم يا محمد.. أن علياً كان يلعب في الزقاق مع الصبيان.. وحينما رآك قادماً جاء ليخبرني بوصولك.. لا أدري كيف عرفك».

مدّ محمد ذراعيه تحت إبطي علي، رافعاً إياه. رماه في الهواء والتقطه وعلي غارق في ضحكٍ، سرت عدواه إلى أمه وعمّه فراحا يضحكان بصوت عالٍ دون أن يعرفا سبباً لضحكهما. كان محمد يردد، مخاطبا علياً:

«أنت الوحيد الذي سوف يعرفني».

لم يكن مناف يتوقع ما كان يدور في ذهن أخيه حينما طلب منه أن يرافقه في زيارة الحاج رضا في مكتبه. كان يظن بأنه ينوي تقديم الشكر على زيارته له في السجن، أو يستأذنه في إطالة فترة بقائه في البيت لحين برائه تماماً مما لحقه من أثر التعذيب، لذلك وافق دون أن يسأل عن سبب الزيارة. حينما دخلا كان المكتب مكتظاً بتجّار المدينة وأعيانها، وكان الحاج رضا جالساً خلف مكتبه بهيئةٍ متصنّمة تفتعل الكبرياء،

شابكاً أصابع كفيه ببعضها على سطح المكتب الأنيق، وفوق رأسه عُلقت لوحة بهيّة لآية الكرسي، خُطت بخط الثلث، لفتَ إتقانُه نظرةَ محمد لحظة دخوله. نهض البعض مرحباً بهما، بينا تجاهل البعض الآخر متعمداً حضور فقيرين، لا يملكان في دنياهما سوى صيت ماضيهما الذي لم يعد ذا قيمة يمكن تصريفها في سوق الحياة، وإنْ ذاع صيت محمد في الفترة الأخيرة بين شباب المدينة، خاصة حينما علموا بأنّ الحكومة نفسها قد أولته اهتماماً كبيراً في قضية شغلت المدينة وظلت لغزاً، لا يعرف فضّ خاتم سرّه إلا الله والضالعون في الأسرار.

مصادفةٌ خدمت محمد في مسعاه، وظلّ يعزو نجاح انطلاقته الموفقة إلى تلك المصادفة، حيث كان الحاج رضا يتحدث في تلك اللحظة التي دخل محمد وأخوه المكتب، حول نيته على بيع البستان التي صارت تشكل عليه عبئاً أكثر مما هي مكسب رزق، ولأن الشيءَ بالشيء يُذكر، أو لغاية في النفس، خاطب الحاج محمداً بعجرفة المالك لخادمه:

«متى ستلتحق في عملك؟»

فردّ محمد، بصوت يسمعه الحاضرون، وبزهو شاب وجد أسباباً مقنعة لشعوره بالزهو:

«جئت لشراء البستان».

قطع التجّار أحاديثهم، ملتفتين إلى محمد بنظراتِ تعجب أو استنكار، حتى مناف تطلع إلى أخيه بذهولٍ، وبخجل من نزقٍ ليس في محلّه، غير أن محمداً كرر ما قاله بتأكيد جعل الحاج رضا يبتر ضحكته وينظر إليه بنظرة استهجان. قال ساخراً وهو يدير خاتم العقيق حول إصبعه:

«ومن أين لك أن تدفع ثمنه؟»

فردّ محمد بالإجابة التي كان قد هيأها مسبقاً:

«وهل سألتك أنا كيف أصبحتَ مالكاً للبستان؟»

ساد صمت بين التجار والنظرات تتقاطع في ما بينها، كأن شيئاً سقط فجأة على الأرض وانكسر، وقد كان من بينهم من يعرف الحكاية أو

سمع بها من أبيه. قام محمد دون أن ينظر إلى الحاضرين، ووضع الصرة على سطح المكتب. تراجع إلى حيث كان جالساً، وراح ينظر إلى الحاج رضا بصمت، مترقباً ردّة فعله عمّا سيراه. فتح الحاج رضا الصرة، فسقطت بضع ليرات ذهبية. برقت العيون بالدهشة وهي تتطلع إلى لمعانها. ظهر الارتباك واضحاً من ارتعاشة كفيه. خذلته فطنته، فأعاد السؤال الذي كان ينتظره محمد:

«ومن أين حصلت على كل هذه الليرات الذهبية؟»

«هي كنز.. كان جدي هاشم قد دفنه في البستان.. قبل أن تسلب منه».

قال محمد بعفوية مصطنعة ودون أن يرفع نظراته عن الأرض. تململَ بعض الحاضرين كأن المكان قد ضاق بعجيزته، بعد أن تكهرب فضاء المكتب بشحنات تنذر بخطر يوشك يقع، فوجدَ في الهروب وعدم التدخل في شأن لا مصلحة له به عذراً للمغادرة، بينا وجد البعض الآخر فرصة للتشفي من الحاج رضا الذي انقضّ عليه شاهينُ الماضي ليأخذ بثأر من غدر هو وأبوه بهم. قلّب الحاج رضا بعض الليرات على راحة يده باستخفاف، متطلعاً في عيني محمد اللتين افتضح العزم فيهما، متمترساً خلف إصرار الحق. هزّ الحاج رضا رأسه، مصطنعاً ابتسامة بدت للحاضرين بوضوح أنها ابتسامة هزيمة صفراء. قال:

«وافقت على البيعة».

ونهض ماداً يده، فأخذها محمد مصافحاً بنديّة، كان ينتظر قدوم لحظتها بفارغ الصبر.

لم تكن بيعةً أو استرداد حق سُلب منذ عشرات السنين، وإنْ بدت كذلك في ظاهرها، بل إنها كانت لحظة إعلان حرب على الأرض، بين فتى تدعمه قوتان متناقضتان لا تجتمعان إلا في غفلة التأريخ، لكنهما التقيتا في نقطة التقاء الخطين المتوازيين، وبين التأريخ نفسه بكل أخطائه وثقل أوزاره.

كان النهر فاصلاً بين عالمين مختلفين كالأرض الحرام الفاصلة بين

جيشين متحاربين. ليس مجازاً، بل حقيقة، إذ أصبح العبور من ضفّة إلى أخرى يعني لجوءاً ثم انتماء، وهكذا عبر الكثير من المزارعين والعبيد من الجهة الشرقية إلى الجهة الغربية لينضموا إلى النظام الجديد. أعتقَ محمد كل العبيد الذين لجأوا إليه وخيّرهم بين الرحيل أحراراً أو البقاء معه أحراراً، فاختاروا العمل عنده. هدمَ جدار البستان الغربي وضمّ مفازة الجنّ إلى البستان لتكون من أملاكه التي امتدت من النهر وحتى الحيّ الصناعي الذي يقع على مشارف المدينة. قام سلمان العجمي بتلاوة منشور صادر عن حزبه يدعو العمال إلى الإتحاد والإلتفاف حول محمد، والتصدي لما قد يفكر فيه التجّار من إلحاق الضرر به، بينا اجتمع تجار المدينة وإقطاعيّوها في المسجد الكبير لمناقشة الخطر الذي قد يشكله محمد على مستقبل مصالحهم. زاروا منافاً في بيته للتوسط بينهم وبين أخيه، مقدمين عرضاً مغرياً لمحمد بشراء البستان بأضعاف سعره. أخبر مناف أخاه بالأمر فارتفعت ضحكته وهو يردد بإصرار:

«لم يروا مني شيئاً بعد».

تطلع مناف إلى وجه أخيه متوجساً، فرأى فيه ملامح هاشم نفسها، كما كان يصفها أبوه. حاول أن يثنيه عمّا يدور في ذهنه، تجنباً للمخاطر التي يلحقها بنفسه جرّاء تحديه لتجّار المدينة الذين انضم إليهم الأقطاعيون وأصحاب العقارات وحتى إمام المسجد، غير أن محمداً ردّ بإصرار:

«هذه البداية... ولن أتراجع عمّا بدأتُ به».

ولكي يطمئن أخاه بأنه لم يعد ذلك الصبي الضائع، عازف الشبّابة، وأنه قد بلغ سنّ الرجولة، فقد أعلن أمام أخيه وزوجته بأنه سيتزوج قريباً، فسأل مناف:

«تتزوج مَنْ؟»

فردّ محمد بثقة:

«بهيجة».

* * *

القسم الثاني

(١)

سمعت زهرة وقع أقدام علي وهو يصعد السلّم، فافتعلت الاستغراق في النوم لتشعره بغيظها منه. سار على أطراف أصابعه وسط الظلمة دون أن يضيء المصباح. مرّ على أسرّة أطفاله النائمين وتوقف عند سرير حسين. وضع كفّه على جبينه فتأكد من أن الحرارة قد زالت تماماً، ولحاجة في نفسه عدّل من وضع الغطاء على جسد زهرة على الرغم من أن الأمر لا يحتاج إلى ذلك، ولكنه فعلٌ اعتاد عليّ القيام به دونما قصد، بينا بالنسبة لزهرة هو أجمل من كل قواميس الغزل، فهو يُشعرها بأمانٍ وسعادة كبيرة يتضاءل أمامها كل ما تحمله من حنق أو غضب، غير أنها صممت هذه المرة أن تكون أقوى من كل ما يثير حنانها وأنوثتها لكي تجبره على الإجابة عن السؤال الذي انتظرت جوابه طويلاً، ولكي تضع حداً للقلق وسوء الظن الذي ارتفع منسوبه بعد حديثها الليلة مع حميرا، على الرغم من أنها لم تصدق ما قالته، فهي تعرف ابن عمها وعفة نفسه جيداً وتعرف أنه لا يتلفظ بكلمة تسيء إلى أحد في غيابه، ولم تتذكر يوماً أنه قد عاد مخموراً، وما رددته زوجة أبيها لم يكن سوى ظغينة تخمّن أسبابها ولكنها لم تتيقن بعد، وهذا ما تريد أن تسمعه الليلة من علي حتى لو تحايلت عليه وكشفت ما يدور في ذهنها من ظنون أو ما يحسب أنها غافلة عنه.

اندسّ علي في فراشه بعد أن ردد بصوت تسمعه زهرة بعض الآيات والتعويذات فابتسمت تحت الغطاء بشماتة، فهي تعرف أن استعاذته بالله ليس من الشيطان بل هو توسل لإيقاظ النائمة. لم تمضِ سوى بضع دقائق حتى غرق في النوم، فشعرت زهرة بشيء من الانتصار يشوبه بعض

الندم. أغمضت عينيها محاولة إبعاد الهواجس منتظرة الفرصة القادمة. قبل أن تغفو، سمعت صوت صرير أسنان، وارتفع من علي أنين لم تألفه زهرة، فهي سمعت من قبل شخيراً متقطعاً يصدر عنه حينما يكون متعباً أو مريضاً، إلا أنها لم تسمعه يئن ويتأوه بحزن وهي التي خبرته جبلاً لا يرقى إليه غراب الخوف وتتكسر على سفحه العاصفة. حاولت أن تهوّن من الأمر إلاّ أن نفسها لم تطاوعها طويلاً بعد أن ارتفع أنينه الذي يشبه البكاء المخنوق، فأزاحت الغطاء عن جسدها واقتربت منه. قرّبت وجهها من وجهه فرأت ملامحه تتغير بشكل واضح كأنه يكابد ألماً أو أن كابوساً يجثم على صدره. شعرت بحب شديد نحوه، بل إن قسوة ملامحه وهو يصارع ما في داخله، أثارت شهوتها فوجدتْ في قلقها عليه حجة لإيقاظه. وضعت راحة كفّها على جبهته، كانت باردة وقد غطّاها العرق. مررت كفّها على وجهه ولحيته. قرّبت شفتيها وطبعت قبلة على جبينه، فتوقف أنينه. تحرك متململاً ثم فتح عينيه ببطء، ففوجئ بجسد زهرة لصقه، وقبل أن ينطق، سألته بنبرة حنوّ أمومي:

«ما بكَ؟»

ثم أضافت بما يبرر سؤالها:

«سمعتك تئن وتصرخ».

حرك علي أجفانه كأنه يطرد بقايا الكابوس العالقة في رموشه. رفع القسم العلوي من جذعه مسنداً ظهره على المخدة ناشراً ذراعيه في الفضاء. نهضت زهرة وجاءته بكوز الماء. عبّ جرعة كبيرة وأعاد الكوز إلى زهرة وهو يبتسم بامتنان، وقبل أن يعيد رأسه على المخدة حشرت زهرة ذراعها تحت رقبته فاستقر رأسه بين نهديها. ضمته بقوة وأصابع كفها تتحرك ببطء بين خصلات شعره، وأنفاسها تصطدم بصفحة وجهه. لم يكن علي راغباً في مضاجعتها، لكن حرارة جسدها وكبرياء فحولته دفعتاه إلى احتضانها، ولم تمض سوى ثوانٍ حتى تحول الأمر إلى رغبة جارفة. لفّ جسدها بحركة خاطفةٍ فارتمت على ظهرها، ناشرة ذراعيها

على عرض السرير فاعتلاها خفيفاً كأنه لم يكن يحمل همومَ البشرية، ناسياً كلّ ما دار في اجتماع الليلة.

انتبه علي إلى أن أمراً غريباً حدث مع زوجته أثناء مضاجعته لها، فهي للمرة الأولى ترفع صوت تنهداتها بشكل مبالغ فيه، وتطلق صرخات نشوتها دون آبهة بأن يسمعها أبوها وزوجته، حتى اضطر إلى أن يغلق فمها بكفه منبهاً إياها بأن أباها وزوجته لايزالان يقظين، وهذا ما جعله يتوقف عدة مراتٍ وتبرد شهوته فكانت زهرة تستحثه مصدرةَ أصواتاً غريبة، بل ولأول مرة يسمعها تتلفظ بكلماتٍ مثل (أشتهيك، امتلكني، نكني، مزقني،....)، أو أن تسمي الأعضاء الجنسية بأسمائها. انطرحت على ظهرها مثل قطةٍ أنهكتها اللذة. حاول علي أن يتفرس في وجهها ليجد تفسيراً لما حدث فلم يرَ ما اعتاد على رؤيته من حياء، بل على العكس كانت تتطلع إليه بجراءةٍ غريبة دون أن يرمش جفناها، مما اضطره إلى أن يسألها عن سبب هذا التحول الغريب فردّت بكلام سمعه من قبل ولكن ليس منها:

«ألسنا جميعاً أحفاد هاشم؟»

قالت وانفجرت بضحكة عالية، لم يجد عليّ بداً من أن يجاريها بضحكة أعلى، ليس رغبة في الضحك وإنما لكي يغطي على صوت ضحكها الذي أيقن بأنه قد لفت أسماع من في الطابق السفلي.

«ناقصات عقل.»

قال علي ساخراً وأدار إلى زهرة ظهره، فأدركت أن علياً اكتشف بأن ضحكها لإغاظة حميرا. شعرت بالخجل. حاولت أن تموّه قصدها فالتصقت به ضاغطة نهديها برمانة كتفه وهي تمسد شعر صدره. مدّ يده خلسة من تحت الغطاء وقرصها من ردفها فصرخت، ثم راحت تضحك بصوت عال حتى انطرحت على ظهرها مرةً أخرى فاندفع نهداها خارج قميص النوم. فجأة قطعت ضحكتها وخاطبت علياً بثقةٍ مفتعلة:

«أتعلم لماذا أضحك؟»

«أعرف».

قال علي دون أن يلتفت إليها، فردّت زهرة بغنج:

«لا. لا تعرف».

شعر علي بأن زهرة تريد أن تبوح له بشيء لم يعرفه، فأدار جسده نحوها مقربّا وجهه من وجهها، وراح يتطلع في عينيها واضعا كفّه على رأسها. أخبرته زهرة بالحلم الذي رآه حسين وكيف أنه كان متشبثاً بقضيبه كي يتأكد من وجوده.

«أمر طبيعي للصبي في هذا السنّ أن يتحسس ذكورته».

قالَ علي ببرود، ثم أضاف:

«ربما أنه شاهد جسم أخته فأدرك الفارق بينهما.. ولكن..».

أراد أن يسأل عن السبب الحقيقي وراء محاولتها إثارة غيرة زوجة أبيها، إلا أنه أحجم عن ذلك، وحينما ألحت عليه زهرة لمعرفة ما أراد أن يقول، ردد بصوت واطئ كأنه يهمس لنفسه:

«أليس هو من سلالة هاشم...».

تكرر في الليالي التالية استيقاظ حسين للسبب نفسه، وفي كل مرة كان يعيد على أسماع زهرة الحلم نفسه وإن كفّ عن التشبث بقضيبه، بل كان يمسك عنقه بكلتا كفيه وهو يحاول التقاط الهواء، وحينما تسأله أمه عن السبب يقول بأن القلادة تلتفّ على عنقه وتخنقه، حتى لم يعد الأمر لزهرة مدعاة للضحك. حاولت أن تخفي قلقها ولم تخبر زوجها وأباها لئلا يسخرا منها، إلا أنها لم تستطع بعد أن تكرر الأمر وبدأت تظهر آثار غريبة على تصرفات حسين خاصة بعد أن يستيقظ من نوبة الاختناق ويأخذ فترة ليست بالقصيرة حتى يطرد بقايا الكابوس الذي يلازمه كل ليلة تقريباً. أخبرت زوجها أولاً طالبة عرضه على حكيم ليعرف سبب اختناقه، وحينما وجدت زوجها لم يعر للأمر اهتماما واكتفى بطمأنتها مفسراً لها الأمر بتفسير لم تستطع أن تدرك مغزاه، عندها أخبرت أباها، وفوجئت بأبيها يؤكد لها قلقها عندما أخبرها بأنه انتبه إلى تصرفات غريبة

تبدو واضحة في سلوك حسين، مشيراً إلى الحركات اللاأرادية التي يبديها حينما يمسك عنقه وكأنه يحاول أن يخفي تشوهاً أو يتلمس خدشاً. طلبت زهرة من أبيها متوسلة أن يعرضه على حكيم يعالجه أو عارفٍ يطرد الكوابيس أو الشياطين عنه. امتعض محمد من كلام ابنته وإن لم يعبر عن امتعاضه بكلام إلاّ أن زهرة بما تعرفه عن أبيها من غرور وإدعاء بمعرفة كل شيء، أدركت ذلك ولم تشعر بتأنيب ضمير كالمرات السابقة بل على العكس كانت تشعر بشيء من الحنق على أبيها لانشغاله عنها وعن حفيديه.

قضى محمد وقتاً طويلا في السرداب وهو يبحث في المخطوطات عن تفسير لحالة حسين، فلم يجد سوى مخطوطة تفسير الأحلام لابن سيرين ولم يرد فيها ذكر القلادة، وبعض الإشارات عن قصص الأولين في تفسير الرؤيا لم يجد فيها ما يحتاجه، إلاّ أن قولاً للحسين بن علي ورد في مقتل أبي مخنف، لفت نظر محمد، بل أرعبه، حيث يقول الحسين بن علي «خُطَّ الموت على ابن آدم كما خطتْ على الجيد القلادة». لم يجد في هذا القول علاقة ما بحالة حفيده إلاّ أن شيئاً قبض نفسه، وفرضت المقارنة نفسها عليه. في حقيقة الأمر كان هناك مبرر للمقارنة لكنه حاول أن يتناساه، فهو لم ينسَ تلك الكلمة التي كانت بهيجة تردها في لحظات احتضارها الأخيرة.

«القربان».

شعر محمد بخوف من مقارنة وضع حفيده وما جرى لحفيد رسول الله، وكل منهما يحمل الأسم نفسه. طوى المخطوطة بيد مرتعشة وأعادها إلى مكانها. أسند رأسه إلى كرسيه وأغمض عينيه وسؤال يتردد في ذهنه:

«هل مصادفةً؟»

عاد به الزمن إلى عقود خمسة حينما كان ناسخاً للمخطوطات. ارتسمت في ذهنه شخصية الشيخ نوفل كأنها تجسدت أمامه، وكأن

العقود الخمسة لم تكن إلا ليلة أمس. تذكر النصيحة التي كان يرددها شيخه على مسامعه، كأنه أراد أن يهبه كنزاً لابد وأن يأتي اليوم الذي يعرف قيمته.

«أعلمْ يا محمد أن لا شيء يحدث مصادفة».

«لا تقرأ ظاهر الكلمات.. فلكل عبارة ظاهر وباطن».

«تذكر أن لكل حدث رمزاً.. وقيمة كل حدث برمزيته».

«تذكر أن ما يحدث الآن قد يحدث في المستقبل... وقد تتكرر شخصيات الماضي بطبائعها وسلوكها... بل حتى بأسمائها».

لم ينسَ محمد الماضي كي يتذكره، بل إن الشيء بالشيء يُذكر، فهو يعيش الحاضر بروح ماضيه مهما اختلفت التفاصيل حتى لم يعد يستطيع التمييز ما بين مطابقة أحداث يومه مع ما جرى سابقاً وما بين الوهم الذي يجعله يرى الحاضر في عين الماضي، حتى المرأة التي شغلت جزءاً كبيراً من تفكيره لم تكن في داخله سوى امرأة واحدة تشابهاً أو تنافراً، فكل النساء في نظره بهيجة وإن لم يحظ بمن تشبهها، إلا أنه كان يختلق في داخله تفاصيل يستنسخها من صورة في الماضي ويلصقها على الحاضر، وما هوسه بالنساء إلا شوق لبهيجة، حتى في أوج اللحظات الحميمة مع نسائه كان يستحضر في مخيلته جسد بهيجة وشهوتها، أو أنه يطلب من نسائه أن يرددن ما كانت تردده بهيجة أثناء المضاجعة وكأنه يشحن جسده بشحنة إضافية للشهوة، وهذا ما جعل نساءه ينفرن منه بعد أن يتكرر الأمر ولم يكن مبالياً بمشاعر الغيرة التي تتملكهن، ولم تهن كبرياؤه مرة فيعتذر، بل كان يزيد غيرتهن وحنقهن عليه بتأكيد حبه لبهيجة الذي لم تحظ أيّ منهن بعِشره، حتى دخلت حميرا حياته، فاستطاعت أن تروّض الكثير من غرور رجولته، ربما بسبب جسدها الفتيّ أو لأنها تذكره ببهيجة، فهي المرأة الثانية التي يفتض بكارتها، فما بين بهيجة وحميرا تزوج وعاشر الكثير من النساء إلا أنهن جميعاً كنّ متزوجات من قبل حتى أشيع عنه بأنه لم يكن كما يدعي ذا فحولة نادرة وشهوة كبيرة،

بل إنه كان على العكس من هذا تماما، فهو رجل بارد جنسياً وربما كان عنيناً، ولكي يؤكدوا هذا الافتراض فقد أشيع بأن زهرة ليست ابنته بل هي ابنة بهيجة من الشيخ نوفل، وما هوسه بالنساء إلا للتمويه أو إشباع عدوانيته وغروره وذلك بإغواء النساء المتزوجات نكاية بأزواجهن، أو لإشباع شهوة الاستحواذ على كل ما يقع في دائرة حواسه، حتى دارت الشائعات بأنه هو من قتل حارس بستانه ليحصل على زوجته التي كان يضرب المثل بجمالها، وكذلك أتهم بقتل إحدى طليقاته بعد أن علم بنيتها الزواج من رجل آخر كيلا يفتضح أمر عنّته.

استغلت حميرا ما لها من حظوة عند محمد منذ أول يوم خطبتها له، فقد اشترطت للقبول به مقابل فارق العمر أن يطلّق زوجاته الثلاث ففعل إكراماً لجمالها الساحر وأنوثتها الصارخة، إذ لم تكن قد أكملت الرابعة عشرة من عمرها، ثم تدرّكَ في التنازل حتى وصل به الأمر إلى تسجيل ملكية الدار الكبيرة باسمها وتشغيل أبيها مشرفاً على مخازن الحبوب التي يملكها. أما الأسباب الأخرى للحظوة فقد بقيت طي الكتمان وإنْ تسرب بعض منها كشائعات تناولتها ألسن الغرباء وأعداء محمد، وربما حميرا نفسها كانت وراء تسريب الشائعة الغريبة التي قيل إنها كانت السبب وراء محاولة الانتحار الثانية لمحمد، فلا أحد غير حميرا وراء فضح سرّ خطير يثير التقزز في النفوس ولا يمكن لأحد أن يعرفه غيرها، فقد أشيع نقلاً عن نسوة المدينة عن أم حميرا عن ابنتها قد أخبرتها بأن محمداً شربَ دمَ بكارتها بعد أن فضّها بأصبعه، وكالعادة فالشائعة تنتشر كما دوائر الماء التي تبدأ بالاتساع على السطح مشكّلة دوائرَ أكبر وأكبر كلما ابتعدت عن المركز الذي يرسمه حجر صغير يُرمى في الماء، لذا فأن هذا الخبر راح يأخذ بعداً آخر كلما اتسعت دائرة العنعنة حتى قيل إن محمداً مولع بلحس دم الحيض، بل إنه مولع بمشهد وطعم الدم.

وصلت الشائعات إلى أسماع علي وزهرة وكانت موضع تندرهما، فهما يعرفان محمداً وشهوته التي يصل صداها إليهما كل ليلةٍ من خلال

صراخ حميرا وضحكها الذي يعبر عن انتشاء ما بعد اللذة، وكلام محمد الفاضح لجنون شهوته التي تصل حداً من العهر يجعله يتلفظ بمفردات لم تعرفها كل قواميس المواخير، إلاّ أن علياً وبرغم ذلك تسرب الشك إليه من خلال ما توصل إليه بتحليله وقناعته بالنظريات العلمية، فقد يبوح الإنسان بشيء يدل على نقيضه، وما هذا التباهي بالقدرة الجنسية إلا ضعف يحاول أن يتستر عليه بالمبالغة في إبراز قوة شهوته وعنفوان فحولته، لكن عليا أبقى هواجسه هذي بينه وبين نفسه معتبراً الأمر لا يتعدى كونه شائعات تافهة يطلقها أعداء عمّه الكثيرون حسداً أو ثأراً لماضٍ ليس من السهل نسيانه، بينا زهرة هي الأخرى كانت لها هواجسها التي لم تبح بها لزوجها فقد كانت على يقين بأن رضوخ أبيها لرغبات حميرا وصبره عليها، على الرغم من نزقها ووقاحتها لابد وأن يكون له أسباب لا تعرفها زهرة ولكنها تستطيع تخمينها وليس الحب من بينها فأن رجلاً مثل محمد مهووساً بالنساء وتبديلهن لا يعرف الحب، فلابد من أن حميرا قد سحرته أو أنها تعرف سراً من أسرار أبيها التي يخاف من كشفها وقد استغلت حميرا خوفه هذا بتهديده بإثارة فضيحة تسيء لسمعته وتطيح بهيبته، فاشترى صمتها بالرضوخ، ولم تكن زهرة تعلم بأن أباها قد سجل البيت الذي يقيمون فيه باسم حميرا فقد بقي هذا الأمر سرّاً بين محمد وحميرا، وعلم علي به مصادفةً حينما وقعت عيناه على سند التمليك بين الأوراق السرية التي تخص الحزب، لكنه أخفى الأمر عن زوجته.

كاد علي ينسى أمر الشائعات لولا أنها تفجرت في داخل الحزب وراح الكثير من الرفاق يتداولونها سراً في البدء، ثم لم تعد سراً حيث كتب بعض الرفاق تقارير حول الموضوع، حاول علي أن لا يرفعها إلى اللجنة العليا بإخفائها أو التغاضي عنها مسفّهاً الأمر كلما حاول بعض الرفاق فتحَ باب الحديث عنها، لكن يبدو أن لمحمد أعداءً داخل الحزب فرضوا إرادتهم متحججين بأن الأمر يهدد سمعة الحزب ويقلل

من شعبيته بين الجماهير خاصة وأن أغلب قاعدة الحزب من العمال والفلاحين الذين ليس لهم وعي يجعلهم يغضون النظر عن مثل هذه الأمور. تم نقاش الأمر على أعلى مستوى في القيادة الحزبية بعد أن استنفد علي كل طاقته على المراوغة والتملص من نقاش أمر يتعرض إلى سمعة عمّه الشخصية وعرضه الذي هو عرضه أيضاً، غير أنه رضخ لإصرار الرفاق بعد أن نجحوا في إقناعه بأن ما تحمله الشائعات من كلام لا يعني الحزب بشيء، ولكن لما تحمل من دلالة لابد من أخذها بعين الاعتبار، فانتشار الشائعة بين الناس يدل على أمرين خطرين، أولهما وجود عدو يتربص بالحزب من خلال شخصية قائده أو أبيه الروحي، يحاول أن يختلق الشائعات ليس للانتقام الشخصي من محمد بل للانتقام من الحزب نفسه، أما الأمر الثاني فهو سرعة سريان الشائعة بين الناس واندفاعهم الغريزي بتناقلها بفرحٍ طافحٍ في العيون يدل على شماتة واضحة، وهذا يدل على أن الحزب بدأ يفقد شعبيته بين الجماهير، خاصة الجماهير الفقيرة التي كانت قبل سنوات تقف بقداسة كبيرة حينما يذكر اسم محمد أو يتطرق أحدهم لتأريخه النضالي وما قدمه للفقراء، ولا ترى في الحزب إلا المنقذ الوحيد والسد المانع من العودة إلى زمن العبودية واستغلال الاقطاع البشع خاصة مع نكوص رجال الثورة عن الميثاق الذي عقدوه مع الحزب وظهور الانحرافات الكثيرة في سياسة الحكومة والتي تنذر بحدوث ردةٍ أو انقلاب يقوم به الأعداء فيكون الحزب الخاسر الأول، ولكيلا يستغل حزب الإقطاع ورجال الدين هذه الشائعات ليكسبوا أصوات الناس لصالحهم.

اجتمعت القيادة الحزبية العليا وقررت تنحية محمد من قيادة الحزب بحجة تقدمه في العمر ومشاغله الكثيرة وضرورة إعادة حيوية الحزب من خلال تسليم القيادة إلى قائد شاب متفرغ لأمور الحزب، وكانت الأنظار كلها تشير إلى عليّ الذي امتنع في بداية الأمر خجلاً من عمّه، إلا أنه غيّر رأيه بعد أن رأى محمداً نفسه متحمساً للفكرة، وأثناء المداولات

حول تسليم أمور القيادة والتي كان عليّ واثقاً من أنها ستؤول إليه، فوجئ باعتراض جبير ابن الغوّاص، مدعياً بأنه أحق من علي في تسلم القيادة لقدمه في الحزب وأنه أكبر سنّاً من علي. وجد ابن الغوّاص بعض المناصرين من الرفاق على الرغم من قلتهم إلا أنهم كانوا متحمسين له حتى هددوا بتقديم استقالتهم من الحزب إن استلم عليّ القيادة. تمّ تأجيل التصويت عدة مرات حتى كاد عليّ يسحب ترشيحه لولا أن سلمان العجمي قد تدخل وقال كلمته الفصل في حق وصلاحية علي للقيادة، فصمت الجميع لما للعجمي من تأثير فهو أقدم رفيق في الحزب وقد عاصر ودرس على يد مؤسس الحزب.

... لكن ما حدث تلك الليلة، أعني الليلة التي كان فيها حسين مريضاً، لها شأن آخر، فما أن انفض الاجتماع، وهمّ علي بمغادرة المقر حتى أشار إليه سلمان العجمي بأن يتريث قليلاً ليخرجا معاً. سارا قليلاً في الزقاق وقبل أن يصلا الطريق الرئيسي، توقف العجمي طالباً من علي أن يعودا إلى المقر بعد أن تأكد من انفضاض الرفاق. أدرك علي أن سرّاً هاماً يريد أن يبوح به العجمي إليه، وقد خمّن أنه يريد أن يخبره عن الدسائس التي يقوم بها جبير ابن الغواص، غير أن المؤامرة كانت أكبر هذه المرة. فتح العجمي باب المقر ودخل يتبعه علي. أضاء شمعة صغيرة وجلس قبالة علي، ودونما مقدمة بادر العجمي بالقول:

«اسمعْ يا رفيق علي.. إن الأمر الآن لم يعد أمر شائعات.. ولا محاولات بائسة يقوم بها ابن الغواص للنيل منك..»

توجس علي خيفة مما يريد أن يقوله العجمي فراح يحثه على الافصاح سريعا عما يكتم، فقال سلمان:

«هناك مؤامرة كبيرة.. يخطط لها أبو سلافة ورجاله للسيطرة على أملاك محمد...»

توقف قليلاً، ثم بحذرٍ وبصوت واطئ، أضاف:

«ويقال إن لحميرا دوراً في هذه المؤامرة».

اكفهر وجه علي ممتعضاً من كلامِ العجمي الذي حسبه تدخلاً في أمور عائلية خاصة، وليس من اللائق من العجمي أن يحشر أنفه في مثل هذه الأمور حتى وإن كان من أصدقاء العائلة المقربين. تطلع إلى العجمي بنظراتٍ لا تخلو من تسفيه لرأيه، أدرك العجمي مغزاها فراح يؤكد ما عناه، مغيّرا اتجاه الاتهام، بعيداً عن الأمور العائلية:

«عندي معلومات تؤكد على أن بعض المقربين من عمّك على علاقة مشبوهة بأطراف من حزب القِبلة الرجعي الذي يكنّ العداء لمحمد ولحزبنا...»

صمتَ عليّ إذ بدا عاجزاً أمام هذه المفاجأة، خاصة وأنه يثق بسلمان العجمي وإخلاصه ليس للحزب فحسب، بل إنه يكن حبّاً أبوياً كبيراً له، ويرى فيه أملاً للحزب، وهذا ما لمسه من علاقة عائلية حميمة وعشرة طويلة جمعته بعمه.

«ما العمل؟»

سأل علي وقد ظهرت عليه علامات تلميذ لايزال بحاجة إلى من هو أكبر منه سنّاً وأكثر خبرة في الحياة. تطلع العجمي في عيني علي وبلهجة رفيق طحنته ألاعيب السياسة وثعلبيتها فسلبته الكثير من إنسانيته. قال:

«عليك أن تسيطر على أملاك عمك... وتُفشل محاولاتهم لسلب ثروته».

ثم أضافَ وبحركةٍ خبيثة من عينيه:

«وبأي وسيلة كانت...»

هبّ علي واقفاً كأن عقرباً لدغته، رافضاً بحزم عرض العجمي مؤكداً كلامه بأنه يعرف جيداً عمه وحنكته في إدارة الأمور، ولا يظن أنه غافل عمّا يدور حوله، وإذا كان يغض النظر في الوقت الحالي عما يدور حوله فلابد أن لعمّه خطّة مُبيتة، فقد خبر عمّه وما يدور في رأسه من أفكار لا تخطر في ذهن غيره. هزّ سلمان العجمي رأسه مفتعلاً القناعة بما قاله علي، لكن بقدر ما اقتنعَ العجمي بحجة علي، تسرب الشك إلى نفس

علي ليتفقا على أن يقوم علي بإخبار عمّه بشكل غير مباشر عمّا يدور حوله، وأن يخصص بعضاً من وقته لمراقبة الأمر ولو من بعيد، ومن جهته تعهد العجمي بأن يوجه بعض الرفاق لمراقبة الأمر بدقّة واهتمام، وهذا ما حدث.

* * *

(٢)

استيقظ مناف قبيل الفجر، فرأى فاطمة قد استيقظت قبله بثوانٍ وهي تمسح عينيها الغارقتين بالدمع، وتتمتم بتعويذات لطرد كابوس، فسألها:

«ما بكِ؟»

تطلعت إليه وهي تحاول فتح عينيها وقد لاح فيهما بريق فرحٍ يضيء خلل الدمع. خمّن مناف أسباب فرحها، فلربما رأت ما رآه هو من حلم غريب. صدقَ حدسه حينما قالت وهي تحاول كتمَ ضحكتها:

«رأيتُ حلماً غريباً».

اعتدل بجلسته مُسنداً ظهره على المخدة وهو يحاول إخفاء ابتسامة فسّرتها فاطمة أنها ابتسامة سخرية فامتنعتْ عن البوح بحلمها، إلاّ أن منافاً راح يطمئنها حاثاً إياها على البوح، وحينما امتنعت قال لها:

«ما يضحكني هو أني رأيت حلما غريبا أيضاً».

«خير إن شاء الله».

رددت فاطمة وهي تتطلع إلى مناف بفضول. قال وهو يمسح وجهه بكلتا كفيه:

«رأيتُ سيدنا إبراهيم...».

وقبل أن يكمل راحت فاطمة تردد بخشوع:

«عليه السلام...»

تنحنح مناف ليطرد حشرجة واقفة في بلعومه، ثم أضاف بخشوع ودون أن ينظر إلى زوجته:

«بشّرني بأنك ستلدين صبيا اسمه...»

توقف محاولاً تذكر الاسم، ثم رفع صوته بفرحٍ:

«إيليا».

أجهشت فاطمة في البكاء، فضمّها مناف إلى صدره، مطبقاً شفتيه على مفرق شعر رأسها، محاولاً إخفاء دمعه الذي هطل بغزارة، غير أن حركات صدره فضحت حاله. رفعت فاطمة رأسها وتطلعت إليه ماسكة رأسه بكفيها. حاولت أن تؤكد صدق رؤياه بما رأته هي من حلم يكاد يتطابق مع حلمه إلا أنها توقفت بعد أن رأت دمعه وقد بلل لحيته وسال من أطراف شعراتها. تطلع كل منهما في عينيّ الآخر ليختصرا بنظراتهما تأريخاً من العِشرة الطويلة بكل إحباطها وسموّها. نظرته كانت تدلّ على الشعور بالذنب وطلب المغفرة، ونظرتها تدل على تسامح الأم لابنها.

عشرون عاماً مضت على زواج مناف من ابنة عمه الشهيد منصور، تخللها الكثير من الجروح التي لم تندمل في روح فاطمة إلا هذه اللحظة التي رأت فيها منافاً وهو يبكي. لم تتشفَ به، بل استيقظ في روحها حنان أمّ، وانتماء إلى الدم الهاشمي. سامحته وعذرته، مستكينة إلى قدرها، راضية بنصيبٍ، حرمها من أعزّ ما تتمناه أنثى.

منذ البدء لم يكن مناف راغباً في الزواج من فاطمة، فهي كما ردد أمام أبيه بمثابة أخته، إلا أنه لم يصمد أمام أصرار أبيه الذي أصبحت له الكلمة الفصل في كل شؤون العائلة بعد وفاة هاشم، ليس لأنه الذكر الوحيد في العائلة بل لأن ما كان يحمله من ثقلٍ تركه له هاشم بسبب عناده ضد الحياة، أو حماقاته الثورية كما كان يردد بعض ممن عرفوه، جعل الجميع يشفق على ناصر وأصبحت طاعته رداً لما يقوم به في مقارعة الحياة والتصدي لسهام أعداء كثيرين، وجهت إليه حقداً وثأراً لذنب لم يرتكبه.

فاطمة هي الأخرى لم تكن راغبة في مناف، ليس لأنه بمنزلة أخيها فحسب، بل لأنها تكبره بثلاث سنوات، غير أن لناصر رأياً لا يجرؤ أحد على معارضته، وكيف ترفض طلب عمّها وقد كانت مُدللته التي

آثرها بكل شيء على بناته الثلاث، فلم يُشعرها يوماً بمرارة اليتم.

قضى مناف شهرين كاملين بعد زواجه من فاطمة دون أن يستطيع الاقتراب منها. حاول جاهداً أن ينهي المهمة إرضاءً لرغبة أبيه ليس إلا، فهو لم يعر اهتماماً لما سوف يقال عنه، ففحولته لا تحتاج إلى إثبات، وهذا الأمر يعرفه كل من عرف منافاً، فقد كان زبوناً مواظباً للماخور الذي يقع على طرف المدينة الغربي، وله من المحظيات الكثيرات اللواتي كن يتناقلن أخباره في ما بينهن، مرددات بعد كل جولةٍ معه «فرخ البط عوّام»، فهو حفيد هاشم الذي كان يُشبع وهو في شيخوخته أربع نساء وتبقى عيناه زائغتين كلما مر أمامه خيالُ امرأة.

... لكنه كلما كان يقترب من فاطمة أو يهمّ بملامسة جسدها، يشعر بأنّ تَيْهورَ ثلجٍ قد غطّاه. يغمض عينيه ويستحضر جسد إحدى عشيقاته، مردداً في سرّه ما تردده المومسات من كلمات بذيئة عسى أن يقدح حجر الشهوة في جسده. يعود من الحانة ثملاً، مهتاجاً كفحلِ جاموس عصبت عيناه، لكن محاولاته كلها لم تجدِ نفعاً، حتى يئس من الأمر. أدركت فاطمة ذلك وقد أراحها الأمر وأنقذها من استسلامٍ لا تتمناه، فقد كانت هي الأخرى تنكمش على نفسها مثل فأرة خائفة كلما اختليا معا، ولم تستطع النوم إلا بعد أن يرتفع شخير مناف. اتفقا على إخفاء الأمر والتصرف أمام العائلة وكأن كل شيء على ما يرام.

أدركَ ناصر بخبرته الطويلة عجز ولده عن القيام بالمهمة، على الرغم من المنديل الملطخ بالدم الذي قُدم إليه ليلة الزفاف. انزوى بولده وسأله عن السبب فأنكر مناف، مؤكداً على أن كل شيء على ما يرام، فارتفعت ضحكة ناصر بخبث، ماسكاً منافاً من كتفه، مردداً بصوت هامس:

«اسمعْ مناف.. أنا ابن هاشم.. هاشم الذي لم يدانهِ ثور في فجولته...»

حاولَ مناف أن يفتعل الغفلة ويوحي لأبيه بأنه لا يعي ما يقصده، إلاّ أن ناصراً لم يتركَ له مجالاً للهرب من نظراته الصقرية، إذ قال بصرامة:

«اسمعْ.. أنا أشمُّ رائحة العذرية عن بعد النظر.. وأميّز الباكر من بين آلاف النسوة».

أحنى مناف رأسه معترفاً له بخجلٍ بالحقيقة، فلم يزد اعترافه يقين أبيه شيئا.

في المساء وقبل أن يذهب ناصر إلى مخدعه، دعا منافاً وانزوى به في القبو. قدّمَ إليه كأساً مليئة بشراب أحمر، آمراً إياه أن يعبّها دفعةً واحدة. تردد مناف غير أن نظرات أبيه الصارمة جعلته يُدلقها في جوفه «حتى لو كان سمّا» كما ردد مع نفسه. تطلع في عيني أبيه بنظرات استفسار وهو يتمطق بطعم سائل غريب له لزوجة الدم. أدرك ناصر ما يدور في ذهن ولده فقطع شكّه بالقول:

«عصير رمّان بالزنجبيل».

في اليوم التالي كان ناصر جالساً على الحصير وعيناه ترقبان مفعول الأكسير، وأنفه يتفحص الهواء محاولاً التقاط رائحة العذرية. حينما جاءته فاطمة بالفطور، تطلع إليها بخبث فسقطت الصينية من يدها واندلق الشاي على فخذيه. غطّت وجهها بكلتا كفيها وهرعت إلى المطبخ، بينا ضحكة ناصر انطلقتْ مجلجلة يرتطم صداها بجدران البيت.

خمس سنوات مرت على زواجهما والكل ينتظر بقلقٍ صبياً يحمل اسم العائلة، إلاّ أن اليتيمة التي جاءت لتفرح لم تجد للفرح مطرحاً كما كانت النسوة تردد وهن ينظرن بشفقةٍ إلى فاطمة، التي هي الأخرى آمنت بما تردده النسوة فصارت العبارة عزاءً لها ترددها بأسى وهي ترفع رأسها إلى السماء بعتاب لرحيمٍ أغلق باب رحمته بوجهها، حتى أغلقت هي أيضاً بابَ الرجاء. اقترحتَ على مناف، وهي تجذّ على نواجذ كبريائها أن يتزوج بامرأة ثانية، فوجدَ مناف الفرصة التي كان ينتظرها، وهو على يقين بأن الكل سيعذره ويعطيه الحق بذلك، وفعلاً وجد التشجيع من أخواته على الإقدام لمفاتحة أبيه في الأمر.

«لن يحدث هذا وأنا على قيد الحياة».

قال ناصر والشرر يتطاير من عينيه. وقف مناف منذهلاً أمام ردة فعل أبيه التي لم يكن يتوقعها، فالزواج مثنى وثلاثا ورباعا لا يقرّه الشرع فحسب بل هو عرف سائد ومفخرة بين الرجال وليس بعيداً عن العائلة، فقد كان هاشم مزواجاً حتى آخر أيام حياته وكانت فحولته أغلظ أيمان يردده الرجال والنساء حينما يختلفون على أمر:

«وحق هاشم الفحل».

هكذا كانت المرأة تقسم وهي تتلمظ وبريق شهوة في عينيها، حينما لم يصدقها أحد، وبهذا القسم يُطوى الشك، فما الذي يدفع ناصراً إلى مخالفة أمر أقره الشرع والعرف. كاد مناف يبوح بما كان يدور في ذهنه دفاعاً عن نفسه، إلاّ أن أباه قطع عليه سبيل الاعتراض، إذ راح يؤكد:

«لن أرى القهر في عيني فاطمة مادمتُ حيا».

«ولكن فاطمة نفسها لا تعترض على هذا...»

قال مناف بصوت واطئ، فجاءه الرد حاسماً:

«اخرسْ».

كلمة واحدة أخرسَت الجميع فعمّ صمت لا يقطعه سوى صوت الأنفاس ومحاولة كل فرد أن يبرئ نفسه من الاشتراك في المؤامرة. ولكي يعطي ناصر انطباعاً للجميع بأن ما يقوله غير قابل للنقاش ولن يسمح لأحد أن يفكر في ذلك، مسكَ منافاً من كتفه وراح يهزّه بقبضة قوية وأرنبة أنفه ترتعش من الغضب وهو يردد بصوت عال يسمعه الجميع:

«فاطمة.. هي كل ما تبقى من رائحة أخي منصور.. فما عاشَ مَن يجرح كبرياءها.. ومن يفكّر في أن...»

أجهش ناصر بالبكاء منهاراً فارتفع بكاء كلّ من استمع إلى ما قاله، ليس من العائلة فقط بل حتى الجيران الذين كانوا يصغون باستغراب إلى صوت ناصر الذي لم يسمعوه يوماً مرتفعا. شعر مناف بالندم وهو يرى قامة أبيه الصلبة تتفتت كشمع ويسمع هدير الغضب الذي تفجر في

روحه، وهو الذي لم يرَ أباه باكياً في أشدّ الظروف حلكةً، ولم يكن يتوقع قطّ أن أباه يخفي في داخله كل هذا الحزن على مقتل أخيه. ركع أمامه، بل حاول أن يسجد ويقبل قدميه معاهداً إياه بألّا يفتح سيرة الزواج مرة أخرى وبأنه سيضع فاطمةً في عينيه. دقائق من الزمن كان فيها الصمت ينشر جلالاً ومهابة. كاد الأمر يطوى بعد أن اطمأن ناصر إلى تعهد ولده وزال عنه الغضب لولا ما حدث من سميّة، فقد اقتربت من أبيها ماسكة كفيه بكفيها، مطأطئة رأسها باحترام وهيبة ثم خاطبته بصوتٍ هامسٍ، لتبرير تشجيعها لأخيه على الزواج:

«يا أبي.. المثل يقول.. ابن ابنك لك وابن ابنتك لا.. ولابد من صبي يحمل اسم هاشم».

لم تكن سميّة تتوقع ردة فعل أبيها على ما قالته. عاد الغضب فجأة إلى ناصر فصرخ بصوت تردد صداه بجملة لم يجرؤ أحد على نطقها، اذ قال:

«ليذهب هاشم إلى جهنم».

ولكي يؤكد أن ما قاله ليس هفوة غضب أو زلة لسان، أضاف:

«لا أريد أن أسمع سيرة هذا الرجل ثانيةً».

لم يكن رضوخ مناف للأمر الواقع إرضاءَ لأبيه وإنْ بدأ كذلك، إلا أنه ومع مرور الوقت أدرك أن قرار أبيه كان صائباً تماماً، فابنة عمه تحمل من الطيبة والكبرياء حدّاً يبدو إخذالها والوقوف إلى جانب ظلم القدر ضدها ضرباً من الانحطاط الخلقي لا يجرؤ على فعله أكثر الرجال خسّة ونذالة. وهكذا.. تحوّل حبّه إليها حالة من القداسة والهيبة منعتاه حتى من الاقتراب منها وملامسة جسدها بشهوةٍ أو رؤيته وهي عارية، إذ كان يراها وهي تخطو أمامه هالة ضوئية تفضح غبار العالم وتهاب الأدران الاقتراب من دائرتها، لا يلمسها من أبطلتْ وضوءَه أنفاسُ الخيانة والخداع، أو لامست كفّه نهد عاهرةٍ.

كان مناف يعود إلى البيت روحاً خالصة بعد أن يودع جسده في مخدع

عشيقة أو مومس، منظفاً فمه بمسواك الذِكر، باصقاً كل مفردات الشهوة التي أدمن ترديدها في مخادع العشيقات والعواهر، مكتفياً من فاطمة بقبلة يطبعها على جبينها وهو مغمض العينين، تستسلم إليها فاطمة بخجل عذراء وبحنوّ أمومة فيّاض.

لم يشكُ مناف يوماً من اختلال علاقته الزوجية أو يتذمر من حرمانٍ بل على العكس تماما، كان سعيداً بشعوره هذا، وهذا ما جعله مترفعاً على ما تفرضه النفس المكبوتة من حسدٍ وانكسار.

لم يلم أباه أو يذكّره بما دار بينهما سابقاً، حينما أعلن أبوه عن نيته الزواج من امرأة ثانية بعمر أصغر بناته، وحينما هرعت إليه أخواته وأمّه طالباتٍ منه ثنيَ أبيهم عمّا يسعى إليه، نهرهنّ بشدة محذراً إياهنّ من استخدامه حجة ضد أبيه.

تزوج ناصر بمباركة صادقة من مناف وبقبولٍ حذر من بناته وباستكانة من زوجته الأولى، وكان سعيداً لسعادة أبيه على العكس من أخواته اللواتي كنّ يضمرن في دواخلهن نفوراً من زوجة أبيهن، ساخراتٍ في ما بينهن من تصابٍ يبالغن في تصويره، غير أن هذا النفور تلاشى وحل محله إعجاب بحكمة أبيهن حينما أعلن أمامهن عن حمل زوجته فعبقت في فضاء البيت رائحة فرحٍ طابت لها النفوس.

لم يكتمل فرح العائلةِ فقد توفيت زوجة ناصر الشابة بعد أن وضعت وليدها، فأضافت يتيماً آخر إلى العائلة، وهذا ما جعل فاطمة تردد في ما بعد وهي تهز مهد محمد «وكل يتيم لليتيم حبيبُ». ودون أن تأخذ رأيَ زوجها طلبت من عمّها أن تقوم بحضانةِ محمد، فهي الأحق من غيرها باحتضانه. أبكت كلّ من سمع كلامها، وزاد كلامها منافاً فخراً بزوجته.

انتبه مناف فجأة إلى أنه نسي أن يسأل فاطمة عن حلمها، فسألها وهو يمسح دموعها بإبهاميه، ماسكاً وجهها براحتيْ كفيه، متطلعاً في عمق عينيها بجرأةٍ نسيها منذ اندحار الشهوة أمام يقظة الروح. حاولت فاطمة أن تتغافل عن سؤاله، فقد خشيت ألّا يصدقها حينما تخبره بأنها رأت

الحلم نفسه، وحينما ألحّ عليها، قالت:

«رأيتني مستلقية على ظهري وسيدتنا سارة تضع يدها على بطني.. وفجأة تحرك شيء في أحشائي فاستيقظت وأنا أشعر بالغثيان...»

ساد صمت بينهما، سوى ما فاض من دمعٍ لم يستطيعا إخفاءه فتركاه يجري معبرا عما يعجز عنه اللسان، وكل منهما يرى الآخر بعينِ روحه. استلقى مناف على ظهره مادا ذراعيه باتجاه فاطمة التي أدركت ما يفكر فيه فارتعش جسدها، واحمرت وجنتاها خجلاً، حاولت تداركه فقالت:

«سأقوم أعمل لك فطوراً...»

ثم أضافت لكي تبرر تهربها:

«لا أعتقد أننا نستطيع أن ننام».

وجد مناف في كلامها ما ينقذه من إحراج، فهو الآخر لم يكن على استعداد لممارسة الفعل الذي لم يمارسه مع فاطمة منذ أكثر من سبع سنوات، فهب واقفا وقال:

«سأساعدك».

ارتدّت فاطمة إلى الوراء وهي تضيء الشمعةَ في الصالة، إذ رأت محمداً يجلس منكمشاً على نفسه في الركن. ركضت نحوه، يتبعها مناف، وضمته إلى صدرها، وحينما سألته عن سبب جلوسه هنا في الظلمة، أجاب وهو يرتعش:

«لا أريد أن أنام.. أخاف من...»

جلست جنبه على الكنبة وجلس مناف إلى الجهة الثانية. ضمّته إلى صدرها وراحت تمسد شعر رأسه وهي تنظر إلى مناف باستغراب، حتى هدأت أنفاسه فسألته:

«ممّ تخاف؟»

«رأيت حلماً».

قال بصوت واطئ، فراحت فاطمة تردد:

«خير إن شاء الله.. خير...»

وراحت تطمئنه كي تشجعه على البوح بما رآه. قال:

«رأيت جدي هاشم...»

توقف قليلاً وهو يتنفس بصعوبة، ثم أضاف وهو يكاد يختنق:

«قال لي سيكون لك أخ...»

ارتفعت ضحكة مناف وهو يضمّ أخاه الصغير، مربتا على كتفه، بينا عاد سيل الدمع يتدفق من عينيْ فاطمة، وهي تردد:

«الله كريم.. الله كريم».

انتبه محمد إلى ما تقوله فاطمة فسأل معترضاً:

«كيف يكون لي أخ وأنا ما عندي أب ولا أم؟»

فردّت فاطمة وهي تكابد حشرجة صوتها:

«ربما سيكون لك أخ من ماما فاطمة».

نطّ محمد فرِحاً متعلقاً برقبة فاطمة متطلعاً في عينيها، منتظراً تأكيداً على كلامها، فهزّت رأسها دونما وعي منها لتؤكد له.

«سيكون اسمه هرون».

قال محمد وهو يتطلع إلى أخيه منتظراً موافقته، فسأل مناف باستغراب:

«ولماذا هرون؟»

ردّ محمد:

«هذا ما أخبرني به جدّي.. في الحلم».

إنْ كان مناف يشكّ بكل شيء فلن يشكَّ بفحولته فهو يجربها بشكل يكاد يكون يومياً، غير أن هذا الهاجس كان هو الذي يسيطر عليه هذا اليوم، حتى جعله يسهو كثيراً ويخطئ في صفّ الآجرّ أو ربط خيط البناء، وكادت تحدث كارثة حينما أفلتت آجرة من يده بعد أن رماها الصبي مساعده. لم يمدّ يده لتلقفها في الوقت المناسب، فسقطت على مسافة بوصة أو أقل من رأس الصبي. وحينما نبهه مساعده إلى إعوجاج الجدار، شعر بالخجل فتحجج بشرود ذهنه بسبب مشاغل الحياة والديون

التي تراكمت عليه. توقف عن العمل قبل الوقت المحدد، لكنه لم يذهب إلى البيت كعادته بل توجه إلى سوق المدينة الكبيرة.

شيء في داخله لا يعرف كنهه يدفعه إلى التأخر في الذهاب إلى البيت، خوف غريب من مواجهة فاطمة، خوف من مواجهة جسده، خوف من كسر حالةٍ ارتكن هو وفاطمة إليها فصارت عادة. حاولَ أن يستهين بما رآه في الحلم، غير أن رغبة فاطمة وتصديقها يجعل من المواجهة أمراً لا يمكن الفرار منه، فالأمر بالنسبة لفاطمة طوق النجاة وإن كان طوقاً وهمياً، ولا عذر له من ألّا يحقق لها ذلك أو حتى لو يوهمها بالأمل.

غادرَ المقهى بخطى ثقيلة. راح يتطلع إلى واجهات المحلات ساهياً. وجد نفسه واقفاً أمام محل بيع العصير. تذكّر عصير الرمان بالزنجبيل الذي أعده إليه أبوه في تلك الليلة التي استطاع فيها أن يفضّ بكارة فاطمة. طلب كأساً فتطلع إليه البائع باستغراب حيث لم يكن مألوفاً أن يباع عصير الرمان بالزنجبيل، فاكتفى بكأس صغيرة من عصير الرمان، عبّها دفعة واحدة ومضى وهو يحاول أن يتذكر الفارق بين النكهتين.

في طريقه إلى البيت كان يشعر وكأنه مقدم على إختبارٍ قاس لابد من أن يخوضه بانتصار، حيث أن الفشل فيه قد يسبب انهيارا لشخصيته أمام فاطمة، وسيسبب لها جرحاً عميقاً، خاصة وأن حلم الأمس قد أعاد إليها الرجاء وأيقظ في نفسها الشعور بالأمومة، ذلك الشعور الذي ذوى منذ أكثر من خمسة عشر عاماً.

لا يدري أيّ ربّ سيدعو ليعينه على انجاز مهمته، ربّ العفّة؟ أم رب العاهرات؟، ودونما تردد أو شعور بالذنب اختار الربّ الثاني، فمهمته الليلة تتطلب أن يتوسلَ بالشياطين.

«ليت لفاطمة خبرةَ النساء اللواتي يعرفهن في استنهاض الهمّة وإيقاظ الميت.. لهانَ الأمر».

خطرت الفكرة في ذهن مناف، فراح يتخيل فاطمة تخرج من خدر

عفّتها وتمارس معه بجنون كما تمارس النساء الخبيرات بالشهوة.

في البدء شعر بالخجل، إلاّ أن دعاءه وصل إلى ربّ العاهرات فبعث شيطانه ليرمي حبله أنشوطةً حول عنقه... لا.. ليس أنشوطة، بل حبلٌ يُرمى إليه لإنقاذه من قرار البئر العميقة. رأى نفسه متمدداً على السرير وفاطمة تتلوى أمامه وتتعرى ببطء شديد، ليشرقَ نهدان استيقظ فيهما عنفوان الشباب وكبرياء الأنوثة. تنثر شعرها الفاحم الطويل فيتطاير في فضاء الغرفة، فيمتلئ الفضاء برائحة المسك. تحرك عجيزتها ونهديها، متلعة جيدها كزرافة. تتطلع إليه بعينين تفيضان بشهوة مجنونة. تدنو منه. تمدّ يدها لتفتح أزرار قميصه. تداعب شعر صدره بيد مرتعشة، تقبّله لاهثةً، وتنحدر شيئاً فشيئاً وشلال شعرها يتدفق على جسده. تمرر يدها على قضيبه وخصيتيه. تدلك بأصابع أربع من كفّها تحت خصيتيه. «أوووو.. يا ربّ العاهرات الرحيم كيف ألهمت فاطمة كلّ هذه الخبرة». تدبّ الروح في قضيبه فتتلقفه بفمها. تمتصّه بمهارة عاهرة خبيرة. ينتصب في فمها. تخرجه منتصباً، غارقاً في لعابها، بارقاً بالشهوة، يكاد يمطر سيلاً على الأرض اليباب، وفاطمة تتطلع برهبةِ عابد إلى ربّها الجبار.

«تعالَ حبيببي.. تعال.. خذني.. خذ جاريتك.. خذ عاهرتك.. ادخلني.. نك كـ...»

أفاق مناف من وهمه وقد شعر بسائل لزج يسيل على فخذه.

حينما وصل البيت وجد فاطمة تقف خلف الباب بانتظاره. ضمّها إليه فشمّ عطراً لم يألفه. تطلع إليها فنظرت إليه بنظرة غريبة. أدرك أن الربّ قد استجاب لدعائه.

* * *

(٣)

«إيليّا اسم مقدس.. ويعني الله ربي».

قال الشيخُ نوفل، وكعادته راح يُطنب في الحديث عن أصل الاسم، وعن النبي إيليّا وما ورد في التوراة من حكايات عنه، بينا كان مناف يتطلع إليه بملل، حتى قال بعد أن استنفد كل طاقته على افتعال الإصغاء إلى حديث لا يعنيه:

«يا شيخ نوفل..»

لم يتوقف الشيخ نوفل عن الحديث متجاهلاً أعتراض مناف:

«كان إيليّا طويل القامة.. قويّ البنية وذا عضلات مفتولة.. وكان يسابق الخيول في جريها.. وكان يُلقّب بالتشبي...»

توقف قليلاً وقبل أن يقول مناف شيئاً، أضاف الشيخ نوفل:

«هل تعرف ماذا تعني التشبي؟»

هزّ مناف رأسه نافياً ومستسلماً لصمته، فأجاب الشيخ نوفل:

«تعني الغريب.. فقد كان إيليّا زاهداً.. غريباً بين أهله.. أحبّ الله وأبغض العالم وكل ما فيه.. كان كارهاً للشهوة وما يشغل الناس.. اعتزل وعاش في البرية...»

فجأة انتبه الشيخ نوفل إلى وجود مناف، فسأله:

«ولكن لماذا تسأل عنه؟»

شعر مناف بالارتياح، بعد فترة إصغاء، كان جسد مناف خلالها يتحرك حركات لا إرادية تنم عن القلق ونفاد الصبر:

«يا شيخ نوفل.. أمس رزقني الله بصبي...»

وكيلا يعطي للشيخ نوفل فرصة لاستلام طرف حديث لا يعرف متى ينهيه، استأنف حديثه متجاهلاً حتى كلمات التبريك الذي راح الشيخ نوفل يرددها:

«كنت قد نذرت نذراً إذا رزقني الله صبيا سأسميه إيليّا».

«بارك الله فيه...»

ردد الشيخ نوفل وراح يعيد ما ذكره في بداية حديثه:

«إيليّا اسم مقدس.. ويعني الله ربي...»

غير أن منافاً تشبث بردائه وقال:

«يا شيخ.. إيليّا اسم غريب على أسماعنا...»

اعترض الشيخ نوفل على ما قاله مناف، إلاّ أن منافاً حسم حديثه بسؤال:

«يا شيخ.. جئت أسألك عن الكفّارة التي عليّ دفعها للنكث بالنذر».

تطلع الشيخ نوفل إلى مناف بنظرات مخيفة من عينيه اللتين لا يظهر منهما إلا القليل فقد غطاهما جفنان مجعدان، ثم قال بثقة:

«ولمَ الكفّارة؟.. بإمكانك أن تسميه بما يقابله من أسماء في العربية... وليكن إلياس..»

هزّ نوفل رأسه بخيبة أو عدم قناعة بما اقترحه الشيخ نوفل الذي أدرك ما يدور في ذهن مناف، فاستدرك:

«أو ليكن... علي».

قفز مناف فرحاً وراح يقبل رأس الشيخ نوفل، فأطلق الشيخ ضحكة لا تخلو من سخرية. أعاد مناف سؤاله:

«وماذا عن كفّارة الحنث بالنذر؟»

هزّ الشيخ نوفل رأسه وهو يربت على كتف مناف، وقال:

«لا كفّارة عليك... فعليّ هو إيليّا».

ثم أضاف بصوت واطئ:

«الأسماء لا تغيّر من أقدار بني آدم شيئاً... بل..»

لم يدع مناف الشيخ نوفل يكمل استدراكه، فهزّ رأسه موحياً للشيخ بأنه استوعب ما قاله وغادر فرِحاً، بينا كان الشيخ نوفل ينظر إليه بنظرات إشفاق.

كان محمد يصغي باهتمام إلى ما دار من حديث بين أخيه والشيخ نوفل، محاولاً التقاط وحفظَ كل جملة يعتقد أن أخاه لن يستطيع استيعابها، فقد عرف الشيخ نوفل جيدا، لا يقول شيئاً دون أن يقصد أشياء أخرى، وما يخفيه أكثر مما يُظهره، لذا فحالما غادر أخوه، وضع القصبة جانبا وسأل الشيخَ بتهذيب مبالغ فيه:

«شيخي.. ماذا يعني الغريب بين أهله؟»

لم يفاجأ الشيخ نوفل بسؤال محمد ولم ينزعج من إنصاتهِ للكلام، بل على العكس كان وهو يتحدث إلى مناف يريد إيصال معلومة إلى أسماع محمد. رد على سؤال محمد دون أن يلتفت إليه:

«الغريب بين أهله هو بطل الحكاية لكن لا أحد يذكره».

قطّب محمد جبهته محاولاً فهم ما قاله الشيخ الذي أدرك ذلك، فقال موضحا:

«لكل حكاية بطل موقعه فيها كموقع القطب من الرحى.. لكن هناك حكايات تغتال بطلها خوفاً منه.. أو محاولة لرسم نهاية ليست النهاية المقدرة.. وهناك حكايات تتجاهل بطلها عمداً.. البطل في مثل هاتيك الحكايات غريب.. لكن..»

توقف الشيخ نوفل إدراكاً منه بأن ما قاله صعب على محمد استيعابه، وكذلك محمد لم يلح بطلب التوضيح فقد حفظ الكلام كما هو، مؤجلاً فهمه إلى القادم من السنوات. عاد الشيخ نوفل كأنه تذكر أمراً فراح يحاول أن يستدرج محمداً ليعرف منه سرّاً، فسأله:

«قل لي يا محمد.. ما حكاية النذر الذي وعد مناف بتقديمه إذا جاءه صبي؟»

ردّ محمد دونما تفكير:

«وعد مناف بتقديم نذر إلى سيدنا إبراهيم الذي بشّره بصبي اسمه إيليّا».

أغمض الشيخ نوفل عينيه مقطباً ثم هزّ رأسه وعلى شفتيه ابتسامة لم يدرك محمد مغزاها.

* * *

(٤)

لم تمضِ على انتهاء مدّة العدّة التي أقامتها بهيجة في البيت سوى بضعة أيام، حتى أعلن محمد قرار الزواج. كان في نيته أن يكون حفل زواجه مقتصرا على عدد قليل من الرجال لغاية الإشهار فقط، إلاّ أن الخبر انتشر في المدينة بشكل غير مسبوق، وأصبح حديث الأسواق والمقاهي. فتح شهية حتى ضعاف الخيال على اجتراح قصص وحكايات عن علاقة محمد ببهيجة مذ كان تلميذاً في تكية الشيخ نوفل، وعادت إلى واجهة الحديث حكاية المخطوطات وسرّ اختفائها بعد موت الشيخ، والثروة التي هطلت على محمد فتحول فجأة من فقير يعمل حارساً لبستان الحاج رضا إلى مالك للبستان، ومن صبي «غجري» ضائع لا يعرف غير العزف على الشبّابة إلى وجه من وجوه المدينة ويحسب له التجّار والإقطاعيون ألف حساب، بل راح البعض ينبش في الملفّات المغلقة حول الغموض والالتباس اللذين أحاطا بقضية مقتل الشيخ نوفل.

أما النساء فقد أصبح اسم بهيجة علكاً في أفواههن، فازدهرت جلسات سمرهن عند الأبواب وعلى سطوح البيوت بالقصص التي تتناقلها الألسن، وكلّ منهن تضيف إلى ما سمعته من خيالها فتمتدّ جلساتهن حتى الفجر، وعادت الأسئلة عن أصل بهيجة ونسبها وعن عدم إنجابها من الشيخ نوفل تبحث عن إجابات بالمنطق واللامعقول، فانفلت الكلام من عقال عفته وانطلقت الألسن غير آبهة للمفردات التي كانت حتى الأمس حبيسة قاموس السر، والإيحاءات المكتومة في المخادع صارت تتباهى بجهرها.

فاطمة التي لم يسمع أحد صوتها يوماً مرتفعاً، انطلق لسانها مدافعا بشراسة عن محمد وعن بهيجة، ليس ضد من يضمر لمحمد الضغينة فحسب، بل لأول مرة يرتفع صوتها بوجه مناف حينما حاول منعها عن الخروج من البيت، والتلاسن مع نسوة الحي بلغةٍ كان يظن أنها لا تجيدها أو حتى لم تسمع بمفرداتها. صرخت بوجهه غاضبةً، معلنة له دون خوف أو خجل بأنها كانت تعرف كل شيء عن علاقة محمد ببهيجة ومنذ بدايتها، وأنها نفسها قد ساعدتهما على اللقاء وقامت بنقل رسائلهما المتبادلة. وقف مناف متسمراً في مكانه بذهولٍ وهو يصغي إلى ما كان يدور في بيته دون علمه، فتفوه بكلامِ الغافل عن الماء الذي كان يجري تحت التبن ولا يعلم بذلك. تطلعت إليه فاطمة بغضب وهمّت تقول شيئاً، إلا أنها صمتت زافرةً حسرة طويلة، أدرك مناف مغزاها فلم يجرؤ على التمادي في الكلام.

لم يكن محمد بالنسبة إلى فاطمة ابن عم قاسمها الشعور باليتم والحرمان، أو ابنا منح صدرها دفء الرضيع الذي حلمت به عشرين عاماً، بل فوق هذا كان العهدَ الذي قطعته أمام عمّها عرفاناً بالجميل الذي طوّق عنقها، وفي أقدس لحظة وأشدها رهبة، فقد كانت هي الوحيدة التي اختارها ناصر من أهل بيته أن تشهد لحظات احتضاره، وقبل أن يغمض عينيه ويسلّم الروح لبارئها أوصاها أن ترعى محمداً، فعاهدته على ذلك. تطلع إليها بعينين دامعتين وابتسامة ملائكية تجمّدت على شفتيه حينما خمدت أنفاسه وكفّه متشبثة بكفيها حتى احتاجوا إلى قوة رجلٍ كي يحرر كفها من كفي الميت المتخشبتين. لذلك كان دفاع فاطمة عن محمد شرساً حتى بوجه أقرب الناس إليه، دفاعَ أمّ لا يهمّها إن كان ابنها على خطأ أو صواب، فكيف وهي ترى ولدها وقد أحاطه الأعداء من كل جانب ولم يكن مخطئاً بحق أحد، وهي تعرف جيداً أن محمداً أحب بهيجة ولم يكن يعرف كيف يكون حكم القدر، ولا أحد كان يحسب أنها سترث يوماً عن الشيخ نوفل ثروةً، أسالت لعاب

الآخرين قبل أن تسيل لعاب محمد، فأشهروا عليه نصال حسدهم.

نهض الحاج رضا معلناً بحركةٍ استعراضية لفتت أنظار الحضور الذين جمعتهم خيمة كبيرة، أمرَ محمد بنصبها على عجلٍ بعد أن فوجئ بالعدد الكبير الذي هرع لحضور حفلة عقد القران، بأن لا أحد غيره يكون شاهداً على زواج «ابن الأخ» فارتفعت الأصوات مشيدة بروح الحاج الكبيرة وتسامحه الذي اجتاز حدود التوقع وانهالت عليه عبارات المديح والتكريم، حتى محمد نفسه شعر بشيء من الإحراج على الرغم من يقينه بأن الأمر لا يتعدى الاستعراض والتودد الكاذب الذي يخفي تحته نيّة مبيتة، فوقف أمام الحاج رضا وقد أحنى قامته بحركة تدل على الاحترام، مشيداً بحنو وكرم الحاج رضا.

وحده مناف، جالساً كان في ركن الخيمة كأن الأمر لا يعنيه، وكأن العريس ليس أخاه الصغير الذي تربى في أحضانه مذ كان عمره بضعة أيام. كان يتطلع إلى ما يدور أمامه وذهنه شارد، بعيداً، يدور في فلك الذكرى، مستنفراً قدرته على استجماع عبث الأقدار ليضعها في صفّ بناء الواقع، وكلما اصطفت الحوادث في أفق تفكيره وضعَ الفادنَ ليقيس استقامة بنائه، ظهر له اعوجاج البناء، فيعيد ترتيب الحوادث، ليحصل على النتيجة نفسها، وهكذا... حتى خطر في ذهنه أن العيب ليس في الآجرّ بل بخبرته كبنّاء، تعلمت يداه المهنة دون أن يتعلم عقله.

.. لكنّ ما رآه من احتفاء بمحمد جعله يتطلع إلى أخيه بنظرات يختلط فيها الزهو بالخيفة. لا يكاد يصدّق ما كانت الأقدار تخفيه، فها هو يرى أخاه الذي لم يتجاوز في نظره مرحلة طفولته بعدُ، يقف الآن بكبرياء وسط الخيمة، يستقبل المهنئين وأغلبهم من أعيان المدينة وتجّارها الذين حتى الأمس ما كان أحد منهم يفكر أن يتواضع ويتحدث معه، فترتسم أمامه صورة هاشم بما شاهده فيها أثناء طفولته أو بما سمع عنه من الأقربين والأبعدين، ولكن على الرغم من الصورة المشرفة التي رُسمت لهاشم حتى من أعدائه، إلاّ أن منافاً كان لا يريد لأخيه الصغير أن

يسلك مَا سلكه الجد العنيد من دروب وعرة، ليس لأن الزمان تغير وتغيّرت مفاهيم كثيرة ولم يعد الشرف والإيثار صيتاً يرفع من شأن صاحبه، بل لأن محمداً قطعة من روحه، وهو وإن لم يكن ولده إلا أنه يشعر به فلذة كبده، فكيف لها الصبي الهادئ المنطوي على نفسه أن يناطح هذه الثيران بقرونها التي قضت عمراً وهي تشحذها، وكيف له أن يتحدى ضمائر قتلها الجشع الذي توارثوه أباً عن جد، وكيف له أن ينتزع مكاناً من بينهم وكلهم يخفون تحت ثيابهم خناجر الغدر والثأر الذي لم يخفوه يوماً، وما ضاعت من أعمارهم لحظة لم يستغلوها لتحقيق ما تدفعهم إليه نفوسهم التي أعمتها الضغينة، فإن كان هاشم قد دخل المبارزة فرداً بمواجهة فرد، فكيف لحفيده الصغير أن يبارز جموعاً من الأعداء في ميدان طمره الوحل.

أفاق مناف من سرحانه على أثر نداء من الرجال يعلنون عن وصول إمام الجامع الذي سيتولى عقد القران. نهض لاستقبال الإمام، مؤجلاً هواجسه وهو يحاول رسم علامات البهجة على وجهه، متقدماً على الحضور الذين هرعوا لاستقبال الإمام، ومن بينهم من أسرع إلى تقبيل يده.

جلس محمد قبالة الإمام، وإلى يمينه جلس الحاج رضا، وجلس إلى يساره سلمان العجمي الذي حضر الحفل بملابس العمل مما أثار شيئاً من الامتعاض ارتسم على وجوه بعض التجار، بينا راح رجال الشرطة السريين يتهامسون بينهم وأعينهم تترصد العجمي بحقد. حاول بعض من المتملقين ثنيه عن فرض نفسه كشاهد ثانٍ على زواج محمد وبندية للحاج رضا، إلاّ أن محمداً زجر هذا البعض بشكل غير مباشر، إذ نهضَ لاستقبال العجمي، وبترحيب مبالغ فيه جعل البعض يشك بأنهما على اتفاق مسبق وبنيّة مبيتة، كمحاولة من محمد لإذلال الحاج رضا ولإرسال رسالة إلى الحاضرين، فحواها أنَّ له جيشاً من العمال والفلاحين وحزباً يقفان خلفه لو فكّر أحد منهم أن يتعرض إليه بسوء.

انتقل محمد للسكن في دار الشيخ نوفل التي أصبحت من أملاك السيدة بهيجة وفي نفسه غصّة نغّصت عليه فرحه، فقد سمع الكثير مما قيل عن هذا الزواج غير المتكافئ:

«تزوج من هي بعمر أمه».

«إن تراب قبر الشيخ نوفل لم يجف بعد».

«تزوجها طمعا بثروتها».

كما ردد الكثيرون وهم يشيرون بكلامٍ ملغوم بسوء النية، بل وبإتهامات خطيرة لو ثبت حرف واحد منها لكانت المشنقة مصير محمد، لكن ما آلمه أكثر هو موقف مناف الذي سخر منه حينما اقترح محمد عليه الانتقال هو وعائلته للسكن معهما. كان ردّ مناف قاسياً إذ اتهمه بأنه يسعى لاستغلال الأرملة الغنية لبناء مجد تافه له أو الانتقام من أشخاص لا ذنب لهم سوى أن الله رزقهم. حاولت فاطمة التقريب بين الأخوين وقد استطاعت أن تقنع منافاً بأن ما فعله محمد لا ينافي الشرع ولا التقاليد، وليس من الحق أن يتهم أخاه بأنه يحاول استغلال الأرملة، فهي تعرف جيداً أن محمداً كان يحب بهيجة قبل أن ترث ثروة الشيخ نوفل.

«من كان يعلم أن الشيخ نوفل ينام على كل هذه الثروة.. وهو الدرويش الذي عُرف ببخله وكتمانه...»

حجة مقنعة لم تترك لمناف مجالاً للإعتراض عليها، فعبّر عن رضاه بتقديم التهنئة لأخيه. قام بخلع خاتم الفضة الذي ورثه عن أبيه عن هاشم، عن بنصره، وألبسه لمحمد، فانحنى محمد مقبلاً كفّ أخيه بينا كانت فاطمة تحاول أن تخفي دموعها وهي تتطلع إليهما، غير أن منافاً عاد إلى عناده الهاشمي فأعلن بأن رضاه لا يعني أنه قد تقبل الأمر، لذا فقد أقسم بأنه لن يدخل دار بهيجة مهما كان الأمر.

لم يمكث محمد بعد زواجه سوى شهرٍ وبضعة أيامٍ حتى أخبر أخاه وفاطمة بأنه مزمع على رحيلٍ إلى مدن الساحل الشمالي البعيد، وقد

يمكث هناك بضعة أشهر، وحينما سأله أخوه عن الهدف من سفره، أجاب محمد بهدوء وثقة:

«لغرض التجارة».

تطلّع مناف بنظراتٍ غامضة ولكنها تدلّ على الريبة، بما يسعى إليه محمد. أراد أن يعترض إلا أنه توقف هازّاً رأسه، ولسان حاله يقول «فات الأوان.. ولم يعد الاعتراض مجدياً».، خاصة وأنه قد تيقن من نوايا محمد وخططه. سألتْ فاطمة:

«وهل ستترك عروسك وحدها».

ارتفعت ضحكة محمد، وهو يردد عبارة مبهمةً، مرت دون أن يلتفت إليها مناف أو فاطمة:

«لبهيجة براثن حادة... تستطيع بها الدفاع عن نفسها».

* * *

(٥)

أصرّ مناف على الحفاظ على نسق حياته السابق، ملتزماً بالعهد الذي قطعه مع نفسه، برغم توسل محمد به أن يترك مهنته المتعبة بعد هذا العمر الذي أفناه فقيراً، وليعمل مشرفاً على تسويق محاصيل البستان. كذلك حاولت فاطمة ثنيه عن عناد غير مبرر، فنهرَها بغلظةٍ، متحججاً بأنه لا يعرف أية مهنة غير البناء، وحينما اعترضت على تبريره متوسلة به أن يفكر على الأقل بمستقبل ولدهما، صرخَ غاضباً:

«أنا لا أمدّ يدي إلى مالٍ لا أعرف مصدره».

غير أنه مقابلَ رفضه العمل بأموال بهيجة، لم يمنع زوجته من زيارتها متى شاءت، بل كان أحياناً يحرّضها على المبيت عندها في غياب زوجها:

«أيّا كان أصلها فهي الآن فرد من أفراد العائلة».

كان غيابُ محمد فرصةً لفاطمة لعقد صداقة متينة مع بهيجة، صداقة وصلت حدّ أنها أوصت بهيجة بتبني عليّ لو ماتت قبلها، لكن على الرغم من هذه الأخوّة والثقة المتبادلة، إلا أنها لم تستطع معرفة شيء عن أصل بهيجة ومن أين جاءت وما شكل العلاقة التي ربطتها بالشيخ نوفل، وكلما همّت بالسؤال أو خطر في ذهنها أن تسأل، كانت بهيجة تغيّر مسار الحديث وتنزلق من شرك السؤال مثل الزئبق وكأنها تعرف ما يدور في ذهن فاطمة. تكرر الأمر مراتٍ عدة، حتى أثار الشك في نفس فاطمة، متيقنة بأن هذه المرأة ليس لها من جنس البشر غير شكلها الخارجي وأنّ ما سمعته عنها من شائعات لم تصدر عن فراغ، فترتعب

حيناً متوجسة خيفة على محمد من هذه «الجنية» التي تعرف ما يدور في الغيب وتشمّ رائحة الفكرة قبل أن تتجسد كلاماً، لكنها تتخلى عن هواجسها لاعنة الشيطان في سرّها على أثم الظن حينما تتيقن من الحب الكبير الذي تكنّه لمحمد والتواضع والطيبة التي تتعامل بها حتى مع خادمتها، والذي زاد من سكينتها وطمأن روحها هو التعلق الكبير الذي أبداه عليّ بها ومنذ أول لقاء بينهما، فكان كلما صحبته لزيارة بهيجة، يهرع إليها راكضاً، ما أن تفتح لؤلؤة الباب، مرتمياً في حضنها فتضمّه بهيجة إليها بشوقٍ ومحبةٍ لا شك فيهما، متمتمةَ بأدعية وتعاويذ لم تسمعها فاطمة من قبل، فيرقد في حجرها باستسلام المطمئن وهي تردد في أذنه بصوت عذبٍ تنويماتٍ ليست كالتنويمات الشائعة بين الأمهات، حتى أنّ فاطمة طلبت منها مرة أن تكرر التنويمة لتحفظها بعد أن أغاظها وأثار غيرتها ما سمعته من علي وهو يعلن أمام بهيجة عن ملله من تنويمة (العدو العليل الذي يسكن البراري) والتي كانت فاطمة لا تعرف غيرها. ضحكت بهيجة من طلب فاطمة وحاولت أن تقلل من شأن الأمر إلاّ أن إلحاح فاطمة أجبرها على ترديد إحدى تنويماتها، فلم تمضِ سوى بضع ثوانٍ حتى مال رأس فاطمة على كتفها وهي جالسة، واستغرقت في النوم.

كذلك مناف، كان سعيداً بالعلاقة التي جمعت زوجته ببهيجة على الرغم من أنه كان حذراً جداً في التعبير عن سعادته، بل كان يتهرب من السؤال الذي تطرحه هواجسه عن سرّ التغيير الذي طرأ على زوجته منذ أن توطدت علاقتها ببهيجة. لم تعد فاطمة تلك القطة العمياء التي تنكمش على نفسها كلما لامستْ جسدَها كفّ مناف أو سمعت منه كلماتِ توددٍ مصحوبة بوميض شهوة في عينيه، بل تحولت بشكل مفاجئ إلى لبوة شرسة تقتحم غابة جسده. تجيد المراوغة واستدراج اللحظة. تصول وتجول على مواقع الشهوة بخبرة ومهارة، كأنها صبية اكتشفت اللذة أولّ مرةَ، فتركت كل عضو في جسدها يستدلّ على ينابيعها بغريزة الظامئ

للماء، أو كأنها تحاول تعويض ما فاتها في زمن الجهل، كعفّة نادمة. فسّر مناف هذا التحول على أنه من ملامح خريف العمر الذي شارفت فاطمة عليه، وربما هو هوس المتخلف عن إدراك الأمنية في اللحاق واقتناص آخر فرصة للحصول على طفلٍ ثانٍ قبل أن يباغتها سن اليأس وانقطاع الطمث.

«لا أظن أن السيدة سارة تترك عواقر الأرض لتنشغل بفاطمة وحدها».

هذا ما كان يردده مناف مع نفسه ويضحك في سرّه، إلا أنه كان يكتم ما يدور في ذهنه متلبساً قناعَ الغفلة، وهو يراقب التغيّرات التي طرأت وتطرأ على سلوك زوجته، معزياً الأمر إلى خبرة بهيجة في العلاقات الجسدية، محاولاً طرد الصورة التي ترتسم أمام عينيه كلما شطّ به الخيال ليرسم أمام مخيلته طريقة التلقين السرية التي تطبقها السيدة بهيجة في درس العلوم الجسدية. وعلى الرغم من أن كل الدلائل تفضح للعيان أن قاموس الشهوة التي حفظت زوجته مفرداته تشير إلى تطبيقات عملية واضحة لمعرفة وظيفة كل عضو في الجسد، إلاّ أن منافاً كان يلعن كل مرة في سره الشيطانَ الذي يدفعه إلى تخيل مثل هذه الأمور، حتى تهاوى شكّه وتلاشت هواجسه وانزاحت عن صدره هموم تراكمت بسبب سوء الظن، حينما أخبرته فاطمة ببراءة وعفوية عن مهارة بهيجة في تحضير عصير الرمان بالزنجبيل، فتذكر الأكسير الذي عمله له أبوه في الليلة التي استطاع فيها أن يفضّ بكارة فاطمة.

خارجَ العائلة الهاشمية كان محمد وطموحه وأسرار رحلته إلى الساحل الشمالي حديث التجار في جلساتهم التي يعقدونها في محلاتهم أو في مسجد المدينة، لذا فقد بثوا عامليهم ومرتزقتهم للتلصص والتنصت على كل ما يدور من حديث حول غياب محمد ولغز رحلته، مختلقين شائعات يبثونها بين الناس مستندين بذلك إلى غموض أصل السيدة بهيجة، فظهرت شائعة تقول بأن محمداً لم يرحل إلى الساحل الشمالي لغرض التجارة وإنما هو رسول يحمل رسالة من زوجته إلى

أهلها الجنّ، والتخطيط معهم لإحكام سيطرته على مجرى الأمور في الولاية، بينا ذهب البعض الآخر إلى أن الغاية من رحلته هو عقد صفقة وإبرام تحالف مع الصليبيين القادمين من وراء البحار إلى الساحل الشمالي بحجة التجارة. سرت هذه الشائعة بشكل سريع وكسبت أنصاراً ومؤيدين كثراً خاصة وأن مصدرها كان المسجد، وتمت الإشارة إليها مرات عدة خلال خطبة الجمعة بشكل لا يصعب على الناس إدراكه وتصديقه بل وإبداء الحماسة دفاعاً عن حياض الدين والشرف والقيم النبيلة التي زرعها الآباء والأجداد. تسللت الشائعات إلى أنصار محمد والعاملين معه، بل حتى الحزب وقف عاجزاً عن فعل شيء أمام هذا المدّ من الشائعات التي على الرغم من سذاجتها إلا أنها تسللت إلى أعضاء الحزب وراح بعض الرفاق يرددها على غير قناعة، ولكن بشيء كبير من اللوم على محمد الذي لم يخبر الحزب بطبيعة المهمة الذي ذهب من أجلها، مما أجبر قيادة الحزب على إصدار بيان سريّ يعلن فيه إحالة الرفيق محمد إلى لجنة حزبية لمحاسبته على الخرق التنظيمي الذي قام به.

زار مجموعة من التجار على رأسهم الحاج رضا منافاً في بيته، مستفسرين منه عن طبيعة رحلة محمد، ولم يصدقوا ما أخبرهم به مناف بأن حاله كحالهم فهو لا يعرف شيئاً عمّا يدور في ذهن أخيه، ولكي يغلق أمامهم طريق الفضول والتحري، راح يؤكد لهم بأن السيدة بهيجة نفسها لا تعرف شيئاً عن الهدف الذي يسعى إليه زوجها.

«يا ابن أخي..».

قال الحاج رضا وهو يربت على كتف مناف، ثم أضاف:

«مهما يكن فأن محمداً يبقى ولدنا وأن سمعته تهمنا.. وأني لا أرضى أن يكون لقمة سائغة في أفواه الدهماء.. يلوكون شائعات حوله متعرضين إلى سمعته وسمعة زوجته».

قال ذلك، ضارباً على الوتر الحسّاس الذي يعرف أنه سيثير حميّة مناف حينما يخترق الحديث جدار الشرف، فبهيجة مهما كان أصلها

ستبقى ضمن دائرة العرض الذي لا يمكن التغافل عنه أو السكوت عمن يحاول التعرض إليه بالإساءة. ظهرت علامات غضب على وجه مناف، أدركها الحاج رضا فاستدرك بلهجة تفتعل التودد والمبالغة في إبداء الحرص:

«يا ابن أخي.. إن التجارة لعبة وسخة.. وإن أخاك لايزال غضّا.. ولا يستطيع تحدي من أفنى عمره في هذا الطريق».

لم يستطع مناف أن يردّ على ما قاله الحاج رضا، غير أن ملامح وجهه كانت تدلّ على غليان يقرقر في داخله، وما تلعثمه الظاهر وعجزه عن ترجمته إلى كلام وحجج يردّ بها على ما سمعه من الحاج رضا إلا بسبب جهله بما يفكر فيه أخوه. استغل إمام الجامع هذا الصمت فأخذ زمام الكلام وراح يتحدث موجهاً كلامه إلى مناف، عن الزمرة الكافرة التي تحيط بمحمد وتحاول أن تستغل جهله وطيشه لخدمة أفكارها المسمومة ضد الأسياد والدين والأعراف المحافظة. وجد الحاج رضا في إشارة الإمام فرصة للغمز من سلمان العجمي ومحاولات «هذا الغريب» لإثارة الفتنة والشقاق بين «أولاد العمومة». توقف الحاج رضا عن الكلام بعد أن أدرك بأن منافاً لا علم له بالخلاف الذي جرى بينه وبين سلمان العجمي، والذي وصل إلى نشوب معارك بينهما، استخدم فيها كل منهما عمّاله وجرت بين الفريقين معارك بالأيدي والعصي، حول موضوع تقاسم النهر والصيد فيه، وبدلاً عن التطرق إلى هذا الموضوع طلب الحاج رضا من مناف أن يتحدث مع أخيه «الصغير» وينصحه بأن يقبل العرض المقدم إليه من قبل أعيان وتجار المدينة، بل إنهم على استعداد لشراء البستان «والأراضي التي استولى عليها محمد» بأضعاف ما قدم إليه في العرض الأول، وبإشارة خبيثة بدت غامضة وإنْ فهم منها بأنها ترمي إلى أبعد من الخوف على مصالحهم وتجارتهم من شاب طموح يسعى إلى الدخول في منافسة قد تسبب لهم صداعاً أو تفتح ملفّات قديمة:

«إني لأعجب.. كيف لشاب في مثل ريعانه وذكائه.. يرمي بنفسه في هذا المعترك الوسخ الذي لا يأتي منه غير صداع الرأس.. وهو بإمكانه أن يأخذ أمواله الطائلة وأهله ويذهبوا للعيش هنااااااااك...»

«أين؟»

سأل مناف دونما شعور، فردّ الحاج رضا وهو ينظر إلى السقف:

«في الساحل الشمالي.. أو أي مكانٍ آخر».

شعر مناف بوخزة في قلبه مما يضمرون من شرّ ليس لمحمد فحسب بل للعائلة الهاشمية كلها، وما صيغة الجمع التي استخدمها الحاج رضا في تهديده «المهذب» إلا دليل على ما يسعون إليه للثأر من عائلة لم تحصد من تأريخها غير الصيت الفارغ والسمعة التي لا تغني ولا تشبع جائعاً، غير أن وجودهم في داره منعه عن الرد على ما سمعه، مكتفياً بأنه تعهد أمام الرجال بأنه سيينقل ما اقترحوه لمحمد حال عودته، موحياً لهم ولو من باب المجاملة بأنه يتفق معهم ويقدر خوفهم على مصالحهم.

نقلت فاطمة إلى السيدة بهيجة ما سمعته من الحديث الذي دار بين الرجال وبين مناف، فارتفعت ضحكة بهيجة حتى اغرورقت عيناها بالدموع. تجمدت فاطمة وهي تتطلع إليها بذهول، وقبل أن تسأل عمّا يضحكها قالت بهيجة بثقةٍ رسخت يقين فاطمة بأنها تتحدث مع جنيّة:

«لا تخافي يا فاطمة.. لا تخافي.. لن يستطيع أحد الاقتراب من دائرة محمد».

* * *

(٦)

عاد محمد من رحلته التي استغرقت ما يقارب ستة أشهر، مُخيباً ظنّ من انتظره، حيث أنه لم يعد مصحوباً بعربات تنقل البضائع التي كان البعض يحسب بأن محمداً سافر من أجل جلبها إلى ولايتهم، ولا بجيشٍ جرّارٍ يقوده للاستيلاء على الولاية وطرد الجندرمة وتنصيب نفسه حاكماً، وكذلك لم تصحبه حورية شقراء من نساء الساحل الشمالي أو من وراء البحار.

عاد وحيداً، بجسدٍ ناحلٍ ووجه شاحب بلحية كثّة وعينين غائرتين تحيطهما دائرتان سوداوان، وكأنه قضى في غربته سنوات طوالاً.

«عاد.. يداً تسبقه والأخرى تخلّفت وراءه».

هكذا ردد الجميع، إشارةَ إلى العائد من رحلةِ تحقيقِ مسعاه بخفي حنين.

«لِمَ ذهبَ؟... لِمَ عادَ؟»

سؤال ردده المتوجسون في حلقاتهم الضيقة، لا لكي يعبروا عن شكهم، بل لكي يحرّضوا ذاكراتهم أو مخيلاتهم للبحث عن جواب، وحينما لم يجدوا الجواب، ارتفع مستوى شكهم إلى أقصاه بارتفاع سيل الغموض. اتسعتْ عيونُ الترقبِ بكل ما تسمح الرؤيةُ على مساحة المجال لكشفِ ما يخبئ هذا الشاب الذي بزغ نجمه في غفلة عن عتمتهم.

«كيفَ يصدق عاقل أن يتركَ شابٌّ عاشقٌ زوجته وهو لم يرتوِ بعد من متعة النكاح ويتغرب في بلادٍ لا يعرف عنها شيئاً من أجل لا غايةٍ؟».

«لِماذا ذهب يافعاً.. وسيماً.. متوقد النظرات.. وعادَ ناحلاً.. مغبراً.. ساهماً كالأبله؟»

«ماذا جرى له كي يعودَ درويشاً بهيئة المتسولين.. وقد ذهب بطموح التاجر المثابر؟»

«لماذا كانت رحلته شمالاً وليست جنوباً؟»

«.............................؟»

«.............................؟»

«لابد من سرّ وراء هذه الرحلة».

شحذتْ أذهان المتربصين طاقتها على اجتراح التآويل بكل ما يملكون من سوء الظن ومهارات في استحضار تأريخ العنعنة لترسيخ الشائعات في أذهان الناس. زادت شكوكهم شكوكاً حينما أخبرهم محمد بأن رحلته كانت موفقةً وأن تجارته كانت رابحةً فوق ما تصوره هو نفسه. وحينما سُئلَ عن البضائعَ التي حملها معه من الساحل الشمالي، أجاب: «هنا».

وأشار إلى رأسه. حاولَ البعض استدراجه إلى الاستفاضة في الحديث عن رحلته وعما فعله في الساحل الشمالي وعن التجارة والنساء مستجمعاً ما يعرفه عن تلك البلاد لعله يلتقط هفوةً أو تناقضاً في الكلام ليتحقق من صدق محمد إنْ كان فعلاً في زيارة تلك البلاد أم أنها محض لعبة يسعى من خلالها إضفاء هيبة على نفسه أو تمويه لإخفاء مقاصده الحقيقية، إلاّ أن محمداً كان يقابل سيل الأسئلة بسدّ من الصمت، مكتفياً بابتسامة سخرية أو استصغار يوجهها نحو السائل فيفهم مغزاها وينسحب بخجل.

لا أحدَ يمكن له أن يتصور أن هذا الشاب الذي عاد قبل أسبوع من رحلته الغامضة بهيئة درويش متشرد، قد طلع عليهم ثانية من ثنيّات الغموض بهيئة أخرى مختلفة تماماً، حتى ظنّ البعض أن محمداً شخصان يقيمان في جسد واحد أو أنه روح تتنقل بين جسدين أو أكثر.

لم يكن هذا التصور عند البعض نتاج خيال جامح أو فكرة منفلتة عن مدار الواقع، فالكل يعرف أن محمداً كان مريداً للشيخ نوفل، ولم يكن كبقية الصبيان الذين تخرجوا من تكية الشيخ، فقد اصطفاه وقرّبه إليه من بين مئات التلاميذ لأسباب لا تزال مجهولة، وهو الوحيد الذي يعلم بما حوته المخطوطات وأين اختفت بعد موت الشيخ نوفل، والله وحده يعلم ما أورثه غير زوجته وكاتمة سرّه.

أما محمد فبعد أسبوع قضاه في أحضان بهيجة وفي استقبال بعض الذين زاروه مهنئين بسلامة العودة، ارتدى حلّة التاجر الثري وتعطر بعطر العاشق العريس فبدت النعمى واضحة على محياه وكأنه ولد وفي فمه ملعقة من فضة. سار بطيئاً بخطوات رزينة، تفتعل الكبرياء وبرأس مرفوعةٍ لا ترى ما هو دون مستوى نظرها المتعالي. زار السوق الكبيرة وتوقف عند كل حانوت، يتطلع إلى واجهته كأنه يتفحص شيئاً يراه هو وحده. كان استقبال الناس لمحمد في السوق على مستويات مختلفة، فمن بينهم من بالغ في الاستقبال إلى الحد الذي دفعه لمباغتة محمد مقبّلاً يديه، قابلها محمد بردة فعلٍ بطيئة لكنه استدرك الأمر فراح يردد بصوت مرتفع «استغفر الله... استغفر الله..»، مبدياً رفضاً جاء متأخراً، بينا اكتفى البعض الآخر برفع يده للتحية، مبدياً شعوراً تفاوت بين الحماس والبرود. نهض بعض الشيوخ والمتسولين مرحبين بالقادم، وكان من بينهم من يردد بصوت عالٍ كأنه يحاول إسماع من تغيظه الذكرى:

«أهلاً بحفيد البطل.. أهلاً برائحة هاشم.. جاء الحق...»

وهناك من تشاغل في تنظيم بضاعته محاولاً التهرب من إبداء فعلٍ له دلالة التأييد أو المعارضة فقابل المشهد باللامبالاة، وكذلك من أبدى امتعاضاً واضحاً لعودة ما ينذر بالشؤم أو المشاكل لوجود هذا التاجر المستجد، غامض النوايا.

وصل محمد إلى مكتبه فاستقبله الصبي العامل عند دكة المكتب وقد كان سبقه إلى هنا. توقف محمد قليلاً. حاولَ أن يدخل إلا أنه تراجع

مرتداً وهو يحرك يده ليبعد الغبار الذي تطاير من داخل المكتب. تطلع حواليه بصمت. أمر الصبي بأن يقفل باب المكتب ويذهب إلى أهله في إجازة، ثم أقفل راجعاً، كأن فكرة خطرت على ذهنه.

كان على محمد أن يحلّ بعض المشكلات التي حدثت في غيابه، والتحضير لعقد الصفقات لحين اكتمال إعادة بناء المكتب وترتيبه بشكل يليق بالمكانة التي يسعى إلى احتلالها، ليباشر بعدئذ بتنفيذ ما خطط له. كانت مسألة الخلاف بينه وبين الحاج رضا على تناصف النهر التي أدت في غيابه إلى نشوب معركة بين عامليهما بعد أن تجاوز صيادو الحاج رضا الحد المرسوم بالاتفاق برمي شباكهم في النصف العائد إلى محمد، أولى هذه المشاكل التي ينبغي حلها، وإنْ كان محمد ينظر إلى هذه المشاغل من توافه الأمور التي لا تستحق أن يعطيها من تفكيره وقتاً، لو كان هناك عقل راجح يستطيع الاعتماد عليه ويعفيه من الخوض فيها.

اصطحب محمد سلمان العجمي وذهبا لزيارة الحاج رضا في مكتبه. كان المكتب كالعادة مكتظاً بأصدقاء الحاج من تجّار وشيوخ عشائر ومتطفلين لا تُعرف طبيعة أعمالهم وعلاقاتهم بالحاج رضا، سوى أنه يستخدمهم في التلصص والتنصت على ما يدور في السوق. نهض بعض الحاضرين لاستقبال محمد بينا تمهل بعض الشيوخ متحججين بالتعب أو الهرم بحركات تمسيد لركبهم العاجزة عن حملهم. صافح محمد الحاج رضا فاستقبله بوجه ودود وابتسامة مرحبة، ثم دار على البقية، حتى الجالسين منهم انحنى أمامهم بأدبٍ مقدماً للشيوخ احتراماً واضحا. اتخذ مكاناً بارزاً بين الجالسين وقد أفسح مكاناً جنبه ليجلس سلمان العجمي بحركة لا تخلو من استفزاز في فرض على مجالس الأشراف شخصٍ ينتمي إلى طبقة المنبوذين والغرباء، ووجه يقع تحت رقابة جهاز الشرطة وعسسه السريين.

راحت الأسئلة تترى على محمد من قبل الحاضرين، حول رحلته

وعما رآه وكسبه في الساحل الشمالي وعن نوعية الصفقات التجارية التي عقدها هناك، بل هناك من سألَ محاولاً فضّ تحفظ محمد وكتمانه عن النساء وجمالهن الذي يسمعون به ولا يعرفون حقيقته. كانت إجابات محمد مقتضبة وملغزة تحاول التملص من الفضول في معرفة كل شيء، وربما كان محمد يتعمد الغموض في إجاباته لإضفاء الهيبة والسرية على رحلته، ولكي يتهرب من حصار الأسئلة الذي مسك بخناقه. تنحنح بصوت مسموع ليعلن للحضور تأهبه لفتح الموضوع الذي جاء من أجل نقاشه مع الحاج رضا. حاول أحد الشيوخ النهوض معلناً للباقين عن ضرورة ترك المتخاصمين وحدهما لحل الخلاف الذي بينهما، غير أن محمداً أشار إلى الشيخ بأن الأمر لا يستوجب السرية، ثم خاطب الشيخ وهو يتطلع إلى الحاج رضا:

«لا يوجد بيني وبين العم رضا خلاف».

استقبل الحاج رضا كلامَ محمد بابتسامة فرح، هازاً رأسه مؤيداً كلام محمد، بينا راح الشيخ يهزّ رأسه بإعجاب ويردد:

«بارك الله فيك...»

فجاراه الآخرون في إبداء الرضا والإعجاب وبالطريقة نفسها، إلا سلمان العجمي الذي بقي صامتاً، متوجساً من أن أمراً ما قد فُرض على محمد أو أنهم قد بعثوا إليه تهديداً عبر أحد رجالهم من الأشقياء والمتمرسين على القتل. تحول هذا الهاجس في نفس العجمي إلى يقين حينما أعلن محمد أمام الحاضرين عن تنازله عن حصته من النهر إلى الحاج رضا. اتسعت حدقتا الحاج رضا من الدهشة مستبشراً بنجاح ما سعى إليه من خلال حديثه مع مناف، دون أن يعلم بأن محمداً لا يعلم حتى هذه اللحظة بما دار من حديث بينه وبين ومناف.

نهض محمد فنهض الحاضرون، وعند الباب شدّ الحاج رضا على يديْ محمد مظهراً له مشاعر ودية وعيناه مغرورقتان بالدموع، الدموع التي لم يصدقها العجمي محذراً محمداً من طبيعة التمساح التي لن تتغير.

سارا صامتين وكل منهما غارق في لجة تفكيره، فبينا كان محمد يشعر بزهو وفرح، كان العجمي على العكس من ذلك تماماً، مغموماً ليس لأنه أعتبر تنازل محمد عن حق كاد يدفع حياته دفاعاً عنه في المعركة التي جرت بينه وبين عمّال الحاج رضا فحسب، بل إنه في هذه اللحظة يشعر أنه خسر أملاً كبيراً كان قد عقده على شاب يؤهله طموحه الثوري وتأريخ عائلته للعب دور كبير في المرحلةِ التي تمر بها الولاية. كان الفهد على حق حينما حذّره من التفاؤل الزائد والحماس حينما كانا يتحدثان عن مسألة إنتماء محمد إلى الحزب:

«البرجوازية الصغيرة غير أهل للثقة حتى لو أظهرت تعاطفاً مع أهداف الطبقة العاملة.. فهي قد تتخلى عن هذا التعاطف متى ما أصطدم بمصلحتها».

«البرجوازي الصغير أناني ووصولي».

«العلاقات العشائرية تنتج تفكيراً رجعياً.. والرجعيون حلفاء الاقطاع وإن تقاطعت مصالحهم.. وحتى صراعهم الظاهري هو في جوهره.. كصراعِ فخذين من أفخاذ العشيرة الواحدة».

كانت أقوال الفهد تتردد في ذاكرة سلمان العجمي، بينا كان محمد يستعيد في ذاكرته وجه الحاج رضا وابتساماته الماكرة، ووجوه التجّار ونظراتهم الشامتة وهم يرونه يقدم على التنازل عن حقه من جراء معركة صغيرة جرت بين تابعيهما، فيضحك في سرّه متحدياً ومتوعداً باليوم الذي يرى فيه تلك الوجوه وقد ذلّها الانكسار.

توقف سلمان العجمي حينما وصلا إلى تقاطع طريق السوق الكبيرة مع الطريق الجنوبي المؤدي إلى حي التنك. مدّ يده إلى محمد مودّعاً فتطلع محمد إليه وانفجرَ بضحكةٍ، قابلها العجمي بوجه عابس. أدركَ محمد ما يدور في ذهن العجمي فمسكه من ذراعه، ساحباً إياه في اتجاه الطريق الشرقي. اعترض العجمي:

«إلى أين؟»

فردّ محمد دون أن ينظر إليه:

«أنت الليلة ضيفي».

وقبل أن ينتظرَ موافقته، أضاف:

«وستبيت الليلة عندي».

حاول سلمان أن يعترضِ إلاّ أن محمداً سحبه من ذراعه وهو يقهقه، فانقاد على مضض أو أنه افتعل ذلك ليوحي لمحمد بأنه غير راضٍ عمّا قام به، حتى قال محمد:

«هل تعتقد أني أتنازل لهؤلاء الأوغاد دون أن تكون لي غاية أكبر؟»

«ماذا تقصد؟»

قال العجمي فردّ محمد بثقةٍ:

«رفيق سلمان.. إني نصبت لهم فخاً».

لم يدرك العجمي ما يرمي إليه محمد، إلاّ أن مخاطبته له بكلمة (رفيق) نسفت سوء الظنّ وكل ما خطر في ذهنه قبل دقائق، وأعادت إليه الثقة بأن محمداً لايزال يفكر في مصلحة الحزب وإنْ كان لا يبوح لأحد بما يفكر فيه.

لو قيل لسلمان العجمي قبل سنتين إنه سيحلّ يوماً ضيفاً في هذا البيت، لاعتبر الأمر مزحةً سخيفةً أو سخرية، فقد كان يعتبره وكراً من أوكار التخلف والرجعية، يقيم فيه شخص مشبوه، يمارس الدجلَ والضحكَ على عقول الغافلين من الناس، وقد كان يتصور أن في داخله كهوفاً وسراديبَ تتدلى من سقوفها خيوط العنكبوت وتلعب على أرضها الجرذان والعضايا، ولا يسمع فيها سوى فحيح أفاعٍ وصيء العقارب، تملأها رائحة العفونة، وهو وإن كان لا يؤمن بالجن والخرافات لكنه يتصور أن الشيخ نوفل واحد من العفاريت التي تروي عنها الجدّات حكاياتهن المخيفة، أو أنه واحد من الكائنات الخرافية الهابطة من كوكب معتم.

«سبحان مغيّر الأحوال».

ردد مع نفسه، ساخراً من عبثية الأقدار وتبدل الأدوار، غير أن هاجساً خطر في ذهنه بترَ تماديه في السخرية وأعاده إلى ما اعتاد عليه من التفكير في تفسير الأمور والظواهر:

«مَنْ قال أن الأمر قد تغيّر؟»

«ماذا تعرف عن حقيقة محمد؟»

«ألم يكن محمد مريداً لذلك الهابط من الكوكب المعتم؟»

«مَنْ هي بهيجة؟»

«أليست البئر باقية.. وما الاختلاف الذي تظنّه سوى تغيّرِ دلوِ بآخر؟»

فوجئ سلمان العجمي وهو ينظر على جانبيه، ويحدّق إلى الجدران والسقف. لم تكن هناك خيوط عنكبوت أو جرذان تمرح خارج جحورها كما كان يتخيل «بيتَ الأساطير الغامضة»، بل وجد صالةَ استقبال نظيفة، مؤثثة بشكل يشي بأن أنامل أنثوية رتبتها بذائقة عالية. ثريا كبيرة بمصابيح تنشر ضوءاً ذهبياً خافتاً، وشمعدانات فضية وضعت في زوايا الصالة بأحجام مختلفة زُخرفت أذرعها بخطوط وعلامات مبهمة، مكتبة كبيرة من خشب الصاج البُني البرّاق صُفت على رفوفها بعنايةٍ كتبٌ بأغلفةٍ جلدية وعناوين مكتوبة بخطوط ذهبية لامعة، أرضية الصالة غطاها سجّاد فاخر بألوانٍ زاهية ولوحات فارسية محاكة بدقة تضاهي الإعجاز، صُفت على حوافها أفرشة ووسائد قطنية مريحة يغطيها قماش حريري طُرزَ عليه بخيوط إبريسم ذهبية. رائحة البخور تعبق في أرجاء البيت، جعلت منه كمزارِ لوليّ أو تكيّة متصوفين.

شعرَ بحنقٍ طبقي، لكنه سرعان ما لامَ نفسه على ما خطر في ذهنه، فهو ضيف وعليه أن يبارك نعمةَ من أكرمه، خاصةً وأنّ المتنعم هو رفيق يكنّ له محبةً لا يخطئها القلب.

«ما الضير إذا تحالفت الطبقة العاملة مع البرجوازية الصغيرة مادام عدوهما واحداً؟»

ردد مع نفسه كمحاولة لترويضِ عقله الذي اعتاد على نمط واحد من التفكير.

دخل محمد يحملُ زقّاً فخاريّاً وكأسين من الفخار نقشت عليهما نقوش غريبة. جلس جنب العجمي وهو يكرر عبارات الترحيب بضيفٍ عزيز يزوره للمرة الأولى في بيته. صبّ في الكأسين سائلاً أحمرَ اللون وبرائحة العنب. قدّمَ واحدةً إلى ضيفه وأخذ الأخرى، رفعها إلى مستوى عينيه بحركةٍ تدلّ على حداثة في السير على طريق السُكر والمنادمة. قبل أن يرتشفَ من كأسه، قالَ بشيء من الزهو مخاطباً العجمي:

«إنه نبيذ السِريان».

ارتشفا قليلاً. أبدى سلمان العجمي إعجابه بطعم النبيذ، مقارناً بينه وبين عرق (أبي بلطة) الرخيص، الذي أعتاد على شربه، محاولاً عدم إشعار محمد بما خطر في نفسه من حسد.

كان كلّ منهما يبحث عن مدخلٍ لحديث يجنب صاحبه حالة الارتباك الناتجة عن صمتٍ حذر يضمر كلاماً لا يجد له منفذاً مناسباً، حتى بادر محمد بسؤال لم يكن العجمي يتوقعه:

«قلْ لي رفيق سلمان.. ما هي أخبار رفاقنا العمّال في الحي الصناعي؟»

تطلع سلمان إلى محمد باستغراب. ردّ بسؤال:

«ما بهم؟.. أعني.. ماذا تقصد؟»

فردّ محمد بشكل مراوغ:

«لا أعني شيئاً.. ولكن.. هل هم قانعون في وضعهم؟.. أعني.. عن أجورهم؟»

استعاد العجمي هدوءه، رافعاً صدره قليلاً، وقد تقمصَ دور الرفيق المسؤول في اجتماع الخلية الحزبية. استعدل بجلسته وقال بعد صمت:

«وهل تعتقد أن هناك عاملاً في الولاية يشعر بالراحة؟»

وقبل أن يأخذ محمد طرف الحديث، استأنف العجمي:

«يا رفيق محمد.. الطبقة العاملة في الولاية كلها.. لا يعلو وضعها على وضع الرقيق.. فهم يتحملون كلّ أصناف الذلّ والمهانة من أجل توفير لقمة العيش لعوائلهم.. إنهم عبيد.. نعم عبيد حقيقيون.. فإضافة إلى قلّة الأجور لم تسلم ظهورهم من سياط أرباب عملهم».

ظهرت علامات حزن وغضب على وجه سلمان العجمي. قاطعه محمد ليختصر فترة الصمت، كأنه يستعجل الوصول إلى غايته:

«ولماذا لا يقومون بإضراب عن العمل لإجبار مالكيهم على رفع الأجور؟»

«وهل تظنّ الأمر سهلاً؟»

سأل العجمي، وقبل أن يجيب محمد، استأنف العجمي طرح أسئلته:

«وهل تظنّ أن هؤلاء الأوغاد سيلبّون مطالبهم بسهولة؟.. ومن سيتكفل بعوائلهم لو طالت فترة الإضراب.. أو طردوا من العمل؟»

«أنا».

قال محمد كأنه كان ينتظر السؤال، واضعاً كفه على صدره، وقد لاح من خلال حركته تأثير نبيذ السريان، قوي المفعول. ارتسمت على وجه العجمي ابتسامة استصغار أو إشفاق على جموح هذا الشاب الذي يحاول حرق المراحل للصعود إلى قمة التحدي ومواجهة أعداء لا يستطيع تقدير جبروتهم والوسائل الخسيسة التي لا يتورعون عن استخدامها ضد كل من يفكر أن يقف متحدياً مصالحهم. هزّ العجمي رأسه محاولاً إخفاء نظرته المُشفِقة:

«رفيق محمد.. المسألة ليست بهذه السهولة».

قاطعه محمد بإصرار وجدّ ليوصل للعجمي انطباعاً بأنه لا يقول كلاماً غير واثق من قدرته على تطبيقه أفعالاً:

«اسمع رفيق.. أنا أريد منك أن تبلغ رفاقنا العاملين في الحي

الصناعي على القيام بتحريض بقية العمال على إعلان الإضراب عن العمل.. وأنا سأتكفل بهم وبعوائلهم».

شعر العجمي بشيء من الامتعاض من لهجة محمد المتعالية وتجاوزه المسؤولية الحزبية، لكنه حاول إخفاء شعوره فسأل بلهجةٍ متعالية لتذكير محمد بأنه لا يتلقى أمراً ممن هم دونه في الترتيب الحزبي:

«وماذا بعد الاضراب؟»

هزّ محمد رأسه وردّ على سؤال العجمي وهو ينظر إليه بنظرة جانبية:

«يا رفيقي.. هؤلاء الأوغاد لا يفكرون إلا في جمع الثروة وبشكل سريع وآني.. وليس لهم صبر ومجالدة.. ولن يستطيعوا الصمود أمام إصرار العمال أكثر من بضعة أيام.. فبعدَ مرور وقت ليس بطويل سيبدون تنازلاً.. ومع عناد العمال وصمودهم.. سيعلنون استسلامهم..».

قاطعه العجمي بالسؤال:

«وما يدريك بأنهم سيستسلمون بسهولة؟»

ردّ محمد بثقة، غامزاً العجمي بإشارة لا تخفى عليه:

«أرباب العمل عندنا ليسوا كما تتصورهم أنت.. استناداً إلى ما ورد في كتبك من نظريات.. فهم أفراد ولا يمثلون طبقتهم.. إذ هم دون مستوى هذا الوعي».

ارتبك العجمي حينما سمع رأيّ محمد، وملاحظته الذكية وإنْ بدا مغروراً في طريقة كلامه إلا أنه فرض الإعجاب به. كرر سؤاله لمعرفة المزيد عمّا يفكر فيه محمد:

«وماذا بعد؟»

«سأقوم أنا بشراء حصصهم في الحي الصناعي».

شعرَ العجمي بأن محمداً يسعى إلى استغلال قوة الحزب وشعبيته بين العمال والفقراء للوصول إلى مبتغاه وتحقيق طموحه الشخصي، غير أن صوتاً في داخله ردّ على توجسه هذا:

«ولِمَ لا يستغل الحزبُ طموحَ محمد وقوَته في الاتجاه نفسه؟»

صمتَ قليلاً كي يوحي لمحمد بأنه يفكر في ما اقترحه. صدقَ تخمينه حينما أضاف محمد دون لفّ أو مواربة:

«وستكون هذه الخطوة الأولى.. ثم سنطبق الخطة نفسها مع الفلاحين».

وبصوت واطئ كأنه يحدث نفسه، أضاف:

«وسيعلم الحاج رضا وغيره مع من يلعبون».

سادت فترة صمت كأنهما قد استنفدا كل طاقتهما على الحوار، قطعها محمد حينما رفع كأسه دون أن ينظر إلى العجمي وعبّ نبيذه دفعة واحدة. تطلع إلى وجه العجمي ثم قال بصوت استعراضي متقطعاً بين الجد والهزل:

«وسنعلن.. دكتاتورية.. البروليتاريا».

وانفجر بضحكة مجلجلة بينا كان العجمي ينظر إليه بذهولٍ، محاولاً اختراق جدار تفكيره. حاول أن يعترض أو يقول شيئاً إلا أنه توقف على أثر سماعهما لطرق خفيف على باب صالة الاستقبال. نهض محمد وعاد بصينية العشاء.

بعد أن انتهيا من عشائهما، عاد محمد وملأ الكأسين بنبيذ السريان الساحر، الذي راح العجمي يعبّه متمطقاً بطعم «خمرة البرجوازيين»، حتى بان السكر عليه فهمّ بالنهوض. اعترضه محمد:

«إلى أين؟»

«سأذهب إلى كهفي في حي التنك».

قال العجمي وأكمل نهوضه محاولاً التغلب على ترنحه. حاولَ محمد ثنيه عن المغادرة في هذه الساعة المتأخرة من الليل، واقترح عليه المبيت عنده، إلاّ أن إصرار العجمي كان أكبر، فاقترح عليه أن يشربا وقوفاً ما تبقى من نبيذ في الزق. رفعا كأسيهما وتطلع كل منهما في وجه الآخر وهما يترنحان. هتف العجمي بصوت ثملٍ:

«بصحة دكتاتورية البروليتاريا».

وارتفع ضحكهما.

حينما علم مناف بتنازل محمد عن حصته في النهر للحاج رضا، استبشر خيراً، وشعرَ بشيء من الراحة والأمان بتعقل أخيه أخيراً وتخليه عن فكرة منازلة إناسٍ، غير قادرٍ على مواجهة أحابيلهم وشرورهم، ولا يحفظون عهداً ولا تعرف الرحمة طريقاً إلى قلوبهم. شعرَ بأن الوقت قد حان لمفاتحة أخيه بالعرض الذي قدّمه الحاج رضا وأصحابه، وهذا ما دفعه إلى النكث بالعهد الذي قطعه على نفسه في عدم الدخول إلى بيت أخيه. أخبر فاطمة برغبته في زيارة عائلة أخيه، ففرحت للقرار الذي سيزيل آخر آثار الجفوة بين الأخوين، وأقتنع أخيراً بما كانت تقوله له عن السيدة بهيجة ونبل أخلاقها.

استقبل محمد أخاه بفيض من المشاعر سالت على أثرها الدموع. شعرَ مناف بتأنيب الضمير حينما شاهد بهيجة عن قرب ولمسَ العفة والكبرياء في حركاتها العفوية وطريقة كلامها الهادئة، وأفرحه أكثر هو الحب الكبير الذي كان يلوح في عينيها وهي تنظر إلى زوجها كأنها تحيط كل شبر من قامته بألف دعاء واستعداد للإفتداء. تأكد بخبرته من أن السيدة بهيجة تختلف عن كل نساء الأرض، بل تصلح أن تكون سيدتهن، وهل في هذا شكّ وهو الخبير بشؤون النساء؟. إذن كانت فاطمة ومحمد بل حتى الصبي علي على حق حينما كانوا يصرحون بإعجابهم وحبهم لبهيجة، وحده الذي «ركب رأسه» بإصرار الجاهل المتزمت، بسبب أفكارٍ متخلفة وسوء ظنّ ورثه عن أبيه وتصديقه لما يشيعه إناس لا همّ لهم سوى النميمة والحسد.

دارَ الحديث بحميمية كبيرة عن أمورٍ كثيرة، ومن بينها الأمور العائلية الخاصة، وقد كان للسيدة بهيجة موقع المركز في الحديث وإبداء الرأي حتى فرضت نفسها كهالة ضوئية تحيط المساحة كلها، مما جعل منافاً يتخلى عن سلطة الأب وذكوريته المستبدة والإصغاء إلى كلّ ما تقوله باهتمام واضح، بل وطلب المشورة، حتى حان وقت العشاء فذهبت

المرأتان لتحضيره في المطبخ، فاستغل مناف انفراده بأخيه ليخبره بالزيارة التي قام بها الحاج رضا وإمام المسجد وبعض من التجار وينقل له ما قاله الحاج رضا والتعهد الذي قدموه بشراء ما يملكه بأضعاف قيمته الحقيقة، ولم ينسَ أن يبالغ قليلاً في إبداء مخاوفه في حالة رفض محمد للعرض، وكذلك أضاف منه كلاماً مغرياً ظنّ بأنه يجعل لعاب محمد يسيل إليه. أصغى محمد باحترام كبير إلى ما قاله مناف ولم يقاطعه حتى أتم حديثه وتهيأ لسماع رأي محمد. لم يرفع محمد رأسه عن الأرض، غير أنه قال كلاماً جعل منافاً يرتعش من الخوف:

«يا أخي.. لو ملّكوا يميني كل نسائهم.. ووضعوا في شمالي كل ما يملكون من ثروة.. لما تخلّيتُ عن أمر عقدتُ العزمَ عليه».

«وما هو هذا الأمر الذي عزمتَ عليه؟»

سأل مناف وأرنبة أنفه ترتعش من الغضب، فرد محمد بهدوء بارد:

«أن يكونوا جميعهم تحت إمرتي».

ارتفعتْ يد مناف كأنها تهمّ بتوجيه صفعةٍ إلى محمد، إلا أنها توقفت في منتصف طريقها، ثم سادَ البيتَ صمتٌ عميق.

وصلَ محمد إلى مكتبه الجديد في اليوم الأول لافتتاحه بإبهة لفتت إليها أنظار الذين تجمهروا أمام باب المكتب ليروا هذا الحدث الاستثنائي في تاريخ السوق، بل في تأريخ المدينة التي لم يحدث فيها تغيير منذ أجيال عديدة. كان محمد يرتدي زياً إفرنجياً كما ردد الناس. طقم حرير يتكون من بنطلون وسترة وصديري بجيب صغير عند موضع القلب تدلت فيه سلسلة تنتهي بساعة فضية كبيرة كان قد أخرجها عدة مرات وتطلع فيها بزهو ثم أعادها إلى مكانها في جيب الصدر، بحركة ترسخت في ذاكرة الناس بل أصبحت تقليداً تمارسه الأجيال الجديدة في ما بعد. غطى رأسه بقلنسوة حريرية سوداء فبدا كأنه من باشوات العثمانيين أو قياصرة الروس. فتح باب المكتب بحركة استعراضية بطيئة وسط أنظار المتجمهرين الذين فغروا أفواههم دهشة وفضولاً، بينا قام

أحد رجاله بذبح كبش كبير عند موضوع قدم محمد على الدكة، حملَ بكفه شيئاً من دماء الأضحية وطبعها على جانبي باب المكتب وسط هتاف الناس ودعائهم بالتوفيق لمحمد.

كان كل شيء في المكتب كما أراد محمد، مختلفاً عن بقية مكاتب التجّار. واجهة زجاجية عريضة صافية، تكشف ما في داخل المكتب الواسع، تعلوها لوحة كبيرة خُط عليها اسم المكتب (الهاشمي للبناء). أما الداخل فقد رصف ببلاط مرمري مزخرف، قيل إنه تم استيراده من مدن الساحل الشمالي. على الجانب الأيمن ارتكن مكتب خشبي فائق الأناقة من خشب الصاج البني وسطح من الأبنوس غطاه زجاج، وعلى الجدار عُلق شمعدان كبير برؤوس كثيرة كل رأس منها محاط بمخروط زجاجي يعكس ضوء الشمعة. إلى جانب الشمعدان علقت لوحة لفتت أنظار الداخلين، وبقيت لغزاً لا أحد يعرف سرّ ما نقش عليها، خطّها محمد نفسه بخط الثلث الذي برعَ فيه، وسرّ الغرابة في ما خطه ليس أنه مخالف لما كان يباع من لوحات يُكتب عليها عادة آية الكرسي أو سورة من قصار السور فحسب بل لأن محمداً اختار آية غامضة لم يستطع أيّ من المفسرين كشف لغزها، فصارت أول شيء يلفت نظر الداخل للمكتب مرددا الآية بهيبةٍ ورهبة:

«كهيعص»

ولا أحد يجرؤ على السؤال عن تفسيرها، غير أنهم من حيث لا يدركون كانوا على ثقة بأن تفسيرها عند الضالعين في العلم، ومحمد أحدهم.

غادر المهنئون المكتب بعد أن حصل كلّ منهم على حصته من لحم الأضحية، وهم يدعون لمحمد بالتوفيق في عمله. أسدل محمد الستائر وأغلق باب المكتب. جلس خلف مكتبه. دار عدة دورات على كرسيه. استلّ من الجرّار ورقة بيضاء، وبدلاً من أن يدوّن عليها برنامج عمله أو

أن يسجل حسابات وارداته وأرباحه، كتب قصيدة:

«على حافّةِ الأرضِ

إذْ تنتهي الاحتمالاتُ

غير احتمالين:

إمّا الرجوعِ

وإمّا الهبوطِ إلى الهاوية»

* * *

(٧)

نشبَ خلافٌ بين فاطمة ومناف حول مسألة تعليم علي، فبينا كانت فاطمة تريد إرساله إلى (مدرسة الأشراف) كما اقترح محمد وتعهد بدفع مصاريف التعليم، كان مناف مصرّا على إرساله أسوةً بأبناء الفقراء إلى الكتاتيب التي يديرها شيوخ، يعلّمون الصبيانَ القراءة والكتابة وحفظ القرآن وشيئاً من الشعر والتأريخ. كاد الخلاف يتطور حينما رفعت فاطمة صوتها بوجه زوجها معيّرة إياه بأنه «وجه الفقر الذي لن يتغير»، لولا أن تدخلَ محمد مقترحاً حلّا ثالثاً بأن يخصص لعلي شيخاً يقوم بتعليمه، وسيشرف هو بنفسه على ذلك. وافق مناف على مضض. همّ بمغادرة البيت بغضب المهزوم، غير أنه عاد كأنه تذكر أمراً. تطلع إلى وجه محمد بغضب رافعاً سبابته المرتعشة، منذراً أخاه من أن يشوّه عقل الصبي بأفكاره المسمومة. تلقى محمد الاتهامَ بأعصاب باردة، محاولاً إخفاء ردة فعله.

لم يكن توجس مناف نابعاً من فراغ فقد أصبح على يقين بأن ما سمعه من سيرة هاشم أو «اللعنة» كما كان ناصر يردد قد حلّت بأخيه، فها هو يراه بوضوح وقد «ركب رأسه» وفتح دفتر حساباته «الشيطانية»، ولن يثنيه أحد عما ينوي فعله. ألقى اللوم على نفسه التي لم تحسب حساباً لهذا اليوم حينما أرسل أخاه إلى تكية الشيخ نوفل، ووافق بغباء على عمله عنده في نسخ المخطوطات التي «لا يعرف إلا الله ما تحوي بين طياتها». أما محمد فقد كان فعلاً يخطط بأن يربط علياً بأحلامه ليخلق منه شبيهاً

أو وريثاً، معطياً لنفسه الحق بأن يكون وليّ أمره حتى لو دفعه هذا الأمر إلى إغاظة أخيه الأكبر:

«أليس هو فكرةً ارتبطت بحلمي قبل أن ترتبط بحبل سريّ في رحم أمه؟»

ردد محمد مع نفسه بعنجهية تاجر أو إقطاعي أعطى الحق لنفسه في الاستحواذ على الأرض وما عليها، مبرراً ذلك بأن الغاية التي يسعى إليها أكبر من واجب الاحترام الذي ينبغي تقديمه لمن هو أكبر منه سنّاً، أو الرضوخ إلى مشيئة أخٍ بلا هدف أو طموح. راح يستعيد في ذاكرته الحلم الذي رآى فيه جده هاشم وهو يبشرّه بولادة أخٍ له اسمه هرون، ودون أن يعيَ وجد نفسه يفتح دفتر ذاكرته على الحوار الذي جرى بين أخيه والشيخ نوفل حول الاسم وقدر ابن آدم، فألفى نفسه وقد استسلم تماما لأفكار الشيخ نوفل.

«لا شيء يحدث مصادفةً»

راح يردد مع نفسه العبارة التي كان يرددها الشيخ نوفل محاولا حفرها في ذهن محمد، وقد ازداد يقيناً بأن اختيارَ الشيخ له لم يكن إلا بوحي أو حكمة خطتْ على لوح قدره، وبهذه الحجة برر لنفسه ما يفعله طالما أنه يسعى إلى فعل الخير ويحاول الإيقاع بإناس يقتصر همهم على جمع المال واستغلال الناس البسطاء والغافلين.

كان محمد يختلق الأعذار أمام أخيه للإنفراد بعلي بأطول فترة ممكنة، متحججاً بمراجعته لما تعلمّه عند الشيخ نافع، أو اصطحابه معه للعب في البستان أو تعليمه السباحة في النهر، فكان مناف يرضخ لهذا بعد أن يعجز عن التذرع بحجة للرفض.

بعد مماطلة طويلة من مناف وتردد من فاطمة، استطاع محمد أن يأخذ علياً معه في سفرة دامت بضعة أيام إلى جنوب الولاية للإشراف على تنزيل البضائع المستوردة، فكانت المرة الأولى التي يرى عليّ فيها البحر والبواخر العملاقة الراسية في الميناء والمراكب التي تبحر ناشرة أشرعتها

البيض على سطح البحر الذي لم يكن أزرقَ كما كان يتخيله. شدّ أنظاره مشهد العمال وهم شبه عراة ينقلون على ظهورهم أثقالاً كبيرة، وكان أغلبهم زنوجاً، ضخامَ الأجساد تكاد عضلات سواعدهم وأفخاذهم تنفر من أجسادهم والعرق يتصبب من وجوههم وصدورهم العارية، فكان ينظر إليهم بنظرات غامضة تجمع بين الإعجاب والشفقة.

بعد أن ذهب محمد إلى الميناء لإنجاز مهمته، جلسَ علي على صخرة ناتئة، بعيداً عن مواقع العمل المزدحمة بالعمال وضجيج العربات، ماداً ساقيه إلى الماء الصافي البارد، ملامساً نعومة الرمل والحصى والقواقع الفارغة، وهو يحدق بذهولٍ إلى الأفق الذي لا يُرى منه سوى خطّ التقاء السماء بالبحر، منشغلاً بترقب شديد كلما شاهد نسراً ناشراً جناحيه في الفضاء بكبرياء، أو نورساً محلقاً على سطح البحر، متتبعاً برهبةٍ حركة انقضاضه السريعة مثل شعاع حتى يرتطم بسطح الماء غارزاً منقاره كرمحٍ، ثم يرتفع صافقاً جناحيه نافضاً عنه الماء وسمكة تتلوى في منقاره، يعود بعدها عليّ مصغياً إلى صوت الأمواج وهي تتكسر على صخور الشاطئ، وبين فترة وأخرى يحاول بحذر شديد اختبار شيطنةِ البحر فيمدّ خطوة إلى الأمام ويتراجع ثم يتقدم خطوتين حتى يطمئن إلى هذا المخيف الغامض.

مرّ النهار وأوشكت الشمس على إتمام مغيبها حينما تنبه محمد وهو في طريق عودته من الميناء إلى غياب علي، فقد نسي تماماً بأنه تركه عند الساحل وحده. كاد ينهار من الخوف لاعناً نفسه على نسيانها وانشغالها بأمور لا تعادل إظفراً من أظافر ابن أخيه. نادى على العمال فهرعوا في كل الاتجاهات للبحث عن علي. فوجئ به جالساً دون أن يبتعد متراً واحداً عن المكان الذي تركه فيه منذ الصباح. ضمّه إليه بمشاعر أربكها تأنيب الضمير ممرراً كفّه على رأسه الذي ألهبته حرارة الشمس، غير أنه وجد علياً هادئاً كأنه لم يشعر بعطش أو جوع، مرحاً حدّ البلاهة وهو يلعب بالقواقع والأحجار الملونة التي جمعها في حجره. همّ بحمله على

كتفيه غير أن علياً حاول الامتناع، متوسلاً بعمه أن يتركه قليلاً على ساحل البحر حتى تكمل الشمس غروبها. رضخ محمد لرغبة علي، بل شاركه متعة تأمل منظر الشمس وهي تغرق في البحر.

كانت عودة علي من رحلته الأولى فرحة كبيرة لفاطمة، جعلتها تنطّ من فراشها ناسيةً مرضها، وقد أفرحها أكثر أن علياً لم ينسها في رحلته بل عاد يحمل لها أجمل هدية تلقتها في حياتها، قلادة جميلة من القواقع البحرية، جمعها ولظمها طفلها الذي جاء إلى الدنيا بمعجزةٍ لا تقل عن كرامات الأولياء بل ومعجزات الأنبياء. ارتدت القلادة بزهو أمّ لم تلد امرأة ولداً من قبلها ولا بعدها، زهو طرد هاجس الموت الذي استبدّ بها منذ شهر حينما لازمت الفراش أثر تكرار حالة الإغماء وارتفاع الحرارة التي لم تنفك عنها. تحدّتْ ألمها ووقفت أمام المرآة. لم يرعبها منظر هزالها وشحوب وجهها، فهي لم ترَ في المرآة غير صبيّةٍ مترعةٍ بالحب، تُزّف إلى الفرح عروساً، تطوق جيدها قلادة تعادل قيمتها كلّ حليّ العالم.

مناف الذي لم يغادره القلق بسبب مرض فاطمة وما قاله الحكيم عن خطورة حالها، والمستقبل المعتم الذي يمضي إليه أخوه وسط أعداء يتقنون نصب الفخاخ والشرك في طريق من يفكر أن يقترب من محيط دائرة أملاكهم وسطوتهم، أثار سلوك ولده زهواً كبيزاً في نفسه، زهواً لم يعرفه من قبل، فأثنى على حكمة أخيه باصطحاب ولده معه في رحلته، ملقياً اللوم على جهله في الحياة، الجهل الذي جعله يقيس الأمور على أفق تفكيره الضيق وسقف طموحه الواطئ، معترفاً أمام نفسه بأن ما يفعله أخوه حكمة يعجز عقله الجاهل عن إدراكها، أو أن فيض الحب الذي يحمله له يجعله مبالغاً في القلق والخوف.

محمد نفسه وقف بذهول أمام ذكاء وفطنة علي، فقد اكتشف فيه خصالاً ومواهب عززت في نفسه الحلم الذي يسعى إلى تحقيقه، بل وجعلت لغروره مبرراً للبوح علانيةً بأنّ القدر قد كتب على العائلة

الهاشمية أن ترتقي عرش السيادة، وأن دماءها حملت سموّها المتوارث، حتى أسماء أبنائها لم تأت مصادفة بل هي أوراق يانعة في الشجرة الكبيرة التي ترسخت جذورها منذ ألف وثلاثمائة عام وأكثر، وفي كل ربيع تتفتح براعمها، ولابد للسمو من مؤهلات قوية تجعل هذه الحقيقة الغامضة ملموسة بيد القاصي والداني، ولابد لهذه العائلة أن تحافظ على نقاء وسمو سجاياها المتوارثة، وألا كيف يمكن للمرء أن يفسّر سلوك صبي لم يلقنه أحد ولم يقلّد أحداً.

كان محمد غارقاً في التفكير محاولاً أن يجد تفسيراً منطقياً لما لمسه من سلوك علي فيسعده عجزه عن عقلنة الظواهر ليعزز ما توصل إليه من قناعة في اختبار الأمور فتنكشف أمامه طلاسم الشيخ نوفل، وكلما ارتفع صوت الشك في داخله أخرسه السرّ الذي لا يعرفه سواه، السرّ الذي يجعل الواقع محض كذبةٍ، تلوكها ألسنة الجهّال والغافلين:

«سيقولونَ شاعر.. مجنون.».

«ليقولوا ما يشاؤون.. فتهمة الجنونَ جاهزة عند من نخرت عثة الكسل دماغه..»

«كيف لهم أن يصدقوا ما لمسته بيدي ورأيته بعيني؟»

«كيفَ لهم أن يصدقوا أن الذي كان يعيش بينهم.. ويعلّم أبناءهم حلّ طلاسم الحروف.. كان هو نفسه طلّسما لا يعرف فكّ رموزه سواه؟»

«كيف لهم أن يصدقوا أن الشيخ نوفل بهيكله ولحمه لم يكن سوى سمكة.. سمكة طوّعتْ خياشيمها لالتقاط الهواء.. واختارت البرّ مكاناً لها؟»

«ن والقلمِ وما يسطرون. ما أنتَ بنعمةِ ربكَ بمجنون».

كان محمدَ يتأمل ما لاحظه من سلوك علي خلال رحلته ليروز مقدرته على تحمل السرّ، ولكي يختبر فراسته، مقلداً شيخه حينما اختار من بين عشرات الصبيان المنعّمين صبياً فقيراً، ضائعاً، ساهماً، منطوياً على نفسه، لا يعرف من أمور حياته غير العزف للفراغ على شبابةٍ مثل راعٍ

سلبته الحياة أغنامه، ويقارن نفسه بعلي ليجد ما يشابهه في السلوك، فإضافة إلى صبره غير الطبيعي على الجلوس نهاراً كاملاً في مكان واحد وتحمله الجوعَ والعطشَ وحراره الشمس الحارقة دون خوف أو قلق، وفطنته التي غابت عن محمد نفسه والتي تمثلت بنسيانه أن يشتري هدية لفاطمة أو لبهيجة من الميناء الذي كان يمتلئ بالبضائع النفيسة والتحف الغربية القادمة من مختلف بقاع العالم. لقد اكتشف في علي ما جعله يختض إعجاباً وحماسةً، فبعد أن قدّم أمامَ والديه وصفاً دقيقاً لكل ما شاهده في رحلته بلغة تعجز ألسنة البلغاء عن إيصال بغيتها، متوقفاً عند جزيئات لا تلتقطها إلا عين مراقب خبير في إلتقاط التفاصيل المضمرة، ها هو يكشف عن موهبةٍ مذهلة، فقد فوجئ محمد حينما سمع علياً يردد كلّ ما سمعه من أغاني البحّارة والعتالين في الميناء بذاكرة غير طبيعية، ومن بينها أغانٍ بلغاتٍ غريبة، مقلّدا أصواتهم وحركاتهم.

... ثم توالت اكتشافات محمد لمواهب ابن أخيه والوريث الذي علّق عليه الأمل أن يكون بمنزلة هرون من موسى. مرةً اصطحبه معه إلى البستان وتركه يلعب وينطّ على الأشجار، بينا هو انشغل في الحديث مع المزارعين حول الزراعة والمحاصيل، مطمئناً إلى أن علياً اعتاد على اللعب في البستان وخبرَ مسالكها، وأنه تحت مراقبة المزارعين المنتشرين في كل أرجائها. صرخ أحد المزارعين وجاء راكضا ليخبر محمداً بأن علياً يلعب بالقرب من جحر الأفاعي، وما كاد الرجلُ يكمل كلامه حتى وصل عليّ وهو يحمل أفعى أطول من قامته بكثير، ذيلها يخط على الأرض وقد لفّ جذعها على ذراعه كأنه يلفّ حبلاً، ماسكاً رأسها بإحكام من الخلف بأطراف أصابعه، وهو يضحك ببراءة وانتشاء، مدلقاً لسانه مقلداً الأفعى. انتشر الرعب بين المزارعين، متحفزين لما يتوقعون أن يحدث إنْ سها الصبي أو أخطأ في التعامل مع الأفعى، أو ربما يدفعه نزقه إلى التمادي في المزاحِ فيرميها بوجه أحدهم. طلب محمد منه بحزم أن يعيد الأفعى إلى مكانها، إلاّ أن علياً رماها على

الأرض فراحت تسعى بسرعة. أسرع أحد المزارعين نحوها، وقبل أن يهوي بالرفش على رأسها هجم علي عليه، وبقوة رجلٍ لوى ذراع الرجل منتزعاً منه الرفش. توقف الرجل مذهولاً وهو يتطلع بخوف نحو علي الذي راح جسده يختض وعيناه تتقادحان، منتظراً إشارة من محمد الذي تطلع هو الآخر بنظرات استفسار نحو ابن أخيه، وقد ارتسمت على وجهه علامات غضب لفتت نظر عمّه إليه، فسأله:

«لماذا منعت الرجلَ من قتل الأفعى؟»

حاول علي أن يجيب على سؤال عمه فخذله لسانه. أدرك محمد بأن شيئاً ما يدور في ذهن علي لابد أن يعرفه، أو أن ردّة فعل المزارعين قد أربكته وأشعرته بخوف من فعل لم يكن يدرك خطورته. رفعه من تحت إبطيه وضمّه إليه ممسداً شعر رأسه حتى توقف جسده عن الارتعاش وهدأت أنفاسه.

في طريق عودتهما من البستان كرر محمد سؤاله عن سبب غضبه على المزارع الذي حاول قتل الأفعى، فكان جواب علي ما لم يخطر في ذهن محمد قطّ:

«لم تستكنِ الأفعى بين يديّ إلا لأنها اطمئنت لي.. وليس من الشهامة أن يُقتلَ المطمئِن».

شعر محمد بأنه ليس أمام صبي لاتزال رائحة حليب أمه في أنفاسه، بل هو أمام رجلٍ عبّ من العلم والخبرة في الحياة ما يعجز عنه الشيخ العارف، وقد أذهلته بلاغة الجملة التي نطقها. حاول أن يستدرجه للاستفاضة، فسأله وهو يغطي وجهه بكفه محاولاً إخفاء عينيه اللتين اغرورقتا بالدهشة والدموع:

«حتى لو كانت أفعى سامة؟»

«نعم».

قال علي بإصرار، ثم أضاف كأنه يحدث نفسه:

«البادئ بالقتل ظالم...»

أراد محمد أن يستدرج علياً أكثر ليكشف ما يدور في ذهنه، إلا أنه تخلى عن الفكرة لسبب يجهله. ساد صمت بينهما.

فجأة توقف علي عن المشي، فظنّ محمد بأنه قد تعبَ ويحتاج إلى استراحة، وكانا قد اجتازا مسافة ليست قصيرة في مزارع القمح التي تفصل بين البستان والحي الصناعي والتي كان يطلق عليها مفازة الجن قبل أن يستولي عليها محمد. خاطب محمد علياً، مازحاً:

«الرجال الأشداء.. مروضو الأفاعي.. لا يتعبون».

«لم أتعب».

قال علي وهو يضع يديه على خاصرته.

«لماذا توقفت إذن؟»

تطلع عليّ في وجه عمّه ساهماً، فهزّه محمد من ذراعه ليوقظه من صمته:

«ما بكَ؟»

فردّ علي بصوت واطئ:

«أسمعُ صوتاً غريباً».

تطلع محمد إلى جانبيه للتأكد مما يقوله علي الذي راح يؤكد بأنه يسمع صوتاً غريباً قادماً من جهة مجهولة أو من لاجهة. انتبه محمد إلى الطريقة الغريبة التي يتحدث فيها هذا الصبي الذي بدأ يكتشف نموّه باللحظات وليس بالسنين، فراح يؤكد له بأن ما يسمعه ربما هو صوت الريح أو صوت القبرات والقطا بين السنابل. هزّ عليّ رأسه نافياً، مؤكداً عدم قناعته بما قاله عمّه. ارتفعتْ ضحكة محمد ليخفي اختلال ثقته بنفسه من شرخ أحدثه «فرخ دجاجٍ خرج من بيضته تواً». بترَ ضحكته فجأةً وراح يتفحص المكان جيداً حتى تأكد بأنهما يقفان الآن في مركز الدائرة تماما، الدائرة التي خطّها هو نفسه يوماً في مفازة الجن، حينما سمع صوتاً قادماً من جهة مجهولة يدعوه إلى التخلي عن فكرة الانتحار التي كانت تراوده آنذاك، مبشراً إياه «بأنه المصطفى». مسك محمد علياً من

ذراعه وسحبه بقوة حاثاً إياه على الإسراع للخروج من الدائرة.

تلك الليلة لم يستطع محمد النوم، وقضاها في السرداب باحثاً في دفاتره القديمة عمّا دوّنه من الحديث الذي جرى بين الشيخ نوفل ومناف حول إيليّا التشبي والغريب بين أهله، نافضاً الغبار عن مخطوطات لم يعرها اهتماماً من قبل، تتحدث عن سيرة الرجل الزاهد الذي أحب الله وأبغضَ العالم وكلّ ما فيه، كارهاً الشهوة وما يشغل الناس، متخذاً البرية سكناً له.

شعر بتأنيب ضمير لما فكّر به وما يسعى إليه من اختطاف صبي من عالم طفولته وإدخاله في دائرة الغموض وتلقينه بكلامٍ أكبر بكثير من قدرة عقله على استيعابه. أدركَ أن أخاه منافاً كان محقاً حينما حذّره من «تسميم تفكير الصبي»، فأخجله سعيه وطموحه الذي يدفعه إلى التعامل مع كائنات بريئة كأشياء أو أحجار شطرنج يحركها على رقعة هذا العالم الوسخ الذي يخوض في لججه، لاعناً في سرّه السلطة والجاه، وذاك اليوم الأسود الذي وضع فيه خطوته الأولى على هذا الدرب المحفوف في الاستلاب والمخاطر. لم ينم حتى اتخذ قراره النهائي بإيقاف هذه اللعبة الشيطانية، وإخراج ابن أخيه من دائرتها المعتمة، وهذا ما فعله في الأيام اللاحقة، مكتفياً بزيارات متباعدة وسريعة لبيت أخيه، متحججاً بإنشغاله كلما طلب عليّ مرافقته، وحتى حينما يلتقي به في زياراته لبيت أخيه، كان يحاول أن يحثه على حفظ الشعر وتعلم العزف على الشبابة أو الناي، أو أن يحقق الحلم الذي لم يستطع تحقيقه، وهو العزف على العود.

استيقظ محمد على طَرْقٍ متواصلٍ على الباب. نهض من فراشه مرعوباً. أضاء المصباح. كانت الساعة تشير إلى ما بعد منتصف الليل ببضع دقائق. ارتدى برنسه وخرج من الغرفة، غير أنه عاد مسرعاً. فتح الخزانة وأخرج من بين طيّات الملابس مسدسه. فتح الباب بيده واليد الأخرى على المسدس. فوجئ بعليّ واقفا أمامه، يرتعش من البرد وقد بلل المطر ثيابه ورأسه. سحبه إلى الداخل، غير أن عليّاً اعترض،

وبحركات من يده حاول إيصال الرسالة. عرف محمد أن أمراً قد حدث لفاطمة فقد ساء وضعها الصحي منذ يومين. بعد أن توقف علي عن اللهاث قال جملة مرتبكة أستطاع محمد أن يفهم منها أن أمه تستدعيه لتوصيه أو لتخبره بشيء. مسك محمد علياً من يده وانطلقا دون أن يخبر بهيجة بالأمر. حينما وصلا البيت، كانت فاطمة قد فارقت الحياة قبل وصولهما بدقائق قليلة. تطلعَ إلى وجهها وقد غادرته ملامح الحزن الذي رافقها منذ سنوات طفولتها الثلاث، وحلت محله ابتسامة أمومة حانية أضاءت عتمةَ الفراق ورهبة الموت. تجمدتْ مشاعر محمد وهو يتطلع بذهول إلى وجه الراقدة في سلام، وارتبك فلم يعرف ماذا يفعل، حتى من شدة ارتباكه لم يفطن لوجود بهيجة في المكان. انخرط في بكاء هيستيري ضارباً رأسه في الجدار، مما دفع منافاً إلى سحبه من يده وإخراجه من الغرفة.

أسئلة كثيرة أثارها موت فاطمة في نفس محمد، فبعد أن انتهت مراسيم العزاء التي قضاها في حزنٍ شديد وانهيار أثار استغراب الرجال، تناهشته الأسئلة:

«ماذا أرادت أن تقول له فاطمة قبل موتها؟ وأية رسالة أرادت إيصالها إليه؟»

«ليس حضانة علي بالتأكيد فقد تحدثا في هذا الأمر من قبل».

«لماذا سبقته بهيجة إلى المكان متخلية عن حذرها في كشف ما لم يعرفه أحد عنها؟»

«أي سرّ أرادت أن تعرفه بهيجة من فاطمة قبل أن تبوح به إليه؟ وهل استطاعت أن تعرف شيئاً، خاصة وأنه عرف منها لاحقاً بأنها حضرت لحظات الاحتضار الأخيرة.. وهي من قامت بإطباق جفنيها؟»

«هل كانت فاطمة تعرف سرّاً لا يعرفه من أسرار بهيجة؟»

«لماذا لم يبدُ الحزن على مناف؟ حتى بدا كأنه تخلص من عبء ثقيل؟»

كان مناف يتذرع بالصبر والإيمان بإرادة الله وقدره، مردداً بلسانٍ يدّعي الورع ما لُقنَ به من آيات قرآنية أو مقولاتٍ سمعها في مجالس العزاء:

«إنّا لله وإنّا إليه راجعون».

«كلٌ من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام».

«لا نسألك ردّ القضاء ولكنا نسألك اللطف بنا».

آيات، يرددها بتمثيل مفضوحٍ، كي يغطي على اللامبالاة بموت إنسانةٍ عاشرها أكثر من ثلاثين عاماً، محتملةً على مضض نزواته وعلاقاته النسائية المفضوحة وهي تشد على جرحها، وكانت له نِعمَ «الفرش والغطاء» كما يقال، لكن هذا الأمر إنْ مرره على الغرباء فلا يمكن تمريره على محمد وفطنته ومعرفته بما يدور في ذهن أخيهِ، وهذا ما تيقن منه لاحقاً، بعد أن أعلن مناف في حضرة العائلة عن نيته الزواج ولم تمضِ أربعون ليلة على وفاة فاطمة، متحججاً بحاجته إلى امرأة تعتني بولده وبشؤون البيت. وجد إعلانه هذا من أخواته الثلاث ترحيباً واضحاً، وذا دلالة لا تخفى على محمد، مما جعله يكتم اعتراضه وامتعاضه من التجاهل الذي أبداه الأشقاء لأخيهم الصغير، إلا أنه أصرّ على انتقال علي للعيش معه. حاول مناف أن يعترض على ما قاله أخوه، غير أن اعتراضه الفاتر كان تأكيداً على ظنّ محمد، ولكن وبالرغم من يقينه من كذب مناف، إلا أنه قال بإصرار ذكّر منافاً بإصرار ناصر:

«لن أترك علياً لزوجةِ أب تذّله..».

أبدت كل من أخواته الثلاث استعدادها على احتضان علي، لكنّ نظرة صارمة من عيني محمد تدل على نفاد صبر أوشك يعلن عن نفسه وينفلت من عقال حلمه، جعلت الأخوات يدركن أنهنّ ليس أمام ذلك الطفل اليتيم الذي جاء إلى الحياة على كره منهن، بل عرّت نظرته إليهن ما كن يخبئنه من غيرة في دواخلهن على ابنة عمهن التي آثرها أبوهن شفقة على يتيمةٍ قدّم أبوها حياته ثمناً للصيت الذي مازلن يفتخرن به،

كذلك أدرك ما يخفين من غلّ على أخٍ غير شقيق حينما قالت سمية مخاطبةً منافاً:

«علي أقرب إلينا منه».

جذّ محمد على نواجذه لكي يكظم غيظه، لكن نظراته الغاضبة التي وجهها إلى مناف، جعلت منافاً يلوم شقيقته على ما تفوهت به، فاستدركت:

«أقصد.. أن زوجته غريبة عن العائلة ولا نعرف شيئاً عن أصلها».

«ليست المأساة أن يعيش الإنسان حياته مع إناس غرباء.. بل المأساة أن يعيش الإنسان غريباً بين أهله».

ردّ محمد بنبرة حزينة دون أن ينظر إلى وجه أخته الكبيرة، التي اعتبرت كلامه إهانة لها وخروجاً على تقاليد العائلة الهاشمية، على الرغم من أنها لم تفهم شيئاً مما قاله. أنهى مناف الجدال بأن سمح لمحمد بأخذ علي تبعاً «لوصية المرحومة أمه». مسكت سميّة ذراع ولدها وسحبته بقوة، ثم غادرت وهي تمتم بكلمات غضب لم يعرها أحد اهتماماً.

لم يعتبر محمد فرضَ إرادته انتصاراً، بل على العكس كان يشعر بمرارة شديدة بسبب افتضاح وهن العلاقة الأسرية أمام ما تكلس في النفوس من ترسبات التقليد الأعمى وسطوة الحسد التي تتحكم في نفوس، كان همّها الأول إشهار الفضيلة كحجة وتبرير لما كانت تظهره العائلة من تفاخر الانتماء إلى العائلة الهاشمية. الذي أغاظه أكثر ما لمسه من مناف، حينما تخلّى عن مسؤوليته عن حضانة ولده الوحيد بطريقة لم يكن يتخيلها، بل إنه كان يخفي في داخله سعادة لموت فاطمة وإنْ حاول أن يظهر الحزن أمام الناس. هل هذا ما كانت تعنيه فاطمة حينما كانت تردد في لحظات غضبها «أعرفكم يا آل هاشم، مهما بلغتم من رفعةٍ تتصاغرون أمام شهوتكم للنساء فتدفعكم أهواؤكم إلى ارتكاب ما لم يرتكبه وضيع».؟. أما أخواته فلا تزال عثة الحقد تنخر فيهن على امرأة

أبيهن، حتى بعد مرورِ سنوات عديدة على موتها، ولم يشفع لها موتها المبكر وحرمانها من رؤية وليدها.

هزّ محمد رأسه بأسى، كأنه اكتشف حقيقة ابن آدم وما تخبئ نفسه من أدرانٍ لم يغسلها ما يدعيه من مُثُل وأخلاق، فالجنس والمال وسطوة التقاليد إشارات واضحة على طريق سعيه في هذه الحياة، التي يقضيها لاهثاً على شيء لا يدركه، وبدونها لم يرَ في حياته من جدوى.

«السلطة كذلك».

سمع صوتاً يخاطبه من لا جهةٍ، فتوقف عن استرساله في تأنيب الكائن البشري والنظر إليه من شاهق. شعر بالخجل من افتضاح سرّه، فردد مبرراً لنفسه:

«لكل شيطانه».

رفع رأسه فوجد بهيجة تتطلع إليه بنظراتٍ تخترق جمجمته، كأنها تقرأ ما يدور في داخلها. تطلع إليها بابتسامة خجولة فهزت رأسها لتؤكد له ظنه بأنها تعرف ما يدور في ذهنه. جلست إلى جانبه فوضع رأسه على صدرها. ضمته بقوةٍ نحوها فأجهش في البكاء كأنه يعيد إلى نفسه براءتها الأولى، البراءة التي جرّحها طموحه وشوّهتها معرفته بأحوال الناس.

كانت بهيجة تتطلع إلى محمد بحنوّ أمٍ ترى المسافةَ المضيئة ما بين طفولة ابنها وفتوته، وبزهو عاشقة ترى الجموح والرقة في حبيبها. كانت تنتظر بصبر وتأنٍ أن ينهي طقس طفولته الذي اعتادت عليه وقد زاد من إعجابها وولهها بمحمد، لكي تخبره بما كتمته عنه خلال الأيام السابقة. كانت تنتظر لحظة خارجة عن زمن البندول المتأرجح بين الولادة والموت، أو بين الفرح والحزن، لحظةً خارج الصفات المألوفة تليق بغنج أنوثتها وفحولة عاشقها. توقف محمد عن البكاء وتطلع إلى وجه بهيجة الذي رآه كما ألفاه وديعاً، غامض التفاصيل كقصيدة شعر لا تمنح مفتاح سرّها إلا لعاشق تمرست عيناه على رؤية الجمال.

«أنا حامل».

قالت بهيجة وهي تنظر في عيني محمد اللتين مازالتا لم تستيقظا من غَبَشِ حزنهما بعدُ. حاولت أن تطيل تركيزها في عيني محمد لترى ردة فعله بما ستخبره، غير أنها لم تستطع الصمود أمام نظرات عينيه اللتين أشرقتا للتو، فأغضت بصرها بخجل غير إرادي. أحاط محمد بذراعه كتفي بهيجة فألقت رأسها على صدره... وساد صمت طويل بينهما.

تلك الليلة بقي محمد يعزف على نايه حتى الصباح.

* * *

(٨)

حاولَ محمد أن يخفي عن بهيجة خيبة أمله بانتظار صبيّ يحمل اسمه واسم عائلته، خاصة وأن الفرصة في تكرار الحمل أصبحت ضئيلة جداً، فقد تجاوزت بهيجة الخامسة والأربعين من عمرها وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من سن اليأس، ولن يجرؤ على أن يتزوج بامرأةٍ ثانية كما يفعل الرجال الآخرون، فليس هو على شاكلتهم وليست بهيجة كنسائهم الخانعات. كانت بهيجة تعرف ما يدور في ذهن زوجها، إلا أنها افتعلت التجاهل، بل أبدت سعادة كبيرة بوليدتها، حتى ظن محمد بأنها تسعى إلى فرض رغبتها عليه أو على الأقل إلى إغاظته، خاصة بعد أن راحت ترفع صوتها هازجةً وهي ترقّص زهرة:

نحن بناتِ هاشمْ	نرقى على السلالمْ
زهرٌ بعينِ حالمْ	شوكٌ بقلبِ غاشمْ
إنْ تصلوا نسالمْ	أو تمنعوا نخاصمْ

فكان محمد يشعر بأن عدوين في داخله يتصارعان، وهو يقف متفرجاً عليهما بحيادية كأن الأمر لا يعنيه، فبينا كان هو سعيداً بأبوّته وبشعور لم يعرفه من قبل أيقظ في روحه معزوفة جديدة أو قصيدة أهداها إليه وحي سماوي فهفت روحه لهذا الكائن الجميل، كان هناك شعور آخر يسخر من هذه الرقّة التي لا تليق إلا «بشاعر مجنون»، وليس بقائدٍ وضع هدف التحدي والسلطة نصب عينيه، بطموحٍ يتطلب الصلابة لمقارعة أعداء كثرٍ، يحاولون استغلال أية نقطة ضعف عنده ليجعلوا منها سبباً للسخرية أو النيل منه ولينامو ليلهم مرتاحين،

ضامنين مستقبل أولادهم الذي لن يقلقه رجل مقطوع السلالة.

كانت زهرة طفلة غريبة. لا تحمل أيّ شبهٍ بمحمد، فهي شقراء الشعر، بيضاء البشرة وبعينين واسعتين خضراوين بأهداب شهلٍ طوال، ذات أنف منحوتٍ بدقةٍ لم تعرفه السلالة التي اشتهرت بالأنوف الكبيرة المفلطحة أو المقوّسة كمنقار ببغاء، وهذا ما جعل البعض خاصة من النسوة اللواتي جئن يباركن لبهيجة بأن يتهامسن بخبث في ما بينهن ليتحول هذا الهمس في ما بعد إلى شائعة تتناقلها الألسن، شائعة يمكن أن تسقط أيّ عرشٍ وتُجري أنهاراً من الدم، غير أن محمداً كان يعرف ما لا يعرفه الآخرون، ولكن السرَ الذي يختفي وراء معرفته زاد من عذابه، فهو لا يستطيع البوح به وإن كان يتمنى لو يستطيع ذلك على الأقل لأخواته اللواتي وجدن في الأمر حجة للتصريح بشكوكهن ومطالبتهن إياه علانية بتطليق بهيجة:

«استغلت سفرك وغيابك لكي...».

تقول إحداهن، فتردّ الأخرى بهمهمةٍ، كاشفةً عن صدرها وهي تبصق في زيقها بحركة شائعة تدل على الاستغفار وطرد الأثم:

«استغفر الله.. استغفر الله.. إن بعض الظنّ أثم..».

بينا تهز الثالثة رأسها دون أن تنطق بسوى نظراتٍ مليئة بالشك المراوغ.

ما كنّ يجرؤن على التصريح بما يدور في أذهانهن أو على إكمال الجملة، لكنّ الجملة واضحة القصد بل في نقصانها ما يزيد من لوعة محمد، أو أنهن يفتعلن الإعجاب والبراءة بجملةٍ تنضحُ بالخبث:

«سبحان الخالق.. هذه ليست بشراً.. هذه جنيّة».

... وكانت بهيجة واثقةً تماماً بأن الشائعات لن تأخذ تفكير محمد إلى دائرة الشك، ولكنها لم تكن تتصور أن محمداً لا يختلف عن غيره من الرجال في نظرته البدوية إلى الأنثى، على الرغم من أنهما تحدثا طويلاً

حول هذا الاحتمال أثناء فترة الحمل وقد لمست منه ما يوحي بأنّ لا فرق عنده بين الصبي والأنثى طالما هما ثمرة حبهما العظيم، وقد أخبرته ومنذ أسابيع الحمل الأولى بأن الجنين الذي في رحمها أنثى، إلا أنه لم يصدقها ولم يقطع الرجاء بأن يكون أحساسها خاطئاً، وحينما أصبح الأمر واقعاً اكفهر وجهه حزناً، والأنكى من ذلك أنه وقع تحت تأثير ما قيل عنه وكأن الأنثى عار أو انتقاص للرجولة، وقد كانت تظن بأنه أكبر من أن ينساق وراء كلام الجهّال. أخفت بهيجة ما علق في نفسها من خيبة ظنّ بسبب ما لمسته من ضعف زوجها، عاذرةً إياه لجهله بما تخفي له الأيام، وأشفقت عليه من شماتة رجال يضمرون له الحقد ويتحينون الفرص للسخرية منه، لذلك قالت له:

«اسمعْ يا محمد.. إن زهرة ليست كبقية إناث الولاية».

أدرك محمد ما تريد بهيجة قوله، إلا أنه أراد أن يعرف منها المزيد فأصغى إليها راسماً على وجهه علامات الاهتمام، فأضافت:

«سيكثر الصبيان من نسل هاشم.. ولكن..».

توقفت عن الكلام وارتسمت على وجهها علامات استغراق حتى كأنها في غيبوبةً أو تمثال جامد، لولا ارتجافة شفتيها وارتعاشة أجفانها. مسك محمد بكفيْ خديجة. كانت راحتاها باردتين وقد أغرقهما عرق غزير. هزها من ذراعها فاستيقظت من غفوتها وعلى وجهها ابتسامة مشرقة، انتقلت إلى وجه محمد وقد أزالت عنه كلّ ما استبد به من تفكير. ضمّها إلى صدره وراح يمسد شعرها وجيدها وذراعها، ولكي يستدرجها إلى اكمال نبوءتها، سألها:

«ولكن كيف سيكثر الصبيان من نسل هاشم؟...»

مطتْ شفتها السفلى، باسطة كفيها، وأجابتْ:

«لا أدري.. ولكن سترى قريباً».

رفعت رأسها وتطلعت في وجه محمد بنظرات غريبة، وقالت وهي تسبل جفنيها:

«ولكن لن يحمل السرّ إلا أحفادك..».

توقفت قليلاً ثم أضافت:

«من أبنائهما».

قالت وأشارت بنظرتها إلى زهرة وعلي، الذي كان مشغولاً في استنساخ إحدى المخطوطات. ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه محمد كأنه تذكر أمراً أعماه جهله وغروره عن رؤيته، فهو يثق بما تراه بهيجة وبأن ما تقوله هو نبوءة محتومة التحقق، لكن ابتسامته سرعان ما تجمدت بعد أن تغيرت ملامح وجه بهيجة وارتسم الحزن على تقاطيعه. حاول أن يستدرجها إلى الاستفاضة في البوح، إلا أنها صمتت مسبلةً جفنيها كأنها تغور في قرار نفسها، أو تنتظر كلماتِ الغيب تلتقطها لوامس استشعارها. كان محمد ينظر إليها برهبةٍ وخوف مما ستبوح به. سالتْ دمعتان كبيرتان من عينيها المغمضتين، ثم راحت شفتاها ترددان كلمات غامضة لم يستطع محمد التقاط منها إلا جملة غامضة، ظلت بهيجة تكررها بهمهمة حزينة:

«لابد من قربان.. لابد من قربان.. لابد من قربان..».

هبّتْ واقفة، وغادرت الصالة. لمحَ محمدُ عينيْ بهيجة وقد اغرورقتا بالدموع. ساد صمت عميق، فسرحَ محمد في تفكيره، محاولاً إيجاد تفسير لما قالته بهيجة، وأي قربان ينبغي تقديمه؟ ولأي إله؟، حتى غفا جالساً، دون أن يدري.

لم يمض على حديثهما سوى أشهر قليلة حتى تأكد محمد من صدق نبوءة بهيجة، فقد ولدت زوجة مناف توأمين، صبيين. أدركَ محمد أنه كان على خطأ حينما اعترض على زواج أخيه، وحينما طلب الصفح من أخيه على سوء الظن، ارتفعت ضحكة مناف وهو يحتضن محمداً. لم يدرك محمد سبب ضحك أخيه إلا بعد أن أخبره مناف بأنه هو نفسه قد وقع في الخطأ نفسه حينما لم يوافق في سرّه على زواج أبيهما من أم محمد، غير أن «ابن آدم لا يدرك ما تخبئ له الحياة»، قال وهو يهز رأسه بكبرياء حكيم عركته التجربة، ثم وبورع صادق راح يردد:

«عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم...»

أما علي فقد كان فرِحاً بأخويه جعفر وعقيل، لكنه آثر البقاء في بيت عمّه على العودة إلى بيت أبيه، حينما طلب منه أبوه ذلك.

عادت إلى محمد ثقته بنفسه، بعد أن تراخت همته في تسلق السفح الوعر، ربما كانت نبوءة بهيجة وولادة صبيانٍ في عائلة هاشم وضعتا مستقبلاً للحلم الذي يسعى إلى تحقيقه. عاد تفكيره إلى العمل بوتيرة سريعة، وراحت الأفكار تترى على رأسه والمشاريع ترتسم في مخيلته واضعاً لنفسه برنامجاً صارماً لتطبيقها. قوّى أواصر علاقته بالحزب الاشتراكي من خلال مواظبته على حضور الاجتماعات الحزبية أو اللقاءات المتكررة بصديقه سلمان العجمي وتقديم تبرعات جزيلة وتشغيل كل الرفاق العاطلين عن العمل. أما وقت فراغه فكان يستغله في مراجعة المخطوطات أو كتابة قصائده وتأملاته في أسرار الحياة وأحوال الناس. تحسنت علاقته بأخيه وزوجته فتكررت زياراته لبيتهما، ولم يغفل عن زياراته لأخواته، اللواتي نسين أو تناسين ما يحملن لأمه من حقدٍ، تحت تأثير ما كان يحمله من هدايا في كل زيارة يقوم بها إليهن، وتحسين أوضاع عائلاتهن بتشغيل أزواجهن في أعمال تدرّ عليهم الكثير، أما أخته الكبيرة سمية والتي كانت الأكثر صراحة في التعبير عن معارضتها لأبيها في الزواج من أم محمد، والتي لم تخفِ حقدها على بهيجة وحسدها وتشككها بكل ما يسعى إليه محمد، حصلت على الحصة الكبيرة من هباته، فقد قام بتشغيل زوجها عبيد الغواص العاطل عن العمل حارساً على مخزن الحبوب، وتشغيل ولدها جبير الذي كان يعمل مساعدَ جزّار مشرفاً على البستان وعلى حقل تربية الأغنام والعجول، عندئذٍ تحولت إلى نقيض ما كانت عليه تماماً، فأصبحت من أكثر أفراد العائلة الهاشمية حباً لمحمد، حتى بعد أن كاد ابنها يدفع حياته دفاعاً عن محمد في معركة حي التنك.

* * *

(٩)

كان البدء في تشغيل معمل الآجرّ حدثاً كبيراً في المدينة، حدثاً أصبح في ما بعد علامة أو نقطة فاصلة في أيام الناس تؤرخ به أيام المواليد والوفيات، على الرغم من أنه لم يكن حدثاً مفاجئاً، فقد تابعوا صعود بناء البرج منذ وُضِع حجر الأساس له، وقد استغرق بناؤه أشهراً عدة، ولم يكن يثير التساؤل أو الشكوك في النوايا سوى الحذر والترقب لما يدور في ذهن محمد من أفكارٍ غريبة ينوي تطبيقها، وماذا سيفعل بعد أن يتم تشغيل المعمل وينتج الآجرّ، وقد سمعوا بعض ماأشيع بأن محمداً ينوي بناء بيوتٍ متينة من الآجرّ والحديد والجص ستتغير بها معالم المدينة، وقيل إنه ينوي جعل المدينة بطراز حديث مثل مدن الساحل الشمالي التي زارها في سفراته التجارية، لكن مشهد الدخان الكثيف الذي تصاعد اليوم في السماء شدّ إليه الأنظار، فاشرأبت الأعناق أول مرة إلى بناء مرتفع غير مئذنة المسجد الكبير، ولذلك أطلقوا عليه في بادئ الأمر تسمية (المئذنة)، ولكنها مئذنة يرتفع منها إلى السماء دخان لا أذان ولا دعاء، وهذا ما دعا رجال الدين في المدينة إلى تحريم النطق بهذه التسمية، وخصصت خطب الجمعة في المساجد للتحذير من شرّ قادم، واعتبر الأمر علامة من علامات قيام الساعة، حيث أنهم لم يعرفوا أو يتوقعوا يوماً أن يرتفع شيء أعلى من اسم الله في السماء، وحينما اعترض بعض العقلاء معتبرين أن في الأمر مبالغة أو مؤامرة من رجال الدين لغاية في نفوسهم لتأليب الناس ضد محمد، كان رد الفريق الآخر بأنهم شاهدوا من قبل الكُوَرَ وأفران صناعة الآجر ولم تكن ذات

أبراج عالية بحيث تُرى من المدينة على الرغم من أنها تبعد أكثر من عشرة أميال عن مركزها، وإنْ كانت عالية فهي لا تتجاوز ارتفاع مئذنة المسجد، فلماذا اختلقَ محمد هذه البدعة إنْ لم يضمر في نفسه شراً يريد به تضليل الناس عن دينهم وعباداتهم التي توارثوها عن الآباء والأجداد، حتى المعتدلون من الرجال وبعض من أصحاب محمد ورفاقه في الحزب أبدوا اعتراضاً بحجة أنّ ما قام به، لا مبرر له إلا كونه استفزازاً لمشاعر الناس أو محاولة منه للفت الأنظار إليه وإبراز عضلات بوجه من يناصبهم العداء، وتحدياً سابقاً لأوانه.

«إنها بدعة».

هذه العبارة كانت تتردد على ألسنة الناس نقلاً عما سمعوه من إمام المسجد الذي كان يصرخ مزبداً، محذراً الناس من غضب الله:

«كل بدعةٍ ضلالةٌ... وكل ضلالة في النار».

حقاً، الأمر لا يخلو من غرابة، فقد كانت مدخنة المعمل أو البرج كما أطلق عليه أخيراً يختلف كثيراً عما شاهدوه من قبل، ليس من حيث الارتفاع فحسب بل الشكل كذلك، فهو ليس كالمعتاد على شكل أسطوانة، بل كان على شكل مكعب متساوي السطحين ذي قاعدة عريضة، وينتهي في الأعلى بهرم صغير رأسه مفتوح لخروج الدخان، ويقال بأن على سطحيه العريضين حُفرت كتابات وخطوط وأشكال هندسية غامضة، لكن لم يتأكد أحد من ذلك فالمعمل كما أسلفتُ يقع خارج المدينة، وقيل إن العمال الذين استخدمهم محمد في بناء البرج والمعمل كانوا من الغرباء وقد جلبهم لهذا الغرض من مدن بعيدة.

قال أحد الرجال بأنه رأى في الصور أبراجاً تشبه «برج محمد» نصبت في ساحات شهيرة في مدن العالم الكبيرة، يطوف حولها الناس ويلتقط السياح صوراً بجانبها، وقال آخر:

«يريد محمد أن يبني مسلةً كالمسلة البابلية».

لم يأبه أحد بما قاله الرجلان، لكنّ ثالثاً قال فأنشدت إليه الأسماع:

«ألا ترون أن برج محمد يشبه نصب الشيطان الذي يرميه الحجاج بالجمرات؟»

ساد صمت بين المتجمهرين وكل منهم ينظر في وجه الآخر منتظراً منه نفياً أو تأكيداً، فأعاد الرجل ما قاله وهو يتلفت بحثاً عن شيخ أو حاجٍ يتفق معه. بدأت همهمات خجولة ترتفع شيئاً فشيئاً، ثم راح بعض الذين زاروا مكة يؤكدون على ما قاله الرجل، وأثنوا على فطنته ملقين اللوم على أنفسهم لأنهم لم يفطنوا لهذا التشابه الكبير من نظرتهم الأولى للبرج، مرددين بصوت عال الاستعاذة بالله من شرّ الشيطان الرجيم.

«الشيطان».

مفردة قيلت في كل التآويل التي طرحوها لكنها كانت رجماً في الغيب أو إقحاماً مقصوداً لرمز الشر، الذي يظنون أن محمداً يضمره ويسعى إلى نشره عبر إغراء وترغيب الناس من خلال إيهامهم بأنه يسعى إلى إقامة مشاريع كثيرة تعود إليهم بالنفع، وتفتح أبواب الرزق للفقراء والعاطلين عن العمل، منها بناء مساكن شعبية، سيقوم بتوزيعها على الفقراء والمشردين بدلاً عن بيوت الطين والتنك التي يسكنون فيها، أو تعطي الفرصة لمن لا يجيد مهنة أن يتعلم ما يناسبه من عمل يكسب منه رزقه.

ما بين مُصدق ومكذّب لما يقال استيقظت مواهبُ البعض في خلق الشائعات ونشرها بين الناس، وكل ناقل يضيف من عنده ما تستطيع موهبته اجتراحه، وصلت حد إدعاء أحدهم بأنه رأى وجه الشيطان بقرنيه الطويلين وأنيابه البارزة، مفترشاً السماء، رسمه الدخان المتصاعد من البرج. لم يصدقه أحد إلا أنهم ظلوا يتناقلون ما قاله كطرفةٍ أو وسيلة لتخويف الأطفال، غير أن أحد الغرباء الذي لم يره أحد من قبل في المدينة ولا يعلمون كيف تسلل إلى دائرتهم، قال همساً بين المتجمهرين الذين تجمعوا ينظرون إلى الدخان المتصاعد من البرج:

«هذا البرج رمز من رموز الماسونية وعبدة الشيطان».

جفلَ البعض كمن لدغته عقرب حينما سمع ما قاله الغريب، على

الرغم من أنه لم يعِ ما يعنيه الغريب، ولم يسمع من قبل هذه الكلمة الغريبة، وراح يتساءل:

«ماذا تعني الماسونية؟»

لم يتلقَ جواباً غير حركات من الأكف والأكتاف تدل على أن لا أحد من المتجمهرين قد سمع هذه الكلمة من قبل. كان للكلمة وقع سحري على النفوس يثير الخوفَ. حاولوا الاستفسار عن معناها من الغريب الذي قال العبارة. بحثوا عنه في المكان فلم يجدوا له أثراً كأنه فصّ ملح وذاب في ماء ساخن.

أقسم أحد الرجال بأنه سيطلق زوجته إنْ استظل لحظةً بجدار بُنيَ من آجرّ هذا المعمل، ولن يبيع أو يشتري أو حتى يتكلم مع من يستخدم آجرّه، فأيده الكثير من الرجال مرددين القسم نفسه، ولكي يشجعوا الآخرين على اتخاذ موقف المقاطعة اقترح أحدهم أن يطالبوا إمام المسجد بإصدار فتوى شرعية واضحة تعلن تحريم شراء الآجر من معمل محمد وتحريم السكن في بيوت تبنى بهذا الآجر المفخور بنيران الشيطان وأنفاسه.

«ولمَ لا نقوم بقتل محمد؟»

قالَ رجلٌ ذو لحية عريضة غطت وجهه حتى وصلت إلى أسفل عينيه بقليل. اعترض ثانٍ، وجاء اعتراضه بصيغة سؤال:

«وبأي حق نقتله؟»

فردّ الرجل وهو يهرش لحيته:

«إن ما قام به لإثارة الفتنة... والفتنة أشد من القتل».

ساد تملل وارتباك في نظرات الرجال، وبدأ البعض منهم ينسحب بهدوء أو امتعاض من دائرة النقاش، وكان رأي الأغلبية رافضاً لفكرة القتل، لذلك أتفقوا على مقاطعة محمد ورجاله، ومحاولة إقناع إمام المسجد لإصدار فتوى لتحريم استخدام الآجرّ في البناء، وكان لهم ذلك.

لم يكن محمد غافلاً عمّا يدور في المدينة من حديث حول معمل الآجرّ، فقد كانت له عيون تراقب وآذان تصغي إلى ما يقوله الناس، حتى أغبى الشائعات كانت تصل إليه، ولا يستهين بها، بل كان يصغي إلى ناقلها باهتمام يلفت الانتباه ويثير الحيرة في نفوس من عرفوا محمد، وتأخذ من تفكيره أكثر مما يأخذه الخبر اليقين.

... ولم يكن هجوم أعدائه المتربصين به ولا تابعيهم من الجهلة والمتملقين مفاجئاً له، لذا فقد اتخذ التدابير لكل حادث يتوقع حدوثه، محيطاً نفسه بأشخاص يثق بولائهم إليه وبقدرتهم الجسدية على الدفاع عنه لو بوغتَ بإعتداء من أحد الذين يضمرون له الحقد، لكن موقف الحزب كان مفاجأة لم يكن يتوقعها، فقد كان يتوقع أن يكون موقف القيادة الحزبية مناصراً له بلا تحفظ أو تردد، حيث أن ما يسعى إليه يصب بكل تأكيد في مصلحة الطبقة العاملة والفئات المسحوقة من الناس وهذا ما يسعى إليه الحزب ومن أولويات أهدافه، لذا فقد خرج غاضباً بعد مشادة كلامية حادة، حدثت بينه وبين الفهد الذي كان يعارض بشدة ما يسعى إليه محمد بحجة أن ما يقوم به سابق لأوانه ويشكل استفزازاً لأعراف وتقاليد الناس.

«مرض اليسار الطفولي».

قال الفهد وهو يشير إلى محمد، محذراً من أن القفز على الواقع قد يسبب انتكاسة كبيرة لمسيرة الحزب ويفقده شعبيته بين الناس.

«لابد من نضوج الظرف الذاتي والموضوعي».

«خطوة إلى الأمام.. خطوتان إلى الوراء».

«التطرف اليساري كالتطرف اليميني وإن اختلف اتجاههما».

لم يستطع محمد استيعاب ما كان يردده الفهد من جملٍ جاهزة وبشكل ببغاوي، فراح يسخر بنظراتٍ يوجهها إليه من زاويتيْ عينيه، من كلامه النظري الذي يدلّ على جبن أو مساومة، والتحصن بنظرياته البليدة والعنعنة التي لا تختلف عن عنعنات أعدائه أو الشائعات التي تتداولها

النسوة والدهماء، بينا راح الفهد، وبالطريقة نفسها، يسخر من تجربة محمد الضئيلة في مجال العمل السياسي. لم يكتفِ الفهد بهذا بل راح يغمز محمداً وانتماءه العشائري الذي لا يؤهله إلى قيادة المرحلة. لم يحتمل محمد سخرية الفهد وكلامه المتعالي، فنهض غاضباً وغادر المكان قبل أن ينتهي الاجتماع وينفضّ الرفاق.

في تلكَ الليلة زار سلمان العجمي محمداً في بيته ليؤكد له انحيازه إليه ولو بشكلٍ لم يفصح عنه أمام القيادة الحزبية. قضيا الليل في الحديث عن الشائعات ومن يقف وراء إطلاقها والهدف منها، وكذلك عمّا ينوي محمد فعله في الأيام القليلة القادمة. كان سلمان العجمي لا يخفي إعجابه بنوايا محمد وتشجيعه له، هامساً له بتذمرهِ من حالة «الجمود الثوري» التي وصل إليها الحزب، ملقياً بترددٍ وحذرٍ اللوم على قيادة الفهد المنزوي في ركنه منطوياً على نظرياته التي لم تعد كافيةً لفهم مطالب الجماهير.

«لأنه غريب عن المدينة وأهلها.. ولا يمكنه معرفة نبض الشارع.. وطريقة الناس هنا في فهم الأمور».

قال محمد ثم أضاف بشكل أوضح:

«ليس الغريب كإبن الولاية في إخلاصه...»

فجأة توقف عن الاسترسال في الكلام حينما انتبه إلى علامات الامتعاض التي ارتسمت على وجه العجمي، فاستدرك بضحكة خجولة كي يصلح زلة اللسان التي أوقعته في خطأ فظّ دون أن يشعر. مسك كتف العجمي بود، وقال معتذراً:

«سلمان.. أنت لست غريباً عنا».

وبكلام له دلالة يعرفها كلاهما، أضاف:

«سلمان منا أهل البيت».

ابتسم سلمان بخجلٍ محاولاً تجاوز الموقف المحرج الذي أوقع محمد نفسه فيه، لكنه أسرّها في نفسه، مبرراً كلام محمد بطموحه وسعيه

الموارب إلى إزاحة الفهد عن قيادة الحزب واحتلال مكانه. نهض محمد وغاب قليلاً ثم عادَ بكأسين وزقّ فخاري. ملأ الكأسين بنبيذ السريان الذي سبق وأن شرباه معاً. عبّ كل منهما كأسه دفعة واحدة وهما يتبادلان نظرات ودّ أزالت ما علق في نفس سلمان من امتعاض.

اتفق محمد وسلمان العجمي على أنهما سيعملان معاً، حتى لو اعترضت القيادة وتخلى الرفاق عن دعمها، مشيراً إلى أنّ له الكثير من الأصدقاء من خارج الحزب أو من الرفاق غير الراضين عن سياسة الفهد، خاصة من المقيمين في حي التنك، يستطيع الاعتماد عليهم في تأمين وصول عربات الآجرّ إلى الحي وحراسة الطريق، وحتى لو اقتضى الأمر إلى الصدام مع من يعترض مسير العربات.

«هناك رجال في حي التنك يتحرقون شوقاً للعراك.. وحتى لو تطلب الأمر أن ندفع لبعضهم قليلاً من المال».

هزّ محمد رأسه موافقاً على اقتراح العجمي، وهذا ما كان يسعى إليه، حيث أن خطته كانت لكسب تعاطف سكّان حي التنك من الشباب العاطلين عن العمل والأشقياء والهاربين من الشرطة ليشكل منهم مجموعة من المناصرين له كقوة دفاعية أو هجومية إذا تطلّب الحال.

بعد غروب الشمس بساعة تقريباً، انطلقت من المعمل عربات تجرها الخيول والبغال محمّلةً بالآجرّ، مخترقة المدينة من شمالها باتجاه الجنوب حيث حي التنك، يحرسها بعض العاملين ممن اختارهم محمد لهذه المهمة. وقف جبير ابن الغواص عند مدخل الحي الشمالي بانتظار وصول العربات، وقد أخفى تحت دشداشته الساطور الذي يستعمله في ذبح العجول، بصحبة ثلاثة من شباب الحي، بينا محمد كان مختبئاً في خرابة سلمان العجمي التي تسلل إليها متخفياً، كيلا يعطي دليلاً للشرطة على أنه يقف وراء ما سيجري من أحداث يتوقع وقوعها، وقد جهز مسدسه بثلاثة مخازن من الطلقات. سارت الأمور بشكل هادئ وأفرغت العربات حمولتها من الآجرّ في الأماكن المخصصة للبناء، حتى ظهر

الضوء وعاد بعض الرجال من مسجد المدينة بعد صلاة الفجر. كانت آخر عربةٍ توشك الدخول إلى حي التنك، حينما هاجمها بعض الشباب الملثمين بالعصي والحجارة. انضم إليهم بعض الشيوخ وارتفعت أصواتهم بالتكبير وشتم محمد والهاشميين. ترك الحوذي ومساعده العربة وهرعا إلى داخل الحي الذي بدا خالياً من سكانه، وفق ما اتفق عليه، بينا اختفى ابن الغواص ورجاله في منعطف أحد الأزقة القريبة من المدخل الشمالي للحي. اندفع الملثمون الذين تزايد عددهم بانضمام المزيد من الرجال من الخارجين من المسجد أو المبكّرين إلى أعمالهم بعد أن أغراهم خلوّ الحي، وراء عربة أخرى كانت قد سبقت العربة الأخيرة بدقائق قليلة، حتى وجدوا أنفسهم وقد توغلوا إلى داخل الحي الذي لم يجرؤوا يوماً على دخوله بسبب شراسة رجاله وعدم تورعهم في ارتكاب أكبر الجرائم، عندها أحكم عليهم شباب حي التنك الطوق من كل الجهات. في البدء أطلقوا نحوهم كلاب شرسة، راحت تلاحقهم في ساحة الحي فتراكضوا في كل الجهات محاولين الاختباء في منعطفات الأزقة أو الخرائب، هناك تلقفتهم أيدي الشباب بقبضاتٍ أدمنت العراك.

إلتزم شباب حي التنك بتعاليم سلمان العجمي في التعامل مع المهاجمين، بأن يتجنبوا قتل أي رجل منهم أو يتركوا به عاهة دائمة، ويكتفوا بأن يثخنوا بهم الجراح ويربطوهم بالحبال. بعد أقل من ساعة كانت المعركة قد انتهت. استطاع بعض المهاجمين من الافلات والهرب خارج الحي، بينا الأكثرية من رجالهم وقعوا منهكين والدماء تجري من أنوفهم ووجوههم في أيدي شباب الحي الذين أوثقوهم بالحبال. أجلسوهم متكدسين على بعضهم ومكبّين على وجوههم في الساحة التي تتوسط الحي وقد تجمع حولهم الأطفال ساخرين منهم وارتفعت ضحكات داعرة من النسوة الفخورات بشراسة رجالهن وأخوتهن. أصيب بعض شباب الحيّ بجروح طفيفة، لكنّ حجراً كبيراً أصاب جبير ابن الغواص في رأسه فشجّ جبهته. حمله سلمان إلى خرابته وتولى ممرض

عجوز إسعافه وخياطة جرحه وتضميده. أما محمد فقد تسلل خارجاً من ثغرةٍ في سياج الحي الجنوبي أثناء انشغال الشباب في العراك، حسب ما خطط له مع سلمان العجمي.

تفنن شباب الحي في إذلال أسراهم بالضرب والجلد وإغراق رؤوسهم في مجاري المياه الآسنة وفضلات البالوعات وتهديدهم بالكلاب المسعورة، بينا هم وقفوا حولهم ساخرين، حتى أمر سلمان العجمي بإطلاق سراحهم وسحلهم إلى خارج الحي. تجمع الناس في المدينة حول الرجال المكبلين طالبين النجدة لإسعافهم دون أن يفعلوا شيئاً. تراكض البعض إلى مخفر الشرطة لإعلامهم بالحادث. كانت الوجوه تحدق إلى بعضها البعض مستفسرةً عما جرى ومن يقف وراءه، وكلها تشير إلى جهة محمد، لكن لا أحد يجرؤ على إشهار اتهامه علانية مكتفين بهمهمات غامضة، حتى فوجئوا بوصول محمد إلى مكان التجمع، فانشدت الأنظار إليه. أزاح بذراعه أجساد المتجمهرين فانفلق جدار الدائرة أمامه وتراجع البعض مترقباً ردة فعل محمد على المشهد. سار ببطء حتى وصل إلى حيث تكدس الجرحى، مستفسراً عمّا جرى فتسمرّ الرجال بذهول وقد أخرستهم المباغتة والهيبة التي فرضت نفسها على المكان. لم يجب أحد على تساؤلات محمد متنصلين عما كان يدور في ذهنهم قبل لحظات. وصلت مفرزة من رجال الشرطة فأزاحت المتجمهرين بالهراوات والشتائم. غادر بعض الرجال المكان، مؤثراً عدم التدخلَ في أمر لا يعنيه، متجنباً الدخول في معمعمةِ السين والجيم التي هو في غنى عنها مع رجال الشرطة الإجلاف الذين لا يعرفون غير لغة الهراوة في التعامل مع الناس. تحدث قائد المفرزة مع محمد وإمام المسجد الذي حضر المكان متعوذاً من شرّ الشيطان الرجيم وهو يتثاءب بملل. أشار قائد المفرزة وهو يحرك هراوته في الهواء، إلى بعض الرجال بأن يحملوا الجرحى ونقلهم إلى بيوتهم، وحينما استفسر أحدهم عمّا ستقوم به الشرطة لمعاقبة المعتدين، تطلع القائد إلى السائل بنظرة

استهجان وتعالٍ ونهره بغضب فتراجع السائل خائفاً من أن يتفرد به الشرطي ويفرغ غضبه عليه وحده، ولكي يبرر قائد المفرزة عجزه عن القيام بما يجب القيام به، ألقى باللائمة على الضحايا:

«ما الذي ورّطهم في الدخول إلى حي التنك؟»

وقبل أن يرد أحد على سؤاله أضاف:

«ألا يعلمون أنه مليء بالمجرمين والقتلة؟»

عمّ الصمت على الجميع، فقد كانوا يعلمون جيداً صحة كلام الشرطي، وأن رجال الشرطة أنفسهم لا يجرؤون الدخول إلى الحي منذ حادثة مقتل رجلين منهم وضياع دمائهما في الاقتحام الوحيد الذي جرى للحي قبل بضع سنوات.

غادرت مفرزة الشرطة. غادر إمام المسجد وهو يتعوذ من الشيطان. غادر محمد دون أن يتطلع إلى أحد، وتفرق الجميع وكل منهم يعلم أن محمداً يقف وراء ما جرى، إلا أنّ لا أحد يجرؤ على رفع صوته بالإتهام، ليس خوفاً بل هيبة لسطوة فرضت نفسها على الجميع.

* * *

(١٠)

أصرّ مناف على عودة ولده إليه لكي يتعرف عليه أخواه ويتعرف هو عليهما، فلم يعترض محمد وشجّع علياً على ذلك، وإنْ رأى عينيه قد اغرورقتا بالدموع فأشفق عليه، وفهمَ محمد الأمر على أن علياً يخاف من زوجة أبيه وربما قد سمع حكايات عن ظلم زوجة الأب وقسوتها على أبناء زوجها فطمأنه على أنه سيبقى قريباً منه دائماً، ولن يتخلى عنه.

كان محمد يزور بيت أخيه باستمرار محمّلاً بالهدايا على الرغم من بعض الفتور الذي كان يلقاه من زوجة أخيه ومحاولاتها لإبعاد ولديها عنه، وكان يتابع تطورَ علي من خلال طرح أسئلة في شتى الأمور والاستماع إلى أجوبته، وكذلك من خلال لقاءاته مع الشيخ المشرف على تعليمه، وفي أحيانٍ كثيرة كان يصطحبه في سفراته أو يطلب منه أن يساعده في استنساخ بعض المخطوطات أو ترتيبها وفهرستها. لم يلمح عليه اهتماماً بالأمور التي كان هو نفسه يهتم بها في صباه كالموسيقى أو الشعر، على الرغم من أن له ذاكرة غريبة في حفظ المطولات من القصائد والتواريخ، ولم تكن له كعمّه عينان زائغتان تلتهمان الفضاء بحثاً عن النوافذ المشرعة والستائر المواربة بما تخفي وراءها، لكن اهتمامه الأكبر كان منصباً على ألعاب القوى والجري، فقد كان المتسابق الأول دائماً في كل المسابقات التي تجري بين أقرانه من الصبيان، في القفز والجري أو في رفع الأثقال.

لم يكمل علي الخامسة عشرة بعد، إلا أنه بدا كأنه قد تجاوز العشرين من عمره. جسد قوي يميل إلى السمنة أو هكذا يبدو بسبب قصر قامته.

وجه أسمر دائري عريض، وعينان واسعتان بجحوظ واضح ورموش سود طوال. غلمةٌ صارخة تجلّت في لحيةٍ عريضة نمتْ قبل أوانها وذراعين معضّلتين يغطيهما شعر كثيف. صدر واسع إنْ هبت عليه نسمة برزت من تحت قميصه عضلتا ثدييه كأنهما توشكان على النفور. يبدو هادئاً لكن في داخله يمور اضطراب وتوجس يظهران في تحركاته وتلفته المستمر، كأنه يتوقع في كل لحظةٍ شبحاً يهجم عليه أو أنه لا يثق حتى بالهواء الذي حوله. انتبه محمد إلى سلوك عليّ الحذر وانطوائه، وكلما اكتشف أمراً عادت به الذاكرة إلى الحديث الذي جرى بين مناف والشيخ نوفل:

«إيليّا اسم مقدس ويعني الله ربي».

«كان قوي البنية وذا عضلات مفتولة.. وكان يسابق الخيول في جريها.. وكان يلقب بالتشبي».

«هل تعرف ماذا تعني التشبي؟»

«تعني الغريب.. فقد كان إيليّا زاهداً.. غريباً بين أهله.. أحبّ اللهَ وأبغضَ العالم وكلّ ما فيه.. كان كارهاً للشهوة وما يشغل الناس.. اعتزلَ وعاشَ في البرية».

تأكدتْ لمحمد هذه الملامح حينما طلب عليّ منه أن يسمح له في المبيت في سرداب مخزن الحبوب، وحينما سأله عن السبب، أجاب عليّ بأنه يشعرُ بغربة شديدة بين أبيه وأخوته وأنه يشعر بالراحة حينما يكون وحده. لم يسأله عن السبب وكأنه يعلم بذلك، ولم يوافق على طلبه، لكنه اقترح عليه أن يختار بين الإقامة في البستان أو أن يختار له سكناً في (حي التنك) بعد أن قام محمد ببناء عدة بيوت من الآجر وتحسن الوضع فيه كثيراً، حتى راح البعض يطلق عليه اسم (حي النهضة) أو (حي الكرامة) إلاّ أن هاتين التسميتين لم ترسخا في أذهان الناس وبقي (حي التنك) هو الاسم الأثير عند الناس اعتزازاً من الساكنين فيه أو احتقاراً من الآخرين.

كان محمد يتوقع أو يتمنى في سرّه أن يختار علي العزلة في البستان

ليحقق نبوءة الشيخ نوفل أو يتعلم ما تعلمه هو في عزلته هناك من معاشرة الليل وتأمل نجوم السماء أو الإصغاء إلى النهر، إلاّ أن علياً اختار الاحتمال الثاني على الرغم من خطورته، فقد كان الحي حتى بعد التغييرات الكبيرة التي طرأت عليه والعمران الذي جعل من السكن في الحي طموحاً للطبقات المتوسطة، إلا أنه لايزال يعج بالمنبوذين وذوي السوابق في الإجرام وتجارة الحشيش والترياق.

كان اختيار علي للسكن في حي التنك ليكون قريباً من أصدقاء له يشاركونه اهتمامه في تمارين القوى ورفع الأثقال، فقد قام بعض الغرباء بفتح مركز للتدريب في الحي، أطلقوا عليه تسميةً غريبة، الـ (زورخانه). لاقى المركز الاستهجان والاستخفاف من قبل الطبقات المترفعة والعوائل العريقة، فقد كان مهوى للشباب العاطلين عن العمل والعتالين وذوي المهن المنحطة أو الأشقياء الذين يفرضون على الناس الأتوات مقابلَ تفادي شرورهم، وقد كان خروجهم من الزورخانه مثيراً للنفور والاستهجان، إذ كانوا يخرجون، مطلقين أصواتاً صاخبةً، متبخترين بمشيهم البطيء، فاتحينَ قمصانهم، كاشفين عن صدور عريضة بأثداء مكتنزة برّاقة، تكاد شرايينها الزرق تتفجر بالدم، وقد حسروا أكمامهم عن سواعدهم الموشومة فبرزت عضلاتهم تتحدى الهواء. كانت النسوة يغطين وجوههن كلما مروا من أمامهن، لكن منظرهم كان يثير فضولهن فتبرق عيونهن من تحت النقاب بنظراتِ الشهوة، فتُثار غيرة الرجال، غير أن علياً لم يكن كذلك، فقد كان على الرغم من قوته محافظاً على وداعته، هدوئه، خجله، عفّة نفسه، وسلوكه المسالم الذي يصل حد التغاضي عمن يسيء إليه وكان بمقدوره أن يمسح به الأرض بضربة واحدة... حتى جاء ذلك اليوم الذي أصبح منعطفاً ليس في حياة علي فحسب، بل في تأريخ العائلة الهاشمية والمدينة.

شعرَ محمد بأن الوقت قد حان لكي يزيح عن طريقه وإلى الأبد كل منافسيه ومن يفكر في منافسته يوماً. لم يخبر أحداً بما كان ينوي فعله

سوى سلمان العجمي الذي أيّده دون تحفظٍ بما يسعى إليه، فقد كانت للعجمي حساباته الحزبية التي تلتقي مع مصلحة محمد وإنْ لم يسعَ إليها، لكنه كان متيقناً بأنها تصبّ في مصلحة الحزب، طالماً أن النتيجة هي إيقاع أكبر ما يمكن من الأذى في جسد عدوهما الطبقي المشترك.

كان محمد سبّاقاً في إتمام حصاد الحنطة في أرضه، لكنه لم يطرح بضاعته إلى السوق منتظراً أن يطرح منافسوه، الذين تساءلوا عن سبب تمهل محمد على الرغم من أنه أتم الحصاد قبلهم بأكثر من أسبوع، فكان الجواب بأنه ينوي عدم طرح محصوله لهذه السنة من الحنطة إلى أسواق الولاية بسبب تعهده لوكلائه في مدن الساحل الشمالي على تصدير محصوله إلى هناك. كان هذا الخبر مفرحاً لأصحاب الأراضي، ومطمئناً لهم بالتخلص من محمد ومنافسته لهم، ولينفردوا وحدهم بتحديد السعر الذي يريدونه، وهذا ما حدث، فقد ارتفع سعر (حُقّة) الحنطة والشعير إلى ضعف سعرها عن السنة الماضية. توقفت المطاحن عن العمل وامتدت طوابير الناس على المخابز، التي رفعت هي الأخرى سعر الرغيف إلى ضعف سعره المعهود، فكادت الناس يقتل بعضها البعض في الطوابير التي تنتظر حصة من الحنطة أو بضعة أرغفة، ولم يعد للناس حديث غير حديث الغلاء، وارتفع منسوب الغضب والنقمة على أصحاب المزارع والحكومة التي تقف إلى جانبهم.

استغل الحزب الإشتراكي حالة الاضطراب والغليان التي سادت في أوساط الناس وخاصة بين الفقراء بسبب غلاء سعر الخبز، فقام بالتحريض على الاحتجاج والتظاهر. انتشر أعضاء من الحزب في أنحاء المدينة، وقاموا بتوزيع المنشورات الحزبية الداعية إلى الاحتجاج والتمرد وإلصاقها ليلاً على الجدران وواجهات المخازن والمحلات. انطلقت مظاهرة من حي التنك، يقودها سلمان العجمي. كانت تتشكل في البدء من عدد قليل من رجال الحي الذين ينتمون إلى الحزب الاشتراكي، تجمعوا منذ الصباح في ساحة الحي، سرعان ما انضم إليها

أغلب رجال الحي ونسائه، وحتى الأطفال، وجدوا فيها فرصة للانفلات من رقابة أهلهم والمشاركة مع الرجال في فعل لم يروه من قبل. ردد المتظاهرون قصائدَ حماسيةً تشحذ الهمم وتدعو إلى العزّة ومقارعة الظلم، وشعارات تطالب بإيقاف جشع أصحاب المزارع وتماديهم في استغلال الناس، وبصمت رجال الدين ورجال الشرطة وتواطؤهم مع الإقطاع. قرأ سلمان العجمي بياناً مكتوباً صادراً عن الحزب يحرّض الناس على الاحتجاج وعلى عدم الصمت والتخاذل ضد من يريد استغلالهم واستعبادهم. التهبت أكف المتجمهرين بالتصفيق والحماس، مؤيدين ما جاء في البيان ومعاهدين بعضهم البعض بالتضحية من أجل عزتهم وكرامتهم. سارت المظاهرة بشكل منظم خارج الحي يتقدمها سلمان العجمي وعدد من الرجال (الأفندية) الذين بدوا من مظهرهم المتأنق بأنهم من المتعلمين وذوي المراكز المحترمة في دوائر الحكومة. شكلّ مجموعة من فتيان الحي ذوي الأجساد القوية والأشقياء المتعطشين للعراك سوراً لحماية المظاهرة مما كانوا يتوقعونه من هجمات يشنها عليهم رجال الشرطة أو عبيد وأجراء الإقطاعيين. توقفت المظاهرة عند تقاطع الطرق الأربعة في وسط المدينة، فانضم إليها عدد كبير من رجال ونساء المدينة. ارتفع صوت أحد الرجال داعياً المتجمهرين للهجوم على مخازن الحبوب وتوزيع ما تكدس فيها من حنطة وشعير على الفقراء. تحمّس البعض لما نادى به الرجل، وأبدوا استعداداً ليكونوا ضمن الفريق المهاجم، إلاّ أن العجمي اعترض بشدةٍ معلناً أن الغاية من هذه المظاهرة هو توجيه إنذارٍ إلى الملّاكين ثم يتلوه الدعوة إلى الإضراب عن العمل، محذراً من الخروج عن هذه الغاية كيلا يعطوا للعدو حجةً للهجوم عليهم. أيّده الرجال المتأنقون وتحدث بعضهم عن ضرورة الإصغاء إلى صوت العقل والأخذ في نظر الاعتبار الفارق الكبير في القوة وألا يثقوا في رجال الشرطة الذين لا يتورعون عن استخدام أقصى ما يمكنهم من العنف ضد المتظاهرين العزّل. كاد الفريقان يفترقان

وينفضّ المتظاهرون، لولا أن بعضاً من الرجال المتعلمين قد استدرك الأمر، معلنين بأن احتجاجهم هذا لن يتوقف، وسيستمر حتى يحققوا مطلبهم:

«فإنْ لن يخضع الملّاكون ويعود سعر الحنطة إلى ما كان عليه.. عندئذٍ سيكون لكل حادث حديث.. وأعذر من أنذر».

وصلت مفرزة من رجال الشرطة مشاةً وخيّالة، وانهالوا على المتجمهرين بالهراوات والسياط. تصارخت النسوة والأطفال وفرّ بعض الرجال، وتسلل آخرون بخجل خارج المكان، بينا بقي قسم قليل منهم منسحباً إلى مركز دائرة المظاهرة، يحاول كل منهم أن يصد بيديه هراوات رجال الشرطة قبل سقوطها على رأسه، مما شجع رجال الشرطة على ممارسة المزيد من العنف ضد المتظاهرين العزّل. سالت دماء كثيرة وسقط عدد من الرجال مغمياً عليه، بينا صمد البعض الآخر أمام هجمات رجال الشرطة مستخدماً ما استطاعت يداه تلقفه من حجرٍ أو عمود خشبي لتأمين انسحابٍ آمن لرفاقه. كاد الأمر ينتهي إلى الهزيمة والفشل لولا ظهور خميس الأعور قادماً من حي التنك مع بضعة رجال يحيطون به. صرختْ امرأة باسمه طالبة النجدة، فركض واضعاً ذيل دشداشته في فمه يتبعه رجاله. ما أن وصل إلى مكان المظاهرة، حتى صرخ بصوته الأجش الصادر من حنجرة نخرها التبغ الرديء:

«توقفووووووا... يا أولاد القحاب».

توقف بعض رجال الشرطة عن مهاجمة المتظاهرين، فقد كان خميس الأعور على الرغم من ضآلة جسده وترنحه المستمر، أرقاً يقلق رجال الشرطة ويرتعبون من ذكر اسمه، فهو من عتاة المجرمين الذين لا يعرفون شيئاً اسمه الخوف أو الرحمة، حتى تناقلت عنه الناس حكايات أشبه بالأساطير تجمع بين الشراسة والنخوة، فتارة هو مجرم خسيس وتارة أخرى نصير للفقراء لا يسرق إلا لكي يطعم جائعاً أو يغني محتاجاً. أقرب إلى الأشباح منه إلى البشر الحقيقيين، كالنسر في انقضاضه

وكالزئبق في إفلاته من الشرك، لا أحد يعرف أين يبيت ليلته، حتى قيل إنه يتواجد في أكثر من مكان في الوقت ذاته، ويأما نصبتْ له مفارز الشرطة كمائن للإيقاع به، لكنه كان في كل مرة يفلت من شراكهم، مخلفاً أكثر من ضحية في المكان، وكانت له من الأساليب القذرة التي تجعل كل فرد من أفراد الشرطة يرتعب وترتعش أطرافه كلما خطر في ذهن قيادة المركز أن تشكل مفرزة لملاحقته والقبض عليه، فقد كان يتفنن في عقاب من يقع في يده من رجال الشرطة، كأن يجبره على أكل الفضلات أو يأمر رجاله بالتناوب على اغتصابه «ليكسرَ عينه»، ثم إطلاق سراحه بعد أن يجرّده من كامل ملابسه فيصبح أضحوكة للناس، لا يتخلص من عارها إلا بالانتقال من المدينة أو الانتحار.

«أولاد القحاب.. ماذا قال خميس؟.. ألا تسمعون؟»

صرخ خميس الأعور ثانية، فتوقف رجال الشرطة عن مهاجمة المتظاهرين وانسحبوا قليلاً، إلاّ أن قائد المفرزة، وهو شاب في بداية العشرينات من عمره انتقل حديثاً إلى مركز المدينة، راح يصرخ برجاله محرضاً إياهم على مواصلة الهجوم على المتظاهرين. لم يكتفِ بهذا بل أشهر مسدسه مطلقاً رصاصتين في الهواء، عندها قام خميس الأعور ورجاله بإخراج سواطيرهم وبلطاتهم من تحت الثياب، ودونما تردد رمى خميس بلطته باتجاه قائد المفرزة فأصابته في صدره. سقط عن فرسه وارتطم وجهه بالأرض. حاول زحفاً أن يلتقط مسدسه الذي سقط من يده، إلاّ أن خميساً كان أسرع منه، ففي نطّة واحدة كانت قدمه تستقر على رقبة الشاب، مُبسْمراً جسده إلى الأرض، بينا تناول رجل من عصابة خميس المسدس. رفع خميس الشابَ من نطاقه فراح جسده يتأرجح في الهواء، ثم أسقطه فارتطم وجهه بالأرض. ظل يكرر هذه الحركة حتى تدفق الدم من أنف الشاب وفمه وغطى وجهه مختلطاً بالتراب، بينا فرّ رجال المفرزة من المكان ممزقي الثياب، وسط ضحك المتجمهرين وسخريتهم، ومن بينهم من دفع الثمن جروحاً وركلاتٍ.

استعاد المتظاهرون وحدتهم بعد أن عاد الذي فرّ وخرجَ من أختبأ وتمّ اسعاف الجرحى، بينا كان خميس يمارس هوايته في تعذيب أسيره. اقترب رجل من عصابة خميس منه. همس في أذنه. توقف خميس متطلعاً في وجه محدثه، ثم هوت كفّه بصفعةٍ قوية على وجهه. لم يسمع المتجمهرون ما قاله الرجل لخميس الأعور، إلاّ أن تخمين الأمر كان سهلاً حينما رأوا خميساً وهو يشير إلى النساء المشاركات في المظاهرة. مسك الرجل وجهه هازاً رأسه بخضوع لخميس ثم توارى بين الجمع. تقدّم سلمان العجمي وطلب من خميس أن يطلق سراح الشاب. هزّ خميس رأسه موافقاً، غير أنه عاد ومسك الشاب من ذراعه بكلتا كفيّه، متطلعا في وجهه بغضب والزبد يسيل من شدقيه، وبحركةٍ مباغتةٍ أطبق الذراع بقوة على ركبته، فسُمع صوت انكسار ذراع الشاب بوضوح وارتفع صراخه وبكاؤه، متوسلاً بخميس أن لا يعيد الكرّة مع ذراعه الثانية. تقدم أكثر من رجل وطلبوا بتوسلٍ من خميس أن يطلق الشاب، فأطلقه بعد أن ركله على عجيزته، ففر الشاب دون أن يلتفت إلى الخلف.

أشار سلمان العجمي إلى المتظاهرين أن يتجمعوا ثانية ليتخذوا طريق السوق الكبيرة خطاً لمسيرتهم، موصياً إياهم بأن يحرصوا ألا تتعرض المحلات للنهب أو التخريب وألا يتعدوا على تاجر أو معترض لمطالبهم. سار المتظاهرون بشكل منتظم، وانضم إليهم عدد كبير من الرجال والنساء، لكن أغلبهم لم يكن يعلم كيف ستنتهي المظاهرة أو ماذا ستكون نتيجتها، سوى سلمان العجمي الذي كان يعرف جيداً الدور الذي سيقوم به حسب الاتفاق.

توقف المتظاهرون عند فسحة واسعة داخل السوق، مقابل المقهى، فخرج رواد المقهى وانضموا إلى المتجمعين. ارتقى سلمان العجمي كرسياً وضعه على الكنبة فبدا واضحاً أمام الجميع. رفع ذراعه، طالباً من المتجمهرين أن يستمعوا إليه، فساد صمت وترقب لما سيقوله العجمي.

رحبّ بالمتظاهرين وأثنى على شجاعتهم والتزامهم بسلمية المظاهرة، مستنكرا ما قام به رجال الشرطة من اعتداء على المتظاهرين السلميين، ثم أخرج ورقة من جيبه وتلا بيان الحزب عن إزمة الخبز التي تمر بها المدينة بسبب جشع أصحاب المزارع والتجار واستغلالهم حاجة المواطنين لأهم مقوّمات الحياة ليكدّسوا أكثر ما يمكنهم من أرباح، مؤكداً إصرار الحزب الاشتراكي على مواصلة الاحتجاج حتى يخضعوا إلى مطلبهم الشرعي بعودة أسعار الحنطة والخبز إلى ما كانت عليه. ارتفعت الأصوات بالتأييد والتعهد بمواصلة المسيرة. كان سلمان العجمي وهو يلقي خطبته يتلفت حوله كأنه يبحث عن شيء أو شخص حتى استقرت نظرته على جهة محددة، هازاً رأسه بحركةٍ أثارت فضول المتجمهرين. التفتوا إلى الجهة فلمحوا محمداً واقفاً بين المتجمهرين. حاول البعض أن يهجم عليه إلاّ أن أكثر من رجل تصدى له، وقد أحاط بعض الرجال بمحمد لحمايته ممن يظن بأن لمحمدٍ يداً في ما هم فيه الآن، فقد علموا بأنه لم يطرح محصوله من الحنطة إلى الأسواق وقام بتصديره إلى خارج الولاية وهذا ما سبّب الأزمة. انتهى سلمان العجمي من إلقاء كلمته فأشار إلى محمد. تقدم محمد إلى الواجهة وسط حماية رجاله الذين شكّلوا حوله دائرة. مد العجمي يده لمساعدة محمد على الصعود. ارتقى محمد الكرسي بعد أن نزل العجمي عنه. ساد لغط بين المتجمهرين وكاد ينشب عراك بين ساخطين على محمد وبين محايدين لا يعرفون ما يكمن خلف الصورة. بدأ كلمته بالثناء على شجاعة المتظاهرين في الدفاع عن عزتهم وكرامتهم، مستنكراً ما قام به أصحاب المزارع والتجار، وببلاغته التي عرف بها والفصاحة التي تثير الهيبة عند السامع وإنْ لم يفهم القصد حرفياً، راح يسرد تأريخ عائلته في الدفاع عن الولاية ضد الاستعمار والخونة، متعهداً بأنه سيظل أميناً لهذا التأريخ ولدماء الشهداء الذين قدموا حياتهم من أجل عزّة وكرامة الولاية وأهلها. بدا الملل واضحاً على وجوه المتجمهرين. أدرك العجمي ذلك فنغزَ محمداً

عند خاصرته، فأدرك محمد المغزى. قطعَ إسهابه في الحديث معلناً بأنه سيلغي الصفقة ولن يصدّر محصوله إلى خارج الولاية مردداً:

«الأقربون أولى بالمعروف..»

ومضيفاً بورع مفتعل:

«يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين».

منهياً حديثه بالإعلان عن قراره بتخفيض سعر الحنطة إلى نصف السعر الذي عهدوه.

شعرَ أصحاب المزارع والتجار بأن محمداً قد خدعهم وأنهم ابتلعوا الطعمَ العالقَ في صنّارة الخديعة بسبب غفلتهم عمّا كان يفكر فيه والتهوين من خطورة مسعاه، وأن الأمر كان مؤامرة دبّرها مع سلمان العجمي وجماعته «في حزب الكفّار والملحدين» للإيقاع بهم في الفخ، فقد تمت مقاطعتهم من قبل الناس ولم يتعاملوا معهم حتى بعد اضطرارهم إلى تخفيض السعر إلى دون السعر الذي اقترحه محمد، ولم يخسروا محصولهم الموسمي فحسب، بل خسروا سمعتهم وهيبتهم بين زبائنهم في السوق وحتى بين أجرائهم وأقرب الناس إليهم، بينا خرج محمد منتصراً بهيبةٍ أضافت إلى هيبته وضاعفت رصيده من احترام الناس، إلى حدّ إطلاق عليه صفة (المهدي الهاشمي)، وعادت سيرة العائلة الهاشمية تتردد على ألسنة الناس، فأصبحت حكاية الجد هاشم وشجاعته في الحرب ضد الغرباء القادمين من وراء البحار واستشهاد العم منصور، رواية يعيدها كلّ ليلة حكواتي المقهى وتجذب إصغاء الرواد من الشيوخ والشباب بما يفوق سيرة عنترة ابن شداد أو الزير سالم بكثير، كذلك ارتفع رصيد الحزب الاشتراكي من الرفاق والمؤيدين، مما جعل محمداً المرشح الأول لقيادة الحزب بعد انتهاء فترة قيادة الفهد، بل كان من بين الرفاق من دعا إلى إقالة الفهد وتنصيب محمد رئيساً للحزب في الولاية.

فوجئ محمد بزيارة الحاج رضا له ليلاً في بيته، فارتدّ إلى الخلف

حذراً وهو يفتح الباب. لم ينتظر الحاج رضا من محمد أن يدعوه إلى الدخول، إذ دلف وهو يتلفت يميناً وشمالاً كأن أحداً يتبعه أو يراقبه.
رحبّ محمد بالحاج رضا بصوت منخفض، فقال الحاج لاهثاً:
«جئتُ لأمر هام».
فسحَ محمد الطِّريق أمام الحاج رضا، وخطا خلفه وقد تغيرت لهجته إلى الترحيب الحار. جلس في صالة الضيوف فأسرع محمد إلى الداخل وعاد بكأس ماء. قدّمها إلى الحاج رضا فشربها دفعة واحدة. بدا اهتمام محمد بالضيف واضحاً بل مبالغاً فيه من خلال حركته المتواصلة بين الصالة والداخل. نادى الحاج رضا محمداً:
«تعالَ.. ليس هذا وقتَ الضيافة. «
حينما عاد محمد إلى الصالة، طلب منه الحاج رضا أن يغلق الباب بإحكام فأدرك محمد بأن الحاج جاء بأمر خطير لا يريد أحداً أن يسمعه.
«أصغِ إليّ جيداً يا محمد.. عليك أن تختفي عن المدينةِ حالاً».
قال الحاج رضا وهو يتطلع في عيني محمد. توقفت يد محمد عن صبّ عصير العنب في إحدى الكأسين قبل تقديمها إلى الضيف. تطلع إلى عيني الحاج رضا بنظرات صقرية. قال وأرنبة أنفه ترتجف من الغضب:
«هل هذا تهديد يا أبا بندر؟ أو...»
لم يدعه الحاج رضا أن يكمل، فقد مسكه من يده، وهو يردد:
«لا تسئ فهمي...»
اعتدل الحاج بجلسته زافراً بعمق. تناول نصف كأس العصير وشربه دفعة واحدة، ثم قال بهمس:
«اسمعْ يا محمد.. على الرغم من الخلاف الذي حدث بيننا فأنت تظل بمثابة ولدي».
هزّ محمد رأسه محاولاً كتم غيظه. أدرك الحاج رضا عدم قناعة محمد بما قاله، فراح يؤكد كلامه بالقسم بأغلظ الأيمان على صدق

شعوره. لم ينطق محمد بكلمة، فاستأنف الحاج كلامه:

«عدم تصديقك لي سيجبرني على كشف السرّ الذي تعهدت على كتمانه.. كان بإمكانك أن تعفيني منه لو صدقتني.. لكن سأنكث بعهدي وأقوله لك».

انتبه محمد إلى خطورة ما سيقوله الحاج رضا، فتغيرت ملامحه من الاستخفاف إلى الجد.

«تفضل عمي..»

قال محمد وهو يصغي إلى ما سيقوله الحاج رضا. أخذ الحاج شهيقاً عميقاً، ثم نفثه ببطء وهو مغمض العينين.

«اسمعْ يا محمد.. أنا جئتك الآن من المسجد.. وقد دار حوار بين التجار حول ما سببته لنا من خسارة في محصول الحنطة».

أراد محمد أن يقول شيئاً إلا أنه كان يستعجل سماع ما جاء الحاج رضا من أجله، شاحذاً فطنته لما سيرد به على رسالة التجار التي جاء الحاج رضا يحملها، وعلى حجم المساومة التي يتوقعها، غير أن الأمر كان أخطر من هذا بكثير، حينما قال الحاج:

«اسمعْ يا محمد.. لقد اتفق التجار وبحضور إمام الجامع على ضرورة التخلص منك...»

توقف قليلاً ثم قال دون أن يرفع رأسه عن الأرض:

«وبأي شكلّ كان..»

قاطعه محمد:

«ماذا تقصد بأي شكل كان؟»

«بالقتل».

قفزت الكلمة من فم الحاج رضا بعد نفاد صبر، فساد صمت بينهما. حاول محمد أن يخفي تأثير ما سمعه عليه وليعطي انطباعا للحاج بأنه يتوقع ذلك وقد اتخذ تدابيره للأمر، إلاّ أن الحاج قطع صمته ضاغطاً على كف محمد بقوة، وقال:

«الأمر ليس كما تظن...»

وقبل أن يعطي مجالاً لمحمد على الكلام، قال:

«عليك أن تختفي أو تهاجر من المدينة الآن.. فقد...»

حاول محمد أن يقول شيئاً إلا أنه توقف ليسمع بقية الجملة، فواصل الحاج كلامه:

«لقد اتفقوا على تأجير رجالٍ لهذه المهمة التي سيقومون بتنفيذها غداً».

هزّ محمد رأسه وفي داخله سؤال يمور:

«ما مصلحة الحاج رضا في إفشاء هذا السر؟»

«ربما أنه يدافع عن مصلحته.. فهو المستفيد من إبعاده إلى خارج المدينة».

«ربما أنه أوشك على الإفلاس.. وها هو يريد تغيير اتجاه بوصلته..»

«هل يا ترى هي صحوة ضمير؟ وهل جاء ليكفّر عن ذنوب ارتكبها هو وأبوه بحق عائلته؟»

«أو.. أنه أدرك أن لا مستقبل له ولأولاده إلا بمسايرته؟»

انتبه الحاج رضا إلى سَرَحان محمد فحسبه يفكر في ما قاله لكي يتخذ القرار. نهض هامّاً بالخروج، فنهض محمد معه وهو يردد كلمات الشكر على الحرص الأبوي الذي أبداه الحاج رضا تجاهه. قبل أن يغادر الحاج رضا إلى الخارج التفت إلى محمد، ودون أن ينظر إليه، قال بصوت واطئ وهو يهز رأسه بهيئة من هو متأكد من خطورة الأمر:

«لا تكنْ عنيداً.. ومتهوراً.. ليس أمامك سوى ساعاتٍ لتقرر...»

ردّ محمد مطمئناً الحاج بأنه سيتخذ تدابير مشددة لحماية نفسه وعائلته لحين يتخذ قراراً نهائياً في الأمر، فقد كان لايزال ينظر إلى ما قاله الحاج رضا بعين الشك وأنه جاء إما لكي يتخلص منه وإما لكي يمدّ الحرصَ والتملقَ جسراً للانتقال إلى جهته. عانق الحاج رضا محمداً متمنياً له السلامة فردّ محمد بالشكر والترحيب بكل أمر قدّره الله، مردداً بخشوع:

«وقلْ ما يصيبنا إلا ما كتب الله لنا».

حينما فتح محمد الباب الخارجي أمام الحاج رضا، اصطدم بوجود عليّ في الباب. لم ينطق علي بشيء حيث أخرسته مفاجأة وجود الحاج رضا عند عمّه، فارتبك حتى لم ينطق بالسلام. دخل علي، وقبل أن يسأله محمد عن سبب مجيئه في هذه الساعة، سأل علي:

«ماذا يفعل هنا هذا الـ...؟»

أدرك محمد بأن مجيءَ علي للسبب نفسه، فسحبه من ذراعه وأدخله صالة الضيوف. كان علي يرتعش لاهثاً، فاحتضنه محمد مطمئناً إياه، ثم سأل عن سبب مجيئه فرد علي:

«العم سلمان أرسلني إليك.. ويقول عليك أن تهرب أو تختفي».

هزّ محمد رأسه محاولاً رسم ابتسامةٍ على وجهه، مطمئناً علياً بأنه علم بالأمر وأنه لن يغادر البيت غداً ليرى ما سيحدث. ذهب محمد إلى غرفة المكتبة وكتب رسالة إلى سلمان العجمي، وطلب من علي تسليمها إليه. أخذها علي وغادر البيت مسرعاً.

كان علي يعرف أن عمّه اعتاد أن يقضي ساعات النهار الأولى في المكتب، ثم بعد ذلك يقرر أين سيذهب دون أن يخبر أحداً بالوجهة التي يقصدها، وهذا الشيء يعرفه كل من يتتبع خطى محمد أو يراقبه.

«إذن لابد أن خطتهم في الهجوم عليه ستكون في الساعات الأولى من النهار وفي مكتبه الواقع في السوق الكبيرة».

ردد علي مع نفسه، ودون أن يخبر أحداً قرر أن يخوض المعركة وحده.

في صباح اليوم التالي فتح علي المكتب بنسخة المفتاح الذي في حوزته، وقد أعد للدفاع عدته. أمر الصبي العامل في المكتب أن يذهب إلى بيتهم. ترك الباب مفتوحاً، إلا أنه أبقى ستارة الواجهة الزجاجية مسدلة إلا من فسحة صغيرة يستطيع من خلالها أن يراقب ما يجري في الخارج وهو جالس خلف المكتب.

مضت ساعتان ولم يحدث ما كان علي يتوقعه، حتى شعر بالملل من الانتظار. ألقى رأسه على مسند الكرسي وغفا فقد حرمه الأرق من النوم في الليل. لا يدري كم من الوقت مضى على غفوته حينما استيقظ على حركة تقترب من باب المكتب. فتح عينيه قليلاً موهماً الداخلَ بأنه نائم. رأى رأس رجل ملثم يطلّ بحذر إلى داخل المكتب. لم يتحرك عليَ مترقباً بحذر ما سيفعله الرجل. انسحب الرجل إلى الخارج بهدوء، وسمع علي صوته ينادي رفاقاً له. نهض علي من كرسيه. وقف على دكة المكتب، واضعاً يديه على خصره بهيئة متحدٍ. كان أمامه خمسة شباب ملثمين بكوفياتٍ مرقطة لم يستطع معرفة أيّ منهم. نادى عليهم أن يقتربوا، فتقدم أحدهم بمشيةٍ توحي بالاستهتار والرعونة حتى أصبح قبالة علي، ولا تبعده عنه سوى مسافة مترٍ أو أكثر بقليل.

«أين عمّك؟»

سأل الرجل، فتطلع علي إليه وقد ضيّق حدقتيْ عينيه، وسأله:

«من أنتم؟.. وماذا تريدون؟»

رفع الرجل كتفيه وتلوى بحركةٍ داعرة، وقال بطريقة فظّة:

«ما جئنا لنتحدث مع صبي.. قلْ لنا أين عمّك؟»

قهقه علي ساخراً من الرجل وتقدم نحوه محاولاً إماطة لثامه، إلاّ أن الرجل تراجع خطوتين إلى الوراء. كاد يسقط متعثراً فارتفعت قهقهات علي، وهو يردد:

«سأريك من هو الصبي..»

بدأ الرجل بالهجوم فبادره علي بلكمةٍ على وجهه. حاول أن يردها فقبض علي على رسغه قبل أن تصل قبضته إلى هدفها، لفها بقوة فمال جسده إلى جهة اليمين صارخاً من الألم. مد علي ساقه خلف الرجل وبحركة سريعة ضربه عند ربلةِ ساقه فارتفع جسد الرجل إلى الأعلى ليهوي إلى الأرض على ظهره. وضع علي قدمه على عنق الرجل ساخراً منه، عندها تقدم الرجال الأربعة شاهرين سكاكينهم. حاول إثنان منهم

التسلل إلى خلف علي من الجانبين بينا تقدم الآخران نحوه من الأمام. تراجع علي قليلاً بخطوات حذرة حتى دخل المكتب، فارتفع ضحك الرجال منه ساخرين مما حسبوه هزيمة. خرج عليهم ثانية وفي يديه سلسلة حديدية ضخمةً لا يقوى على حملها أربعة رجال. تمركز في الدائرة التي شكلها حوله الرجال الخمسة، ماسكاً السلسلة من وسطها. تجمع عدد كبير من الناس حول المتصارعين مشكلين محيطاً دائرياً لحلبة الصراع، حاول البعض أن يتدخل لإيقاف المتصارعين غير أنه انسحب خوفاً من أن يصاب بضربةٍ أو طعنةِ سكّين، فاكتفى بكلامِ نصحٍ لم يسمعه المتصارعون. حاول أحد الرجال الخمسة أن يقترب من علّي، إلا أنه تراجع إلى الخلف كيلا يصيبه طرف السلسلة التي أصبحت بين يديْ علي كأنها حبلٌ من القنّب. وقفوا منتظرين أن يستبد به التعب، متحينين فرصة للانقضاض عليه أو خطأ يقع فيه كي يستغلوه لمباغتته، إلاّ أن علي لم يترك لهم هذه الفرصة فبادر بالهجوم، ساعده على ذلك المحيط الذي شكلّه المتفرجون، إذ ضيّق عليهم مساحة الحركة وسدّ عليهم منافذ الهرب. أصابت ضربة من السلسلة أحد الرجال على كتفه فرمت به متهاوياً على المتفرجين الذين تلقفوه جسداً مشلولاً. حاول أحد الرجال أن يرمي ساطوره على علي إلاّ أن أحد المتجمهرين تشبث به من الخلف كيلا يفلت هدفه فيصيب أحد الواقفين، فغيّر الرامي هدفه إلى قدمي علي. قفز علي راقصاً في الفضاء فانغرز الساطور في الأرض، عندها تقدم علي نحوه، فتراجع الرجل محتمياً بالمتجمهرين ثم اختفى بينهم هارباً. تقدم رجل ثان وحاول أن يرمي قبضة من تراب إلى وجه علي فسبقه بضربةٍ من طرف السلسلة جاءت عند خاصرته فارتطم رأسه في جدار المكتب وسقط على الأرض. نهض مسرعاً قبل أن يجهز عليه بضربة أخرى، وفرّ دون أن يلتفت خلفه. خارت عزائم الثلاثة الباقين بعد أن رأوا هزيمة رفيقيهم، فتراجع إثنان منهم إلى الخلف وكل منهما يحاول أن يلوذ بالهزيمة. لم يبق في الحلبة إلا رجل واحد، عندها توقف

علي عن اللعب بالسلسلة. تقدم من الرجل الذي انكمش على نفسه مكتفياً بالدفاع. تقدم علي منه حتى قبض عليه من عنقه. شد عنقه بعنف والرجل يتوسل به أن يتركه. أزاح عليَ يدّي الرجل عن وجهه فأسبلهما دون مقاومة. وجه إلى وجهه لكمةً قوية أماطت لثامه فانكشف وجهه للمتجمهرين فارتفعت أصواتهم مندهشين حينما تعرفوا على هوية الرجل. كان عامر ابن عفتان القوّاد.

«أنت!!»

قال عليٍ ساخراً. تراخت قبضته شيئاً فشيئاً وهو يتطلع في وجه عامر بسخرية. بصقَ بوجهه وأدار ظهره إليه وخطا نحو باب المكتب بحذر. هجم عامر على علي من الخلف محاولاً غرز سكينه في ظهره، لكن علياً كان يراه ببصيرة من خبرَ سلوك الخائن المنحط. انحرف إلى جهة اليمين قليلاً، ماداً ساقه في طريق اندفاعه. تعثر عامر بها وسقط على الأرض. سحق علي بقدمه كف عامر التي تمسك السكين حتى تراخت، وبقدمه الأخرى أزاح السكينَ بعيداً. رفعه عن الأرض من عنقه وإحدى ساقيه وهو يتوسل بلغة ذليلٍ بأن لا يؤذيه أكثر. دار به وسط المتجمهرين الذين ارتفع صخب قهقهاتهم ساخرين من ابن عفتان القوّاد وأصوات الإشادة والإعجاب بشجاعة الفتى الهاشمي التي فاقت كل تصور ووصف. حاول البعض منهم أن أن يتدخل ويطلب من علي أن يكفّ عنه و«ألا يوسخ يديه بمأبونٍ جبان»، إلاّ أن علياً لم يكن مصغياً إلى أحد. توقف ضحك المتجمهرين مترقبين ما سيفعله علي الذي ظلّ واقفاً في مركز الحلبة، رافعاً طريدته مطوحاً بها في الهواء، ثم رمى بها إلى الأرض فارتطم وجهه في الأرض وتفجر الدم من فمه ومنخريه. دار علي حوله كليثٍ عابث في جسد فريسته الخائر. توقف عند رأسه مرتقباً ردّة فعله. حاول عامر النهوض فركله علي على وجهه فعاد منقلباً على بطنه ووجهه في الأرض. كان علي مستمتعاً بانتصاره، كأنه يبعث برسالة بليغة إلى من يفكّر مستقبلاً بأن يجرؤ على الإساءة إلى عمّه، رسالة ينقلها الحاضر إلى

الغائب، لذا فقد حاول إطالة فترة تعذيبه لعامر وسط تهليل المتجمهرين وصرخات إعجابهم بهذا الفتى الذي فاق في فنّ المنازلة كل ما شهدوه من صراع وعراك من قبل، غير أن أمراً طريفاً لم يتوقعه أحد قد حدث، جعل نهاية المعركة خالدة في إذهان الناس وحديث مجالسهم ومسامراتهم، فما أن همّ علي برفع فريسته مرة أخرى، حتى رفع عامر دشداشته من الخلف ونزع سرواله الداخلي كاشفاً عن عجيزته، بحركةٍ لم يشهد أحد رعونة وسفاهة مثلها. توقف علي عمّا نوى فعله مكتفياً ببصقةٍ غطّى رذاذها وجه عامر كله. تركه جاثياً على الأرض. دخل المكتب ثم خرج سريعاً. أغلق الباب وخطا بكبرياء وسط جمع المحتشدين الذي انفلق أمامه نصفين، مشى علي بينهما، وسط هتاف الحاضرين وتحياتهم لروح الشيخ هاشم.

* * *

(١١)

بعد أن يئس أعداء محمد من إلحاق الضرر به، ركنوا إلى هزيمتهم، وكل واحد منهم يحاول التبرؤ مما خطط له لإلحاق الأذى بمحمد، وحتى من فكرة خطرت له ولم تخرج من رأسه، ويلقي اللوم على غيره، محاولاً تقديم الولاء لشابٍ عجزوا عن تحديه، على الرغم من خبرتهم الكبيرة في التجارة والمراوغة، خاصة وأن عجيزة عامر بن عفتان صارت وصمة عار في وجوههم، وصارت الطرفة التي تتردد على كل الألسن، مما دفعت بمن كان يخطط للإيقاع بمحمد أو حتى من كان يتمنى في سرّه التصدي إليه أن يتودد ويتملق، لا لكي ينال رضاه، بل لكي يبعد التهمة عن نفسه، بينا ازدادت هيبة محمد سطوعاً بين الناس.

قيلَ: إنه محظوظ.

وقيل: إنه المهدي المنتظر.

وقيل: ساحر.. تعلّمَ السحر الأسود على يد الشيخ نوفل.

وقيل: إنه آخى الشيطان.

وقيل: إن له ارتباطاً بمنظمة سرية غامضة الأهداف، لا أحدَ يعرف عنها شيئاً.

وقال من لا يؤمن بالأفكار الغيبية: لولا أموال بهيجة لبقي حارساً في بستانٍ.. أو راعياً يعزف لأغنامه أنغامَ شبّابته.

ثم أضيف سبب آخر، فقيل: بُنيت سطوة محمد على أموال بهيجة وعضلات علي.

وقيل الكثير.

.. ولكن مهما قيل فأن لا أحدَ (حتى محمد نفسه) كان يتوقع انهيار سدود أعدائه بهذه السرعة أمام سيلٍ لم يروا منه إلا ما يُنبئ عن قدومه. ولو وضع هذا كله في كفّة لما رجحت على الكفّة الأخرى لو وضع فيها حب الناس لمحمد، فقد اجتمع حوله من الرجال الذين ارتبطت مصائرهم بوجوده، وخاصة من أولئك الفقراء والمشردين وأصحاب السوابق الذين وجدوا في محمد منقذا لهم من الجوع والعوز، وهادياً من حياة الهروب والتخفي عن رجال الشرطة وطالبي الثارات، وهذا ما دفع رئيس المخفر إلى زيارة محمد، متواضعاً ليقدم له الشكر على ما قدّمه إليهم في سبيل مكافحة الجرائم التي كانت تؤرق رجال الشرطة، مما شجع محمداً على الطلب من رئيس المخفر لإصدار عفوٍ عن كل المطلوبين والهاربين وإسقاط التهمِ عنهم، فكان له ذلك، وقام رئيس المخفر بإحراق كل الملفات السابقة للمطلوبين، بمن فيهم خميس الأعور وعصابته، فخرجوا إلى النورِ أحراراً مسالمين، معترفين بفضل محمد عليهم، فردّ اعترافهم بفضل أكبر، إذ دفعَ الديّة عمن ارتبك جريمةً قتل، ووجد لكل منهم مهنةً يعتاش منها بكرامة.

زار الحاج رضا محمداً في بيته كأول الساعين إلى تقديم الولاء، مفتخراً بأنه لولا إخباره بما كان يخطط له التجار في الإيقاع به لما استطاع أن يهيئ نفسه للمواجهة. استقبل محمد الحاج رضا بترحيب حذرٍ، إذ أنه لا يزال يجهل الدافع الحقيقي الذي يقف وراء هذا التحول المفاجئ الذي طرأ على سلوك تاجر لم يحدث أن تنازل بهذه السهولة من قبل، وإنْ كان يفسّر الأمر على أنها محاولة منه للحفاظ على ما تبقى له من أملاك أو أنه يسعى إلى حظوة تُنجيه من هزيمة كبيرة تنتظره، فأن تأريخاً من العداء والضغينة بينهما لا يمكن أن يُنسى بسهولةٍ، خاصة وأنه قد خبر النفوس، فهي إن تخلتْ عن جشعها لا تتخلى عن أحقادها بسهولة.

كان الحاج رضا يعرف ما يدور في ذهن محمد، لذلك كان يسعى بل

يبالغ في سعيه إلى إرضائه بالتقرب إليه وإبداء حسن النية. تكررت زياراته إلى بيت محمد، وفي كل مرة كان ينقل إليه ما يدور في حلقات التجار من أحاديث تدل على تخليهم عمّا كانوا يضمرون له في أنفسهم، وعلى إعجابهم برجاحة عقله وبسيرة العائلة الهاشمية، عارضين عليه استعدادهم لطي صفحة الماضي وتنصيبه رئيساً لهم، وفي كل مرةٍ كان محمد يكتفي بهزة من رأسه أو يردد كلاماً غامضاً، لا يستطيع الحاج رضا أن يستخلص منه موقفاً واضحاً.

في غمرة الإنتشاء بالتقارب والمجاملات المتبادلة، وبعد أن أبدى محمد للحاج رضا ما يدل على الإحترام والحظوة، وبعد تقاسم الخبزَ والملح، لمّحَ الحاج رضا في حديث خجول إلى رغبته في مصاهرة محمد. اعترض محمد متحججاً بأنه لن يُدخل إلى بيته ضرّة على بهيجة. ارتفعت ضحكة الحاج رضا، رافعاً كأسه. عبّ منها قليلاً وتطلع إلى وجه محمد. لمح محمد ارتعاشة جفنيه فأدرك بأن الحاج يخفي كلاماً يريد أن يقوله لكنه غير واثق من نفسه، فوجدها فرصة للترفع عليه:

«قل يا أبا بندر.. لا تخف.. نحن أهل».

لاحت ملامح امتعاض على وجه الحاج رضا من عبارة «لا تخفْ» التي قالها محمد مشدداً على صيغة النهي فيها وبطريقة لا تخلو من غطرسة ونشوة منتصرٍ، إلا أنه حاول أن يغطي ملامح امتعاضه بإظهار علامة فرح لهذا التقارب. قال بصوت واطئ:

«كان قصدي.. أن أطلب لنفسي يد أختكم زينب».

وقبل أن يسمع ردّ محمد، أضاف بطريقة لا تخلو من ثأرية ورد اعتبار:

«خاصة وأني عرفت بأن فترة ترملها قد طالت.. وأيتامها بحاجة إلى رعاية أبوية..»

هزّ محمد رأسه دون أن يعطي جواباً أو يبدي ما يدل على قبولٍ أو رفض. طالت فترة الصمت بينهما مما جعل الحاج رضا يفتعل التثاؤبَ

وينهض معتذراً عن مواصلة السهرة بعد أن ارتفع مفعول نبيذ السريان.

إلتفّت أجساد المصلين المتهيئين إلى إقامة صلاة المغرب وتمهل الإمام، حينما رأوا محمداً بصحبة الحاج رضا قد دخلا المسجد. انشقت صفوفهم إلى ضفتين وانشدت الأنظار إليهما وهما يخطوان بين المصلين متجهين إلى الصفّ الأمامي خلف الأمام مباشرة. تقدم الإمام من محمد مصافحاً بحرارة ومعبراً له عن سعادته بتشريفهم في إقامة الصلاة في مسجدهم، معتبراً وبحماسةٍ لا تخلو من رياء أو رعونة، هذا اليوم هو يوم الفتح العظيم ونصراً للمؤمنين على الكفار والملحدين. هزّ محمد رأسه بكبرياء، ثم وقف للصلاة صامتاً. حاول الإمام وبعض التجار التقرب من محمد وإطالة الحديث معه بعد انتهاء الصلاة، إلاّ أن محمداً اعتذر لهم بسبب إنشغاله ومعاهدا إياهم بأنه سيكون بينهم كل ليلة وسيواظب على حضور صلاة الجمعة.

انتشر الخبر في المدينة ولاقى ردود فعل مختلفة بين الناس، فمنهم من قال بأن محمداً خائف، إذ شعر بأنه إنْ خرج مما حيكَ له في السرّ مرة فلن يسلم في المرات القادمة، لذا فقد احتمى بالمسجد كي يأمن شرّ ما يدبره التجار لينتقموا منه ويثأروا لهزيمتهم السابقة، بينا ردد البعض الآخر بأن محمداً داهية، يعرفُ ما يدور حوله ويخطط بوضوح لما يسعى إليه، وها هو يحاول إمساكَ كل خيوط اللعبة ليعطي انطباعاً للناس بأنه هو وحده القادر بحكمته وعدم انحيازه لأي طرفٍ ضد آخر، على جمع المتناقضَين، غير أن ردة الفعل الشديدة جاءت من الحزب الإشتراكي فقد اعتبرت قيادته بأن ما قام به محمد خروج على النظام الداخلي للحزب، بل واعتبر البعض من الرفاق أن القناع قد سقط عن الوجه الحقيقي لمحمد، وها هو يكشف عن حقيقة انتمائه الطبقي، وأن وجوده في الحزب بات يشكل خطرا كبيراً على سياسة الحزب الثابتة في العداء للإقطاع والتجار. وجد الفهد في هذه القضية وسيلة لإعادة ما فقده من شعبية داخل الحزب في الأيام الأخيرة بسبب بزوغ نجم محمد وانحياز

عدد كبير من العمال والفلاحين له، فراح يذكّر الرفاق بما كان يؤكده سابقاً من أن سياسته هي الأكثر إلتزاماً بمبادئ وفلسفة الحزب، غامزاً بشماتةٍ بعض الرفاق في القيادة ممن كانوا يرون في توجهات محمد وطموحاته ما يخدم مسيرة الحزب والطبقات الفقيرة، حتى سلمان العجمي الذي كان داعماً لمحمد في كل ما سعى إليه، وقف عاجزاً عن الدفاع عنه، مما اضطره إلى الموافقة على قرار القيادة في تجميد عضوية محمد في الحزب، وانزوى في بيته متحاشياً الحديث مع محمد أو الرد على أسئلة العاملين في البستان والحي الصناعي، لكن في المقابل كان الكثير من الرفاق ممن انتشلهم محمد من قاع البطالة والجوع، يدركون أن وقوفهم ضد محمد يعني تسريحهم من العمل والعودة إلى التشرد والسكن في بيوت التنك بعد أن ذاقوا حلاوة السكن في بيوت الآجرّ، ومن بينهم سلمان العجمي نفسه.

حينما علمَ محمد بما دار في اجتماع قيادة الحزب عن طريق رفاقٍ قريبين منه، انفجر ضاحكاً وهو يردد على أسماعهم:

«ليضع الفهد النظريةَ في كأس ويشرب ماءها».

استيقظ الناس على حدث لم يخطر في ذهن أحد من قبل، وإنْ أصبحت المفاجأة لا تثير دهشتهم كالسابق لتكرارها، ولكن اختلاف مضمونها ووقعها على النفوس لا يزالان يثيران الفضول، وكل مفاجأة مهما تضاءل وقعها حجر يرمى في بركة أيامهم الراكدة، إذ معها تبدأ الشائعات في الظهور فيشعرون في انتشارها متعةً تكسر جدار الوجوم الذي يخيم على أرواحهم التي أنهكها الركض خلف أرزاقهم، وتتفجّر مواهبهم في اجتراح التآويل.

وصلَ البعض من الرجال إلى السوق الكبيرة لينقلوا ما رأوه على مداخل المدينة، إذ أزيحت اللوحات المعدنية الكبيرة التي تحمل اسم المدينة وتم استبدالها بلوحات معدنية جديدة أكبر بكثير من سابقاتها، وقد خط عليها بخط أنيق اسم المدينة الجديد: (الهاشمية).

لم يصدق البعض ما سمعه، معتبراً الأمر مستحيلاً، ولا أحد يجرؤ على تغيير اسم المدينة الذي اعتادوا عليه منذ عشرات السنين، حتى أصبح شيئاً مقدساً لا يمكن المساس به كعفّة نسائهم أو كتأريخ المدينة وأرواح الشهداء الذين قضوا في الدفاع عنها. حينما راح آخرون يؤكدون ما نُقل، قرر بعض الشباب الذهاب إلى المداخل ليروا بأعينهم ويتأكدوا من حقيقة الأمر، غير أنهم، وهم في الطريق إلى المداخل رأوا ما هو أكثر إثارة للدهشة، إذ رأوا اللوحة الكبيرة التي ارتفعت فوق بوابة مخفر الشرطة، وقد خطت بالدهان الأحمر البارز: (مركز شرطة مدينة الهاشمية). كذلك شاهدوا رجالاً مشغولين في حفر حفرة كبيرة عند مدخل حي التنك أو حي النهضة كما إطلق عليه لاحقاً، وإلى جانبهم لوحة معدنية كبيرة منكفئة على وجهها. توقف الرجال منتظرين ما ستكشف اللوحة عن اسم حي التنك الجديد الذي توقعوه ولكن لا أحد كان يجرؤ على استباق الأمر والتصريح به. أكمل العمال الحفر دون أن يعيروا اهتماماً للذين تجمهروا وعيونهم تبرق بالفضول والترقب. رفع أربعة رجال اللوحة وغرزوا حاملها الحديدي في الحفرة، بينا راح عاملان يردمان الحفرة بالكونكريت. عمّ صمت بين المتجمهرين حينما راح بعض الشباب يتهجأ ما كتب على اللوحة بصوت عال: (حي المحمدية).

وقف رجل في الخمسين من عمره في السوق الكبيرة، وصرخ:

«هذا انتهاك وقح لتأريخ المدينة ولاسمها».

تجمع حوله عدد من الرجال المارين وتوقف المتبضعون ليصغوا إلى ما يريد أن يقوله الرجل، فراح يتحدث بصوت متحشرجٍ عما يسعى إليه البعض (دون أن يشير إلى محمد بشكل صريح) من تغيير ملامح مدينتهم، والاستهانة بتقاليد الناس وأعرافهم وما أسسه الأجداد. توقف قليلاً كي يلتقط أنفاسه، وقبل أن يستأنف خطابه الحماسي، اعترضه شاب يرتدي نظارتين سميكتين، كان واقفاً خارج حلقة التجمع، وقال ساخراً:

«وما الذي يجعلك تعتز باسم.. لا تعرف معناه».

التفت المتجمهرون إلى حيث يقف الشاب الذي راح يؤكد كلامه بطريقة استعلائية:

«نعم.. هل يوجد من بينكم من يشرح لي ماذا يعني سن الصخر؟.. وأية قدسية تجعلكم ترتهبون من فكرة تغييره؟»

وقبل أن يرد عليه أحد، أضاف بتهكم:

«ثم من أنتم لكي يؤخذ رأيكم في اسم المدينة؟ هل أخذ أحد رأي آبائكم وأجدادكم في الاسم القديم كي يؤخذ رأيكم في الاسم الجديد؟»

تطلع كل شخص في وجه صاحبه بدهشة، وكأنه اكتشف أمراً أليفاً جداً لكنه لم يعرفه، فمنذ عشرات السنين وهم يعرفون اسم مدينتهم (سن الصخر)، ولكن لم يخطر في ذهن أحدهم أن يطرح على نفسه السؤال عمّا يعنيه الاسم، ومن وضعه؟ وما دلالته؟ ولماذا يثير في نفوسهم هذه القدسية الغامضة؟، وحينما لم يجب أحد، ارتفع صوت الشاب ثانيةً:

«لماذا أنتم غاضبون إذن؟»

وراح يردد مقهقهاً:

«سن الصخر.. سن الصخر..»

راح المتجمعون ينقلون أنظارهم بين الشاب الساخر الذي بدا من طريقة كلامه بأنه مجنون أو غريب الأطوار، والرجل الذي احمرّ وجهه غضباً، وراحت شفتاه ترتعشان، ولكي يغطي جهله في الإجابة على أسئلة الشاب، صرخ بغضب:

«وهل علينا أن نغيّر أسماءنا وجلودنا حسب مشيئة محمد؟»

«إششششششش».

همس أحد الرجال، فراح المتجمعون يتلفتون حولهم، بحثاً عن مصدر الصوت. ساد صمت وكل منهم يتطلع في وجوه الآخرين كأنه يبحث عن شيء لا يعرفه، وحينما لم يجرؤ أحد على الرد على الصوت الهامس، بدأ الجمع بالتفتت، وكل رجل يلوي رقبته ويغادر المكان

بهدوء، فلم يبق في المكان سوى رجل في الخمسين من عمره. تلفت حوله بخوف وانطلق مسرعاً كأنه يهرب من ظلّ يطارده، حتى اختفى في زحام السوق.

... وهكذا بين ليلة وضحاها أصبح (سن الصخر) اسماً من الماضي.

* * *

(١٢)

في البدء كان محمد متردداً في الموافقة على طلب الحاج رضا مصاهرته، إلا أنه لم يجد سبباً للمانعة سوى هواجس لم يجد ما يثبت به يقينها، وبعد أن اطمأن إلى سلامة نوايا الحاج وأنه لا يضمر في الأمر سراً سوى محاولة منه للحفاظ على ثروته التي يظن أنها باتت مهددة بزحف محمد للاستحواذ والسيطرة على كل أبواب الرزق. أخبر محمد الحاج رضا بموافقته بعد أن شاورَ أخاه وأخواته، فوجد عندهم قبولاً بل تحمساً أشعره بالامتعاض، لكنه كظم غيظه مبرراً أن أهله لم ينزلوا من السماء فهم كبقية البشر تتوامض عيونهم أمام ليرات الذهب.

تحدى الحاج رضا التقاليد وممانعة أبنائه وما سيقوله الناس في مجالسهم حول تصابيه وهو الرجل الذي تجاوز الستين من عمره، بإقامة حفل كبير بمناسبة زواجه من امرأة بلغت هي الأخرى سن اليأس. نصبَ سرادقاً كبيراً قبالة البيت الذي اشتراه لعروسه الهاشمية، ودعا كل أعيان المدينة وتجارها وضباط المخفر، وبتواضع لم يعرف عنه سابقاً سمح للفلاحين والعاملين عنده بأن يحضروا الاحتفال ويجلسوا جنباً إلى جنب مع السادة والتجار.

بعد أن أتم إمام المسجد عقد القران بين الحاج رضا ومناف وكيلاً عن أخته، نهض ليغادر، إلاّ أن الحاج رضا أوقفه. همس في أذنه كلاماً لم يستطع أحد من الجالسين سماعه. توقف الإمام ثم عاد جالساً. لفتت عودة الإمام أنظار الجالسين متيقنين بأن أمراً ما سيحدث. نظر محمد إلى أخيه فوجده ينظر إليه مستفسراً، فافتعل اللامبالاة بالأمر، إلا أنه كان

يراقب في زاوية عينه كل حركة يبديها الحاج رضا، محاولاً استباق ما سيحدث بفراسته.

وقف الحاج رضا وسط السرادق، منتظراً أن يصمت الحاضرون. ساد الصمت تدريجياً بعد أن انتبهوا له وهو يتهيأ ليقول كلمته. تنحنح الحاج رضا بافتعال وهو يتطلع بشيء من الغضب إلى جهة اليمين حيث انشغل اثنان من الجالسين في حديث جانبي، فلكز أحد الرجال أحدهما فتوقفا عن الحديث وتطلعا إلى الحاج رضا. حاول أن يبدأ حديثة بآية من القرآن فخذلته ذاكرته ونسي ما يريد أن يقرأه، فاكتفى بالاستعاذة من الشيطان الرجيم. أنقذه بعض رجاله بهتاف بحياة العريس أبي بندر، ثم نهض أحدهم وراح يقرأ كلاماً يظنه شعراً في مديح كرم الحاج وأصالة أرومته وفحولته وشبابه المتجدد. طغى الضجيج فأنقذ الحاج رضا من ورطته. أشار بيده ثانيةَ فصمت الرجال وأصغوا إليه، وبدون مقدمات قال بأنه رأى في منامه أمس حلماً غريباً، إذ رأى أباه وهو يذكّره بما أوصاه به في ساعة احتضاره الأخيرة. ارتفعت أصوات تترحم على روح الشيخ حمدان، بينا كان بعض الشيوخ يهزّ رأسه بدلالات مبهمة. كان الإحراج يبدو واضحاً عليه وهو يحاول البوحَ بما رآه، وتخذله لغته في التعبير، فراح يطيل الحديث عن ذيول الحلم وتكراره في ليلة واحدة مما جعله ينتظر الصباح «على أحر من الجمر»، دون أن يتطرق إلى فحوى الحلم. استغرق على هذه الحالة وقتاً طويلا حتى بدا تملل الرجال من طريقته في الحديث واضحاً، وتلاشت الدهشة بسبب الانتظار، عندها قال كأنه يرمي جمرةً من يديه:

«كان أبي يردد.. إعد الأمانة إلى أهلها.. أعد الأمانة إلى أهلها..»

ردد الحاج رضا الجملة عدة مرات وهو يفتعل الحزن، ثم أضاف:

«لعنة الله على الشيطان الرجيم.. كيف نسيت ما أوصاني به أبي..»

قال ذلك ثم صمت وهو يمسح عينيه بطرف يشماغه، فارتفعت الأصوات تكيل المديح للحاج والرحمة على روح الشيخ حمدان. استأنف كلامه بصوت متحشرج:

«يا جماعة الخير.. قبل أن يسلّم الوالد روحه إلى بارئها باح لي بسرّ».

غص في كلامه ثانيةً فنهض أحد رجاله وقدم إليه كأساً من الماء، راح يشربها ببطء وعيون الرجال متركزة عليه، وآذانهم مصغية بشوق إلى ما سيقوله. سعلَ الحاج رضا محاولاً إزالة حشرجةٍ توقفت في بلعومه، ثم قال:

«قبل أن يسلم الوالد روحه إلى العلي العظيم.. أخبرني بأن البستان التي تقع في شرق المدينة.. تعود ملكيتها إلى الشيخ هاشم».

سرت همهمات بين الحاضرين، وراحت الأنظار تنتقل بين مناف ومحمد الذي لم تبد على وجهه علامة استغراب أو اهتمام لما قاله الحاج رضا. ارتفع سعال شيخ كان جالسا، متدثراً بعباءته في زاوية معتمة. تحول السعال إلى شهقات اختناق. صمت الحاضرون وهم يتطلعون إلى الشيخ الذي لم يتذكره أحد سوى محمد، وإنْ لم يره إلا مرة واحدة حيث جرى بينهما حديث سريع حول الشيخ هاشم وثورته على الغرباء، في اليوم الأول لعمل محمد حارساً في البستان التي كانت من أملاك الحاج رضا. نهض بعض الرجال لإسعاف الشيخ. ناوله أحدهم كاس ماء فشربها ببطء حتى توقف سعاله وهو يردد كلمات لم يستطع أحد التقاطها بوضوح، وقبل أن ينشغل الحاضرون عنه ارتفعت ضحكته مختلطة بالسعال فأثار ضحكه الفضول. حاول الحاج رضا إلهاء الناس بدعوتهم للصمت كي يكمل الحديث الذي بدأه، إلاّ أن فضول الحاضرين لمعرفة ما يُضحك الشيخ الغريب كان أكبر من رغبتهم في الاستماع إلى ما سيقوله الحاج رضا. نهض الشيخ الغريب من مكانه وتقدم إلى حيث يقف الحاج رضا، وبصوت عال، قال موجها كلامه نحو الحاضرين:

«الحمد لله.. الذي جعلني أعيش إلى هذا اليوم.. لأقول شهادتي عن تأريخ.. حاول اللصوص والخونة أن يزيفوه..»

مسح بكمّه الزبد الذي تراكم على شفتيه ثم قال:

«أشهد أن.. البستان كانت تعود إلى الشيخ هاشم رحمه الله..»
توقف عن الكلام لاهثاً أو زافراً، مزيحاً عن صدره ثقل الشهادة. التفت إلى الحاج رضا وقال موجهاً كلامه إليه:
«ولكنّ أباك.. الخائن حمدان.. استولى عليها بتواطؤ مع جيش الغرباء المحتلين».

ساد صمت بين الحاضرين والعيون تتقادح، وتتطلع إلى من يعرّفهم بهذا الشيخ الذي نسيه عزرائيل. حاول بعض الرجال أن يمنعه من إكمال حديثه، خاصة بعد أن وصم الشيخ حمدان بالخيانة، وربما كانوا يتوقعون منه المزيد من الفضائح، إلاّ أن الشيخ رفع يده بكبرياء بوجه من حاول اعتراضه فانسحب خجلاً. تطلع بوجه الحاضرين بعينين ترتعش أجفانها وقال بصوت هادئ ووقور موجها كلامه إلى كل الحاضرين:
«إذهبوا.. اذهبوا إلى قبور آبائكم وأجدادكم.. والعنوهم.. لأن من بينهم من شاركَ في الخيانة.. أو لأنهم لم ينقلوا إليكم حقيقة ما جرى على هذه الأرض».

ضربَ بيده طرف عباءته كأنه ينفض عنها غباراً علق بها، ثم سار بهدوء متوكئاً على عصاه، مغادراً المكان. حاول الحاج رضا أن يمنع الشيخ من المغادرة، متوسلاً به أن يبقى، مردداً على مسمع الناس بأن ما قاله الشيخ «على الرأس والعين» وأنه «يسعى الآن إلى إصلاح الخطأ»، إلاّ أن الشيخ أزاح يد الحاج رضا عن كتفه بغضب وغادر المكان.

عاد الحاج رضا واقفاً في منتصف السرادق، وكان الحزن بادياً عليه. حاول البعض تطييب خاطره بكلمات المديح له ولسيرة أبيه، واتهام الشيخ بالخرف أو أنها مؤامرة لإثارة الفتنة خاصة بعد أن صفت القلوب وتصاهرَ المختلفون بعد أن طويت صفحات الماضي، إلاّ أن الحاج رضا فاجأ الجميع حينما قال:
«إن ما قاله الشيخ هو الحقيقة..»
ودون أن ينتظر رداً من أحد أضاف:

«هذا ما أردت أن أقوله.. وأن تعرفوه مني وليس من الآخرين».

مدّ يده وأخرج من جيبه صرّة معقودة، بدا من صوتها أنها تحوي نقوداً أو ليرات. رفعها من طرفها المعقود، وقال بصوت متهدج:

«هذه هي الليرات الذهبية التي استلمتها من محمد ثمناً للبستان».

وضعها على راحة كفه، وقال:

«أقسم بالله العظيم أني لم أفتحها إلا مرة واحدة أثناء استلامها من محمد.. وها أنا اعيدها إليه ولم أصرف منها ليرة واحدة».

بعد أن أنهى قسمه، تقدم نحو محمد ورمى الصرة في حجره وهو ينفض كفيّه كأنه ينفض عنهما غبار الأثم. وضع محمد الصرة جنبه ونهض معانقاً الحاج رضا وسط تهليل الحاضرين وتبريكاتهم ودعواتهم بالتوفيق للحاج رضا ولمحمد.

في اليوم التالي اكتظت دار محمد بالعائلة الهاشمية التي اجتمعت دونما موعد أو اتفاق. أدرك محمد سبب الزيارة الحقيقي، إلا أنه استقبلهم بالترحيب دون أن يُظهر ما دار في ذهنه. كان مشفقاً عليهم، ساخراً في داخله من الأعذار التي كان يتحجج بها كل منهم لتبرير زيارته متلذذاً بارتباكهم وهم يحاولون إدارة دفّة الحديث لكنهم لا يجرؤون على الذهاب إلى القصد. ما أن دار الحديث علانيةً عن تقسيم تراث هاشم الذي عاد إليهم دون عناء منهم، حتى رأى محمد أمامه وجوهاً غريبة، لم يرها من قبل، وجوهاً طمسَ الجشعُ ملامحها، وسمع كلاماً تنطقه أفواه كانت مكممةً، فتعرت أمامه نفوس كانت تدعي العفّة جبناً وليس زهداً، فظهر صدأها في أول اختبار، حتى مناف الذي عاش حياته كادحاً، يبرر بزهده تواريه وهروبه عن المطالبة بحقه، وقف الآن يطالب بضعف حصته متحججاً بأحكام الشريعة التي لم يعرفها يوماً، وأخته زينب التي لم ترَ بمحمد يوماً أخاً حتى لو كان من صلب ناصر، ها هي تطالب بحصتين من الإرث، مبررةً ذلك بأن الذي أعاد إرث جدهم هو زوجها إكراماً لها، والأخت الكبيرة تريد انتزاع حقها بلسانٍ يتخلى عن

عفته فتوجه كلاماً قاسياً لمحمد الذي منّنها بتشغيل ولدها جبير حارساً في بستان هي ملكه. سكيّنة كانت صامتةً، غير أنها حينما نطقت، نطقت بالكفر كلها، إذ أنها لم تكتفِ بحصتها بل طالبت محمداً بأن يدفع لها ما تراكم من حصص في منتوج البستان منذ امتلاكها لهذا اليوم.

هزّ محمد رأسه، مطمئناً أخاه وأخواته بأنه سيقتسم وإياهم تراث هاشم بالحق، ولن يُبخس أحداً حقه. قال كلمته بحزن مختنقاً بحسرةٍ فضحت ضعفاً لم يره أحد من قبل.

«على الحاكم أن يكون صارماً حتى مع أقرب الناس إليه».

عبارة رنت في أذن محمد، لم يعد يتذكر إن كان قد سمعها من الشيخ نوفل، أو تسللت إلى ذاكرته من إحدى المخطوطات، وربما هي من نتاج تفكيره هو. رددها مع نفسه وهو يفكر في طريقة لإقناع أخيه وأخواته على القبول بتعويضات مالية بدلاً من سعيهم إلى محاصصته في ملكية البستان، خاصة وأن البستان لم تعد كما كانت على عهد هاشم، فقد قام هو بتوسيعها عدة مرات منذ اليوم الذي اشتراها من الحاج رضا بأموال بهيجة، وضمّ إليها بقوته مفازة الجن التي لم يكن وقتذاك من رجلٍ يجرؤ على اجتيازها، وحده من استطاع القبض عليها معتصراً أرضها وجنّها بقبضته، فأصبحت بستانه تمتد من النهر حتى طرف المدينة الشرقي، ولم يتوقف عن توسيعها حتى أصبحت مساحتها أضعاف ما كانت عليه، فكيف يأتي اليوم من لم يكن يجرؤ على رفع صوته بوجه سارقيه ويطالبه بأرث لم يدافع عنه ولو بكلمة؟. لم يكن محمد يفكر بالمال الذي عليه أن يدفعه كحصص لأفراد عائلته، وإنما كان لا يريد أن يزاحمه أحد على ملكية، فيزاحمه على القرار، فلابد أن يبقى القرار بيده وحده.

«بهيجة».

ردد محمد مع نفسه، كأن الحديث عن أموالها ذكّره بشيء كان غائباً عنه، فهي على الرغم من أنها صاحبة الحق في البستان، فلولا أموالها لما استطاع إرجاع البستان لتكون نقطة انطلاقه في بسط سطوته على

رجالٍ كانوا لا ينظرون إلى ما تبقى من هاشم سوى مساكين يستحقون الشفقة والصدقات، إلا أنها لم تنطق يوماً بأي حرف تذكر فيه فضلها عليه، وحينما كانت العائلة الهاشمية أمس تشخذ أسنانها لقضم كلّ ما بإمكانها قضمه من البستان، كانت بهيجة صامتةً تتطلع إلى جهة خارج المكان وكأن الأمر لا يعنيها من قريب أو بعيد.

شعرَ محمد بوخزة تأنيب وهو يقارن بين بهيجة وأخواته.

«أين الثرى من الثريا!»

قال وهو يرفع رأسه إلى السماء كأنه يبحث عن كوكب بعيد يرى على صفحته صورة بهيجة، فيتمنى لو انعتقا معاً من أسر هذه الأرض ورحلا إلى هنااااااك.

غادر محمد (الهاشمية) فجراً، لأمر طارئ كما أخبر عائلته، إلا أنه وكالعادة لم يخبر أحداً عن وجهته ولا عن فترة غيابه. أوكل في حضور الكثير من العاملين عنده، علياً وسلمان العجمي بإدارة أعماله أثناء فترة غيابه.

«مَنْ كان يأتمر بأمري فهذا عليّ من بعدي.. هو صاحب الأمر والنهي.. عليكم طاعته.. ومن عارضه كمن يعارضني».

قال وهو يضع يده على كتف علي الذي أحنى رأسه خجلاً.

أثار التوكيل حفيظة البعض، فعلي لا يزال شاباً صغيراً لا يعرف شيئاً في إدارة ما تتطلبه التجارة، وسلمان العجمي على الرغم من أن الجميع يعرفون مكانته عند محمد إلا أنه يبقى غريباً عن العائلة الهاشمية والمدينة، وكذلك العداء الشرس الذي يكنّه لكل التجار ورجال الشرطة بسبب توجهاته السياسية التي لا يخفيها عن أحد. كان مناف وأخواته أكثر امتعاضاً من هذا التوكيل الذي يحمل بين سطوره رسالةً أراد محمد إيصالها إليهم بشكل خاص، خاصة بعد أن استطاع انتزاع علي من أبيه فلم تعد لمناف سطوة عليه. العجمي نفسه، أثار التوكيل استغرابه وحيرته في ما يدور في ذهن محمد، خاصة بعد الجفوة التي سببها توقيع العجمي على

قرار تجميد عضوية محمد في الحزب. حاول أن يلقي عن نفسه عبء المسؤولية إلاّ أن إلحاح محمد ورجاءه منعاه، معتزّا بالثقة التي منحه إياها على الرغم مما حدث، ومتريثاً لمعرفة ما يسعى إليه، فقد حرّك هذا التوكيل في نفسه مشاطرته لمحمد في السعي إلى إذلال أعدائه.

حاولَ مناف في فترة غياب محمد، وبدفع من زوجته وأخواته إلى استمالة علي إلى جانبه، لمعرفة شيء عن واردات البستان وعما يملكه محمد من ثروة، إلاّ أن علياً كان البئر التي ضاع فيها مفتاح السرّ، فلم يكشف لهم شيئاً مما يريدون معرفته متحججاً بجهله لهذا الأمر. ولكي يتهرب من مواجهة أبيه وإلحاحه عليه بالعودة إلى السكن معه بحجة حاجة أخويه الصغيرين إليه، قال بأنه يفضّل المبيت في مخزن الحبوب ليقوم بحراسته، حتى يئس مناف من الأمر.

حينما أخبر عليّ عمّه عمّا جرى في فترة غيابه، لم تبدُ عليه أية علامة استغراب أو غضب، فقد كان قبل سفره يعلم بما سيجري في غيابه، وربما هو أراد أن يتيقن مما كان يتوقعه.

هزّ محمد رأسه وهو يصغي إلى عليّ دون أن ينطق بكلمة، حتى شعر علي بأن وقوفه ضد جبير ابن الغواص وعراكه معه كان مبالغة منه في الحرص على تحمل مسؤولية أمرٍ لا يعير له صاحبه نفسه اهتماماً. حاول أن يستدرك الأمر بالإعتذار عمّا فعله بتوجيه لكمةٍ لابن عمته أمام العاملين حينما امتنع عن تنفيذ ما أمره به، وقام بالاستيلاء على محصول البستان وبيعه لحسابه الخاص، وحينما طلب منه أن يعيد المال أو يسجله، رفض مدعياً بأنه هو شريك في ملكية البستان. حاول سلمان العجمي أن يكون مصلحاً بين عليّ وابن عمّته قبل أن يتطور الخلاف وينقذ نفسه من مشكلة هو في غنى عنها، إلاّ أن علياً أنهى تردده بحسم الخلاف بلكمةٍ وجهها إلى وجه ابن عمّته أسقطته أرضا. كاد العراك أن يتحول إلى معركة دموية لولا تدخل بعض العمال والمزارعين بالوقوف بين المتبارزين حائلين بينهما. وجد سلمان العجمي نفسه مجبراً على

الوقوف إلى جانب علي وفاءً بتعهده لمحمد بمؤازرة علي، إلاّ أن هذا الموقف كلّفه الكثير فقد سمع كلاماً لولا هدوؤه وسياسته في التعامل مع الناس، لتطور الأمر إلى ما لا تحمد عقباه، حتى مناف الذي وقف موقف الحائر ما بين ابنه وابن أخته فقد حمّل العجمي «الغريب» مسؤولية الأمر كاملة، متهماً إياه بتحريض علي على ابن عمّته لزرع الفتنة بين الهاشميين، وحينما طلب سلمان العجمي من مناف التدخل في حل الخلاف والطلب من جبير أن يعيد ما استحوذ عليه من أموال، ردد مناف ما كان يردده جبير من أن البستان هي أرث للهاشميين جميعاً وليس لمحمد وحده، عندها انسحب من الخلاف، طالباً من عليّ تأجيل الأمر لحين عودة محمد.

اجتمعت العائلة الهاشمية في بيت مناف في غياب السيدة بهيجة التي رفضت الحضور والتدخل في أمور لا تعرف عنها شيئاً ولا يهمها من أمرها إلا ما يتعلق براحة زوجها ورضاه، وتحاشياً لنظرات النسوة اللواتي سيتهمنها بأنها تقف وراء التغيير الكبير الذي طرأ على سلوك محمد تجاه أهله.

كان علي يراقب المشهد بقلب كسير وعينين ذاهلتين، تكتشفان الحقيقة التي كانت مخبّأةً خلف حجاب الرفعة المزيفة، فقد رأى أهله كيف يتناهشون الأوراق النقدية وعيونهم جاحظة وألسنتهم مدلقة كضباع جائعة، وكلّ منهم يدعي أنه الوريث الأول لهاشم، ويسعى إلى حيازة النار إلى رغيفه. كان مناف يقوم بتقسيم الحصص على أخواته محتفظاً لنفسه بالضعف غير آبه باحتجاج أخواته على هذه القسمة، وحينما دفع إلى ابنه برزمة من الأوراق النقدية، أعادها عليّ بقدمه، بحركةٍ أغضبت الجميع، خاصة زوجة أبيه التي همّت أن تقول شيئاً إلاّ أن منافاً نظر إليها خزراً فصمتت. نهض علي مستاءً، وقبل أن يغادر بيت أبيه سألته عمّته سميّة بلهجة حاولت أن تجعلها رقيقة ومتسامحة، على الرغم من حنقها عليه بسبب ما فعله بابنها:

«يا علي.. هذه حصتك من أرث جدك. ألا تريدها؟»

تطلع علي في وجه عمته وعيناه تقدحان شرراً، ثم أدار نظره على الجميع، حتى تمركزت على وجه أبيه الذي لم يستطع مقاومة نظرات ولده الساخطة فطأطأ رأسه، عندها قال علي موجهاً كلامه للجميع، وبلهجة تدل على أن هذا الغلام الذي يقف الآن أمامهم قد سبق عمره كثيرا:

«والله.. لولا وفائي بما كلّفني به عمي.. لغادرتُ الهاشميةَ وعشتُ وحيداً في البراري.. ولألفتم دنياكم هذي عندي كعفطة عنز».

ارتفعت ضحكة محمد مجلجلةً حينما أنهى علي حديثه. تطلع علي إلى عمّه بذهولٍ محاولاً معرفة سبب ضحكه. التفت إلى زوجة عمّه فوجدها تنظر إليه بنظرات غريبة وعيناها مغرورقتان بالدموع. لم يفهم شيئاً مما كان يدور حوله، فراح ينقل نظره بين عمه وبهيجة ليعرف سرّ اهتمامهما به وسرّ تبادلهما لنظرات غريبة، لم يدرك مغزاها. أدرك محمد خجل علي وحيرته، فضمّه إلى صدره مربتاً على كتفه.

«هل أخطأت بشيء؟»

سأل علي دون أن يرفع رأسه عن صدر عمّه، فرد محمد:

«لم تخطئ... بل فعلتَ ما كان يجب أن يفعله الرجل الحكيم».

عندها سحب علي رأسه من قبضة عمّه، محاولاً النهوض، فسأله محمد:

«إلى أين؟»

صمت علي، وقبل أن يجيب، قال محمد بطريقة لا تقبل الاعتراض.

«ستبيت الليلة هنا».

ثم أضاف:

«ستذهب معي غداً إلى البستان».

بعد أن انتهوا من تناول العشاء، قامت بهيجة بترتيب غرفة المكتبة لتهيئ لعلي فراشه، وهي تحاول تبرير اضطرارهما إلى تركه ينام في غرفة

المكتبة بسبب ضيق المكان، وكذلك:

«لم تعد زهرة طفلة.. فهي احتلت الغرفة التي كنت تنام فيها حينما كنت معنا».

قالت وعلى وجهها ابتسامة حنونة. هزّ علي رأسه متفهماً الأمر، وكان سعيداً بهذا الاقتراح، فهو لا يشعر برغبة في النوم، لذلك فأن نومه في غرفة المكتبة سيتيح له الفرصة للقراءة والاطلاع على الكتب والمخطوطات التي لم يطلع عليها منذ انتقاله للسكن في حي (المحمدية) وانشغاله في العمل.

كان علي يدرك جيداً أن الكتب والمخطوطات التي تضمها مكتبة عمّه لا تشبه ما تحويه الكتب الأخرى، ليس لكونه قد اطلع على البعض منها، بل إن حرص عمّه على إخفائها عن أنظار الآخرين وتنظيمها حسب أهمية ما تحويه بين دفتيها يثير السؤال عمّا تحويه من أسرار خطيرة، فهناك كتب ومخطوطات موجودة على واجهة الرفوف، وهناك ما تم حفظه في خزانة مقفلة، يحرص عمّه حرصاً شديداً على إخفاء مفتاحها، وقد اطلع على بعضها وقام باستنساخ بعض آخر، وهو وإنْ لم يفهم ما ورد فيها إلاّ أن هاجساً داخلياً كان يشير إليه بأنها كتب خطرة وأن غموضها ينطوي على سرّ لا يعرفه إلا عمّه خاصة أن بعضها مزين بخطوط ورموز وأشكال غريبة، إضافةً إلى أن هناك قسماً ثالثاً من الكتب والمخطوطات احتفظ بها محمد في السرداب الذي لا يسمح لأحد بالدخول إليه.

استل عليّ كتاباً من أحد الرفوف. كان كتاباً مهترئ الأوراق، عنوانه غامض ومتناقض وقد كتب بخط رديء:

«النزر الوفيرْ في أحوال أهل الدير»

قرأ منه بعض السطور، لم يفهم منها شيئاً فأعاده إلى مكانه. استل كتاباً آخر. قرأ عنوانه بصوت عال:

«الدخيلُ والمؤكَدْ في أخبار فرسان المعبد»

كان لا يختلف عن الأول بهيئته وبرداءة خطه وبما يحويه من كلامٍ يُقرأ ولكن لا يُفهم. شعر بأنه لا يزال صغيراً على فهم مثل هذه الأمور وأن لعمّه خبرته الكبيرة في الحياة التي اكتسبها من خلال صراعه في سبيل الوصول إلى غايته وكذلك من خلال رحلاته العديدة إلى مدن لم يجرؤ أحد قبله على التفكير في الوصول إليها، ألا أنه تذكر ما سمعه من كلام يتردد على ألسنة البعض عن سيرة عمّه الغامضة، وعن المخطوطات التي استولى عليها من الشيخ نوفل بعد وفاته وعن الأشخاص الذين يلتقي بهم في مدن الساحل الشمالي البعيدة.

تمدد على فراشه محدقاً إلى السقف، محاولاً طرد من ذهنه النوايا السيئة والشك وما يردده الحسّاد والأعداء من شائعات غايتها إلحاق الضرر بهذا الرجل الذي صنع نفسه بنفسه وتحدى كبار التجار في المدينة، بل تحدى الماضي وأعاد صياغته حسب مشيئته. أعاد ما توصل إليه من تفكير الثقة بعمّه وإعجابه بشخصيته وتأريخه.

قبل أن يُطفئ الضوء، لمح كتاباً ضخماً على المنضدة الصغيرة جنب الكرسي الكبير الذي يجلس عليه عمّه عادة حينما يقرأ. استبد به الفضول ليعرف ما يقرأه عمّه، خاصة وأن هذا الكتاب يبدو جديداً، ربما جلبه عمّه من هناك في رحلته الأخيرة. تناول الكتاب فوجد بين صفحتين ريشة صغيرة ملونة فحسبها ريشة طاووس، وضعها عمّه كمؤشر لما وصل إليه في القراءة. قرأ العنوان الذي خط بشكل أنيق وبحروف بارزة وبراقة:

«الأقنوم الرابع»

فتح الكتاب بحذرٍ كيلا يترك أثراً يدل على فضوله. كانت الصفحتان بيضاوين. أعاد الريشة بينهما وراح يقلب صفحات الكتاب، كانت جميعها فارغةً تماماً، لم يُخط عليها أي حرف. رفع الكتاب وقربه من الضوء فرأى آثار كتابة ممسوحة. لم يستطع قراءة أية كلمة بوضوح إلا أنه ما من شك أن هناك كتابة طُمست معالمها أو أنها كتبت بحبر أبيض.

في الطريق إلى البستان، كان علي يتطلع إلى وجه عمّه بحذر كي

يحدس ما ينوي فعله لجبير ابن الغواص. كان وجه محمد هادئاً بشوشاً، خالياً من أيه علامة تدل على غضب أو على نية لمعاقبة جبير بقسوة، وهذا كان يريح علياً فقد كان يشعر بتأنيب ضمير بسبب اضطراره إلى أن ينقل لعمّه الذي وثق به ما دار في غيابه.

حينما وصلا البستان كان سلمان العجمي واقفاً عند الباب، فقد كان على علم بمجيء محمد اليوم. تعانقا بحرارة أوحت لسلمان بأن محمداً لم يحملَ غيظاً عليه بسبب موقفه الحزبي. هرع العاملون في البستان إلى محمد مهنئين بسلامة عودته من السفر، يتقدمهم جبير ابن الغواص ماداً يده، إلاّ أن خاله تجاوزه كأنه لم يره متنقلاً بين العاملين مصافحاً بعضهم ومعانقاً البعض الآخر. نظر سلمان العجمي إلى علي مستفسراً بنظراته عمّا ينوي محمد فعله، فطمأنه علي هازاً رأسه بحركة تدل على أن لا شيء سيحدث مما كانا يتوقعانه. بعد أن انتهى محمد من مصافحة جميع العاملين، توجه نحو جبير ابن الغواص فأسرع جبير نحوه ماداً يده. مسكه محمد من يده، وبحركةٍ مباغتة لوى ذراعه إلى خلف ظهره، فاستسلم جبير دون أن يبدي أي اعتراض. طلب من علي أن يساعده في ربطه إلى إحدى الشجرات. تقدم عاملان ليتوليا الأمر إلاّ أن محمداً زجرهما بنظرة غاضبة. لم يفهما ما كان يرمي إليه، فقال بصوت يسمعه الجميع:

«لا أحد منكم يتدخل في هذا الأمر سوى علي».

تراجع العاملان بعد أن لمحا إشارة من سلمان العجمي تشير إليهما بالابتعاد. تقدم علي ومسك جبير من الخلف دافعا إياه إلى الأمام فخطا منقاداً بسهولة. نادى محمد على أحد العمال طالباً منه أن يأتيه بحبل، وطلب من آخر أن يأتيه بحبل من الحبال التي تستخدم لربط القوارب. قام علي بربط جبير إلى جذع إحدى الشجرات مثلما أشار إليه عمه، وتراجع إلى الخلف. اقترب محمد من جبير ماسكاً إياه من رقبته ضاغطاً رأسه إلى جذع الشجرة حتى تفجر الدم من أنفه وشفتيه. مسك قميصه من الخلف، وبكلتا يديه قده، فعرّى ظهره كاملاً. حاول جبير أن يتكلم إلاّ

أن محمداً أخرسه بضرب رأسه بجذع الشجرة. حاول جبير متوسلاً ثانية، إلاّ أن محمداً أعاد الكرّة، فاستسلم جبير. وصل العامل حاملاً حبلاً غليظاً استله من أحد القوارب الراسية عند جرف النهر. سلّمه إلى محمد وانسحب بصمت. أشار إلى العاملين أن يبتعدوا عنهما قليلاً فتحدث مع جبير بكلام لم يسمعه أحد سوى علي، ثم انهال عليه بالحبل بقسوةٍ جعلت سلمان العجمي يتخلى عن حياده ويقترب من محمد متوسلاً بأن يكفّ عما يفعله. تطلع محمد إلى سلمان بوجه لم يره سلمان من قبل، فوقف مذهولاً وهو يرى هذا الشاب الرقيق، عازف الشبابة، الشاعر، عاشق الجمال والنبيذ وقد تحول إلى بعيرٍ هائج. اشتد صراخ جبير وقد غطا الدم ظهره وملابسه إلاّ أن محمداً لم يتوقف عن جلده وقد اصطبغ وجهه بحمرة قانية وصوت لهاثه كزئير أسد مهاجِم. انطلقت من جبير صرخة قوية ثم همد وعيناه زائغتان. توقف محمد مبتعداً قليلاً وهو يمسح العرق الذي غطا وجهه وعينيه على الرغم من برودة الطقس. طلب من علي أن يأتيه بجردل مليء بالماء البارد، بينا هو جلس متكئاً على جذع إحدى الشجرات محاولاً أن يسترد أنفاسه ويستعيد قوته. أشار إلى علي بأن يرمي الماء البارد على جبير. تردد علي قليلاً فصرخ به محمد أن يفعل ما يأمره به، ففعل. جفل جبير ناشقاً الهواء بصوت كشخير عجل مذبوح، عندها نهض محمد وباشر بجلده ثانية. اقترب سلمان العجمي من علي وهمس في أذنه فهزّ علي رأسه بإشارة تدل على الموافقة. انتظر علي لحظات ثم هجم على محمد من الخلف ماسكاً بيده التي تمسك الحبل. راح يقبّلها متوسلاً به أن يكفّ عما يفعله، محاولاً سحب الحبل من يده. توقف محمد قليلاً ثم دفع علياً بيده الأخرى فكاد يسقط على ظهره لولا تلقفه سلمان العجمي، بينا استمر محمد بجلد جبير، حتى تيقن الجميع بأنه سيقضي عليه لا محالة.

فجأة بزغ الشيخ الغريب الذي لم يره أحد سوى في المواقف الغريبة. أزاح المتجمعين بذراعه وخطا ببطء نحو محمد. لم ينتبه محمد لوجوده،

حتى وقف خلفه، وبسبّابته المرتعشة نقر بهدوء على كتف محمد. توقف محمد وأدار ظهره نحو الشيخ. تطلع كل منهما في وجه الآخر لحظاتٍ وكلٌ منهما يقرأ في وجه الآخر حكمةً لم يدركها أحد سواهما. امتدت يد الشيخ بصمت، ساحباً الحبل من يد محمد ببطء فتراخت قبضة محمد حتى سقط الحبل على الأرض، إلتقطه علي بسرعة دافعاً به إلى أحد العاملين لإرجاعه إلى المكان الذي جلبه منه. سحب الشيخ محمداً من يده وأجلسه عند جذع الشجرة. انضم إليهما علي وسلمان العجمي بعد أن طلب من العاملين أن يذهب كل منهم إلى عمله. مسح الشيخ بكمّه وجه محمد المتعرق، وجاء أحد العاملين بكوز ماء. تناوله الشيخ من العامل وبيده المرتعشة رفع الكوز إلى فم محمد. عبّ منها قليلاً وهو يردد كلمات الشكر بخجل دون أن ينظر إلى وجه الشيخ، حتى هدأ وانتظم صوت أنفاسه، عندها تطلع الشيخ إلى وجه محمد وعلى وجهه ابتسامة ملائكية أنارت تجاعيده بهالة من الجلال، وبصوت هامسٍ لكنه صافٍ كنبع، قال:

«اسمعْ يا حفيد هاشم.. إيّاك والتساهل مع الخائن.. لكنْ..»

صمت الشيخ وهو يتطلع في الأرض، ماسكاً صدغيه بسبابة وإبهام كأنه يعطي لمحمد فرصة للتفكير بما سيقوله بعد الاستدراك، ولكي يجعل لمعناه أثراً في نفس السامع. أصغى محمد إلى الشيخ وهو يتطلع إليه بنظرات خجولة. رفع الشيخ رأسه وتطلع إلى وجه محمد وهو يحاول رفع حاجبيه إلى أعلى ما يمكنه لكي يرفع جفنيه الهاطلين على عينيه، ثم استأنف كلامه:

«لكن.. لا تكنْ باغياً.. فالمالُ شيطان».

هزّ محمد رأسه باحترام وهو يحتضن كف الشيخ بكلتا كفيه.

طلب محمد من سلمان العجمي أن يحل وثاق جبير ويضمد جراحه، ثم التفت إلى علي وخاطبه بهمسٍ:

«رافقه إلى البيت».

«حسناً».

قال علي بانكسارٍ، فأدرك محمد أن علياً خائف من ردة فعل عمته سمية حينما ترى ابنها بين الحياة والموت، فتطلع إلى علي بنظرة صارمة:

«لا تنسَ أن تقول لسمية بأن محمداً لن يسمح لجبير ولا لأبيه بالعودة إلى العمل ما لم يعيدوا كل الأموال التي استحوذوا عليها في غيابه».

هزّ علي رأسه باستسلامِ من لا حيلة له للتملص من مهمةٍ أجبر على تنفيذها. أدرك محمد ما يفكر فيه علي، فأشفق عليه. تراجع عن أمره، مخاطباً إياه بصيغة أخرى:

«لا.. انتظرْ.. سنذهب معاً.. وأنا سأقول لها ذلك».

همّ الشيخ بالنهوض فهبّ محمد واقفاً ماداً يده إليه لمساعدته على النهوض. سارا باتجاه النهر والشيخ يتوكأ على كتف محمد وسط ذهول وتساؤل العاملين لمعرفة من هو هذا الشيخ الذي كانت له حظوة كبيرة عند محمد، خاصة أنهم وعشائرهم يقيمون في هذه المنطقة منذ زمن طويل ولكن لا أحد منهم قد رأى الشيخ من قبل، ولم يدركوا كيف حضر فجأةً ومن أيّ منفذ دخل البستان. توقفا عند جرف النهر، وتطلع كل منهما في وجه الآخر دون أن ينطقا بكلمة. استقل الشيخ زورقاً ثم رفع يده بتلويحة الوداع فظلّ محمد رافعاً يده ملوحاً حتى وصل الشيخ إلى الضفة الأخرى وغاب عن نظره.

توقف محمد قليلاً محدقاً إلى صفحة النهر الجاري بهدوء، مستنشقاً الهواء بعمق وزافراً ببطء شديد. كرر هذا التمرين عدة مراتٍ، حتى استطاع أن يطرد عن نفسه التوتر، ويستعيد هدوءه تماما. استدار إلى الخلف عائداً، ولكنه ما أن خطا خطوتين حتى لمح عبيد الحنظل جالساً على تلّة قريبة يراقبه بفضول، فعرج نحوه.

نهض عبيد الحنظل حينما رأى محمداً يقترب منه. نشرَ ذراعيه متهيئاً للعناق، وهو يردد بطريقة حاول أن تكون بريئة:

«سبحان مغيّر الأحوال.. سبحان مغيّر الأحوال».

أدرك محمد ما يشير إليه الحنظل، إلا أنه أشفق عليه بعد أن رأى ما وصل الحال به، إذ بدا نحيفاً كشبحٍ وهرماً كأنه يقف على شفا قبره، فلم يعد ذلك الصوت الزاعق أو السوط المرفوع دائماً بيد الحاج رضا، إذ تخلى عنه الحاج رضا بعد أن تخلت عنه قوته وتناهشته الأمراض، مكتفياً برمي الصدقات له عرفاناً بماضٍ كرّسه لخدمة الحاج رضا وعائلته، وتستر على جرائمه وسرقاته، وكان لسانه الزفرالمنفلت بإطلاق الشتائم والذي يلفق التهمَ دون رادع من ضمير، حتى أصبح منبوذاً من قبل الجميع، فاستكثروا عليه حتى الشفقة.

احتضن محمد عبيد الحنظل مضطراً لمجاراته، محاولاً إخفاء امتعاضه من رائحته، وحينما حاول أن يتملص منه تشبث به، حتى أدرك محمد بأن الحنظل يحاول أن يخفي ارتباكه ويكتم بكاءه، فضمّه إليه بقوة.

جلس إلى جنبه مستفسراً عن أحواله، ففتح عبيد خرج أحزانه، وراح يشكو من نكد الدنيا وتقلباتها، وذل العوز والشيخوخة والمرض وقلة الوفاء. شعر محمد بحزن وهو يصغي إلى اعترافات عبيد وشكواه، لكن بقايا غروره أبقت على شيء من التشفي استطاع أن يخفيه، ماسكاً نفسه من إلقاء اللوم عليه أو فتح سيرة الماضي، مبدياً استعداده الكامل على مد إليه يد العون وتقديم أي شيء يحتاجه. ابتسم عبيد الحنظل بخجل وهو يردد كلمات الشكر بانخذال كبير لم يستطع اخفاءه فقد احمرت عيناه وتبللت لحيته بالدمع وهو يحاول كتمان صوت بكائه. ولكي يغيّر محمد الحديث ويخرج من الحالة التي هو فيها، حاول تلطيف الجو مازحاً، فسأل الحنظلَ بشيء من اللوم عمّا كان يقصده، فرد عبيد الحنظل وهو يحاول أن يرسم ابتسامة على شفتيه:

«أتذكر يا محمد حينما وقفت ساخطاً وأنت تشاهد مشهد جلد الحاج رضا للعبد الآبق؟»

هزّ محمد رأسه، لكنه رد مدافعاً عن نفسه ولتوضيح ما التبس من أمر على عبيد الحنظل:

«لا.. يا عبيد.. هناك فارق كبير».

تطلع عبيد الحنظل إلى وجه محمد، فأدرك محمد بأن عبيد لم يفهم قصده، فقال موضحاً:

«بالأمس كان الحاج رضا يجلد رجلاً استعبده بغير حق وبدون سبب.. أما أنا فقد جلدتُ ابن أختي.. لأنه سرق مالاً بغير حق».

لاحت ابتسامة سخرية على وجه عبيد الحنظل، وبحكمة رجل حمل أعباء الحياة فكسرت رأسه وأنهكت كتفيه قال:

«اسمعْ.. يا محمد».

توقف قليلاً، ماسكاً ذراع محمد بقبضة تجمع كل قوتها، ثم أضاف وهو ينظر إلى نقطة بعيدة في الفضاء:

«الإنسانُ هو الإنسان.. والسوط هو السوط.. حتى وإنْ اختلفت الأسباب».

فوجئ محمد بكلام عبيد الحنظل والطريقة الحكيمة التي يتحدث بها، فهزّ رأسه متفقاً مع ما قاله، لكنه شعر بشيء يقبض على أنفاسه أو أن يداً تتشبث به وتسحبه إلى عمق أرض موحلة، لذا فقد حاول بالهرب أن يستدرك غفلته عمّا قاله عبيد، فنهض متحججاً بأشغاله الكثيرة، مؤكداً بتواضع خجول تعهده بتقديم إليه كل ما يحتاجه. هز عبيد رأسه شاكراً ورفع يده مودعاً محمداً، ومحاولاً اخفاء دمعته.

في طريق عودته من البستان، وبينا كان محمد يفكر بالصفعة الأخلاقية التي وجهها إليه عبيد الحنظل والتي خدشت كبرياءه، وأشعرته بأنه لا يزال ذلك الغرّ الذي يضع قدمه في أول الطريق، جاءته صفعة أخرى حينما ردد علي بشكل لم يألفه من قبل، لوماً لعمّه بسبب القسوة المفرطة التي مارسها مع جبير ابن الغواص. تذكر محمد كبرياءه التي إنْ هزمت قبل قليل أمام عبيد الحنظل، فينبغي ألا تهزم أمام غلام يسعى هو

نفسه إلى صياغة حياته، فرد على علي بكلام يفتعل الحكمة ويذكّره بوصايته عليه:

«اسمعْ يا علي.. لا تفرِطْ في حسن النية».

وحينما شعر بأن علياً لم يفهم قصده قال:

«خذْ حذركَ من جبير ابن الغواص.. سيكون يوماً من ألد أعدائك».

«لماذا؟»

سأل علي ببراءة، فردّ محمد بكلام حاسمٍ لا يقبل النقاش:

«هي نبوءة.. ستدرك صحتها حينما تتحققَ».

* * *

(١٣)

أطال محمد وقفته أمام المرآة، بعد أن انتهى من تشذيب لحيته وإزالة الشعرات النافرة على جانبي وجنتيه وتحت عينيه. نتفَ شعرتين بيضاوين أرعبه وجودهما المبكر في لحيته. قص أطراف شعرات تدلت خارج منخريه، وبطرف أصبعيه نتف شعرة شذت عن هلال حاجبه. مرر يده على عنقه متلمساً نعومتها. أطال تمسيد شاربه بأصبعيه بحركةِ زهوٍ رجولية. رمى على وجهه حفنات من الماء. تناول بشكيراً نظيفاً وراح يمسح وجهه ببطء.

انتهى من طقسه الصباحي، لكنه لم يغادر الحمّام إذ لم يكن على عجلة من أمره، فبينه وبين موعد عمله أكثر من ساعتين وأن بهيجة لم تستيقظ بعد. وقف يتفحص وجهه من جانبيه. يتطلع إلى عينيه، محركاً حدقتيهما باتجاهات مختلفة. يغيّر ملامح وجهه مستعرضاً تقاطيعه وفق الحالة التي يمر بها، كيف تكون حينما يغضب، وكيف تكون حينما يبتسم، وكيف تكون حينما يكذب. يسبل جفنيه كأنه في لحظة انتشاء. يحدق إلى البعيد بنظرة جاحظة وهو يلقي خطاباً أمام جمهور عريض وقف تحت أقدامه يستمع إليه. يرفع ذراعه محيياً الجمهور الذي وقف تحت شرفته منتظراً إطلالته عليه. يفتح عينيه بنظرةٍ غائرة ليكشف داخل هذا الواقف أمامه وما يخبئه من شرّ، كيف تبدو نظرات الخائن في لحظة ارتكاب خيانته، وكيف تكون نظرات المتحايل الذي يسعى إلى الحصول على بغيته بالتملق، كيف تكون نظرات القاتل قبل ارتكاب جريمته، وكيف تكون نظرات القتيل الشجاع قبل التقاط أنفاسه الأخيرة....

سمع صوت الأواني المعدنية فأدرك أن بهيجة قد استيقظت وهي تعد الآن الفطور. افتعل سعالاً وهو يغادر الحمّام. دخل المطبخ فوجد بهيجة مشغولةً في تكسير البيض في المقلاة. وقف بهدوء خلفها. أحاط خصرها بذراعيه وقرّب رأسه متشمماً شعرها، ومقبّلاً رقبتها بهمسٍ ناعم، فأتلعت جيدها بنشوة دون أن تتوقف عن تحريك الملعقة على سطح المقلاة. اقترب منها أكثر حتى التصق صدره بظهرها متحاشياً احتكاك حوضه بعجيزتها. مرر يديه على ذراعيها. هزت كتفيها فتوقف عن ملامستها ثم انفصل عنها بهدوء. ملأ إبريق الشاي بالماء ووضعه على الطبّاخ. حاول أن يجد منفذاً للحديث. لوى رقبته. تذكّر كيف تبدو نظرات المخذول أمام الشاهد على خذلانه فتوقف مسترداً كبرياءه. كانت بهيجة تتصرف بعفوية كيلا تشعره بأنها تدرك ما يدور في ذهنه، وما هذه الملاطفة إلا محاولة لإخفاء ارتباكه، فسألته باستغراب:

«لماذا استيقظتَ مبكراً؟»

«لم أنم حتى الآن».

ولكيلا تظن بأن أرقه بسبب ما حدث ليلة أمس، قال بصوت واطئ:

«حاولتُ أن أكتب أفكاراً خطرتْ في ذهني».

صمتت بهيجة وهي تدرك أنه لم يكن صادقاً بما يقول، وشعر محمد بأن هذه الكذبة لا يمكن تمريرها على امرأة ذكية مثل بهيجة، فغادر المطبخ إلى الصالة كي يتجنب الحديث.

لم يكن ما حدث أمس جديداً عليهما، فقد حدث بضع مرات من قبل، لكن الجديد في الأمر هو أن أمس كانت بهيجة هي المبادِرة، فبينا كان محمد في غرفة المكتبة مشغولاً في قراءة إحدى المخطوطات، كانت بهيجة تخطو بقلقٍ خلف الستار، تنتظر أن ينتهي من القراءة وينتبه إلى شوقها إليه. خطرت في ذهنها فكرة. أرادت أن تفاجئ محمداً بإعادة الزمن إلى ما يقارب العقدين، وتعيد ذكرى اللقاء الأول الذي تم بينهما، حينما دخلت عليه حاملة صينية الأكل، وكيف كانت تسترق النظر إليه من

خرق الستارة وهو ينقضّ على فخذ الدجاجة بشبق إثار شهوتها وحطمَ كبرياء أنوثتها.

ذهبت بهيجة إلى الحمام. تعرّت. رشت على جيدها، بين نهديها، وتحت إبطيها عطراً فاخراً يحبه محمد كثيراً. ارتدت ثوباً أسود شفافاً يكشف عن زنديها وأعلى صدرها. ذهبت إلى المطبخ وأحضرت كأسين من عصير الرمان بالزنجبيل، وضعتهما في صينية من الفضة، حملتها على راحة يدها ودخلت على محمد وهي تتهادى بمشيتها وردفيها ترتجان بحركةِ إغراء واضحة المعنى. وضعت الصينية على المنضدة الصغيرة ووقفت تتطلع إلى محمد الذي لم يرفع رأسه عن المخطوطة. خطت أمامه محركة أطراف ثوبها الطويل محدثةً حفيفاً مسموعاً. انتبه محمد فتطلع إلى بهيجة بدهشة. وضع ريشة الطاووس بين الصفحتين وأطبق المخطوطة. أسند ظهره إلى الجدار واضعاً كفيه خلف رأسه وهو يتطلع بعينين نهمتين إلى قامة بهيجة، من قدميها الحافيتين حتى رأسها، الذي انساب عليه شعر أشقر، طويل يصل إلى أسفل عجيزتها.

هكذا رآها في اللحظات الأولى، لكن.. سرعان ما انقشع ضباب الدهشة أمامه وانهزم الحلم أمام صاعقة اليقظة، فبدأت الصورة تتضح. لم يعد الشعر الأشقر أشقر فقد نصل ذهبُه وطغت رمادية فضته فلاحت منابته بيضاً، والوجه الذي كان يفيض أنوثةً لم يتبقَ منه سوى عينين يكحلهما سخام التجاعيد وذكرى غمّازتين. رُدم واديا الخصر بركامِ لحميّ مترهلٍ، وتراخى الردفان، بينا بدت الساقان محاطتين بدوائر من اللحم، طياتها واضحة الخطوط، وظهرت بوضوح أعصابهما الزرق، ودوالٍ كنتوءات صخرية على ذكريات السهل المنبسط.

نشر محمد ذراعيه مرحباً ببهيجة ومحاولاً إخفاء نظراته المتحسرة على جمال أفسده الدهر. جلست بين ساقيه فأخذ رأسها بين كفيه، ممسداً وجنتيها بإبهاميه من طرفي شفتيها حتى أسفل أذنيها. قرّب شفتيه من وجهها ليقبلها بين حاجبيها إلا أنها رفعت رأسها قليلاً لتلتهم شفتيه

ساحبةً رأسه بيدها من الخلف. أدرك محمد أن بهيجة متهيجة، وقد دفعتها شهوتها إلى أن تبادر لإشباعها، خاصة بعد أن انشغل عنها في الأيام السابقة بسفراته ومشاغله الكثيرة. أغمض عينيه وهو يمتص شفتيها، محاولاً طرد من ذهنه ما رآه قبل قليل، متخيلاً بهيجة بذلك الجسد الفتي الذي رآه أول مرة، بنهديها الشامخين والساقين المنحوتتين من الرخام كتمثال نحته نحّات حاذق. مد يديه تحت إبطيها وأنهضها ببطء. كانت بهيجة ترتعش من الشهوة. جلست إلى جانبه ويداها ترتجفان، وهي تتلمس أزار قميص محمد لتحلها، وتداعب شعر صدره بيدٍ، وبيدها الأخرى أحاطت رأسه، لتقربه من صدرها. امتنع محمد عن الانصياع إلى أمرها، فأحاط كتفها بذراعه ضامّاً إياها إلى صدره، معتصراً جسدها بفحولة مستفَزَّة. اطمأنت بهيجة فسلّمت حبل مبادرتها إليه، مستسلمةً إلى انتفاضة رجولته، وهذا ما كانت تسعى إليه. قبّل عنقها وتحت أذنها فتراخت مسندةً رأسها على كتفه. وضع رأسه بين نهديها فشمّ فيهما رائحة غريبة لم يستنشقها من قبل، طغت على رائحة العطر. مدّ يده معتصراً نهدها فشهقت بصوت عالٍ. أغمض عينيه وراح يمتص حلمتها، محاولاً استثارة نفسه بتخيل صورٍ وأوضاع يحلم أن يطبّقها. شعر بحليبٍ ساخنٍ يتدفق في فمه. فتح عينيه وأخرج الحلمةً. تطلع إليها، كانت سمراء كتينةٍ ذابلة تحيطها هالة داكنة انتشرت عليها حبيبات كالبثور، وقد كان يراها بالأمس كحَبابٍ بنفسجية طافحة على كأس السلافة. اعتصر الحلمة بسبابته وإبهامه فلم يخرج منها أيّ سائل، فأدرك أن ما شعر به قبل لحظاتٍ ما كان سوى وهمٍ أيقظه الحنين إلى طفولةٍ حرمها اليتم من حليب الحنان. أعاد الحلمةَ إلى فمه، فتدفق الحليب ثانية. شعر بقشعريرة تسري من قمة رأسه، منتشرة في كل أعضاء جسده بدبيب واضح. حاول أن يتخلص من هذا الهاجس، ويطرد صورة الأم التي لم يرها. ردد مفردات داعرة لم تجرِ على لسانه من قبل. ارتدّت بهيجة قليلاً على أثر سماعها تلك المفردات، إلا أنها سرعان ما تشبثت

برأسه بقوة ويدها الأخرى تتلمس الطريق إلى أسفل بطنه، وهي تعيد ما ردده محمد بهياج ناريّ، وصوت لهائها تقطعه حشرجات غريبة:

«أشتهيك يا محمد.. أشتهيك.. أنا جاريتك.. أنا قحبتك.. نكني.. اطفئ شهوتي...»

دفعها محمد فاستلقت على ظهرها فارجة ساقيها فدخل بينهما وهو يخلع سرواله. استلقى عليها ماسكاً كتفيها بقوة وضاغطاً حوضها بحوضه، فندّتْ عنها صرخة قوية. مرت دقائق وهو يتحرك عليها لاهثاً دون أن يولج قضيبه في داخلها، بينا هي كانت تستعجل الأمر متوسلةً به، مرددة كلمات لا وجود لها في معجم حياتهما، حتى نفد صبرها. مدت يدها نحو قضيبه، تلمسته. كان منكمشاً. أدرك محمد أن بهيجة اكتشفت أنه كان يفتعل الانفعال بالشهوة، فتوقف قليلاً. تمسكت بهيجة بقضيب محمد، وراحت تحرك يدها عليه من خصيتيه إلى رأسه وهي تكيل المديح إلى طوله وغلظه بقاموس الكلمات الجديدة. استيقظ قليلاً وتمطى في يدها فقربته من فرجها، حاكة رأسه بباب كهفها المبتلّ بفيض شهوته. حاول محمد أن يدفع قضيبه إلى الداخل إلا أنه تلوى مخذولاً وارتد خائباً. أعادت بهيجة الكرة مرات عدة دون أن تستنهض همّته، حتى يئست. انسلت من تحت محمد فارتمى على ظهره واضعاً يده على وجهه. جلست بهيجة بين ساقيه وراحت تقبل جسده المرتعش من قدمه صعوداً إلى فخذيه. لحست ما بين فخذيه وتحت خصيتيه وعِجانه، ثم ارتفعت لاحسة بطرف لسانها عصب قضيبه حتى الحشفة. أدخلت قضيبه في فمها وراحت تمصه، مطبقة عليه شفتيها بقوة. كان محمد يتوسل بالشيطان وربّ المجوس تارةً ليعيناه على اتمام المهمة، وتارة أخرى يتوسلُ بالرحمن رب العفّةِ كي يزيل عن عينيه ولو بضع لحظاتٍ صورة الأم التي لم يرها من قبل، فتناسخت على وجه بهيجة. لم يستجب دعوته أي منهما فظلّ ثوره حارناً لم يتزحزح من مكانه، لكن بهيجة ظلت توقد نهار شهوتها تحته، لعله يستفيق من حرونهِ. فجأة اهتزّ جسد محمد

برعشةِ مصعوقٍ، ثم قذف ماءه بفم بهيجة. هبتْ واقفة، وهرعت إلى الحمّام عاريةً وهي تمسك فمها بقبضتيها. بعد لحظات ارتفع صوت تقيؤها. دفن محمد رأسه بين ذراعيه وأجهش ببكاء صامت.

تناول محمد وبهيجة فطورهما دون أن ينطقا كلمة واحدة، ودون أن يرفعا رأسيهما عن السفرةِ، بل كانا يتحاشيان احتكاك يديهما وهما تمتدان إلى الصحن، وكلّ منهما يعرف ما يدور في ذهن الآخر. نهض محمد حامداً الله على نعمته، بينا حملت بهيجة الصحن والكؤوس إلى المطبخ. افتعل محمد سعالاً، إشارةَ إلى نيته على المغادرة. في طريقه إلى خارج البيت رأى بهيجة واقفة في الممر وهي تمسك أكرةَ الباب. أدرك ما ترمي إليه، فهي تذكره بلقائهما الذي باحت له فيه بحبها وأهدته القدح الفخاري الذي لا يزال محتفظاً به كأعزّ مقتنياته إلى نفسه، وذكرى أول قبلة اختطفها من شفتيها. توقف وهو يتطلع إليها بنظرات محبّة متسامية. همّ بتقبيلها إلا أنها أخذت رأسه بيديها وطبعت قبلةً بين عينيه. حاول أن يحتضنها ويحيط خصرها، فتراجعت إلى الوراء خطوتين، وأدارت أكرة الباب فانفتح قليلاً. عرفَ محمد مغزى الإشارة. هزّ رأسه وهو يرسم على شفتيه ابتسامةً خجولة، هامّا بالخروج بعد أن قبّل بهيجة من رأسها. بعد أن خطا خارجاً كانت بهيجة تتطلع إليه بزهو أمّ فخورة بولدها وهي تراه يطأ الأرض بقدم واثقة فيهابه الطريق، بينا محمد كان يسمعها وهي تردد أدعيةً وتعاويذَ لم يسمعها إلا من بهيجة.

مرّ النهار ومحمد شارد الذهن، لا يفكر في غير بهيجة وما جرى بينهما أمس. حاول أن يجد تفسيراً لجبل الثلج الذي انهار فجأة بينهما، لا.. لا.. لم يكن الأمر مفاجئاً، فهو أكبر من انطفاء جذوة الشهوة بينهما بسبب المعاشرة الطويلة أو بسبب ما ترك العمر على جسد بهيجة، وإنما بسبب ما استجد في نفسه من شعور، كان قد حذّره العارفون ومنهم مناف، قبل زواجه من بهيجة بأنه سيصل يوماً إلى خط النهاية قبل النهاية، لكنّ محمداً وقف ساخراً من التحذير، متحدياً بإصرار العاشق

المستهام على أن يتخطى المتعارف عليه والمألوف من علاقات الزوجين. الآن الأمر اختلف كثيراً، فمشاعره نحو بهيجة أخذت إتجاهاً آخر، كأن جسده استيقظ على ذاكرة لا تمت إليه بصلةٍ، فوجه أمه الذي لم يره في حياته صار يطارده، يراه مرتسماً على جدران مخدعه، تلبسه بهيجة قناعاً فلم يعد يرى إلاه. يد خفية تمتد من العتمةِ، ترشق جسده المشتعل بحمى الشهوة بجردل من الماء البارد، عينانِ لا يستطيع مقاومة شرر نظراتهما التي تترك في جسده خدوش التأنيب، وهذا ما يجعل تفكيره يتمرد عليه حتى وهو في أكثر الأوضاع هوساً في الرغبة. حاولَ أن يتجاوز الأمر فراح يتحجج بالتأخر في الذهاب إلى السرير ليلاً، منشغلاً في القراءة أو مراجعة الحسابات حتى لم يعد قادراً على رؤية السطور، عندها يذهب على أطراف أصابع قدميه ويندس في السرير دون أن يحدث جلبة توقظ بهيجة.

لم يكن فتور الشهوة هو الشرخ الوحيد في جدار حياتهما، بل هناك ما هو أهم، حيث أن هوّة بدأت تظهر بينهما، فبينا كان محمد مشغولاً في طموحه ومستقبله، كانت بهيجة مشغولة بترتيب الماضي لتشكل من ذكرياتها زهوراً تضعها في أصيص الحاضر وهي تتطلع إليها بفرحٍ وحب. تسميّ الأشياء بغير أسمائها، حتى ابنتها زهرة التي تكرّس لها كل وقتها كانت في أحيان كثيرة تناديها بأسماء غريبة، وحينما كانت زهرة تنبهها إلى سهوها، كانت بهيجة تتطلع إليها بنظرات ساهمةٍ كأنها تهمّ بأن تبوح لها بسرّ، تمتنع عن البوح به في اللحظة الأخيرة.

عاد محمد إلى البيت عصراً، فوجد الباب الخارجي مفتوحاً. لم يترك لنفسه مجالاً للسؤال عن السبب، إذ حث خطاه نحو الداخل. سمع أصوات نساء في الصالة فتيقن بأن أمراً قد حدث. استقبلته زهرة باكية فانقبض صدره، ودون أن يسألها عن سبب بكائها، دخل غرفة نومه فوجد بهيجة راقدةً ولا يتحرك من جسدها سوى عينيها. حاول أن يحصل منها كلمة أو إشارة فلم يفلح. خمّن حينها أنها قد أصيبت بالفالج. غادر

البيت مسرعاً وعاد مصطحباً معه الطبيب الذي أكد له تخمينه. حينما غادر الطبيب والنسوة، سأل لؤلؤة عمّا جرى فأخبرته بأنها استيقظتْ صباحاً فوجدت سيدتها ساقطة على الأرض عند الباب ولا تستطيع أن تتحرك أو تنطق، وحينما صرخت من خوفها هرعت إليها الجارات، ساعدنها في حملها إلى سريرها.

جلس محمد على طرف السرير ماسكاً بذراع بهيجة. كانت باردة وثقيلة. راح يمسدها من كتفها وحتى أطراف أصابعها وهو ينظر بانكسار إلى وجه بهيجة الذي تهدل جانبه بوضوح، خاصة عند عينها اليمنى وطرف شفتيها، محاولاً كتمان قلقه وارتباكه، مردداً أدعيةً وكلماتٍ متلعثمةً لتشجيع بهيجة على تحمل الحالة وتوكيل الأمر إلى الله الشافي. كانت بهيجة تحدق إلى محمد بنظرات لم يستطع معرفة مغزاها إنْ كانت تدل على غضب أو على انكسار.

دار في البيت متفقداً الخزانات والأشياء، وحينما تأكد بأن ما من يدٍ قد عبثت بها، عاد إلى حيث ترقد بهيجة بعد أن ضمّ زهرة إلى صدره مطمئناً إياها بأن أمها ستعود معافاةً قريباً وأوصى لؤلؤة بأن تولي زهرةَ اهتماماً كبيراً، ثم قال مخاطباً زهرة ولؤلؤة وهو يشير بسباته محذرا:

«لا أحد يدخل إلى غرفة السيدة مهما يكن إلا بعد أن أسمح أنا بذلك».

هزّت زهرة ولؤلؤة رأسيهما وهما تنظران إلى وجه محمد المحتقن دون أن تعرفا سبب هذا التحذير، ولكي يعيد الاطمئنان إليهما قال بنبرة هادئة:

«أنا وحدي أعرف كيف أعتني بها».

جلس محمد جنبَ بهيجة، مُسنداً كتفها الثقيل بصدره. أمال رأسها إلى جهة الشمال قليلاً بعد أن أسند ظهرها بوسادتين كما أوصاه الطبيب. وضع حبةَ الدواء في فمها ثم قرّب كأس الماء، فتساقط شيء منه على صدرها. مسح فمها وصدرها وهو يكابد في رسم ابتسامة على شفتيه.

لم يخبره الطبيب بمثل هذه الحالة. ارتدى ملابسه وقبل أن يخرج من الغرفة أشارت إليه بهيجة بيدها ألا يخرج، فظن أن الأمر طارئ وسيزول. استند على الوسادة خلفها وسحبها إلى صدره وهو يدلك كتفيها. كانت بهيجة تردد كلاماً غامضاً لم يستطع التقاط منه سوى كلمة واحدة راحت ترددها بشكل واضح:

«القربان... القربان..».

«أيّ قربان؟»

سألها، مقرباً أذنه من فمها كي يسمع إجابتها، كانت تردد بإلحاح من أدركه الوقت قبل إيصال رسالة مهمة:

«لابد من قربان... لابد من قربان».

حاول محمد أن يجد ما يقوله، فوجد نفسه يردد دون أن يعي كلمات تخرج دون إراداة منه، مطمئنا بهيجة كأنه يحقق لها آخر أمنية في حياتها، بأنه سيوفي بالنذر وسيقدم القربان، وهو لا يعلم عن أيّ نذر يتحدث وأي قربان سيقدمه، ولمن.

ألقت خديجة رأسها على صدر محمد بهدوء. سحبت الهواء من فمها بشهيق عميق، وصمتت. أمال رأسها قليلاً عن صدره فرأى عينيها مفتوحتين دون أن تتحرك أجفانهما، وفمها مفتوحاً بحجم كلمة سرّ لم يستطع سماعها بوضوح.

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بقليل. مدّ جسدها على السرير واضعاً ذراعيها مشتبكتين على صدرها. مرر كفّه على عينيها فأطبقهما. غطى جسد بهيجة بالشرشف، وغادر الغرفة بهدوء كيلا يوقظ النائمة من غفوتها الأخيرة. مر على غرفة زهرة. أعاد الغطاء الذي انزلق عن جسدها الصغير. طبع قبله على جبينها، وعاد إلى غرفة مكتبه. جلس واضعاً رأسه بين كفيه، معتصراً عينيه لعل دمعة تسقط فيشعر بشيء من الاسترخاء لروحه التي تخشبت كجسد مصعوق.

أطبق محمد القرآن ونهض. توجه إلى الغرفة حيث ترقد بهيجة، لكنه

تراجع قليلاً إذ رأى ضوءاً شحيحاً يتسرب من أسفل باب الغرفة، وكان متأكداً من أنه قد أطفأ ضوء الغرفة قبل أن يغادرها. لم يفاجأ، إذ كان يتوقع أن أمراً غريباً سيحدث، فهو يعرف أن ما حدث للشيخ نوفل سيحدث لبهيجة، حيث أن السر واحد، وعليه أن يحتفظ فيه وحده.

شعرَ بخوفٍ غامض يشلَ ساقيه. ردد المعوذتين بلسانٍ متلعثم. همّ بفتح بابَ الغرفةِ، إلا أنه تراجع إذ تذكر أمراً هاماً. عاد إلى غرفة المكتب. أخرج مسدسه وحشاه بمخزنٍ من الرصاص تحسباً لهجوم ذئب أو كائن خرافي هبط من كوكب بعيد. فتح باب الغرفة بحذرٍ ويده الأخرى على زناد المسدس. مدّ رأسه قليلاً، فرأى الضوء وقد انسحب من الغرفة بحركةٍ ملحوظة ليتمركز على جثة بهيجة فيرسم ظلالاً على السقف.

تسللَ إلى داخل الغرفة وأطبقَ الباب خلفه، تحاشياً من إطلاق صوت قد يوقظ لؤلؤة أو زهرة. اقترب من السرير بخطوات مرتبكة. فجأة انتبه إلى أن الشرشف الذي غطّى به جسد بهيجة قد سقط على الأرض، وانحسر ثوبها عن ساقين مضيئتين كأن سنى يخرج منهما. كانت ذراعاها مسبلتين إلى جانبي جسدها، وقد كان متأكداً بأنه قد وضعهما متشابكتين على صدرها. مسكَ أذيال ثوبها ليغطي ما انكشف من جسدها فلامست كفّه فخذ بهيجة. كانت ساخنةً. أدركَ أن بهيجة لاتزال حيّةً، وأنه قد تسرعَ في إقناع نفسه بموتها. مسك رسغها، فلم يشعر بضربات النبض، لكنه شعر بأن ذراعها هي الأخرى ساخنة. عرّى صدرها، ووضع رأسه عند جهة القلب لعله يسمع ضرباته. لم يسمع أية حركةٍ. أبقى جانب وجهه ملتصقاً بصدر بهيجة، متوقعاً أن تحدث معجزة وتنهض النائمة من موتها. لم يفق نبض في جسد الميتة، لكنّ شيئاً تحرك في جسد محمد، عندما لامس خده حلمة ثدي بهيجة، فشعرَ بدبيب يسري من رأسه بحركةٍ محسوسةٍ بوضوح، هابطاً إلى الأسفل ليستقرّ تحت سرّته. هبّ واقفاً، خائفاً من نفسه، وهمّ بالخروج من الغرفة. قبل أن يغادر، توقف. انتبه

كانت عينا بهيجة تفيضان بحنان وعرفان بما يفعله وبما سمعته من كلامه للؤلؤة وزهرة، لكنها كانت تدرك ما يدور في ذهن محمد وهو يراقب جسدها بنظرات غريبة، فحركت عينيها بحركة لم يدرك محمد مغزاها تماماً.

شعرَ محمد بأن عليه أن يلزم البيتَ ولا يترك بهيجة دقائق، قد يحدث خلالها ما لم يحسب له حساباً، حيث أنه لا يستطيع أن يوكل مسألة العناية ببهيجة لأحد غيره، فقد ينكشف سرَ غريب كسرّ الشيخ نوفل الذي لا يعرفه أحد سواه، لذا فقد قرر اتخاذ تدابير لتداركِ الأمر واخفائه لو حدث، وكان أكثر ما يخيفه أن ترى زهرة أي تحولٍ غريب قد يطرأ على جسد أمها في مرضها أو في حالة وفاتها.

نقلَ كل المخطوطات والكتب التي قد تثير الشبهة من غرفة المكتبة إلى السرداب، وأخفى اللوحات والشمعدانات التي نقشت عليها حروف وزخارف تثير فضول الزائر وتساؤلاته. حوّل المكتبة إلى مكتب للعمل، وكان قد أوكل علياً وسلمان العجمي لإدارة الأعمال في الخارج، بينما اكتفى هو بالإطلاع على الحسابات التي ينقلها إليه علي، ويستمع منه إلى كل صغيرة وكبيرة عن سير العمل، مصدراً أوامره إليه بتنفيذ ما يخطط له.

كان علي يزور عمه كل ليلة، وأحياناً كثيرة يبيت ليلته في بيت عمّه، يقضيان شطراً طويلاً من الليل وهما يتحدثان عن العمل، وعن الأمور العائلية، بل كان محمد لا يعترض على دخول علي إلى غرفة نومه ومساعدته في إطعام بهيجة، كأنه لا يخشى، أو أنه يرغب في أن يبوح لعلي بالسر. كذلك بهيجة كانت تنظر إلى علي كإبن لها فلا تخجل منه حتى حينما يقوم محمد أمامه بتغيير ملابسها وشراشف السرير أو حملها لقضاء حاجتها، وإذا اقتضى أمر خروج محمد لقضائه فقد كان يترك علياً في البيت لحين عودته.

كان مرض بهيجة فرصةً لاجتماع العائلة وتجميد خلافاتها أو تأجيل

الحديث عنها لحين شفاء بهيجة، فقد قام مناف وأخواته في زيارة محمد والسؤال عن صحة بهيجة، وتبرعت سمية أن تنتقل إلى بيت محمد للعناية بزوجته، بحجة أن هناك أموراً لا يستطيع الرجل القيام بها حتى لو كان زوجاً، إلاّ أن محمداً رفض ذلك بلباقةٍ دون أن يبرر رفضه، خاصة وأنه يدرك أن عرض أخته الكبرى لم يكن إلا لرفع العتب، غير أنه قابلَ زيارتهم بمودة عالية متحاشياً الحديث عن الأسباب التي أدت إلى القطيعة. واعترافاً منه بجميل عرض سمية، نكث بالعهد الذي قطعه بألا يعيد ابنها وزوجها إلى العمل ما لم يستعيدوا ما سلبه جبير ابن الغواص من محصول البستان أثناء سفره، فأعاد الغواص وابنه إلى العمل.

تحسنَ وضع بهيجة الصحي شيئاً فشيئاً. ابتدأ بتحريكها لأصابع يدها، وتطورَ حتى استطاعت النهوض والمشي بخطواتٍ مرتبكة، إلاّ أن الطبيب قد حذّر محمداً من أن السبب الذي أحدث الإصابة كامن في جسدها وقد يسبب في توقف قلبها بشكل مفاجئ، لذا فقد كان محمد يبدي أمام بهيجة فرحه بالتحسن الذي طرأ على صحتها، ويخفي خوفه مما سمعه من الطبيب.

بعد أن اطمأن محمد على زهرة، مرّ على غرفة بهيجة فرآها غارقةً في نومها، عاد إلى غرفة المكتب واستأنف مراجعته للحسابات. كان قد اعتاد على وضعه بعد ستة أشهر من مرض بهيجة والتحسن الذي طرأ عليها، خاصة وأن علياً قد أثبت جدارة كبيرة بإدارة العمل وحكمةً سبقت سنوات عمره بكثير في التعامل مع العمال والمزارعين، وإنْ عجزت الحكمة فله من العضلات ما يؤهله للي ذراع من يشذ أو يتمرد. فجأة سمع صرخةً فهبّ مسرعاً إلى غرفة نومه. وجد بهيجة تمسك عنقها بقبضةٍ متشنجة، وتطلق أصواتاً غريبة. جلس على السرير قربها وراح يدلك ظهرها، وموضع القلب. كان جسد بهيجة متشنجاً. حاول أن يستفسر منها عن موضع الألم فأشارت إلى أعلى عنقها. لم يعرف ماذا يفعل، حيث

إلى أنه رأى ما رآه دون أن يضيء المصباح أو يوقد شمعةً. أضاء المصباح وعاد إلى جسد بهيجة، يتفحصه بعينين شرهتين للتأكد من أن صَدَفاً وزعانفَ قد نبتت على الجسد أم ريشاً. عرّى جسدَ بهيجة تماماً وراح يتفحصه بدقّة. وقف مصعوقاً أمامَ هذا الجسد الرخامي، الممشوق كأنه نُحتَ بيدٍ ماهرة. نهدان مكتنزان بشموخ، تقف على قمتيهما حلمتان حمراوان كحبتي توت. خصر ضامرٌ تنتهي استدارتا جانبيه بعجيزة متكورة. تطلع محمد إلى ساقيْ بهيجة فرآهما كما رآهما أولَ مرةٍ، ملساوين تكاد تنزلق النظرةُ على ملمسهما، إذ لم يسهُ بارئهما عن أيّ نتوء أو نشاز.

أحسّ محمد برغبةٍ عارمةٍ في الاضطجاع إلى جنب جسد حبيبته، أن يضع رأسه على صدرها ويبكي، لكنه، ودونما وعيّ راحت أصابعه تحلّ أزرار قميصه حتى تعرّى تماماً. تمدد إلى جانب الجسد المتوهج بنار يكاد نور لظاها يطغى على ضوء المصباح. مدّ يده مداعباً نهدَ بهيجةٍ، مصغياً إلى تأوهاتٍ تصدر من أعماق الفراغ. قرّبَ شفتيه من حلمة النهد، وراح يمتصّ رحيقَ جمرها بنشوةٍ لم يعرفها من قبل. شعر بهياج شديد فهبّ واقفاً دون أي وازع أو شعور بخطيئةٍ ما ينوي فعله. وقف عند قدمي الجسد المسجى بسكينة وبراءة الأموات، وهو يتطلع بنهم إلى ما بين الفخذين محاولاً كتمان خوارهِ. رفع بكلتا يديه الساقين الثقيلتّين وهو يقف بينهما، ساحباً الجسد إليه حتى لامست عجيزة بهيجة حافة السرير. وضع ساقيها على كتفيه، وبيده راح يحرك رأس قضيبه المنتعظ بشدة على فرج بهيجة. كان فرجها ساخناً كفوهة تنور أضرمت نيرانه. أغمض محمد عينيه، وبقوة أولج قضيبه في فرجها. أحسَ بمتعةٍ كبيرة وهو يولج قضيبه ويخرجه، إذ كان مهبلها ساخناً وخشناً، كأن حبيباتٍ صغيرة انتشرت على جداره. عضَ ساعده بقوة كي يكتم صراخ نشوته وهو يفرغ ماءه في فرجِ بهيجة.

شعرَ بدوار كأن الغرفةَ تدور به، والدمع قد أطفأ عينيه وبلل لحيته.

أسند ظهره إلى الجدار، وببطء انهار على الأرض، جالساً على عجيزته التي لم يشعر بها لخدرها، واضعاً رأسه بين كفيه، عاضّاً راحة كفه بشدة ليكتم صوت بكائه، بينا كانت ساقا بهيجة متدليتين على الأرض من جانب السرير. لم يدرك كم من الوقت مرّ عليه، حينما انتبه إلى هول الحماقة التي ارتكبها، غير أن مرور الوقت شغله عن محاسبة نفسه، فنهض مسرعاً، ليخفي آثار جريمته. ارتدى ملابسه بعجلٍ. تحول إلى مقدمة السرير. وضع ذراعيه تحت إبطي بهيجة وسحبها إليه، معيداً الجسد إلى وضعه الأول. خرج من الغرفة وعاد سريعاً بطست مليء بالماء وبقطعة قماش، راح يبللها ويمسح بها فرجَ بهيجة وما بين فخذيها حتى انتهى من إزالة آثار ما تركه على الجسد الخامد. أعاد الذراعين إلى وضعهما السابق على الصدر، وغطّى الجثة كاملةً بالشرشف، وغادر الغرفة إلى الحمّام. تطلع إلى وجهه في المرآة، لكنه أشاح به جانباً، خوفاً من أن يرى ضبعاً أو مسخاً، أو يرى وجهه نفسه، فلم يعد هو أقل وحشية من الضواري، أو أقل تشوهاً من المسوخ. تلمسَ جسده كان بارداً كجثة. رائحة عفونة وزنخ كانت تنبعث من تحت إبطيه، لسانه يابس كخشبةٍ وأنفاسه حامضة. شعر بالغثيان. أدلى رأسه في فتحة المرحاض واستفرغ سائلاً أصفرَ. جلسَ على دكّة الحمام عارياً، ماسكاً بيده خرطوم الماء وقد فتحه على رأسه بأقصى تدفقه، مردداً تعاويذ وأدعية للغفران.

مكث طويلاً في الحمّام، ظنّاً منه بأنه يتطهر بالماء من ذنب ثقيل، دفعه الشيطان إلى ارتكابه. شعرَ بخدرٍ في رأسه من أثر سقوط الماء عليه، فتوقف. خرجَ من الحمّام مترنحاً كأنه قد عبّ قنينةً كاملة من نبيذ السريان. ألقى جسده على الكرسي بإنهاكٍ، وبمشاعر مضطربة، كأنه يسمع دويّ ارتطامها في رأسه.

انتبه إلى ساعة الجدار. كانت تشير إلى الرابعة والنصف، ولم يتبقَ لآذان الفجر سوى وقت قصير. نهضَ بهمّةٍ، محاولاً تأجيل معاقبة نفسه إلى ما بعد انتهاء مراسيم الدفن. ارتدى ملابسه وغادر البيت إلى المسجد.

بعد انتهاء صلاة الفجر، نوديَ من مئذنةِ المسجد بخبر نعيّ السيدة بهيجة، حرمَ السيد محمد بن ناصر الهاشمي.

حينما عاد محمد إلى بيته وجد بعض الرجال والنسوة قد اجتمعوا عند باب داره وأطلت رؤوس نسوة الجيران من النوافذ والشرفات. استقبله الرجال معانقين وهم ينطقون عبارات التعازي بتلعثم ورهبة، فكان محمد يرد عليهم برباطة جأش واحترام. دخل محمد داره، تاركاً الباب مفتوحاً إشارة للمتجمعين بأنه سيخرج إليهم ثانية. أيقظ لؤلؤة وأخبرها بوفاة سيدتها فأطلقت صرخات طويلة أيقظت من لم يتسنَ له سماع خبر النعي من صوت مؤذن المسجد. لم يعترض محمد على صراخ لؤلؤة، فشجعها عدم اعتراضه على الخروج إلى الشارع وإطلاق صراخٍ وجد استجابةً عند النسوة المجتمعات خارج دار محمد، فانطلقت موجات من العويل، كان الفضاء يردد صداها، بينا كانت الشمس تنشر أولى أشعتها على المدينة. بعد ساعة كان سكّان مدينة الهاشمية جلهم قد علموا بالخبر، فأسرعوا إلى دار محمد حتى أغلقوا منفذي الشارع. اجتمعت العائلة الهاشمية في الدار، دون أن يجرؤ أحد على الدخول إلى الغرفة حيث سُجّي الجثمان. أخذت سميةُ زهرةً في حضنها محاولةً تهدئتها، بينا كان مناف قد أسند رأسه على الجدار وهو ينتحب بصوت عال، والحاج رضا جالساً في الصالةِ يحرك مسبحته بانفعال واضح.

عند الضحى، انطلق موكب التشييع من بيت محمد نحو المسجد، يتقدمه محمد ومناف وعلي وسلمان العجمي والحاج رضا. تسارع الرجال إلى حمل التابوت فتشابكت أيدٍ عديدة. ارتفع صوت التكبير من الرجال مشتبكاً مع صراخ النسوة، وسار الموكبَ، مثيراً غباراً كثيفاً غطّى سماء المدينة حتى ظن البعض بأن الشمس قد كُسفت. عند باب المسجد كان الإمام واقفاً، متكئاً على عصاه بانتظار الموكب، وقد أرخى عمامته فتدلى أحد طرفيها على صدره.

امتلأ صحن المسجد بالمصلين على الجنازة بينا وقفت النسوة خارج

المسجد، وصراخهن يعلو على صوت الإمام. بعد أن انتهت صلاة الجنازة، حمل التابوت باتجاه المقبرة. اقترح مناف أن يحمل التابوت على عربة إلاّ أن أكثر من صوت اعترض على اقتراحه مصرّين على حمله على الأكف مشياً على الأقدام إكراماً للسيدة التي لم يعرف عنها غير الكرم والعفة، واحتراماً لمجد وتأريخ العائلة الهاشمية، فكان لهم ذلك.

انطلق موكب التشييع من المسجد إلى المقبرة، بعد أن انضم إليه رئيس المخفر ورجاله، وبعض التجار والشيوخ، حتى توقف عند باب المغسل الذي يقع عند البوابة الكبيرة للمقبرة. أنزلت الجنازة على الأرض، وتراجع المشيعون بضع خطوات إلى الوراء. تقدمت سميّة، متطوعةً لمساعدة المرأة التي تقوم بغسل جثث النساء، بينا وقف بعض الرجال وقد شكّلوا دائرة مركزها محمد، وهم يقدمون التعازي ويتهامسون بكلمات عن جلال الموت وأدعية بالرحمة على روح الميتة ذاكرين مناقبها ومادحين ما عرف عنها من عفّة وشرف وكرم بمساعدة الفقراء والمساكين.

لم تمض سوى بضع دقائق حتى خرجت سميةً صارخة تتبعها المُغسّلة. هرع محمد ومناف إليها للاستفسار عن سبب صراخها. كانت سميّة مصفرّة الوجه وهي ترتعش، وقبل أن تنطق بكلمةٍ، سقطت على الأرض وقد أغمي عليها. تجمع البعض حول المرأة الأخرى مستفسرين عن الأمر فردت المرأة بارتباك وتلعثم:

«إنها تعتقد بأن السيدة لا تزال حيّة».

انتشر الخبر بين المشيعين فأثار الفزع في نفوسهم، حتى أن البعض منهم تسلل من الجمع مغادراً المكان بهدوء، وآخرين أطلقوا سيقانهم هرباً من جثة ستنهض من موتها وتهجم عليهم. صرخ الإمام على الرجال بأن يصمتوا حتى يظهر الحق. رُش وجه سمية بالماء فأفاقت. حاول مناف أن يستفسر منها بصوت يسمعه الآخرون، فقالت وشفتاها ترتعشان:

«السيدة بهيجة لم تمت بعد».

ثم راحت تقسم بأغلظ الأيمان على ما تقوله. اقترب إمام المسجد من سمية بعد أن أزاح بعصاه دائرة المتجمعين حولها. جلس قبالتها، وسألها عمّا جرى فردّت سميّة:

«أقسم بالله العظيم أني رأيت السيدة بهيجة بعينيّ اللتين سيأكلهما الدود.. وهي تفتح عينيها وتبتسم لي».

صمتَ الرجال وهم يتطلعون في وجوه بعضهم تارةً، وفي وجه محمد تارةً أخرى. أعاد الإمام السؤال على سمية:

«وماذا رأيتِ بعد؟»

نكست سمية رأسها إلى الأرض، ثم رفعته وقالت بصوت واضح، وبطريقة تدل على أنها واثقة مما تقول:

«ورأيت كيف أنها تغلق ساقيها كلما حاولت فتحمها لغسل ما بينهما... وتضع يدها على...»

هزّ الأمام رأسه، ونهض متوجهاً إلى المرأة الأخرى لسماع شهادتها عن الأمر، فقالت:

«لم أرَ أنها فتحت عينيها.. ولا أنها أغلقت ساقيها... لكن..»

صمتت، فراح الإمام يستحدثها على مواصلة كلامها. قالت:

«لم أرَ شيئاً غريبا... سوى أني لم أشهد من قبل جثة لا تزال تحتفظ بحرارتها».

أشار إمام الجامع إلى المرأة بأن تذهب لإكمال مهمتها في الغسل، ومواصلة مراسيم الدفن، وحينما سأله البعض عن تفسيره للأمر، قال بيقين:

«شهادة امرأة واحدة لا تقبل شرعاً».

احتج رئيس المخفر على ما قاله الإمام، مصرّاً على استدعاء طبيب لفحصها والتأكد من حدوث الوفاة. حاول مناف والحاج رضا أن يقنعا رئيس المخفر بأن التقاليد لا تسمح بأن يكشف رجل على جسد حرمةٍ عارية، حتى لو كانت ميتة. لم يقتنع رئيس المخفر بهذه الحجة مهدداً

بإحالة الأمر إلى القانون إنْ لم يتأكد من حدوث الوفاة مع إمضاء طبيب على شهادة الوفاة. ولكي ينهي الجدل، نادى على أحد رجاله وأمره بأن يذهب لاستدعاء الطبيب حزقيل لإجراء الفحص.

بعد ما يقارب الساعة قضاها المشيعون واقفين عند باب المغسل وقد شكّلوا دوائر صغيرة وعيونهم تراقب الطريق، وصلت عربة يجرها حصانان. ترجل منها رجل هرم أبيض الشعر، يرتدي معطفاً أسود تخط أذياله على الأرض. نادى باللغة العبرية فجاء صبي راكضاً، يحمل حقيقية جلدية قديمة. استقبله رئيس المخفر بحفاوة. تهامسا بكلماتٍ لم يسمعها أحد. حاول محمد أن يدخل معه إلى المغسل إلا أنه رفض دخول أحد، حتى الصبي الذي يساعده. تناول الحقيبة من يدِ الصبي وغاب داخل المغسل دون أن ينطق كلمة. بعد بضع دقائق خرج وهو يمسح جبهته بمنديل من القماش. هرع الرجال إليه مستفسرين. تطلع إليهم بوجه عابس، مؤكداً حدوث الوفاة. صعد إلى العربة دون أن يضيف شيئاً إلى ما قاله. انطلقت العربة سريعاً.

* * *

(١٤)

انتهت أيام العزاء السبعة. كانت أياماً استعراضية، نُسيِ فيها الموت الذي اجتمعوا بسببه، فتحتَ سرادق العزاء كان المعزون يعقدون الصفقات بينهم أو يعرضون بضاعة مشاعرهم المتملقة، حتى محمد ما كان يحزنه فراق حبيبةٍ لم يخلق مثلها على الأرض، بل كان يفكر بأبعد من هذا الفراق. كان يشغله السرَ الذي لفّ حياة بهيجة، منذ أول لقاءٍ بينهما حتى العبارة الأخيرة التي كانت ترددها، وكأنها تبغي إيصالَ آخر رسالة كُلفت بإرسالها:

«لابد من قربان».

.. وعلى الرغم من أن محمداً قدّم خلال أيام العزاء السبعة عشرات الأكباش قرابينَ، وُزعت لحومها على كل فقراء المدينة، إلا أنه كان يدرك أنها ليست القربان المرتجى، وليس هذا ما كانت بهيجة توصي به. ماذا إذن؟ هل لابد من إسماعيل لكي تتم الصفقة بينه وبين الله؟ ومن سيكون؟ وهل باستطاعته أن يفي بالعهد لو عرف أيّ قربانٍ عليه تقديمه؟. شعرَ بأنه إنْ استطاع أن يتجاوز يتمه الأول، فها هو بفقدان بهيجة يشعر بيتم أمضّ وأوجع، فبعد أن انقشع غيم حياته في صباه، ها هي سماؤه تتلبد ثانيةً بضباب الغموض، كأن قدره أن يبحثَ عن خاتم الحقيقة الضائع في صحراء.

تذكر الحوار الذي جرى بينه وبين بهيجة في الأيام الأولى لولادة زهرة، وشعر بالندم أنه لم يستفسر منها عمّا كانت تقصده، حتى فات الأوان:

«اسمعْ يا محمد.. إن زهرة ليست كبقية إناث الولاية».
«سيكثر الصبيان من نسل هاشم.. ولكن...»
«لن يحمل السرّ إلا أحفادكَ...»
«لابد من قربان.. لابد من قربان.. لابد من قربان».
كان محمد جالساً في غرفة المكتب، حينما دخلت لؤلؤة. لم يشعر بدخولها، على الرغم من أنها افتعلت حركات مسموعة. جلست أمامه دون أن ترفع رأسها. فجأة انتبه إليها فسألها عمّا تطلبه. كانت مرتبكة وخائفة، فأعاد محمد سؤاله بتودد واضح، فردّت:
«ماذا سأفعل هنا بعد موت السيدة؟»
قالت وانفجرت بالبكاء، فقد كانت لؤلؤة أكثر أهل البيت حزناً على موت بهيجة. نهض محمد من خلف مكتبه. جلس جنب لؤلؤة. وضع يده على رأسها. حاولت أن تقبّل يده، فسحبها مستغفراً. وضعَ يده على رأسها ثانيةً، وسألها بلهجة لا تخلو من اللوم على سؤالها:
«كيف تقولين ذلك؟.. وهل عندك مكان تذهبين إليه؟»
«لا.. عمّي».
أجابت لؤلؤة بانكسار، وقد كانت تناديه بـ (عمّي) على الرغم من أنها أكبر منه بأكثر من عشر سنوات. وضع محمد يده تحت وجهها ورفعه. تطلع في وجهها وهو يرسم ابتسامةً حزينة على وجهه:
«اسمعي يا لؤلؤة.. أنت واحدة منّا».
باغتته بأخذ يده وقبّلتها. سحب محمد يده بشيء من الغضب وقال:
«اسمعي يا لؤلؤة.. أنت من الآن ستكونين أختاً لي.. وأنا مسؤول عنك».
ارتسمت على شفتي لؤلؤة ابتسامةٌ يختلط فيها الأسى بالخجل. نهض محمد وعاد جالساً خلف مكتبه. تطلع إليها بمحبةٍ وقال:
«أعملي لي شاياً..»
هبت مسرعةً وقد ومضَ فرح طفيف في عينيها. بعد دقائق جاءت

تحمل صينية وعليها كأسا ماء وشاي. وضعتها على المنضدة وانسحبت. أوقفها محمد بيده ثم قال:

«هاتِ كأسا لك أيضاً وتعالي للصالة».

طلب منها أن تجلس جنبه، فاقتربت بخجل. وضع يده على كتفها، وسألها محاولاً ألا يظهر فضوله في معرفة الجواب:

«منذ متى تعرفين السيدة بهيجة؟»

«منذ أن فتحتُ عيني على الحياة».

«متى؟»

هزت لؤلؤة رأسها ولاحت على وجهها علامات حزن عميق. أشفق محمد عليها، لكن فضوله كان أكبر من شفقته، فلم يتطلع على وجهها. قالت:

«لا أدري».

ثم استدركت:

«منذ كنتُ طفلةً في بيت الشيخ شامخ».

أراد أن يسألها عن تفاصيل علاقتها بالشيخ شامخ، إلا أنه تذكر بأن بهيجة قد أخبرته يوماً بأن لؤلؤة يتيمة أبوين كانا يعملان في بيت الشيخ شامخ، وحينما ماتا بحريق شبّ في البيت، تركاها وحيدة فتبناها الشيخ، لذا فقد امتنع محمد عن الإلحاح عليها في معرفة هذه التفاصيل شفقةً عليها، وحينما سألها عن صلة القربى بين المرحومة بهيجة وبين الشيخ شامخ، نفت أن يكون لها الكثير من العلم بذلك، مستغربة السؤال، فسألته ببراءة:

«ألم تخبرك الراحلة بذلك؟»

شعر بإحراجٍ وبأنه تورط من حيث أراد أن يتذاكى، فردّ بكلامٍ حاول تمويهه:

«بلى.. بلى.. ولكن نسيت.. لم يكن هذا الأمر يشغلني آنذاك».

قالت لؤلؤة كأنها تقص حكاية لطفل كي ينام:

«السيدة بهيجة كانت أميرة.. قتل أهلها أو رحلوا.. وتركوها.. فجاء بها الشيخ شامخ».

«من أين جاء بها؟»

سأل محمد وهو يتقمص وجه طفل يصغي إلى حكاية غريبة، فردّت لؤلؤة:

«من هناااااااااااااااك».

وبإلحاح الطفل لمعرفة تفاصيل الحكاية، سأل محمد:

«وأين الهناااااااااااااااااااك».

«لا أدري».

أجابت لؤلؤة ببراءة.

أدرك محمد بأن لؤلؤة لا تعرف شيئاً عن تأريخ بهيجة والسر الذي جمع بينها وبين الشيخ شامخ، ولماذا أودعها عند أخيه الشيخ نوفل حينما شعر بقرب موته، وكل ما تعرفه هو أشبه بحكايا الجدات عن أميرة ضائعة في غابة، يعثر عليها أمير مرّ مصادفةً فيتخذها زوجةً له أو رجلٌ من أهل الله دلّه صوتٌ من الغيب فيلتقطها من الطريق، ولأن الله لم يرزقه بطفلٍ فيتبناها، غير أن محمداً وعلى الرغم من تخمينه، إلا أنه وضع في حسبانه أن لؤلؤة قد تحاول إخفاء ما تعرفه، تنفيذاً لوصية أو أنها تخاف من البوح بالسرّ، لذلك قرر أن يبقيها عنده وتحت رقابته حتى تُطمر مع السرّ.

لكي يغيّر الموضوع ولا يعطي للؤلؤة إنطباعاً عن أهمية ما يريد معرفته، سألها عن زهرة وكيف كان تأثير موت أمها عليها، فرفعت رأسها فجأة وتغيرت ملامح وجهها كأنها تذكرت أمراً. تطلع إليها، فأغضت بصرها خجلاً. سألها:

«ما بكِ؟»

لاحت ابتسامة على وجهها، وحينما راح يتطلع إليها بتمعنٍ، غطّت وجهها بفوطتها، وضحكت بصوت واطئ. أعاد محمد سؤاله بإلحاح، فأجابت:

«نسيتُ أن أخبركَ».

«بماذا؟»

سأل بفضول، فقالت وهي تحاول إخفاء ابتسامتها:

«المحروسة.. جاءها الدم».

ارتفعت قهقهة محمد، قطعها حينما تذكر الموقف، غير أن علامات الابتهاج أبت الاختفاء عن وجهه، فسألها وهو يحاول أن يكتم فرحه:

«متى حدث هذا؟»

ردت لؤلؤة:

«قبل أن تعودوا من الدفن بساعة أو أكثر بقليل».

«هل أنت متأكدة من أنه دم الحيض؟»

سأل محمد، فردتْ لؤلؤة بيقين:

«نعم يا..... أخي».

أمتدت يد محمد إلى كتف لؤلؤة دونما وعي منه. ضمها إليه بقوة، وقبّل رأسها.

اجتمعت العائلة الهاشمية في بيت محمد. جاءوا فرادى أو أزواجاً بدافع الوقوف مع أخيهم الصغير في محنته، وكل شخص منهم يدّعي المفاجأة بوجود الآخر الذي سبقه في الوصول، حتى فضحت سميّة إدعاءهم، حينما قالت بأنها هي التي دعتهم لأمر مهم، حينها أخفى كل منهم رأسه خجلاً.

بعد أن اكتمل الحضور، نهضت سمية من مقعدها بصمت. أخرجت من تحت مئزرها صرة من القماش كبيرة، وتقدمت نحو محمد. ألقت الصرّة أمامه وعادت إلى مكانها جالسةً وسط نظرات الجميع المتسائلة. عرف محمد ما تحتويه الصرّة إلا أنه سألها مفتعلاً الغفلة:

«ما هذا؟»

نهضت سميّة من مقعدها ثانيةً. وقفت في منتصف الصالة، تلتفّ حول نفسها وتتطلع في وجوه الجالسين. قالت بصوت تقطعه الرهبة والخوف:

«قولوا عني ما تشاؤون.. قولوا مجنونة.. قولوا خرفة.. قولوا ما تشاؤون».

ساد صمت، والنظرات تتقاطع في مساراتها، قطعه مناف موجهاً سؤاله إلى سميّة:

«ما الأمر؟»

حاولت سمية أن تتحدث غير أنها اختنقت. توقفت قليلاً ثم جاء صوتها مرتعشاً:

«أقسم بروح جدي.. أني رأيت بهيجة تفتح عينيها وهي على دكة الغسل».

نكس الجميع رؤوسهم، وهم يحاولون إخفاء ملامح وجوههم. أراد محمد أن يقول شيئاً لكنه امتنع لسبب لا يعرفه أحد سواه، وحينما رأى العيون تنظر إليه والآذان متهيئة لسماع ما يريد قوله، أشار بيده إلى لؤلؤة بأن تأخذ زهرة وتذهبا إلى غرفتها، فهزّ الجميع رؤوسهم متنبهين إلى غفلتهم، فليس من الصحيح أن تسمع طفلة مثل هذا الحديث عن أمها.

شعرت سميّة بلذة الاستحواذ على الحديث والسيطرة على مشاعر المصغين إليها، فتحدثت وهي تقسم بأغلظ الإيمان، عن جسد بهيجة الذي لا يمكن أن يكون إلا لصبية في بدء استفاقة أنوثتها، وعن الوهَج المضيء المنبعث من مسامات الجسد.

«كان جسدها عابقاً برائحة أذكى من السُعد أو المسك.. طرياً وساخناً كأن الموت لم يمسسه.. لا أقول إني رأيت ناراً أو جمراً متقداً.. ولكني رأيت كيف يتبخر الماء حينما كان يلامس جسد المرحومة».

صمتت قليلاً وهي تغمض عينيها كأنها تحاول إظهار الصورة من خفايا ذاكرتها لترسمها أمام النظّارة الذين يتابعون الحكاية باستنفار، وأياديهم تقبض على الفراغ وتشده بقوة. فتحت سميّة عينيها، لكنها لم تتطلع إلى أحد، بل كانت نظراتها تتجه نحو زاوية الصالة وتخترق الجدار. قالت بصوت هامسٍ كأنها تحدث نفسها:

«وهل يُنسى ذلك المشهد؟..»

توقفت قليلاً، ثم ببطء جثت على ركبتيها، وراحت تصف المشهد بحركات إيمائية، وتتحدث بصوتٍ غاضَ في أعماقها شيئاً فشيئاً. كانت ترسم بيديها محاولاتها لتنظيف ما بين ساقي الجثة، وإصرار الجثة على إطباقهما كلما حاولت هي أن تفرجهما، وقد أجادت سميّة تمثيل الدور بشكلٍ جعل محمداً يجهش بالبكاء.

توقفت سمية عن حركاتها. رفعت رأسها. كانت عيناها غارقتين بالدموع والعرق قد غطى جبهتها وعنقها. لم تعد إلى مكانها بل ظلت واقفةً في منتصف الصالة وهي تنظر إلى أخيها منتظرةً أن يقطع بكاءه. أشار إليها مناف بيده أن تكفّ عن الحديث، إلا أنها لم تعر إشارته اهتماماً، حتى توقف محمد عن البكاء، وراح يمسح عينيه بكمّه، عندها قالت سميّة:

«والآن اسمعوني جيداً...»

أصغى الجميع إليها باهتمام فواصلت:

«أشهد الله وأشهدكم.. بأني لن أمسك بيدي ديناراً واحداً من مالٍ يعود إلى المرحومة.. ولهذا جئتُ لأعيد إلى محمد ما سلبه ابني جبير من محصول البستان.. ولن أطمع بأية حصة».

صمتت قليلاً ثم أضافت:

«وليغفر لي الله وروح المرحومة ما تم صرفه من المال.. لكني سأعوض ذلك بالدعاء لروحها بالرحمة والسلام».

عادتْ إلى مكانها وهي تتطلع بنظرات غامضة إلى زوجها الذي راح يبحث عن زاوية لكي يرمي إليها اتجاه نظره.

حاولت زوجة مناف أن تقول شيئاً إلا أنها صمتت بعد أن امتدت قدم مناف لتسحق قدمها بحركة لم يلحظها أحد سوى سكينة التي قالت وكأنها توجه كلامها إلى مناف:

«ولكن البستان ليست من أملاك بهيجة وإنما هي ملك جدنا».

التفتت إلى الحاج رضا الذي لم ينطق بأي بحرف خلال الجلسة، وقالت:

«أليس كذلك يا أبا بندر؟»

هزّ الحاج رضا رأسه، وظهرت على وجهه علامات إحراج. حاول أن يقول شيئاً فتلعثم، عندها بادرت زينب بالحديث بصوت مستفّز، مدافعة عن زوجها بكلام انطلق كانفجارٍ:

«ولكنّ أبا بندر قد أعاد إليكم ثمنه.. ماذا تريدون أكثر؟»

«كفى».

صرخَ مناف بصوت عالٍ لينهي الموضوع الذي فتح في غير وقته، ولكي يوقف مشادة قد تحدث بين أختيه، وتفتح جراحاً أوشكت تندمل. تطلع الحاج رضا إلى زوجته بنظرات تأنيب، فقالت بصوت حاولت أن تجعله واطئاً لكنه لا يخلو من إفصاحٍ عن ضغينة كامنة:

«ولكي أخرج أنا وأبو بندر من المشكلة نهائياً أقول أمامكم.. إني أتنازل لكم عن حصتي في إرث جدكم».

صمتت قليلاً ثم قالت بصوت واطئ لكنه مسموع:

«لست بحاجة إلى أموالكم.. فخير أبي بندر يغطي الأرض».

أشارت إلى زوجها فنهضا مغادرين.

لم يغفُ محمد لثلاث ليالٍ. كان يشعر بأن دبابيس نارٍ تخز جنبيه. كلّ شيء يذكّره ببهيجة، وبهيجة تذكّره بكل شيء. يشعر بعجزه عن مواصلة حياته كما كانت قبل وفاة بهيجة، والندم ينخره على فرصٍ، أضاعها بسبب هوسه في التملك، لاكتشاف سرّ هذا الغموض الذي يلف حياته. لمعت في ذهنه فكرة. حاول أن يطردها، إلا أنها استبدت به. غطّى رأسه باللحاف، متكوراً على نفسه كجنين في رحم أمه، وراح يضغط على صدغيه كأنه يحاول خنق الفكرة قبل أن تتمرد عليه وتنطلق خارجَ رأسه متجسدةً عصا تسوقه إلى حيث تشاء، وهذا ما حدث فعلاً على الرغم من مكابدته وتحديه، حتى استسلم لمشيئتها.

نهض من فراشه. كانت الساعة تشير إلى ما قبل منتصف الليل بقليل. في البدء تردد إلا أنه أقنع نفسه بضرورة إنهاء حالة القلق التي لم يستطع الإفلات من شراكها، وأنه ربما سيندم ذات يوم على عدم وضع حدٍ لما يساوره من شكوك، وربما سيكتشف سرّاً جديداً. ارتدى ملابسه على عجلٍ، وهو يردد مع نفسه باحثاً عن تبرير لهزيمة إرادته:

«لأذهب كي أرى بنفسي».

لم يكن الأمر صعباً مثل ما كان في المرة الأولى، حينما تسلل إلى المقبرة ليلاً ليفتح قبر الشيخ نوفل ويرى ما كان تحت التراب. الآن الأمر يختلف كثيراً، فله حجة مقنعة لو سئل عن أسباب دخوله إلى المقبرة، خاصة وأن بهيجة قد دفنت في مقبرة العائلة الهاشمية الخاصة، والتي تقع كبناء معزول في ركن المقبرة العامة، وأن مفتاحها في حوزته، حتى أنه لم يكن بحاجة إلى حمل أداةً للحفر وإخفائها تحت معطفه كما فعل في المرة الأولى، فهو يتذكر جيداً بأنه رأى رفشاً داخل المقبرة الخاصة أو في محيطها.

كان الطقس بارداً والرياح شمالية قوية، تهب بعكس اتجاه سيره فتعيق خطواته. الظلام كثيف، فقد كانت ليلة من أواخر شهر جمادى الثانية والقمر في المحاق. سار بمحاذاة الجدران متحاشياً المواقع المضاءة كيلا يراه أحد فيثير فضوله ويتساءل عن الجهة التي يقصدها. حينما وصل إلى المفازة التي تفصل بين المدينة والمقبرة، رفع ياقة معطفه الوبري الطويل حتى غطت رقبته. تلثّم بكوفيته فلم يظهر من وجهه سوى عينيه. حث خطاه، ويده على مسدسه متحفزاً لمواجهة أي هجوم من قطّاع طرق أو ذئب أو كلب مسعور. رأى من بعيد حارسَ المقبرة يجلس عند البوابة الكبيرة، وقد أضرم ناراً في علبة معدنية وجلس قربها متكوراً يتدفأ. لم ينتبه الحارس إلى محمد حتى وقف قريباً منه وأطلق تحيته، عندها نهض الحارس مرعوباً وهو يمسك عصاه. أزاح محمد اللثام عن وجهه، فعرفه الحارس. تقدم من محمد مرحباً بكلام مرتبك بسبب المفاجأة. مدّ محمد

إليه يده مصافحاً، فأحس الحارس ببرودتها، فدعاه إلى الجلوس جنب الموقد كي يدفئ يديه. هزّ محمد رأسه موافقاً شاكراً للحارس اهتمامه. جلس محمد مقرفصاً قرب النار فطلب منه الحارس بتوسل أن يجلس على الحصيرة الصغيرة مردداً كلمات الترحيب بإطلالة قمر بني هاشم عليه في هذا الليل الموحش. قدّم الحارس إلى محمد كأساً من الشاي، تناولها منه شاكراً، وقبل أن يسأله الحارس عن سبب الزيارة، قال محمد بشكوى متواضع:

«منذ ثلاث ليال وأنا لم أنم.. لذلك فكرت أن أزور قبور الأحباب.. علّ زيارتهم تزيل عني الغم الذي أنا فيه».

صمتَ قليلاً، والحارس يتطلع بذهولٍ إلى هذا الرجل الذي ذاع صيته في تمريغ أنوف التجار ورجال المخفر وإجبارهم على الرضوخ إليه، وأصبح ذكر اسمه مجرداً يثير الهيبة في النفوس، الرجل الذي اجتمع على طاعته الأغنياء والفقراء، الشرفاء وقطّاع الطرق. كان الحارس يتحرك بحركات تدل على الارتباك باحثاً عن شيء يقدمه لهذا الزائر الكبير، وكان محمد يرتشف كأسه بتمهلٍ، متحاشياً النظر إلى الحارس، وبهدوء فرضه جلال المكان قال:

«وكما يقال إنْ ضاقت الصدورْ.. اذكروا مَن في القبور».

وضع الحارس يده على رأسه، أحنى قامته بوضع أقرب إلى الركوع، وهو يردد:

«صدّق الله العلي العظيم».

تطلع محمد إليه وعلى وجهه ابتسامة إشفاق على جهله، لكنه لم يشعره بذلك. قدّم الكأس إلى الحارس فارغة، وهو يشكره على ضيافته. نهض فوقف الحارس متسمراً في مكانه. مدّ محمد يده في جيبه وأخرج ورقة نقدية. دسّها في يد الحارس، فتلقفها بشوق وهو يردد كلمات الشكر بارتباك. حاول تقبيل يد محمد فرفض، ساحباً يده مستغفراً الله. قال:

«سأذهب لقضاء بعض الوقت لمناجاة أرواح الأحباب».

عرض الحارس بأن يصحبه كي يدله على المكان إلاّ أن محمداً رفض شاكراً. رفع محمد يده مودعاً، فوضع الحارس يده على رأسه وأحنى قامته إجلالاً. خطا محمد إلى داخل المقبرة، بينا وقف الحارس في مكانه متسمراً وهو يدعو بالرحمة على روح الشيخ هاشم وولديه وعلى السيدة التي لم يكن يتذكر اسمها.

شعر محمد بخوف وهو يفتح باب المقبرة الخاصة بالعائلة الهاشمية، إذ ارتسمت أمامه صورة بهيجة وهي تخرج من عمق العتمة، تستقبله عند الباب كما كانت تفعل في حياتها. ارتدّ خطوتين. توقف. خطرت في ذهنه فكرة العودة عن قراره، إلاّ أن صوتاً في داخله استفزّه، ساخراً من تردده وخوفه من كائنات ميتة ترقد تحت الأرض وتغطيها كتل هائلة من التراب. أخرجَ من جيب معطفه شمعةً، أضاءها، فتراءت له أشباح مثل هياكل عظمية، تنسحب سريعاً وتختفي في ظلام الزوايا. سارَ بحذرٍ شديد لئلا يصطدم بلاشيء تجسّد في الظلام. استدل على الكوة، نصبَ الشمعة فيها. أغلق الباب من الداخل بصخرة كبيرة تحسباً لمجيء الحارس بشكل مفاجئ. أخرج شمعتين، أضاءهما من نار الشمعة الأولى، وغرزهما على جانبي قبر بهيجة. حمل شمعةً رابعة بيده وراح يدور على القبور، متوقفاً عند كل قبرٍ، قارئاً سورة الفاتحة، وفكّاه تصطكان من رهبة وبرد. أطال وقوفه عند قبر أمه. كان بودّه لو يوقظها لحظة واحدة ليرى الوجه الذي كم رسمَ ملامحه في مخيلته، وكم تراءى له في ليالي وحدته وحزنه، يظهر مضبباً خلل الدمعِ، خارجاً من سحابةٍ أو حفرة عميقةٍ. هدأت أنفاسه قليلاً، بعد أن تراجع خوفه واطمأن إلى أن الظلام لا يخفي سوى أرواحٍ طيبةٍ، لم يعلق فيها من درن الحياةِ شيئاً، حتى عفونة الرطوبة اختفت، وعبقت في أنفه رائحة المسك والكافور. شعرَ بسكينةٍ تغمر روحه، جعلته ينسى سبب مجيئه إلى هنا في هذا الوقت المتأخر من الليل. خلعَ معطفه، وفرشه على الفسحة بين

قبري فاطمة وبهيجة. اضطجع بعينين مفتوحتين، تحدقان إلى عتمة الصمت، مصغياً إلى أصواتٍ بعيدة، تنبعثُ من جهات خارج المكان، وتختلط بصوت عاصفة قادمة لكنها لم تصل.

يحفرُ قبر بهيجة بأصابعه. أكثر من يدٍ تساعده في الحفر. أكف غير مرئية تزيح التراب، من بينها كفّان تدفعان التراب من تحت. أنفاس تصدر من العمق. صوت بهيجة يدعوه أن يسرع بإزالة التراب قبل أن يفوت الأوان. حفرة القبر تتسع بمساحة سرير. ينزل إلى داخل الحفرة حتى خصره. يتحرك بحذر متحاشياً سقوط حجر أو انهيال التراب على وجه النائمة. يجثو على الجثة مستنداً على ركبتيه المنفرجتين باتساع الحفرة. يمرر يده على الجثة. يتلمس وجهها وتضاريس جسدها. يغرز سبابتيه في الكفن، عند جهة الرأس. يُحدث خرقاً في الكفن. يتسع الخرق. يدخل كفيه. يمزق الكفن عند الرأس. يرى وجه بهيجة وهي نائمة بوداعة المطمئن إلى سكون عالمه كأنها أسبلت جفنيها على حلمٍ، وابتسامة متجمدة على شفتيها. ينحني على الجسد. يمسك طرفي الكفنَ، وبكلتا يديه يقدّه، حتى يظهر الجسد كاملاً. جسد يضيء عتمة الحفرة. تلامس كفّه الجسد. يشعر بحرارته. يضطجع عليه. يحشر كفيه بين الجسد والتراب. يرتفع صدر بهيجة بنهديه المتحررين. حلمتان مضيئتان كحجري عقيق. يدفن رأسه بين النهدين. يتذكر أن مرور الوقت ليس في صالحه، عليه أن ينهي المهمة قبل شروق الشمس. يجلس على ركبتيه وجسد بهيجة بين ساقيه. يرفع ساقيها. يفرجهما. بهيجة لا تمانع. سميّة تكذب أو أنها تتخيل أموراً غير حقيقية. يرفع ذيل دشداشته. يمسكه بأسنانه. ينزل لباسه الداخلي قليلاً. يخرج قضيبه المنتصب بشدة. يولجه في فرج بهيجة...

استيقظ محمد مرعوباً. المكان معتم تماماً. لحظات مرت حتى أدرك بأنه نائم بين قبر زوجة أخيه وقبر زوجته. أخرج شمعة من جيب معطفه، وأضاءها. لا يدري كيف استطاع أن ينام بعمق في هذا المكان، ولا

يدري كم مر من الوقت على نومه، لكن ذوبان الشموع على آخرها يدل على أن وقتاً ليس بالقصير قد مر عليه. نهض مسرعاً. هجمت عليه مخالب التأنيب، لكنه توسل بها أن تتركه حتى يخفي آثار جريمته. تطلع إلى قبر بهيجة فرآه كما هو ولم تمسس ترابه يد، فأيقن بأن ما رآه لم يكن سوى كابوس. لم يشغله من الكابوس سوى عبارة وردت فيه «مرور الوقت ليس من صالحه، عليه أن ينهي المهمة قبل شروق الشمس».

«لمَ أتيتَ إلى هنا؟»

سمع محمد صوتاً يأتيه من جهة مجهولة، فردّ:

«لا أدري».

«ماذا كنت تنوي أن تفعل؟»

«لا أدري».

«من يدري إذن؟»

قال الصوت ساخراً، فردّ محمد بخوف:

«لا أدري».

ارتفعتْ ضحكة عالية، تردد صداها بين جدران المقبرة. صرخ صوتٌ غاضبٌ:

«من أنت؟»

«أنا.. أنا.. لستُ أنا».

أجاب محمد دونما وعي. حمل معطفه عن الأرض. وانطلق نحو الباب. ارتطمت قدمه بالصخرة، وسقطت الشمعةُ. شعر بأن النار تلتهم جسده. جلس منهاراً على عجيزته. راحت يداه تطّوحان في الفراغ كأنهما تدفعان أشباحاً أو تطفئان النار الذي اشتعلت في ملابسه. تلمس الأرض فعثرت يده على الشمعة. كانت مطفأةً. نهض ثانيةً. أزاح الصخرة. فتح الباب واندفع بقوة إلى خارج المقبرة، كأن قدماً قد ركلته. كان الظلام قد انقشع ولاحت حمرة على الأفق، إذ أوشكت الشمس تشرق. عدّل ملابسه. تأكد من أن النار لم تمسسها، ربما كان يتوهم ذلك. تذكّر أن

القفل الحديدي وفي داخله المفتاح قد وضعهما في الكوة. شعر بخوف شديد من أن يعود إلى بيت العائلة، فربما سينهض الجميع للإنقضاض على هذا الولد العاق الذي جلب العار لهم، لكن لابد أن يدخل. أغمض عينيه وركض نحو الداخل.

غادر المكان، بعد أن تأكد من إحكام قفل الباب. عند بوابة المقبرة الكبيرة رأى الحارس يقف وهو يفرك عينيه. حث خطاه واجتازه دون أن يلتفت إليه أو يرد على تحيته.

وصل البيت منهكاً. اتجّه إلى الحمّام مباشرةً. تطلعَ إلى وجهه في المرآة، فرأى وجهه شاحباً وعينيه غائرتين في محجريهما والترابَ قد غطى شعره وأهدابه، وكما فعل في المرة السابقة، جلسَ على الأرض عارياً، تاركاً الماء يتدفق على رأسه.

* * *

(١٥)

لم يشعر محمد بسحر وجود بهيجة في حياتها، كما يشعر به الآن في غيابها. عبقُ بهيجة يملأ فضاء البيت، صوتها، حفيف فستانها الهاشمي الطويل، وقع خطواتها وهي تخطو بهمس كأنها تغازل الأرض أو حينما ترتقي السلالم، بصماتُ روحها المضيئة على الجدران والشمعدانات، غناؤها المشع بالفرح حتى وهي حزينة، كلّها المتجسد في كل الأشياء. غيابٌ يملأ المكان حضوراً بسطوعه، ويفيض، لكنه وجود يرادفُ الألم، تاركاً غصّة غيابه الحقيقي في الروح.

بعد مرور أكثر من شهرين على وفاة بهيجة، بدأت تظهر على محمد أعراض المرض الذي كان يعاني منه في طفولته، واختفت بعد لقائه ببهيجة. حالة من الاختناق والغثيان تنتهي بالسقوط على الأرض والإغماء. يشعر بالنوبة قبل أن تأتيه ببضع دقائق حينما يضيق تنفسه وتزرق شفتاه ويغطيهما الزبد، فكان يعتزل في غرفته كيلا يراه أحد، لذا فلم يكن أحد يعلم بهذا الأمر سوى مناف وفاطمة. كانت تأتيه النوبات على أوقات متباعدة وتتسارع في أوقات انفعاله وحزنه. بعد اقترانه ببهيجة، وكان قد أخبرها بالأمر، اختفت أعراض المرض تماماً، حتى نسيه. بعد أسبوعين من وفاة بهيجة جاءته نوبة الاختناق، وكانت خفيفة، فظنها حالة طارئة إلاّ أن تكرارها في الأيام التالية خيّب ظنه. حاولَ أن يكتم الحالة كما كان يفعل من قبل، إلاّ أن تسارع وتيرة النوبات وخوفه من تأتيه وهو في موقع العمل أو في البيت وتراه زهرة على هذه الحالة، جعله يفكر في عرض حاله على الطبيب.

اختار محمد الطبيب كاروليان لما يعرفه عنه من صمت وكتمان للسرّ لئلا يشيع الأمر بين الناس فيقلل هذا من هيبته وسطوته كما كان يظن.

كان كاروليان عجوزاً أرمنياً، انتقل إلى المدينة قبل سنتين وجعلَ من بيته عيادة للكشف على المرضى. لا يختلط بالناس ولا يلتقي بسوى مرضاه، كتوم لا أحد يعرف عنه شيئاً سوى أنه طبيب ذكي وغامض، يعيش مع زوجته العجوز التي تساعده أحيانا في التضميد وزرق الحقن، وكانا يتحدثان بينهما بلغة لا يفهمها غيرهما. كان لا يخرج من بيته، ولا يذهب لعيادة المرضى في بيوتهم، حتى لو كان المريض من أعيان المدينة متحججاً بكبر سنّه وصعوبة حركته. لم يُرَ في الشارع أو السوق، إذ كان يبعث الصبي الذي يعمل عنده للتبضع. ولأنه ليس جشعاً وأحياناً لا يأخذ أجرة للكشف عن مريض فقير، على العكس من اليهودي حزقيل، فقد حاز على احترام الناس بسبب إنسانيته وحبه للفقراء واحترامه للتقاليد، ولهذا بقي بعيداً عن تقولاتهم وفضولهم، فلم ترد سيرته إلا في موضع المديح أو المقارنة بينه وبين حزقيل المرابي. لم يلتقِ به محمد، وقد سمع عنه أول مرة حينما ورد ذكره في أحد الاجتماعات الحزبية، في الأيام الأولى لانتقاله إلى المدينة. قيل عنه آنذاك بأنه مناضل قديم، نجا هو وزوجته من المذبحة بأعجوبةٍ بعد أن فقد كل أفراد عائلته هناك، ولأنه بقي متوجساً من أن القتلة يطاردونه اختار الإقامة في مدينة الهاشمية التي لم تخطر على ذهن الأشباح لصغرها ولبعدها عن مكان المذبحة. حاول محمد أن يستميله إليه فبعث إليه سلمان العجمي ليقترح عليه الاشتراك معه بمشروع خيري وهو بناء مستشفى للفقراء، يقوم محمد بتحمل مصاريفه بينا يقوم كاروليان بالإشراف عليه، إلا أنه رفض اقتراح محمد بتهذيب عالٍ وبحجة أنه رجل عجوز ولا يستطيع القيام بمثل هذه المهمة. لاقى رفضه احترام محمد ولم يكرر المحاولة، وبقي يسمع عنه أخباراً، ينقلها إليه سلمان العجمي الذي على الرغم من أنه لم يلتقِ به في العلن غير مرة واحدة،

إلا أنه كان يمر عليه متخفياً ليدسّ له جريدة الحزب من تحت باب بيته.

دخل محمدٌ بيت الطبيب كاروليان كأي مُراجِعٍ، وقد اختار وقتاً متأخراً من النهار لكي يضمن خلوّ العيادة من المرضى الذين قد يثير وجوده في العيادة فضولهم فيؤلفون بأوهامهم قصصاً وحكاياتٍ عن مرضه. جلس على كرسي في المدخل الفاصل ما بين الباب الخارجي وغرفة الفحص. لم يكن أحد بالانتظار غيره، لكنه سمع صوتاً يشير إلى وجود مريض داخل الغرفة. بعد دقائق دخل رجل وجلس على الكرسي الثاني، بعد أن أطلق تحيته، فرد محمد التحية دون أن يلتفت إلى الرجل الذي كان يبدو من هيئته الرثة بأنه مزارع أو غريب عن المدينة.

فُتح بابُ الغرفة وخرج منها رجلٌ ريفي الملبس والهيئة. توجه نحو الباب الخارجي دون أن ينظر إلى الجالسَين. لم تمض دقيقة حتى خرج العجوز كاروليان بقامته الطويلة المعتدلة على الرغم من تقدمه في السن، وبشعر أبيض كالثلج ووجه أحمر حليق بمبالغة شديدة حتى كأن الدم يوشك يتدفق منه. وقف عند باب الغرفة يتطلع إلى الجالسَين بعينين زورقاوين تبدوان من خلف نظارتيه السميكتين أكبر من حجمها بكثير. نهض محمد متهيئاً للدخول، إلاّ أن كاروليان أشار إلى الرجل الآخر، فنهض متثاقلاً وهو ينظر إلى محمد بإشارة تدل على الإلتزام بالدور. لم يعر كاروليان اهتماماً لتباطؤ الرجل فراح يؤكد عليه بإشارة تستعجله على الدخول إلى الغرفة. تقدم محمد نحو باب الغرفة متقدماً الرجل. أشار إليه كاروليان بأن يتمهل. اعترض محمد:

«ولكن الدور لي.. لقد جاء الرجل بعدي».

تطلع العجوز إليه وهو يهز رأسه:

«أعرف.. أعرف..»

قال ومسكَ يد الرجل وسحبه إلى الداخل، وأطبق الباب بوجه محمد. شعر محمد بغضب من تصرف كاروليان، مفسراً الأمر بإما أنه قد تعمد توجيه إهانة إليه وإما له غاية في نفسه، لابد أن يعرفها، وهذا ما جعله

يتريث عن القيام بفعلٍ يرد به على هذه الإهانة التي وجهها إليه رجل سمعَ الكثير عن رقيّه وسموّ أخلاقه، وليس بينهما ضغينة تدفعه إلى هذا التصرف المتعجرف.

لم يعد محمد إلى مقعده بل راح يذرع قلِقاً الممرَ جيئةً وذهاباً، كأنه يتهيئاً لخوض معركةٍ. وقت ليس بقصيرٍ مرّ حتى ظن محمد بأن هذا الأرمني الغريب يتعمد استطالة الوقت كي يستعذب أكثر في إذلاله. فكّر أن يقتحم الغرفةَ عليهما، إلا أنه توقف في اللحظة الأخيرة كيلا يرتكبَ حماقةً قد يندم عليها، ما دام أنه ليس متأكداً من نوايا الرجل ومما يرمي إليه.

فُتح البابُ ثانيةً، وخرجَ الرجل المريض يتبعه كاروليان وهو يقدم له إرشادات حول طريقة استخدام الدواء والأوقات، وعن الطعام الذي يجب أن يتجنب أكله. على العكس من تصرفه مع الرجل الأول، فقد سار خلفه إلى الباب الخارجي مودّعاً، دون أن ينظر إلى محمد الواقف في منتصف الممر وعيناه تتقدان من الغضب. نادى كاروليان على الصبي العامل عنده، وطلب منه أن يذهب إلى بيته، وهو يخبره بأنه لن يستقبل مريضاً آخر. غادر الصبي فرحاً، بينما أطبق كاروليان الباب بهدوء وعاد. تسربَ الغضب من نفس محمد كبوّ ثُقبَ فجأةً، حيث أدرك أن غضبه لم يكن في محله، ولابد أن للرجل غاية في تأخيره.

مدّ كاروليان يده نحو محمد مصافحاً. هزّ يده بقوة شاب في أوج عنفوانه. دخل الغرفة ومحمد يتبعه، وعلى العكس مما كان محمد يتوقعه، فقد أزاح كاروليان سمّاعة الفحص عن رقبته، ووضعها بتأنٍ على سطح المكتب. خلع صدريته البيضاء بهدوء وعلّقها على شمّاعة في ركن الغرفة، بينما محمد واقف في منتصف الغرفة يراقب حركات هذا الرجل الذي لم يعر اهتماماً للوقت على الرغم من مروره السريع. تقدم كاروليان من محمد وهو يرسم على شفتيه ابتسامة ملائكية مضيئة. وضع كفّه على كتف محمد الذي بدا أمام قامته الشاهقة قزماً، وبيده الأخرى مسك ذراع محمد وسحبه إلى خارج الغرفة وهو يردد كلمات الترحيب بالصديق

العزيز الذي تأخر لقاؤه. تلعثمت الكلمات على لسان محمد، فقد أخجلته كلمات هذا الرجل الذي ظن به سوءاً قبل دقائق قليلة. فتح كاروليان باباً آخرَ، وقدّم محمداً أمامه كي يسبقه في الدخول، إلاّ أن محمداً رفض ذلك، وتراجع احتراماً لحرمة بيت لا تربطه بأهله صلة رحم. ارتفعت ضحكة كاروليان، معتذراً عن سهوه وجهله في التقاليد المتبعة في هذه البلاد. نادى بلغته الأرمنية فجاءت امرأة عجوز، تدبّ ببطء وهي تمسح كفيها بمنديل ورقي. خمّن محمد بأنها زوجة كاروليان، فهي لا تقل طولاً عنه، وبوجه يكاد يشبه وجهه بملامحه وحمرته لولا بقايا أنوثةٍ كذكرى لأنوثةٍ فائضةٍ، جنت عليها السنوات وأفسدها الدهر. تقدمت منهما ببطء وهي تعدّل من هيئتها وشعرها الأبيض الطويل. تحدث كاروليان إليها بلغتهما، ثم التفت إلى محمد معتذراً وهو يعيد ترجمة ما قاله لزوجته:

«قلت لها.. هذا هو الشاب الذي حدثتكِ عنه».

ثم أضاف:

«هذه زوجتي.. هيلين».

هزّ محمد رأسه بخجل. مدّت هيلين يدها نحو محمد، فتردد قليلاً ثم مدّ يده مصافحاً وهو يردد بارتباك واضح:

«أهلا.. أهلاً وسهلاً».

تداركَ كاروليان صمتَ زوجته فأخبر محمداً بأن زوجته لا تعرف من اللغة العربية إلا القليل، فضحك محمد بصوت مرتبك. تحدث كاروليان مع زوجته، ثم دعا محمداً إلى الجلوس في الصالة، وهو يكرر عبارات الترحيب دون أن يغيّر أو يضيف مفردة إلى ما ردده سابقاً. جلس محمد على كنبة عريضةٍ من خشب أبنوسي غطّيَ معظمه بطبقة ثخينة من قماش القطيفة رسمت عليه زخارف وورود، وبمسندين يدويين مزخرفين بشكل جميل وينتهيان بقبضتين مثل جؤجؤ سفينة أو رأس وعل. راح محمد يدير عينيه متفحصاً الصالة كأنه يقرأ أسرار العائلة التي لم يعرف أحد عنها

شيئاً، بينما ذهب كاروليان إلى داخل البيت لمساعدة زوجته في تحضير شيء يقدمّه للضيف.

كانت الصالة باردةً، لكن الكانون في ركن الصالة مليء بالأخشاب. الأرضية مغطاة بسجادة قديمة تتوسطها قطعة صغيرة من فراء نمر. الأثاث منسق بشكل يوحي بذائقة عالية تقف وراء ترتيبه. على الجدران عُلقت لوحاتٌ، تختلف تماماً عمّا رآه من قبل، فهذه لوحات لا تجسّد شيئاً، فلا زخارفَ ولا وجوه كائنات تظهر واضحة، ولا أجساد نساء تحمل كؤوساً أو صنوجاً، كما ألفه في اللوحات الفارسية، وإنما هي أصباغ وألوانٌ توزعت بشكل لا يوحي بشيء.

عاد كاروليان إلى الصالة، فوجدَ محمداً يجلس متكوراً على نفسه وكفّاه بين ساقيه، فأدرك أنه يشعر بالبرد. ارتفعت ضحكته وهو يتطلع إليه، قائلاً كأنه يعتذر عن سهو:

«أووو.. فاتني أنكم أهل هذه البلاد لا تستطيعون مقاومة البرد.. ليس مثلنا.. فنحن نختلف عنكم.. حيث أن شتاءكم بالنسبة إلينا ربيع».

جلس أمام الكانون وراح يحاول إضرام النار في الخشب، وهو يتحدث بلغة طبيب عن مضار استخدام الفحم أو الخشب في التدفئة. سرت النار وتصاعد لهيبها، فتراجع جالساً إلى جنب محمد. فجأة راح يلوم نفسه على نسيانه تقديم العزاء إلى محمد بوفاة زوجته. هزّ محمد رأسه، شاكراً له رقّة كلماته ونبله.

دخلت هيلين وهي تحمل صينية زجاجية، بمقبضين من الفضة وعليها ثلاث كؤوس زجاجية وقنينة مغطاة بقطعة من الجنفاص، فلم يظهر منها سوى فوهتها المغلقة بقطعة فلين، كذلك صحن صغير يحتوي على شرائح لحم نيء وردي اللون. وضعت الصينية على الطاولة الصغيرة وجلست علىَ كرسيّ قبالتهما. تناولَ كاروليان القنينة وسحب قطعة الفلين بحركة بطيئة وكفّه ترتعش بوضوح. صبّ شراباً أحمرَ في الكؤوس الثلاث، ثم أعاد غلْق القنينة. رفع كأسه، فرفع محمد وهيلين كأسيهما.

«بصحتك».

قال كاروليان وهو ينقل نظره بين زوجته ومحمد. ارتشف كاروليان وزوجته من كأسيهما وقضم كل منهما قطعة صغيرة من اللحم، إلاّ أن محمداً توقف والكأس في منتصف طريقها إلى فمه، إذ لمح شيئاً غريباً على الكأس الزجاجية. توقفت نظراته بذهولٍ وهو يرى على الكأس زخرفةً تشبه تماماً الزخرفة المرسومة على القدح الفخاري الذي أهدته إليه بهيجة في لقائهما الأول وكانت حينها قد أخبرته بأنها هي التي خطت الزخرفة عليه. انتبه كاروليان إلى تردد محمد في الارتشاف من كأسه، فقال مرتبكاً:

«إني أعتذر.. إن كنتُ قد أخطأتُ التصرفَ.. فقد أنساني غبائي بأن شرب النبيذ في دينكم حرام.. أكرر اعتذاري».

صمتَ قليلاً وهو يترقب ردّ محمد على ما قاله، وحينما تباطأ بالرد، عاد كاروليان للاعتذار وهو يحاول أن يجمع الكؤوس، مضيفاً كي يبرر غفلته:

«ولكني علمتُ بأنك تحب هذا النبيذ».

انتبه محمد إلى ما قاله كاروليان فردّ بارتباك:

«لا.. لا.. ليس هذا هو السبب».

ولكي يؤكد كلامه عبّ كمية كبيرة من الكأس، فجاءت المفاجأة الثانية، عندها أدرك ما كان يعنيه كاروليان، فقال مؤكداً:

«نعم.. نعم.. أنا أحب نبيذ السِريان».

ومجاراةً لهما، تناول قطعة من اللحم النيء، قضمها بتوجس. كان طعمها غريبا عليه، لكنه لم يتوقف عن مضغها.

أدرك محمد أن كاروليان يخفي في داخله سرّاً من تلك الأسرار الغريبة التي حملها من قبل الشيخ نوفل وبهيجة، وإن المفاجآت التي واجهته الليلة تحتاج إلى جلسة طويلة مع النفس لحل طلاسمها واتخاذ موقفٍ منها. شعر بأنه عاجز عن التفكير في هذه الأمور الآن، لذا حاول

أن ينهي الزيارة بالدخول في الموضوع الذي جاء من أجله.

انتقلا إلى غرفة الفحص. أجرى كاروليان فحوصاً لنبضات القلب وضغط الدم. تطلع في فمه وعينيه هازاً رأسه بإشارة تدل على أنه لا يرى شيئاً غير طبيعي. استمع باهتمام شديد إلى ما وصفه محمد من أعراض المرض الذي يعاني منه، دون أن ينطق كلمة. توقف طويلاً حينما أخبره محمد بأن أعراض المرض اختفت، وانقطعت نوبات الإغماء تماماً منذ التقى ببهيجة، وعادت إليه بعد وفاتها. لم يعطِ كاروليان رأياً قاطعا في تشخيصه إن كانت هي أعراض مرض الصرع، أم أنها حالة نفسية عرضية تشتد في الأزمات والانفعالات النفسية، لكن نصحه بأن يتجنب الانفعال وحالات الحزن العميق. همّ بكتابة دواء له، لكنه توقف ليسأل محمداً:

«متى ستسافر إلى هناك؟»

تطلع محمد في وجه كاروليان باستغراب، وسأله:

«أين تقصد؟»

فردّ كاروليان:

«إلى مدن الساحل الشمالي».

صمت محمد قليلاً، فقال كاروليان:

«سأكتب لك وصفة لدواء لا توجد هنا.. ولكني واثق من أنها موجودة هناك».

استعاد محمد توازنه وقال وهو يفتعل العفوية في الجواب:

«في الوقت الحاضر لا أنوي السفر.. ولكن ربما سأذهب إلى هناك حينما تصل البضاعة».

هزّ كاروليان رأسه وهو يردد كلمة (البضاعة) وعلى شفته ابتسامة لا تخلو من خبث، بينا كان محمد يحاول اخفاء ارتباكه ويبدو عفوياً. ولكي يعيد الحديث إلى مساره الأول قال:

«سأكتب لك الوصفة.. وبإمكانك أن تحصل عليها حينما تسافر إلى هناك أو تبعث شخصاً آخر ينوب عنك».

تطلع إلى محمد فوجد علامة خيبة أمل ارتسمت على وجهه، فقال:

«والآن سأكتب لك بعض الأدوية تبعد النوبة قدر الإمكان وتخفف من وقعها».

أزاح سمّاعة الفحص عن رقبته ووضعها على سطح المكتب. مسك محمداً من ذراعه وعادا إلى الصالة. ملأ كأسين من نبيذ السريان. قدّم واحدة إلى محمد وأخذ الأخرى. عبّ محمد كأسه دفعة واحدة ونهض مستأذناً للخروج. في الطريق إلى الباب الخارجي التقى بهيلين خارجة من المطبخ. ألقى عليها تحية الوداع، وسار في الممر. كان كاروليان يتبعه ويقدم نصائحه بلهجة رسمية لا تخلو من صيغة الأمر التي اعتاد استخدامها مع المرضى:

«ابتعدْ عن كل ما يسبب لك الحزن والغضب.. سافرْ.. حاولْ أن تغيّر المكان الذي يذكّركَ بذكرى أليمة.. تذكّرْ من سنواتك الماضية أجملها.. فكّرْ بيومك».

* * *

(١٦)

وجدَ محمد في نصائح الطبيب دافعاً للخروج من الحالة التي هو فيها، محاولاً طيّ صفحة الذكريات الأليمة التي خلّفها رحيل بهيجة، والتطلع إلى المهام الكبيرة التي تنتظره، خاصة وأنّ عزلته التي طالت منذ مرض بهيجة أبعدته عن متابعة أعماله بشكل مباشر، على الرغم من أن علياً والعجمي قد أدارا العمل بشكل مرضٍ، لكن لم يضيفا شيئاً جديداً إلى أملاكه، وأنهما وإنْ نقلا له ما كان يدور في السوق، لكنهما لم ينقلا له ما يدور في السرّ، فهذا الأمر يحتاج إلى عيونٍ أخرى تجيد رصد ما يدور في الخفاء.

فكّر محمد بأن الخطوة الأولى التي يجب أن يخطوها للخروج من الماضي، هي الانتقال من البيت، فوجوده هنا يجعل انعتاقه من الماضي مستحيلاً، فكل شيء في البيت يذكّره ببهيجة، خاصة في أيامها الأخيرة، وما جرى في مرضها وموتها. فكّر أن ينتقل إلى بيت آخر، إلاّ أن الحاج رضا اعترض على الفكرة، مقترحاً عليه أن يقوم ببناء بيت له يقع بعيداً عن بيوت الناس ليكون متميزاً ومهاباً في أنظارهم.

«الناس لا يهابون من يخالطهم».

قال الحاج رضا ثم أضاف بلهجة الحكيم:

«ولا طاعةَ لمن لا يُهاب».

لاقت الفكرة إعجاب محمد. اقترح الحاج رضا أن يقوم هو بنفسه بالإشراف على بناء قصر له يليق بقائد. شجعت موافقة محمد الحاجَ رضا، فوجد بذلك فرصةً لإبعاد محمد عن السوق، وكيلا يكتشف ما

حدث في فترة غيابه. اقترح عليه أن يقيمَ في داره الكبيرة الواقعة على الضفة الثانية من النهر لحين اكتمال بناء قصره الجديد. وجدَ الاقتراح الثاني ترحيباً كبيراً عند محمد، كأنه أيقظ فيه فطنةً كانت نائمةً، فقد كان يشعر بحاجته الماسّة لاستعادة صورة بهيجة المشرقة في روحه لتمحو من ذاكرته صورتها في أيام مرضها وشيخوخة الحبّ الذي جمع بينهما. هزّ رأسه موافقاً على اقتراح الحاج رضا، شاكراً له كرمه واهتمامه، إلا أنه سرعان ما غيّر رأيه كأنه تذكر أمراً. ارتسمت على وجه الحاج رضا علامة الخيبة، ولكيلا يفطن محمد لما كان يسعى إليه، راح يموّه قصده، فقال:

«لكي تبتعد قليلاً عمّا يذكّركَ بالمرحومة.. ولكي تجد الراحة والهدوء هناك.. حيث النهر والجو الشاعري».

ردّ محمد، موضحاً سبب رفضه للإقامة في دار الحاج رضا:

«سأقيم في البستان».

«لماذا في البستان؟»

سأل الحاج رضا باستغراب فردّ محمد بصوتٍ واطئ:

«لأني بحاجة إلى العودة إلى ما كنت عليه».

«ماذا تقصد؟»

سأل الحاج رضا، وهو يتطلع إليه بفضول لمعرفة نواياه، فأجاب محمد:

«هذه الروح بحاجة إلى تهذيب».

صمتَ قليلاً، ثم أضاف والحاج رضا يتطلع إليه بقلق:

«لقد أنهكت التجارة والحسابات روحي.. ولكن موت بهيجة أيقظ فيها ظمأها لأشياء أخرى.. فالحياة قصيرة».

هزّ الحاج رضا رأسه مفتعلاً الورع، وهو يردد:

«كلّ من عليها فان.. ويبقى وجه ربكَ ذو الجلال والإكرام».

فجأة قال بطريقة التائق لمعرفة الطريق:

«ولكنك.. والحمد لله.. مواظباً على صلاتك.. وزكاتك».
ثم، وبطريقةٍ حاولَ أن تكون طريفة، أضاف:
«لم يبقَ أمامك سوى أن تكمل نصف دينك».
تطلع إليه محمد بملامح محايدة، وقال بحكمة:
«ليس بالصلاة وحدها يكون التقرب إلى الله.. لابد من إذلال هذه النفس المغرورة».

لم يعِ الحاج رضا شيئاً مما كان محمد يعنيه في كلامه، لكنه هزّ رأسه بإعجاب، محاولاً إخفاء فرحه بإبعاد محمد عن السوق لأي سبب كان.

طلب محمد من أخته سميّة أن تتولى الاهتمام بزهرة في فترة غيابه، موصياً إياها بأن تحسن معاملة لؤلؤة، فوجد منها ترحيباً مبالغاً فيه، أثار شكّه، على الرغم من إدراكه بأن سميّة بعد حادثة الغسل لم تعد كما كانت قبلها، وما هذا الترحيب إلا محاولة للتكفير عن الذنب التي ارتكبته بحقه وبحق بهيجة، لكنها تبقى الأقرب إليه من بين أختيه وأخيه وأكثرهم حنوّاً وأمومة.

أثار انتقال محمد إلى البستان، وإصراره على المبيت في غرفته القديمة استغراب الجميع، فراحوا يتهامسون في ما بينهم.
قال أحدهم متحسراً:
«إن الله يعطي جوزاً للأدرد».
وقال آخر ممن عرف محمداً مذ كان حارساً في البستان:
«جاء ليصطاد جنيّة أخرى».
ثالث قال بخبث:
«لم يبقَ سوى ماء النهر.. فجاء لكي يستحوذ عليه».
وقال رابعٌ متهكماً:
«الجنون فنون... ولا على المجنون من حرج».

.. حتى سلمان العجمي، الذي اقترح على محمد أن يقوم ببناء غرفة من الآجرّ في مكان غرفة الحارس الطينية، توفر له الحد الأدنى من

الراحة فرفضَ محمد، لم يجد مبرراً سوى أن لمحمدٍ غايةً يعجز عن إدراكها. أما حكاية إذلال النفس المغرورة التي لم يقلها محمد لأحد غير الحاج رضا فقد انتشرت في المدينة كلها وأصبحت على لسان الجميع، إعجاباً أو تهكماً، فبينا تصور البعض بأن محمداً يسلك سلوك الأولياء الصالحين ذوي الكرامات، اختلق البعض الآخر تصوراً طريفاً للطريقة التي سيتبعها محمد من أجل إذلال نفسه، كأنْ يمرغ نفسه في التراب أو أن يطلب من أحد العاملين عنده بجلده أو صفعه.

كانت عيون المزارعين تراقب بفضول وبحذر ما سيفعله محمد، إلاّ أن محمداً لم يفعل ما كانوا يتوقعونه، إذ لم يرتدِ خرقة الدراويش أو يحمل قرآنه على صدره ويجلس ساعات طويلة تحت المطر، بل كان يتصرف كمالك للبستان، يخطو بكبرياء، ويتحدث مع الفلاحين باقتضاب، وأحياناً يرمي صنّارته في النهر لا لكي يصيد بل لكي يجرّب لعبة الحظ ويتسلى، إذ ما أن يفلح في صيد سمكة حتى يخرجها وهو يتطلع إليها بفرح وهي تتلوى في الفضاء. يستل الصنارة من بين خياشيمها، ثم يهديها بزهو المنتصر على قدره، إلى أقرب شخص يقف قربه. تنقله صباحاًعربة يجرها حوذي إلى المدينة وتعود به عصراً، وهو بأناقته المعهودة ليقضي الليل في غرفة الحارس الذي حوّله إلى ساعٍ يلبي له كل حاجاته، وطاهٍ يقدم له الطعام متى حكمت شهيته، حتى قالَ أحد المزارعين ساخراً:

«اللهم ارزقنا بذلّ مثل ذلّ محمد».

فردّ السامعون:

«آآآآآآآميييييييييين».

قضى محمد ليلته الأولى في الكوخ القديم، وقد كان على حاله كما تركه، فالحارس الذي حلّ محله، كان يقيم مع امرأته في كوخ آخر لا يبعد كثيراً عن الكوخ القديم.

قام بعض العمال بإخراج السرير القديم والصندوق الخشبي المقفل

وقد غطى الصدأ قفله الكبير. أمر محمد بكسره فلم يجد في داخله سوى ناي وشبّابة أتلفتهما الرطوبة، ما أن مسكهما حتى تفتتا في كفّيه وكذلك قصاصات ورق طمست فيها الكتابة ولم يعد محمد يتذكر ما قد خط عليهما. قام العمال بتنظيف الكوخ من الغبار الذي تراكم فيه ومن خيوط العناكب التي تدلت من السقف حتى الأرض. أشعلوا ناراً في الداخل لتخفيف شيء من الرطوبة ورائحة العفونة. مدوا بساطاً من النايلون ثم أعادوا السرير إلى محلّه واستبدلوا الفانوس القديم بآخر جاء به أحد العمال.

حاولَ محمد أن ينام فلم يستطع. رائحة الرطوبة كانت تسد أنفه فيشعر بالاختناق، وطنين الحشرات والصراصير في داخل الكوخ ونقيق الضفادع في النهر إيقاع ينخر أذنيه، السرير الذي صنعه بنفسه ذات يوم من جذوع الأشجار كان يخزه في ظهره كأنه يرقد على نتوءات حجرية. أدرك أن الرفاه قد أفسده وأوهن عزيمته، وأن الماضي لا يعود إلا كذكرى في الذهن، ولا يمكن إعادته كحياة، غير أنه يعلم بأن رجوعه عن قراره قد يسقط هيبته أمام الآخرين، لذا أصرّ على مواصلة تنفيذ قراره حتى يجد حجة مقنعة لإنهاء فترة عزلته، خاصة وأنه أشاع بعد أن تنوعت الشائعات عن سبب عزلته، بأنه في صدد تأليف كتاب يؤرخ فيه ما جرى من أحداث في مدينة سن الصخر منذ نهاية القرن الماضي وحتى اليوم، ودور العائلة الهاشمية في رسم الأحداث منذ طفولة جده هاشم. حجة تأكدت للقريبين منه بعد أن رأوه مكباً على أوراقه وكتبه، بل هو نفسه صدّق كذبته، فراح فعلاً يحاول أن يدوّن ما يخطر في ذهنه مما سمعه عن سيرة جده هاشم والحرب التي خاضها ضد الغرباء.

كان الليلُ يمر ثقيلاً. سكون يقطعه في أحيان قليلة عواء ذئاب ونباح كلاب، فتنشد عينا محمدٍ إلى الأفق الجنوبي محدقاً إلى عمق الظلام لعلّ نقطة ضوء قادمة إليه تخترق مفازة الجن لتحمل له ما لم يخطر في ذهنه. يوقد ناراً ويجلس قبالتها صامتاً يبحلق في قلب الحطب المتجمر

كمجوسي نسي ما حوله، لكنه كلما فكّر أن يكتب قصيدة تبدّى له عجزه، فلا الليل يوحي له بشيء كما السابق ولا النهر يبوح له بنبوءة، فيشعر بالمرارة والعجز، حتى أصابعه لم تعد بتلك المرونة التي كانت تتنقل بها على ثقوب الشبّابة أو الناي، بل هناك ما هو أسوء إذ كلما حاول أن يعزف على الناي كما كان يفعل، يعترضه صوت في داخله، يذكّره بأن هذا الأمر لا يليق بكبريائه، فيتوقف عن العزف على الرغم من أنه في بعض الأحيان يود لو أنه بقي ذلك الراعي الذي يختصر السعادة كلها في لحظات انشغاله بالعزف، عازفاً عن العالم.

أما ما كان يدور في المدينة حول محمد من شائعات وأقاويل أوقعت حتى المقربين إليه في حيرة، فلم يستطيعوا الرد عليها، فقد كان كل ما يشاع يضرب له جذراً في الواقع، وكلما ردد البعض أن محمداً طلّق الدنيا بالثلاث بعد وفاة بهيجة وارتدى خرقة الدراويش، وسيفاجئ الجميع يوماً بكرامة أو معجزة، ارتفعت سخرية البعض الآخر متهماً الفريق الأول بالجهل.

«أي زهدٍ هذا؟ أية كرامة؟.. هل الزاهد في دنياه يبني قصراً كبيراً لم يملكه من قبل إلا ملك أو سلطان؟»

كان البدر مكتملاً يتوسط السماء. تذكر محمد بأن بهيجة لم تكن تأتي في تلك الليالي، لسبب لم يستطع أن يعرفه في حينها ولا في ما بعد، وكلما كان يسألها عن الأمر في اللحظات التي كانا يستعيدان فيها ذكريات حبهما قبل أن يتزوجا، كانت بهيجة تعطي أجوبة مختلفة أو تحاول الإفلات من حصار الأسئلة بشكل متقنٍ لم يستطع محمد إدراك أي سرّ تحمله بهيجة كترياقٍ تسقيه فيسهو عن السؤال، وحينما يزول تأثيره ويتذكر السؤال ثانيةً يكون الحديث بينهما قد توغل في عالم آخر.

شعر بانقباض في روحه كأنه لا يزال على موعد مع بهيجة التي لن تجيء هذه الليلة، يجفل كلما ارتفع نباح كلاب قادماً من مفازة الجن. لاحظ محمد وهو يتأمل كل ما يطرأ عليه من تغيير بأن المفردات

والأماكن لا تعيد أسماءها ووقعها في نفسه إلا حينما يرتبط ذكرها ببهيجة كأن لذكراها سحراً يلغي ما مر من سنوات، وكل مفردة يصقلها تحضيراً لنطقها في حضرة مليكته القادمة تتلاشى عند الصباح كأن شيطاناً ينسيه إياها. غموض ظل غموضاً كأنه لم يكن سيد صاحبة الغموض.

رمى الصنّارة في النهر وربط خيطها بعصا غرزها في الأرض وجلس على مقربة منها يتطلع إلى صفحة الماء التي انعكست عليها صورة القمر فبدا الماء فضياً. طقس حاول أن يكرره بكل دقائق تفاصيله، لكن هناك بعض التفاصيل كان يتمرد على التكرار، فالصيادون الذين كانوا يجرون قواربهم إلى الضفة حيث يقف محمد لكي يكسروا مللهم بالسخرية من هذا الصبي صائد الثعابين الذي يرى نفسه أكبر من حقيقتها، أو لكي يقتلوا بعض الوقت في الإصغاء إلى هذا الغجري وهو يعزف حنينهم وأحزانهم على نايه فتسكرهم نشوة يجهلون مصدرها، لم يعودوا كما كانوا بالأمس، فما أن يروا الآن محمداً واقفاً على الضفة حتى يتحركوا متهيبين حضوره، مبتعدين أو مختبئين في غيضة البردي وهم ينظرون إليه بحذر، منتظرين انسحابه إلى كوخه كي يعودوا إلى حلقات سمرهم الليلي، وما بين شعوره بالزهو وفقدان البراءة كان محمد يتأرجح.

اهتز الخيط بحركة واضحة فأسرع محمد نحوه وهو يتوقع صيداً سميناً. لف طرف الخيط على ساعده وراح يسحبه بحذر، وبخبرة استعادها بفترة قصيرة. برقت زعنفةٌ فضية خابطة الماء بقوة فتأكد تخمينه. كانت حركة السمكة عنيفة وهي تحاول الإفلات. ركز قدمه في الأرض بقوة إلاّ أن ممانعة السمكة وقوتها سحبته إلى النهر. برك على إحدى ركبتيه غارزاً كعب قدمه الأخرى في الأرض. تصاعد صوت أنفاسه، وشعر بأن عضلة ساعده ترتعش. أدركَ بأنه لا يستطيع السيطرة على السمكة وحده، وخوفاً من أن تفلت منه، فكّر أن يطلب مساعدةً من أحد الصيادين. تلفتَ إلى جانبيه لعلّه يلمح أحدهم. رأى الحارس مالكاً يقف على ضفّة النهر ليس بعيداً عنه، وقد كان يراقب محمداً دون أن يجرؤ

على الاقتراب منه. ناداه بصوت واطئ، فهرع مالك مهرولاً نحوه. أشار محمد إليه أن ينزلَ إلى الماء ليحاصر السمكة من الخلف. لم يتردد مالك. خلع ملابسه بسرعة ونزل إلى الماء بالرغم من برودته. راح محمد يسحب الخيط بحذر بينا كان مالك يدفع الماء خلف السمكة متحفزاً لئلا تفلت، حتى ظهرت بكاملها براقة وهي تتخبط ضاربةً الماء بعنف. تركها محمد قليلاً مرخياً الخيط لها، ثم شرع يسحبها ببطء حتى أوصلها إلى اليابسة بهدوء. كانت سمكة كبيرة ومن أسماك النهر النادرة، لم يحدث أن أصطاد محمد بحجمها ونوعها من قبل.

شعر بزهوٍ أيقظ كبرياءه، فقد أشاع صيد السمكة الكبيرة في نفسه فرحاً دغدغ طفولته، أنساه حزنه، فراح يتصرف بعفويةِ ذاك الصبي العاشق الذي لم تزيفّه الثروة والسطوة بعد. دفعته أريحيته إلى التحدث مع الحارس بنديّةٍ، جعلته يرتبك ويتلعثم لسانه، خاصة بعد أن خلعَ محمد معطفه الوبري وألبسه لمالك الذي كان جسده يرتعش من البرد. هدأت أنفاس محمد تماماً وخمدت أنفاس السمكة تماماً، عندها سأل محمد:

«ماذا نفعل بهذه السمكة؟»

ارتبكَ مالك وهو يرى محمداً، ينتظر منه جواباً، فقال:

«مثل ما تأمر».

ثم أضاف:

«هي حصتك».

ارتفعت ضحكة محمد، وقال:

«ماذا أفعل بها؟.. خذها.. لك ولعائلتك.. هنيئاً».

صمتَ مالك، ثم قال بخجلٍ أقرب إلى التوسل:

«ما رأيك لو تشرفني في البيت.. لأقوم بخدمتك؟»

«أستغفر الله».

قال محمد، ثم هزّ رأسه موافقاً على اقتراح الحارس، فقد شعر

باستئناس كبير لمالكٍ، خاصة بعد أن شعر بتأنيب حينما طلب منه النزول إلى النهر البارد دون أن يفكر باحتمال أن يؤدي هذا إلى إصابته بنزلة برد، في الوقت نفسه كان مالك يشعر بزهو وهو يتحدث مع رجل، سيرته على كل لسانٍ ويهابه أقوى الرجال. نهض محمد فنهض مالك وهو ينظر إلى محمد بخجلٍ منتظراً ما يأمر به، متمنياً استجابته لطلبه.

«لنذهب إذن».

قال محمد، فارتسمت على وجه الحارس علامات فرح، واغرورقت عيناه بالدموع برّاقةً في ضوء القمر. حملَ مالك السمكة على كتفه وأسرع إلى كوخه القريب من البستان، بينا محمد يتبعه بخطى بطيئة.

حينما وصلَ محمد وجد مالكاً يقف في باب كوخه وهو يحمل فانوساً بكفّ، واضعاً كفّه الأخرى على رأسه، احتراماً لضيف لم يكن يحلم أن يزوره في بيته. دعا مالك محمداً للدخول معتذراً عن مكانٍ لا يليق به. امتنع محمد عن الدخول وقال بصوتٍ متواضع:

«لا.. لا.. لا توقظ أهل بيتك».

فردّ مالك:

«زوجتي لا تنام عادةً إلا حينما أنهي واجب حراستي وأعود إلى البيت».

ألقى محمد تحيته وهو ينظر إلى الأرض بزاوية منفرجة، فردت زوجة مالك بخجل وهي تغطي وجهها بفوطتها، ثم تسللت بخجل إلى خارج الغرفة. جلس محمد على سجادة قديمة مسنداً ظهره إلى الحائط الطيني، بينا وقف مالك مرتبكاً لا يعرف ماذا يفعل حتى طلب منه محمد أن يجلس قربه، فأقعى مثل كلبٍ مطيع، عندها خاطبه محمد بلهجة ودّ لا تخلو من الصرامة:

«ما بكَ يا مالك.. لماذا تنظر إلي بارتباك؟.. نحن أخوة».

زفرَ مالك هواءً كان محبوساً في داخله، واسترخى شيئاً فشيئاً وهو ينظر إلى محمد بإكبار شديد منتظراً منه أن يبدأ بحديث، لكن محمداً

أخرج مسبحته وراح يحركها وهو يتطلع إلى الأرض. استأذن مالك من محمد ونهض صارخاً بزوجته:

«نويرة.. اعملي الشاي لحين ما أقوم بفتح السمكة وتنظيفها».

كان محمد يسمع همس الزوجين خارجاً لكنه لم يستطع التقاط جملة واضحة، لكنه أدرك أنهما يتحدثان عنه بشيء من الزهو والفرح. بعد دقائق دخلت نويرة تحمل منقلةً صغيرة وقد تجمّر الحطب فيها. وضعتها قريباً من محمد وانسحبت إلى الخارج بهدوء. عادت وهي تحمل إبريق الشاي المعدني ووضعته على المنقلة. جلست قبالة محمد، تحرك الجمرات بقضيب حديدي. رفع محمد عينيه عن الأرض بخجل وهو يحرك خرزات مسبحته متمتماً بكلمات التسبيح. استرق نظرة خاطفة إلى وجه نويرة، ثم زادتْ استراقاته حتى تركزت نظراته على الوجه الذي انعكس عليه ضوء الجمرات، فرأى وجهاً حنطياً جميلاً دوّرته الفوطة السوداء فبدا كبدرٍ مكتملٍ، بعينين واسعتين أضاف لهما الكحل سحراً هادئاً، وشفتين ممتلئتين لا تزال عليهما بقايا من صبغةٍ بنيّةٍ أبرزت أثراً خفيفاً في منتصف الشفة السفلى. رفعت نويرة رأسها قليلاً فلمحت نظرات محمد إليها فغضت نظرها بخجل. ارتفع نباح كلاب قرب الكوخ فأدرك محمد أن مالكاً رمى إليها بأحشاء السمكة. دخل مالك حاملاً السمكة على ذراعيه الممدودتين إلى الأمام، فارتفعت ضحكة محمد بزهو وهو يتطلع إلى السمكة، جاراه مالك بالضحك، بل حتى نويرة نسيت خجلها فارتفعت ضحكتها وهي تضع كفّها على فمها. وضع مالك السمكة على قطعة من النايلون، وطلب من زوجته أن تقوم بتمليحها ورشّها بالبهارات بعد أن تنتهي من تقديم الشاي إلى الضيف. وهمّ بالخروج، فسأله محمد باستغراب:

«إلى أين؟»

«سأذهب لجمع الحطب».

اعترض محمد، فتوقف مالك وهو ينظر بارتباك مستفسراً بنظراته عن سبب الاعتراض، فقال محمد موضحاً:

«تعال الآن.. اشرب شايا.. ثم نخرج معاً لنجمع الحطب».

«استغفر الله».

ردد مالك، وهمّ أن يقول شيئاً، إلاّ أن محمداً أوقفه بيده قبل أن ينطق بقسمٍ، فامتثل.

غادرا، بينا بقيت نويرة لتهيئة السمكة. توغلا في الجهة الشمالية من البستان، التي ضمّها محمد وأصبحت من أملاكه، بعد أن كانت غيضةَ لأشجار الأثل والبردي، لا يجرؤ أحد على دخولها لكونها محاذية لمفازة الجن، وخوفاً من الخنازير البرية التي كانت تختبئ فيها. ارتفع عواء ذئاب من جهة الغرب. توقف محمد وهو يتطلع إلى جهة الصوت. طال وقوفه كأنه نسي وجود مالك معه، فأراد أن يذكّره فقال:

«غريب أمر هذه الذئاب».

انتبه محمد إلى ما قاله مالك، فسأله:

«لماذا؟»

فقال:

«لم تكن هناك ذئاب في هذه المنطقة إلا نادراً.. ولكنْ منذ ما يقارب الشهرين ازداد عواؤها..»

خيّم على محمد صمت محاولاً تفسير ما قاله مالك بملاحظةٍ تجسدت أمامه كطرف خيط برز من وشيعةِ الصوف المتشابكة على بعضها، على الرغم من أن ملاحظته لم تكن مفاجأة لمحمد، فقد انتبه هو نفسه للأمر منذ الليلة الأولى التي انتقل فيها للمبيت في البستان، وكان يظنّه وهماً قادماً من ذكرياته القديمة في تلك الليالي التي كان ينتظر فيها مجيء بهيجة.

عادا، بعد أن جمعا كمية من جذوع أشجار الأثل وجذورها التي لا تزال في الأرض. كان محمد يحمل شوالَ الحطب على ظهره، ومالك

يسير أمامه حاملاً الفانوس. كانت نويرة واقفة في باب الكوخ، وحينما وصلا أسرعت لأخذ الفانوس من يد زوجها بينا أسرع مالك إلى محمد لمساعدته في تنزيل الشوال وهو يلعن نفسه التي طاوعته بأن يترك محمداً يتحمل عناء هذا الحمل الثقيل. أسرعت نويرة بتقديم كأس ماء إلى محمد، فتناولها من يدها وهو يتطلع إلى عينيها مبتسماً، فلمح ابتسامة خجولة على شفتيها وبريقَ فرح في عينيها اللتين تعمّق سواد الكحل حولهما، بدلالة تشير إلى أنها قد تزينت في غيابهما. انشغل مالك في إضرام النار بينا جلس محمد مقرفصاً ومسنداً ظهره إلى جدار الكوخ، وأنظاره تتنقل ما بين مراقبة مالك وبين نويرة التي ازدادت حركاتها في الدخول والخروج بشكل لا يخفى على عيني رجل، ولكي يثبت لهما بأنه لم يعد غريباً وأن جدار الاحتراز قد سقط، سأل نويرة:

«هل بقيَ شيء من الشاي؟»

جفلت نويرة من سؤال محمد وردتّ بارتباك وفرح:

«نعم».

وأسرعت إلى الداخل، إلا أنها عادت لتقول:

«سأعمل شاياً جديداً».

ثم أضافت بصوت واطئ:

«من عيني».

تطلع محمد في عينيها، فأسبلت جفنيها بحركةٍ، أيقظت في داخله شيئاً غامضاً.

بعد أن تجمّرت الأخشاب، نهض محمد ليتولى بنفسه أمر تحضير السمكة. حاول مالك أن يتدخل إلاّ أن محمداً اعترض، محاولاً أن يبرز خبرته في شواء السمك بمباهاةٍ واضحة التكلف، متحدثاً بفخرٍ عن ماضيه حينما كان حارساً لبستان الحاج رضا، بينا كان مالك ونويرة يصغيان بصمت وإعجاب ويفتعلان الدهشة كأنهما لا يعرفان الحكاية، وبلا وعي منه راح محمد يتحدث عن حياته مذ كان صبياً يعمل ناسخاً

للمخطوطات عند الشيخ نوفل ثم انتقاله للعمل كحارس عند الحاج رضا في البستان التي تعود ملكيتها أصلاً إلى جده هاشم، وحينما بدأ بالحديث عن علاقته ببهيجة لمح أن نويرة دون وعي منها قد تخلت عن احترازها وخطت خطوات مترددة حتى جلست جنب زوجها في الجانب الآخر من دائرة النار. راح محمد يتحدث بلذةٍ عن السيدة بهيجة وعن الحب الذي جمعهما مجترحاً حكاية تختلف تماماً عن الحقيقة، منذ بدء العلاقة، مركّزاً على أن علاقتهما بدأت بعد وفاة الشيخ نوفل حينما طلبت منه السيدة بهيجة أن يكون وكيلاً لها في تشغيل الثروة التي خلّفها لها الشيخ نوفل بعد موته وكيف أنها أعجبت بأمانته وأعجب هو بكرمها وقوة شخصيتها، هذا الإعجاب الذي سرعان ما تحول إلى حب انتهى بالزواج على الرغم من اعتراض الجميع. كان محمد يتطلع إلى عيني نويرة وهما تبرقان بفضول لمعرفة المزيد من تفاصيل حكاية الغرام، وقد التقت نظراتهما في أكثر من مرة، وفي كل مرة تزداد عينا نويرة جرأة وهما تتطلعان إلى وجه محمد، وكلما انشغل زوجها في إذكاء النار أو في جلب شيء من داخل الكوخ، كانت عيناها تنظران إلى محمد بثبات، أو تتحرك بشكل لا إرادي كأن تعدل من وضع غطاء رأسها أو تزيح شيئاً من إزارها فيكشف عما يوقف النظرة على عنقها أو صدرها.

كانت نويرة تبدو في بداية العشرينات من عمرها بينا كان زوجها أصغر من محمد بسنتين، لكنه يبدو هرماً من سواد أسنانه وتجاعيد وجهه وآثار البثور التي تركها مرض الجدري. ربما كانت مجبرة على الزواج منه، ولابد من أنها ليست سعيدة معه الآن.. هل يستطيع إشباع جسدها الفتي؟ كيف لها أن تتقبل رائحته وهو الذي لم يغتسل إلا مرةً في الشهر؟.. هل تحبه؟... استيقظ محمد من غفلته، متداركاً ما شطّ به تفكيره، مؤنباً نفسه في سرّه على استدراج نويرة إلى فخّ المقارنة بينه وبين زوجها، لاعناً الشيطان الذي جعله يسفّ إلى هذا المستوى المنحط من التفكير. أنهى حديثه عن حياته الخاصة بشكل مفاجئ، شاغلاً نفسه

عن وجود نويرة في التحديق إلى النار بصمت أو بتحريك خرزات مسبحته متمتماً بعبارات التسبيح والاستغفار، لكنه ما أن لمح نويرة وهي تنحني لتلتقط شيئاً من الأرض حتى تركزت نظرته على عجيزتها المكتنزة وارتسم شقّ الدرّاقة أمامه، فوجد نفسه وقد أدلق لسانه متلمظاً بشهوة. نهض رافعاً صوته بالتوكل على الله. أخبر مالكاً بأنه سيذهب قليلاً لتفقد البستان والصيادين وسيعود بعد أن ينهي مهمته.

جلس محمد على ضفّة النهر، واضعاً رأسه بين يديه محاولاً إيقاف تدفق الصور في مخيلته. عواء ذئاب في داخله يكاد يسمعه، بهيجة تتجسد أمامه قادمة من ظلام دامس، يتناوب وجهها مع وجه نويرة في احتلال الصورة. شعرَ بسعير شهوة يتصاعد كواؤها من أطرافه فيخرج من منخريه هواء ساخن. مدّ يده إلى قضيبه، كان منتعظاً بشدة. تلّفت إلى جانبيه فلم يلمح أحداً، عندها راح يخضّ قضيبه بسرعة، متخيلاً جسد نويرة وهي عارية أمامه، غير أن الصورة كانت تتسرب من مخيلته لتحل محلها صورة جثة بهيجة فيزداد سعار شهوته. شعرَ بنشوة غريبة وهو يقذف مصحوبة بحرقةٍ شديدة في قضيبه. شعر بخجلٍ من نفسه التي تواضعت لتصل إلى هذا الدرك من الخسّة، إلا أنه حاول اقناع نفسه بأنه لم يقم بهذا الفعل لإشباع شهوته بل للتخلص من توتر جسده وتخبط تفكيره بسبب سطوة التخيلات النافرة عليه. نهض بتثاقلٍ. شعر بدوارٍ يلف رأسه وتسارع في ضربات قلبه، فتوقف قليلاً كي يستعيد توازنه. تقدم نحو جرف النهر. خلع نعله رافعاً أذيال ثوبه، وخطا بحذر في النهر. شعر ببرودة الماء، لكنه لم ينسحب. انحنى. أخذ حفنةً من الماء ورشّ بها وجهه ممرراً كفيه على عنقه وصدره، حتى هدأ، وتوقف لهاثه.

افتعل سعالاً قبل أن يصل إلى كوخ الحارس، وحينما وصل وجد مالكاً وزوجته واقفين بانتظاره. لمح نظرات شوق وابتسامة خفيفة على وجه نويرة. شيء غامض دفعه إلى إبداء تذمره بغضبٍ مفتعلٍ من الصيادين الذين يقضون الليل في ثرثراتهم الفارغة دون أن يخلصوا في عملهم، بينا

كان مالك ونويرة يتطلعان إليه بخوف. انتبه إلى مبالغته الساذجة في إخفاء ما شغله قبل قليل، كمجرمٍ يحاول إخفاء آثار جريمته وإبعاد الشبهة عنه، فتوقف عن الكلام بشكل مُفاجئ، مفتعلاً إلتفاتةً إلى النار. كانت السمكة جاهزة والسفرة مفروشة داخل الكوخ.

رفع محمد كمّيه وهو يبسمل. تردد مالك في الجلوس مفتعلاً حركات لا مبرر لها، حتى ناداه محمد. جلس بخجل. مدّ محمد يده إلى بطنِ السمكة وأخذ منها نهشةً بأطراف أصابعه، وقبل أن يضعها في فمه توقف، وهو يسأل باستغراب:

«أين زوجتك؟ ولماذا لم تشاركنا في الأكل؟»

شعرَ مالك بالإحراج، وتلعثم. أدرك محمد ما يدور في ذهنه، فقال بأسلوب وعظي:

«لا.. يا مالك.. لا فرق بين رجل وامرأة.. كلنا أمام الله بشر...»

ثم أضاف دون وعي منه لطمأنة مالك:

«ولا تنسَ.. الآن أصبح بيننا زاد وملح».

خرج مالك، ثم عاد دون أن يرفع رأسه عن الأرض. دخلت نويرة وجلست جنب زوجها ووجهها إلى الحائط، ولكي يثبت محمد لهما ما يؤمن به، راح يتحدث بإجلال عن المرحومة بهيجة ومشاركتها له في كل أمور حياته، وبكلام لم يسمعاه من أحد. لم يكتفِ بهذا، بل راح يطري ذوق نويرة في استعمال الكميات المناسبة من الملح والبهارات وهو يتطلع إليها بنظرات ثابتة، وكان مالك يهزّ رأسه موافقاً على ما يقوله محمد وتتغير ملامحه، محاولاً إخفاء رفضه وارتباكه.

بعد أن انتهوا من الأكل وشرب الشاي، كان الفجر قد لاحَ وتسرب ضوؤه إلى داخل الكوخ. استأذن محمد في الذهاب بكلامٍ متواضعٍ زاد من ارتباك مالك ونويرة، وقبل أن ينهض، حشرَ بحركةٍ مرئية تحت السجادة رزمةً من الأوراقِ النقدية. غادرَ رافعاً صوته حمداً وشكراً للرازق. حاول مالك أن يصحبه إلاّ أن محمداً أوقفه. فتوقف منحنياً

بوضع أقرب إلى الركوع وهو يضع يده على رأسه ويردد دعاءً لحفظ صاحب النعمة.

تمدد محمد على سريره وهو يحدق إلى السقف. ارتسمت أمامه صور غائمة ومتداخلة ببعضها البعض لنفسه وهي ترتقي وتسفّ، تضع قدماً في الفضاء وأخرى غاطسة في الوحل. شعر بخوفٍ. أغمض عينيه، لم تختفِ الصور بل ازدادت وضوحاً جارحاً. غطى رأسه باللحاف. حاولَ أن ينام ما تبقى من وقت قبل وصول العربة التي ستأخذه إلى المدينة، إلا أنه لم يستطع. صورة نويرة لم تفارق مخيلته، ورغبة غامضة تدفعه إلى الاستحواذ عليها، رغبة أكبر من شهوة جسدية، كلما حاول احتقارها اشتدّ إوار سطوتها على جسده وعقله.

فجأةً شعر بأن مفتتحاً لقصيدة راح يطرق ذهنه. راح يترنم بإيقاعها وقد وجد فيها إنقاذاً له من هجوم الأفكار السود التي داهمته. جلس على سريره واستل ورقة وراح يكتب:

قَدَرٌ أنْ

نحتفي باللوعةِ الحَرّى

وبالطُهْرِ الذي نخشاهْ

قَدَرٌ أنْ

يحتفي اللقلقُ بالشاهقِ

لكنْ يُرهِفُ السمعَ إلى ضفدعةٍ

قَدَرٌ أنْ

يحتفي الأبيضُ بالماضي

ويُصغي للرمادْ

يا بياضي

يا بياضي

حكمةٌ ميّتةُ اللحنِ

ومجبولٌ على ترديدها

أعاد قراءة القصيدة عدة مرات بفرحٍ وهو يشعر بأنه استطاع أخيراً أن يكتب قصيدة بعد أن تيقن بأن شيطان الشعر قد غادره حينما حلت محله شياطين أخرى، لكنّ صوتاً غامضاً من أعماقه بترَ فرحه، ساخراً:

«من هو اللقلق؟.. ومن هي الضفدعة؟»

انتبه محمد إلى خبث شيطانه الذي يسعى إلى فضح ما يفكر فيه دون أن يعلم. شعر بخجلٍ من افتضاح سوءته، فمزّق الورقة إلى قصاصات صغيرة، لكنه عاد وجمعها. أخرج عود ثقاب وأحرق القصاصات وهو يتطلع إليها ليتأكد من إخفاء آثار شيطانه تماماً.

سمع صوت صهيل الحصان فأدرك بأن العربة التي تنقله إلى المدينة قد وصلت. خرج من الغرفة وهو يمطّ ذراعيه في الهواء. رأى جبير ابن الغواص قد وصل تواً. احتضنه بشوق كأنه لم يره منذ زمن طويل. أخبره بأنه سيبقى في المدينة بضعة أيام.. وربما لن يعود.

* * *

(١٧)

وصلَ محمد البستان بصحبة رئيس المخفر ورجلين من الدرك في عربتين تجرهما الخيول. استقبلهم العمال مذعورين وهم يشيرون إلى كوخ الحارس مالك. توجهت العربتان إلى هناك. ترجل محمد ورئيس المخفر وقد سبقهما الدركيان وراحا يزيحان بهراواتيهما العمال والنساء الذين تجمعوا عند باب الكوخ. كانت جثة مالك ملقاة على الأرض، مغطاة بشرشف أبيض مصفرّ. وقف محمد ورئيس المخفر على جانبي الجثة وهما يفتعلان الصلابة. أمر رئيس المخفر أحد رجليه أن يزيح الغطاء عن الجثة، ففعل. كان الدم قد تخثر على وجه مالك وصدره وظهرت آثار خدوش عميقة على العنق والساقين. وقف محمد متجمداً في مكانه بينا انحنى رئيس المخفر، وبحركة استعراضية واضح غباؤها راح يتلمس بطرف سبابته وبحذر طبقة الدم المتخثر، والعمال ينظرون بفضول إلى ما سيقوله وسط صراخ نسوة تجمعن محيطات بأرملة مالك، حتى محمد نفسه كان بانتظار ما يأمر به رئيس المخفر الذي نفخ صدره وسط جمهرة الخائفين. أمر الدركيَّ بإشارة من يده أن يعيد الغطاء على الجثة. تطلع في وجوه الرجال بغطرسة وعبوس دون أن ينطق بكلمةٍ، ثم أمر رجليه بأن يحملا الجثة إلى العربة. حاول أكثر من رجل أن يستفسر عن السبب، إلاّ أن رئيس المخفر ظل صامتاً يتطلع إلى جهة بعيدة ويضرب ساقه بهراوته. بعد فترة من الصمت حاول استطالتها، قال:

«لابد من نقل الجثة إلى المستشفى.. لتشريحها».

اعترض بعض الرجال، وارتفع صوت النسوة بالعويل، إلاّ أن رئيس المخفر راح يؤكد:

«لابد من تشريح الجثة لمعرفة أسباب الوفاة.. وكتابة تقرير عن ذلك».

حُملت الجثة على إحدى العربتين وغادرت، يصحبها أحد الدركيين بأمر من رئيس المخفر، الذي جلس على الأرض فاتحاً دفتره الكبير، وراح يستجوب الشهود. قال أحد الصيادين:

«كان مالك واقفاً معنا حينما ارتفع عواء الذئاب بشكل غير مألوف».

توقف، فصرخ رئيس المخفر به أن يكمل كلامه. قال الصياد بسرعة كأنه يحاول التخلص من حملٍ ثقيل عن كتفه:

«حمل مالك عصاه وذهب باتجاه الصوت».

«أين؟»

سأل رئيس المخفر، فأجاب الصياد بتردد:

«هنااااك».

وأشار إلى الجهة الشمالية من البستان.

«وماذا بعد؟»

سأل رئيس المخفر بامتعاضٍ من بطء إجابة الصياد، فردّ بارتباك:

«لا شيء.. لم نسمع عنه شيئاً».

«وكيف عرفتم بوفاته؟»

ردّ صياد آخر:

«بعد شروق الشمس بقليل جاءت حرمته تسأل عنه».

هزّ رئيس المخفر رأسه وهو يحث المتكلم على مواصلة حديثه، فأضاف:

«بعد ذلك بقليل.. سمعنا صرخات حرمة المرحوم فركضنا باتجاه الصوت».

صمتَ رئيس المخفر قليلاً، ثم سأل بطريقة لا تخلو من الخبث:

«وكيفَ استدلتْ حرمته عليه بوقت قصير؟»

ارتبك الصياد فصمت، وحينما كرر عليه السؤال بنبرة مرتفعة، أجاب بخوف:

«لا أدري.. ربما.. لأنها سمعت نباحاً يطلقه كلبهما».

تكررت الشهادة على لسان كل الذين رأوا المشهد بتطابق تام، فهزّ رئيس المخفر رأسه ماطاً شفتيه، ثم أطبق دفتره، إعلاناً عن انتهاء التحقيق، لكنه أشار إلى أن ما قام به هو تحقيق أولي، وربما سيقوم المخفر باستدعاء البعض للإدلاء بشهادته:

«هذا يتوقف على نتيجة التشريح».

قالَ ماطّاً كلمةَ (التشريح)، على الرغم من إدراكه بأن الكلمة تغيظ السامعين لما يعتقدونه من انتهاك لحرمة الميت وتمثيل بجثته ترفضه تقاليدهم ويحرّمه شرعهم. نهض، فنهض الجميع وهم يتطلعون إليه بوجوه تلوح عليها علامات الحزن والارتباك. طلب من الصياد الذي أدلى بشهادته أن يدلّه على المكان الذي وجدوا فيه المرحوم ميتاً، فأسرع راكضاً يسبقه، وخلفه سار أغلب الرجال إلا محمداً، فقد بقي مع عدد قليل من رجاله في المكان لسبب يجهله. دار رئيس المخفر في المكان متوغلاً قليلاً بين بقايا أشجار الأثل وعيدان القصب اليابسة، مستعرضاً أمام الحاضرين خبرته الشميّة في كشف مكمن الجاني حتى لو كان ذئباً، وإلقاء القبض عليه. توقف عند موقع الجثة ويده على خصره بينا يده الأخرى تهزّ الهراوة بحركة عبثية. سأل بلهجة متواضعة تبدو غايتها الاستفسار لا التحقيق، عن سبب امتناع الذئاب عن افتراس مالكٍ ونهش أعضائه والاكتفاء بقتلهِ. سؤال لم يخطر في ذهن أحد منهم، فراحوا يتطلعون في وجوه بعضهم، حتى أجاب أحد الصيادين ممن رأوا الجثة أول مرة:

«كان كلبه يقف جنبه».

هزّ رئيس المخفر رأسه مقتنعاً بما قاله الشاهد، وقد حاز على ثناء الموجودين لفطنته التي أنقذتهم من فخ الأسئلة التي كان يطرحها رئيس المخفر دون أن ينظر في وجوههم، فقد كان يتطلع إلى كل الجهات بما فيها الأرض والسماء نافخاً صدره كأنه يبحث عن شيء غامض، حتى

أقفل راجعاً. كان محمد يقف قريباً من كوخ مالك مع بضعة من رجاله يتحدثون بهمس وإجلال يفرضه الموقف. صمتوا حينما اقترب منهم رئيس المخفر، فتطلع إليهم، وبنظرة استعلاء خاطبهم وهو ينظر إلى محمد بنظرة مخاتلة:

«لماذا سكتم؟»

تطلع محمد إليه بغضب، وقال بصوت يسمعه الجميع:

«انظرْ في عملك فقط.. ولا تتدخلْ في ما لا يعنيك».

ولكي يجهز عليه، أضاف بلهجة احتقار:

«هل فهمت؟»

هزّ رئيس المخفر رأسه وهو يحاول إزدراد الإهانة بابتسامة بلهاء. جاء أحد الرجال حاملاً إبريقَ شاي كبيراً وعدداً من الكؤوس الصغيرة، وقبل أن يسكب الشاي، طلب من الحاضرين قراءة سورة الفاتحة على روح المرحوم. وقف الجميع رافعين أكفهم إلى السماء وهم يتلون الفاتحة بصوت هامس.

سأل رئيس المخفر وهو يحرك الملعقة لإذابة السكّر:

«هل حدثت مثل هذه الحادثة من قبل؟»

صمتَ الجميع، هازين رؤوسهم بالنفي، فاعترض أحد الصيادين:

«بلى.. لقد حدثتِ من قبل».

نظر الجميع إليه، فقال وهو ينظر إلى محمد بنظرة تطلب التأييد لما يقول:

«قبل سنوات افترست الذئاب إثنين من رجال الحاج رضا».

هزّ محمد رأسه مؤكداً ما قاله الرجل، فوجد رئيس المخفر فرصته للثأر من محمدٍ فراح يكيل اللوم على الجميع بسبب عدم أخذ الاحتياطات اللازمة لهذا الأمر، ولكي يثبت أمام الجميع خبرته في الكشف في بواطن الأمور، سألَ بشكل مخاتلٍ:

«وهل حدث أن هوجمت حظائر الأغنام؟»

«لا».

أجاب الجميع بصوت واحد، وقبل أن يطرح سؤاله الذي يظن أنه سيحرج محمداً ورجاله، قال محمد:

«الحظائر محروسة بشكل جيد».

سُمع صوت هامس لكنه مسموع بوضوح:

«مَن قالَ لكم إنها الذئاب؟»

التفت الجميع إلى مصدر الصوت الساخر الغريب، فرأوا عبيد الحنظل جالساً ضمن الموجودين، وقد غطى وجهه بلثام لم يكشف سوى عينين عليلتين. رحب بعض الرجال به بعد أن أماط لثامه. طلب منه رئيس المخفر أن يقترب، فاقترب الحنظل وهو يتوكأ على عصاه. سأله رئيس المخفر بطريقة محقق مسكَ بطرف الحقيقة الغائبة:

«ماذا تقصد بكلامك؟.. ومن يكون القاتل إنْ لم تكن الذئاب؟»

ارتجف عبيد الحنظل وهو يقف أمام رئيس المخفر، ثم قال بتلعثم:

«أقصد.. ربما جنيّ أو جنيّة هو من قتلَ مالكاً».

زفرَ رئيس المخفر وهو يشير بيده إلى عبيد الحنظل أن يبتعد، وارتفعت أصوات البعض ساخرة، فعاد ليؤكد كلامه:

«والله العظيم.. أنا رأيت مرةً بعينيّ هاتين اللتين ستأكلهما الدود.. امرأةَ في البستان.. وحينما اقتربتُ منها تحولتْ إلى ذئب».

نطّت ضحكة من رئيس المخفر فتداركها، واضعاً كفّه على فمه. تطلع عبيد الحنظل في وجوه الحاضرين، ثم قال وهو يرتعش:

«أعرف أنكم لن تصدقوني.. ولكنْ.. اسألوا محمداً.. لقد كان معي تلك الليلة».

أدرك محمد ما يعنيه الحنظل، فقال ساخراً:

«لعنك الله يا عبيد كيف تشهدني على أمر لا أعرف عنه شيئاً».

لم يترك مجالاً لعبيد ليعترض فأضاف بما قالته بهيجة عن تلك الحادثة التي يتحدث عنها عبيد الحنظل والتي يتذكرها جيداً:

«ربما رأيت نفسك يا عبيد وقد تحولت إلى ذئب».

ثم أضاف عبارة غامضة، هزّ لها رئيس المخفر رأسه دون أن يدرك معناها:

«أحياناً يرى الخائف نفسَه وقد تجسّدتْ أمامه».

طأطأ عبيد رأسه خجلاً وعاد إلى مكانه.

في عصر اليوم نفسه، وضع جثمان مالك على عربةٍ يجرّها حصانان بعد أن تمت الصلاة عليه في مسجد المدينة الكبير. سار موكب التشييع يتقدمه محمد وعلي وجبير وسلمان العجمي وعدد قليل من العمال والمزارعين الذين جاء بهم محمد معه من البستان. كان مشهداً لم يألفه الناس، فلأول مرة ينقل جثمان على عربةٍ. مَن هو هذا الميت الذي يشارك محمد نفسه بتشييعه؟. كان هذا السؤال يتردد على ألسنة الناس، وحينما كانوا يحصلون على الجواب يندفعون منضمين إلى موكب التشييع، حتى تحول الموكب إلى ما لم يحظَ به أيّ من أشراف وأعيان مدينة الهاشمية، وكانت نظرات الإكبار تحيط محمداً الذي لم يروا تاجراً غيره قد فعلها من قبل مع أجيرٍ لا يرتفع شأنه عن شأن العبد، لكن هذا لم يمنع بعض الخبثاء ممن يتصيدون أي فرصةٍ للنيل من محمد، من أن يقول:

«يقتل القتيل ويمشي بجنازته».

وقال أحد المتحذلقين في ما بعد:

«لكل يوسف ذئبٌ بريء».

بعد أن انتهى مجلس الفاتحة الذي أقيم في مسجد المدينة الكبير وحضر محمد أيامه الثلاثة، كأنه هو وليّ الراحل، وفي صباح اليوم الرابع جاء محمد إلى البستان. جمعَ كل الرجال الموجودين. طلبَ من أحد المزارعين أن يذهب إلى الشيخ مزاحم ويأتي به حالاً. لا أحد من الرجال يعرف سبب استدعاء محمد للشيخ الكبير في السن، ولكن الجميع يستطيعون تخمين أن الأمر يتعلق بالمرحوم مالك، فهو رئيس

عشيرة الرمضاء التي ينتمي إليها أغلب المزارعين والصيادين والذين يقيمون على ضفتي النهر. حضر الشيخ مزاحم يدب على عصاه. هرع محمد إليه مقبّلاً كفّه بحركةٍ جعلت الحاضرين يتسمرون في أماكنهم وهو يراقبون المشهد بذهول. احتضن الشيخ مزاحم محمداً وراح يشمّه بعمق كجد يحتضن حفيده، مردداً كلمات مديح وترحيم على روح الشيخ هاشم البطل وروح الشهيد منصور، فقد كان الشيخ مزاحم من ضمن المجاهدين الذين اشتركوا مع الشيخ هاشم في الهجوم على ثكنة الغرباء وقتل كلّ من فيها، ذلك الهجوم الذي أدى إلى انسحاب جيش الغرباء من مدينة سن الصخر والإعلان عن استقلال الولاية. انفرد محمد بالشيخ مزاحم وراحا يتهامسان بعيداً عن مسامع الرجال، ولأول مرة يعرف محمد بأن مالكاً لم يكن من آل رميض، بل إنه جاء إلى العشيرة دخيلاً، هرباً من أعداء يطلبون رأسه ثأراً، فآواه الشيخ مزاحم وضمّه إلى عشيرته. مشى الشيخ مزاحم متكئاً على كتف محمد باتجاه كوخ المرحوم مالك. خطا بعض المزارعين بخطى مترددة بالإتجاه نفسه، وحينما لم يلحظوا اعتراضاً من محمد انضم إليهم بقية المزارعين يدفعهم الفضول لمعرفة ما سيحدث. توقفوا على مبعدة من الكوخ وهم ينظرون إلى الشيخ مزاحم ومحمد وقد توجها نحو الباب. توقفا قليلاً. طرق محمد الباب، ثم انسحب إلى حيث يقف المزارعون، بينا دخل الشيخ إلى الكوخ. حاول البعض أن يسأل محمداً عمّا ينوي فعله إلاّ أن محمداً صدّه بنظراتٍ غاضبة فانسحب. مضى وقت ليس قصيراً، حتى خرج الشيخ مزاحم. وقف في باب الكوخ. بعد دقائق خرجت امرأة مجللة بالسواد ولا يُرى منها شيء. أشار إليها الشيخ أن تتوجه إلى العربة. قبل أن تصعد، ظهرَ أنها تحمل بقجةً ليست كبيرة، وضعتها في العربة وصعدت بحذر. نادى محمد جبير بن الغواص بصوتٍ عالٍ على الرغم من أنه يقف قريباً منه، وبصوت يسمعه الجميع خاطبه:

«إذهبْ لتوصل الأرملة إلى بيت أختي سميّة!»

هزّ جبير رأسه وأسرع نحو العربة، وقبل أن يصعد ناداه محمد ثانية:
«أوصِ أمّك بأن تكرم الضيفة!»
ثم أضاف بصوت واطئ، يسمعه الحاضرون:
«حتى يأمر الله بما فيه الخير».

بقي محمد مقيماً في البستانِ بضعة أيام، كأن شيئاً في داخله يدعوه لإثبات براءته من دم مالك والاستحواذ على زوجته التي سحره جمالها وتمنى لو أنه يحصل عليها. أغدق خلال هذه الأيام على من حوله بالهدايا والولائم وكذلك بالحديث بلسان المتواضع الذي لا يرى فارقاً بينه وبين الآخرين مهما علا صيته وازدادت ثروته. كان الحديث غالبا ما يدور عن الحياة والموت والأعمال الصالحة التي سيتركها الإنسان بعد رحيله عن هذه الحياة الفانية ولن ينفعه ماله أو بنوه إلا من تركَ ذكراً طيباً بين الناس يشفع له عند ربه يوم القيامة، وفي كل حديث كان الجميع يسألونه بتوسلٍ عن التدابير التي يجب اتخاذها للحد من خطر الذئاب وكيلا يتكرر ما حدث لمالك، وكان محمد يعدهم بأنه سيفعل.

اجتمع محمد بعلي وسلمان العجمي وجبير بن الغواص وعدد من الرجال الذين يقيمون على ضفتي النهر لإيجاد طريقة لدرء خطر الذئاب. اتفق الجميع على ضرورة مدّ أسلاك شائكة حول البستان ومزارع الحنطة المحاذية لها. قابل محمد الاقتراح بالرفض على الرغم من إتفاق الجميع بأنها الوسيلة الوحيدة للحماية من الذئاب، لكنّ محمداً كان مصرّاً على رفضه دون أن يعطي مبرراً لذلك، وحينما عجزوا عن تقديم اقتراح آخر، راح محمد يهوّن من خطورة الأمر مقترحاً زيادة عدد كلاب الحراسة حتى ينظر بالأمر مرة ثانية.

شعر محمد بالارتياح لعدم معرفتهم سبب رفضه لاقتراحهم، فتأكد بأن أقرب الناس إليه لم يستطع أن يعرف فيمَ يفكر، وهذا الأمر ضمانة لتنفيذ ما يدور في ذهنه بسريةٍ لا يعلمها حتى المقربون إليه، فقد كان محمد يفكر بأنه لو وضع أسلاكاً شائكة لجعلها حدوداً مرسومةً لأملاكه،

وهذا يمنعه من تنفيذ خطته في الإسراع في التمدد والاستيلاء على الأراضي المجاورة والتي لا تعود ملكيتها لأحد دون أن يلفت الانتباه إليه، لتشمل الأراضي التي تقع خارج حدود مدينة الهاشمية والتوغل إلى أكبر مساحة ممكنة.

عاد محمد إلى المدينة بعد أن اطمأن إلى أن صفحة الحارس مالك قد أوشكت تطوى وعاد العمل في البستان والأرض كما كان في السابق. قام بنقل نويرة ولؤلؤة إلى بيت بهيجة، بينا هو أقام في بيت مناف، على الرغم من الجفوة الكبيرة بينه وبين زوجة أخيه، إلاّ أن هناك ما يدعوه لتجاوز هذا الأمر بالصمت على ما تتفوه به من كلمات مسمومة تدل على الغيرة والحسد، أو بالإغداق عليها بهدايا ثمينة ليس باستطاعة زوجها أن يقدمها إليها. كان دافعه من هذا هو التقرب من ولديْ أخيه جعفر وعقيل وقد تجاوزا سن العاشرة بقليل، وعليه أن يكسبهما لجانبه، فهما الجيل الهاشمي الجديد الذي سيرث هذه الثروة الكبيرة والسطوة اللتين جاهد من أجل الحصول عليهما، ولابد من أن يضمن استمراريتهما بعد موته.

سرتْ شائعة لم تأخذ حظاً كبيراً من الانتشار بين الناس، ألا أنها شغلت ذهن محمد كثيراً. تقول الشائعة بأن لمحمد يداً في مقتل الحارس مالك، على الرغم من عدم وجود أي دليل على ذلك، وأن الذين شاهدوا الجثة رأوا بأعينهم آثار مخالب الذئب، وقد أيد هذا تقرير المستشفى، إلاّ أن البعض راح يختلق تهيؤاتٍ لا يصدقها العقل، لكنها تخترق الآذان دون أن تمر بالرؤوس فتتحول إلى قصص تُروى في المقاهي والمجالس كحكاية أخوة يوسف والقميص الملطخ بالدم المزيف. لم يعر محمد اهتماماً لما أشيع، ولكن الذي شغله هو مَن الذي أطلق هذه الشائعة، ودون أن يتقصى مصدرها، كان على شبه يقين بأن عبيد الحنظل هو من يقف وراء ذلك، خاصة وأنه الشخص الوحيد الذي يعرف بزيارات بهيجة له حينما كان حارساً في البستان، وحاول في أساليب شتى أن يمسكَ دليلاً ملموساً على ذلك لكي ينتقم من محمد

ثأراً لدمِ أبيه الذي أعدمه الشيخ هاشم بسبب خيانته وتعامله مع جيش الغرباء. أما حكاية الجنية أو المرأة التي تحولت إلى ذئب والتي لم ينسها عبيد الحنظل، فأن محمداً نفسه لم يكن واثقاً من بطلانها، فقد ساوره الشك فيها، وأنّ ما قالته له بهيجة وقتذاك لم يذب رصاص شكّه.

«لابد من وضع حدّ لهذا العبيد».

ردد مع نفسه، لكنه لا يعرف الوسيلة لذلك، فقد فشلتْ محاولته لإسكات عبيد الحنظل بالمال. دارت في ذهنه فكرة للتخلص من عبيد الحنظل، إلا أنه فضّل تأجيل تنفيذها لحين عودته من الرحلة التي عليه القيام بها إلى الساحل الشمالي وإلى مركز الولاية للتفاوض حول مسألة مدّ أسلاك الكهرباء والهاتف لتشمل كل المناطق والأحياء السكنية في الهاشمية. فجأة تذكر ما اقترحه عليه الطبيب كاروليان ووصفة الدواء التي كتبها له. شعر بشيء من الفرح، فقد تذكّر أن الوصفة قد وضعها في خزانة الكتب الموجودة في البيت. وجد بهذا الأمر حجة لزيارة البيت، وربما سيلتقي هناك بنويرة.

طرق الباب ووقف على بعد بضعة أمتار. فتحت لؤلؤة الباب فطلب منها أن تخبر السيدة بأنه جاء لغرض أخذ حاجة مهمة من البيت.

شعور غريب طفحَ في نفسه منذ الوهلة الأولى التي دخل فيها الصالة، فقد أحس بأن رائحة بهيجة لا تزال تعبق في هواء البيت، عطرها، بخورها، رائحة أنفاسها، وحتى رائحة الطهي. رفع صوته وهو يسأل لؤلؤة عن صحة وأحوال السيدة، فأجابت بأن كلّ شيء على ما يرام. دخل غرفة مكتبه بعد أن تنحنح وهو يجتاز المسافة الفاصلة ما بين الصالة وغرفة المكتب. أول شيء فعله، راح يتفحص أشياءه ليتأكد من أن لا أحد قد عبث في صناديق أسراره أثناء غيابه عن البيت على الرغم من أنه متأكد من أن صناديق أسراره المهمة موجودة في السرداب الذي لا أحد يملك مفتاحه غيره. استلّ من خلف إطار اللوحة المعلقة على الحائط وصفةَ الدواء التي كتبها له الطبيب كاروليان، ووضعها في جيب

سترته الداخلي، لكنه بقي يبحث عن أشياء أخرى مصدِراً أصواتاً واضحةً ليبرر لنفسه وجوده في البيت بعد أن انتفى مبرره. جلسَ على كرسي خلف مكتبه وراح يقلب أوراقاً قديمةً. كانت عيناه تراقبان الستارة الفاصلة ما بين غرفة المكتبة والحوش، متوقعاً أن يرى ظلاً يخطو خلفها أو يسمع أنفاساً مكتومةً لمصغٍ دفعه الفضول أو شيء آخر. جفلَ من سرحانه حينما أزاحت لؤلؤة الستارة ودخلت حاملة صينية صغيرة عليها كأس شاي. وضعتها على سطح المكتب وانسحبت بتردد. أدرك محمد أن لؤلؤة تنتظر منه إشارة للبقاء. ناداها باسمها وأشار إليها بيده أن تجلس، فاختارت أن تجلس على الأرض، بينا انشغل هو بتقليب دفاتر القديمة موهماً لؤلؤة بأنه يبحث عن شيء مهم. ارتشف قليلاً من الشاي فجفلتْ حواسه كلها دفعة واحدة، إذ ذكّره طعم الشاي برائحة الهيل، بالشاي الذي كانت تنفرد بعمله بهيجة بنكهةٍ يستطيع محمد تمييزها لو عامَ ببحرٍ من الشاي. تطلع إلى لؤلؤةٍ بنظرات ذهول، وسألها:

«من عمل الشاي؟»

«أنا».

«لا تكذبي».

ردّ عليها محمد بشيء من الغضب، فارتسمت على وجهها علامات رعب. طأطأت رأسها، وقالت بصوتٍ مرتعش، كأنها تحاول إبعاد تهمةٍ عنها:

«السيدة نويرة هي التي عملت الشاي».

افترت شفتا محمد عن ابتسامةٍ غامضة، جعلت لؤلؤة تزفر بصوت مسموع كأن ثقلاً أزيح عن صدرها. طلبَ كأساً أخرى من الشاي معرباً أمام لؤلؤة وبصوت عالٍ عن استحسانه لنكهة الشاي التي لم يذق مثلها منذ وفاة المرحومة. تطلع إلى وجه لؤلؤة وسألها:

«هل تحتاجان إلى شيء؟»

هزّت لؤلؤة رأسها نافية، على الرغم من أنه لمح في بريق عينيها

كلاماً يحاول أن ينفلت من لسانها. كرر سؤاله فلم يسمع منها سوى عبارات الشكر لله وله على النعمة. نهض بعد أن أكمل شرب الشاي، رافعاً صوته بالتوكل على الله، وقبل أن يغادر طلب من لؤلؤة أن تسأل السيدة إنْ كان ينقصها شي. ذهبتْ وبعد لحظات سمعهما تتهامسان لكنه لم يفهم أي شيء، وحينما عادت سألته:

«تقول السيدة.. إلى متى سأبقى هنا؟»

فردّ محمد بصوت تسمعه نويرة وبطريقة صارمة لا تترك مجالاً للإعتراض أو النقاش:

«بعد أن تنهي عدّتها.. سأقرر أنا».

ثم أضاف:

«لقد أوصيتهم بأنهم سيبعثون إليكما كل ما تحتاجان إليه لحين عودتي من السفر».

ولكي يؤكد ما أراد إيصاله، كرر:

«سأسافر بعد يومين.. وسأعود قبل انتهاء المدّة».

سمع صوتاً هامساً يردد من وراء الجدار:

«مع السلامة.. الله معاك.. تعود بالسلامة».

على خلاف ما اعتاد عليه محمد من التستر على موعد سفره وموعد عودته، فقد أعلن هذه المرة أمام الكثيرين عن نيته السفر إلى مركز الولاية لترتيب بعض الأمور التي تخص عمله، فجرى له توديع غير مألوفٍ اشترك فيه سلمان العجمي والحاج رضا وجبير الغواص وبعض من رجاله بموكب مهيب لراجلين وآخرين في عربات تجرها الخيول، وبطقس لم تعرفه المدينة من قبل، حيث رُمي الرز على رأسه وسُكبت جرادل الماء خلفه. وحينما وصل الموكب إلى المدخل الشمالي لمدينة الهاشمية، وقف الجميع ملوحين بأياديهم تلويحة الوداع، حتى غاب محمد عن أنظارهم.

بعد ثلاثة أيام من سفر محمد، ولما يزل موضوع سفره و«البدعة

الغريبة التي ابتدعها خارجاً عمّا ألفوه من تقاليد الآباء والأجداد» شاغلاً الناس، ولا حديث لهم في المقاهي والمساجد سواه، حدث أمر أعاد الخوف إلى النفوس التي أوشكت تنسى حادثة مقتل الحارس مالك، ففي فجر اليوم الرابع لسفر محمد وجدت جثة عبيد الحنظل ملقاة على جرف النهر وعليها آثار مخالب ذئب.

* * *

(١٨)

انتبه الأولاد الصغار أولاً. توقفوا عن اللعب في الزقاق وهربوا إلى بيوتهم خائفين. بعد لحظات فتحت الأبواب والنوافذ وأطل رجال ونساء. كانت أنظارهم مشدودة إلى الجهة الشمالية. انفلت أحد الصبيان من يد أمه الخائفة. وقف على تلّ من التراب يرتفع قليلاً عن الأرض. لفّ أصابع كفيه على شكل ناظورٍ وراح ينظر فيه. صرخ:

«أرى وحشاً يسير باتجاه المدينة».

ركض أحد الرجال باتجاه التل. أزاح الصبي ووقف على القمة. وضع كفّه اليمنى فوق عينيه وراح يتطلع إلى جهة الوحش القادم. كان الجميع ينتظرون منه أن يخبرهم بما يرى، إلا أنه ظلّ صامتاً، وحينما طلبوا منه أن يخبرهم بعد أن نفد صبرهم. أجاب دون أن ينزل كفه عن جبهته:

«أرى عاصفةً من الغبار قادمة نحو المدينة».

ولكي يعطي للخبر أهمية أكبر، صرخ:

«أغلقوا الأبواب والنوافذ قبل أن تصل العاصفة».

نزل من التل مسرعاً نحو بيته، فصعد الصبي ثانية.

كانت سَورة الغبار تتقدم ببطء نحو المدينة، وكان الصبي يعلن عن وجود سعلاةٍ من حديد تختبئ في عاصفة الغبار الزاحفة نحو المدينة. أحد الرجال شعر بالخجل من جرأة الصبي فتقدم ليرى الأمر، مستعرضاً شجاعته أمام الرجال الذين اختبأوا خلف الأبواب والنوافذ. لم تمض سوى أقل من دقيقة حتى أطلق الرجل صرخةً تدل على الإبتهاج:

«إنها سيارة.. سيارة تدخل مدينة الهاشمية».

فتحت الأبواب ثانيةً وخرج الرجال والنساء والأطفال ليروا كتلة الحديد التي تدب على الأرض، وقد سمعوا عنها كثيراً لكن القليل منهم قد رآها.

ركضوا في اتجاه القادم من الشمال، ليلتقوا بحشود أخرى انطلقت بالإتجاه نفسه. تجمعوا عند المدخل الشمالي لمدينة الهاشمية. حاولت السيارة أن تجتاز الحشود إلاّ أن البعض من الرجال والأطفال شكّلوا جداراً أمامها، فاضطر السائق الغريب إلى إيقافها. تجمعوا حول السيارة وكل منهم يزيح الآخرين بمنكبيه كي يقترب منها ويحظى بفرصة لمسها للتأكد من أن هذا الكائن الذي يدب على الأرض مصنوع من الحديد وليس من لحم ودم. كانت نوافذ السيارة مغطاة بالغبار سوى الزجاج الأمامي الذي رأوا من خلاله السائق الغريب بوجهه الأحمر وعينيه الزرقاوين. فتح الباب الخلفي للسيارة وترجل منها رجل ما كادوا يعرفونه، فهو يضع على رأسه قبعة دائرية الشكل، عريضة، من القش، يغطي حوافها جلد بني اللون. يرتدي بنطلوناً وسترةً من قماش حريري أسود وتحت السترة صديرية قصيرة، بالكاد تغطي حزامه، وبجيبين صغيرين على جانبيها وجيب صغير ثالث عند الصدر تدلّت فيه سلسلة فضية. كان يمسك بيده صولجاناً أبنوسياً مرصّعاً بأحجار زمردية وينتهي بأكرة على شكل رأس أفعى من نوع الكوبرا. رفع نظارتيه السوداوين العريضتين لتستقرا على جبهته، فتوقف الجميع متسمرين وهم ينظرون بذهول إلى محمد بهيئته الجديدة وقد بدا كأنه من رجال الإفرنجة الذين شاهدوهم في الصور.

«محمد!!»

صرخ الجميع وتقدموا منه مرحبين ومهللين لعودته. رفع يده وهو يحيي الذين تجمهروا حوله، مادين أذرعهم لمصافحته، بينا راح بعض الأطفال ينط على السيارة أو يحاول بعضهم رؤية ما في داخلها.

ارتفع صوت رجلٍ، جاء راكضاً:

«ها.. ها.. ها...»

التفت الجميع إليه. كان جبار الغجري، قد جاء لينضم إلى الحشد وهو يشد ذيل دشداشته كاشفاً عن ساقيه النحيلتين بشعرهما الأسود الكثيف. رفعه أحد الرجال على كتفيه، والكل ينظر إليه منتظراً ما تجود به قريحته في المناسبة، وكل منهم يدعو الآخر للصمت كي ينتصتوا إليه. رفع سبّابته وهو يهتف بصوته الجهوري:

«أنَهْ من هناكْ جيتكْ بالمكينه

بظهرْ هِدْسِنْ وتّهِضّبْ بالطَبانِ

والشوفير من المدارسْ جاذبينه

أرمني يجدحهه جدْحَ الحصانِ»

صرخ الحاضرون، مستحسنين ما قاله جبار الغجري، طالبين منه الإعادة، فراح يكرر ما قاله، حتى صرخ أحد الواقفين:

«ها.. ها.. ها...»

ردد الجميع خلفه:

«ها.. ها.. ها...»

توقف الرجل قليلاً، ثم انطلق صوته هازجاً:

«شفنه كثيرْ وبعد نشوفْ.. إبشرْ يا هاشم.»

فراح الرجال يرددون ما قاله الرجل وهم يركلون الأرض بأقدامهم، دابكين بإيقاعٍ منتظم، رافعين أطراف كوفياتهم بأقصى امتداد لأذرعهم.

حضر الحاج رضا يتقدمه إثنان من رجاله. راحا يزيحان المتجمهرين كي يفسحا الطريق أمام سيدهما، الذي تقدم نحو محمد بحركة استعراضية فاتحاً ذراعيه. احتضن محمداً وهو يحمد الله على سلامته وعودته إلى أهله غانماً، ولكي يلفت الأنظار إليه أعلن أمام الحضور بأن قصر محمد قد انتهى بناؤه وفرشه وسيدشنه اليوم. طلبَ من المتجمهرين أن يتفرقوا ليدعوا محمداً يرتاح من «شعثاء السفر» [الراوي: كان يقصد وعثاء السفر]، ثم طلب من محمد أن يواصل طريقه إلى القصر. دار

حول السيارة وفتح باب المقعد الخلفي الآخر وجلس إلى جانب محمد. انطلقت السيارة، شاقةً طريقها بصعوبة بين الحشد والطريق الوعر، بينا ركض الأطفال خلفها حتى عجزوا عن اللحاق بها.

كان قصر محمد، والذي سميَ لاحقاً (الجَوسَق)، يقع على ضفة النهر من الجهة الشمالية الغربية عند استدارة النهر حول المدينة قبل انسيابه نحو الجنوب. يتكون من طابقين واسعين، وعلى الرغم من بعده عن مركز المدينة وعن الأحياء السكنية إلاّ أن الذي يقف في سوق المدينة يمكن أن يراه بوضوح، خاصة في الليل حينما يضاء بسحر الكهرباء التي لم تصل بعد إلى أغلب الأماكن في مدينة الهاشمية، وقيل إن مهندساً من (هنااااااااااااااك) قامَ بتصميمه ورسم خرائطه، وقد سلّمها محمد للحاج رضا قبل سفره.

وصلت السيارة إلى القصر فترجل منها الحاج رضا مسرعاً وهو يستعرض أمام محمد وفاءه بما تعهد به، إذ في فترة لا يتوقعها أحد قد تم بناء القصر وتأثيثه. كان محمد ممتناً جداً لما فعله الحاج رضا، وإنْ لم تتلاشَ الشكوك في داخله عن هذا التحول الكبير الذي طرأ على سلوك الحاج رضا، بل جعلته أكثر قلقاً لما يسعى إليه بهذا التقرب الذي يصل حد التملق، على الرغم من أن محمداً يدرك أن الحاج رضا لم يقم بهذا دون مقابل، فمنذ فترة وهو يراقب تطور علاقته مع أبي سمعان تاجر المفروشات الجشع والذي تدور حوله شائعات كثيرة منها أنه يتعامل مع زبائنه بالربا وأنه على إتصال برجالٍ في مركز الولاية، إضافة إلى أن الذي قام ببناء البيت هو ابن عمه أبو سلافة وقد استغل الحاج رضا ثقة محمد فيه وسفره فضاعف له أجرة البناء.

انتبه محمد إلى أنه قد نسي السائق ولم يدعه للدخول. ناداه فجاء راكضاً. تطلع إليه الحاج رضا بنظرة غريبة، ثم نقلَ نظره إلى محمد منتظراً منه تعريفاً بالشاب، غير أن محمداً لم يعر لفضول الحاج اهتماماً. طلب محمد من الشاب أن ينزل الحقائب وإدخالها إلى البيت، وحينما

انتهى من عمله أشار إليه محمد أن يتخذ إحدى غرف البيت سكناً له:
«لحين أن نجد لك سكناً دائماً».

قال محمد بصوت عال ليجيب على تساؤلات الحاج رضا قبل أن يسألها.

كان انتقال محمد إلى قصره الجديد فرصة للّقاء بالناس والاستماع منهم إلى ما دار في غيابه، ففتح قصره ثلاثة أيام لكل راغب في الإطلاع على ما يظنه غموضا يدور داخل هذا البناء الذي لم تره عين من قبل. أولمَ الولائم فتدفقت إلى القصر حشود الفقراء مصطحبين أطفالهم الجياع لينالوا شيئاً من بركةَ هذه المناسبة، وكذلك التجار والأعيان، جاءوا ليستمعوا إلى ما يخطط له هذا «الغضب» الذي صبّ جامه عليهم بغفلة أو تهاون منهم، فتحول محمد إلى حكواتي يعيد الحكاية نفسها كلما تغيّر الحضور. روى لهم ما حدث له في رحلته، وعن إتصالاته بالمسؤولين في مركز الولاية وعن الإتفاقات التي أبرمها حول مدّ خطوط الماء والكهرباء لتصل إلى بيوت الهاشمية كلها، فكان كل رجل منهم يعود إلى بيته وهو يتحدث لعائلته عن قادمٍ سينير ظلمة أيامهم وعن معجزة هذا الهاشمي الذي كُتب اسمه في لوحِ الغيب المحفوظ.

في الليلة الثالثة وبعد أن عاد الرجال من المسجد بعد أدائهم لصلاة المغرب، كانت صالة القصر مكتظة بالرجال الذين كانوا يصغون إلى محمدٍ وهو يروي لهم حكاياته عن الرحلة كسندباد بري، حينها حدث أمرٌ لم ترَ الهاشمية مثله من قبل وسيؤرخ لاحقاً كحدث يُدرج ضمن الأحداث الغريبة التي مرت على المدينة، فقد اقتحم الصالة الطبيب كاروليان العجوز بصحبة زوجته. تجمدت الكلمات على شفاه المتكلمين وساد الوجوم على الوجوه التي توقفت نظراتها على السيدة هيلين وهي تخطو بثقةٍ أمام زوجها متوجهة إلى حيث يجلس محمد في صدر الصالة. نهض محمد مرحباً، ومحاولاً إخفاء ارتباكه. مدت السيدة هيلين يدها مصافحةً فأخذها محمد رافعاً إياها إلى فمه، طابعاً قبلة عليها. عاصفةٌ

من همهمات وتأوهات انطلقت من أفواه الرجال دون إرادةٍ منهم وهم يفغرون أفواههم بدهشة. لم يكتفِ محمد بتقبيل كفّ السيدة هيلين بل وضع كفّه على كتفها وهو يمد يده الأخرى مصافحاً الطبيب كاروليان الذي لم تهتزّ غيرته وهو يرى محمداً يلامس زوجته ويقبّل كفّها. طلب محمد من الجالسين على يمينه أن يتزحزحوا عن أماكنهم ليفسحوا المكان إلى الضيفين الذي أبدى اهتماماً كبيراً في استقبالهما. خلعت هيلين معطفها الفرو بمساعدة زوجها الذي كان يقف خلفها، فظهرت بتنورة سوداء تصل إلى حد ركبتيها، وقميص بنفسجي رقيق يكشف عن ذراعين بارزتي الكوعين وبلحم متهدل انتشر عليهما نمش بنيّ كثير. جلست بين زوجها ومحمد حتى التصق زندها بصدره. نسي كل متحدث ما كان يتحدث به، حتى محمد لم يعد مهتماً بإكمال الحديث الذي بدأه، وانشغل بالحديث الهامس مع ضيفيه. فجأة نهض إمام الجامع نافضاً عباءته بغضب، ودون أن يلقي تحية الوداع غادر الصالة وهو يردد تعاويذه من الشيطان الرجيم. لحقه بعض الرجال، بينا بقي البعض الآخر متردداً بين إرضاء محمد أو الإمام. أشار محمد إلى رجاله أن يجهزوا العشاء قبل أوانه، فأدرك الحاضرون بأن محمداً يشير بهذا إلى الحاضرين بأن يعجّلوا في المغادرة لينفرد بضيفيه اللذين حازا على اهتمام لم يسبق لمحمد أن أظهره لأحد، وهذا ما حدث، فبعد أكثر من ساعة بقليل لم يبقَ في القصر سوى عليّ وسلمان العجمي وقد كانا ينتظران من محمد الإشارة للمغادرة. استأذن محمد ضيفيه وانزوى بسلمان وعلي. وقبل أن يهمّ العجمي في الحديث عمّا جرى في غيابه، اعترضه محمد ملمحاً إلى أن ما سيقوله ليس بأهمية زيارة هذين الضيفين اللذين حتى هذا اليوم لم يكن سلمان يعلم بأية علاقة تربط بينهما وبين محمد، وقد فوجئ كغيره بالاحتفاء الكبير الذي أبداه الليلة محمد بهما. شعرَ سلمان العجمي بثقل وجوده على محمد في هذه اللحظات فأراد أن يبرر إلحاحه بجملة قصيرة تُعيد محمداً إلى ما هو أهم من الطبيب

كاروليان وزوجته فقال:

«كنت أريد أن أخبرك عن عبيد الحنظل».

«ما به؟»

سأل محمد بطريقة لا تخلو من استخفاف بموضوعٍ لا يستحق أن يخبره العجمي به في هذا الوقت. هزّ سلمان رأسه، وقبل أن يغادر قال وهو يتطلع في عينيّ محمد بنظرات تأنيب:

«افترسته الذئاب».

«أعرف».

ردّ محمد دون أن تظهر على وجهه علامة أسفٍ أو تأثر، فظنّ العجمي بأن أحداً قد سبقه في إبلاغ محمد بذلك.

تلك الليلة، قضاها محمد مع ضيفيه في حديث يختلف تماماً عمّا روى للناس من حكاياتٍ كان أغلبها لا تمت إلى أسباب سفره بصلةٍ.

ثلاثة أيام حبلى بالأحداث التي لا يفصل بين أحدها والآخر سوى ساعات، حتى كأن الهاشمية قد ضاقت بنفسها، فغدت كمقهى يتحدث رواده في آنٍ واحد، وكل منهم يتحدث لنفسه عن موضوع مختلف عمّا يتحدث به جليسه.

«محمد.. الكهرباء.. السيارة.. القصر الكبير.. زوجة الأرمني كاروليان.. السائق جيمس.. ما قاله إمام المسجد.. علامات الساعة..».

والشائعات تترى، وكل شائعة تفتح ملفاً يحار المؤرخ في غربلة حقائقه عن ركام التخيلات، فيبقى مفتوحاً لما يحمل من دلالات غريبة غير قابلة للنقض مثلما هي غير قابلة للتصديق، حتى سلمان العجمي الذي هو «منّا أهل البيت» كما كان محمد يردد، وقف حائراً أمام هذا الكائن الغريب الذي استطاع أن يجمع النقائض في كفه متلذذا بغموضه وحيرة أقرب الناس إليه. لم يستطع أن يتأكد من أن أحداً قد أخبر محمداً بمقتل عبيد الحنظل، لكنّ عدم تأثره بموته له دلالة، خاصة وأن إعلانه عن سفره وعودته بطريقة إحتفائية وهو الذي اعتاد على التكتم، له دلالة:

«هل أراد أن يعلن براءته عمّا سيحدث في غيابه؟»

«هل كان يتنبأ بما سيحدث؟ أو أن له يداً في الأمر؟»

«ما قصة الذئاب؟ ولماذا رفض محمد بشدة مسألة إحاطة البستان بأسلاك شائكة؟»

«كلّ هذه الأمور يمكن أن تحدث مصادفةً.. ولكن ما سرّ هذه العلاقة الغامضة مع الأرمني كاروليان الذي لم يره أحد خارج عيادته الطبية؟»

... وفي الهاشمية كان الحديث يدور عن السيارة وقصر محمد، عن الكهرباء التي ستنير قريباً كل بيت والماء الذي سوف يأتيهم ولا يذهبون لجلبه من النهر، أما في المساجد فكان الحديث يدور عن الأعور الدجال والقيامة التي ظهرت للعيان علاماتها، فقد خصص إمام المسجد الكبير إحدى خطب الجمعة ناذراً الناس بقرب موعد الساعة:

«والله... إني لأسمع صوت نفير إسرافيل قادماً إلينا».

هكذا بدأ الإمام خطبته، فضج المسجد بالعويل والتكبير، وأنه وإنْ لم يذكر محمداً بالاسم أو أنْ يعلن صراحة ما هي علامة الساعة التي ظهرت للعيان، إلاّ أن المصلين كلهم يعلمون بأن الإمام يشير إلى النساء اللواتي بدأن يجرؤن على اقتحام مجالس الرجال، دونما خجل أو حجاب، والرجال الذين يقبلون أكفّ النساء، ولم يفته أن يغمز «الذمّيين» الذين يسعون إلى الإنتقام من دين الآباء والأجداد. كان الإمام يصرخ ضارباً المنبر بعصاه بصوت متحشرج، فترتفع أصوات الرجال بالتكبير والتعهد أمام الله ورسوله على الإنتقام ممن يسعى إلى المساس بالدين وبالتقاليد.

مضى شهرٌ على عودة محمد من سفره، وكادت الألسن تتعب من تناقل الشائعات، حينما قرر أن يتزوج من نويرة. زار البيت القديم صباحاً بحجة نقل بعض الأغراض الضرورية. استقبلته لؤلؤة كما في المرة السابقة بالترحيب والدعاء. تنقل ما بين الصالة والسرداب دون أن يعير تفكيراً لمن في البيت، كأنه يبحث عن حاجةٍ مهمة. خرج من السرداب

وهو ينفض كفيّه من الغبار، ثم توجه إلى غرفة المكتب جلس على كرسيه وراح يجمع أوراقه ودفاتره ويربطها استعداداً لنقلها إلى البيت الجديد. دخلت لؤلؤة حاملة له كأس الشاي، وقبل أن تسأله عن أمرٍ، طلب منها أن تخبر السيدة بأن تهيئ نفسها للانتقال الليلة.

«إلى أين؟»

سألت لؤلؤة بخوف فردّ محمد وهو ينظر إليها بنظرة صارمة:

«إلى البيت الجديد».

لم تفهم لؤلؤة ما يعنيه محمد فسألته وشفتاها ترتجفان:

«وأنا؟»

تطلع محمد إليها وعلى شفتيه ابتسامة جعلت ملامح وجهها تتغير بشكل ملحوظ. نهض من كرسيه واتجه نحوها. وضع كفّه على كتفها، وقال:

«وأنتِ أيضاً».

هزّتْ رأسها وهي تحاول إخفاء ابتسامتها التي تدل على أنها أدركت ما يعنيه. غادرت لؤلؤة غرفة المكتب. سمعها وهي تهمس لنويرة. حاول أن يلتقط عبارة واضحة لكنه لم يسمع سوى همسات مبهمة، انتهت بضحكة خبيثة من لؤلؤة أدرك محمد مغزاها. عادت لؤلؤة إلى محمد لكي تخبره بأنها أخبرت السيدة. كانت تنتظر أن يسألها عمّا قالته نويرة إلا أنه تمنع عن السؤال. قبل أن يغادر البيت قال بصوت عال:

«قبل غروب الشمس سأرسل إليكما السيارة لتنقلكما».

لم يسمع رداً، فرفع صوته بتحية الوداع، عندها سمع صوت نويرة وهي تردد بصوت واطئ:

«الله معك».

استقل المقعد الخلفي في السيارة وأشار إلى جيمس أن يتجه حسب ما يشير إليه، حتى وصل بيت الغواص. استقبلته سميّة بحفاوة الأخت الكبيرة. احتضنته وهي تلقي اللوم عليه لانشغاله عنهم. جاءت زهرة

راكضة وهي تلقي بنفسها في حضنه، فأمطر وجهها بالقبلات. تطلع إلى أخته، فتطلعت إليه وراحت تنقل نظراتها بينه وبين زهرة بإشارة لها دلالة، فارتفعت ضحكة محمد وهو يتطلع إلى جسد زهرة وقد برز نهداها بشكل ملحوظ، فضمّها إلى صدره بقوة. أخبر أخته بقرار زواجه من نويرة، فلاحت على وجهها علامة امتعاض واستنكار بعد أن عرفت المرأة التي وقع عليها اختيار محمد، فقالت لائمة:

«ومن نويرة هذهِ؟ وما هو أصلها وفصلها؟ وكيف لها أن تنضم إلى العائلة الهاشمية؟...»

لم يرد محمد على اعتراضها، وحينما ألحت بكلامها وبالغت بلومها له، رد عليها بطريقة غامضة لم تدرك قصده كاملاً لكن غضبه أشعرها بأنها قد تجاوزت بحرصها دور الأخت، إذ قال دون أن ينظر نحو سميّة:

«لم تخلقني العائلة الهاشمية.. بل أنا الذي خلقتها».

طلبت منه سميّة أن يوضح قصده فآثر الصمت، فراحت تخفف من حدة لهجتها، ولكي تعطي أكثر من مبرر لرفضها زواجه من نويرة قالت:

«أنت أخي الصغير.. وأنا مثل أمك.. ولا أريد لك إلا الراحة».

هزّ محمد رأسه، فوضعت كفّها على رأسه وراحت تمسد شعره بحنو أم على طفلها، فتناول محمد كفّها الأخرى وقبلها.

«ولكن...»

قالت سميّة ثم صمتت فانتبه محمد إلى استدراكها. تطلع إليها منتظراً أن تكمل ما أرادت قوله، فلوت عنقها متطلعة إلى الجدار الجانبي. هزّ محمد يدها ليوقظها من شرودها المفتعل، وسألها:

«لكن.. ماذا؟»

تطلعت سميّة في عينيّ محمد. وقالت وهي تحاول إخفاء ابتسامة خبيثة:

«يا أخي.. يا حبيبي.. هل قدركَ أن تتزوج نساء مستخدَماتٍ قبلك؟»

فوجئ محمد بطريقة القول ووقاحته، لكن سميّة استبقت اعتراضه فقالت بطريقة أقل:

«أنت مازلت شاباً.. بل سيد الشباب.. والصبايا الأبكار كثيرات».

تطلع إليها، ودون أن يرد على كلامها نهض وهو يقول:

«يللّه.. جهزي حالك وحال زهرة لنذهب إلى هناك».

اعترضت زهرة وهي ترتمي في حضن عمّتها فتطلع إليها محمد مفتعلاً الغضب في نظراته. حاولت سميّة أن تجد حجة للامتناع عن الذهاب لتعزز عدم قناعتها بزواج محمد من نويرة، إلا أنها لانت بعد أن رأت لا جدوى من الممانعة أمام إصرار محمد على قرار يبدو قد اتخذه مسبقاً، فنهضت ماسكة يد زهرة التي أبدت معارضة للذهاب لتقيم مع امرأة سرقت منها أباها واحتلت مكان أمها ولا تعرف عنها شيئاً، فردت عليها سميّة مطمئنة:

«ستعودين إلى هنا قريباً إن شاء الله.. فهذا هو بيتك الحقيقي».

قالت وهي تتطلع إلى محمد لتعرف ردّة فعل أخيها عمّا قالته، فافتعل محمد البلادة وعدم فهم ما قصدته سميّة.

بعد الانتهاء من صلاة المغرب، تقدم محمد من الإمام وهمس في أذنه كلاماً حرص ألا يسمعه أحد من المصلين. استقلا السيارة التي كانت تقف عند باب المسجد مصطحبين معهما إثنين من الرجال.

تأخرتْ نويرة في الإجابة على سؤال الإمام، حتى ظن محمد بأنه تعجّل في الأمر وكاد غضبه وإنْ لم يظهره يلغي الأمر، فبعد أن سألها الإمام إحدى عشرة مرة إن كانت توافق على الزواج من محمد بن ناصر آل هاشم، وكان لا يسمع منها غير الصمت، حتى جاء جوابها بـ «نعم» قبل أن ينطق لاهثاً السؤال للمرة الثانية عشرة. تنفس الإمام الصعداء وارتفع صوت لؤلؤة بزغرودةٍ لم يسمعها غير الحاضرين.

بعد أن انتهى الحاضرون من العشاء، نهض الإمام مهنئاً محمداً، ومتمنيا له زواجاً ميموناً، مثنياً على إنسانيته والتزامه الديني بنكاحه أرملة

لا أحد لها في هذه الدنيا، «كما كان يفعل سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم». سار محمد خلف الإمام مودعاً، وقبل أن يستقل السيارة دسّ محمد في جيبه حزمة من الأوراق النقدية. أخرجها الإمام وراح يعدّها وعيناه تبرقان بالفرح.

* * *

(١٩)

سنة مرت، حدث خلالها أمر مهم في تأريخ مدينة الهاشمية، فقد انتصبت أعمدة الكهرباء على جانب الطرق الرئيسية بدءاً من الطريق الشمالي الواصل من مركز الولاية حتى دوّار المدينة الذي تتفرع منه الطرق الأربعة الرئيسية، وعلى الجانب الثاني من الطرق تم زراعة أشجار اليوكالبتوس بنسق متوازٍ مع أعمدة الكهرباء وبمسافات لا تزيد عن عشرة أمتار بين شجرة وأخرى. سبق انتصاب أعمدة الكهرباء تبليط الطرق الرئيسية بالإسفلت بعد أن أصبح الأمر ملحّاً، إذ لم يعد محمد وحده ينتقل بسيارته، بل تجاوز عدد السيارات في المدينة العشرين سيارة من بينها ثلاث سيارات عائدات إلى المخفر وإثنتان إلى مركز إدارة المدينة بينا راح التجار يتسابقون في تقليد محمد فاتخذوا لهم سيارات خاصة يجلسون في مقاعدها الخلفية ولا ينزلون منها إلا بعد أن يخرج السائق من موضع القيادة ويلتفّ لكي يفتح لهم الباب.

كان العمل في تبليط الطرق بالإسفلت مثيراً لفضول الناس الذين تجمعوا يراقبون سير العمل، وما شدّ انتباههم أكثر هو الرجل الذي تحول إلى أسطورة في ما بعد. كان قصير القامة، مربوعاً وبعضلات مفتولة، عاري الصدر والساقين، يحمل وحده قطعة خشب كبيرة يتجاوز طولها ستةَ أمتار وعرضها نصف المتر. كان يمسكها من منتصفها ويقوم بسحب القير الساخن نحوه بمستوى واحد كمن يسحب سجادة سوداء بحركة تتطلب جهد ثلاثة رجال أو أكثر. يرتفع التصفيق فيهز رأسه محيياً الناس بخجلٍ ثم يعود إلى عمله.

كان اسمه علياً، وقد لقبّه الناس بالقيّار. في البدء انتبه الصبيان إليه فراحوا يراقبون حركاته فاغرين أفواههم دهشة، ثم راح منظره وهو يعمل يثير فضول الكبار فيتوقفون ساعات لمراقبته، حتى النساء كنّ يختلسن في مرورهن النظر إلى عضلات زندية وثدييه والأعصاب الزرق التي تكاد تشق الجلد وتتفجر بالدماء فصار حديث خلوتهن ومضرب أمثالهن عن الفحولة وشدة الباه مما أثار حفيظة الرجال وغيرتهم، ولم ينج محمد من إتهام بعض الرجال بأنه ولغاية في نفسه يقف وراء مؤامرة إفساد أخلاق النساء بجلبه إلى المدينة رجال يثيرون الفتنة ويحرضون الشباب على التمرد والخروج على ما اعتادوا عليه من أعراف وتقاليد توارثوها عن الآباء والأجداد، لكنّ علي القيّار فنّد كل هذه المزاعم والتهويمات، فقد كان ذا خلق وأدب عاليين، ولم يظهر منه تصرف يسيء إلى أحد، بل كان سلوكه المسالم لا يمتّ إلى منظره الجسدي بصلةٍ، وهذا ما جعل الناس يتوددون إليه ويدعونه لبيوتهم بالكرم الذي اعتادوا عليه في التعامل مع الغريب عن مدينتهم، فنُسجت حول قوته الخارقة قصص كالأساطير تناقلتها الألسن، وقد تعزز صدقها حينما رأوا صورته تتصدر المجلات الأجنبية وهو يتوشح بعلم الولاية وتتدلى على صدرة ميدالية ذهبية برّاقة بعد تتويجه بطلاً للعالم برياضة رفع الأثقال.

لم تصل الكهرباء إلى كلّ بيوت المدينة، إلاّ أن الأمل في وصولها الذي أصبح وشيكاً كان يضيء النفوس، مما جعل الفقراء لا ينظرون بعين الحسد لبيوت التجار والأغنياء التي سبقت بيوتهم في الإنارة، فالشوارع مضاءة ومنائر بيوت الله تضيء سماء المدينة، والعمل لم يتوقف يوماً.

«الفضل كلّه يعود إلى محمد.. فقد وعدَ وأوفى بوعده».

هذا ما كان يردده أغلب سكّان المدينة، مما جعلهم يغلقون آذانهم عن الشائعات التي لم تتوقف، عن محمد وسيرته، وغموض رحلاته وقصصه مع النساء، وعن زواجه من امرأة الحارس التي ارتبطت سيرتها بحكاية الذئاب التي ظهرت فجأة لتفترس مالكاً وعبيد الحنظل، ثم

اختفت كما ظهرت بشكل مفاجئ. إلا قصة واحدة كانت تظهر وتختفي، وكلما ظهرت بعد اختفاء ازدادت رقعة انتشارها وخرجت من دائرة الهمس إلى العلن المتردد. وصلت أسماع محمد، فاغتاظ بشدة على غير عادته، ليس لغرابة الشائعة وبشاعتها فحسب، وإنما لاعتقاده بأن السكوت عنها قد يقلل من هيبته أمام الناس، وربما يثير شهوة البعض في التقصي عن أصل جيمس وعن سبب الحظوة التي نالها هو وزوجته، وهما الغريبان عن ديانتهم وعن مدينتهم، لذلك أخذ محمدٌ جيمس معه إلى المسجد الكبير ليشهر إسلامه أمام حشد كبير من المصلين وتغيير اسمه إلى جاسم. لم يكتفِ بهذا بل أعلن أمام حشد من الناس الذين حضروا الحفلة التي أقامها بمناسبة ختان سائقه، بأنه قد اتخذ من جاسم ابناً له، وبهذا استطاع أن يُخرس أي صوت يهمس بخبث عن علاقة مشبوهة بينه وبين سائقه وولده بالتبني، حائزاً بذلك على شهادة عظيمة من إمام الجامع والمؤمنين على إدخاله كافرٍ.. «مقلفٍ» إلى الدين الإسلامي الحنيف، وكالعادة كان محمد يخرج من كل أزمة أقوى من السابق، إذ كانت أهواء الناس تتأرجح بين الموقف وأقصى نقيضه، فبعد أن كانت الأفواه تتهامس عن علاقة مشبوهة تثير القرف في النفوس، أصبح محمد يُكنى بأبي جاسم، بل إن الاسم قد شاع في المدينة حتى أصبح كل محمدٍ يُكنى بأبي جاسم حتى لو كان هذا الـ (محمد) أعزبَ.

استدعى محمد أبا سلافة البنّاء، وأمرَه باقتطاع مساحة صغيرة من الركن الشرقي لحديقة القصر والذي يقع فيه مرآب السيارة، وبناء عليها غرفة مع ملحقاتها لتكون سكناً لجاسم وزوجته، بينا اتخذ هو ونويرة الطابق السفلي، الذي يرتفع عن أرض الحديقة ببضع درجات حجرية مرصوفة ببلاط من الموزائيك الفاخر، ويتكون من غرفتيْ نوم واسعتين ومطبخ وحمام، إضافة إلى باحة وسطية وصالة واسعة لاستقبال الضيوف، وكذلك غرفة جعلها مكتباً ومكتبةً، أما الطابق العلوي الذي لا يقل مساحة عن الطابق الأرضي فقد كان من نصيب زهرة ولؤلؤة.

كان مساءً ساخناً، بلغت فيه الحرارة والرطوبة درجةً تثير الغثيان. لم يستطع محمد النوم فخرجَ إلى شرفة القصر المطلة على النهر، مئتزراً بقطعة قماش تغطي جزءاً صغيراً من جسده. جلس على كرسيه الخيزران العريض في العتمة، وراح يحدق إلى السماء الصافية والنجوم التي بدت كأنها قريبة جداً. شعر باسترخاء وهدوء روحي وهو يتخيل هذا الكون اللامحدود وكواكبه السابحة في محيط الغموض، لكن بجمال يثير الغبطة والمهابة في النفس. رغبة شديدة تملكته في العزف على الشبّابة، استطاع كبتها، لئلا يوقظ نساء البيت فيقطعن عليه متعة خلوته، غير أنه وجد في امتناعه عن العزف مبرراً لإيقاظ رغبة أخرى. ذهبَ إلى السرداب على أطراف أصابعه كيلا يوقظ نويرة التي لم تر وجهه الآخر بعد. أخرج قنينة من نبيذ السريان. لفّها تحت مئزره، وعاد إلى جلسته. عبّ كمية كبيرة من فوّهة القنينة، ففاضت روحه بأريحية لم يعرف كيف يعبّر عنها. راح يتطلع إلى النجوم متذكّراً طفولته والحكايات التي كانت ترويها له زوجة أخيه في ليالي الصيف وهما يرقدان على سطح البيت. حكاية النجمتين العاشقتين، ليلى والمجنون، وحكاية نجمة الشِعلة التي كانت تتوامض حمراء غضباً على أختها الثريا التي سرقت منها أبناءها. سبع نجمات شكّلت حكاية كانَ لها وقع مؤلم لن ينساه، عن النعش والبنات الثلاث اللواتي يشيّعن أباهن، وعن النجمة السابعة التي تمثل البنت العرجاء التي تخلفت عن أختيها. تذكّر أنه كتب مرةً حينما كان يعمل حارساً في بستان الحاج رضا، قصيدة صغيرة. راح يرددها هازاً رأسه طرباً:

«في كلّ أرضٍ تحلّ

حدّقْ إلى السماءْ

تجدْ بناتِ نعش»

فجأةً تذكر مخطوطة قديمة كان قد استنسخها حينما كان يعمل عند الشيخ نوفل، ولا يعرف إنْ كانت الآن في حوزته أم أنها من ضمن

المخطوطات التي اختفت بعد مقتل الشيخ. كانت المخطوطة تتحدث عن الكوكب المفقود.

«أين يقع ذلك الكوكب؟»

سأل محمد نفسه وهو يحدق إلى السماء، كأنه يبحث في الكوكب المفقود عن مكان يكمن فيه السر الغامض، السرّ الذي أدخله قدرُه إليه فعاشَ فيه حياً وميتاً وأنجب منه زهرةً ستتفتح عن سلالةٍ هاشمية، ولكن..

«لابد من قربان».

كانت بهيجة تردد ولم يعِ محمد أهمية ما كانت تقوله، حتى فات الأوان إذ لم يسمح له الموت أن يسألها عمّا تعنيه حينما كانت تردد عبارتها بإلحاحٍ وهو تحاول استنشاق الهواء بصعوبة في لحظات نزعها الأخير، كأنها توصيه بالوديعة التي تركتها على هذا الكوكب الغريب.

أفكار متناقضة كانت تتصادم في رأسه وتتغير وفق مستوى السُكر الذي بدأت علاماته في الظهور، حتى أنه لم ينتبه إلى وقوف نويرة خلفه، وقد أخرسها منظره وهو يتحدث مع النجوم بكلام سمعته كله، ولكنها لم تفهم أيّ معنى له. وضعت كفّها على كتفه، فجفل من سرحانه. أدرك أن نويرة قد سمعته وهو يتحدث مع نفسه، فقال بثقةٍ مفتعلة كي يوهمَ نويرة بأنه لم يكن يثرثر وحده أو أنه سكران:

«تذكرتُ حكايةً كانت ترويها لي زوجة أخي فاطمة عن بنات نعش».

«الله يرحمها».

رددت نويرة وهي تحرك كفّها على كتف محمد. التفت إليها. كانت ترتدي ثوب نومٍ شفّاف مفتوح الصدر. أدركت نويرة نظرات محمد الشهوانية، فقالت:

«هل أعمل لك شاياً؟»

«لا».

ردّ محمد، ومد يده نحو عجيزتها فجاءت إصبعه الوسطى في الاخدود. شهقت نويرة، محركةً ردفيها بتمنع مفتعل. أحاط محمد

خصرها، وسحبها نحوه بقوة فتهاوت في حضنه. حاولت بغنج أن تتملص من قبضته مطلقة ضحكاتٍ متقطعة، إلا أنه تمسكَ بها من تحت نهديها فتراخت. أزاح خصلات شعرها عن وجهها وعينيها ممرراً كفه على وجنتيها وتحت أذنها فاستسلمت بنشوةٍ، مسبلةً جفنيها، وارتفع صدرها بشهيق عميق. مد يده إلى ساقيها، رافعاً ثوبها إلى بطنها. مرر كفّه على فخذيها فأحاطت رأسه بذراعيها. انحنى عليها مقبلاً شفتيها وكفّه تصعد إلى أعلى فخذيها. اهتزت بطنها بارتعاشات سريعة، وحينما لامست كفّه ما بين فخذيها، ندّت عنها تنهيدة حارة. راح يحرك كفّه بين فخذيها ويده الأخرى تسند رأسها الذي تهاوى إلى الخلف فارتفع نهداها واندلقا خارج الثوب فتلقف محمد حلمة أحدهما بفمه. أدخل كفّه تحت لباسها الداخلي. حرك بظرها بإصبعه الوسطى فلامست بللها الغزير. صرخت وهي تنشب أظافرها في صدره. حملها بين ذراعيه إلى غرفة النوم. أضاء مصباح الغرفة فاعترضت، إلا أنه لم يعر لاعتراضها انتباهاً. ألقاها على السرير فسقطت فاتحة ساقيها. اضطجع عليها بعد أن سحب لباسها الداخلي بسرعة وبعنف. رفع ساقيها قليلاً، فأحاطت بهما خصره. تطلع في عينيها بنظراتٍ شرسةٍ، وهو يحرك بيده رأس قضيبه على فرجها صعوداً ونزولا، فكانت تتلوى بهياجٍ مطلقةً فحيحاً يخرج من أعماقها. انحنى عليها بجسده، ماسكاً كتفيها بقبضتين قويتين. دفع قضيبه فيها بقوةٍ، فصرختْ. راح يتحرك عليها مركزاً نظراته في عينيها اللتين أغمضتهما بنشوة لكنها كانت تفتحمها بين لحظة وأخرى لترى وجهه وهو يمارس افتراسه لها بشهوة عارمة تزيد من لذّتها فتصرخ متوسلة به أن يشقّها، يفترسها، يقتلها، حتى أفرغ فيها لحظةَ انطلاق صرختها العالية.

استلقى محمد على ظهره فوضعت نويرة رأسها على صدره وأنفاسها تحرك شعره، فيشعر في خدر يعمّ جسده. أدارت رأسها نحوه بحركة بطيئة، وراحت تتطلع في وجهه وعيناها تفيضان بنظراتِ عبودية تعترف بجميل سيدها وفضله عليها. شعر محمد بأن نويرة تريد أن تقول شيئاً، لكن لم يخطر في ذهنه أن تسأله:

«هل أنت مَن قتلَ مالكا؟»

تطلع إليها بصمتٍ أبله وقد تجمدت ابتسامته شيئاً فشيئاً حتى اكفهر وجهه. حينما أفاق من ذهوله، أزاح رأسها عن صدره بغضب، دافعا جسدها برجله، ونهض مغادراً الغرفة. عاد إلى كرسيه في الشرفة. مدّ يده إلى قنينة النبيذ، وقبل أن يعبّ من فوهتها امتنع بلا سبب وأعاد القنينة في محلها عند رجل الكرسي. دقائق ولحقته نويرة. خطت بحذرٍ نحوه، ثم جلست عند قدميه بتذلل. قالت بانكسار وخوف:

«ما كان قصدي أن أتهمك بقتله... ولكن..».

توقفت، فتطلع محمد إليها بنظرة غاضبة وهو ينتظر أن تكمل جملتها، فأضافت:

«كنت أريد أن أتأكد من حبك لي».

قالت وأسندت رأسها على ركبته.

كان محمد واثقاً من صدق ما قالته، لكنه أراد أن يكشف دواخلها. رفع وجهها وتطلع في عينيها بنظرة محقق يبحث عن دليل للإدانة. سألها:

«هل كان يسعدكِ لو قلت لك.. نعم أنا قتلته.. لكي أحصل عليك؟»

فردت نويرة دونما تفكير:

«نعم».

فوجئ محمد بجواب نويرة الصريح بوقاحته، ولكي يخفي ارتباكه قال لها بلهجة آمرة:

«قومي.. اعملي لي شاياً».

هبّت واقفةً وعلى وجهها علامات فرحٍ في تقديم خدمة لسيدها، وقبل أن تذهب إلى المطبخ طلب منها بلهجةٍ آمرة أن تأتيه بالشاي إلى غرفة المكتب. حينما عادت رأت محمداً جالساً على الكنبة وهو يقرأ في كتابٍ ضخم. لم يرفع رأسه نحوها، فوضعت صينية الشاي على المنضدة وانتظرت منه إشارة لما ستفعله، ولأنه لم يشر بشيء أدركت بأنه لا يمانع

من وجودها معه. جلست بين ساقيه. راحت تمسد قدمه صاعدة نحو ربلة ساقه فأسند محمد ظهره إلى ظهر الكنبة وهو يرتشف شايه بلا مبالاة مفتعلة. أدركت نويرة بمكرها الأنثوي تجاهله لها، فمدتْ يدها دونما تردد نحو قضيبه، أخرجته بكلتا قبضتيها، فلم يمانع محمد بل أفرج لها ساقيه لتسهيل مهمتها. تمدد قضيبه قليلاً فرفعت رأسها نحو محمد فرأته يقرأ بكتابه مغمضَ العينين. لاحت ابتسامة خبث على شفتيها. قربت شفتيها من حشفته. مررت لسانها على حزّ الختان، ندّت زفرة انتشاء منه. أطبقت عليه بشفتيها، وراحت تمصه بشبقٍ مجنون، لاهثةً، وبين لحظة وأخرى تخرجه وتتلفظ بمفرداتٍ لم تصدر عنها من قبل. رغبة غريبة استبدت بمحمد، فنهض ونصفه الأسفل عارٍ تماماً. مسك بنويرة من ذراعها ساحباً إياها إلى الشرفة. دفعها أمامه فانحنت رافعة عجيزتها مثل قطة، متمسكةً بسياج الشرفة الحديدي. ارتسمت في مخيلته صورة نويرة حينما رآها أول مرة وهي تنحني لتلتقط الحطب فيعلق ثوبها في شقّ الدراقة التي أسالت لعابه. وقف خلفها مربتاً على ردفيها. رفع ثوبها على ظهرها، وبحركة سريعة أزاح لباسها الداخلي حتى قدميها، مقرّباً قضيبه من فرجها، فأفرجت له ساقيها. مسكها من خصرها وأولجه فيها بقوة فصرخت بانتشاء. النار يرتفع لظاها ويرتفع صوت تكسّر الأغصان اليابسة والسمكة مشكوكة بسفّود قدرها. المشهد نفسه لكن لا وجودَ لمالكٍ في الصورة، بينا كان محمد يتطلع إلى السماء وهو يولج قضيبه في نويرة ويخرجه. كانت السماء صافية والنجوم تبدو قريبة جداً. عواء ذئابٍ على قمرٍ غائب، وبنات نعش غيّرن مواقعهن واختفين وراء الأفق، فلم يرَ من نجومهن السبع سوى النجمة العرجاء التي تخلفت عن أختيها في تشييع نعش أبيهن.

تلك الليلة لم ينم محمد وبقي جالساً وحده في الشرفة يتطلع إلى السماء الصافية، وذهنه مشغول بالتفكير في طبيعة الكائن البشري.

* * *

(٢٠)

لم تقتنع سميّة بأيّ من المبررات التي ساقها محمد لرفض تزويج جبير من زهرة، وكلما جاء بمبرر وجدت له ما يفنده، حتى قال لها دون أن يرفع رأسه عن الأرض:

«الأمر ليس بيدي».

فوجئت سميّة وهي تسمع أخاها بكل غروره واستبداده، يعترف لأول مرةٍ بأن قراراً كهذا ليس بيده، فسألته وهي تضيّق عينيها:

«بيد من إذن؟»

صمتَ محمد وهو يتطلع في وجه أخته، ثم قال:

«وصيّة بهيجة.. ولا أستطيع أن أحيد عنها».

ردت سميّة بلهجة لا تخلو من سخرية:

«ولكن يا أخي.. الحي أوجب من الميت».

تطلع محمد إلى وجه أخته ولاحت على وجهه علامات حزن، ثم قال بصوت هامس:

«أعرف ما لا تعرفين».

عندها تذكرت سميّة أمراً لا تعرف كيف غاب عن ذاكرتها. وضعت كفّها على فمها، وراحت تردد وأرنبة أنفها ترتعش:

«معك حق.. معك حق».

نهضت لكي تنهي حديثاً ورطها فيه نسيانُها لأمر كانت هي شاهداً عليه، ولتهرب من فخّ تداركت الوقوع فيه قبل أن تمدّ قدمها نحوه بخطوة واحدة. تحججت في تأخر الوقت وغادرت بيت محمد دون أن يغيظها رفضه، بل

على العكس من ذلك تماماً فقد كانت فرحةً بتدارك الأمر وانقاذ ابنها من الزواج من ابنة بهيجة التي لا أحد يعرف من أية سلالة انحدرت.

حاولت نويرة أن تعرف ما دار من حديث بين محمد وأخته، فقد كانت تتنصت لحديثهما وتعرف أن سميّة جاءت لتخطب زهرة لابنها، إلا أنها لم تفهم سبب رفض محمد، أما ما قاله لأخته في آخر الحديث فلم تفهم منه شيئاً، وحينما سألت عنه، تجاهل محمد سؤالها كأنه لم يسمعه.

بعد أن غادرت سمية، فكّر محمد أن يذهب لزيارة علي في المحمدية (حي التنك سابقا)، فقد حان الوقت لإنهاء موضوع زواجه من زهرة التي بلغت قبل أيام سنّ الرابعة عشرة.

فتحَ علي الباب، فارتبك حينما رأى عمّه قد جاء في هذا الوقت، فظن أن مكروها قد حدث لأبيه الذي بدأت صحته تتدهور خلال الأيام الأخيرة. لم ينتظر محمد أن يدعوه علي للدخول فدفع الباب ودخل. وجد خمسة رجال يجلسون على الأرض بشكل دائري. فوجئ محمد بوجوههم، فهو وإن لم يعرف منهم سوى خميس الأعور إلاّ أن هيئتهم كانت توحي بأنهم من أشقياء ومنبوذي حي التنك. ارتبكَ الرجال حينما رأوا محمداً فنهضوا مرحبين بكلمات متلعثمة وكل منهم يحاول إخفاء كأسه المليء بعرقِ أبي الساطور. لمحَ محمد أحدهم وهو يخفي شيئاً تحت السجادة. تطلع إلى عليّ بنظراتٍ مريبة تنتظر تفسيراً لما يراه، غير أن علياً ظلّ واقفاً بصمت. التفت محمد إلى الرجال وأشار إليهم أن يتركوا البيت دون تباطؤ فغادروا وهم يرتطمون بعضهم ببعض. بعد أن أغلق الباب خلفهم انقضّ على عليّ ماسكاً إياه من عنقه، حتى جحظت عيناه دون أن ينطق كلمةً أو يمد يده ليفك خناقه. انتبه محمد إلى قسوة تصرفه فاسترخت قبضته شيئاً فشيئاً، ثم سألَ بلهجة لائمةٍ لا تخلو من اعتذار عن غضب مبالغ فيه:

«تلعب القمار؟»

وقبل أن يردّ علي، أضاف:

«ومع ثلة من الأشقياء والفاسدين».

زفرَ علي ببطء هواءً كان محبوساً في صدره، وقال وهو ينظر إلى الجهة الثانية:

«أولاً هم ليسوا أشقياء ولا فاسدين.. بل هم فقراء شرفاء.

صمتَ قليلاً ثم أضاف وهو يتطلع في وجه عمّه بجرأة:

«وهم أشرف من الكثير ممن يحسبون أعياناً أو تجاراً».

لم يغضب محمد على اعتراض عليّ بل شعر بشيء من الزهو وهو يرى علياً يتحدث بهذه الكبرياء، فسأله:

«ولكنكم كنتم تلعبون القمار».

«ما كنا نلعب القمار».

تطلع محمد إلى علي غير مصدقٍ لما يقوله، ولكي يقبض عليه بالكذب الملموس، انحنى رافعاً السجادة، فلم يجد مفاصل كرعان خرافٍ أو أحجار نرد، بل رأى قصاصات ورق. بركَ على ركبته وجمعها. تطلع فيها فرأى خطوطاً وسهاماً تشير إلى مخططات غريبة.

«ما هذهِ؟»

سأل محمد، فلم يتلقَ جواباً من علي. أدرك أن ابن أخيه يخفي عنه سرّاً، سيعرفه لاحقاً. مدّ يده إلى كتف علي مربتاً عليها ثم سحبه نحوه محتضناً إياه بحنو.

«تعالَ معي!»

قال محمد، فرد عليّ بلهجة لا تخلو من اعتراض:

«إلى أين؟»

ولكي يخفف من لهجة اعتراضه سأل:

«هل حدث مكروه لأبي؟»

«لا.. لا.. أبوك بخير.. ولكني جئت لاخذك معي إلى هناك لكي نتحدث بموضوع يهمك كثيراً».

«يهمني أنا!؟»

سأل عليّ، فردّ محمد:

«ويهمني أنا كذلك.. ويهم العائلة الهاشمية.».

صمت قليلاً، ثم قال بصوت عالٍ وهو يرفع ذراعه مقهقهاً:

«ويهمّ العالم.. كله».

وانفجر بضحكة عالية، بينا كان علي يتطلع إلى عمّه بذهول دون أن يعرف سرّ هذهِ الأريحية التي هبطت عليه فجأة بعد أن كاد قبل دقائق يخنقه من شدّة غضبه.

حينما كان علي يجهز نفسه للذهاب مع عمّه، كان محمد ينظر إلى قصاصات الورق، محاولاً فك رموز الخطوط والأسهم. لم تكن صعبة الاكتشاف، فهذا المستطيل المرسوم هو مخفر الشرطة في المدينة الواقع قريباً من تقاطع الطرق الأربعة، وهذا السهم يشير إلى المدخل الخلفي للمخفر. إذنْ هي خطة للهجوم على المخفر، ولكن لماذا؟ تساءل محمد مع نفسه.

انتقل محمد وعلي إلى غرفة المكتب بعد أن انتهيا من عشائهما. طلب محمد من نويرة أن تتركهما وحدهما. لم يثر فضولها الأمر الذي سيتحدثان عنه، فهي تعرف بأن زوجها يحاول أن يجمع بين علي وزهرة، وهذا الأمر يفرحها كثيراً حيث أنها ستتخلص من منافس لها على قلب محمد، وبزواجها سيكون محمد لها وحدها.

في اجتماعهما لم يتطرق محمد إلى موضوع الهجوم الذي يخطط له علي وجماعته على المخفر فقد كان يرى من الضروري أن يتحدث أولاً مع سلمان العجمي حول هذا الأمر وسيعرف منه ما يفكر به علي وجماعته فهو أعرف منه بما يفكر فيه ابن أخيه، إلا أنه أشار إلى عليّ بطريقة واضحة بأنه لا يسمح له أن يقوم بأي عملٍ قبل أن يسشيره به ويأخذ موافقته. لم يردّ علي على ما قاله عمّه إلاّ أنّ ملامح وجهه كانت تشير إلى شيء من الامتعاض أو عدم الرضا. أدرك محمد ما يدور في ذهن علي، فقال بلهجة مخففة:

«أمامك مهمات كبيرة.. فلا تشتت جهودك بأمور يستطيع غيرك القيام بها».

ولكي يحقق سطوته على إرادة ابن أخيه في أمر خاص جداً، قال:

«علينا أن ننتهي الآن من أمر زواجك قبل أن يحدث أمر يعيق مسعانا».

فوجئ علي بما قاله عمّه، وقبل أن يعترض أو يبدي رأياً، قاطعه محمد:

«علينا زيارة أبيك غداً ليفرح بالخبر قبل أن...»

توقف محمد قبل أن يكمل جملته، إذ لاحت على وجه علي علامات حزنٍ وخوف.

ارتسمت على وجه مناف ابتسامة شاحبة وامتلأت عيناه بالدموع حينما أخبره محمد بقراره تزويج زهرة من علي. حاول مناف النهوض من فراشه فساعده علي على الإتكاء على الوسادة. ظلّ متشبثاً بذراع محمد وهو يتطلع إليه بخجلٍ، وحينما غادرت زوجته الغرفة أشار إلى محمد ليدنو برأسه منه. همس في إذنه بكلام سمعه عليّ الجالس على الجانب الآخر من السرير. أدركَ محمدَ أن منافاً لم يكن سعيداً بزواجه، فقد أوصاه بأن يأخذ جعفراً وعقيلاً عنده حينما يرحل ولا يتركهما عند أمهما. لم يسأل محمد أخاه عن السبب فليس وضعه الآن يسمح لمثل هذا، لكنه تعهد لأخيه بأن يفعل ما أوصاه به. فتح مناف ذراعيه فارتمى محمد بينهما واضعاً رأسه على صدر أخيه، وأجهش بالبكاء. ربتّ مناف على كتف محمد فرفع رأسه مصغياً إلى ما سيقوله. سعلَ مناف، ثم قال بصوتٍ واهن وهو يتطلع إلى وجه محمد:

«أريد أن تكون جنازتي متواضعة».

حاول محمد ألا يدعه يكمل كلامه، مطمئناً إياه بأن الأعمار بيد الله، غير أن منافاً كان يبدو واثقاً من رحيله، فقال مكملاً جملته الأولى:

«عشتُ فقيراً.. فلأرحل فقيراً.

بعد ثلاثة أيام من زيارة محمد لأخيه وعند الظهيرة جاء علي إلى مكتب عمه مرعوباً. أخبره بوضع أبيه المتدهور. قطع محمد حديثه مع بعض الزبائن معتذراً. طلب من الصبي أن يغلق المكتب وذهب مع علي لزيارة مناف. كان مناف ممداً على السرير دون أي حراك سوى حركة أجفانه الثقيلة، فتكشف عن عينين زائغتين لا يبدو منهما سوى البياض. جلس محمد على حافة السرير ماسكاً كفّ أخيه الباردة. لم تمض سوى دقائق قليلة حتى راحت أنفاس مناف ترتفع وحشرجة تُسمع في صدره محاولاً إلتقاط الهواء بصعوبة. راح يردد كلماتٍ وعبارات غامضة. كانت «فاطمة» آخر كلمةٍ رددها مناف قبل أن يغمض عينيه.

بعد أن انفضّ مجلس الفاتحة انفرد محمد بسلمان العجمي لائماً إياه على ما أخفاه عنه من أمور جرت داخل الحزب منذ تم تجميد عضويته بسبب تقربه من رجال الدين، وإنْ كان محمد يعرف مدى انضباطية العجمي في أمور التنظيم وأسراره وهو الذي رهن حياته للحزب حتى تخلى عن كل مصلحة شخصية فحاز على لقب الراهب الملحد الذي تزوج القضية، إلاّ أن لومه كان بسبب عمق العلاقة التي ربطتهما وثقته به، خاصة وأنه أوكل له أمر الأشراف على تنشئة ابن أخيه منذ كان غلاماً. لم يفهم سلمان العجمي ما كان يسعى محمد إلى معرفته أو أنه حاول أن يعطي انطباعاً بأنه لا يعرف شيئاً عما يتحدث به محمد، حتى حكى له ما رآه من اجتماع في بيت علي، وقصاصات الورق التي كانت تشير إلى نيتهم القيام بعملٍ لا يعرفون خطورته. تغيّرت ملامح وجه سلمان العجمي وهو يستمع إلى ما قاله محمد، فقد كان فعلاً لا يعرف شيئاً عن هذا الأمر وهو الذي يعتبر نفسه العارف بكل أسرار التنظيم، إلا أنه يعرف أن علياً بدأ في الآونة الأخيرة يطرح طروحات تدلّ على عدم قناعته في سياسة الحزب بقيادة الفهد.

«هو يعتبر قيادة الفهد قيادة تحريفية للمبادئ الأساسية للنظرية».

قال العجمي وهو يتطلع إلى وجه محمد لمعرفة تأثير ما قاله، إلاّ أن

محمداً كان يتطلع إليه ببرود كأن الأمر لا يعنيه، بل سأل ببلاهةٍ جعلت سلمان العجمي ينظر إلى محمدٍ بحيرة:

«أية نظرية؟»

شعر العجمي بأن محمداً لا ينظر إلى هذه الأمور بنظرة جادة، فقال لكي يلفت نظره:

«إن علياً يعتقد بأن هناك علاقة مشبوهة تربط ما بين الفهد وسمعان اليهودي».

جفل محمد عند سماع الاسم، فطلب من سلمان أن يعيد ما قاله، عندها سأله باهتمام شديد:

«وهل حقاً أن هناك علاقة بينهما؟»

هزّ سلمان رأسه بالإيجاب مؤكداً أن لا شيء يمنع من أن تكون علاقة بينهما، مؤكداً على أن أغلب واضعي النظرية هم من اليهود. كتم محمد غضبه مما قاله سلمان، فهو يعرف أن سمعان اليهودي مرابٍ لا همّ له سوى جمع المال وأنه متعصب جداً لديانته على الرغم من إدعائه بأنه لا يؤمن بوجود الله.

«ولكن ما قصة التخطيط للهجوم على المخفر؟»

سأل محمد، فهزّ سلمان العجمي رأساً نافياً معرفته بهذا الأمر، غير أنه عاد بعد صمت قصير ليفصح عن هواجسه ويستجمع ذاكرته، فقال وهو يحرك رأسه بإشارات تدل على أنه أخيراً قد مسك طرف خيط القضية:

«هناك محاولة من قبل بعض الرفاق للانشقاق عن قيادة الفهد وتشكيل كتلةٍ تؤمن بتفعيل الخط العسكري باتخاذ الكفاح المسلح طريقاً لتطبيق النظرية».

صمت قليل، ثم قال بشيء من الأسف:

«ربما أن علياً واحد من هؤلاء».

«وأنت ما رأيك بقيادة الفهد؟»

سأل محمد، فتمهل العجمي في الجواب، لكنه قالَ مفتعلاً الثقة:

«لابد من انتظار عقد مؤتمر لتناول هذا الأمر».

كان محمد يسعى إلى إزاحة الفهد من قيادة الحزب الذي يشكل بعجرفته وتعاليه عقبة أمام سعيه للاستحواذ على الحزب الذي يسيطر على قلوب أغلب العمال والفلاحين، أو على الأقل تكون القيادة بشخص يثق به كعلي أو سلمان العجمي.

لم ينتهِ محمد من حكاية سمعان اليهودي وعلاقته بالفهد، حتى قفز الاسم مرة أخرى مثل حنكليس كبير يخبط الماء أمامه، فقد همس له الحاج رضا عن نية سمعان في بناء قصرٍ يشبه قصره تماماً، وسيقوم أبو سلافة البنّاء ببنائه. حاول محمد أن يعطي انطباعاً للحاج رضا بأن الأمر ليس بتلك الأهمية، فما الضير لو بنى سمعان أو غيره قصراً كقصره، إلاّ أن الحاج رضا راح يوضح لمحمد مهوّلاً ما يقوله:

«ربما ما تقوله صحيح لو كان الأمر صادراً عن نية سليمة؟»

انتبه محمد إلى ما قاله الحاج رضا، فسألَ لمعرفة ما يقصد بكلامه:

«وماذا يقصد من ذلك؟»

نفخ الحاج رضا صدره وهو يستند على مسند الكنبة الخلفي. عدّل عقاله، وقال:

«إنه يحاول أن يلفت الأنظار إليه.. فهو يسعى إلى جمع ثلةٍ من التجار والموظفين التابعين إلى إدارة المدينة».

هزّ محمد رأسه مصغياً إلى ما يقوله الحاج رضا باهتمام، فاستأنف الحاج:

«لا حديث لهم غير الإساءة إليك والانتقاص من سيرتك».

وقبل أن يتفوه بكلمة، أضاف الحاج رضا كلاماً يحمل تآويل عدة:

«ويقال إن له علاقات بعصابة هنااااااك».

«أين؟»

سأل محمد بعفوية، فردّ الحاج رضا مباشرة كأنه كان بانتظار السؤال:

«في مدن الساحل الشمالي».

شعر محمد بأن سفوّداً ساخناً قد لذعه، لكنه تماسكَ كيلا يعطي الحاج رضا الذي لا يثق بحرصه المفتعل فرصة لدس كلامٍ نابعٍ عن نية خبيثة لمعرفة ردة فعل محمد على ما يقوله، ولكي يغيّر مسار الحديث، قال محمد:

«ولكنّ.. أبا سلافة ابن عمك.. لماذا لا تمنعه من بناء القصر؟»

صمت الحاج رضا وهو يهز رأسه بشيء من الزهو، ثم قال متأففاً:

«نعم.. نعم.. هو ابن عمي.. ولكنه طمّاع.».

تطلع محمد في وجه الحاج رضا، وقال كأنه ينهي الموضوع بحلّ يرضي الطرفين:

«سأضاعف له ما سيكسبه من سمعان.. وسأضمن له عملاً دائمياً».

«سأنقل له اقتراحك..»

قال الحاج رضا مزهواً بحكمته، وأضاف:

«سأقنعه.. سأقنعه..»

زارَ محمد أرملة أخيه بعد انتهاء فترة العدّة، بصحبة عليّ وسميّة. استقبلتهما بفتورٍ وعتب، موجهة كلامها إلى سمية، شاكيةً من عزلتها ووحدتها وهموم اليتامى، ثم وفي إشارة لها دلالة أدركتها سمية قبل محمد، قالت وهي تنظر إلى محمد بزاوية عينها:

«صحيح أننا لسنا بحاجة بفضل أبي زهرة.. ولكن المال ليس كل شيء».

طأطأ محمد رأسه واضعاً كفيه بين ساقيه دون أن يرد على كلامها، بينا راحت سميّة تعتذر لها مبررة عدم زيارتها بانشغالها وبأمراض الشيخوخة التي هجمت عليها بعد وفاة مناف. قالت وهي تمسح عينيها:

«من المفروض أكون أنا أولاً».

ساد صمت عميق وكلّ منهم يتطلع إلى الأرض، غير أن سميّة عادت لتكسر الصمت مستغفرة الله على اعتراضها على قدره:

«لكلّ منا يومه.. ولا اعتراض على مشيئة الله».

وضعت أرملة مناف صينية الشاي على المنضدة، واعتذرت بأنها ستغيب قليلاً. اقتربت سميّة من محمد وحاولت أن تهمس في أذنه شيئاً، إلا أنها امتنعت حينما رأت جعفراً وعقيلاً وهما يراقبانها بفضول. التفتت إليهما، وراحت تسألهما بحنو عن دراستهما وتوصيهما بأن يعاملا أمهما بلطف راويةً لهما كجدة عن سيرة العائلة الهاشمية مركزة في حديثها عن نبل أخلاق أبيهما وشهامته. بعد دقائق عادت أرملة مناف إلى الصالة وقد نثرت شعرها الأسود الطويل على كتفيها وقد ارتدت ثوباً أنيقاً أسودَ، كأنها تتهيأ للخروج. انتبهت سميّة إلى أنها وضعت شيئاً من الكحل على عينيها وصبغاً وردياً خفيفاً على وجنتيها، فسألتها بلهجة لا تخلو من خبث أنثوي:

«خير.. هل تستعدين للخروج؟»

فردت أرملة مناف بالنفي، قائلة:

«لا.. ولكن.. ضاق نَفَسي من الحزن».

تطلعت سمية إلى محمد وهي تضع يدها على فمها لتخفي ابتسامتها.

انفجرت سميّة بضحكة عالية، ما أن خرجا من بيت أخيهما فسألها محمد عن أسباب ضحكها، فردّت عليه بمداعبة خبيثة:

«أعرفكم يا أبناء هاشم خبراء بالنساء.. فكيف لم تلتقط الإشارة؟»

أبدى محمد استغراباً لما تقوله أخته، وحينما طلب منها أن توضّح له ما تعنيه، سألته بلهجة تجمع ما بين الجد والهزل:

«لماذا لا تتزوج أرملة أخيك؟»

تطلع محمد إلى سمية بغضب وهو يردد:

«استغفر الله.. استغفر الله..»

«ولماذا تستغفر الله؟»

سألت سميّة وهي تحاول أن تخفي ابتسامتها، فردّ محمد بلهجة ناهرة ولوم:

«لم يكن مناف أخاً لي فحسب.. بل كان بمثابة أبي».

على الرغم من الزيارات المتكررة التي كان يقوم بها محمد إلى بيت أخيه محملاً بالهدايا وملبياً كل ما يستلزمهم من عيش رغيد، ومؤكداً على أرملة أخيه بأن ترسل له أحد الولدين متى ما تشاء إن احتاجت إلى شيء، إلا أنها كانت تختلق الأعذار لزيارته في القصر، وفي كل مرةٍ كانت تنفرد به لتشكو له متذمرةً من عزلتها، وخوفها من الوحدة، وسوء حظها الذي رمّلها وهي في عزّ شبابها. أدرك محمد أن هواجس سميّة كانت صائبة وأنها تعرض نفسها أمامه، لذا فقد أصبح يخشى وجودها معه على انفراد، خاصة بعد أن لمس شيئاً غريباً قد حدث معه، فحينما انحنت أمامه مرة بشكل لا يخلو من افتعال، واندلق نهداها، خانته عيناه، إذ تركزتا دون وعي منه على النهدين الصارخين من ظمأهما، فسرت في جسده رعشة. لامَ نفسه على دناءتها متعوذاً من الشيطان، لكنّ مشهد نهديها ظلّ يرتسم أمامه كلما فكّر بها، ويزداد رسوخاً أمام ناظريه كلما ضاجع نويرة، لكنه أصرّ على إخراجها من تفكيره فتباعدت زياراته لبيتها، وصار يتهرب من وجودها متحججاً بمشاغله الكثيرة، وكلما ازدادت وضوحاً معه بالكلام أو بلغة جسدها، ازداد هو نفوراً منها، حتى أدركت هي ذلك فتحولت إلى لبوةٍ شرسة، شاهرة حقدها وغيظها عليه. رفضتْ اقتراحه بنقلها إلى بيت قريب من قصره، كذلك ردّت بجلفٍ ما كان يرسله إليها ولولديها من معونات، رافضةً أي تدخل من قبله في شؤون جعفر وعقيل وهذا ما أغاظه كثيراً.

جعفر وعقيل، توأمان يتشابهان بشكل عجيب حتى لا يستطيع أحد سوى أمهما التمييز بينهما، غير أنهما مختلفان في سلوكهما واهتماماتهما بقدر تشابههما الشكلي، فبينا كان جعفر انطوائياً، عفيف النفس واللسان، ويتميز بسلوكه الصارم والجاد حد العبوس برغم كبريائه واهتمامه الكبير بأناقة منظره، كان عقيل مرحاً حد الفوضى، مندفعاً إلى اللهو بتهتك وبجنون يفوق جنون المراهق الطبيعي، حافظاً للسِيَر والأشعار والأغاني

يرددها بصوتٍ عذب، وعازفاً ماهراً على العود، لكنّ كلّا منهما كان يشغل مكاناً خاصاً في نفس محمد، فيرى فيهما صوىً على الطريق المرسوم في مخيلته وتوكيداً على أنه المصطفى الذي اختارته الأقدار منذ طفولته، لينشئ مملكة كان الجد هاشم يحلم بها، لذا فقد كان يشغله أمر انتزاع ولديْ أخيه من أمهما بأية طريقة.

لم يجهد محمد تفكيره كثيراً، ففي تلميح يوحي بالبراءة بعثه سرّاً إلى الحاج رضا استطاع الأخير أن يغري ابن عمه أبا سلافة في التقدم لخطبة أرملة مناف. أعلن محمد بطريقة مخاتلة اعتراضه على زواج أرملة مناف متحججاً بأنه لم تمض بعد سنة واحدة على وفاة أخيه، وكذلك أن أبا سلافة متزوج من زوجتين وليس بمقدوره أن يتكفل بإسكان ومعيشة زوجة ثالثة. لاقى رفضه هذا هجوماً شرساً من قبل أرملة أخيه، معلنة بصوت عال بألّا يحق لمحمد ولا لأحد من الهاشميين التدخل في أمر يخصها هي وحدها، عندئذ أشهر محمد ورقةَ مساومته، مشترطاً أن تتخلى له عن الغلامين الهاشميين مقابل موافقته على زواجها. لم تتردد في لحظة غضب وعناد في الموافقة، إلاّ أن محمداً كان قد تمسك بهذه اللحظة، فأصبح التراجع عنها بعيد المنال، بل حتى جعفر وعقيل اختارا العيش مع عمهما بعد أن تلاشت أمامهما هالة الأمومة القدسية حينما تنازلت عنهما أمام أول رجلٍ يتقدم إليها.

أما بالنسبة لأبي سلافة فقد استطاع محمد أن يضع عليه شرطَ تخليه عن العمل لصالح سمعان اليهودي، ولكيلا يفلت الصيد من صنّارته، وضع له طعماً دسماً سارع أبو سلافة على التهامه، فقد تعهد محمد له على تشغيله عنده وبأجرٍ مغرٍ، وبهذا طواه تحت عباءته، تابعاً له ككلب حراسةٍ وفي.

* * *

(٢١)

تناول محمد من الصحن الذي أمامه ماندرينةً. نزع القشر عنها، وهو يتطلع إلى نقطةٍ بعيدة في الأفق الوهمي. اقتطع حزّاً، وضعه في فمه وراح يمتصه. لم يشعر بطعمه. أعاد الماندرينة إلى الصحن وتناول أخرى. راح ينزع القشر عنها ببطء. تناول حزّاً منها ووضعه في فمه بحركة لا إرادية. لا يدري إنْ كان قد أكمل أكل الماندرينة أم لا، لكنّ يده امتدتْ إلى الصحن وتناولت ماندرينة ثالثة. راحت أصابع كفّه تعريها دونما جهد يُجبره على قطع سيل الأفكار التي تتلاطم أمواجه في رأسه.

وهكذا... حتى انتبه إلى أنه جاء على حبّات الماندرين كلّها، حينما رأى القشور التي تراكمت أمامه، وحبّات الماندرين العارية وقد استقرت على سطح المنضدة بشكل عشوائي، وقد أُنتزِعَ من كلّ واحدةٍ حزّ أو حزّان.

شعرَ محمد بطعم غريب في فمه. حرك شفتيه متمطقاً. كانت شفتاه دبقتين كأنهما لصقتا بصمغ. مدّ لسانه لاحساً شفتيه، فتذوق طعم دم. من أين جاء الدم؟ تساءل مع نفسه، فقد كان لا يشعر بجرح في شفتيه أو لثته. لم تطلّ فترة حيرته، حينما انتبه إلى أنه وخلال غيبته عن الوعي، كان قد قضم أظافر كفيه فسالَ الدم منها دون أن يشعر. أسرعَ إلى الحمّام. فتح حنفية الماء البارد على أنامل كفيه متحاشياً النظر إليها أو إلى المرآة التي أمامه. تمضمضَ بالماء وبقّه من فمه وهو مغمض العينين. كان يخشى أن يرى منظر الدمِ على أنيابه، حتى تأكد من زوال طعمه من فمه. هاله منظر أنامله وقد تعرّت من أظافرها وتسلخ جلدها. لم يجد

جواباً للسؤال الذي خطر في ذهنه، وهو كيف استطاع أن يقظم إظافره في الوقت الذي كان يقشّر فيه الماندرين. شعر بخجل من عادة لازمته منذ طفولته، ولم يتخلص منها حتى الآن وهو صاحب الإرادة القوية التي تكسر الحديد، ويقف أمامها أقوى الرجال مرتعشاً. عاد إلى جلسته الأولى في مكتبه، لكنه سرعان ما نهض. أخرج من دُرج مكتبه قنينة النبيذ. عبَ من فوهتها ملء فمه. جلس على كرسيه، وراح يتطلع إلى حبّات الماندرين العارية.

«الفواكه كالنساء».

ردد مع نفسه، ولم يكن يرى في الوهلة الأولى وجهاً للمقارنةِ سوى العري الذي يجمع بين المرأة وحبّات الماندرين التي أمامه على المنضدة، لكنه وجد الأمر طريفاً، فراح يستعرض خبرته وتجاربه مع النساء لاكتشاف أوجه أخرى للمقارنة ما بين النساء والفواكه، فالرمانة كالمرأة العصيّة، لا تخلع ثيابها بسهولةٍ وتضمّ تحت قشرتها الصلبة لآلئَ انتظمت بشكل يكاد يكون إعجازياً بشفافيتها وهندستها التي تسحر من يراها قبل أن يتذوق طعمها، بينا الماندرين ذو قشرة رقيقة تتعرى ما أن تلامسها الأصابع. صوت في داخله احتج عليه، مفنداً رأيه:

«ولكن الرمانة مع صلابة قشرتها وهندسة ما بداخلها إلا أنها قد تنفرط.. بينا الماندرينة برغم قشرتها الرقيقة تبقى متماسكةً بجمال عريها».

هزّ محمد رأسه وهو يتأمل استنتاجه المعارض، فوجد أنه محق، لكن هذا التناقض يضيف وجهاً آخرَ للمقارنة، فكلّ منهما يخفي غموضاً لا يُدرك إلا بالتجربة، وقد يخطئ أي خبير في عالم النساء إنْ بنى حكمه على النظرة الأولى.

«نعم.. النساء كالفواكه».

كرر عبارته، مؤكداً على جديّة اكتشافه وفرِحاً باستنتاجه الذي لم يسبقه إليه شاعر أو حكيم من قبل، فواحدة كالتينة سوداء لكنها عسلية الطعم ومعشوقة البلابل، وأخرى كالصبّارة قشرها شوكيّ وداخلها يذوب

في الفم، وثالثة كالزيتونة لا تشفع قدسيتها لمرارتها، إذ لابد من نقعها بالماء أياماً قبل أكلها، ورابعة كالجوّافة رائحتها تُنعش الروح لكنها بلا طعم. أراد أن يقول «طعمها كالبراز» إلا أنه أبعد الفكرة عن ذهنه قبل أن تشاكسه نفسه وتسأله إنْ كان قد ذاق طعم البراز.

«الماندرينة امرأة طيّعة.. بل رخيصة.. عاهرة...»

ردد مع نفسه بتشفٍ، كأن بينه وبين الماندirين ثأراً. ارتفعت ضحكته، وهو يقارن ما بين الماندرينة والمرأة سهلة الإغواء. كاد الصوت الآخر ينطلق من داخله فاضحاً ما يحاول أن يخفيه من تناقض وإدّعاء، إلا أنه استطاع لجمه، ليعود إلى لعبته.

لعبةٌ مُسليةٌ اكتشفها وهو يفتح دفترَ ذكرياته، محاولاً رسم ملامح كل امرأة عرفها في حياته، ومقارناً بينها وبين فاكهة أو ثمرة. وجد ما بين الماندرين وجوز الهند نساء كثيرات، لكل واحدةٍ شكلها وطعمها وسمْكُ قشرتها.

«بهيجة... أيه فاكهة تشبهها؟»

سأل نفسه، فأجابت دون تأمل:

«تفّاحة أو مشمشمة».

«لماذا تفاحة أو مشمشة؟»

«إنها تؤكل بقشورها».

«لا.. لا.. لم تكن بهيجة تفاحة أو مشمشة».

توقف قليلاً وهو يحاول أن يجد الفاكهة التي تشبه بهيجة. قفز من كرسيّه بحركة طفلٍ، يفطن للجواب فجأة:

«جوزة.. نعم.. جوزة».

«ليس لأن لها قشراً سميكاً لا يُكسر إلا بضربة قوية.. بل لأن في داخلها قشوراً أخرى ودهاليز.. يختفي اللبّ بينها».

فجأة توقف محمد عن مقارناته، حينما ارتفع ضحكُ زهرة وعلي في الطابق العلوي. شعرَ بشيء من الخجل، أراد أن يكسره بمقارنة طريفة

بين زهرة والفاكهة التي تشبهها، إلا أنه توقف متهرباً من مشهد ابنته وهي تتعرى مثل ماندرينة أو رمانةٍ أو حتى جوزة.

كان محمد، ومنذ زواج زهرة قد دخل مرحلة جديدة في حياته، إذ بدأ يشعر بأنه لم يعد ذلك الفتى الذي ينظر إلى الحياة أمامه، وله متسع من الوقت كي يحقق ما يطمح إليه. لا يدري إن كان قد حقق شيئاً أم أن ما حققه ليس إلا قبض ريح، وأن المفردة التي سمعها يوماً تتردد على لسان الشيخ نوفل واقتحمت أذنه مثل ضربات ناقوس، وقد كانت المهماز الذي نحّاه عن طريق براءته ولهوه، ليضعه أمام بوابة الحياة المغلقة، فلم يجد سوى مفردة (السلطة) تعزيماً لفتحها، ليجد نفسه أمام دوائر من الطلاسم المبهمة، اختار مركزَ سَورتها، نزقاً أم قدراً أم أن هناك يداً خفية، كانت ترسم خطَاً لمسار حياته دون أن يدري فانساقَ لإرادتها طوعاً، ليعلن تحديه أمام وحش الغموض كما تحدّى يوماً أقرانه من الصبيان على اجتياز مفازة الجنّ برهانٍ لا جدوى منه سوى إثبات الذات، فماذا كانت النتيجة؟، ها هو الآن قد تجاوز الأربعين من عمره ولم تظهر عليه علامات النبوءة التي كان يتوهمها في صباه، أو أوهمه بها الشيخ نوفل لغاية في نفسه، وكان ينتظر الوعد في سنّ الأربعين. متى سيهبط الوحي عليه ليأمره ببدء الدعوة؟ وماذا ستكون رسالته؟ ومتى سيدوّن للناس قرآنه أو وصاياه التي لن يضل من يقرأها أبداً.

«أبداً.. نننننننننننننن»

ردد مع نفسه بصوتٍ عال مطيلاً نهاية الكلمة إلى آخر ما تسمح به أنفاسه. شعر بسحابةٍ من الكآبة قد غطت أفق نظره، وتغير مزاجه الذي كان قبل قليل رائقاً. نهض من كرسيه وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابا، وذهنه لا يستقر على فكرة واحدة. كان الليل في أوله، غير أنهم تركوه وحيداً، فزهرة وعلي مشغولان في اكتشاف طريق سعادتهما، ونويرة ذهبت للنوم مبكرة بعد أن أخبرته بألا أمل يرتجى منها الليلة، فقد جاءتها الدورة الشهرية وتعاني من صداع وآلام في بطنها. فكر أن يخرج

إلى الحديقة أو أن يزور ولديْ أخيه اللذين انتقلا في مسكن قريب من القصر وانتقلت معهما لؤلؤة منذ زواج زهرة، لكنه غيّر رأيه بعد أن لمح باب مسكن سائقه مواربأ والضوء يتسرب منه إلى الخارج. خطرت في ذهنه فكرة أن يطلب من جاسم يأخذه بالسيارة لزيارة سلمان العجمي أو إلى أية جهة ما. اقترب من الباب، وقبل أن ينادي على جاسم، لمح من فرجة الباب زوجته جالسةً على الأرض وهي تضع الطست بين ساقيها، وقد انحسر الثوب عنهما. ارتد قليلاً إلى الخلف، إلا أنه ودون إرادة منه، عاد يتطلع إلى ماريّا بعينين نهمتين كأنهما لم تريا امرأة من قبل.

لقد عاشرَ محمد خلال رحلاته العديدة، عدداً ليس قليلاً من نساء الساحل الشمالي أو القادمات إليه من وراء البحر، ومن بينهن الشقراء والسمراء وحتى من الزنج والغجر، إلا أنه لم يكن يتوقع أن الجمال يقيم على بعد بضعة أمتار عنه، وأن شجرة من فاكهة الجنة مغروسة في حديقته، ولم يكن منتبهاً لوجودها.

«ربما هي تفاحة الخطيئة».

«وربما هي رمّانة جاهزة للإنفجار».

«وربما هي الكرزة التي استدلت عليها حواء.. فذاق آدم طعمها من شفتي حبيبته.. فكانت القُبلة الأولى في تأريخ البشرية».

«ولكن.. ربما هي فاكهة الهاوية».

تطلع محمد خلفه وعلى جانبيه ليتأكد من عدم وجود أحد يراقبه، ثم راح يتطلع من فرجة الباب بحذرٍ ودقات قلبه يرتفع صوتها. كانت ماريّا مشغولة في غسل الملابس وهي تردد بصوت شجيّ أغنية من أغاني المدن البعيدة. كانت ترتدي ثوباً أحمرَ شفافاً مفتوح الصدر وبلا اكمام، يكشف عن ذراعين مكتنزتين وإبطين ملساوين، وقد انحسر ثوبها أكثر مما رآى في اللمحة الأولى حتى انكشف أعلى فخذيها الوامضتين. كانت وهي تغسل الملابس بيديها تنحني على الطست وتستقيم بحركةٍ متناوبة، فيرتج نهداها بإيقاعٍ متناسق، وقد تبلل ثوبها عند الصدر فشفّ عن

إجاصتين ناضجتين، تحركُ غصنهما نسائمُ عذبةٌ. شعر محمد بالنارِ تصعد من قدميه إلى رأسه كأنه يتلمس دبيب سريانها في جسده، وبلل ينحدر على فخذيه. جفل حينما سمع صوت حركةِ قطة أو كلب سائب خلفه. انزوى في المرآب كأنه يبحث عن شيء أو يتفحص السيارة. انتبه إلى حالة الهوس التي سيطرت عليه فشعر بخجلٍ. انسحب بهدوء، حذراً من إحداث صوتٍ، وما أن دخل البيت حتى ارتفع صوته متعوذاً من الشيطان.

استيقظت نويرة فشعرت بأن محمداً لم يزل يقظاً، يتقلب على السرير دون أن يستقر على جهة. خمّنت سبب أرقه. تراجعت نحوه ببطء كأنها تبحث عن دفء أو تحاول الإحتماء بحضنه، حتى التصق ظهرها بصدره. أحاط محمد كتفها بذراعه، متجنباً أن تقع كفه على صدرها أو يلامس حوضه جذعها تحاشياً للإثارة، ليس لإنها حائض فحسب بل لأنه يدرك أن شهوته الليلة لا يطفئها إلا جسد ماريّا. دفعت نويرة عجيزتها إلى الخلف، محركةَ ردفيها بحركة خفيفة حتى استدلّ شقّها على قضيب محمد. حركت عجيزتها عليه صعوداً ونزولاً، فأحست بحركة انتعاظهِ وتمدده بتدرجٍ محسوس حتى تصلب. مرر محمد كفه على فخذيْ نويرة رافعاً ثوبها حتى بطنها. أغمض عينيه متخيلاً جسد ماريّا، فازداد انتعاظه. استل قضيبه وحاول أن يدخله بين فخذي نويرة، إلا أنها مدت إليه يدها. مسكته بقبضتها داهنةً رأسه بماء شهوته. مررته في شقّ الدرّاقة بحركة بطيئة حتى استقر رأسه عند فتحة دبرها. شعر محمد بهياج شديد أنساه أي جسد يرقد الآن جنبه، فلم يسبق له أن جرّب الولوج في هذا الطريق، على الرغم من أنه كان يتخيل ذلك كثيراً في لحظات هياجه ويتمناه، إلا أنه كان يخجل أو يخشى أن يطلب ذلك.. تلك الليلة غيّرَ محمد رحلَه، دونما شعورٍ بالخجل أو التأنيب.

أعلن محمد عن نيته السفر إلى الشمال، وكعادته لم يذكر أهداف سفرته، إلاّ أن البعض أشاع بأن محمداً ينوي التعاقد مع شركةٍ لمد

خطوط الترام من مركز الولاية إلى مدينتهم. لم ينفِ محمد هذه الشائعة ولم يؤكدها، فقد وجد فيها سبباً في تغطية أهداف رحلته.

لم يخرج أحد في توديعه كما حدث في المرة السابقة لأنه لم يخبر أحداً عن موعد سفره سوى علي وسلمان العجمي، لكنه شاهد بعض المارين في الطريق الخارجي العام الذاهب شمالاً، وهم يتوقفون ملوحين له بتلويحة الوداع حينما كانت السيارة تمر من أمامهم، فكان يخرج لهم ذراعه وهو جالس في المقعد الخلفي أو يضغط جاسم على زمّور السيارة.

لم تمضِ سوى عشرة أيام على سفر محمد من الهاشمية، حتى عاد إليها بسيارة جديدة، كان يقودها وحده. كانت السيارة سوداء طويلة وبمقاعد وثيرة. تجمّع بعض الرجال في استقباله إلا أنه اجتازهم دون أن يتوقف أو يرفع لهم يده بالتحية. دفعهم الفضول إلى معرفة سبب غياب السائق جاسم، فراحوا يتابعون خط سير السيارة حتى توقفها عند القصر. أدخل محمد السيارة في المرآب وخرج منها مسرعاً نحو باب مسكنه. كانت ماريّا تقف خلف باب دارها الموارب حينما سمعت هدير محرك السيارة، وحينما لم ترَ زوجها، هرعت خلف محمد خائفةً لمعرفة سبب عدم مجيء زوجها، لكنّ محمداً كان أسرع منها في الدخول، غالقاً الباب خلفه. توقفت ماريّا قليلاً ثم راحت تطرق الباب بكلتا قبضتيها. فُتح الباب، فدخلت. كان بعض الرجال والأطفال يقفون قريباً من القصر وهم يتطلعون إلى السيارة التي لم يروا مثلها من قبل. مضت دقائق قليلة على دخول ماريّا إلى القصر، حينما ارتفعت صرختها عاليةً فوصلت أسماع من بقي واقفاً في الخارج.

بعد أقل من ساعةٍ، انتشر في الهاشمية كلها خبر موت السائق الجميل ذي العينين الزرقاوين والوجه القاني، جيمس، المسيحي الذي دخل الإسلام، وصار اسمه (جاسم).

أقيم مجلس الفاتحة في القصر لمدة ثلاثة أيام، كان خلالها محمد يقف منهكاً في استقبال المعزين، وعيناه غائرتان في محجريهما

ومغرورقتان بالدموع، حتى أشفق عليه عدوّه (كما ردد البعض). خلال أيام الفاتحة الثلاثة، كرر محمد على أسماع زائريه الحكاية عدة مرات:

«فجأة شعرتُ بأن السيارة بدأت تسير بسرعة جنونية.. ورأيت جاسماً وهو يضرب بقدمه دواسة التوقف ولا تستجيب.. أخبرني بأن فرامل السيارة قد تعطلت.. وهي تنحدر على الطريق الجبلي.. المشرف على الساحل البحري.. لم يستطع المرحوم السيطرة عليها.. فكانت السيارة تتحرك يميناً وشمالاً وجاسم متشبث بمقودها.. لا أدري كم مضى من الوقت حتى.. ارتطمت بصخرة كبيرة.. لم أرَ بعد ذلك شيئاً فقد تحول المشهد كله أسودَ.. ولم أشعر بشيء بعدئذٍ.. لا أتذكر كيف خرجتُ من السيارة.. ولكني أتذكر وجوهاً مموهةً كأنها غارقةً في الضباب.. وجوهاً لرجال احاطوا بالسيارة.. وأسمع أصواتاً كأنها قادمة من الدار الآخرة»

يتوقف محمد قليلاً وهو يلتقط أنفاسه، ثم يضيف:

«لقد ضحّى بحياته من أجلي».

ويجهش في البكاء، فيجاريه الرجال ببكاء لم يعرفوا مرارته حتى بفقدانهم لأعزائهم. بعد أن تتوقف موجة البكاء، يعود محمد ليوضح الأمر وهو يمسح الدمع الهاطل على لحيته:

«... كانت السيارة متجهة نحو الوادي العميق الذي يقع على يمين الطريق.. غير أن المرحوم أدار المقود نحو الصخرة.. فارتطمت السيارة بها من جهة القيادة.. وتوقفت».

يصفق محمد بكفيه، عاضاً على شفته السفلى حتى يكاد يدميها، وهو يردد:

«ضحّى بحياته من أجل ألا تسقط السيارة في الوادي.. فنموت معا».

كان الرجال يرتعشون والدموع تهطل من عيونهم وهم يستمعون بخشوع إلى محمدٍ، وينظرون إلى هذا الجبروت وقد ذاب كقطعة ثلج في ظهيرة قائظة، وعلى الرغم من غرابة المشهد على الرجال الذين لم يظهروا ضعفهم كالنساء في أشد أيام محنهم، إلا أنهم كانوا ينظرون إلى

محمد وهو يبكي مثل طفلٍ أو ثكلى، بعين الإكبار والإجلال، ويثنون على وفائه لشابٍ غريبٍ لا يجمعه به سوى علاقة السيد بخادمه، فحاز محمد بضعفهِ على هيبةٍ واحترامٍ فاق ما حازه في قوته، ولكنّ هذا الأمر لم يمنع بعض المتقولين من اجتراح تفسير آخر للحادث، ربما لم تقتنع مخيلتهم بهذهِ الطريقة في الموت، فأضافوا لمسات أخرى ليكون موت جاسم أكثر بطولة وكرامة، فقد انتشرت شائعة تقول إن جاسماً لم يُقتلِ في حادثة اصطدام السيارة، وإنما قتل في محاولة اغتيال كانت تستهدف محمداً لأسباب لا يعرفها غير محمد وأعدائه. نجا منها بعد أن غطّاه جاسم بجسده واستقبل الرصاص الذي أمطره به المغتالون، وما هذه السيارة التي جلبها محمد معه إلا لتغطية الأمر وتمويه وجه الحقيقة منعاً للإحراج الذي ستسببه له أسئلة الفضوليين. لم يتوقف أحد عند هذا التفسير طالما أن النتيجة واحدة، فقد مات جاسم مضحياً بنفسه لحماية محمد. وحدها نويرة، كان لها تفسير ثالث.

حاولت نويرة أن تمنع محمداً عن زيارة ماريّا، مذكّرة إياه بألا يجوز للأرملة رؤية رجل قبل مرور أربعة أشهر وعشرة أيام على وفاة زوجها، فردّ محمد عليها بأن ماريّا ليست مسلمةً وهذا الشرط لا ينطبق عليها. ارتفع منسوب الغيرة في نفس نويرة، خاصة بعد أن رأت الاهتمام الكبير الذي يوليه زوجها لهذه الأرملة الجميلة، واهتمامه قبل كل زيارة لها بمنظره، وتعطّره ووقوفه أمام المرآة طويلاً ناتفاً ما يستطيع من الشعرات البيض التي انتشرت في لحيته وفوديه، وفي لحظة غضب أنستها ما تعرفه عن عناد محمد وجبروته وغضبه على من يتحداه، قالت:

«أرى أن عزرائيل يسارع لك في هواك».

لم يرد محمد على كلامها، محاولاً كظم غيظه، إلا أنها توهمت صمته تنازلاً، وتقديراً للغيرة التي يعرف أن مصدرها حبها له، وتوهمت بأن استفزازها له قد يثنيه عمّا ينوي فعله، فتمادت إذ قالت كأنها تجيب على ما قالته قبل قليل:

«لا.. لا ذنب لعزرائيل.. بل إنه الذئب».

تطلع محمد إلى نويرة بصمت، ثم نهض مغادراً البيت.

في صباح اليوم التالي وكان قد قضى ليلته ساهراً في غرفة مكتبه، نادى على زهرة فأسرعت إليه. قال لها:

«اذهبي إلى نويرة وقولي لها تجهز نفسها».

قبل أن تذهب زهرة، خرجت نويرة من غرفة نومها، وسألت محمداً وهي ترتعش:

«إلى أين؟»

«إلى جهنم».

ردّ محمد محاولاً السيطرة على غضبه وهو يتطلع إلى السقف. تسمرت نويرة في مكانها، فصرخ بها أن تعجّل. حينما ذهبت، ناداها بصوتٍ عالٍ:

«خذي معك كلّ ما يخصك».

ولكي يؤكد ما يقوله أضاف:

«لا تتركي شيئاً».

عندها أدركت نويرة ما نوى عليه محمد.

قبل أن يسلّم محمد نويرة إلى شيخ عشيرة الرمضاء، رمى عليها، وعلى مسمع الشيخ مزاحم ورجاله، يمين الطلاق، متعهداً أمامهم بأنه سيتكفل بكل مصاريفها، ومخصصاً لها راتب إعالةٍ مادامت على قيد الحياة.

لم يترك محمد الوقت يمضي دون أن يكون فيه شاغلاً للناس في تناقل أخباره، حتى قيل إنه يتعمد افتعال أحداث ليبقى مركزاً لحديثهم، بل إن هناك من قال إن محمداً نفسه يختلق الشائعات ويأمر رجاله بنشرها بين الناس ليحيط نفسه بهالة من الغموض يستلب بها إرادة البسطاء ويثير الخوف في قلب من تسول له نفسه التعرض إليه، وقد استطاع بذكاء أن يضع يده على نقاط ضعف الكائن الذي يرهبه الغموض، وتخيفه

المؤامرة، حتى سلمان العجمي رفيقه وأقرب الناس إليه راح يشكك في ما يفعله محمد، فهو لا يؤمن بما يردده الناس من أن لمحمد قوة خارقة يستخدمها في شقّ طريقه للوصول إلى غاياته، أو أنه متحالف مع شياطين تجوس له الأماكن المعتمة وتخطو قبله في الطريق الغامض، لكنه في الوقت نفسه لا يستبعد أن تكون له علاقات مشبوهة مع جهات لا يعرفها، وما سفراته المتكررة إلى مدن الشمال الساحلي إلا دليل على ذلك، لكن الذي يدفعه إلى إخفاء هواجسه وشكوكه هو ما يقدمه محمد من دعم غير محدود للحزب، وحبّه الذي لا شك فيه للفقراء من العمال والفلاحين، وكذلك دفعه لابن أخيه وزوج ابنته إلى الانتماء إلى الحزب، وتخصيص جلّ وقته لأمور التنظيم دون أن يحاسبه عمّه على إهمال واجبه في إدارة الأعمال، فأصبح أملاً لقيادة الحزب في المستقبل كما يراه سلمان العجمي.

ضربت سميّة كفاً بكف متحسرة، حينما أخبرها محمد بنيّته الزواج من أرملة سائقه، وراحت تردد كلاماً يجمع الجد بالهزل:

«يا أخي.. لماذا نصيبك من النساء خائب.. وأنت سيد الأسياد؟»

وعلى الرغم من أن محمداً قد أدرك ما ترمي إليه، إلا أنه تطلع إلى سميّة مستفسراً، فراحت توضح كلامها بالعبارة نفسها التي رددتها من قبل، متلذذة بتأنيبه:

«الصبايا الأبكار يركعن تحت قدميك.. فلماذا لا تستهويك إلا المرأة المستَخدَمة؟»

لم يكن هذا رأي سمية فقط، بل كان أغلب الذين يعرفون محمداً يطرحون السؤال نفسه بصيغٍ مختلفة، فتكون الإجابات عنه تخميناً لا أحد يؤكده أو ينفيه:

«محمد عنّين ولا يريد أن تفضحه امرأة».

قال أحدهم، فردّ آخر:

«وكيف جاءت زهرة؟»

«إنها ابنة الجنية».

«لا.. لا..»

اعترض شاب يرتدي نظارتين سميكتين، وأضاف:

«إن دافع محمد للزواج ليس المتعة أو الإنجاب.. وإنما الاستحواذ على ما يمتلكه الآخرون.. فالمرأة بالنسبة إليه محض بضاعة أو قطعة أرض».

انتبه الجميع إلى ما قاله الشاب، فشعرَ بزهو، وراح يوضح الأمر:

«محمد إقطاعيّ لا يختلف عن غيره من الإقطاعيين حتى لو إدعى العكس.. لذا فهو يرى في نفسه سيداً.. لا على الأرض فحسب بل حتى على ما يملكه الغير.. فهم في نظره عبيد.. أموالهم ونساؤهم وأرواحهم كلها... ملك يمينه».

سعلَ زميل له منتظراً أن تحين له الفرصة لإبداء رأي في أمر محمد، وحينما صمت الشاب الأول، قال الثاني بهدوء وبالطريقة نفسها التي تحدث بها الأول:

«قوة الباه في نظرِ شخصٍ كمحمد تجلٍ من تجليات السطوة.. لذا فهو يفاخر الرجال بقوته الجنسية.. كي تكتمل سلطته.. سلطته المبنية على إيهام الآخرين بأنه يتفوق عليهم بكل شي.. بكل شيء».

أغضب البعضَ ما قاله الشابان على الرغم من أن أغلبهم لم يفهم مما قالاه شيئاً، بينا وقف البعض الآخر صامتاً، يتلفت حوله خوفاً من أن تراه عين راصدة.

في مسجد المدينة كان الجدل قد أخذ وجهة أخرى، فبينا أصرّ البعض على أن زواج محمد من أرملة ربيبه باطل وخروج على الأمر الشرعي، فالربيب له مكانة الولد ولا يجوز شرعاً أن يتزوج الأب من أرملة ولده أو طليقته، كان فريق آخر يرى أن الأمر شرعيّ، وما من شائبة في جوازه شرعاً، من حيث أن الإسلام لم يعطِ للربيب صفة الولد الشرعي. اشتد الخلاف بين الفريقين حتى حسمه إمام المسجد إلى صالح

محمد في خطبة صلاة الجمعة مؤكداً على أن النبي محمد نفسه قد تزوج من زوجة ربيبه زيد. لم ينتهِ الخلاف بين الفريقين بل أخذ مساراً آخر، فقد اتخذ الفريق الأول هذا التشبيه حجة لإدانة محمد لمحاولته التشبه بخاتم الأنبياء، وقد اعتمدوا دليلاً إلى ما يقولونه بأن محمداً غيّر اسم زوجته المسيحية ماريّا إلى زينب. لم يجد إمام الجامع ضيراً في ذلك بل إنه رأى فيه دليلاً على حسن الإقتداء من قبل محمد، خاصة وأنه أدخل امرأة إلى الدين الحنيف والسلوك العفيف.

* * *

(٢٢)

لم تمر فترة طويلة على نوم محمد، حينما أيقظته زينب. فتح عينيه بصعوبة ثم عاد فأغلقهما، إلاّ أن إلحاح زينب وهي تنادي باسمه خائفة، جعله يستيقظ. سألَ بصوت فيه غلظة المستيقظ تواً:

«ما الأمر؟»

«أسمع صوت إطلاقات نارية في الخارج».

رددت زينب. نهض محمد فاتحاً نافذة الغرفة على الرغم من برودة الطقس، وراح ينصت، فلم يسمع شيئاً. عاد إلى السرير ملقياً اللوم على زوجته لإيقاظه:

«نامي.. نامي.. ربما كان كابوساً».

لكنه وقبل أن يغمض عينيه، ارتفع صوت الإطلاقات ثانيةً وبكثافة تدل على أن معركة تجري بين طرفين. كان الصوت قادماً بوضوح من جهة المخفر أو هكذا تصورَ. هبّ محمد واقفاً كأنه تذكر أمراً مهماً. خرج من غرفة نومه، وبقفزات سريعة على السلالم أصبح في الطابق العلوي، منادياً زهرة، التي خرجت وجسدها يرتعش من الخوف:

«أين علي؟»

سأل بنبرات صوتٍ مرتعشة، فردت:

«لم يعد إلى البيت حتى الآن».

هزّ محمد رأسه دون أن ينطق بكلمةٍ. نزل السلالم نطّاً. ذهب إلى غرفة نومه. ارتدى ملابسه سريعاً، وقبل أن يغادر البيت، سألته زينب خائفة:

«إلى أين؟»

«سأذهب لأبحث عن علي».

تشبثت زينب بكمّه محاولة منعه، بينا وقفت زهرة صامتة. حاول أن يُفلت رداءه من قبضتها، إلا أنها راحت تتوسل به ألا يذهب. وضع ذراعه على كتفها، ساحباً إياها إلى صدره، وهو يطمئنها، مؤكداً بأنه لن يذهب إلى مكان المعركة. لم تصدّق ما قاله فراحت تلقي اللوم على عليّ وتهوره، فردّت زهرة بغضب مدافعة عن زوجها:

«حجة الغائب معه».

«وأية حجة تجعل رجلاً يترك زوجته الحامل وحدها ويقضي الليل خارج بيته».

راح محمد ينقل نظراته بين زوجته الممانعة لخروجه وبين ابنته التي تدفعه للخروج للبحث عن زوجها، وقبل أن يرتفع صوته غاضباً، أدرك بأن كلاً منهما على حق، فقال بصوت هادئ، مطمئناً حبيبتيه وهو يتطلع إليها بنظرات إشفاق وحب:

«لن أتأخر طويلاً».

قبل أن يغادر البيت أمرهما بأن تذهب كلّ منهما إلى غرفتها. انطلق بسيارته نحو حي المحمدية، وعند تقاطع الطرق الأربعة أوقف السيارة، أطفأ محركها وأضواءها، وراح يتطلع إلى جهة اليمين حيث يقع المخفر. كان المخفر مظلماً فقد أطفئت الأضواء النيونية التي خُط بها الاسم، سوى إنارة خفيفة كانت تتسرب من داخله. لمحَ أجساداً بعيدة تتحرك في الظلام عند بوابة المخفر وحوله، حركتها المضطربة تؤكد تخمينه، لكن لا شيء يدلّ على وجود ضحايا. هوّن من مبالغته في القلق، فلربما كان اشتباكاً بين الحرّاس وبعض اللصوص أو المطلوبين. انطلق ثانيةً نحو المكان الذي يتوقع أن يجد علياً فيه، لكي يكسر شكّه ويتأكد بأن الهجوم على المخفر لم يكن يقف وراءه علي وعصابته، على الرغم من أن علياً قد تعهد له منذ اليوم الذي ضبطه في اجتماعه مع خميس الأعور وعصابة المنبوذين بألا يفعل أمراً دون أن يخبره به.

«لكن من يستطيع كسرَ عنادِ الهاشميّ؟»

ردد محمد مع نفسه بشيء من الزهو، فهو كان على علم بأن علياً لم يتوقف عن لقاء عصابته، خاصة وقد أخبره سلمان العجمي بأن علياً يجمع حوله بعض الرفاق، يسعون إلى تشكيل تكتلٍ ليعلنوا انشقاقهم عن قيادة الفهد.

لم يكن عليّ موجوداً في بيته القديم، فاتجه محمد إلى بيت سلمان العجمي الذي لا يبعد كثيراً عن بيت علي. فتحِ العجمي الباب وهو يفرك عينيه محاولاً طرد النعاس وهو يردد شتائم بذيئة موجهة إلى اللا أحد. فوجئ بوقوف محمد عند الباب، فاعتذر عمّا صدر عنه من كلام سوقي، فاسحاً الطريق أمامه للدخول، مرحبا بكلمات مرتبكة. أدار محمد عينيه في أركان البيت، إذ كان يتوقع وجود علي هناك.

أنكر سلمان العجمي أن يكون له علم في الهجوم على مخفر الشرطة، أو أن يكون علي ضالعاً فيه. لم يخفِ هواجسه وشكوكه بما يفكر فيه علي، لكنه استبعد تماماً أن يقوم بمثل هذه الأفعال «الطائشة»، خاصة وأنه بالإمكان الحصول على السلاح بطريقة أخرى، وأن حرس المخفر ليسوا أعداء وأغلبهم ينحدر من عوائل فقيرة، مؤكداً لمحمد على أنه تحدث مع علي واتفقا على هذا الأمر، لكنه يعرف جيداً جموح علي ونزعته المطّرفة في النظر إلى الأمور وانتقاده المستمر لقيادة الفهد التي يظنها متهاونة مع الأعداء الطبقيين، ومحاولته طرح فكرة تشكيل الجناح العسكري في الحزب وقد التف حوله عدد غير قليل من الرفاق ممن استهوتهم الفكرة ووجدوا فيها طريقاً صحيحاً ضد سلطة الإقطاع ورجال الدين والعملاء. كان محمد يصغي باهتمام شديد لما يقوله العجمي، وحينما انتهى من كلامه، صرخ به مؤنباً على تهاونه في إيجاد حلّ لهذا الإشكال داخل التنظيم. هزّ العجمي رأسه متفقاً مع محمد على ضرورة وضع حدّ لهذا النزوع المطّرف الذي ينذر بانشقاق داخل صفوف الحزب.

«ليس الاتجاه المطّرف هو المشكلة الوحيدة».

قال محمد، فتطلع سلمان العجمي إليه باهتمام منتظراً أن يوضح وجهة نظره، فأضاف محمد:

«إني أرى أن لعلي وجماعته شيئاً من الحق.».

صمت قليلاً، ثم قال بشكل يقيني:

«لا أرى أن الفهد قادر على قيادة الحزب في هذه المرحلة.. ولابد من زعامة شابة.. أكثر إدراكاً لمتطلبات المرحلة».

حاول العجمي أن يدافع عن الفهد، إلاّ أن محمداً سبقه بقول قاطع لم يترك مجالاً أمام العجمي للإعتراض:

«الفهد لا يعي من النظرية سوى أفكار ذهنية قد تتطابق مع الواقع وقد تتعارض معه».

قال محمد وهو يتطلع إلى ساعته. نهض متأففاً من سرعة مرور الوقت. سار العجمي خلفه وهو يطمئنه بأنه سيجد علياً قد سبقه إلى البيت.

في البيت كان علي بانتظار عمّه، وعلى وجهه ابتسامة غامضة تشي بتحايل طفولي. سحب محمد علياً من ذراعه نحو المكتب. انقضّ عليه ماسكاً إياه من عنقه وهو يردد بصوت واطئ حرص ألا تسمعه زهرة وزينب:

«لماذا خنت عهدك معي؟»

«لم أفعل شيئاً».

قال علي وهو يحاول تحرير عتقه من قبضة عمّه. لم يرخِ محمد قبضته حتى أقسم علي بروح جده بأنه لم يفعل شيئاً مما يظن، عندئذ سأل محمد:

«أين كنتَ إذن؟»

فردّ علي:

«قمنا بلصق بيانٍ ومنشورات حزبية».

«إلم تهاجموا المخفر؟»

«لا».

أجاب علي، ثم استدرك:

«هم الذين فتحوا النار علينا».

تطلع محمد إليه وامتدت يده إلى عنق علي ثانيةً، إلاّ أن علياً تراجع إلى الخلف قليلاً وهو يردد موضحاً الأمر:

«لم نطلق رصاصة واحدة ولكن حاولنا لصق البيان على جدار المخفر.. انتبه الحراس لوجودنا فراحوا يطلقون الرصاص في الهواء... عندها انسحبنا».

«إعطني البيان!»

قال محمد، فأخرج علي ورقة من جيبه وسلّمها لعمه. راح محمد يقرأ الورقة، ثم عصرها بقبضته ورماها بوجه علي، مطلقاً صوت استهانة واستخفاف بما ورد في البيان.

عقد اجتماع سري للحزب حضره كل الرفاق في قيادة الحزب، ورفاق آخرون جاءوا من مركز الولاية ومن أطراف أخرى. اعترض الفهد في بداية الاجتماع على وجود محمد بحجة أن عضويته قد جُمدتْ ولا يحق له حضور الاجتماع حتى تبت القيادة في أمر إلغاء قرار التجميد، إلاّ أن الرفاق الآخرين لم يعيروا اهتماماً إلى ما قاله الفهد، خاصة وأن هدف الاجتماع الرئيسي هو مناقشة موضوع أهلية الرفيق الفهد في قيادة الحزب.

انتهى الاجتماع بفوز الأغلبية التي تدعو إلى تنحية الفهد، لكن احتراماً لتأريخه النضالي ودوره الكبير في بناء الحزب منذ تأسيسه، فقد قرر الرفاق في القيادة أن يصدروا بياناً يعلنوا فيه استقالة الرفيق المناضل الفهد عن قيادة الحزب لأسباب صحية، وتكريما له يتم منحه وسامَ المطرقة.

لم يمر أمر تنحية الفهد من قيادة الحزب بسلام، فقد اعترضت الأقلية وهددت بالانسحاب من الحزب، خاصة بعد انتخاب محمد رئيساً، وقد

انضم إليها أغلب الرفاق الذين كانوا يقفون ضد قيادة الفهد وممن كانوا يسعون إلى تشكيل الجناح العسكري الذي كان يقوده علي:

«الرفيق محمد وإنْ قدم خدمات كبيرة للحزب لا يمكن تجاهلها.. إلاّ أن انتماءه الطبقي لا يؤهله إلى قيادة حزب العمال والفلاحين».

«هل نسيتم أن أحد واضعي النظرية كان ينتمي إلى طبقة النبلاء؟»

ردّ الطرف الثاني، والذي كان يشكل أغلبه من العاملين عند محمد.

أوجل اصدار القرار عدة مرات، حتى استقر الأمر على انتخاب محمد رئيساً فخرياً للحزب، بينا يتولى الرفيق سلمان العجمي القيادة الفعلية للحزب.

قيل في ما بعد بأن هذا القرار جاء بعد تدخل من شخصيات من خارج الولاية، ولأول مرة يُذكر اسم الطبيب كاروليان وتأثيره على قرار الحزب.

* * *

(٢٣)

خرجت الهاشمية رجالاً ونساءً في توديع ابنيها اللذين سيسافران إلى خارج الولاية لتكملة دراستيهما هناك. انطلقت سيارة محمد يقودها بنفسه وجلس علي إلى جانبه، بينا جلس في المقعد الخلفي كلّ من جعفر وعقيل بملابس أنيقة على الطراز الإفرنجي المتكون من بذلة سوداء برّاقة وقميص أبيض بياقة منشّاة تحيط بها فراشة سوداء، كأنهما عريسان. انطلقت الأهازيج والزغاريد احتفالاً بحدث لم تشهده المدينة من قبل، فقد كان أقصى طموح الأهل أن يروا ابنهم وقد استطاع أن يختم القرآن عند الشيخ ويتعلم القراءة والكتابة، وحتى بعد افتتاح المدارس كان يتوقف التعليم عند مرحلة الدراسة الثانوية، أما الدراسة في الجامعة فقد كانت تتطلب السفر والإقامة في مركز الولاية وهذا حكر فقط على أولاد التجّار والأعيان، إلاّ أن محمداً أصرّ أن يكون أول من يكسر القاعدة ويرسل ابني أخيه للدراسة في البلاد التي تقع وراء البحار.

لم يكونا متفوقين في دراستيهما إلا أنهما كانا متميزين عن أقرانهما، ولكل منهما ميزات تختلف عن الآخر كأنهما لم يكونا توأمين. كان محمد ينظر إلى اختلافهما بل تناقضهما كخطين متقاطعين رسمهما القدر على كفّ العائلة الهاشمية، ليرسم لها في تشابك الخطوط محاور سموها.

كان عقيل مولعاً في اللغة والشعر والحكايات، وقد حفظ منذ صغره الآف الأبيات من الشعر وبزّ حتى معلميه في المطارحات الشعرية. يمشي ساهماً ويردد مع نفسه إيقاعات البحور الشعرية حتى يظنه من يراه عاشقاً

أو مجنوناً، وقد كان كذلك، إذ ما أن «نزل الماء في خصيتيه» كما كان يقال عن الغلام في أول غلمته، حتى راح يطارد كل أنثى يشمّ رائحتها في الطريق، وعنقه مشرئبة إلى النوافذ كأنه يبحث عن طائر ضائع في الفضاء أو نجمة في الظهيرة. كان مسالماً جداً فلم يحدث أن تشاجر مع أحد من الصبيان، لكن لم يستطع أحد أن يلوي ذراعه، إذ كان يعوّض عن عدم استخدام عضلاته بلسان ذربٍ لا يجاريه به أحد، وبفطنة شيطانية جاهزة للإنفجار في أية لحظة، تلتقط مساوئ وعيوب الآخرين «كهدهدٍ يلتقط الخبءَ من تحت الأديم» كما وصفه عمّه يوماً، لذا فقد كان الصبيان يتحاشون الاصطدام به، لئلا تندلق عليهم من قِربة لسانه الشتائمُ التي لم يسمع بها أحد من قبل، أو أن يجعل من أي رزينٍ أضحوكة بتهكماته اللاذعة، حتى أخوه علي لم ينجُ من سخريته وكانت علاقته به غير ودية، خاصة بعد أن قام علي بجلده أمام أصدقائه حينما رآه سكرانَ، فكان يصرخ مع كل سوط يلسع ظهره:

«أحَد.. أحَد».

انفجر الواقفون في الضحك، مما جعل علياً يتوقف عن جلد أخيه، مجارياً الضاحكين بضحك اليائس من إصلاح الأمر الأعوج، وهو يردد:

«الطبيعة التي في البدنْ.. لا يغيّرها غير الكفنْ».

... لكن كانت لعقيل مكانة خاصة في نفس محمد، فهو يرى فيه براءة صباه التي قتلها هوس الطموح، فكان يعامله بمحبةٍ كبيرة ويصغي إليه باهتمام.

مرةً استدعاه إلى البيت ليلاً، فكان عقيل خائفاً من أن أحدهم قد سرّبَ إلى عمّه فصلاً من فصول موبقاته، لكن خوفه تضاءلَ حينما رأى عمّه رائق المزاج، جالساً في حديقة بيته وأمامه منضدة عامرة بأنواع المازّات وقنينةِ من نبيذ السِريان. وقف عقيل بانتظار ما يأمر به عمّه، فأشار إليه بيدهِ أن يجلس على كرسي مقابله. جلسَ وقد قوّس كتفيهِ مفتعلاً التخاذل. ارتفعت ضحكةُ محمد وهو يتطلع إلى ابن أخيه

المشاكس وهو يجلس متذللاً وعيناه لا ترتفعان عن سطح المنضدة. أدركَ عقيل بأن عمّه يخفي أمراً لا يعرف كيف ستكون عواقبه، لكنه اطمأنَ إلى أن كأسين أو ثلاث قد أرخت أعصابه فلم تبدُ على وجهه علامة لبادرة غضب بانتظاره. تجرأ قليلاً فامتدتّ يده إلى الصحن الذي أمامه. تناول فستقةً، راح يطيل فتح قشرتها، ثم وضع لبّها في فمه كاتماً صوت مضغها، ودون أن يتطلع في وجه عمّه، لكنه يدرك أنه يراقب كل حركاته بنظراتِ هرّ مخاتل. نادى محمد على زينب وطلب منها أن تُحضر كأساً أخرى. تناولها من يدها وصبّ فيها قليلاً من النبيذ، ودفعها بأطراف أصابعه نحو عقيل. اعترض عقيل بارتباك:

«استغفر الله.. استغفر الله.. أنا لا أشرب خمراً.. يا عمّي».

انفجر محمد بقهقهةٍ حتى كاد يختنق بحبة الفستق، فأدرك عقيل بأن عمّه يعرف عنه كل شيء، ولم يعد النكران مجدياً. أشار محمد إليه برمشةٍ من عينيه، وقال:

«اشربْ.. اشربْ».

تناول عقيل الكأس بخجلٍ وارتشف منها بحذرِ مَنْ يجرّب شرب الخمرة أول مرة، وكان محمد يتطلع إليه بنظراتٍ يمتزج فيها الحب والخبث. سأله عمّا ينوي فعله بعد أن ينهي دراسته الثانوية، فردّ عقيل بأنه يحب الأدب والتأريخ، ويفكر أن يكمل دراسته في هذا المجال.

«نعم.. نعم.. لابد أن تكمل دراستك للأدب.. لتكون شاعراً مجيداً.. فأنت تملك موهبة الشعر».

قال محمد، فهزّ عقيل رأسه بزهو. سأله عمّه:

«ما أخبار الشعر؟... هل مازلت مواظباً على كتابته؟»

«نعم».

قال عقيل بخجلٍ، ثم أضاف بارتباك:

«أتلهى بكتابته».

اعترضه محمد:

«لا.. لا تقل هذا.. الشعر ليس لهواً.. بل هو سلاحٌ ماضٍ.. حينما يكون على لسانِ شاعرٍ ذي رسالة عظيمة».

لم يقل عقيل شيئاً واكتفى بأن هزّ رأسه علامة على استيعابه لما قاله عمّه.

احمرّ وجه عقيل وومضت عيناه ببريق بداية السكر وراحت ذراعاه تتطوحان في الهواء حينما يتحدث. انحلّت عقدة لسانه فراح يتحدث دون تلعثم أو خجل، فسألَ عمَه بندية رجل لرجل، كاسراً حاجز الاحتراز والتهيب، عن عمله وعن مشاريعه الجديدة، فكان محمد يجيب على أسئلة ابن أخيه باقتضاب، ولكن حينما سأله عن أبيه وجدّه وعن ماضي العائلة الهاشمية، راح محمد يتحدث بإسهاب حتى كاد ينسى سبب استدعائه لعقيل، وعقيل نفسه تخلى عن تحفظه وتهيبه بل شعرَ كأنه يكتشف عمّه لأول مرة، فلم يرَ فيه ذلك الجبروت المخيف أو الصرامة التي يتحدث عنها القاصي والداني وتحاك حولها الأساطير. كان محمد يتحدث إلى عقيل وينظر إليه بحبّ وزهو كبيرين حتى وهو يعبّ جرعات كبيرة من النبيذ، إذ بدا عقيل أمامه خفيف الظل، مرحاً، أنيساً للروح، على العكس من أخويه اللذين يبدوان وكأنهما يحملان هموم الحياة على عاتقيهما.

فجأةً طلب محمد من عقيل أن يقرأ له بعضاً مما نظمه من شعر، فعاد الخجل إليه مرةً ثانية، إلاّ أن عمّه ملأ له الكأس مرة أخرى، رافعاً هو كأسه وخاطبه بنديّة نديمين أليفين:

«بصحتك».

فردّ عقيل بخجل:

«بصحتك».

ثم استدرك متلعثماً:

«يا.. يا.. عمّي».

عبّ عقيل نصف ما في كأسه دفعة واحدة، ماسحاً فمه بكمّه، وهو

يتلمظ. عاد محمد وطلب منه أن يقرأ بعضاً من شعره. اعتدل عقيل في جلسته رافعاً صدره بزهو، ثم أنشد:

«بكيتُ على ديارٍ كنتُ أدري
بكوا قبلي على تلكَ الديارِ
فلا حنَّ الحبيبُ لليلِ وصلٍ
ولا عادَ النهارُ بمُستنارِ...»

أوقفه محمد بحركةٍ من يده، فتوقف، ولكي يعرض أمام ابن أخيه خبرته في الشعر ويؤكد على أنه قد كتب الشعر حينما كان صبياً، قال:

«الله... الله.. أنا أيضاً كنت أحب النظم على بحر الوافر».

ساد صمت بينهما. حاول عقيل أن يكمل القصيدة ألا أن محمداً أوقفه بإشارة من يده. رفع كأسه دون أن يتطلع إلى عقيل وشرب منها شيئاً. تطلع في وجه ابن أخيه راسماً على شفتيه ابتسامة عريضة، بادله عقيل بابتسامة قلق خجولة، وسأل بارتباك:

«ألم تعجبك القصيدة؟»

«بلى».

ردّ محمد، ثم أضاف:

«ولكني أريد أن أسمع منك قصيدة أخرى».

حاول عقيل أن ينطلق بقراءة قصيدة أخرى إلاّ أن محمد أوقفه، مستدركاً:

«أريد أن أسمع منك القصيدة التي تهجوني فيها».

ارتبك عقيل. ارتطمت كفّه بالكأس فتبدد النبيذ على المنضدة. أشار محمد إليه بألا يعير اهتماماً إلى الأمر، وعاد يحاصره بطلبه.

«لم أكتب قصيدة في هجائك.. يا.. عمّي».

هزّ محمد رأسه مبتسماً، وراح يطمئنه:

«لست غاضباً عليك.. بل أريد أن أسمعها.. قلها.. ولا تخف».

شعرَ عقيل بحرج، فقال بنبرة اعتذار:

«كانت للمزاح».

راح محمد يؤكد وأقسم له بروح جده بأنه ليس غاضباً، وأنه لم يدعه لهذه السهرة إلا لكي يسمع القصيدة. أدرك عقيل بألّا مفرَ له أمام إلحاح عمّه، فراح ينشد بخجلٍ:

«قفا نقرأِ الأطلالَ عُجْمَ المعالمِ
ونلهُ بما قد غابَ طيَّ المعاجمِ
سُكارى ولكنْ لا تُهانُ عقولُنا
بما يدّعي الدّاعونَ قولةَ زاعمِ
عرفنا غطاءَ البئرِ والبئرَ والصدى
فلا نرتجي بيتاً بظلِّ الغمائمِ...»

صرخَ محمد إعجاباً، وطلب من عقيل أن يعيد ما قرأه، فانتشى عقيل وراح يعيد ما أنشده، متخلياً عن خجله، محركاً ذراعيه كأنه يقرأ قصيدته أمامَ جمهورٍ من المعجبين. استمر في قراءة القصيدة ومحمد يتحرك على كرسيه كأن الفضاء لا يلمّه من الزهو، وعلى الرغم من أن أبيات القصيدة راحت تفصح عن مغزاها، حتى قال عقيل:

«تسامتْ به الأوهامُ حتى سمعتُهُ
يقولُ ابتداءُ الخلقِ من نسْلِ هاشمِ»

تجمّد محمد وهو يسمع هذا البيت. طلب من عقيل إعادته، فأعاده ثلاث مرات، حتى انفجر محمد بقهقهةٍ أخرجته من هيبته، وراح يضرب جبهته براحة كفّه وهو يصرخ إعجاباً وضحكا.

هذا هو عقيل. قد يظنه البعض متهوراً، وقحاً، سيئاً، لكنه على الرغم

من كل مساوئه، فقد كان ذا حظوة عند كل من عرفه جيدا، فهو مركز كل جلسةِ سمرٍ أو سهرة شرب، إذ كان يضيء حلقة الندامى بطرافته وقصائده وغنائه الذي يصاحبه عزف متقن على العود.

«شيطان بني هاشم».

وصفه البعض ممن كان يمتعض من عربداته وسلوكه، خاصة في تعرضه للبنات بإسماعهن شعر الغزل أو مشاكساته لهن، إلا أنه عند البعض الآخر:

«قمر بني هاشم».

أما جعفر، فقد كان تجسيداً للجد هاشم كما كان الأحفاد يرسمونه في مخيلتهم وفق ما سمعوه عن سيرته. حزم، صرامة، وطموح لا يتم تحقيقه إلا بليّ ذراع القدر، ولولا انشغال جعفر عن هوس العائلة في حب النساء لقيل إن روح هاشم قد حلّت فيه.

حينما سأل محمد جعفراً عمّا يفكر فيه بعد إنهائه المدرسة الثانوية، أجاب جعفر دونما تفكير، كأنه حسَمَ الأمر بلا تردد:

«سأدرسُ في القوّة الجوية... لأكون طيّاراً حربياً».

لم يصدّق محمد ما سمعه، غير أنه شعر بزهو كبير، فما من أحد في مدينة الهاشمية كلها رأى في حياته طائرة حقيقية، سوى في الصور التي كان يتداولها الشباب، أما أغلب الناس فلم يزلْ مكذباً لما يقال عن كتلة الحديد التي تحلّق في الفضاء بلا سلطان، حتى أن إمام المسجد قد أعلن فتوى تعتبر أن هذه الشائعات هي وساوس يبثها الشيطان في نفوس عباد الله لإلهاء المؤمنين عن قدرة الخالق وحده على إرسال المعجزات.

«انظروا..»

صرخ شاب، رافعاً رأسه نحو السماء. لم يرَ الذين تجمعوا شيئاً يستحق الانتباه، سوى غيمةٍ نحيلةٍ تتوسط السماء، وقال البعض منهم أنها ليست غيمة بل خيط دخانٍ أبيض، إلاّ أن الشاب عاد وصرخ مرة أخرى، وهو يضع كفّه على جبهته حاجباً بها أشعة الشمس عن عينيه،

محاولاً تركيز نظره على النقطة الرمادية التي تتحرك بوضوح في السماء:

«انظروا... ألا ترون تلك الطائرة الصغيرة التي تتحرك على طرف الغيمة... إنها طائرة... إنها طائرة».

لم يجرؤ أحد من الواقفين على قول الحقيقة، على الرغم من أن أغلبهم قد رأى ما أشار إليه الشاب، سوى حيّان المجنون الذي راح يصرخ، ضارباً الأرض بقدمه وهو يهزج، موجهاً كلامه إلى مجهول:

«ها.. ها.. ها.. متعجبْ خالق لهْ بعيرة».

فارتفع صراخ الواقفين بين ضاحك وغاضب مما قاله المجنون.

عند بوابة مدينة الهاشمية، ترجل علي من السيارة، بينما واصل محمد وولدا أخيه رحلتهم إلى الشمال، وهم يلوّحون للذين اصطفوا على جانبي الطريق رافعين أيديهم بتلويحة الوداع لعقيل «الشاعر» وجعفر «الطيّار».

لم تسعْ الأرض محمداً وهو يقف في الميناء ملوحاً لشطري روحه وهما يقفان على سطح السفينة العملاقة كنورسين وديعين امتلكا الفضاء روحاً وجسدا. بقي هناك حتى بعد أن غابت السفينة في عرض البحر. كان يحدق إلى الأفق البعيد متخيلاً ما وراءه، وفي مخيلته ترتسم صور للقادم من السنوات.

لم يمكث طويلاً في مدن الساحل الشمالي كعادته، فقد كان حنين جارف يدفعه إلى نقطة البدء التي احتلت مساحة تسع الكون في روحه. قضى ثلاثة أيام، أمضى نهاراتها في ضيافة أصدقائه، ولياليها في أحضان خليلة لهَ، ثم عاد إلى الهاشمية التي لم يعد يراها كما هي، بل كانت ترتسم أمامه صورة أخرى للمدينة، وتمتدّ لتشمل مركز الولاية والساحل، وأحياناً تشطح مخيلته فيرى حتى الـ (هناك) قد أصبح في قبضة اليد، والأرض بأقطابها تحت الإرادة الهاشمية.

مضى شهران ولا حديث لمحمد غير الحديث عن عقيل وجعفر ومستقبلهما، حتى انتبه إلى علامات امتعاض غريب تلوح على وجه زهرة

كلما أسهب في الحديث عنهما، فسألها عن ذلك. ردّت زهرة بهمهمةٍ غامضة، فأدرك أن في داخلها شعوراً تحاول أن تخفيه. ألح عليها بأن تبوح بما يدور في رأسها، فقالت:

«لم تكن عادلاً في اهتمامك».

ارتعشت يد محمد وهي تحمل كأس الشاي. أعاد الكأس على المنضدة وصرخ بزهرة غاضباً. طلب منها بلهجة أمر أن توضح ما تعنيه وهو يشير نحوها بسبابة مرتعشة. صمتت زهرة خوفاً من غضب أبيها. تطلع محمد إلى جانبه حيث يجلس علي، فأجاب علي بحركة من يديه تدل على جهله بالأمر. نقل نظرته إلى لؤلؤة، فنهضت حاملة كؤوس الشاي الفارغة وذهبت إلى المطبخ لتنأى بنفسها عن أمرٍ لا تعرف عنه شيئاً. نهض من كرسيه واتجه نحو ابنته، مسكها من ذراعها، وسألها عمّا كانت تعنيه. أجابت ببراءة طفلة غيورة ولا تعرف المخاتلة:

«لماذا لم ترسل عليّ ليكمل دراسته مثلما فعلتَ مع أخويه؟»

شعر محمد كأنه بالون ثُقب فجأةً، فراح يضحك بصوتٍ عالٍ بينما لاحت على وجه علي علامات خجل مما قالته زوجته. عاد محمد إلى كرسيه، لاعناً الشيطان على غضب لا مبرر له. تطلع إلى وجه ابنته وقال كأنه يخاطب طفلة:

«ولماذا يكمل علي دراسته؟ وأية دراسة؟»

لوت زهرة عنقها دون أن تنطق بكلمة، وتشنجت ملامح وجهها كأنها على وشك البكاء. فتح محمد ذراعيه بإشارة لدعوتها للإرتماء في حضنه كما كان يفعل معها حينما كانت طفلة، إلا أنه انتبه إلى وضعها الصعب، فنهض معتذراً عن نسيانه. جلس جنبها. أحاط كتفها بذراعه، وبيده الأخرى راح يمسّد بطنها التي برزت بوضوح.

«عليّ ليس بحاجة إلى دراسةٍ».

قال وهو يتطلعُ إلى علي الذي أحنى رأسه تهرباً مما يعرفه عن عمّه وما يقصد في كلامه. بترَ محمد ضحكته ولاحت علامات حزن على

وجهه، فقد ارتسمت أمامه صورة بهيجة وهي توصيه بزهرة وعلي وبأولادهما القادمين، وبالمفردة التي تئز في إذنيه كلما تذكر بهيجة وهي تُنبئه عن قدر زهرة، أو يتذكرها في لحظات احتضارها الأخيرة وهي تردد كلمة (القربان) كأنها تصارع الوقت الضنين ليسمح لها بثوانٍ تستطيع فيها إرسال الرسالة. تداركَ محمد الأمر كيلا يفطنا إلى حزنه المفاجئ، فقال محاولاً أن يكون طريفاً:

«أيّ دراسة؟ وأي علم ينقصنا؟... فأنا مدينة العلم وعلي بابها».

توقف محمد عن الضحك حينما دخلت زينب وقد أكملت زينتها، فتضوع في فضاء الصالة عطر منعش للروح. نهض محمد واحتضن زوجته بحركات متصابية، جعلت زهرة تغطي وجهها بكلتا كفيها خجلاً، لكنها لم تستطع كتمان إعجابها الشديد بطريقة أبيها في التعامل مع زوجته مسترقةً النظر إلى زوجها وفي قرارة نفسها تتمنى لو كان ما قاله أبوها صحيحاً فيكون عليّ باب مدينة علم أبيها، على الأقل كان قد نال من علمه شيئاً في طرق المداعبة والغزل.

أجلس محمد زوجته جنبه ملتصقة به حتى حجبت نصف صدره بزنديها العاريين وصدرها البارز. بطريقة لبقة لئلا تشعر زينب بأنهم قطعوا حديثهم حينما دخلت، راح محمد يتحدث، كأنه يواصل ما انقطع من حديث، عمّا تعلمه عند الشيخ نوفل وما كسبه من علمٍ في مدرسة الحياة، أغناه عمّا سيحصل عليه شباب اليوم أو الغد.

استغلت لؤلؤة حالة المرح التي سادت بينهم فاقتربت من محمد شاكيةً له وحدتها في البيت منذ سفر عقيل وجعفر، وبأنها لا تشعر بضرورة لوجودها، عسى أن يعيدها إلى البيت الكبير لتكون بينهم. أحنى محمد إليها رأسه وهمسَ في أذنها كيلا تسمع زينب:

«قريباً.. ستحضر إلى البيتِ سيدة جديدة».

أدركت لؤلؤة ما يرمي إليه محمد، فردت بهمس:

«هنيئاً... هنيئاً».

فجأة حلّ صمت حينما سمعوا طرقاً على الباب الخارجي. هبّ عليّ مسرعاً ليفتحه، بينا أزاح محمد ستارة النافذة ليرى القادم في هذه الساعة من الليل. نهض محمد من الكنبة وركض مرعوباً نحو الباب الخارجي فركضت خلفه زينب ولؤلؤة، حتى زهرة نسيت حملها وأسرعت لترى الأمر الذي أرعب أباها. حينما خرجوا إلى الحديقة، شاهدوا علياً وهو يحمل جثةً بين يديه. صرخت لؤلؤة حينما تعرفت على وجه الجثة، فجارتها زهرة بصرخةٍ طويلة. صرخ محمد بهما أن تسكتا لمعرفة الأمر، بينا كان علي ينادي عليهن بصوت مخنوق ألا يخفن. كان عقيل مستسلماً بين ذراعي أخيه وكانت عيناه مفتوحتين ولم يظهر منهما سوى البياض. ألقى علي بعقيل على الكنبة بينا قام محمد برش وجهه بالماء والعيون تنتظر لحظة إفاقته. كان عقيل شاحب الوجه، ممصوصاً كليمونة ذابلة وبوجنتين برز عظماهما بشكل واضح، وبلحيةٍ سوداء مغبرّةٍ تغطي وجهه كله، فلم يظهر منه سوى شفتين مزرقتين، وعينين غائرتين في محجريهما وقد طوقتهما هالتان سودوان.

ما أن أفاق عقيل من غيبوبته حتى صرخ الجميع مستفسرين عن جعفر إنْ كان قد حدث له مكروه. لم يستطع عقيل أن ينطق فأشار بيده، نافياً ما يفكرون فيه. تنفس الجميع الصعداء. رمى محمد جسده على الكرسي زافراً الهواء المخنوق في صدره دفعة واحدة، بينا كان علي يحاول أن يسند جسد أخيه ليجلسه، ويضع كأس الماء بين شفتيه. فتح عقيل عينيه بصعوبة. دعكَ وجهه بكلتا كفيه بحركةٍ غريبة تدل على اضطرابٍ نفسي. نهض محمد ثانيةً. اقترب منه مقرفصاً أمامه ضاغطاً على ركبتيه المرتعشتين، وسأله:

«هل حدث مكروه لجعفر؟»

«لا».

أجاب عقيل، مؤكداً على أن جعفراً بخير وأنه يواصل دراسته بنجاح.

«لماذا عدتَ إذنْ؟»

سأل محمد محاولاً أن تكون لهجته تدل على خوف وليس تأنيباً، لكنّ عقيلاً اختنق وتلعثم قبل أن يجيب عن سؤال عمّه. أزاح محمد علياً وجلس محلّه محتضناً عقيلاً، مربتّاً على كتفه، وممرراً كفّه على وجنتيه الشاحبتين. كرر محمد سؤاله، فأجاب عقيل بصوتٍ واطئ:

«لم أستطع تحمل المنفى».

أغمض محمد عينيه كأنه يحاول استيعاب ما قاله عقيل، وحينما فتحهما وجد النساء الثلاث يتطلعن إليه بنظرات تستفسر عن معنى ما قاله، إلا أنه تشاغلَ عن نظراتهن.

«ولكنكَ لستَ منفياً!»

ردّ محمد وهو يحتضن رأس عقيل، ضاغطاً به على صدره. ارتفع صوت شهيق عقيل متقطعاً. ومَضَتْ عينا محمد بالدموع، فأشاح بوجهه عن أنظار عائلته، دافناً رأسه في شعر عقيل.

دقائق صمت مرّت، كان الكل خلالها يتحرك في مكانه بقلق وخوف. تنحنح عقيل ليزيل شيئاً محشوراً في بلعومه. هدأت أنفاسه وتوقف جسده عن الارتجاف. قال بصوت متكسر وهو يضع رأسه على صدر عمّه كطفلٍ خائف:

«كل مكان خارج الهاشمية.. منفى».

صمت قليلاً ثم أضاف:

«حتى الجنة».

هزّ محمد رأسه، وراح يردد بصوت متحشرج:

«نعم.. نعم.. ما خُلقتَ لهذا يا عقيل».

لم يتمالك محمد نفسه فانفجر ببكاء هيستيري، جعل من حوله يرتعش رهبةً. نهض من الكنبة وغادر الصالة، فجلسَ عليّ مكانه، محتضناً أخاه.

استعاد عقيل عافيته في الأيام التالية، وعاد إليه شيء من مرحه السابق، إلاّ أن نوبات من الكآبة كانت تعاوده بدون انذار سابق، فيلجأ إلى عزلته. زاره الطبيب كارولیان وتحدث معه مطمئناً إياه، ومؤكداً

لمحمد على سلامة عقيل النفسية، ولا شيء يثير القلق، فالحنين إلى الوطن مرض شائع عند الأشخاص الذين يتحلون برهافة الإحساس. اطمأن محمد لكلام الطبيب، غير أن المشكلة التي واجهته لاحقاً، هي عجزه عن إيجاد مهنةٍ تصلح لعقيل أو عقيل يصلح لها.

* * *

(٢٤)

نهض محمد فجراً قبل أن تستيقظ جورية. فتح المذياع وذهب إلى الحمام ليقضي حاجته ويغسل وجهه، فالمذياع يحتاج إلى فترة لا تقل عن خمس دقائق بعد فتحه لتدب فيه الحرارة. حينما عاد كان المذياع يطلق تغريد بلابل كإشارةٍ إلى بدء البث الإذاعي. أدار محرك المحطات يميناً وشمالاً على الرغم من أنه يعلم أن مذياعه لا يلتقط غير محطة الولاية، وحتى هذه لا يأتي صوتها واضحاً وسط صجيج يرتفع وينخفض.

أكثر من شهرين ومحمد يمارس هذا الطقس بشكل يومي، فمنذ استيقاظه فجراً وحتى شروق الشمس يكون خلال هذه الفترة قلقاً، متوتراً، يذهب مراتٍ عدة إلى المرحاض ليفرغ معدته من سائل لا يتوقف إلا بعد أن يتأكد محمد بأن الموعد لم يحن بعد، حينذاك يطفئ المذياع ويعود طبيعياً، يتحدث معْ إحدى زوجتيه إو ابنته إن كان قد قضى ليلته في البيت الكبير، ثم يتناول فطوره بأريحيته المعتادة، ويذهب إلى عمله.

انتبهت زوجتاه إلى هذه الحالة التي بدأت عنده منذ بداية الصيف، ولكي يخفي مظاهر قلقه كان يتحجج تارةً بأنه يحب سماع تغريد البلابل الذي اعتادت إذاعة الولاية أن تبثه في بدء فترة البث الصباحية، وتارةً أخرى بأنه لا يفوّت سماع تلاوة القرآن عند الفجر، غير أن قلقه الواضح خلال هذه الفترة جعل من زينب وجورية تشعران بأنه يخبئ أمراً خطيراً لا يريد البوح به، لكنهما اعتادتا على تصرفاته الغريبة والتي لا يسمح

لأحد أن يستفسر عنها، لذا فأنهما تبقيان في السرير حتى يتوقف ضجيج المذياع.

اليوم هو منتصف شهر تموز. الطقس حار جداً والرطوبة تخنق الأنفاس، حتى المروحة المنضدية كانت تبعث هواء ساخناً يزيد من حرارة الغرفة. فتح محمد النافذة، إلا أنه سرعان ما أغلقها، إذ تذكّر بأنه في بيت جورية الواقع وسط بيوت كثيرة، وقد يثير صوت المذياع شكوك الجيران، فقد كان محمد ومنذ أن أخبره جعفر بالسر يحاول أن يحسب كل خطوة يخطوها بحذر شديد، لئلا يظن البعض بأن له يداً في ما سيجري في الولاية لو أن الذي سيجري ينتهي بالفشل، بالرغم من أن براءته من معرفته بهذا الأمر لا يمنع الكارثة، فهو يعلم إن نجا منها فلن ينجو جعفر الذي لا يشك محمد بأنه مشارك في حركة الضباط الأحرار التي أخبره جعفر عنها قليلاً.

حاول محمد أن يعرف المزيد عن هذه الحركة وأهدافها وتأريخ تشكيلها، أو أن يسرق لسان ابن أخيه ليبوح له باسمٍ أو أكثر من أسماء هؤلاء الضباط، إلاّ أن جعفراً كان كتوماً جداً فلم يُخبر عمّه بسوى ما ادّعى معرفته، بأنهم مجموعة من العسكريين الوطنيين الذين يسعون إلى القضاء على الإقطاع والرجعيين، وإخراج الولاية من تابعيتها للغرباء الذين يتحكمون في ثروات الولاية ويستعبدون أهلها. أما عن موعد الحدث فلم يكن جعفر نفسه يعلم شيئاً عنه سوى أنه سيكون ذات فجرٍ غير معلن من هذا الصيف.

أخبر محمد علياً وسلمان بما سمعه من جعفر فوجدهما لا يعرفان أكثر مما عرفه هو، والأمر لا يتعدى التخمين أو التمني، غير أن أمراً حدث جعل الأمر يخرج من دائرة التخمين، فقد وصل إلى الهاشمية رفيق قادماً من مركز الولاية، حاملاً رسالة شفاهية إلى قيادة الحزب المحلية، تؤكد ما قاله جعفر، لكن لا أحد يعرف متى سيكون ذلك، وبعد عدة اجتماعات أعلنت قيادة الحزب تأييدها المطلق لحركة الضباط

الأحرار، وأعطت تعليمات إلى كل الرفاق في المساهمة في إنجاح الثورة وذلك من خلال تعبئة جماهير العمال والفلاحين للمشاركة في اليوم الموعود بالتظاهر وبتجنيد طاقاتها للمساهمة في القضاء على بؤر التجسس والفساد.

كان علي وسلمان وبقية الرفاق يترقبون الحدث بحماس شديد، إلاّ أن محمداً وعلى الرغم من مشاركته لهم في التأييد وإبداء الحماس، كان يتوجس خيفة مما سيجري، وقد كان يخفي توجسه عن الرفاق، إذ كان يشعر بأن ما يتردد على ألسنتهم يهدده شخصياً، فربما سيسعى هؤلاء الشباب بفورة انتصارهم إلى تأميم الثروات ومصادرة أراضي المالكين وتوزيعها على الفلاحين، وهذا سيشمله بالتأكيد، أو يحدّ من توسعه في أفضل الأحوال، إضافة إلى أن ارتفاع صوت «الرعاع المنفلتين من عقال عبوديتهم» قد يسقط هيبته، فيفقده سلطته.

انتهت تلاوة القرآن، تلتها أغنية عن جمال الورد المتفتح في الصباح، مدّ محمد يده إلى زر المذياع وأغلقه متنهداً، كأن ثقلاً أزيح عن صدره، ثم نهض ليذهب إلى المرحاض للمرة الأخيرة قبل أن يذهب إلى العمل.

صوت انفجار قوي، اهتزت على إثره جدران البيت وتساقط الدهان والكلس عن السقف. صرخة رعبٍ قوية أطلقتها جورية، فهبّ محمد واقفاً، مرتدياً سرواله الداخلي على عجلٍ، ودون أن يغسل يديه غادر المرحاض. وجد زجاج النوافذ وقد تهشم كله وغطت شظاياه أرضية البيت والأثاث. فتح باب البيت الخارجي ليرى ما يجري، إلاّ أن جورية تشبثت به ساحبة إياه إلى الداخل، متوسلة به ألا يتركها وحدها. وجد في ممانعة جورية حجة يبرر بها خوفه وتردده في الخروج، لكنه مدّ رأسه بحذر خارج البيت فرأى عمود دخان يتصاعد من الجهة الشمالية للمدينة، حيث يقع مركز الإدارة وبيوت الحاكم الإداري والحاكم العسكري وممثل المندوب السامي وكبار الضباط. أغلق الباب وعاد واقفاً وسط الصالة وهو يتطلع إلى الفضاء من خلال النافذة التي تهشم

زجاجها وبقيت شظايا كبيرة منها عالقةً في إطار النافذة الخشبي.

فترة من الصمت، لم يُسمع خلالها سوى تردد صدى الإنفجار، محدثاً وشيشاً في الآذان، مختلطاً بأصواتِ رجال ونساء وصراخ أطفال، ودوي سقوط أشياء داخل البيوت التي فضح أسرارها تهشم زجاج نوافذها. كان محمد يحاول أن يتماسك ويبدي شجاعة أمام زوجته المولولة فتخذله شفتاه المرتعشتان. لم يتأكد بعد إن كان هذا الإنفجار هو بشائر اليوم الموعود أم أنه حادث فردي. سارعَ إلى فتح المذياع ثانيةً فارتفع ضجيج موجات البث. أدار محرك المحطات بيد مرتعشة فارتفع الضجيج أكثر، فأعاده إلى محطة إذاعة الولاية وهو يتأفف. أزيز غريب يشق الفضاء، ظنه محمد بأنه صوت طائرة حربية قادمة من جهة بعيدة. الأزيز يقترب بشكل واضح. اقترب محمد من النافذة بحذرٍ شديد، فلمح نسراً حديدياً هائل الحجم ينقضّ على فريسته. رمشة عين وارتفع صوت انفجار أكبر من سابقه بكثير، هشّم بقايا الزجاج واختنق الصوت في داخل البيت حتى كأن الجدارين المتقابلين قد ارتطما ببعضهما وافترقا. كان واضحاً من الدخان الذي تصاعد أن المخفر هو الجهة التي استهدفتها الغارة الجوية. لا يدري لِمَ تصور أن الطائرة التي رآها قبل قليل يقودها جعفر الهاشمي، إلاّ أن احساساً قوياً أو وهماً جعله لا يشك في هذا الأمر، فشعرَ بالزهو على الرغم من الخوف الذي جعل تفكيره لا يستقر على خاطر واحد في اللحظة نفسها. لم يصمد زهوه إلا دقائق، إذ تلاشى ليحلّ محله الخوف، حينما ارتفعت أصوات إطلاقات نارية كثيفة قادمة من جهة المخفر، توحي بأن معركة أرضية تدور هناك، وكما كانت السماء هاشمية الملامح فلابد أن تكون الأرض كذلك، هذا ما خطر في ذهن محمد وهو يتخيل المعركة الحامية التي تدور الآن في محيط المخفر، وقد خطط لها وقادها علي. انقبضت روحه وهو يتوقع الأسوأ، فهاله أن يرى ابنته وقد ترملت، وحفيديه أعادا دورة اليتم التي لا تفارق العائلة الهاشمية.

«هل حان موعد تقديم القربان؟ ومن سيكون؟»

ردد محمد مع نفسه، محاولاً أن يجد في نبوءة بهيجة «التي لم تخطئ» ما يطمئنه بأن السلالة الهاشمية لن تنقرض ولن تفقد سطوتها.

ارتفعت الشمس في السماء وتلاشت أصوات الإطلاقات النارية سوى إطلاقات متقطعة، يأتي صوتها من جهات بعيدة، ربما هي معارك تجري الآن بين فلاحين ومالكي الأراضي التي تقع على حدود المدينة، هذا ما خطر في ذهن محمد وهو يحسب للنأمة حساباً مبالغاً فيه. حاول أن يخفف من غلوّه في تفسير الأمور بشكل سلبي، فهو على علاقة طيبة مع فلاحيه، ولا يمكن أن يتنكروا لفضله عليهم، فهو ليس مثل بقية المالكين في معاملته للفلاحين.

عاد محمد إلى المذياع مقرّباً أذنه منه. كان صوت المقرئ يرتفع وينخفض، حتى توقف لتبدأ مباشرة موسيقى عسكرية. أدرك بما لا يقبل الشك أن الثورة قد قامت. لا يدري إن كان فرحاً أم حزيناً فقد أدخلته اللحظة إلى الموقف الحاسم فلم يعد هناك خطّ للرجوع. بالأمس كان يأمل أن يغيّر هؤلاء الشباب رأيهم ليتركوا الأمور تسير كما هي عليه أو أن يتم التغيير دون إراقة دمٍ أو استيلاء على الحكم بالقوة، أما الآن وقد حدث الذي حدث، فلم يبقَ أمامه سوى أن ينتظر جلاء الموقف، إما بزوغ نجم جعفر الهاشمي في سماء الولاية وإما حدوث الكارثة إن فشلت الثورة. لا يدري محمد أيّ الموقفين يأتي لصالحه فهو لا يثق بهؤلاء «الرعاع»، ولا يأمن شرهم إن تُرك لهم الحبل على الغارب، فهم لم يعتادوا على الحرية، وقد تدفعهم أحقادهم إلى ارتكاب جرائم تفوق جرائم الإقطاع.

شعرَ محمد بحاجة إلى التحدث مع سلمان العجمي لعله يعرف أمراً يطمئن له قلبه، أو على الأقل يعرف كيف يفكر العمال إن نجحوا في ثورتهم وماذا سيكون مصيره هو ومصير أملاكه التي لم يحصل عليها إلا بسعيه الحثيث وعراكه مع القدر، فهل سيأتي من يستولي عليها بدافع

الغيرة أو الحقد المضمر، وهل سيترك الأمر لهم أن يتحكموا في ثروته ومصيره. كل هذه الأمور يستطيع أن يعرفها من سلمان العجمي، غير أن الذهاب إلى حي المحمدية ليس يسيراً في هذا الوقت، فهو يتطلب المرور من تقاطع الطرق الأربعة الذي يقع قريباً من المخفر، لذا فقد قرر الذهاب إلى البيت الكبير للقاء عليّ وإن كان على شبه يقين بأن علياً لم يبقَ في البيت، فهو يعرف ابن أخيه جيداً ولا يشك بأنه هو الذي يقف وراء الهجوم على المخفر.

استغل الهدوء الذي عمّ المدينة فارتدى ملابسه متهيئاً للذهاب. قبل أن يغادر البيت اعترضت جورية طريقه وهي ترتعش خوفاً من أن يتركها وحدها في هذا اليوم الذي لا أحد يعرف كيف ينتهي، فلم يجد محمد بداً من أن يأخذها معه، متخذاً الطريق الترابي الدائر حول المدينة للوصول إلى البيت الكبير ليتحاشى المرور في مركز المدينة.

حينما وصلا البيت الكبير، كانت زينب وزهرة متكورتين على جسديهما وهما ترتعشان من الخوف، بينا كانت لؤلؤة تتحرك ما بين المطبخ والصالة متمتمة بأدعيةٍ لا تعرف معناها. كانت زهرة جالسة على الأرض وشعر رأسها منفوشاً، في حجرها ينام رضيعها حسين، وعلى جنبها يجلس حسن وقد غطت رأسه لتحميه من شظية زجاج نافرة فلم يظهر منه سوى عينين يبرق فيهما لهيب الرعب. ما أن رأت زهرة أباها حتى هبت واقفة وهي تصرخ بجنون، شاكية له إهمال زوجها الذي لم يراعِ وضعها ووضع طفليها، فترك البيت عند سِماعه الإنفجار الأول، على الرغم من بكاء الطفلين وتوسلها به.

احتضن محمد ابنته محاولاً تهوين مخاوفها، مؤكداً لها أنه كان على علم بما جرى، وما عليهم سوى الانتظار يوماً أو يومين حتى تستقر الأوضاع، موصياً نساءه بأن يلتزمن الصمت لحين انجلاء الأمر. انتبه محمد إلى أن جورية لا تزال واقفة خلفه دون أن ترفع رأسها عن الأرض، بينا كانت زينب تنظر إليها بغضب مموّه بالإهمال. طلب من

لؤلؤة أن تعمل له شاياً وانشغل بتحريك مؤشر المحطات في المذياع الجديد الذي أهداه إليه الطبيب كاروليان بعد عودته من رحلته الأخيرة. استقر على محطة الولاية التي كانت تبث الأناشيد الوطنية والابتهالات الدينية التي تحث على نبذ الظلم والطغيان. وقع نظره على جورية التي كانت تقف متجمدة مثل تمثال فطلب منها أن تجلس على الكنبة جنبه متطلعاً إلى زينب بنظرة توحي بالتأنيب جعلتها تتحرك باتجاه ضرتها لتضع الوسادة خلف ظهرها مرددة كلمات الترحيب بلهجة باردة. انتبهت زهرة فتهضت مرحبة بزوجة أبيها، معتذرة عن الارتباك الذي أعماها فلم ترحب بها.

قارب النهار على الإنتصاف ولا شيء يوحي بنجاح الثورة أو فشلها، وقد كان تخمين محمد يتأرجح ما بين النجاح والفشل وفق ما يحمله النشيد من معنى. خرج إلى الحديقة على الرغم من اعتراض زوجتيه، لكنه لم يبتعد عن البيت سوى بضع خطوات. وقف يتطلع إلى السماء كأنه يستكشف النوء مصيخاً السمع إلى البعيد، محاولاً إخفاء قلقه عن أنظار نسائه اللواتي كن يترقبن منه أي كلام يطمئنهن. فجأة عاد إلى الصالة مسرعاً بعد أن توقفت الموسيقى والأناشيد. أقعى أمام المذياع، صارخاً بلؤلؤة أن تكف عن الولولة. لحظات من الصمت الثقيل ثم انطلق صوت المذيع وهو يطلب من المستمعين بصوت متحشرج، الإصغاءَ إلى الخبر الذي ستنقله الإذاعة بعد قليل. عادت الموسيقى العسكرية مرةً أخرى. تكرر التناوب بين المذيع الذي لم يغيّر حرفاً واحداً من صيغة الإبلاغ وبين موسيقى طبولٍ كأنها وقع خطى مئات الجنود وما بينهما كان قلب محمد يغيّر سرعة نبضاته.

عند الساعة الثانية عشرة تماماً، انطلق من المذياع صوت لم يسمعه محمد من قبل، ليعلن بصوت أجش مبحوح «البيان الأول». تسمّر محمد في مكانه وتجمد الدم في عروقه وهو يصغي إلى الجمل الأولى التي كان الناطق يشدد فيها على نهايات الكلمات كأنه يجذ عليها بنواجذه، عن

مجيء الحق وزهقانِ الباطل، ليعلن بعدها بوضوح عن نجاح الثورة والقضاء على الطغمة الحاكمة التي رهنت الولاية إلى الغرباء الذين عاثوا في الأرض فساداً. صرخ محمد مبتهجاً، متخلياً عن مهابته إذ راح يدبك الأرض بقدمه، فأطلقت لؤلؤة زغرودة دون أن تعرف أي شيء سوى أنها رأت سيدها يقفز فرحاً، معلناً أمام أهل بيته عن انتهاء حالة القلق.

لم تمضِ سوى ثوان قليلة على انتهاء الناطق الرسمي لحركة الضباط الأحرار من تلاوة بيان الثورة، حتى انطلقت أصوات إطلاقات نارية كثيفة في الهاشمية كلها وهتافات لحشود بشرية تصل أصواتها إلى أسماع محمد قادمة من مركز المدينة.

ركب محمد سيارته وغادر البيت دون أن يلتفت إلى توسلات النسوة للبقاء بينهن، متجهاً إلى مركز المدينة. ما كاد يصل إلى تقاطع الطرق الأربعة حتى شاهد جموعاً من الرجال تسير رافعةً لافتات، وبعض الرجال يطلقون النار في الهواء. تطلع إلى جهة المخفر فرأى ناراً تتصاعد منه، ورجالاً يتحركون في محيطه كأنهم يبحثون عن شيء، أو يطاردون فرائس هاربة. انحرف بسيارته عن الطريق العام، متخذاً طريقاً ترابياً ملتوياً، متجهاً نحو الحي الصناعي. هناك استقبله عدد من العمال وهم يهتفون باسم الزعيم البطل الذي قاد الثورة وأنقذ الولاية من الفاسدين. ركن محمد سيارته عند أحد المحلات المغلقة وترجل منها. رفع يده محيياً العمال الذين تجمعوا حوله، مهنئاً إياهم بنجاح ثورتهم العظيمة. كان يتحدث مع العمال بطريقة متواضعة ولا تخلو من التملق، ثم وجد نفسه دون إرادة منه يقف في مقدمة تظاهرة انطلقت من الحي الصناعي باتجاه مركز المدينة. حينما وصلوا إلى تقاطع الطرق الأربعة، كانت هناك مظاهرة ضخمة قادمة من حي المحمدية، لمح محمد في مقدمتها سلمان العجمي وعلياً، بينا كان عقيل محمولاً على الأكتاف وهو يقرأ بصوت جهوري قصيدة تحيي الثوار وتنذر الطغاة بالعقاب والخزي. اندمجت المجموعتان وأحاط الرجال بمحمد معانقين بعد أن رأوا

سلمان العجمي وهو يحتضن محمداً وعيناه مغرورقتان بالدموع، وهو يعبر بصوت عال عن الدور الكبير الذي لعبته العائلة الهاشمية في التحضير لهذه الثورة العظيمة، منذ أن قاد الجد هاشم أولى بوادر حركة التحرر وحتى فتى العائلة الهاشمية الشجاع جعفر الطيّار، مستذكراً بإجلال شهيدها البطل منصور. طلب المتجمهرون من محمد أن يلقي كلمة في هذه المناسبة إلا أنه تحجج بتعلثمه وانفعاله بهذا الحدث التأريخي الكبير، فأوكل علياً لينوب عنه في هذه المهمة، وبينا كان بعض الرجال يصفّون عدداً من البراميل الفارغة لعمل منصة، وصلَ مجموعة من الشباب وهم يسحلون جثثاً، قد ربطوا حبالاً في أعناقها. كان من بينها جثة شمعون التاجر اليهودي وقد قطعت أطرافها، وجثة حاكم المدينة التي لم يتبقَ منها سوى الرأس وقسم من الصدر، أما إمام المسجد الكبير فقد تم شنقه بعمامته، وقام أحد الشباب بقطع قضيبه ووضعه في فمه. شعر محمد بسخط يغلي في نفسه لهذه الهمجية. حاول أن يعترض إلاّ أن صوته ضاع في بحر التهليل والهتاف الصاخب، فانسحب بهدوء متحاشياً أن يشعر به أحد، حتى عاد إلى حيث ركن سيارته. عاد الخوف والقلق إليه كأن ما رآه قد أشعره بأن الذي حدث اليوم قد ينذر بكارثة كبيرة لم تكن في الحسبان، وأن هؤلاء الفتيان الذين قاموا بالثورة غير ناضجين لقيادة الولاية وبأن القادم ربما سيكون أسوأ بكثير مما مضى.

في طريقه إلى البيت شاهد جثثاً مرمية على جانبي الطريق وأخرى معلقة عند مداخل الأزقة. أشاح بوجهه عنها متطلعاً إلى الأفق الذي تلبد بالدخان فلم يعد يرى ذلك الوميض الذي كان يحلم به ويسعى إليه، لكن ليس أمامه الآن سوى الرضوخ إلى مشيئة «الرعاع» الذين انفلتوا من عقال صمتهم ولا يمكن لأي سد مهما بلغت متانته من الصمود بوجه سيلهم الجارف، فما عليه إلا الانتظار ليرى ما ستخلف هذه العاصفة الهوجاء بعد هدوئها.

حاول أن يتظاهر أمام نسائه بالفرح بعد أن طمأن ابنته بزهو على سلامة عليّ وعقيل وجعفر، ودونما إرادة منه احتضن حفيديه، محاولاً كبتَ رغبته في البكاء.

القسم الثالث

صرخَ حسين باكياً، فركضت زهرة نحوه ضاحكة، فهي على يقين بأن حسيناً خائف من العظايا والحشرات التي تخرج من فتحة تسرب الماء أو شروخ الجدران. فتحت باب الحمّام فوجدته قد وضع كرسياً ووقف عليه ليستطيع رؤية وجهه في المرآة. كان حسين ماسكاً عنقه ويصرخ. أزاحت زهرة كفيه عن عنقه فلم ترَ شيئاً. سألته بغضب، ناهرة إياه عن التمادي في الخوف والوهم.

«ما بكَ؟»

«انظري!»

«لا أرى شيئاً».

قالت زهرة، فصرخ حسين ضارباً الكرسيّ بقدمه وهو يبكي:

«ألا ترين الجرح على عنقي؟»

قرّبت زهرة وجهها متلمسةً بيدها عنق حسين، فلم ترَ شيئاً غريباً، إلاّ أن بكاءه زرعَ الشكَ في نفسها، فنادت زوجها بصوت عال. جاء علي مسرعاً. تطلع إلى وجه حسين وسمع منه ما قاله لأمه، إلا أنه هو الآخر لم يكن يرى شيئاً، فحمل حسين بين ذراعيه مقبلاً عنقه ووجنتيه، وهو يؤكد له بأن ما يراه ليس حقيقةً وإنما هو يتخيل ما يراه في الكابوس من أثر القلادة.

كان محمد الأكثر رعباً، على الرغم من أنه يحاول إخفاء خوفه وقلقه مما رآه، مشاركاً الباقين غفلتهم. لا يدري إن كان وحده الذي رأى ما أشار إليه حسين ويحاول أن يخفي ما رآه، أم أن علياً وزهرة قد رأيا ما

رآه حسين، لكنهما ينفيان الأمر لإخفاء رعبهما أو كيلا يُتهما بالوهم، حتى حينما سألته ابنته، أنكر ما يراه بوضوح، متفقاً مع علي في ما قاله. كان محمد يرى أعمق من الجرح، إذ كان يرى يدّ الجزار وهي تمرر نصلها على عنق الحمل، بل إنه رأى الجرح على عنق حسين قبل أن يولد بزمن طويل، حينما سمع بهيجة وهي تردد «لابد من قربان... لابد من قربان..».

انتبهت زهرة إلى شرود ذهن أبيها واكفهرار وجهه كلما تطلع إلى حسين، وساورها الشك بأن أباها يرى ما لم تره هي، خاصة بعد أن لاحظت بأنه يقبّل حسناً من فمه بينا لا يقبّل حسيناً إلا من عنقه ويطيل قبلته لتشمل كل رقبته، وحينما سألته عن هذا، حاول التهرب من الإجابة خاصة وأنه لم يكن منتبهاً لما أشارت إليه زهرة، ولكن حينما ألحت عليه، أجابها بتمويهٍ:

«كنت أريد معرفة إن كان موضع الجرح يؤلمه أم لا».

صرخت زهرة خامشةً وجنتيها بأظافرها وهي تتطلع إلى أبيها بذهول:

«يعني.. أن هنالك جرحاً لا نراه نحن».

ارتعب محمد من حركة ابنته، وشعر بأنه تورط بما قاله، فردّ بغضب على زهرة:

«أي جرح؟»

ثم أضاف مبرراً:

«كنت أعني إنْ كان ما يتوهمه حسين هو في ما يراه أم في ما يحسه كذلك».

لم تفهم زهرة شيئاً مما قاله أبوها، فراحت تتوسل إليه أن يوضح لها، فاصطنع محمد ضحكة باهتةً. نهض من كرسيه واحتضن ابنته وراح يفسر ما قاله وهو يمسد على شعرها الطويل:

«أعني.. هل يتوهم حسين شكل الجرح فقط.. أو أنه يشعر بألمِ كذلك».

هزت زهرة رأسها غير مقتنعة بما قاله أبوها ثم انفجرت في البكاء، ولأول مرة تجرؤ وترفع صوتها في التعبير بكلماتٍ واضحة مليئة بالمرارة عن خيبة أملها بزوج يحمل هموم العالم كله ويهمل أقرب الناس إليه، ملقيةً اللوم على أبيها، ودون أن تعيرَ اهتماماً لابتسامة الشماتة التي ارتسمت على وجه حميرا. أدرك محمد ما تعنيه ابنته وما يمور في داخلها من حزن فوقف إلى جانبها، مطمئناً إياها بأنه سيتولى الأمر، ولكي يحقق قوله استدعى طبيباً إلى البيت ليفحص حسيناً، ولأنه واثق من أن الطبيب لن يرى شيئاً فلم يمانع من أن تحضر زهرة لتسمع بنفسها ما سيقوله الطبيب، وفعلاً لم يتوصل الطبيب إلى شيء في تشخيص الحالة سوى ما سمعه عن القلادة التي تخنقه في الكابوس الذي يراه حسين كل ليلةٍ، فراح يؤكد على أن الأمر لا يتعدى حالة نفسية يمر بها الصبي وستزول حينما يستطيع تجاوز الحالة، مضيفاً إلى هذا الاستنتاج، بأنه يظن أن الاختناق أحد أعراض مرض الخنّاق وهو الذي يسبب له رؤية الكابوس حينما يحدث عنده أثناء نومه، لذا فقد وصف له بعض الأدوية التي «تساعد في توسيع المجاري التنفسية وتساعده على النوم بعمق».، ولأن الأمر لا يتطلب القلق، استغل الطبيب الفرصة وراح يشكو لمحمد ما وصل إليه الأمر من سوء في الخدمات الصحية وشحة بعض الأنواع من الأدوية الضرورية، بعد أن تم إغلاق حدود البلاد وقطع العلاقات مع مدن الساحل الشمالي فانقطع استيراد الأدوية جيدة الصنع القادمة من بلدان شمال البحر. أدرك محمد أن الطبيب يحاول بتذمره هذا أن يوصل رسالة إليه مستغلاً قلقه على حالة حفيده، فلم ينطق شيئاً كأنه لم يسمع ما قاله الطبيب، مكتفياً بهزة من رأسه لا تفصح عن شيء محدد، ومحاولاً ألّا يعطي انطباعاً للطبيب على أنه يتفق مع رأيه أو يختلف، على الرغم من معرفته بأن ما قاله لا يخلو من صحةٍ، فقد ارتفعت في الفترة الأخيرة أصوات تعلن تذمرها من الوضع القائم في البلاد، وخيبتها في ما كانت تظنه ثورة جاءت من أجل مصلحة العمال والفلاحين،

خاصة بعد أن استبدّ العسكر في الحكم دونما خبرة في الإدارة وتلبية حاجات الناس الضروية، فلم يتغيّر شيء عما عانوه من الحكم السابق سوى تغيّر الوجوه والزيّ، فحلّ العسكري بنجومه اللامعة محلّ الإقطاعي بملابسه القديمة، وبقي السوط هو السوط والعبد هو العبد وإن تغيّر اسم التهمة من «آبق» إلى «عميل» أو «رجعي»، وتمادوا أكثر من السابق في إشهار إذلالهم للناس، في الشارع أو في الدوائر الرسمية ومراكز الشرطة، بل ازداد الأمر سوءاً بعد أن شحت المواد الغذائية وأصبح سعر رغيف الخبز في الأسواق أضعاف ما كان عليه قبل الثورة، إذ ترك أغلب المزارعين عملهم وهاجروا إلى المركز ليبحثوا لهم عن مورد آخر للرزق، إضافة إلى الخوف الذي ارتسم على الوجوه مما يسمعونه عن الحرب التي توشك تندلع في مكان ما لا أحد يعرف أين يقع، إذ أصبحت البلاد كما يشاع مهددة بخطر خارجي وما يسمعونه من القادة الجدد عن أخبار المؤامرة التي تحاك هناك ليتم تنفيذها هنا من قبل أشباح لا يراهم أحد، فهم بلا ملامح أو صفات، فتزعزت ثقة الناس بعضها ببعض، حتى ارتفع منسوب الشك في النفوس وهي تشير إلى بعضها بأصابع الاتهام.

... وعلى الرغم من أن محمداً قد تم استثناؤه من قرار الرسوم والضرائب المفروضة على المنتجات ومصادرة الأراضي الزراعية التي كان يملكها الإقطاع واحتكار الدولة لاستيراد الأدوات والسلع من خارج الولاية، تثميناً لتأريخه «الثوري» ولما قدمه هو وعائلته من خدمات للتمهيد للثورة ودور الحزب الاشتراكي في تحشيد الجماهير لتأييدها، إلا أنه كان يشعر بأن رياح التغيير جاءت ضد سفن طموحه التي كانت تبحر في بحرٍ لا ساحل له، فقد أوقفت رقابة الدولة ما كان يسعى إليه في الاستيلاء على مساحات من الأراضي وضمها إلى أملاكه، وكذلك سلبته لجان الرقابة حقه في تحديد أسعار البضائع، بل أوغلت في إذلاله بصمتٍ، إذ كانت تحدد في أغلب الأحيان سعراً أقل بكثير من سعر

البضاعة لكي يكفّ عن انتاجها بعد أن يصطدم بالخسارة كل مرة، أو تطرح في الأسواق كميات كبيرة من أكياس الدقيق المستورد من دول الجوار وبسعر منخفض يصل دون مستوى سعر القمح الذي يطرحه محمد، حتى استطاعت أن تساهم في تشويه سمعته أمام الناس بعد أن يكتشفوا أنه يبيعهم بسعرٍ أعلى مما تقدمه الحكومة لهم، وكأن السلطة كانت بانتظار أن يرتفع صوته في الاحتجاج. كان محمد يدرك ذلك تماماً، فكان يقابل المؤامرة بالصمت أو اللامبالاة بل وبإبداء الموالاة للثورة التي ساهم هو نفسه في دعمها، لكن الأمر الأشد مرارة بالنسبة إليه هو النزق العسكري الذي ساد في البلاد فحجب سطوته، فلم يعد ذلك الآمر الناهي الذي يتوقف الرجال متسمرين، منفلقين أمامه حينما يمر بينهم وتغيض أصواتهم في الحناجر حينما يهمّ أن يقول كلمةً، فأصبح بإمكان أي عسكري شاب أن يكسر عصا سطوته، خاصة مع قدوم عدد كبير من الغرباء الذين لم يعرفوا عن تأريخ المدينة شيئاً، بل حتى لم ينتبهوا إلى اسم المدينة ويسألوا عن سرّ تسميتها بالهاشمية، كأن تأريخ المدينة ابتدأ منذ يوم مجيئهم إلى السلطة.

انسحبَ محمد ببطء إلى عزلةٍ تحفظ له بقية كبرياء الأمس، موكلاً عدداً من الرجال لإدارة أعماله، مكتفياً هو في مراجعة سريعة يجريها في نهاية كل شهر لحسابات وارداته، متغاضياً في أغلب الأحيان عن تجاوزات واختلاسات يقوم بها رجاله، ليس تسامحاً بل إن مرارة الخسارة الكبرى جعلت مثل هذه الاختلاسات أموراً لا تستحق التوقف عندها سوى بابتسامات شفقة ترتسم على وجهه.

انكفأ على مخطوطاته هروباً من واقعه أو رغبةً شديدة تدفعه في استعادة ماضيه بكتابة وصاياه التي «لن يضلّ من يقرأها من بعده أبداً» كما كان يردد بأسى واضح وبسرّية أمام أولاد أخيه والرجال المقربين منه، مدوناً (تأريخ المدينة السرّي)، أو (ما لم يرد في المخطوطات)، أو ما يرد في خاطره من قصائد وحكايات، غير أن لعزلته أنياباً كانت تبرزها

في بعض الأحيان في وجهه لتنهش روحه التي ارتضت بانكفائها واستكانت إلى سلامتها، فتجعله يقف وقبضتاه مشدودتان كأنه يحاول أن يصفع الفراغ أو يخنق الوجود ليحصل منه على الإعتراف بهيبتهِ التي يجهل مقامها هؤلاء الدخلاء الذين اجتاحوا مدينة تحمل اسم جده، وما بين انتفاضة روحه واستكانتها كان أشد مايؤلمه هو تمدد الشيخوخة مثل اخطبوط يلف جسده، فيحاول أن يعاند الحقيقة ليعيد الزمان إلى سنوات عنفوانه قبل أن تمتد ذراع هذا الاخطبوط إلى أعزّ عضو في جسده والذي لا يزال يعاند الانخذال بانتصابٍ شامخٍ، وهذا ما أوقعه في الخطأ الكبير الذي ارتكبه في حياته، حينما تزوج ابنة أبي سلافة التي لم تتجاوز سنّ الثالثة عشرة بعد، ضارباً عرض الحائط بكل الاعتراضات التي أبداها القريبون والبعيدون، متخذاً بعناده قضية لاستعادة كرامته التي سلبها العسكر، حتى وإن كانت وسيلته في هذا التحدي ليس إشهار سيف أو حجة، وإنما إشهار قضيب يأبى الرضوخ إلى وهن الشيخوخة، فهو «يحمل قوة ستين رجلاً» كما كان يردد أمام نسائه متلمظاً مثل ثورٍ هائج.

اقتنعت زهرة بما قاله الطبيب، فتضاءل قلقها تدريجياً حتى تلاشى، وكذلك حسين نفسه لم يعد خائفاً، على الرغم من أنه لم يتخلَ عن حركته اللا إرادية بوضع يده على عنقه كأنه يخفي تشوهاً، يخجل من وجوده.

وحده محمد.. انشغل بأمر حسين، فقد كان يقضي وقتاً طويلاً، ساهماً يفكر في هذه العلامة ودلالتها. ينزوي في السرداب. يغلق الباب بإحكام حذراً من أن يُظهر ارتباكه أمام زهرة أو حميرا. يقلّب المخطوطات القديمة، متوقفاً أمام كل جملة غامضة لم يستطع أن يدرك مغزاها سابقاً، مطابقاً بين النبوءات، ما تحقق منها وما خابَ. أعاد النظر في ما كان يظن أنه قد فكّ طلاسمه، فتكشفت أمامه حقائق جديدة، بينا أغلقت أمامه أمور كان يظنها حقائق، وكلما وردت مفردة (قربان)، نطّ قلبه من صدره وتجسدت أمامه صورة أبٍ يقود ابنه أو حفيده نحو دكّة النحر، فيغرق في البحث عن دلالة الإله والأضحية.

كان يشعر بثقل السر الذي يحمله في داخله، وكم تمنى لو أن نفسه تطاوعه ليبوح به ويكشف المستور فوق الأرض وتحتها، غير أنه كان يتراجع عن أمنيته لإدراكه بأن البوح بالسرّ لا يحلّ مشكلةً ولا يغيّر قدراً، وإنما يفاقم الأمر، وإنْ كشفَ المستور ستسقط هيبته وتظهر سواءاته دون أن يجني من ذلك فائدة.

مرت أيام عديدة، ولم يستطع محمد الخروج من الحالة التي أدخلته دائرة محاسبة الذات وإلقاء اللوم على نفسه لما ارتكبه من أخطاء جسيمة منذ أن رنّت في ذهنه كلمة (السلطة)، فأنساه هوس الوصول إليها الثمن الذي يجب أن يدفعه، وها قد جاء الوقت لكي يدفع ثمن ما ارتكبه.

«كل شيء باطل وقبض ريح».

ردد ما كان يردده الجامعة ابن داود بخيبة صادقة وأسى عميق.

راودت محمد فكرة الإنتحار بل استبدت به رغبة شديدة في تنفيذها، ولم تكن هذه المرة كسابقاتها، فدافعه ليس خوفاً من قادمٍ مجهول كما حدث له في بداية شبابه حينما لم يكن قد تجاوز غير بضعة أمتار على السفح في تسلقه إلى القمة التي كان يحلم في الوصول إليها، ولا خيانة زوجةٍ مع رجل صعلوك تفوّق عليه في قوة الباه وطول القضيب كما حدث في المرة السابقة، وإنما دافعه هذه المرة للإنتحار يختلف تماماً، إنها رغبة صادقة في دفع الثمن بافتداء نفسه ليكون هو القربان المطلوب بدلاً من أن يتحمل حفيده وزر ما ارتكبه هو من جنون دفعه إليه طموحه الذي أعماه عن رؤية الحقيقة فانساق وراء أوهامه، فكان صيداً سهلاً وقع في فخ رجلٍ غامض، حذره القريب والبعيد منه، وجنيّة سلبته عقله بمتعةٍ كان بإمكانه أن يجدها مبذولة عند غيرها من النساء. كاد محمد ينزلق أكثر في مكاشفة نفسه وإظهار ما لم يجرؤ على البوح به سابقاً، لكنه فجأة توقف عن الاستطراد في أفكاره محذراً نفسه من مضاعفة أخطائه بتحميله الآخرين مسؤولية ما يجري له، خاصة بعد أن سحبته تداعياته إلى عض يد المعروف.

«من أنت لولا حنوّ بهيجة وعطفها عليك؟»

ردد مع نفسه ونهض ساخراً منها، ومما عزم عليه، محاولاً التقليل من شأن ما تهجس به نفسه من «أوهام»، ولكي يطرد هذا الهاجس انغمر في ملذاته مع حميرا بهوس جنسي فاق هوس صباه، مريحاً ضميره بالهبات التي يقدمها للمحتاجين ومد يد العون لمن يحتاجه، علّ ما يقدمه من خرافٍ وعجولٍ كأضحياتٍ توزع لحومها على الجياع، يباركها القدرُ فيغض الطرف عن حفيده، لكن حميرا وعلى الرغم من صغر سنها، كانت اللجام الذي شدّ فم الحصان الهائج وروّضه. استدرجته إلى الفخ بمهارة امرأة خبرت الرجال، فمع كل لعبة جديدة يبتكرها محمد كانت تضع هي شروطاً لم تخطر في ذهن حفيد هاشم الذي كان يظن بأنه ختمَ كتاب النساء وحفظه عن ظهر قلب. كانت مثل حاويةٍ واثقة من فتنتها ومهارة عزفها، فكلما عزفت على ناي جسدها وأخرجت أفعاها لسانَ الشهوة وهي تتلوى، تعرّى الشيخ تماماً من هيبته، وقاره، حكمته، فطنته... وهي أمامه تتمطى واثقة بنابها ونار فتنتها. يهتاج الشيخ فيرمي على حصير الحاوية كلّ ما يملك.

جاء علي إلى البيت متأخراً ناكثاً العهد الذي قطعه لزهرة وأمام الجميع بألا يتأخر. كانت تلوح على وجهه علامات غضب وارتباك. وقفت زهرة أمامه معترضةً طريقه، وفي فمها سيل يوشك يتدفق خارجاً، إلا أنه لم يتجه إلى السلّم المؤدي إلى الطابق العلوي، بل وقف عند باب غرفة عمّه ونادى عليه. خرج محمد بملابسه الداخلية تتبعه حميرا وهي تحاول تغطية صدرها المندلق بشال صوفي. وقفت عند باب الغرفة ويدها على خصرها وتتكئ على إطار الباب بيدها الأخرى. قالت بسخرية:

«عادت حليمة إلى عادتها القديمة».

لم يعر علي اهتماماً إلى احتجاجات زهرة على تأخره في المجيء إلى البيت، ولا إلى تعليقات حميرا وكأنه لم يسمعهما. تحدث مع عمّه

بهمس ثم انزويا في غرفة المكتب وراح ينقل إليه ما جرى:

«اقتحمت مفرزة من الشرطة السرية قبل قليل مقر الحزب.. وقامت باعتقال بعض الرفاق.. من بينهم سلمان العجمي وياسر وصهيب وأبو حر...».

صمتَ علي قليلا، ثم أضافَ دون أن يتطلع في وجه عمه:

«كان آمر المفرزة هو بندر ابن الحاج رضا».

أدرك محمد ما يدور في ذهن علي من لوم لم يجرؤ أن يصرح به علانية، فهزّ رأسه وتطلع إليه بنظرة يختلط فيها الحزن بالشماتة، كأنه يرد على لوم علي على الثقة التي منحها للحاج رضا وأولاده على الرغم مما يعرفه من العداء الذي يحاولون إخفاءه بتملق انطلى على محمد. أراد محمد أن يقول شيئاً إلا أنه امتنع. أدرك علي ما أراد عمّه أن يقول، فسأل:

«ما العمل الآن؟»

رد محمد دون أن ينظر إلى علي:

«سأتوسط غداً للإفراج عنهم».

قبل أن يلج محمد بوابة المخفر الكبيرة، رفع رأسه فرأى اللوحة الكبيرة المكتوب عليها اسم المدينة التي تحمل اسم جده وقد نصلَ لون حروفها وتساقط الدهان فظهر الصدأ، وانتشرت عليها آثار ذروق العصافير. انقبضت نفسه كأنه شعر بأن هذا الأمر فأل سيء يرسم أمامه إنحدار مستقبل، جاهدَ طويلاً لكي يكون كما يريد. هزّ رأسه بأسف محاولاً إخفاء غضبه، ودخل دون أن ينظر إلى الرجال الذين تجمعوا في باحة المخفر وقوفاً وجلوساً. شقّ طريقه بخطوات عريضة تضرب الأرض بثقةٍ، وسط زحام المتجمهرين باتجاه غرفة آمر المخفر، غير أن صوتاً ناهراً أوقفه قبل أن يصل باب الغرفة. التفت إلى جهة الصوت فرأى شرطياً شاباً يتجه نحوه. تطلع إلى الشرطي بنظرة استصغار فبادره الشرطي بكلام لم يسمعه من قبل:

«إلى أين؟.. ماذا تظن؟.. هنا مركز شرطة وليس اسطبلاً».

اقترب محمد من الشرطي ماسكاً فمه بقبضته، فاركاً شفتيه بسبابة وإبهام، وقبل أن يوجه إليه صفعة، استدرك الأمر فتوقفت يده في منتصف الطريق. تراجع الشرطي خطوتين إلى الوراء مذهولاً، إلا أنه عاد وهو يصرخ بوجه محمد طالباً منه بلهجة آمرة أن يقف في الدور. تطلع محمد إلى الواقفين علّ أحدهم يتبرع فيوضح لهذا الشرطي الذي يبدو غريباً عن المدينة، معرّفاً به من يكون، إلاّ أن لا أحد من الرجال الواقفين في الطابور نطق بشيء مطأطئين رؤوسهم أو لاوين أعناقهم بحثاً عن شيء غير موجود وكأن الأمر لا يعنيهم أو كأنهم لا يعرفون من يكون هذا الرجل الذي تحمل المدينة اسمه. هزّ محمد رأسه محاولاً رسم ابتسامة إشفاق على شفتيه، ممتثلاً لما أمره به الشرطي. انسحب بتثاقلٍ، ووقف في ذيل الطابور. فسح بعض الرجال الطريق أمامه وأبدى البعض الآخر رغبته في التخلي له عن دوره، إلاّ أن محمداً أغمض عينيه عن المشهد، مكتفياً بهزات من رأسه توحي بالتواضع إلا أنها في الحقيقة تدل على كبرياء مهزومة.

غرباء كثيرون وفدوا إلى المدينة خاصة من الأرياف بحثاً عن فرص عمل، فوجدوا في الانخراط في الجيش أو الشرطة طريقاً سهلاً للحصول على راتب شهري مغرٍ لا يحصلون عليه لو زاولوا مهناً أخرى، إضافةً إلى تحقيق ما يختلج في نفوسهم من وهمِ السطوة، يفرضونها على الناس مستغلين الخوف المتكدس في نفوسهم ممن يمثل السلطة، فاستبدل الخوف قناعه من سوط يرفعه مأمورٌ مثل عبيد الخنظل مهدداً به الآبقين من سطوة سيده إلى مأمور آخر يحمل هراوته مهدداً بها من يشمّ به رائحة اعتراض على حكم العسكر.

شريط من الذكريات مرّ على ذهن محمد وهو يقف في الطابور وينظر في وجوه الرجال المرتعبة من شابٍ أحمق يرتدي زياً عسكرياً مترهلاً يتسع لخمسة أجساد مثله. كان الغضب يمور في داخله، والحزن شرراً يتطافر من عينيه. كاد يصرخ أمام الحشد:

«أيها الناس.. من عرفني فقد عرفني.. ومن لم يعرفني أعرّفه بنفسي.. أنا حفيد هاشم الذي تحدّى الغرباء بكل ما يملكون من أسلحة وجنود وهو أعزل إلا من إيمانه.. قاتل الكولونيل جاكسن الذي كان يرعب الأرض إذا خطا عليها.. حفيد من حرر رقاب آبائكم وأجدادكم من ذلّ العبودية.. اصغوا إلى كل حجارة تجدوها تنطق بشهامته.. تلمسوا جباهكم تشموا في عرقها رائحة الكرامة التي سقى جدي جذورها فيكم.. اسألوا جداتكم اللواتي كانت فحولته على ألستهن أغلظ أيمان.. واسألوا أجدادكم من جعل رؤوسهم تقف ثابتةً على أعناقها.. عمي الشهيد منصور الذي فرشوا له الأرض حريراً فلم يساوم أعداءه واختار موته قرباناً لحماية المدينة من عبث الأعداء.. وأبي ناصر الذي شدّ الحجارة على بطنه وما ساومَ على ظلّه.. أنا...»

غير أنه توقف خوفاً من أن يصطدم بحقيقة أشد مرارة مما رآه الآن، فازدرد غضبه بحزن.

جفلَ محمد على صوت الشرطي وهو يصرخ موجهاً كلامه إليه:

«هيه.. أنت.. أنت أعمى؟ أدخلْ!»

انتبه محمد من سرحانه فوجد لا أحدَ يفصل بينه وبين باب غرفة آمر المخفر. التفتَ نحو الشرطي هازّاً رأسه معتذراً عن سهوه وشروده. قابلَ الشرطي اعتذاره بمزيد من الغطرسة، وهو يهز يده استخفافاً.

كانت غرفة آمر المخفر واسعة ومؤثثة بأثاث وإن بدا جديداً إلا أنه ينم عن ذائقة ريفية، فالكنبات ضخمة ومن خشب الصاج البني منجّدة بأفرشة مذهبة لا يتلائم لونها مع جدران الغرفة المطلية بلون زهري فاتح. المكتب عريض تكدست عليه بشكل عشوائي ملفات كثيرة. يجلس آمر المخفر وقد تقوست كتفاه إلى الأمام فظهرت النجوم الثلاث براقة على كتفيه. فوق رأسه عُلّقت صورة الزعيم قائد الثورة وقد بدا مبتسماً وعيناه صغيرتين وبرّاقتين كعيني قنفذ.

ألقى محمد التحية فلم يرد الآمر، منشغلاً بتقليب أوراق ملف أمامه.

أعاد محمد التحية بصوت أعلى، حينها رفع الشاب عينيه قليلاً، ولم يرد التحية غير أنه أشار بيده إلى محمد للجلوس. جلس محمد متأففاً بصوت عالٍ فانتبه آمر المخفر. تطلع إليه مستفزّاً. حاول أن يقول شيئاً إلاّ أن محمداً قاطعه:

«يبدو أنك لم تعرفني».

هزّ آمر المخفر رأسه متطلعاً إلى محمد بزاوية من عينه، وبلهجة متعالية سأل:

«ألستَ عمّ النقيب الطيّار جعفر؟»

شعر محمد بإحباط من طريقة التعريف بشخصه، إلا أنه كتم امتعاضه مردداً بلهجة محايدة:

«بلى.. بلى.».

وقبل أن يضيف شيئاً قاطعه الآمر بتعالٍ وبطريقة أوحت لمحمد بأنه يعجّل في إنهاء المقابلة:

«تفضلْ.. ما سبب زيارتك؟»

تنحنح محمد محاولاً إيجاد صيغة للبدء في الكلام، فقاطعه الآمر مرة أخرى، وبطريقة فظّة خاطبه وهو يقلب بافتعالٍ واضحٍ أوراقاً أمامه:

«قل ما عندك سريعاً.. فهناك غيرك ينتظر دوره».

تطلع محمد إلى آمر المخفر بعينين تقدحان شرراً وشفتين مرتعشتين. حاول أن ينطق فتوقف الكلام في بلعومه. نهض من كرسية ضارباً عجيزته بكفه كأنه ينفض عنها غباراً لا وجود له، وغادر الغرفة غاضباً، دون أن يلتفتَ إلى الآمر الذي ارتسمتْ على شفتيه ابتسامة تشفٍّ وغرور.

كان الجد هاشم على الرغم من بلوغه سن السبعين إلا أنه كان قوياً يلوي ذراع شابٍ إنْ نازله، ولم يشكُ من مرضٍ أو تعب، وقد مرت على رأسه من النوائب ما جعلته جبلاً لا يهتز لريح أو يضعف أمام استفزازٍ، غير أنّ بصقةً من امرأةٍ قطعت أنفاسه ولم تمهله سوى لحظات قليلة، فسقط ميتاً.

هذا ما كان يدور في ذهن محمد وهو عائد من المخفر، وقد أحس فعلاً بخدرٍ وتنمل في ساقه اليمنى وألمٍ طفيف في صدرهِ يصعد نحو عنقه حتى يكاد يخنقه. لاحظ السائق حالَ محمد وهو يتطلع إليه في المرآة الصغيرة أمامه، وحينما سأله عن الأمر لم يستطع محمد النطق واكتفى بإشارة من يده إلى السائق بأن يزيد السرعة نحو البيت.

ركن السائق السيارة جنب الباب وهرع فاتحاً بابها الخلفي، ماداً يده لمساعدة محمد على الخروج، إلاّ أن محمداً دفع يده بامتعاض. انسحب السائق خطوتين إلى الوراء، فهو قد خبر مكابرة سيده وعناده، إلا أنه وقف يراقبه بحذر، فقد أدرك أن شيئاً غير طبيعي قد حدث له منذ أن خرج من المخفر غاضباً. مدّ محمد ساقه اليسرى خارج السيارة حتى استقرت قدمه على الأرض، لكنه لم يستطع إخراج جسده كاملاً. مرت لحظات، كان يحاول خلالها أن يوحي للسائق بأن ساقه الأخرى قد أصابها خدر مؤقت سيزول قريباً، وحينما استمرت الحالة إلى أكثر من الوقت الطبيعي مد ذراعه طالباً من السائق مساعدته، محاولاً باليد الأخرى رفع ساقه اليمنى، فخذلته يده، فأدرك بأن الخدرَ لم يصب ساقه وحدها. ألقى رأسه على مسند الحوض الخلفي للسيارة زافراً الهواء بصوت عال. لم ينتظر السائق الإشارة فهب نحو محمد مسرعاً. أدخل نصف جسده إلى داخل السيارة ورفع ساق محمد اليمنى التي تحولت كقطعة صخر، سحبها بيده اليسرى بينا كانت يمناه تحيط خصر محمد حتى أخرج جسده كله وبقي مسنداً قامته من الخلف كيلا تتهاوى، فقد بدأ واضحاً ترنحها. حاولَ محمد أن يقف متوازناً وخطا ببطء، إلا أنه توقف ماداً ذراعه على كتف السائق. فتح محمد الباب الخارجي بيده اليسرى واتكأ عليه، بينا انسحب السائق خطوتين إلى الوراء متجنباً النظر إلى داخل البيت، إلاّ أن محمداً دعاه لكي يسنده. كان محمد يسحل ساقه اليمنى بصعوبة مستنداً على كتف السائق، حتى اجتازا الممر المؤدي إلى الباب الداخلي عندها انسحب السائق بعد أن فتح له الباب

الداخلي. نادى على حميرا فجاء صوته كصرخة متحشرجة. قبل أن يصل سريره انهار على جانبه الأيسر، فأحدث ارتطامه بالأرض دوياً عالياً، هرعت زهرة وحميرا إليه صارختين بخوف. أشار إليهما بذراعه اليسرى أن تصمتا. وقفت كل منهما إلى جانب منه وساعدتاه على النهوض فاستند عليهما حتى وصل إلى سريره. حاولت كل من زهرة وحميرا أن يعرفا منه ما حدث إلا أنه لم يستطع النطق فاكتفى بهزات من رأسه توحي بتهوين الأمر. جلست زهرة عند قدميه وهي تحاول أن تكتم صوت بكائها، بينا جلست حميرا عند رأسه وهما تتطلعان بوجه بعضهما البعض بحيرةٍ. حاول محمد أن يتكلم إلا أنه أصدر همهمات لا تُفهم وصرخات تخرج بعد مكابدة كأنها انفجار بالون. أجهشت زهرة بالبكاء وغادرت الغرفة مسرعة، عندها قامت حميرا وأغلقت الباب بالمفتاح.

في المساء امتلأ البيت بأصدقاء محمد، وكل منهم يخرج من الغرفة فاركاً يديه وعلى وجهه علامات أسى على سطوةٍ غاربة وحياة لا تدوم لأحد. أكد الطبيب على إصابته بجلطة سببت له شللاً في نصفه الأيمن، إلا أنه راح يؤكد بثقة بأن محمداً سيتحسن قريباً، وإن كان يشكّ بأنه سيعود إلى وضعه الأول تماماً، موصياً علياً بأن يشددوا على العناية به وإبعاده عمّا يسبب له الانفعالَ ويعكّر مزاجه النفسي.

اقترح عليّ نقل عمّه من غرفة نومه إلى الصالة لكي يقوم هو بالعناية به، إلاّ أن حميرا رفضت اقتراحه مؤكدة بكلام يضمر غمزاً فظاً بأنها زوجته وليس من حق أحد غيرها أن يتطلع إلى عريه وضعفه.

«ولكنك لا تستطيعين حمله إذا أراد قضاء حاجته!»

قال عليّ إلاّ أن حميرا ردّت عليه بفطنةٍ أو بجواب هيّأته مسبقاً:

«سيساعدني أبي على ذلك».

ثم أضافت بصوتٍ واطئ كأنها تحدث نفسها:

«لست أكثر حرصا عليه مني».

لم يجد علي حجة يفنّد بها ما قالته جميرا وليس الوقتُ وقتَ جدالٍ

حول هذا الأمر، فرضخ على مضض، ناهراً زوجته التي اعترضت على ما قالته حميرا، على الرغم من أن توجساً غريباً استيقظ في نفسه وشكوكاً لم يجد ما يؤكدها، ولم يستطع البوح بها خاصة بعد أن اقتنص ما تشي به النظرات المتبادلة بين حميرا وأبيها، فاكتفى بصمت حذرٍ، مستغفراً الله من أثم الظن.

كان محمد هامداً لا يتحرك منه سوى حدقة عينه اليسرى يديرها باتجاهات حركات زوجته وابنته وعلي، وبين فترة وأخرى تتقلص عضلات وجهه ويزداد اعوجاج شفتيه كأنه يوشك على البكاء. أدرك علي من خلال نظرات عمّه ومكابدته بأن سرّاً ما يريد البوح به فيمنعه انعقاد لسانه. كان علي يعرف أن عمّه قد سجلّ ملكية البيت الكبير باسم حميرا وأنه أعطى وكالةً لأبيها على مخازن الحبوب، ووكّل جبير ابن الغواص على أمور الأراضي والبستان، لكنه لم يخبر زهرة بالأمر، غير أن نظرات عمّه كانت توحي برغبةٍ في البوح بسرّ لا يعلمه. استغل علي انشغال حميرا مع أبيها بعد أن انفضّ الزائرون، فدخل إلى حيث يرقد عمّه. صحا محمد من غفوته مشيراً بيده اليسرى إلى علي أن يغلق الباب ويقترب منه. أشار إلى خزانة الملابس فقام علي بفتحها وهو يتطلع إلى عمه متتبعاً اتجاه نظراته. في الرف الأعلى وجد علبة صفيح صغيرة مغلقة. وضعها على الأرض وراح يتابع ما يشير إليه محمد. في الجيب الصدري الصغير لإحدى البذلات وفي محفظة الساعة الجلدية وجد مفتاحاً صغيراً. تناوله بسرعة. حمل العلبة الصفيح وغادر الغرفة مسرعاً كما أشار إليه عمّه. لم يفاجأ علي حينما وجد العلبة لا تحوي سوى مفتاح السرداب، فقد كان يعلم أن عمّه لم يعتزّ بما حاز عليه في حياته من سطوة ومال بقدر اعتزازه بهيمنته على السرَ الكامن في المخطوطات، ولأنه خبر طريقة تفكير عمّه في النظر إلى رمزية الفعل أكثر من الفعل نفسه، فقد أدرك أنه بحرصه على تسليمه مفتاح السرّ له، أراد أن يقول أن هذا هو الإرث الحقيقي الذي سيتركه لأحفاده، ولكن كيف له أن

يقنع زهرة بالأمر إذا علمت أنها وأبناءها لن يخرجوا من ثروة أبيهم بغير أوراق صفر لا تعني لها شيئاً، بينا استولت حميرا وأبوها والآخرون على ثروة أبيها وأراضيه.

أسبوع مرّ على مرض محمد وحميرا لا تغادر الغرفة حيث يرقد، كأنها في نوبة حراسة مشددة، حذرة من أن ينفرد علي أو زهرة به في غيابها مبدية حرصاً واهتماماً لم يعرفا عنها قبل مرض زوجها، وحينما يبدأ توافد الأصدقاء للإطمئنان على صحة محمد وعادة ما يكون بين العصر وحتى العشاء، يقوم أبوها بالمهمة، باتفاقٍ لا يخفى على أحد.

كان الطبيب يزور محمداً مرتين كل يوم ليفحصه ويقوم بزرقه إبرة في ساعده، وفي كل مرة يؤكد على أن تحسناً طفيفاً قد طرأ عليه ومبشراً بأن حالته مستقرة وسيظهر في الأيام المقبلة تحسن أكبر، وقد تأكد هذا الأمر بعد أن استطاع محمد أن يحرك أصابع كفه اليمنى فارتسمت لأول مرة ابتسامات بِشْرٍ على وجه زهرة وعلي، وسمح لحفيديه أن يقتربا منه ويقبلا جبينه.

أمر غريب حدثَ، تركَ أكثر من علامة استفهام وتعجب على وجوه من شهدوا المشهد ممن كانوا في زيارةٍ لمحمد، حينما حضر جعفر الطيار بشكل مفاجئ للاطمئنان على صحة عمّه. كان جعفر يرتدي زيّه العسكري الأزرق بنجومه الثلاث وجناح النسر، لكنها لم تكن تلك النجوم الذهبية التي كان بريقها يشع على كتفيه، بل كانت نجوماً من القماش مطفأةَ تعلوها غبرة صفراء، وهذا ما لم يشاهدوه من قبل. هبط جعفر من سيارة الجيب العسكرية ودخل دار عمّه مسرعاً بعد أن تحدث مع السائق الذي تسمّر واقفاً باستعدادٍ عسكري رافعاً يده بالتحية. وقف الرجال على جانبي الممر الواصل ما بين الباب الخارجي والدار لاستقبال هذا الشاب الذي عرفه الجميع بصمته وصرامة تعابير وجهه، رافعين أيديهم بتحية عسكرية، إلا أنه تجاوزهم بخطوات عريضة وسريعة دون أن يلتفت إليهم أو يرد على تحيتهم. كان علي يقف عند باب البيت

الداخلي في استقبال أخيه. احتضنه بشوق، محاولاً إطالة فترة احتضانه إلاّ أن جعفراً سحب جسده من ذراعي أخيه بهدوء واتجه إلى حيث يرقد عمّه. استبدّ الفضول بالرجال لمعرفة سرّ هذه الجدية وهذا السرحان الذي بدا واضحاً من تصرفات جعفر. فسّره البعض بأنه غرور العسكري المعتاد، بينا كان للبعض الآخر رأي مختلف.

«ألم تروا الغبارَ وقد غطّى بذلته ووجهه؟»

«وماذا يعني هذا؟»

سأل رجل، فردّ عليه المتحدث الأول:

«إنه عائد من ساحة التدريب».

لم يفهم الرجال ما يعنيه الرجل بقوله هذا فراحوا يستفسرون بفضول. أضاف الرجل بصوت هامس كأنه يبوح بسرّ خطير:

«الأيام المقبلة ستكشف لكم».

ساد صمت بين الرجال وكل منهم ينظر بوجه الآخر بخوف، فعاد الرجل ليقول بثقة العارف بخفايا ما يجري في السرّ:

«ستندلع الحرب قريباً».

جاءت العبارة الأخيرة كسقوط مدوّ لقذيفة، فعمّ صمت متوجس كصمت انتظار تلاوة بيان أول لانقلاب عسكري، فشلّ تفكير الرجال، ومن بينهم من وجدها فرصة لكسر ما يمنع من تحقيق فضوله فأسرع إلى داخل الدار لسماع ما سيقوله جعفر نفسه، بينا حاول البعض الآخر التقرب من الجندي الجالس خلف مقود سيارة الجيب العسكرية وقد أطفأ محركها ووضع بيريته على وجهه وبدا كأنه يأخذ غفوة سريعة.

دخل جعفر غرفة عمّه وأغلق الباب خلفه طالباً من حميرا وأبيها وبلهجة آمرةٍ أن يغادرا الغرفة. اعترضت حميرا عليه إلا أنه تطلع إليها بنظرات عقاب يتهيأ للإنقضاض على فريسةٍ فتراجعت خطوة إلى الخلف لكنها بقيت واقفة تتحدى نظراته بعناد، حتى مسكها أبوها من ذراعها وسحبها خارج الغرفة، بينا بقي علي واقفاً إلى جانب السرير منتظراً ما

سيأمر به أخوه الصغير الذي هزّ رأسه موافقاً على بقائه. جلس جعفر عند رأس عمّه مدلكاً كفه المتجمدة، محاولاً أن يرسم على وجهه ابتسامةً لطمأنته بأن كلّ الأمور تسير على ما يرام ولا شيء يستدعي القلق. قال مبرراً تأخره في الحضور:

«إنها الأوامر العسكرية».

ثم أضاف بهدوء مفتعل:

«حتى الآن لا شيء يلوح في الأفق.. إلاّ أن القيادة العسكرية قد اتخذت الإجراءات اللازمة للتصدي لأي عدوان قد يحدث.. لذلك فنحن في حالة انذارٍ واستعداد لما قد يقوم به العدو..»

حاول علي أن يخبر أخاه بما جرى من مداهمة إلى مقر الحزب واعتقال أغلب الرفاق الذين ساندوا الثورة ولا يزالون يساندونها، إلا أنه وجد أخاه لا يعرف أي شيء عمّا يدور في الولاية من تغييرات في توجهات القيادة السياسية، فاكتفى بالاستماع إلى ما يقوله جعفر محاولاً التقاط ما يخفي كلامه من إشارات.

لم يمكث جعفر سوى أقل من ساعتين، وغادرَ على الرغم من إلحاح زهرة عليه للمبيت الليلة عندهم، إلا أنه اعتذر بسبب مشاغله، مشيراً إلى علي بأن ينقذه من إلحاح زوجته، فأشار علي إلى زهرة أن تتوقف عن إلحاحها، فأسرعت إلى المطبخ لتجهز له (سفرطاساً) مليئاً بالرزِ والباميا. حمله بيده محتضناً زهرة بذراعه الأخرى، وغادر ضاحكاً بصوت عالٍ بعد أن ردّ على التحية العسكرية التي قدمها له ولدا أخيه.

بعد أن غادر جعفر ساء وضع محمد الصحي، فأسرع علي لاستدعاء الطبيب الذي جاء مسرعاً، وبعد أن أجرى الفحص، اكفهر وجهه وهو يعلن لعلي بأن ارتفاعاً حاداً في ضغط الدم حدث بشكل غير متوقع سبّب له هذه الانتكاسة. زرقه بإبرة في عضلة ساعده وانتظر قليلاً حتى غطّ محمد في نومه. انفرد الطبيب بعلي وأبي حميرا مؤنباً إياهما على إهمالهما لما أوصاهما به من ضرورة إبعاد المريض عن أي شيء يسبب

له القلق والانفعال فهزّ علي رأسه، نافياً حدوث أي أمرٍ طارئ، وحينما حاول أبو سلافة التدخل قاطعه علي بصوت عالٍ مؤكداً ما قاله فصمتَ أبو سلافة.

عادَ وضع محمد الصحي إلى التحسن بشكلٍ واضح، حتى استطاع بعد عشرين يوماً أن ينهضَ من فراشه متوكئاً على عصاه، وخطا بضع خطوات وإنْ كانت تحت مراقبة أحد من عائلته. رُتب له كرسيّ عريض في الصالة فصار يستقبل زائريه جالساً، إلا أنه لم يستطع النطق سوى كلماتٍ قليلة تخرج من فمه كانفجار بالونٍ، وحينما يحاول أن يستمر في الحديث يتحول صوته إلى صراخٍ يشبه الضحك أو البكاء، فيثير الشفقة في نفوس الزائرين، فكان كلماً حاول أن يتكلم يتدخل علي أو عقيل برفع حدة صوته عالياً كي يطغى على صوت محمد أو يحاول مقاطعته منبهاً إياه على ضرورة الإلتزام بوصايا الطبيب بعدم إجهاد نفسه، خاصة بعد ما حدث تلك الليلة حينما انفجر محمد بضحكٍ هيستيري لم يعرف أحد سبباً له، تحول إلى صراخٍ مرعب لم يستطع إيقافه، فهرع علي خارجاً من الغرفة وهو يضرب وجهه ورأسه باكياً، ظنّاً منه بأن الشلل قد تسلل إلى عقل عمّه فجُن، عندئذ تدخلت زهرة وأطبقت بكلتا كفيها فكيْ أبيها بقوة، فازرقّ وجهه ولكنه توقف عن الضحك أو البكاء.

اجتمع عدد من أصدقاء محمد القدامى ليلة الجمعة بعد صلاة العشاء، وحضر إمام الجامع بصحبة عدد من التجار، وكانوا مستبشرين بتحسن محمد الملحوظ، وهذا ما جعلهم يتجاوزون الحديث عن المرض وعن ذكرياتهم القديمة إلى أحاديث أخرى عن السوق وحركة الاستيراد البطيئة وتذمر الناس بسبب شحّة المواد الغذائية وارتفاع سعر الطحين بشكل ينذر بانفجار قريب، وانقسموا حول أسباب هذه الأزمة، ما بين متهم للحكومة التي انشغلت بالتجهيزات العسكرية والاستعداد لخوض معركة لا يعرفون ضد من ولا أسبابها، وبين مبرّئ للحكومة ومؤيد لسياستها في إيلاء قضية الدفاع عن الوطن الأهمية الأولى، لكن

كلا الطرفين قد اتفقا على ضرورة الدفاع عن الوطن لو شنّ العدو حربه عليهم، على الرغم من أن لا أحد من بينهم يعرف أسباب الحرب ودوافعها، بل هم لا يعرفون شيئاً عن عدوهم سوى ما تتناقله الألسن في سريّة وحذرٍ من أخبارٍ وتخمينات حول الجيوش المتجحفلة على حدود الولاية من جهاتها الأربع وعن الأساطيل الراسية في موانئ الساحل الشمالي وعن العدو القادم من وراء البحار طمعاً بثروات ولايتهم التي لم ينعموا فيها، حتى صرّح بعض الرجال بأن الأمر لا يعدو كونه شائعات تبثها السلطة لإلهاء الناس عمّا تقوم به من اعتقالات بحق معارضين لسياستها، وكذلك للفت الأنظار عن فشلها في إدارة شؤون البلاد وتفشي البطالة وارتفاع الأسعار.

«ماذا يريدون منّا؟»

سألَ أحدهم فردّ الثاني بثقة مهزوزة:

«يريدون إعادة الإقطاع ورجال الحكم القديم؟»

«ليتهم يعودون...»

رد الأول ببلاهة ثم أضاف:

«وماذا حصلنا من النظام الجديد؟»

«الأمر أكبر من هذا؟»

قال شابٌ يرتدي نظارتين سميكتين فانشدت الأنظار إليه ترتقب منه توضيحاً، فأضاف مموهاً كلامه بغموضٍ، محاولاً الخروج من ورطةٍ أوقع نفسه فيها:

«للقوى العظمى حسابات ليس من السهل معرفتها».

لم يردّ على كلامه أحد فانسحب إلى صمته، بينا كانت الأنظار تتنقل ما بين إمام الجامع وعلي بانتظار أن يقولا رأيهما في ما يدور من حديث، إلا أنهما لم ينجرّا إلى الحديث، حتى سأل أحد الرجال ببراءة الغافل عما يدور حوله، موجهاً سؤاله إلى عليّ:

«أين سلمان العجمي؟... لم أره منذ فترة طويلة».

ساد الصمت على الجميع وكل منهم يحاول تغيير مسار نظرته نحو جهة بعيدة خارج المكان. لم يفطن الرجل إلى تأثير سؤاله فأعاد السؤال مرة أخرى بعد أن وجهه بشكل مباشر إلى علي، عندها أشار علي بحركة من عينيه إلى زاوية الصالة البعيدة حيث كان يجلس بندر ابن الحاج رضا صامتاً وهو يصغي باهتمام إلى ما يدور من حديث. أدرك السائل مغزى إشارة عليّ، فارتد إلى الخلف متوارياً خلف كتفي الجالس جنبه، ثم سرعان ما نهض معتذراً وغادر المكان بارتباكٍ مطارَد.

كان محمد جالساً على كرسيه، يحدق إلى زاوية الصالةِ شاردَ الذهن، وفجأةً ارتفع صوته متحشرجاً بكلمات مبهمة. توقف الجميع عن الحديث وهبوا مسرعين لمعرفة ما يطلبه محمد أو يريد قوله. حاول علي كعادته أن يوقفه أو يشغله عن إجهاد نفسه في نطق الكلمات، إلاّ أن محمداً كان مصرّاً على ما كان يسعى إلى إيصاله موجهاً نظراته إلى إمام الجامع والحاضرين. شعرَ الحاضرون بحرجٍ شديد لا يعرفون كيف يخفونه فبدت حركاتهم غريبة وهم يتطلعون إلى محمد وهو يكابد ويتألم كأنه في صراعٍ مع شياطين جائمة على صدره أو كفريسة تتلوى للإفلات من شبكة ألقيتَ عليها فجأة. أدرك محمد ألّا أحد قد فهمَ ما سعى إلى قوله فراح يشير بيديه موضحاً مطلبه، فسأله عقيل:

«أتطلب قلماً وورقة؟»

هزّ محمد رأسه بالإيجاب، فانطلق عقيل مسرعاً إلى داخل البيت. ساد صمتٌ على الحاضرين وتنفس البعض بعمق كأنه استيقظ من كابوس، وكلّ منهم يتطلع في وجوه الآخرين ليقرأ فيها ما ينوي محمد كتابته، على الرغم من أن تخميناً مشتركاً دار في أذهانهم، وهو أن محمداً يريد كتابة وصيته ويُشهدهم على ما سيرد فيها، بينا وقف علي متسمراً وهو يتطلع إلى عمّه بذهولٍ، فقد خمّن بما يشبه اليقين ما سيوصي به. عاد عقيل حاملاً رزمة أوراق بيض وقلماً، لكن قبل أن يسلّمها إلى محمد، اعترضه أبو سلافة، لاوياً ذراعه فاستسلم عقيل بعد

أن فوجئ بمباغتة أبي سلافة له. أخذ أبو سلافة رزمة الورق ودعكها بقبضتيه المرتعشتين وعلى وجهه تلوح علامات غضب غريب. فغر الحاضرون أفواههم وهم يتطلعون إلى أبي سلافة دون أن يعرفوا سبباً للغضب الشديد الذي هبط عليه فجأة. ارتفع صراخ محمد وهو يشير بغضب إلى أبي سلافة لكي يسلّمه رزمة الورق والقلم، إلاّ أن أبا سلافة لم يعره اهتماماً. دنا علي من أبي سلافة ودون أن ينطق بأية كلمة حاول أن ينتزع من قبضته القلم ورزمة الورق، عندها صرخ أبو سلافة باعتراضه على ما يسعى إليه محمد، مفسراً الأمر بأنه يسبب له انفعالاً قد تنتكس صحته على أثره، ولكي يفسّر للحاضرين ما يقصده قال:

«يا جماعة.. هذا الوقت ليس مناسباً لكتابة الشعر...»

صمت قليلاً ثم قال محاولاً افتعال الهدوء:

«يا جماعة الخير.. محمد صديقي وأخي وحبيبي.. وأنا أعرف به من الجميع.. وأعرف جيداً أن كتابة الشعر تسبب له انفعالاً شديداً».

لم يقتنع أحد من الحاضرين بما قاله أبو سلافة، إلاّ أن شرارة المعركة التي بدأت تسري بين أفراد العائلة، خاصة بعد أن انضمّ جبير ابن الغواص إلى أبي سلافة، مؤيداً ما قاله وواقفاً سدّاً بينه وبين علي لمنعه من تسليم الأوراق لمحمد، جعلت الهروب أفضل الطرق تحاشياً للتدخل في أمور عائلية لا يعرفون ولا يهمهم أن يعرفوا شيئاً عن أسبابها ونتائجها، ولئلا يكونوا شهوداً على فضيحة هم في غنى عنها، فبدأوا بمحاولة تهدئة الأمر ومنع وقوع على مرأىً منهم مشاجرة بين أبي سلافة وعلي الذي بدا شرر الغضب يتطاير من عينيه، مستغلين أولى لحظات الهدوء للمغادرة، حتى انفضّ الجميع، تاركين الصالة بخطوات متمهلةٍ، لتنطلق بأقصى سرعتها بعد أول خطوة خارج البيت.

بعد دقائق قليلة لم يتبقَ أحد من الأصدقاء، وانشغل عليّ وعقيل بعمّها الذي بدا متعباً، فشحبَ وجهه وزاغت حدقتاه حتى لم يظهر من عينيه سوى بياضهما، وغطّى الزبد شدقيه، بينا انزوى أبو سلافة وابن

الغواص وانضمّ اليهما بندر ابن الحاج رضا في حديث هامس وهم واقفون في الحديقة.

ارتفع صوت حميرا ملعلعاً وهي تقتحم الصالة وذراعاها تتطوحان في الهواء، شاتمةً عقيلاً «السكّير وقصصه السخيفة التي لا تنتهي»، مرددة بوقاحة:

«إذهب إلى جماعتك الخائبة.. هناك.. في الحانة اكتبوا أشعاركم وتفاهاتكم».

مبديةً حرصاً على صحة زوجها ولائمةً الجميع على عدم اهتمامهم بصحة الرجل الذي «لولاه لكنتم الآن تتسولون رغيفَ الخبز». لم يجبها أحد على كلامها متحاشين انفلات لسانها، ونزقها الذي يتحين أية فرصة للانطلاق دون تحفظ أو احترامٍ لأحد، ولكي تعطي غضبها مبرراً، راحت حميرا تردد بصوتٍ متحشرجٍ مفتعلة البكاء بتمثيل متقن الكيد:

«شهر مرّ وأنا لم أذق طعم النوم.. أسهر على راحته مثل عبدةٍ.. أطعمه وأغيّر ملابسه.. وأمسح فضلاته.. حتى تحسنت صحته...»

استغلت صمت علي وزهرة وعقيل، فأضافت بطريقتها المنفلته:

«شهر مرّ وأنا مثل جارية... أرقص أمامه وأتعرى.. كي يشعر بقليل من البهجة».

وقفت حميرا وهي تضع كفيها على خصرها بتحدٍ نزقٍ وجسدها يرتعش من الغضب. تطلعتْ إلى وجهِ زهرة التي وقفت متجمدة ولم تنطق بحرفٍ، وقالت كأنها توجه الكلام إلى زهرة وحدها:

«مَن تفعل ما أفعله أنا؟ أية زوجة أفنت شبابها من أجل رجل عجوز؟.. ماذا تريدين أن أفعل لأبيك أكثر من أن أمصّ زبّه الميت كل ليلة؟...»

غطتْ زهرة وجهها بكفيها خجلاً مما سمعته، وغادرت الصالة مسرعة وهي تمسك ذراعي طفليها، لحقها علي بصمت، بينا غادر عقيل البيت غاضباً.

لا يدري علي متى نامَ، فقد ظلّ يفتعل الخمود لكيلا يعطي فرصة لزهرة أن تسأله عما جرى بينه وبين أبي سلافة في صالة الضيوف والذي تسببَ في انتكاسة وضع أبيها، وعن سبب غضب حميرا وتوجيه كلامها الوقح إليها بالذات، بينا كانت زهرة تتقلب محاولة إيقاظه وجرّه للحديث، فقد أدركت أنه يكتم أمراً عنها، ولأنها تعرف زهده وبرودة أعصابه فقد ارتفع في داخلها منسوب القلق وهاجمتها الهواجس، فخمنت الأمر يدور حول مسألة الأرث الذي تسعى حميرا للإستيلاء عليه، ولم يزل أبوها على قيد الحياة، وأنها واثقة من أن زوجها لا يهمه من هذا الأمر شيء حتى لو تخلّى عن حقهما وحق أولادهما.

فركَ علي عينيه لكي يطرد بقايا الكابوس. شعر بأن زهرة لا تزال يقظةً. انتظر أن تسأله عمّا يشكو كما اعتادت في مثل هذا الموقف، إلا أنها تحركت مديرة إليه ظهرها. لم يعر لأمرها اهتماماً فقد اعتاد على غضبها وإنْ كان في داخله يتفق مع قلقها وحدسها الأنثوي في توجس أمرٍ ظلّ خافياً عليها، وحان موعد انكشافه، لكنه أصرّ على إخفائه فالوضع الصحي لعمّه لا يسمح بذلك، وقد يحدث ما لا تُحمد عواقبه لو علمت زهرة بالحقيقة، وبالماء الذي كان يجري من تحتها دون أن تعلم، وربما هذا يجعلها لا تشهر غضبها ضده فحسب بل ربما ستسقط هيبة أبيها من عينيها.

«لا بد من ترك الأمر إلى وقت آخر فلعلّ محمداً سينهض من مرضه ليصحح الأمر بنفسه».

ردد علي مع نفسه، وألقى رأسه على المخدةَ محدّقاً إلى الظلام، ومستعيداً ما حدث بينه وبين أبي سلافة، ومحاولاً تخمين ما كان محمد ينوي كتابته في وصيته التي أدرك أبو سلافة وابن الغواص فحواها.

«اسمعْ يا علي.. لا تفرِطْ في حسن النية».

«.....................»

«خذْ حذركَ من ابن الغوّاص.. سيكون يوماً من ألدّ أعدائك».

«.....................»

«هي نبوءة... ستدركُ صحتها حينما تتحقق».

تذكّر علي ما قاله له عمّه يوماً حينما كانا عائدين من البستان، بعد أن قام محمد بجلْد جبير لاغتصابه محصول البستان أثناء سفره.

«من أنتَ أيها الرجل الغامض؟»

سأل عليّ نفسه كأنه يحدث عمّه، ثم راحت الأسئلة تترى:

«أتريد أن تنتقم مني ومن أحفادك؟ أم أنني عاجز عن إدراك مراميك؟»

«لِمَ تحذرني من ابن عمّتي وتعطيه في الوقت نفسه ما يؤهله للإنتصار علي؟»

«هل كان الأمر مصادفةً؟ أو أنك تعمدتْ تأجيل الأمر حتى يفوتَ أوانه؟»

«هل خذلتك فطنتكَ؟ أو أن في نفسك ما في نفس يعقوب؟»

... وأسئلة أخرى لم يستطع علي الإجابة عليها، لكنه لم يسئ الظن بعمّه، بل رجّح عجزه عن فهم الأمر، فهو يعرف الحب الذي يكنّه عمّه إليه ولإبنته وأحفاده، ولابد أن عمّه يدرك أن تكليفه بالحفاظ على المخطوطات هو أكبر أرث سيتركه لأحفاده، سرّ يعادل كنوز الدنيا سيتناقله أحفاده من بعده، على الرغم من أنّ علياً لم يفهم مما ورد في المخطوطات إلا ما سمح له عقله بذلك، ولكن ماذا سيقول لزهرة لو علمت بأنها سترث من كل ثروة أبيها الطائلة أوراقاً صفراً مهترئة؟.

ما كاد علي يغفو ثانيةً حتى عاد صوت الأزيز يخترق أذنيه. فتح عينيه ليتأكد من يقظته، لكن الصوت استمر بوضوح أشد، سرعان ما راح يقترب شيئاً فشيئاً حتى صار دوياً واضحاً. أدركَ أن الصوت ليس قادماً من كابوس بل هو حقيقة. توجس خيفةً على الرغم من أنه كان متيقناً من أن الحرب قائمةً خاصة بعد أن أكد له جعفر في زيارته السريعة لعمّه تخمينه، وكذلك التعتيم الكامل من قبل قيادة السلطة على ما يدور في السر، وزجّ بكل من يشكّون في ولائه لهم في السجون، وما تركهم له

طليقاً إلا تغاضٍ مؤقت فرضته سمعة عائلته في المدينة وإكراما لعينيْ أخيه جعفر. جلس مصغياً إلى الدوي وهو يقترب أكثر. لم يكن الوقت كافياً لارتطام الاحتمالات في ذهنه، إذ دوّى انفجارٌ قوي هزّ جدران البيت، وأشعل ظلام الغرفة بضوء صاعقة. هبّ واقفاً. أزاح ستارة النافذة، فرأى السماء وقد تحولت إلى أتونٍ جهنمي. حاولَ أن يمد عنقه خارج النافذة إلا أنه انتبه إلى أن الزجاج قد تهشمَ وبقيت منه شظايا كبيرة عالقةً. كانت زهرة تقف خلفه محاولةً أن تنظر في الاتجاه نفسه وهي تنفض عن وجهها ورأسها ما تساقط عليهما من كلسٍ وتراب، وقبل أن تسأل زوجها عمّا حدث، قال:

«بدأت الحرب».

لم تفهم زهرة عن أي حرب يتحدث ولماذا، ولم تجد فرصة للسؤال فقد هرعت تتفقد أطفالها النائمين وتغطي وجوههم من التراب الذي تساقط من السقف. انفجار ثانٍ وثالث ثم توالت سلسلة من الانفجارات القوية كأنها تحرث المدينة من كل جهاتها، كان من بينها انفجار شديد جداً انقطع على أثره التيار الكهربائي فعمّ الظلام بعد أن أطفئ مصباح العمود الكهربائي في الشارع والذي كان ضوؤه يتسرب إلى الغرفة. رأى علي بصيص نورِ فانوسٍ قادماً من الطابق الأرضي، وارتفع صوت حميرا مرتجفاً وهي تتحدث مع أبيها. هرع علي إليها راجياً منها أن تحاول تمويه الأمر على محمد، إلا أنه علم منها بأنه مستيقظ وقد علم بما جرى. دخل علي على عمّه، فوجده جالساً على السرير ويتطلع إلى السماء من خلال النافذة المفتوحة والتي تهشم بعض زجاجها. كان شارد الذهن محتضناً جسده المرتعش بذراعيه كطفلٍ خائف. رفع عليّ اللحاف المتكور على السرير ودثّر به كتفيْ عمه ثم جلس جنبه على حافة السرير، فسمعه يردد كلمات غير مترابطة ولكنه ينطقها بوضوح:

«القربان.. جعفر.. حانَ الوقت.. حسين.. بهيجة.. لابد من قربان....»

حاول علي أن يطمئنه، لكنه لم يجد ما يقوله سوى كلماتٍ لم تخترق

جدار غيبوبته، فنهض بهدوء وغادر الغرفة صامتاً. ولكي يتجنب الحديث مع حميرا وأبيها، خرج إلى الحديقة على الرغم من برودة الطقس ورائحة الخوف التي انتشرت في ثنايا الفضاء. قرفصَ في ركنٍ مظلم وراح يحدق إلى السماء المغبرة متمتماً بكلمات تنفلت من لسانه دونما وعي منه، وشتائم غير موجهة لأحد. لا يدري ما سرّ الحياد البارد الذي يهيمن عليه حول ما يجري في البلد، كأن ما يجري الآن لا يعنيه، ليس لأنه كان يتوقع اندلاع الحرب في أية لحظةٍ، بل لأنه لم يعد يعرف العدو من الصديق، ولولا خوفه على حياة أخيه جعفر لأغلق أذنيه بقطن وعاد إلى سريره، تاركاً نارهم تأكل حطبهم. تناقض غريب يشدّه إلى طرفيه بقوتين متكافئتين، تاركاً في فمه مرارة الخيبة من كل شيء، واللامبالاة التي وصلت حدّ تجاهله للتفكير بمصير من حوله.

نهضَ بتكاسلٍ بعد أن عمّ الصمت على أطراف المدينة، كأن الأمر قد انتهى أو على الأقل قد أخذت المدينة هذه الليلة حصتها من الدمار، ولم يعد يسمع صوتاً أو صراخاً، فربما قد عاد الناس إلى نومهم مؤجلين التفكير في الموت إلى ليلةٍ أخرى. قبل أن يدخل البيت عاد صوت الأزيز قادماً من الجهة الشمالية للمدينة، فتوقف ليرى ما سيحدث، رافعاً رأسه إلى السماء المستكينة علّه يرى شياطينها الغاضبة لسبب يجهله. لمح شبحاً خاطفاً بلمحة برق منقضّاً عليه، فانبطح أرضاً وهو يغطي رأسه بكفيه، ثم دوّى انفجار قوي، خاله قريباً منه حيث أنه سمعَ أصوات أزيز وسقوط الشظايا. انتظر قليلاً ثم نهض بحذرٍ فرأى ألسنة النيران ترتفع من جهة ليست بعيدة عنه. أدركَ عليّ أن المخفر هو الجهة التي استهدفتها الغارة. شعرَ للحظاتٍ بشيء من الشماتة، إلاّ أن صدره انقبض فجأة حينما تذكر بأن رفاقاً له ينامون في طواميره، لا ذنب لهم سوى أنهم كانوا يحلمون، عندها سحبه تناقضُ موقفه إلى أحد طرفيه، فهرعَ راكضاً إلى جهة المخفر لعلّه يستطيع أن يستجمع من بقي يحمل في روحه بقايا غيرةٍ لكي ينقذوا السجناء قبل أن تلتهمهم النيران التي لا تفرّق بين السجّان والسجين.

كانت النيران قد سرتْ سريعاً في المخفر الذي بدا مهجوراً، إذ لم يُرَ حارس أو شرطيّ، بل لم يُسمع حتى صوت استغاثةٍ من داخل المخفر أو في محيطه. كأنّ حرّاسه كانوا على علمٍ بما سيجري فغادروه عمداً أو هرباً، تاركين السجناء طعاماً للنار.

حاولَ علي أن يقتربَ أكثر إلاّ أن سنى النار وقرقعة ذخيرة العتاد المتفجر منعاه، فوقف مطلّا على المكان بنظرات بلهاء تحاول الإحاطة بالمشهد كعقربٍ يئست من اختراق محيط الدائرة الناري فتوقفت متأهبة لغرز شوكتها في جسدها. صرخَ بصوت استغاثة يائسٍ، فكان صراخه كعواء ذئبٍ محتضرٍ على قمرٍ أصم. فجأة لمح شبحاً لابن آدم قادماً من بين ألسنة النار. يمشي ببطء متعكزاً على عصاه، وكتلة النار تنفلق أمامه ليمر بينها بخطواتٍ واثقٍ من بردها وسلامها. لا يدري لماذا حسبه سلمان العجمي أو صهيباً أو أبا حُر، إلاّ أن القادم كان شيخاً محني الظهر بلحية بيضاء تصل حتى منتصف صدره، كأنه الله قد استيقظ أخيراً من غفوته فرأى ما حلّ بخليقته فهبط من عليائه لينقذ ما يستطيع إنقاذه.

اقترب الشيخ حتى أضاء وجهه المسافة الفاصلة ما بينهما. تطلعَ علي إلى وجه الشيخ فألفاه أليفاً، وخلال لحظات خاطفة تذكره دونما شك. إنه الشيخ الحكيم العارف بتأريخ المدينة والذي عادة ما كان يراه في أحلامه محاطاً بهالة بنفسجية ونور ذهبي يشع من وجهه، مبشراً أو محذراً إياه بلغته الهادئة والتي لا تشبه اللغة المتداولة بين الناس، وقد رآه حقيقة بضع مراتٍ بصحبةِ عمّه، كان آخرها حينما حضر فجأة في البستان، مستلاً السوط من يد عمّه، مانعاً إياه من التمادي في القسوة على جبير ابن الغواص.

«إياكَ والتساهل مع الخائن.. لكن.. لا تكنْ باغياً..»

كانت هذه الجملة التي أوصى بها محمداً قبلَ أن يستقلّ القاربَ ويمضي إلى الجهة الثانية للنهر.

«ماذا تفعل هنا يا بنيّ؟»

سأل الشيخ، فردّ علي بصوت متلعثم، غاضت كلماته الأخيرة:
«جئتُ لأنقذ ما يمكن إنقاذه...»
ثم وبصوت واضحٍ، أضاف كأنه يعتذر:
«ولكن.. كما ترى يا عمّاه.. لستُ قادراً على إطفاء الحريق وحدي.. والناس موتى أو نيام..»
هزّ الشيخ رأسه ولاحت على وجهه ابتسامة شفقةٍ، وقال:
«ليس بمقدور أحد أن ينقذ مَنْ لم يسعَ لإنقاذ نفسه.. والظلمُ إذا دامَ صارَ لعنةً.. لا تمنع غضبها النوايا الصادقة لبضعة أشخاص..»
صمت قليلاً، ثم أضاف بطريقة العارف ببواطن الأمور:
«واعلمْ يا بني.. أن القربان لا يُستعاد».
شعرَ علي بانقباض في صدره وهو يسمع هذه الكلمة التي ترددت كثيراً على لسان عمّه، ولم يعِ معنى حقيقياً لها، إلاّ أن طريقة الشيخ في نطقها خفف وقعها عليه. حاول أن يستوضح من الشيخ عن مغزى ما قاله، إلاّ أن الكلام تخثر على لسانه. أدرك الشيخ ما يدور في ذهن علي، فخاطبه بصيغة أمر:
«إذهبْ يا بني.. إذهبْ إلى بيتكَ!»
«وأنت.. هل تبقى هنا وحدك؟»
سأل علي، فردّ الشيخ وقد ارتفعت منه ضحكة حزينة:
«أنا باقٍ.. إذ لم يبقَ أحد غيري شاهداً.. منذ بدء الصراع».
ثم وبصوت واطئ كأنه يحدث نفسه، أضاف:
«ربما هذا آخر عهد لي على هذه الأرض».
شعر علي بأن كلمات الشيخ تتسرب إليه فتضيء عتمة روحه على الرغم من أنه لم يفهم مغزاها. حاول أن يطيل وقوفه لعله يسمع المزيد من كلام الشيخ العارف ببواطن الأمور، إلا أنه وجد الوقت غير ملائم للإلحاح في الاستفسار، فرفع يده مودعاً. تحركَ بخطواتٍ بطيئة، متردداً، كأنه على أمل أن يبقيه الشيخ في صحبته على الأقل لينقذ روحه

لبضع دقائق من حرب نقائضها. ناداه الشيخ حاثاً إياه على الإسراع:
«اسرعْ يا بني!.. إسرعْ.. فهناك نار أخرى بانتظارك..»
لم يفهم علي ما قاله الشيخ، وربما ذهوله وتشتت ذهنه منعاه من سماع الجملة كاملةً، غير أنه انصاع للأمر، حاثاً خطاه إلى البيت، في عتمةِ ليلٍ غطّت سماءه سحائب دخانٍ كثيف وأحالت النيران بردَه إلى قيظ يخنق الأنفاس.
على بعد مسافةٍ ليست قصيرة عن البيت، سمع علي صراخاً استطاع تمييزه بسهولة، فانطلق راكضا،ً محاولاً ترجيح الشك على يقين تخمينه، فقد ترك عمّه قبل ساعة في وضع صحي لا يشير إلى النهاية، وفي زيارة الطبيب له قبل يومين أكد بأنه تجاوز مرحلة الخطر، وإن إرادته القوية في تجاوز المرض وتشبثه القوي بالحياة قد ساهما في تحسن حالته بشكل أكبر بكثير مما كان يتوقعه الطبيب، لكن أمنيته خابت حينما وجد أبا سلافة يقف عند الباب الداخلي وهو يلف كوفيته على وجهه، مطأطئاً رأسه كأنه سائر خلف جنازة. ارتفع صوت نشيجه محاولاً التشبث بعلي، إلاّ أن علياً أزاحه عن الباب بذراعه دون أن يسأله عمّا جرى، راكلاً الباب بقدمه. وجد زهرة جالسة على ركبتيها في باحة البيت وهي تضرب رأسها وتخمش خديها وتطلق صراخاً حاداً، بينا يقف طفلاها إلى جانبيها مرعوبين. لم يتحدث معها بل توجه إلى غرفة نوم عمّه، وقبل أن يدخل الغرفة، هجمت زهرة عليه ماسكةً إياه من كتفيه، وهي تردد بانفعال مجنون:
«قتلته.. قتلته العاهرة.. هي وأبوها قتلاه...»
أزاح علي كفيْ زهرة عن كتفيه، آمراً إياها أن تكف عن العويل والكلام الفارغ، فراحت زهرة تطلق همهمات، موجهة كلاماً غاضباً إلى زوجها، تجاهله بامتعاض. دفع باب غرفة نوم عمّه فاعترضته حميرا، محاولة منعه من الدخول إلا أنه دفعها بنفور ونفاد صبر. تهاوت على الأرض مطلقةَ شتيمة، لم يعرها إصغاءً. اقترب من السرير الذي يرقد

عليه عمّه. تناول الفانوس المثبت بمسمار على الجدار بيدٍ وباليد الأخرى أزاح الشرشف عن وجه عمّه بحركة سريعة. قرّب الفانوس من الوجه، فرآه فاغرَ الفم بحجم صرخةٍ مختنقة، متشنجَ الفكين، مزّرقاً، وقد برزت أعصاب جبهته وصدغيه كأنها أسلاك الكهرباء، بينا بقايا حمرةٍ مُسحت بتعجلٍ، تدل على أن خيط دمٍ قد سال من أحد شدقيه. ظلّ عليّ يحدقُ إلى وجه عمّه ويده التي تحمل الفانوس ترتعش بارتباك فاضح. أعاد الشرشف كما كان، وانسحب ببطء. تطلعَ بنظرات غاضبة إلى حميرا التي وقفتْ متسمرةَ جنب باب غرفتها بوضعِ استعداد للدفاع عن نفسها ضدّ من ينوي مهاجمتها، فتطلعت إليه بعينين يتطاير منهما شرر حقد مُستفَزّ، دون أن ترمشا، زامةً شفتيها كأنها تحاول منع انفجار غضبها بوجه علي.

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة ببضع دقائق ومازال أمام علي الكثير من الوقت حتى يذهب إلى مسجد المدينة الكبير ليعلن بعد صلاة الفجر عن وفاة عمّه كما جرت العادة. تعاونَ هو وأبو سلافة على حمل جثمان محمد من غرفة نومه إلى صالة الضيوف. حدثت خلال ذلك مشادة بينهما بعد أن اختلفا حول اتجاه القِبلة التي يجب توجيه الميت نحوها، انتهت بأن انسحب أبو سلافة متذمراً، تاركاً الأمر لعلي. جلست زهرة عند قدمي أبيها وقد أنهكها التعب فكانت تغفو أو يغمى عليها بين كل جولتين للعويل، وعلى جانبيها جلس حسن وحسين وهما يتطلعان إلى الجسد المغطى أمامهما بذهول، ويترقبان لحظة نهوض المختبئ تحت الغطاء لتنتهي اللعبة التي كثيراً ما كانا يلعبانها مع جدهما، أما حميرا فقد استيقظ فيها نشاط غريب، إذ كانت تتحرك في كل جهات البيت، متنقلة بين الغرف، صامتة، لا يُسمع منها سوى وقع قدميها اللتين تتلاطمان مع المجال، وأصوات فتح وإغلاق الخزانات والصناديق التي لا يعرف أحد سواها ما تضمّ في دواخلها.

«الوقت يمرّ بطيئاً».

لم يبح أحد بذلك ولكن نظراتهم وحركاتهم تفضح ما يخبئون، وكأن

كلاً منهم يريد التهامَ الساعات القادمة كي يتخلص من وجود هذا الجسد المسجى أمامه ولم يعد له من وجود بعد أن استنفد الموتُ سطوته التي كان يقف الجميع أمامها مرتعشين، حتى علي نفسه كان لا يعرف حقيقة مشاعره، فما بين لحظة وأخرى كان يحاول بينه وبين نفسه الهروب من المشهد وتهوين الأمر في التفكير بمصائر الآخرين الذين تحولوا في ليلة واحدة في عداد المفقودين الذين ربما التهمتهم النيران في طوامير المخفر أو اختاروا الغياب ولم يتركوا أثراً لغيابهم، بل إنه وفي لحظة غريبة شعرَ بشيء من الفرح بإزاحة ثقلٍ كبير كان جاثماً على صدره، أو أن ما سيتركه غيابه من مشاكلَ وخصومات تعطيه المبرر بأن يحمّل الميتَ مسؤولية غياب الحزن على فقده.

«ماذا عن جعفر الذي يقف الآن في فم الموت؟.. وربما ابتلعه الآن..»

«ألم يكن ضحية هوسكَ في السلطة؟»

«ما الذي سيجري لزهرة غداً حينما تجد نفسها وأطفالها مرميين في الشارع؟»

«أيّ أعداء وأية ثارات سأواجه غداً بعد أن يدركوا الضعف الذي أنا فيه؟»

«ومن سيدفع القربان؟»

فجأة انتبه علي إلى تماديه في طرح أسئلة ما كان يجرؤ على طرحها لو كان النائم أمامه يسمعها، محاولاً تبرئة نفسه من المشاركة حتى ولو كانت بالصمت أو الانقياد السهل. فجأة أجش في بكاء لا يعرف سببه، مخبئاً وجهه بكلتا يديه، وحينما توقف عن البكاء، هزّ رأسه نافضاً عنه الهواجس الغريبة، ونهض باستحياء. أخبر أبا سلافة بأنه ذاهب إلى المسجد الكبير ليعلن للناس خبرَ الوفاة وليحضر التابوت. لفّ رأسه ووجهه بكوفية سوداء، وغادر البيت بتمهلٍ يليق بمهابة الموقف.

المدينة على غير عادتها لم تستيقظ بعد. ظلام كثيف ورائحة خوف

مختلطة برائحة دخانٍ. رذاذ ناعمٌ ينثُّ، له لزوجة الدم وملوحة العرق. الهواء حامض كأنه يتسرب من دنان كرمٍ متخمر. صمتُ أمواتٍ يسود على الهاشمية كلها، يخترقه أزيز أشباحَ السماء، قادماً من مسافات بعيدة، يتردد صداه لكنه لا يقترب، أصوات انفجارات بعيدة تعتصر الهواء بقبضة من نار فيضيق الفضاء ويتمدد بالتناوب.

وصل علي إلى مركز المدينة، فانفتحت أمامه آفاق العراء الأربعة. كانت النيران ترتفع في جهات مختلفة من المدينة وخارجها، استطاع بيسرٍ تحديد الأماكن وأسباب استهدافها، باستثناء خزان المياه في حي التنك، لم يجد مبرراً عسكرياً لاستهدافه سوى محاولة العدو للتنكيل بساكنيه. توقف قليلاً عند تقاطع الطرق الأربعة، وهو ينظر إلى جهة المخفر. كانت النيران قد أوشكت على الخمود لكنها لا تزال تضيء مساحةً أرض المخفر، بعد أن التهمت المبنى القديم. حاول أن يمنّي نفسه بأن حرّاس المخفر قد أطلقوا سراح سجنائه قبل أن يهربوا، أو أنهم استطاعوا الفرار قبل أن تصلهم النار. اجتاز التقاطع نحو جهة السوق الكبيرة حيث يقع المسجد عند نهايتها في الجهة الشرقية. كانت هناك مخازن ومحلات قد كُسرت أقفالها ونهبت محتوياتها، بينا تناثرت على الأرض قطع من زجاج وألواح خشبية استلت من الأبواب وواجهات المحلات. سار بحذرٍ وهو يطأ الأرض بقدميه، متجنباً سحق شظايا الزجاج المتناثرة، فاصطدم نظره بخنجر معقوف. إلتقطه من الأرض كسلاح يحمي به نفسه لو هاجمه أحد من اللصوص أو قطّاع الطريق، فرأى الخنجر وقد غطّى نصله دمٌ متخثر. أدرك علي أن معركةً جرت هنا، ربما بين لصوص وعصابات استغلت حالة الفوضى التي فرضتها صدمة بداية الحرب والغارات التي شنتها الطائرات على المدينة وهروب الحراس ورجال الشرطة. رمى الخنجر من يده كأنه يتخلص من شبهةٍ قذرة ستسرق بصمات أصابعه. قطط وكلاب سائبة تتحرك بحريةٍ. تراجع عليّ قليلاً قبل أن يكمل سيره في السوق المظلم، إلاّ أن هاتفاً

داخلياً ارتفع ساخراً من خوفه من الكلاب، مذكّراً إياه بالمعركة التي خاضها ليس بعيداً عن هذا المكان في صباه، حينما هجم عليه عامر ابن عفتان القوّاد وعصابته، والتي حاز علي من خلالها المهابة التي رسمت له لاحقاً طريق حياته. تناول من الأرض عموداً حديداً ضخماً وراح يهش به على الكلاب، دائراً حول نفسه مثلما فعل تماماً وهو يحمل السلسلة الحديدية بوجه المهاجمين، حتى فرّت الكلاب من أمامه، فسار مطمئناً.

فوجئ علي بأن الدمار الذي سببته الغارات قد أصاب مئذنة المسجد فقطّ رأسها وأسقط الحوض الدائري الذي يقف عليه المؤذن، وكان الظلام يخيّم على بيت الله. ظنّ أن الوقت لا يزال مبكراً على صلاة الفجر، فجلس القرفصاء سانداً ظهره على الجدار المقابل لباب المسجد الكبير، وأذناه تنصتان إلى أية حركة داخل المسجد أو في الشارع، لكنه لم يسمع نأمةً سوى خرمشات قطط سائبة أو صفير الرياح في العلب الفارغة.

انتشر الضوء في السماء واحمرّ الأفق الشرقي، لكن لم يرفع آذان الفجر، ولم يحضر أحد من المصلين. أدرك عليّ بأن لا أحد يجرؤ على مغادرة بيته خوفاً من الحمم التي تلقيها الطائرات دونما تحديد. هبّ واقفاً، وراح يطرق باب المسجد بقبضة قوية وينصت لعلّه يسمع وقع خطى الخادم، لكن يبدو هو الآخر قد ترك بيت الله وفرّ بجلده. هزّ بقبضتيه الباب، لم تكن قوته كافية لخلعه. قبل أن يتراجع سمع وقع أقدام في الداخل، فعاد يطرق الباب. ارتفع صوت سعال وصوت خافت يعلن عن قدومه. وضع علي جبهته على الباب، زافراً الهواء بقوة. فُتح الباب بفرجة صغيرة، فارتد عليّ إلى الخلف خطوة إذا فوجئ بأن فاتح الباب هو الشيخ نفسه الذي تحدث معه قبل بضع ساعات عند مخفر الشرطة. فتح الشيخ الباب وأشار بيده إلى علي للدخول، ثم سار أمامه دون أن ينطق بكلمة. التفّ حول المسجد الذي تهدم ركنه الشمالي وتراكم الحجر

ساداً الممر الذي يؤدي إلى الصحن، وكان علي يتبعه. ركل باباً يقع خلف المسجد وأشار إلى علي للدخول إلى الغرفة التي تبدو أنها مخزن. دخل علي وهو يحاول كتم أنفاسه من رائحة الغبار والعفونة. استل من المخزن تابوتاً خشبياً متضعضعاً وبلا غطاء. حمله على رأسه وانطلق. ناداه الشيخ قبل أن يجتاز باب المسجد الرئيسي. توقف علي منتظراً ما يقوله الشيخ، إلاّ أن الشيخ بقي صامتاً حتى خرج من المسجد، وسدّ الباب خلفه. حينما أصبحا في الزقاق المتجه إلى السوق الكبيرة، أدرك علي بأن الشيخ ينوي مصاحبته، فحاول أن يعفيه من هذه المهمة الشاقة. اعترض الشيخ على ما قاله علي، مردداً الجملة نفسها التي رددها قبل ساعات:

«لم يبقَ أحد غيري.. شاهداً على ما يحدث».

توقف علي عند تقاطع الطرق الأربعة. أنزل التابوت عن رأسه ووضعه على الأرض، ثم طلب من الشيخ أن ينتظره في المكان ليذهب هو إلى حي التنك لاستدعاء أخيه عقيل، الذي لم يعلم بموت عمّه.

فوجئ عقيل حينما رأى أخاه واقفا عند الباب، فظنّ ما هو أسوأ مما حدث، حتى أنه حينما أخبره علي بوفاة عمه، تنفس الصعداء، إذ كان يظن أن خبراً سيئاً قد وصل عن أخيه جعفر. سار عقيل مترنحاً خلف أخيه وهو يضع يده على فمه محاولة كتم رائحة الكحول التي تنبعث من فيه، إلاّ أن علياً لم يؤنبه على ذلك، مكتفياً بنظرة عتبٍ واخزة، استلمها عقيل بشيء من الخجل واللامبالاة. حينما وصلا إلى تقاطع الطرق لم يجدا الشيخ ولا التابوت. تطلع علي حوله فلمح الشيخ يخبّ حاملاً التابوت على رأسه وقد قطع مسافة ليست قصيرة باتجاه البيت. هرولا باتجاهه حتى لحقا به.

وضع جثمان محمد في التابوت وحمله الرجال الأربعة إلى سقف

السيارة التي لم يحضر سائقها، فتطوع عقيل لقيادتها. انتبه علي إلى أمرٍ غريب، فقد تحمّل الشيخ الطاعن في السنّ القدر الأكبر في حمل الجثة وشدّها على سقف السيارة بكفيه التي ظهرت عروقهما الزرق بشكل نافرٍ، فأدرك أن لهذا الشيخ حكاية غريبة، ولربما هو كائن خرافي، أو حكاية مبهمة وردت في إحدى المخطوطات السرية التي حرص عمّه على سرّيتها، وها هي تتمثل أمامه كائناً بشرياً، بُعث لكي يكون شاهداً على ما جرى ويجري على الأرض. جلس الشيخ إلى جنب عقيل، بينا فتح علي باب المقعد الخلفي داعياً أبا سلافة للدخول إلى جوف السيارة. تراجع أبو سلافة إلى الوراء فأدرك علي بأنه لا يرغب في مصاحبتهم، فلم يلح عليه وأشار إلى أخيه أن ينطلق باتجاه المستشفى، فتحركت السيارة مترنحةً.

كان مبنى المستشفى مكتظاً بذوي الشهداء الذين ينتظرون الحصول على الإذن لاستلام الجثث، وبالجرحى الذين ملأوا القاعات وافترشوا الممرات وقد تصاعد أنينهم وصراخهم، بينا كان الأطباء والممرضون يتخاطفون بسرعة لتقديم الإسعافات صامتين، متجاهلين نداءات الناس وتوسلاتهم. رائحة الموت المختلطة برائحة الدم والمعقمات واحتضار الجرحى تملأ المكان بوحشة أشد من وحشة الموت نفسه، واستكانة الجريح وتوسلاته بربّ بعيد في السماء التي امتلأت بالشياطين تثير رعباً يضمحل أمامه رعب واستكانة الجثة المستسلمة بسكينة الغياب. كان عقيل يرتعش من الخوف وهو يتطلع في وجوه المصابين وهم يحاولون التشبث بالهواء، جاذين على نواجذهم كمحاولة أخيرة للبقاء على قيد الحياة. أرعبه مشهد الدمِ الذي اصطبغت به الجدران، وغطّى بلاط الممرات، حتى راحت أقدام الماشين تتزحلق، فيسقط أحدهم على عجيزته ثم ينهض وراحتا كفيه مصطبغتان بالدماء، يمسحهما بملابسه أو

بالجدار ويمضي بلا مبالاة. أدركَ علي حالة أخيه، وقد زاغت عيناه وأوشك يسقط مغمياً عليه، فاحتضنه مشفقاً على رقّة لن تجد لها مكاناً في هذا الزمن. قاده إلى خارج المبنى، بقي واقفاً معه مربتاً كتفه حتى هدأت أنفاسه، فعاد ثانيةً إلى الممر المؤدي إلى غرفة الطبيب الخفر. غاب الشيخ قليلاً بين حشد المنتظرين، ثم عاد وهو يحمل شهادة الوفاة وإذن الدفن موقعة من قبل الطبيب، دون أن يفحص الجثة أو يشخّص أسباب الوفاة.

أوقفَ عقيل السيارة عند باب المغسل الذي يقع على الجانب الأيمن من بوابة المقبرة، وترجلوا منها، صامتين. ذهب علي إلى غرفة حارس المقبرة فلم يجده، بينا عقيل راح يحاول خلع باب المغسل الموصد، وفي الوقت نفسه كان الشيخ قد أكمل وحده إنزال التابوت. سجّاه باتجاه القِبلة ووقف منتظراً انضمام علي وعقيل إليه للصلاة على الميت. اعترض علي باستغراب:

«ولكن.. يا عم.. لابد من تغسيله وتكفينه قبل دفنه».

تطلع الشيخ إلى وجه علي وأشار إليه برأسه أن يصطفَ وأخاه خلفه، وقبل أن يكرر علي اعتراضه بادره الشيخ بصوت واطئ وحزين:

«الشهداءُ لا يُغسلون.. يا ولدي».

تجمّد عقيل في مكانه، وجحظت عيناه حينما سمع كلام الشيخ وهو يصف عمّه بـ «الشهيد». تطلع في وجه أخيه بنظرات استفسارٍ ذاهلة، إلاّ أن الشيخ لم يترك لهما مجالاً للإلحاح في استفساراتهما، إذ رفع كفيه إلى جانبي رأسه وارتفع صوته حازماً برغم ارتعاشته:

«الله أكبر».

بعد أن انتهوا من صلاة الجنازة، راح علي وعقيل يجوسان المكان بحثاً عن حارس المقبرة الذي ترك البوابة الحديدية مغلقة وهرب، إلاّ أن

الشيخ ناداهما، فعادا. مدّ الشيخ يده في الفاصل بين القضبانين وسحب السلسلة الحديدية التي تربط فلقتي بوابة المقبرة، والتي انتهت بقفل حديدي كبير. حاول عقيل أن يساعده في سحب السلسلة، إلاّ أن الشيخ دفع عقيلاً بكتفه فأزاحه جانباً، وبأطراف أصابعه راح يحلّ إحدى حلقات السلسلة كمن يحل عقدةً في حبل قنّب أو خيط حريري.

دفع الشيخ الباب بقدمه وسار بخطوات تعرف الطريق جيداً، بينما سار علي وعقيل خلفه وهما يحملان التابوت متجهين نحو مدفن العائلة الهاشمية. بعد بضع خطوات داخل المقبرة، نادى عقيل أخاه، طالباً منه أن يتوقف، فظنّ علي بأنه يريد أن يريح كتفه قليلاً. أنزلا التابوت على الأرض. انحنى عقيل على الجثة كاشفاً وجهها ـ ثم أعاد الشرشف وهو ينسحب إلى الخلف، بخطوات مرتبكة.

«ما بكَ؟»

سأل علي، فرد عقيل سائلاً:

«ألم تشعر بأمر غريب؟»

فوجئ علي بسؤال أخيه، فطلب منه توضيحاً لكلامه، فقال عقيل:

«ألم تشعر بأن التابوت خفيف كأنه فارغ؟»

صمتَ علي وهو يتطلع في وجه أخيه، ثم قال بصوت واطئ:

«بلى».

قال وهو يهز رأسه، مشفقاً على أخيه الذي انتبه أخيراً إلى تحول جسد عمّه إلى ريشةٍ، ولم ينتبه إلى سيرة حياة كاملة من الأسرار والغموض، بل إنه لم يدرك حتى هذه اللحظة أن الشيخ الذي يسيران الآن خلفه ليس إلا شبحاً أو حكايةً تأريخية تمردت على الناموس، وربما هو فكرة انطلقت من قمقم عمّه السريّ.

تردد عقيل في الدخول إلى المدفن خائفاً، فهو لم يزره من قبل، ومنذ

طفولته كانت ترعبه فكرة الموت وزيارة القبور. أدرك علي حالة أخيه فأحاط كتفه بذراعه، ساحباً إياه إلى داخل المدفن الخاص بالعائلة الهاشمية، ولكي يزيل قلقه راح يردد على الرغم من أنه يعلم أن عقيلاً لا يؤمن بما يقول:

«لا تخفْ يا عقيل.. لا تخفْ.. إنهم أهلك.. إنهم أرواح صالحة.. لم يلحقوا الأذى بأحدٍ في حياتهم.. فكيف وهم نائمون...»

سمعَ الشيخ ما قاله علي لأخيه فراح يؤكد المعنى بعبارات أخرى. تشجّع عقيل ودخل بتوجس، لكن ما أن وضع التابوت على الأرض حتى أشاح بوجهه عن الحفرة متجنباً متابعة عملية إنزال جثمان عمّه وطي صفحةِ حياته بكل ما حوت من مفردات السطوة والكبرياء بحفناتٍ من تراب وبدقائقَ معدوداتٍ من زمنٍ حمل من الذكريات ما لا يحمله كتاب ضخم، ولكي يموّه خوفه جثا عند قبر أبيه وانفجر في البكاء.

مفاجأة أخرى كانت بانتظار علي، وإنْ لم يعد يشكل له حدوث أيّ أمر غريب مفاجأة، فهو واثقٌ تماماً أن هذا الرجل الطاعن في السر لن يغادر الأرض دون أن يترك بصماته على كل دقيقة من زمنه، لكنه حمدَ الله أن الأمر لم يلفت نظر عقيل، فهذا بريء حتى في شيطنته، وشاعر لا يحتمل كتمان السرّ، وسكيّر لا يستطيع التحكم في لسانه. كان هناك لحد جاهز ما بين قبري بهيجة وفاطمة، انتبه علي إلى أن ترابه لايزال ندياً مما يدلّ على أن القبر قد حُفر قبل وقت قصير. خطرَ في ذهنه أن الشيخ هو الذي قام بذلك، إلا أنه تذكر ألّا أحدَ غيره يملك مفتاحاً للمدفن. تطلع إلى الشيخ وهو يفرك بأطراف أصابعه التراب الرطب علّه يجد تفسيراً للأمر، إلاّ أن الشيخ تجاهل نظرات علي، مكتفياً بابتسامةٍ خفية. همّ علي بالنزول إلى عمق الحفرة، فمنعه الشيخ، مصرّاً على أنه من سيقوم بذلك، ولكي يبرر الأمر قال الشيخ مخاطباً علياً:

«أنا من قامَ بدفن جدكَ الشهيد منصور.. وأنا من يقوم بدفن الشهيد عمّك».

وبطريقة تزيل الرهبة والخوف من نفس المخاطَب، قال:

«على الرغم من أن زمناً طويلاً مضى.. إلا أني أراه كأنه الأمس.. لقد كان يوماً عصيباً كمثل هذا اليوم.. تماماً..»

ثم أضاف بحزنٍ:

«وكأني أرى ابتسامة الشهيد منصور قد ارتسمت على وجه محمد...»

مدّ الشيخ ذراعيه نحو علي، فانحنى حاملاً على ذراعيه جثة عمّه التي كانت بخفة جسدِ طفلٍ. تلقفها الشيخ بالطريقة نفسها. وضعها على جنبها بهدوء وبيدين لم ترتعشا، كاشفاً جزءاً من وجه محمدٍ الذي توسد التراب فبدا كأنه هلال يخرج من سحابةٍ سوداء، ومع أول حفنةِ ترابٍ أهالها على الجثمان، انفجر الشيخ ولأول مرة ببكاء مرّ. لم يستطع علي كبحَ مشاعره فأجهش هو الآخر في البكاء وهو يغطي وجهه بكفيه.

بعد أن أتمّا مراسيم الدفن، راح الشيخ يدور على القبور الهاشمية متمتماً بكلماتٍ لم يفقه علي وعقيل شيئاً منها، وبين كل قبرٍ وآخر كان يحدثهما عن سيرة لم يسمعاها من قبل حول أهلهما.

لم يشعروا بمرور الوقت إلا بعد أن انتبه أحدهم إلى أن الشمس خارج المدفن قد توسطت السماء. تطلع علي إلى الشيخ ليطلب منه الإذن للإنصراف، فقال الشيخ:

«بإمكانكما الإنصراف الآن.. فأمامكما مهمات كثيرة.. وترتيبات لإقامة مجلس الفاتحة».

فردّ علي باستغراب:

«وأنت يا عمّ.. ألا تمضي معنا؟»

«لا».

ردّ الشيخ بإصرار، ثم أضاف مبرراً بقاءه:

«لي حديث طويل مع أحبابي».

وقف عليّ متردداً. أدرك الشيخ ما يدور في ذهنه، فقال له:

«بإمكانك أن تترك القفل معلقاً في حلقة الباب.. وسأقوم أنا بإغلاقه حينما أغادر المكان».

لم يجد علي حجة في الرد على ما قاله الشيخ، فانحنى على كفّ الشيخ مقبّلاً باحترامٍ وخشوع، ثم تنحى قليلاً ليفسح المجال لعقيل الذي جارى أخاه بما فعل. نشر الشيخ ذراعيه وطوّق بهما الأخوين وهو يتنفس بعمقٍ كأنه يشمّ فيهما رائحة طيبة عزيزة على روحه.

سار علي وعقيل بضع خطوات باتجاه بوابة المقبرة. توقفا في لحظة واحدة. التفتا، فرأيا الشيخ واقفاً عند باب المدفن يلوح لهما بذراعه بحركة بندولية كأنه ينشر عليهما حجاباً عن الخطر الذي يتهددهم في الطريق. لوّحا له، ثم حثا الخطى كأنهما يهربان من سرّ لم يعودا قادرين على البقاء في دائرته الغامضة.

قبل أن يصلا البوابة، ارتفع صوت أزيز الطائرات قادماً من الجهة الشمالية. توقف عليّ رافعاً رأسه إلى السماء. سأل عقيل أخاه عن سبب توقفه، فقال علي:

«عادتْ الطائرات».

«أية طائرات؟»

سأل عقيل ببلاهة، فأدرك عليّ بأن أخاه شاردَ الذهن، وأن ما رآه اليوم قد أنساه هول ما حدث ليلة البارحة أو أنه نامَ ليلته سكرانَ فلم يعِ ما حدث. أزيز الطائرات يقترب ضاغطاً الهواء ودويّ يصم الآذان. صرخ عقيل وهو يشير بيده إلى إحداها تتجه نحوهما وهي تسفّ حتى تكاد تقترب من الأرض. رمى بنفسه في حفرةٍ قريبة، ربما هي قبر مهجور،

جاراه عليّ دونما وعي. مرّت الطائرة من فوق رأسيهما مثيرةً زوبعةً من غبار غطى جسديهما. بعد أن ابتعد صوت الطائرة نهض عقيل من حفرته. تطلع إلى أخيه وأطلق ضحكةً، أفلتت من قيدِ حيطته، قابلها أخوه باستهجان، فردّ عقيل معتذراً ومبرراً سهوه:

«نبدو كأننا ميتان خرجا من قبريهما».

ارتسمت على شفتي علي ابتسامة، أزالت عن عقيل بعض حرجه وارتباكه. همّا بمواصلة سيرهم إلاّ أن صوت الدوي قد عاد مرةً أخرى. عاد كل منهما إلى حفرته. انفجارٌ قويّ لصاروخ سقط قريباً منهما فتطايرت شظاياه مختلطةً بشظايا آجرّ القبور، تلته رشقةٌ من صلياتٍ، لم تصبهما ولكن إحداها اصطدمت بشاهدة قبر قريب من مكان إختبائهما. اقترح عقيل أن ينتهزا أول فرصة لغياب الطائرات للإسراع في الوصول إلى السيارة لينطلقا بها نحو البيت. رفض علي اقتراحه، قائلاً بخبرةٍ:

«سنكون هدفاً واضحاً للطائرات».

«وهل سنبقى هنا؟ وإلى متى؟»

سأل عقيل باستسلام، فردّ علي:

«لنعدْ إلى المدفن».

استحسن عقيل الفكرة إلا أنه سرعان ما تراجع:

«وما الفرق.. مادامت الأرض كلها هدفاً للطائرات؟»

لم يجد علي ما يرد به على كلام أخيه سوى:

«لنكونَ في حماية الشيخ وشفاعته».

لم يقتنع عقيل إلا أنه لم يجد بُدا من قبول الفكرة.

اطمأن علي حينما وجد القفل مازال مفتوحا ومعلقاً في حلقة الباب الحديدية، وهذا يدلّ على أن الشيخ لايزال موجوداً داخل المدفن، غير أنهما حينما دخلا المدفن لم يجدا أثراً له.

شهرٌ مر على وفاة محمد.

توقفت الحربُ بعد أن تحولت سنّ الصخر (الهاشمية سابقاً) إلى جبّانة كبيرة. خرابٌ يحيطها من كل الجهات والسماء خيمةٌ سوداء تقطر قطراناً، لا يلوح على صفحتها نجم إلا بنات نعش أو نجم نحس. الشوارعُ فارغةٌ إلا من جنود الاحتلال، ملأوا الأرضَ بمتاريسهم ودباباتهم التي غرزت سرفاتها في الأرض، كأنها تنهش قلوب النائمين تحتها بأنيابها الحديدية، والأرض تملأها الحفر كفخاخٍ منصوبةٍ لاصطياد الغافلين، شققت أديمها خراطيش الطلقات فأخرجت نباتات وحشية، (أريجها!) بارودٌ وبراعمها أشواك.

الناس هنا يمشون نياماً أو سكارى بالذهول، لا حديث لهم سوى حديث الذكريات البعيدة أو سيَر أمواتهم. يقضون نهارهم وقوفاً في الطوابير الطويلة للحصول على رغيف أسود له طعم الدم ورائحة الدخان، أو الوقوف أمام الجدران المشروخة التي تحولت إلى لوحات تعلن عن أسماء القتلى والمفقودين، يحدّثون الجدران، يسألونها عن أبنائهم، فتجترح لهم شائعات، شائعات تتفاوت غرائبيتها لكنهم يصدقونها.. يصدقونها، يركضون خلفها حتى يخنقهم اللهاث فيتوسدونها ليلاً أملاً يتبششون بوهمه.

عيون الأطفال زائغة من جوع وخوفٍ وهي تتطلعُ إلى السماء التي امتلأت بالشياطين الحديدية تضرب الفضاء بأجنحتها فيختنق الهواء برائحة الدم الزنخة، تختلط برائحة السمك المتسمم الطافي على سطح النهر الذي انحسرَ لسبب.مجهول أو هكذا بدا للناظر. وحدهم المجانين رفعوا رؤوسهم إلى السماء المحتلةِ، ساخرين من ربّ لا حول ولا قوة له.

«الهاشمية».

«اششش».

«...........»

«سن الصخر».

«كيف لمدينة تخلع ثوبها وتنسى اسمها بليلة وضحاها؟»

«لم تنسَ اسمها.. بل عادت إلى اسمها الأول.. عادت إلى ماضيها».

«وكيف يعود الزمن؟»

«بالقوة».

«بالقوة أم بالنسيان؟»

«القوة هي المنطق».

«بل.. النسيان خيانة».

«............»

«............»

شهر مرّ على وفاة محمد.

انتقل علي وعائلته إلى السكن في البيت القديم الذي ورثته زهرة عن أمها، بعد أن أشهرت حميرا وثيقة تنازل محمد لها عن ملكية البيت الكبير. لم يجد علي نفسه بلا سكن فحسب بل تحول في ليلة وضحاها إلى أعزلَ من كل شيء.

قيل عنه: «مغفل».

وقيل: «جبان».

قيل: «هو الوريث الحقيقي لما تركه محمد.. وقطب رحى العائلة الهاشمية».

وقيل: «هو إيليا التشبي.. الغريب بين أهله.. الزاهد في الحياة ومبغض العالم.. معتزل الناس والساكن في البرية».

... ومهما قيل بحقه مدحاً أو ذماً لم يغيّر في الأمر شيئاً، إذ انفضّ

عنه الجميع كأنه ماضٍ بعيد، لا يجدي ذكره نفعاً، حتى أخوه عقيل تركه غاضباً بعد أن رأى قعوده وتهاونه عن مطالبته بحقه.

«إنْ كانت الحياة بالنسبة إليك عفطة عنز.. فبالنسبة إليّ.. لا».

قال عقيل ساخراً، ولم يكتفِ بهذا بل ذهبَ بقدميه متطوعاً للعمل مع جنود الاحتلال. أما زهرة فاكتفت بأن أقسمت بروح أبيها لن تتحدث معه أبداً.

شهر مرّ على وفاة محمد.

طُرقَ الباب طرقاتٍ سريعة، فأسرع علي لفتحه. رأى جنديين من جنود الاحتلال ضخمي الجثتين، سدتا حيز الباب، مدججين بأحزمةٍ من الطلقات وبندقيتين معلقتين على كتفيهما وقد برزت منهما حربتان ناصعتان، بينا كان يقف متخلفا عنهما بخطوتين بندر ابن الحاج رضا. وجّه أحد الجنديين فوّهة مسدسه نحو رأس عليّ وانقضّ الآخر عليه، ماسكاً إياه من كتفه بقبضة عنيفة. التفت الجندي الأول إلى بندر ونادى عليه بصوتٍ يشبه النباح، فتقدم بندر نحو عليّ بخطوةٍ متعثرة ليخبره بوجوب الحضور إلى مركز قيادة الإنتداب في المدينة لأمرٍ ضروري. تطلع عليّ إلى بندر بنظرةٍ تدل على استغرابه من وجودهِ معهما، وسأله:

«وما علاقتك أنت بهذا الأمر؟»

طأطأ بندر رأسه وأجاب بصوت واطئ:

«أنا عبد مأمور».

فردّ علي بسخريةٍ:

«هه.. أعرف أنك عبد ولكن.. ألم تكن بالأمس من رجال الحكم السابق؟»

لم يجب بندر على سخرية علي، وخطا مبتعداً قليلاً. لم يفهم الجنديان ما دار من حديث بين علي وبندر، لكنهما خمنا رفض علي

للإنصياع إلى أمر الحضور، فباغته أحدهما من الخلف، لاوياً ذراعيه، بينا ربط الآخر رسغيه بحبل بلاستيكي جارح.

حينما رُفعت العصابة عن عيني علي، وجد نفسه واقفاً في منتصف غرفة واسعة، وقد تمزق قميصه من إحدى كتفيه. كان الجنديان اللذان اقتاداه من البيت يقفان إلى جانبيه، متسمرين بوقفة استعداد عسكري، بينا جلس خلف مكتب خشبي عريض رجلٌ في منتصف الخمسينات من عمره، ذو عينين زرقاوين ووجه أحمر حليق وشعر قصير أشيب، يرتدي زياً عسكرياً أنيقاً برتبة عسكرية برّاقة، وعلى صدره تدلت أوسمة ونياشين. أشار الرجل إلى الجنديين أن يحلا وثاق علي، ثم أشار بسبابته إليه بحركة تدل على غرور وغطرسة، أن يدنو من المكتب، وهو يردد بعربية مُلكّنة، تفتعل الأريحية:

«مرهبا.. مرهبا.. ابن هاشم».

هزّ علي رأسه دون أن يردّ على التحية. أشار الجنرال إليه أن يجلس على كرسي جنب المكتب. تردد علي، فدفعه أحد الجنديين فسقط على الكرسي، ثم وقف خلفه في وضع تأهب.

دقائق من الصمت الثقيل مرّت، كان خلالها الجنرال يتطلع إلى زاوية الغرفة وينفخ دخاناً كثيفاً من غليونه، ناقراً بالكف الأخرى سطح المكتب بإيقاع مرتبك. افتعل علي حركات، مصدراً أصواتاً للفت نظر الجنرال كطقطقة أصابع كفيه أو سعالٍ متقطع، إلاّ أن الجنرال كان مستمتعاً بمراقبة الدخان المتطاير من غليونه على شكل دوائر تنطلق من فيه وتتصاعد حتى السقف. فجأة مدّ عنقه كزرافةٍ نحو علي مبحلقاً بعينين جاحظتين لا ترمشان، فركّز علي نظراته بعينيه متحدياً وهو يتطلع إلى الخيوط الحمر البارزة في بياض عينيه. تراخت نظرات الجنرال وسحب عنقه ببطء بحركةٍ لم يستطع علي تفسير مغزاها. انفجر بقهقهة عالياً هازاً

كتفيه برعونةٍ لا تليق بصرامة جنرال متجبر، ثم قال بلغة عربية فصحى:

«لا تخفْ.. لا تخف يا علي.. القيادة السياسية في بلادنا تكنّ لعائلتك وتأريخها احتراماً شديداً.. ولا نريد أن نلحق بك أذى لكن...»

صمت قليلاً، ثم استأنف كلامه بلهجة أكثر هدوءاً:

«قمنا باستدعائك لفضّ إشكال قانوني بسيط.. وكلّ ما نطلبه منك أن تتعاون معنا».

«لا».

أجاب علي بإصرار، فارتفعت قهقهة الجنرال وهو يردد:

«لم تفهم قصدي بشكل صحيح».

تراخت عضلات وجه علي وسأل محاولاً أن يُبدي ندية في طريقة الكلام:

«وما قصدك إذن؟»

هزّ الجنرال رأسه، وهو يفتح أحد أدراج المكتب ويخرج منه أوراقاً. رماها على سطح المكتب وهو يردد بصوت واطئ:

«أرجوك يا علي.. انتظر قليلاً قبل أن تجيب».

هزّ علي رأسه متعهداً بكبرياء أن يفعل ما طلبه منه الجنرال.

مدّ الجنرال ورقة صفراء نحو علي وسأله:

«أتعرف ما هذه؟»

أجاب علي:

«نعم».

ثم أضاف بثقة:

«إنه سند البيع الذي تمّ بين الحاج رضا والمرحوم عمّي».

سحب الجنرال الورقة وهو يهز رأسه:

«إنه سند مزوّر».

«كذب».

لم يعر الجنرال اهتماماً لاعتراض علي، وأضاف بشكل قاطع:

«وعليه فأن ملكية الأراضي الزراعية التي تقع شرقي النهر تعود إلى ورثة الحاج رضا».

«هذا إدّعاء غير صحيح... فهي تعود إلى ورثة محمد».

ضمّ الجنرال أصابع كفه الخمس وهو يردد:

«انتظر.. انتظرْ..».

ضغط على زر الجرس، ففتح الباب وأطل جندي. ضرب قدمه على الأرض مؤدياً التحيَة العسكرية فصرخ به الجنرال بصوت آمرٍ:

«استدعِ الشاهد!»

تضبب المشهد وغامت عينا علي حتى كاد يغمى عليه وهو يرى الشاهد الذي دخل مرتبكاً، يتعثر بقدميه. طلب منه الجنرال أن يتقدم نحو المكتب، فنطّ مختصراً المسافة بخطوة عريضة واحدة. وقف جبير من الغواص بخشوع دون أن يلتفت إلى جهة علي. وضع يده على المصحف الملفوف بقماش أخضر والملقى على ركن المكتب. بدأ صوته مرتعشاً إلا أنه سرعان ما بدأ يصفو ويرتفع شيئاً فشيئا، حتى تحول إلى صوت ينطلق من إرادة متحمسة لشخص واثق بما يقول. أقسمَ بالله العظيم بأن الأراضي الزراعية التي تقع على الجانب الشرقي للنهر تعود ملكيتها إلى الحاج رضا بن الشيخ حمدان، وأن خاله المرحوم محمد ابن ناصر ابن هاشم قد زوّر سندَ البيع. أشار الجنرال بيدهِ إلى الشاهد أن يغادر الغرفة. ارتفعت ضحكته عالياً، وراح يردد جملاً، يبدو أنه لَقن بها هناك لكي يستخدمها هنا:

«هصهص الهق.. هصهص الهق.. وشهد شاهدٌ من أهلها.. صدق الله العزيم..».

حاولَ علي أن ينطق إلا أنه تلعثم كأن لسانه تخشّب من هول المفاجأة. استغل الجنرال ارتباك علي، فأعاد الورقة إلى درج المكتب، مستلّا ورقة أخرى، وقال كأنه يصدر أمراً نافذاً:

«انتهينا من هذه القضية.. والآن علينا حلّ قضية الأراضي التي تقع شرقي أراضي الحاج رضا..»

أشعل غليونه نافثاً الدخان بعمق، مخاطباً علياً بلهجة آمرة:

«لننهِ الأمر بسرعة.. فليس أمامي متسع من الوقت».

أخرجَ الجنرال من الدُرْجِ ورقة صفراء أخرى، مهترئة، لصقتْ أجزاؤها في أكثر من موضع. رماها على سطح المكتب، وسأل:

«أتعلمُ ما هذهِ؟:

تناولها علي بترددٍ، وراح يقرأها. كانت الحروف فيها مطموسة، فردّ دون أن يكمل قراءتها:

«لا».

ابتسمَ الجنرال، ودفع ظهره على مسند الكرسي بزهو طاووس، وقال:

«هذه وثيقة تملكٍ باسم محمد ابن ناصر ابن هاشم.. للأرض التي تقع في أقصى شرقي النهر».

ثم أضاف بصوت واطئ:

«هذه الأرض أغتصبها محمد».

«ممن؟»

سأل عليّ، فأجابه الجنرال:

«من حكومة الإنتداب».

«وهل لحكومة الإحتلال أراضٍ في بلدي؟»

«أجل».

أجاب الجنرال، وقد ارتسمتْ على وجهه علامات غضب، حاولَ تداركها، فقال بلهجةٍ تفتعل اللين:

«اسمعْ يا علي.. الأمر تغيّر كثيراً.. الآن نحن في زمنٍ يختلف عن السابق..»

أدرك الجنرال أن علياً لم يفهم ما قاله، فراح يوضح:

«هذه الأرض كانت ثكنةً عسكرية لجيش إمبراطوريتنا.. وقد احتلها هاشم وبعض المتمردين حينذاك.. بعد أن قتلوا من فيها من رجالنا».

ثم أضاف بلهجة تفتعل الأريحية:

«يبدو أنني الغريب.. أعرف أكثر منك عن تأريخ مدينتك».

ارتسمت ابتسامة زهوٍ على وجه علي، سرعان ما تلاشت وراح يتطلع إلى الجنرال بعينِ صقرٍ يتأهب للإنقضاض. ابتسم الجنرال وراح يشير بكفيه حركة تدل على رغبته في تهدئة غضب علي، وقال:

«لا نريد أن نعيد الماضي المؤلم.. الزمن تغير.. فإنْ كنا في الماضي مستعمرين.. فاليوم نحن.. كما تعلم ليس كذلك.. نحن الآن أصدقاء..»

قاطعه عليّ بسخرية:

«أصدقاء!»

«نعم أصدقاء».

أجاب الجنرال متغاضياً عن لهجة السخرية في كلام علي، ثم أضاف:

«نحن لم نحتلّ بلادكم.. بل جئنا بطلبٍ من شعبكم.. لإنقاذهِ من حكم العسكريين الأغبياء».

شعر علي بالملل من كلامٍ كاذبٍ، لا يصدقه حتى قائله، فسأل بنفور وامتعاض:

«وما المطلوب مني الآن؟»

صفّق الجنرال، هازاً كتفيه، محاولاً إطالة ضحكته:

«الأمر بسيط جداً يا علي.. أن تتنازل لنا باعتبارك الوريث الشرعي.. عن ملكية هذه الأرض.. لنعيد بناء الثكنة عليها».

وقبل أن يعترض علي، استدركَ الجنرال:

«قصدي أن تبيعها لنا.. وسندفع لك أكثر مما تطلب بكثير..»

«لا».

وبعد لحظات صمت مشتعلٍ بنار الغضب، أضاف:

«ليس من حقي أن أبيع أرضاً.. الأرض لا تباع لمحتل».

ضربَ مسندي الكرسي بكفيه، وهبّ واقفاً متهيئاً للمغادرة، فراح الجنرال يردد بهدوء:

«حسناً.. حسناً.. أنت حر.. هي الآن ملكك ولكن.. اجلس الآن.. واهدأ قليلاً.. لكي ننهي الأمر الأخير».

«وهل بقي أمر آخر».

قهقه الجنرال وأشعل غليونه، وهو يردد:

«هو الأهم في كل ما جرى بيننا من حديث.. لا تخفْ.. لا تخف.. إنه خبر سيفرحك كثيراً.. ولهذا السبب وحده تم استدعاؤك..»

عاد علي جالساً على الكرسي، وفي وجهه تتلاطم أمواج غضب وحيرة، متحفّزاً لمواجهة لعبة مراوغةٍ أخرى. مدّ الجنرال يده إلى درج المكتب، وأخرج صورة فوتوغرافية. قرّبها من وجه علي. حاول علي أن يمسكها، غير أن الجنرال سحبها بحركةٍ طفولية بلهاء، وسأله:

«أتعرفه؟»

تطلع علي إلى الصورة، فرأى أخاه جعفراً يقف مقيّد اليدين، بزيّ أسير، وخلفه أسلاك شائكة لمعسكرٍ في صحراء. تلعثم لسانه، وارتعشت أرنبة أنفه على الرغم من نسمةٍ فرح داعبت روحه حينما تأكد بأن جعفراً

لا يزال حيّاً. كان الجنرال يتطلع إلى عليّ بزاوية عينيه بنظرات متعالية، ثم راح يردد ببطء:

«لا تخفْ.. لا تخفْ.. إنه بخير.. وقد بعث إليك تحياته».

وعلى الرغم من أن علياً أدرك ما تعنيه الصورة، إلاّ أن الجنرال راح يؤكد بطريقة تفتعل الإشفاق والسخرية:

«نحن.. نحترم أسرانا.. على الرغم من الأضرار الجسيمة التي لحقها الطيّار جعفر... بأسطولنا البحري في الساحل الشمالي.. قبل أن تتمكن قواتنا البحرية من إسقاط طائرته.. وأسره».

ساد صمتٌ ليس قصيراً، قطعه الجنرال بلهجة صارمة:

«أعتقد الآن.. أصبح الأمر واضحاً أمامك.. وعليك أن تختار بين الأرض وبين حياة أخيك».

لم يتوقع علي أن يأتي يوماً يجد نفسه في اختبار كهذا، لذا فقد بدا كغزالٍ ضلّ طريقه في غابةٍ، وحاصرته دائرة من الضباع، وعليه أن يتخذ القرار في لحظةٍ واحدة.

نهضَ الجنرال من كرسيه، وراح يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً، بخطواتٍ ثقيلةٍ تضرب الأرض بحقدٍ، وقد شبكَ ذراعيه خلف ظهره، ليبدو أمام عليّ بأنه مشغول بأمور أخرى. صمتٌ ثقيل كليلٍ موحش. فجأة قطع الجنرال سيره، ووقف رابضاً عند رأس علي الذي استقر بين كفيه المرتعشتين.

«ها.. ماذا قلت؟.. الأرض أم حياة أخيك؟»

تداركَ علي حالة ضعفه، فأجابَ بكبرياء توحي بأنه لم يكن حائراً في اتخاذ القرار، وقال وهو يتطلع في عينيّ الجنرال بنظرةِ غزالٍ أنشب قرنيه الرهيفين في صدر الضبع:

«أختارُ حياة أخي».

ثم أضافَ بثقةٍ أكبر:

«طبعاً».

أطلقَ الجنرالُ ضحكةً غير واثقةٍ من زهوها، ربما فوجئ بقرار علي، وربما كان يطمح إلى غير هذا القرار، فأفلتَ الصيدُ من دائرة فخاخ سعاره الدموي. تطلع إلى عليّ بإعجابٍ لم يستطع إخفاءه. مدّ يده مصافحاً، فنهض علي ماداً أطراف أصابعه بمصافحةٍ باردة. حكّ الجنرال أسفل ذقنه العريضة ماطاً عنقه إلى أقصاها، مسبلاً جفنيه المجعدين، وقال بهدوء:

«ألم أقل لك إن الزمان قد تغيّرَ؟.. فها أنت الآنَ يا صديقي.. تصحح الخطأ الذي ارتكبه هاشم.. حينما سلّم ولده...»

توقف وهو يفركُ صدغيه بأصبعيه، كأنه يحاول أن يتذكر كلمةَ نسيها، ثم استأنف كلامه:

«سلّمَ ولده.. ولده.. فلذة كبدهِ.. سلّمه للموت.. حفاظاً على غرورهِ الفارغ».

شعرَ علي بشيء من المهانة، يحاول الجنرال أن يوجهها إليه بالإساءة إلى تأريخ عائلته من خلال الحقد على هاشم. انتفضتْ غيرته، فقالَ موضحاً الأمر كثأرٍ لكرامته:

«حياة أخي الآن مسؤوليتي وحدي.. أما الأرض فمسؤولية شعب».

صمتَ قليلاً، ثم أضاف بنبرة أكثر حماساً:

«حياة أخي إن ذهبت لن تعود.. ولكن الأرض باقية.. وإنْ سلبتْ ستعود.. ستعود لأهلها حتماً».

أصغى الجنرال إلى ما قاله عليّ باهتمام، ولاحتْ على وجهه سحنةٌ سوداء. استغل علي صمته فتطلع في عينيه، وأطلق سهم ثأره:

«لستُ مرتزقاً ذليلاً.. أذهبُ حيث يشاء الآخرون.. وأرتكب المجازر من أجل مصالحهم الدنيئة في استغلال ثروات الشعوب».

طأطأ الجنرال رأسه، ثم أدار ظهره إلى علي، وعاد بتمهلٍ إلى كرسيه.

جلسَ وهي يفرك جبهته، ثم قال دون أن يرفع نظره عن سطح المكتب:

«سأبلغ القيادةَ بموافقتك.. لترتيب أمر إطلاق سراح أخيك».

نهض علي واتجه نحو الباب، دون أن ينطقَ بتحيةٍ، وقبل أن يغادر الغرفة، سمع صوت الجنرال يخاطبه:

«بلّغ سلامي إلى هاشم إنْ زرتَ قبره.. وقلْ له.. لقد عدنا».

لم يلتفت علي، بل فتح الباب وغادر مسرعاً.

عند باب مركز قيادة الإحتلال الخارجي، وعلى جانب الطريق العام نُصبت سقيفةٌ خشبيةً، محاطة بجنود غرباء، يقف تحتها المراجعون والباحثون عن أبنائهم المفقودين، والعملاءُ الذين تكاثر عددهم في الأيام الأخيرة طمعاً بما كانت قيادة الاحتلال تقدمه إليهم من أجور عالية لقاء ما كانوا يقدمونه إليها من وشايات أو معلومات عن سكّان المدينة. أبطأ علي في مشيه، فرأى وجوهاً كثيرةً كانت حتى الأمس أليفة، لكنه الآن يراها مسمولةَ العيون، مطموسةَ الملامح، لا يظهر منها واضحاً سوى أنيابٍ طويلةٍ، تدلّت خارج أفواهها. كان من بين تلك الوجوه بعض من رفاقه في الحزب، وإمام الجامع الكبير، وأبو سلافة، وبندر ابن الحاج رضا، وعامر ابن عفتان، وجبير ابن الغواص.... وعقيل كذلك.

شهر مرّ على وفاة محمد.

عاد عليّ إلى بيتهِ بمشاعرَ محايدةٍ.. بلا فرحٍ.. بلا حزنٍ.. بلا ندم.. وبلا عليّ أيضاً. لمحَ حسيناً جالساً على عتبة الدار. اقترب منه ببطء، فرآه ساهماً، يعتصرُ عنقهُ ويأخذُ حفنةً من الفراغ، يضم قبضته عليها، ثم يرميها نحو السماء. وقف علي يراقب ولده، وهو يكرر لعبته. سأله بحزنٍ:

«ماذا تفعل؟»

ردّ حسين دون أن ينظرَ إلى وجه أبيه:

«أرمي الطائرات بدمي».

ثم تطلع إلى وجه أبيه بنظراتٍ بريئةٍ تتوسل أن يصدّقها أحد، وسأل أباه:

«يا أبي.. ألا ترى دمي؟»

«أين؟»

سألَ عليّ بذهول، فردّ حسين وهو يشير بإصبعه:

«دمي المعلّقَ في الفضاء».

جلسَ عليّ قبالة ولده وراح يتطلع إليه بانكسارٍ. لم يُفاجأ حينما رأى ولأول مرةٍ، قلادةَ الدمِ التي طوّقت عنقَ حسين.

أجهش عليّ في البكاء.

كتبت الرواية بين ٢٠١١/٣/٦ و٢٠١٢/٦/٢١

* * *

الفهرس

القسم الأول ٧
(١) ٩
(٢) ٢٣
(٣) ٣١
(٤) ٥٣
(٥) ٧١
(٦) ٩٨
(٧) ١١٩
(٨) ١٢٥
(٩) ١٤٠
(١٠) ١٦٢
(١١) ١٧٥
(١٢) ١٩٨
القسم الثاني ٢٠٧
(١) ٢٠٩
(٢) ٢٢١

(٣) ٢٣٢
(٤) ٢٣٦
(٥) ٢٤٢
(٦) ٢٤٨
(٧) ٢٦٤
(٨) ٢٧٨
(٩) ٢٨٣
(١٠) ٢٩٣
(١١) ٣١١
(١٢) ٣١٩
(١٣) ٣٣٨
(١٤) ٣٥٦
(١٥) ٣٧٠
(١٦) ٣٧٩
(١٧) ٣٩٦
(١٨) ٤٠٩
(١٩) ٤٢١
(٢٠) ٤٢٩
(٢١) ٤٤١
(٢٢) ٤٥٤

(٢٣) ٤٦٠
(٢٤) ٤٧٣
القسم الثالث ٤٨٣
الفهرس ٥٤١

هذا الكتاب

انشغلَ الناسُ بأمر المخطوطات، لا حباً بما حوتْه أو فضولاً للمعرفة، بل هوس في السرّ الذي لا يعرفه أحد لتعليق ما لا يجدون له تفسيراً عليه. تناقلت الألسنُ أخباراً لا يمكن للمرء أن يفصل فيها بين الحقيقةِ والخيال أو بين حكمةٍ وسفاهة، خاصة وأن الشائعات قد تناقلتها أفواه الناس بمختلف أصنافهم ومشاربهم، وعلى الرغم من أن القلة منهم مَنْ كان يشغله ما حوته المخطوطات، غير أن أغلبهم كان يعزو النجاح الذي حققه محمد في حياته العملية يعود الى السرّ الذي يكمن مفتاحه في المخطوطات.



